



للمحورث والتحريرات الكمبيوترية

اصبهان

مركز
للغات الكمبيوترية



عليه السلام
الربيع

www.ghaemiyeh.com
www.ghaemiyeh.org
www.ghaemiyeh.net
www.ghaemiyeh.ir

الطفل

١-٢

بين الوراثة والتربية



تأليف:
محمّد تقي الفلّالفي

محمّد تقي الفلّالفي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطفل بين الوراثة والتربية

كاتب:

محمد تقي فلسفي

نشرت في الطباعة:

دار التعارف للمطبوعات

رقمي الناشر:

مركز القائمة باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

5	الفهرس
34	الطفل بين الوراثة والتربية
34	هوية الكتاب
34	المجلد 1
34	اشارة
38	كلمة المترجم
40	المحاضرة الاولى: حول الذنب - حرية التعلم
40	اشارة
40	تمهيد : وسائل القرب المعنوي من الله :
41	التقوى :
42	معالجة الانحراف :
43	هدف القرآن :
44	إنهيار المجتمع :
45	ما هو الذنب :
45	جزاء التخلف عن القوانين :
48	إنحطاط البشرية :
49	التفكير في الذنب :
51	نتائج الذنوب :
52	الجزاء الآجل :
53	الجزاء العاجل :
54	يوم الجزاء :
54	الآثار الوخيمة للذنوب :
55	البؤس والحرمان :

57	وراء طلب العلم :
57	الإسلام دين العلم والمعرفة :
58	حسن الاقتباس :
59	إتباع العقل :
61	المحاضرة الثانية: الآراء البشرية حول السعادة - الاسلام والسعادة
61	اشارة
61	السعادة :
62	المبدأ النفسي :
63	السعادة في المدنية الحديثة :
64	المبدأ الاقتصادي :
66	مبدأ اللذة :
70	مبدأ الواقع :
71	حجر الأساس في السعادة :
73	الجهد البشري :
74	استغلال القوى الطبيعية :
76	الرهبانية :
77	الاستجابة للغريزة الجنسية :
77	السعي وراء اللذة :
79	إرضاء الميول الغريزية :
80	تجاوز حدود الفطرة :
81	تعادل الروح والجسد :
83	المحاضرة الثالثة: السعادة والشقاء في رحم الأم
83	اشارة
83	معنى السعادة والشقاء :
84	قانون الوراثة :

85	عامل الوراثة :
87	الوراثة قبل تطورها :
88	الشذوذ عن قانون الوراثة :
89	(1) التغيرات الحاصلة في وضع الجينات :
90	(2) الوراثة عن الأجيال البعيدة :
91	الصفات المختفية :
92	الاعجاز العلمي للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) :
92	الحديث الأول :
93	الحديث الثاني :
96	العوامل المساعدة :
97	الشرف الموروث :
98	الأسر المنحطة :
99	إختيار الموظفين الأكفاء :
101	الجنون :
101	الحمق والبلادة :
102	شرب الخمر :
104	تعقيم المجانين الخمرين :
105	المصير :
107	المحاضرة الرابعة: دور الأم في بناء الطفل - النمو الناقص في أثناء الحمل ..
107	اشارة ..
108	الخلية التناسلية الكاملة :
109	منشأ ظهور الطفل :
110	المرحلة الأخيرة للتكوين :
111	أثر غذاء الأم في الجنين :
113	الغذاء والجمال :

114	الحوادث غير المتوقعة :
115	طهارة المولد :
115	مصدر السعادة والشقاء :
116	العاهات العضوية :
117	الهندام :
117	الجهاز الهضمي :
118	من قضاء الامام علي عليه السلام :
119	الانحرافات الكامنة :
121	الغفلة عن الانحرافات الروحية :
122	إتصال الجسد بالروح :
123	تأثير الجسم في الروح :
124	تأثير الروح في الجسم :
126	الأمراض النفسية :
126	مظاهر الأمراض النفسية :
128	تأثير السلوك في الجسم :
129	تأثير حالات الأم على الجنين :
131	الامراض الوراثية :
131	السنن الآلهية :
132	الانقياد للقوانين والسنن :
134	الأطفال المنحرفون :
135	المحاضرة الخامسة: حول القضاء والقدر - الأطفال اللاشعريون
135	اشارة
135	ركنا السعادة :
136	معنى القدر :
137	الجبر والتفويض :

138	إرادتنا واختيارنا :
139	الأمر بين الأمرين
140	القضاء الالهي :
141	حرية البشر :
142	للإنسان أن يقرر مصيره :
143	الوراثة والتربية :
144	المصير الحتمي :
145	التربية والبيئة :
146	الصفات القابلة للتغيير :
148	المصير اللامحتم :
149	تغلب التربية على الوراثة :
151	ظهور الاستعدادات الكامنة :
151	التربية للجميع :
153	الأطفال المنحرفون :
154	الاختلاط اللامشروع :
154	الأطفال اللاشرعيين :
156	الزواج القانوني :
156	إرتياع البال :
157	النطفة الطبيعية :
158	النقل القانوني والتهريب :
159	الخروج على القانون :
161	الأمهات العفيفات :
161	المراقبة التربوية :
162	مراقبة أشد :
164	المحاضرة السادسة: النظام الطبيعي في الأحياء التعليم والتربية في عالم الإنسان ..

164	 إشارة
164	 إمتياز الانسان عن سائر الأحياء :
165	 الأعضاء اللازمة للحياة :
166	 استخدام العضو :
166	 التكامل البشري :
167	 الموجودات المجهرية :
168	 المستقبل الوضاء :
169	 عالم الخلية :
171	 القيام بالواجب في الخلية :
172	 الجنين المختبري :
173	 الهداية الالهية في عالم الخلية :
175	 جهاز التفقيس :
176	 سر الحياة المجهول :
177	 حشرة الأموفيل :
178	 الخصائص المشتركة بين الانسان والحيوان :
179	 خواص الانسان :
179	 قيمة التربية :
180	 معرفة النفس :
181	 إحياء الميول المعنوية :
181	 الانحراف عن طريق الفطرة :
182	 المدنية والأمراض الروحية :
184	 إزدیاد الجرائم والجنايات :
185	 الافراط في الشهوة :
187	 حيوان في لباس إنسان :
188	 إحياء الانسانية :

188	ديوان الفطرة :
189	ملجأ البشرية :
190	جسد الطفل وروحه :
191	أعظم مربى للبشر :
193	المحاضرة السابعة: العقل والحرية - تنمية المشاعر
193	اشارة
193	العقل بدل الغريزة :
194	المقارنة بين العقل والغريزة :
195	الغريزة وإدراكها للواقع :
196	إختلاف البشر :
197	قصور العقل :
197	حرية العقل :
198	الحرية الفطرية :
199	الصراط المستقيم :
200	إلهام الخير والشر :
201	حسن الاختيار :
202	روح الله :
202	قابلية الائتمار والانتهاه :
205	أثر التربية في الحيوان :
206	تنمية الأفكار :
208	العواطف والمشاعر :
208	دور العقل والعاطفة :
209	تزيكية النفس :
211	تنمية العقل والعاطفة :
213	العلم في ظل الايمان :

213	التربية السليمة للطفل :
214	قلب الطفل صفحة بيضاء :
216	المحاضرة الثامنة: تغذية الجسد والروح .
216	اشارة .
216	طول مرحلة الطفولة عند الانسان :
218	التغذية السليمة :
218	غذاء الروح :
219	خطر الجوع :
220	طريق تغذي الجسم :
221	طرق تغذي الروح :
221	سلامة الطعام ونظافته :
222	الأطعمة المفيدة والمضرة :
224	أثر الطعام في روح الانسان :
225	شرب الدم والقساوة :
225	الخمر والاجرام :
227	أهمية التغذية في الطفل :
229	الانحرافات الخلقية عند الطفل :
231	التغذية السليمة :
231	أ - النخالة :
232	ب - الخضروات :
233	العلاج بالغذاء :
235	تبادل المواد الغذائية :
236	الروح الضعيفة :
237	قابلية المقاومة :
239	النمو السريع للطفل :

240	 مسؤولية الوالدين :
242	 المحاضرة التاسعة: دور الأسرة في التربية .
242	 اشارة .
242	 ميول الروح والجسد :
243	 إرضاء جميع الميول :
244	 دقائق قلب الأم :
244	 نقص التربية في رياض الأطفال :
246	 تربية اليتيم :
247	 اليتيم في أحضان الأسرة :
251	 المدرسة الأولى :
253	 الأطفال الممتازون :
254	 نوايغ العالم :
255	 رسل السماء :
255	 الخصائص الفردية :
256	 مسايرة التربية للفترة :
258	 الأسر الشريفة والأسر المنحطة :
260	 إنهيار الأسر الشريفة :
263	 المحاضرة العاشرة: المعرفة الفطرية
263	 اشارة .
263	 الوجدان :
264	 محكمة الوجدان :
266	 الدين والفترة :
267	 إحياء الفترة :
267	 الفرق بين التذكير والتعليم :
268	 الأساس الرصين للفترة :

270	 مطالعة كتاب الخلقة :
270	 (1) إدراك القدرة اللامتناهية :
272	 (2) ربط المعلول بالعلة :
274	 1 - الأثر يدل على المؤثر :
274	 2 - المعرفة الاجمالية والايمان التفصيلي :
275	 3 - عدم تقدير الجهود :
276	 4 - المهندس القدير والصدفة العمياء :
279	 الانحراف عن طريق الفطرة :
280	 التفسير الخاطئ للصبر في الاسلام :
281	 فرويد والفطرة :
283	 منشأ عقدة الحقارة عند فرويد :
284	 رد الفعل لعقدة الحقارة :
284	 إنكار الفطرة :
287	 المحاضرة الحادية عشرة: الوجدان الأخلاقي
287	 اشارة
287	 فطرية الوجدان الأخلاقي :
288	 الاسلام والوجدان الأخلاقي :
289	 الوجدان الفطري والتربوي :
290	 نظرية فرويد واتباعه :
292	 عدم نصح كلمات فرويد :
293	 إنكار الوجدان الفطري :
296	 تحليل أسطورة قتل الأب :
296	 الفطرة وراء ستار الشهوة :
297	 الندم على القتل :
297	 الحالات غير الطبيعية :

299	تراجع فرويد عن عقيدته :
300	حادثة القتل الأولى في تاريخ الانسان :
300	إنطفاء الوجدان :
302	قيح الخيانة :
304	الدعوة على أساس الفطرة :
304	عدالة الوجدان :
305	الميثاق الفطري :
306	إطاعة الوجدان الأخلاقي :
310	المحاضرة الثانية عشرة: الاختبار النفسي
310	إشارة
310	العقدة النفسية :
310	الضمير الباطن والظاهر :
312	رقابة الضمير الباطن :
313	طرق اكتشاف السر الباطن :
314	أما فرويد :
315	فلتات اللسان :
318	الأحلام وتفسيرها :
320	الاسلام والأحلام :
321	التحليل النفسي قبل فرويد :
322	تحرير الضمير الباطن :
324	التحليل النفسي في الاسلام :
325	أ - ربط الحلم بالعواطف :
325	ب - الرموز والكنائيات في الحلم :
328	نصيحة في نقل الحلم :
328	فرويد ونظريته البتراء :

330	الحقائق المجهولة :
334	المحاضرة الثالثة عشرة: تعديل الميول - الفرار من تعذيب الضمير
334	اشارة .
334	قوتان باطنيتان :
335	قيادة الغرائز :
336	طغيان الغرائز :
337	الوجدان والغرائز :
338	عبادة الهوى :
340	الوجدان وتعديل الهوى :
341	التعامل على أساس الوجدان :
342	سعادة المجتمع :
342	جزاء مخالفة الوجدان :
343	جنون ضابط شاب :
346	الرشد وغادر :
348	على مفترق الطرق :
351	الهدوء النفسي :
352	1 - خطر اليأس :
352	2 - إتهام الأبرياء :
353	3 - غفران الذنوب :
354	1 - الاقرار بالذنب :
354	2 - رجاء المغفرة :
355	3 - الندم وطلب المغفرة :
356	الايمان وتدارك الخطأ :
358	المحاضرة الرابعة عشرة: التربية على أساس الايمان
358	اشارة .

358		الأساس الأول للتربية :
359		القوانين الطبيعية من سنن الله :
361		العالم في نظر الالهيين والماديين :
362		الايمان وإحياء الفطريات :
363		طغيان الغرائز واندحار الوجدان :
365		العقل والغرائز :
365		العلم والغرائز :
365		غلبة الغريزة على العلم :
367		الهمجية في لباس التمدن :
368		أوهام فرويدية :
369		التمدن الفاقد للإيمان :
370		النوايا الصالحة :
372		العمل المستند إلى الايمان :
372		الرياء والتظاهر :
374		الايمان والقيام بالواجب :
374		الايمان وتعديل الغرائز :
375		الايمان والعزم :
376		الايمان والهدوء النفسي :
376		مرض القلق :
377		الايمان وعلاج القلق :
378		الاحاد والقلق :
379		إيمان الأنبياء :
380		إحياء الفطرة الأولى :
382		المحاضرة الخامسة عشرة: التربية في ظل العدل والحرية
382		اشارة

382	حب الكمال :
383	التكامل في ظل الحرية :
384	المقارنة بين الأسرة والدولة :
385	الاستبداد والتعنت :
385	الفرق بين الحرية والاستبداد :
386	1 - الحرية والهدوء النفسي :
387	الانقياد بسبب الخوف :
387	الانقياد في ظل الحرية :
388	العدالة في الأسرة :
389	نتيجة الاستبداد :
390	2 - الخوف من العقاب :
390	الاسلام والأمن :
391	أ - الخوف من الله :
392	ب - الخوف من الحكومة :
393	النبي العطوف :
393	الحكومة الحرة للامام علي (عليه السلام) :
394	خوف الطفل من الذنب :
395	خوف الطفل من الأب :
396	دية اللطم والعقوبة البدنية :
397	جزاء الوالد السيء الخلق :
398	3 - الدوام في ظل العدل :
398	الحكام الجائرون :
399	بنو أمية واعتداءاتهم :
400	بقاء الأسرة في ظل العدل :
401	4 - تقسيم العمل والكفاءة :

402	العمل في الدولة الاستبدادية :
402	العمل في الحكومة القانونية :
403	الأسرة والحرية :
403	تجانس الدولة والأسرة :
405	فهرس المحتويات
419	المجلد 2
419	هوية الكتاب
423	المحاضرة السادسة عشرة: مسؤولية الوالدين في تربية الطفل - الوفاء بالعهد
423	اشارة
424	ضمان معيشة الأطفال :
424	تربية الطفل فريضة دينية :
425	الأب الخائن :
427	تنمية الإيمان :
429	نقض العهد :
431	الحقوق الإسلامية والحقوق البشرية :
432	الوفاء بالعهد :
433	أمان من جندي :
434	الاتفاقيات الاقتصادية :
434	سند العشرة آلاف درهم :
435	المتهم البريء :
437	أثر الوفاء بالعهد :
437	الحياة على أساس الفضيلة :
438	تنمية الوفاء بالعهد عند الطفل :
439	المدرسة الأولى للطفل :
440	تنمية الفطريات عند الطفل :

442	 التهم الباطلة :
444	 تأثير كلام المعلم :
446	 المحاضرة السابعة عشرة: تدريب الطفل على الصدق
446	 اشارة
446	 الصدق :
447	 أسوأ من كل سوء :
448	 مفتاح الجرائم :
448	 شرب الخمر والكذب :
449	 تنمية الصدق في الحديث :
450	 أساس داء الكذب :
451	 الضعف والظلم :
451	 الحقارة والكذب :
452	 داء الكذب :
453	 عوامل ظهور الداء :
453	 أساليب وقائية :
455	 الاعتدال في العبادة :
456	 تحقير الطفل :
457	 رد الفعل للحقارة :
458	 الخوف من العقوبة :
459	 اسداء النصيحة للطفل :
460	 الكاذب والكذاب :
461	 فن الخديعة :
462	 الكذابون الماهرون :
463	 المحيط التربوي :
464	 داء الكذب :

465	الصدق والنجاة :
468	المحاضرة الثامنة عشرة: احترام شخصية الناس - احترام شخصية الطفل ..
468	اشارة ..
468	غريزة حب الذات :
469	احترام الناس :
470	غضب الانصار :
471	رعاية العواطف :
472	آداب الصعبة :
473	سلوك قادة الإسلام :
474	احياء شخصية الطفل :
475	التكامل النفسي للطفل :
476	الطفل إنسان واقعي :
476	الرشد المعنوي للطفل :
477	غريزة اللعب عند الطفل :
478	اللعب وحس الابتكار :
479	ارشاد الطفل :
480	عناد الطفل :
480	الطغيان الناشيء من التحقير :
481	شرف النفس والاستقامة :
483	تحقير الطفل :
484	رد الفعل :
486	الشعور بالاستقلال :
490	المحاضرة التاسعة عشرة: الإسلام وتكريم الطفل ..
490	اشارة ..
490	الأطفال المعقدون :

492	أهمية تربية الطفل :
493	مضار التربية الفاسدة :
493	تهاون بعض الآباء :
495	أحياء شخصية الطفل :
496	مشاعر الطفل الرضيع :
497	أسلوب النبي في تربية الطفل :
498	الرسول الأعظم وأطفال الناس :
499	الرسول الأعظم والحسن عليه السلام :
501	إرضاء حب الذات عند الأطفال :
503	بذر الفضائل في نفس الطفل :
504	رد السلام إلى الطفل :
504	بدء الأطفال بالسلام :
505	المساواة بين الأطفال :
505	أمل الطفل :
507	انتقام الطفل :
508	تدارك المشاكل :
508	مشاركة الطفل في لعبه :
510	استحباب اللعب مع الطفل :
511	إدراك نفسية الطفل :
511	استغلال الفرص :
512	كسب قلوب اليتامى :
513	المحاضرة العشرون: العقل والعواطف - تنمية عواطف الطفل
513	إشارة :
513	العواطف :
514	الفرق بين العقل والعاطفة :

- 517 العدل والاحسان : ..
- 518 العدالة وجزاء المعتدي : ..
- 519 العلم والعواطف : ..
- 519 إرضاء عواطف المريض : ..
- 520 قيمة الطبيب : ..
- 521 عيادة المريض : ..
- 522 قيمة الأخلاق : ..
- 524 رعاية العواطف : ..
- 525 توجيه المشاعر : ..
- 526 اختلاف عواطف الناس : ..
- 527 إختلاف طبائع الأطفال : ..
- 528 المشاعر الشاذة : ..
- 529 الحب حجاب العقل : ..
- 530 مناعة الطفل : ..
- 531 العطف على الصغير : ..
- 532 تقبيل الطفل : ..
- 533 العطف في ظل الإيمان : ..
- 534 الحاجة الى العطف فطرية : ..
- 534 حرمان اليتيم من العطف : ..
- 536 أمانة الإنسانية : ..
- 537 المحاضرة الحادية والعشرون: تنمية الإيمان في نفس الطفل
- 537 تنمية الإيمان : ..
- 538 الحقائق غير القابلة للقياس : ..
- 539 الجماليات : ..
- 541 الانتصارات العلمية : ..

542	قصور العلم :
544	الإيمان بالله :
545	الصلاة والاستقرار النفسي :
546	المناجاة :
547	مشعل الإيمان الوضاء :
549	دين تجاه الأطفال :
549	حق المعلم :
550	ضرورة التربية الإيمانية :
551	أثر الإيمان في الطفل :
552	المبادرة الى تنمية الإيمان :
553	أساس تقدم الإنسان :
553	محاسبة النفس :
554	المناجاة في السحر :
555	الآثار النفسية للمناجاة :
556	العبادات التمرينية :
557	دعاء الطفل :
558	مثال الإنسان الكامل :
560	شجاعة علي :
560	الإيمان والنفس المطمئنة :
561	الحكومة واقامة الحق :
562	التألم من الظلم :
562	وصية على فراش الموت :
563	المحاضرة الثانية والعشرون: عقدة الحقارة .
563	اشارة .
563	الإحساس بالحقارة :

- 564 إنهيار الشخصية :
- 565 العاهات العضوية :
- 567 التحقير والسخرية :
- 568 القاضي الدميم :
- 569 تدارك النقص :
- 570 النظرة المؤلمة :
- 572 البحث عن عيوب الناس :
- 572 الاسم القبيح :
- 573 الإسم الجميل :
- 575 تبديل الأسماء القبيحة :
- 576 بين معاوية وجارية :
- 577 قبح الاسم والمنظر :
- 578 العيوب غير القابلة للعلاج :
- 580 الكنية :
- 580 الأثر النفسي للاسم واللقب :
- 582 الألقاب المحتقرة :
- 582 الحذر عن تحقير الناس :
- 583 السمة السيئة والحرمان :
- 585 المحاضرة الثالثة والعشرون: الإفراط في المحبة.
- 585 إشارة .
- 585 الإعتدال في المحبة :
- 586 خطأة تربية :
- 587 الأطفال المدللون :
- 588 الإفراط في المحبة :
- 589 العواطف التافهة :

590	الطفل المتعنت :
590	العجب بالنفس :
592	إقتباس العادات :
594	أساس السلوك :
595	كيف نوازن في المحبة؟
595	العناية بالطفل في مرضه :
596	تمارض الطفل :
597	اللحظات الحاسمة :
599	الميول المضرة :
600	تقبل التربية :
601	بين الخوف والرجاء :
602	توقع الملاح :
603	الحذر من العجب بالنفس :
604	الأطفال المدللون :
605	الإنهيار الخلقي :
607	ضعف النفس :
607	درس الجلد والثبات :
609	المحاضرة الرابعة والعشرون: الاعتماد على النفس
609	اشارة
609	الشعور بالمسؤولية :
610	الاعتماد على النفس :
611	المسؤولية الفردية :
612	النهى عن الإعتماد على الناس :
613	القدرة على المقاومة :
613	الفرار من المسؤولية :

614	الأولاد الصالحون :
615	ضعف الطفل :
615	التكامل التدريجي :
617	إحياء فطريات الطفل :
617	الإفراط في فسح المجال :
618	الوالدان المتمزمان :
619	المساعدة المعقولة :
620	التشجيع والتوبيخ :
621	التأديب في الصغر :
622	ظهور الاستعدادات :
622	النشاط الفردي :
623	ركيزة السعادة :
623	التفاخر بالآباء :
624	الإنكسار على الأمل :
625	1 - الطفلة الجريئة :
626	2 - الصبي الخطيب :
626	الشعور بالاستقلال :
627	التكامل الفردي والاجتماعي :
628	الإنكسار على الله :
629	الإنكسار على النفس :
630	الإنكسار على الله :
631	طاقة الإنسان المحدودة :
632	التشاور والعزم والتوكل :
634	المحاضرة الخامسة والعشرون: الحياء المحبذ والحياء غير المحبذ.
634	إشارة.

- 634 الخجل المفرط :
- 635 تألم الروح :
- 635 الحياء المعقول وغير المعقول :
- 637 الأثر الاجتماعي للحياء :
- 638 القيام بالواجب :
- 639 الجزاء :
- 640 الإيمان والإنقياد للقانون :
- 641 الخوف من اللوم :
- 642 وقع الاستكار :
- 643 إنحراف المجتمع :
- 644 التظاهر بالذنب :
- 644 إنحراف المجتمع :
- 647 تنمية الحياء عند الطفل :
- 648 المدح والثناء :
- 650 سلوك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الثناء :
- 651 المدح بالإستحقاق :
- 653 طريق التقدم :
- 655 نموذج عن الإستحسان :
- 656 عاملان لسرعة الإنفعال :
- 657 حماية الفقراء :
- 658 التوصيات الخلقية :
- 658 الإنحطاط العائلي :
- 661 المحاضرة السادسة والعشرون: تعديل الميل الجنسي
- 661 اشارة
- 661 العفة :

- 662 الغرائز والحرية المطلقة :
- 663 تركية النفس :
- 664 الدين والمدنية :
- 665 الحريات المضرة :
- 666 الأحرار :
- 667 الميول الحيوانية والميول الإنسانية :
- 668 العفة الجنسية :
- 669 ينبوع الحب :
- 671 تنمية مواهب الطفل :
- 671 الإنسجام بين التربية والطبيعة :
- 673 المنهج الإسلامي :
- 675 المناظرة المثيرة :
- 676 جزاء التخلف :
- 677 النضج الجنسي السابق لأوانه :
- 678 النمو في الأعوام المختلفة :
- 680 الغدد الداخلية والهورمونات :
- 680 هورمونات البلوغ :
- 681 اختلاف الظروف الطبيعية :
- 682 الاختلافات الهورمونية :
- 683 الإنحراف الجنسي :
- 684 المناظر المنافية للعفة :
- 685 الرغبات والاستيلاءات :
- 686 الميول المكبوتة :
- 688 المحاضرة السابعة والعشرون: تدارك الحقارة
- 688 اشارة

688	التربية الفاسدة :
690	رد فعل الحقارة :
691	الصراع الداخلي :
691	تدارك النقص :
693	الانتقام :
694	نماذج للانتقام :
695	الإفراط في المحبة :
695	الأطفال المحرومون :
697	السخرية والإستهزاء :
698	النفاق :
700	النقد اللاذع :
701	الرقابة العامة :
703	رجال لا يندحرون :
704	العجز حافز للتقدم :
704	التغافل عن النقص :
705	الإنزواء عن المجتمع :
706	الطفيليون :
706	ألم الإنزواء :
708	إشاعة عيوب الناس :
710	أفضل طرق المقاومة :
712	المحاضرة الثامنة والعشرون: الأساس النفسي للتكبير .
712	إشارة .
712	التكبير :
713	التوقعات المعقولة :
713	التجاوز عن الحد :

- 715 إحتقار الناس :
- 716 التجبر :
- 717 في جميع الطبقات :
- 717 العرب قبل الإسلام :
- 718 نموذج للتكبر :
- 719 الأحلام التي لا تتحقق :
- 720 الأنانية :
- 721 الأنانية عند الأطفال المعقدين :
- 722 تربية الأطفال المعقدين :
- 723 الغرور في صورة إجرام
- 724 المدح من غير استحقاق :
- 725 الفشل :
- 726 أمانة النقص :
- 726 حل العقد النفسية :
- 727 التكبر وظلمة العقل :
- 728 في العلم الحديث :
- 729 المجنون حق الجنون :
- 729 التكبر وضعف العقل :
- 730 فقر الإنسان وحاجته :
- 731 النصائح المناسبة :
- 732 درجة من الإلحاد :
- 733 الخلاصة :
- 734 المحاضرة التاسعة والعشرون: الاعتدال في التواضع
- 734 اشارة
- 734 التواضع :

735	نكتان مهمتان :
736	التواضع المذموم :
736	أساس الحكومة الإسلامية :
738	غريزة حب الذات :
739	المشاعر المتناقضة :
739	عوامل التناقض :
740	1 - الشعور بالنقص :
741	2 - الحرمان المادي :
742	الفقراء المتعففون :
743	3 - التأخر العلمي :
744	4 - الإجمام :
745	5 - طلب الجاه بلا كفاءة :
746	الشفاء والمناصب :
747	الشرط الأساسي للتواضع :
748	تجنب الذلة :
748	التواضع في التعلم :
750	المحاضرة الثلاثون: علاج القلق والحقارة
750	إشارة
750	إتحاد النفس والبدن :
751	عوارض القلق :
752	خسائر الأمراض الروحية :
753	القلق ومرض الجسم :
754	مكافحة القلق :
755	المنهج العلمي والمنهج الإسلامي :
756	التفاضل والتشاؤم :

756 الإيحاءات المؤلمة :

757 علاج الشاؤم :

759 مفترق الطرق :

759 المؤمنون الأحرار :

760 اسلوب العلاج :

761 الإيحاءات المشجعة :

762 نموذج تطبيقي :

765 فهرس المحتويات :

779 تعريف مركز :

الطفل بين الوراثة والتربية

هوية الكتاب

المؤلف: الشيخ محمد تقي فلسفي

المحقق: فاضل الحسيني الميلاني

الناشر: دار التعارف للمطبوعات

الطبعة: 3

الموضوع : علم النفس والتربية والاجتماع

تاريخ النشر : 1403 هـ.ق

الصفحات: 410

نسخة غير مصححة

الطفل بين الوراثة والتربية

تعريب: فاضل الحسيني الميلاني

محمد تقي الفلسفي

ص: 1

المجلد 1

إشارة

الطفل بين الورثة والتربية

محمد تقي الفلسفي

الجزء الأول

ص: 3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص: 4

كلمة المترجم

الطفل هو اللبنة الأولى في المجتمع ... إن أحسن وضعها بشكل سليم ، كان البناء العام مستقيماً مهما ارتفع وتعاضم ...

الطفل هو نواة الجيل الصاعد ، التي تتفرع منها أغصانه وفروعه ...

الطفل هو الرافد الذي يمد بركة المجتمع بالرصيد الاحتياطي دائماً.

وكما أن البناء يحتاج إلى هندسة وموازنة!

وكما أن النواة تفتقر إلى التربة والظروف المناسبة!

وكما أن الرافد يعوزه إصلاح وتنظيف مجار!

كذلك الطفل فإنه يحتاج إلى هندسة وموازنة بين ميوله وطاقاته ، ويفتقر إلى تربة صالحة ينشأ فيها وتصلق مواهبه ، ويعوزه تنظيف لموارد الثقافة التي يتلقاها ، والحضارة التي يتطبع عليها ، والتربية التي ينشأ عليها!!!

إنه عالم قائم بنفسه ... يحمل كل سمات الحياة بصورة مصغرة ، في صخبها وأمنها ، في سعادتها وشقائها ، في ذكائها وبلادتها ، في صفائها وحقدتها ، في تفوقها وتأخرها ، في إيمانها وجحودها ، في حربها وسلمها ...

وهذا ما أشغل العلماء والباحثين ، فراحوا يعدون البحوث ، ويلقون المحاضرات ، ويؤلفون الكتب ، ويوردون النظريات في مسألة (تربية الطفل).

ونشأ من بينهم عدة ترى أن سلوك الطفل مرتبط بالعوامل الوراثية التي يحملها بين جوانحه وفي (كروموسوماته) ...

ورأى عكس ذلك آخرون ، فأرجعوا كل أنماط السلوك الفردي والإجتماعي إلى

البيئة والمحيط ، والتربية والتنشئة. وأنكروا كل أثر إلى الوراثة ينسب ... حتى أدعى العالم النفساني الأمريكي (واتسون) دعواه التي لم يسندها بدليل حيث قال :

« أعطني إثني عشر طفلاً ، وهبىء لي الظروف المناسبة ، أجعل ممن أريد منهم طبيباً حاذقاً ، أو أستاذاً قديراً ، أو مهندساً بارعاً ، أو رساماً ... وحتى لو شئت لصاً أو شحاذاً ... »

وبلغ الخصام بين هاتين المدرستين في علم النفس والتربية إلى أنك ما تكاد تفتح كتاباً يتناول موضوع التربية إلا وجدته إلى إحدى المدرستين يميل ، وعن أحد الرأيين يدافع ، مفنداً الرأي الآخر.

ولعلك تسأل : أي الرأيين أصح؟ وأي العاملين في سلوك الطفل أهم : الوراثة أم التربية؟!

فبدلاً من أن أجيبك على سؤالك هذا ، أسأل بدوري أيضاً :

أيهما أهم للسيارة : المحرك ، أم الوقود؟!

تلك مسألة التربية ... والأصح ... مشكلة التربية!! فما هو رأي الإسلام فيها؟ وكم هي درجة خطورة الموقف في النظام الإسلامي الشامل؟!

الجواب عن ذلك تكفل به الكتاب الذي بين يديك ، وهو معرب عن الفارسية. ولقد حاولت في التعريب أن أفي بالمقصود أكثر من تقيدي بالتعبير ، ووجدت من الضروري أن أضيف إلى الأصل بعض التعليقات التي لا بد منها للكتاب في شكله العربي ، وربما جاءت التعليقة ممزوجة بالأصل حيث يبدو تكثير الهوامش أمراً غير مستحسن.

وفي نهاية المطاف أرجو أن يسد هذا الكتاب فراغاً كانت تشكوه المكتبة الإسلامية حول المنهج التربوي للإسلام منذ أمد ...

كما نبتهل إلى العلي القدير في أن يوفقنا لخدمة الأمة الإسلامية ، ويأخذ بأيدينا إلى ما فيه الخير والصالح. إنه سميع مجيب.

النجف الأشرف في 1 / 12 / 1386

فاضل الحسيني الميلاني

ص: 6

قال الله تعالى في كتابه الكريم : (... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (1).

تمهيد : وسائل القرب المعنوي من الله :

اليوم هو أول يوم من شهر رمضان المبارك ... شهر الرحمة ، شهر الغفران ، شهر الألطاف الإلهية الخاصة ... يجتمع المؤمنون والمقبلون على التعاليم الإسلامية القيمة في المساجد بشوقٍ ورغبةٍ شديدين ، ويقفون بين يدي الله تعالى وهم يؤدون الفرائض والسنن الإسلامية ويزدانون بطاعة الله والإنقياد إليه ، وبذلك ليتقربوا إلى الله العظيم زلفى ، ويتنعموا في هذا الشهر برحمته الواسعة التي وسعت كل شيء.

ووسائل التقرب إلى الله عز وجل كثيرة ... كل عمل خيري يؤتى به لوجه الله يمكن أن يقربنا منه ، وكلما كانت قيمة ذلك العمل أعلى ، والإخلاص في نفس الشخص الذي يأتي به أكثر ، كانت دائرة التقرب إلى الله أوسع.

ربما يرغب الكثير منكم أن يعرف أي الأعمال أفضل في هذا الشهر العظيم كي يجد ساعياً في إتيانه والمواظبة عليه ، وبذلك ليحرز رضى الله وليتقرب منه زلفى.

إذا وجهنا هذا السؤال إلى الأفراد العاديين من المسلمين ، سمعنا أجوبةً مختلفةً عليه. فأحدهم يقول : أفضل الأعمال في هذا الشهر قراءة القرآن ، والآخر يقول : إنه

ص: 7

إفطار الصائم ، ويرى آخرون : أفضل الأعمال هو صلة الرحم وعيادة المرضى ، ويظن طائفة : إنه تلاوة الأذكار والأدعية الماثورة ...
والخلاصة أن كل شخص يتوسل بنوع من الأنواع الخيرة ويعتبره أفضل الأعمال في شهر رمضان.

ولننظر إلى ما يقوله الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) !!

التقوى :

في آخر جمعة من شعبان كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يخطب في المسلمين وبين لهم واجباتهم في شهر رمضان ...

« قال علي : فقمتم وقلت : يا رسول الله ، ما أفضل الأعمال في هذا الشهر؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : الورع عن محارم الله »

(1).

لقد رأينا أن أكثر الناس يبحثون عن أفضل الأعمال في جدول الأعمال الخيرة الإيجابية بينما نجد الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) يلفت أنظار المسلمين إلى الجانب السلبي ويعرف أفضل الأعمال في شهر رمضان بالإجتناب عن المعاصي. ولا يخفى أن الملاك في التدين هو نظرة الشرع المقدس ، لا ما يظنه هذا ويراه ذاك. ولأجل أن نبين أهمية الإجتنب عن المعاصي في تحقيق السعادة البشرية ويتضح مغزى كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنسبة إلى أفضل الأعمال في شهر رمضان نخصص محاضرتنا هذه بالذنب وآثاره الوضعية والشرعية.

إن التعاليم الإسلامية القيمة بشأن السعادة الإنسانية وبيان الخير والشر يطابق تماماً المنهج الطبي بشأن صحة الناس وسلامتهم ، ولذا فإن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان في تحقيق التكامل المعنوي للبشر كالطبيب الحاذق الطاهر القلب على رأس المريض. وفي هذا الصدد يصفه الإمام علي (عليه السلام) بقوله : -

« طبيب دوار بطبه ، قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه ، يصنع ذلك حيث الحاجة

ص: 8

إليه في قلوب عمي وآذان صم وألسنة بكم» (1) فيصف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه كان طبيياً سياراً، يحمل معه في حقييته المعاجين اللازمة للتضميد والمعالجة، فإذا وجد قلوباً عمياء، أو أرواحاً صماء، قام بمعالجتها وأنقذ الناس من الموت المعنوي والانهيال الخلقي.

معالجة الانحراف :

للأطباء منهجان في معالجة المرض : أحدهما إيجابي ، والآخر سلبي.

فيقولون للمريض في المنهج الإيجابي : إحتقن بهذه الابرة. إستعمل هذا الكبسول ، إشرب من هذا الشراب ملعقةً واحدةً كل ثلاث ساعات. أما في الجانب السلبي فيقولون للمريض : لا تأكل العنب ، لا تشرب الخل. لا تستعمل الأكلات الدسمة ، وهكذا.

والمنهج الديني يشابه المنهج الطبي تماماً ، فيقول للمسلم من جهة : أقم الصلاة ، أد الزكاة ، ليكن كسبك حلالاً ، تزوج ... إلخ ويقول له من جهة أخرى : لا- تكذب ، لا تفحش ، لا تغتب ... فالجانب الايجابي في الدين يسمى بالواجبات ، بينما يطلق إسم المحرمات على الجانب السلبي.

وإذا ألقينا نظرةً فاحصةً على المنهج الطبي ، لوجدنا موضوع الوقاية من العدوى ، وترك القيام ببعض الأمور (الحمية) مهماً إلى درجة أن المريض لو لم يواظب على التوصيات اللازمة فالمعالجات الايجابية لا تنفعه أصلاً. إن أحسن عملية جراحية يقوم بها طبيب حاذق يمكن أن تصطدم بمشكلات جمة - وقد تكون فاقدة للأثر - إذا تهاون المريض في العمل بتوصيات الطبيب ، فقام ببعض الحركات الزائدة أو لم يتحفظ على الجرح من التلوث بالميكروبات مثلاً.

وحتى في الأمراض التي تنشأ من انحراف المزاج ، نجد أن عدم اعتناء المريض بما يجب أن يجتنب عنه ، يذهب بأثر معالجات طبيب حاذق ، وأما في بعض الأحيان ، حيث لا يتمكن المريض من الوصول إلى الطبيب فانة إذا احتتمى ولم يحمل مزاجه

ص: 9

فوق طاقته ، نجد المناعة الذاتية قادرة على أن تنجي المريض من الانحراف وأن ترجعه إلى وضعه الاعتيادي. وهناك حالات ينحصر العلاج فيها بالحمية فقط.

يقول الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) : « الحمية رأس الدواء » (1).

نستنتج مما تقدم : أن السلامة منوطة بالمواظبة على توصيات الطبيب - الايجابية منها والسلبية - ولكن النظرة الثاقبة ترينا أن أثر الجانب السلبي في العلاج أقوى من أثر الجانب الايجابي.

هدف القرآن :

وعلى هذا المنوال تنسج التعاليم الاسلامية نسجها في تحقيق السعادة المعنوية. فالإنسان السعيد هو الذي يطبق التعاليم الايجابية والسلبية ... يأتي بجميع الفرائض ويترك جميع المحرمات ، ومع ذلك فان كفة الابتعاد عن الذنوب (الجانب السلبي) ترجح في ميزان السعادة البشرية على كفة الاتيان بالواجبات (الجانب الايجابي).

ومن هنا نجد أن القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي وآل بيته عليهم الصلاة والسلام ، تعرف (التقوى) أعظم رصيد للسعادة ، وترى أن الغاية العظمى من القرآن وتعاليمه هي تربية الناس على التقوى ، فالتقوى بمعنى إجتناّب المعاصي والابتعاد عنها ، و (المتقي) هو المجتنب عن المعاصي.

فليس صيام رمضان - وهو من أهم الفرائض الاسلامية - إلا مظهراً من مظاهر الاجتناب عن المفطرات بنية التقرب إلى الله تعالى ، ولقد أوجب الله الصيام على الأمم السالفة ، وعلى الأمة الاسلامية كي يتمرن الناس في هذا الشهر على الحصول على ملكة التقوى.

(... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وبهذا الصدد نورد بعض الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام :

ص: 10

1- سفينة البحار ص 245 ، مادة (حمى).

- 1 - عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال : « فيما ناجى الله عز وجل به موسى ، ما تقرب إلي المتقربون بمثل الورع عن محارمي ... » (1) فلا يوجد عامل يقرب المتطهرين إلى الله مثل الاجتناب عن المعاصي.
- 2 - وعن علي (عليه السلام) : « إجتنب السيئات أولى من إكتساب الحسنات » (2).
- 3 - وعن الإمام علي بن الحسين (عليه السلام) : « من اجتنب ما حرم الله عليه ، فهو من أعبد الناس » (3).
- 4 - عن النبي صلى الله عليه وآله : « لرد المؤمن حراماً يعدل عند الله سبعين حجةً مبرورة » (4).
- 5 - عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) : « غض الطرف عن محارم الله أفضل عبادة » (5).
- 6 - ولقد سبق أن نقلنا جواب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على سؤال علي (عليه السلام) حين سأله عن أفضل الأعمال في شهر رمضان فقال : « الورع عن محارم الله ».

إنهيار المجتمع :

إن إغلب المآسي التي تصيب الفرد أو المجتمع ناشئة من التلوث بالذنوب والمعصية. والأمم التي انهارت انهياراً تاماً ، ولم يبق منها في التاريخ إلا اسمها ، كان السبب في ذلك عدم مبالاتها بالنسبة إلى الذنوب وهذا ما يؤكد عليه القرآن غير مرة :

«كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» (6).

«أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» (7).

ص: 11

1- الكافي لثقة الاسلام الكليني ج 2 80.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 57.

3- مستدرک الوسائل للنوري ج 2 302.

4- المصدر السابق.

5- المصدر السابق.

6- سورة الأنفال 54.

7- سورة الدخان 37.

«فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» (1).

إن المآسي المختلفة التي تعلق بأذيالنا - شيوخاً وشباباً - وليدة التلوث بأنواع الذنوب واللامبالاة في ارتكاب المعاصي والمحرمات. كما أن المريض الذي يخالف أوامر الطبيب ويترك الحمية يبتلى ويجازى بأنواع المصائب والمشاكل الدنيوية والأخروية.

1 - «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا» (2)

2 - «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (3)

3 - «ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (4)

ما هو الذنب :

الذنب عبارة عن مخالفة القوانين الإلهية ، واتباع الأهواء والرغبات التي تلح عليها النفس ، من دون رادع أو مانع. وكقاعدة أولية وأصل ثابت يجب أن نقول : إنه مع غض النظر عن التعاليم الدينية ، فليس بإمكاننا متابعة الشهوة والرغبات النفسانية ، وإطلاق العنان للارادة النفسية بحرية كاملة. فهناك الموانع العديدة والحواجز القوية التي لا يمكننا أن نخترقها. وعلى سبيل المثال نشير إلى بعض الموانع بنماذج واضحة وأمثلة ساذجة يصادفها كل الأفراد في حياتهم اليومية.

جزاء التخلف عن القوانين :

(1) حمامة جائمة على سطح عمارة ذات أربعة طوابق من شارع وأنت واقف على سطح تلك العمارة أيضاً... الحمامة تحاول الطيران إلى الجانب الآخر من الشارع لتتنزل على سطح عمارة مقابلة ، ففي لحظة واحدة تحرك الحمامة جناحيها

ص: 12

1- سورة النساء 6.

2- سورة الروم 41.

3- سورة البقرة 114.

4- سورة المائدة 33.

تطير ... وترغب أنت في ملاحقتها والطيران مثلها، إلا- أن رغبتك هذه تصطدم بمشكلة كبيرة، هي أنك لا تملك وسائل الطيران، ولا القدرة على مقاومة جاذبية الأرض، فالقانون الطبيعي يمنعك من هذا التصميم. فإن لم تعتن إلى منع الطبيعة إياك عن الطيران وأردت أن تثور على قانون الطبيعة، فبمجرد أن ترمي بنفسك من سطح هذه العمارة إلى جهة العمارة الأخرى - وقبل أن تتعد من هذه العمارة بمقدار متر واحد - فإن جاذبية الأرض تسحبك إليها بأتم الخشونة والقوة وتريك جزءاً تخلفك هذا ... وتطرحك على الأرض في الوقت الذي يتحطم فيه رأسك ويتلاشى مخك، وتنتهي بحياتك وهي تنطق بلسانٍ فصيحٍ يعبر عن القانون الكوني العام: هذا جزء المذنب والمتخلف عن السنن الكونية.

يتساوى جميع الناس في هذا الأمر: المؤمن والكافر، الصائم والمفطر، الشيوعي والرأسمالي. فالعقلاء لأجل أن لا يتخلفوا عن قوانين الطبيعة ينزلون ستين درجة من سلالم العمارة، ثم يصعدون في سلالم العمارة المقابلة حتى يصلوا إلى سطحها، فيثبتون - عملياً - إطاعتهم للقانون الكوني العام.

والطفل يرغب في القيام بالفعاليات والحركات الحرة بفطرته يحب أن يقبض بيده كل شيء، يلمس كل شيء، يعمل كما يريد ... لكنه سرعان ما يلتفت إلى أنه ليس حراً مطلقاً، إنه يرغب كثيراً في شدي أمه وهو مصدر غذائه، لكنه عندما تتركه أمه أثناء ارتضاعه لتذهب وراء أعمالها يفهم الطفل أن الشدي ليس في اختياره دائماً، يجب أن يصيح، أن يبكي ... حتى تحن الأم إليه ويسترجع الشدي الضائع.

وعندما تنفتح أصابع الطفل فإنه يرغب بولع شديد أن يأخذ التفاحة ويأخذ الخبز، ولكنه حيث لا يدرك الفواصل فقد يخرج يده من المهد ليأخذ المصباح من السقف أو القمر من السماء وقد يمد يده إلى النار ليأخذ جمراتها المتوقدة فيحترق ويبكي ... هنا يدرك الطفل أنه ليس حراً مطلقاً كما يظن، فحريته محدودة.

ويتدرج الطفل في نموه. ويأخذ في المشي ويقترّب من الحوض فيرى الأسماك تسبح في الماء، وبحكم طبعه الطفولي الحر يرغب في أن يسبح مثل تلك الأسماك، فيلقي بنفسه في الماء ... ينقطع نفسه ويشرف على الموت، فتصل الأم وتخرج

طفلها المتقطع الأنفاس ... وحين يثوب إليه رشده ينظر نظرة إلى الماء ويفهم أنه ليس حراً ولا يتمكن من أن يسبح كالسمك.

وعلى أية حال فإن الإنسان يلاقي موانع الطبيعة منذ طفولته في كل خطوة يخطوها ، وفي كل يوم يحس بتقلص حريته أكثر من ذي قبل. ويدرك أن رغباته تصطدم بجدران حديدية لا تخترق. ولا يتمكن أن يمارس إرادته بحرية كاملة.

(2) والحاجز الثاني الذي يقف أمام الميول والرغبات الفردية ، هو القوانين الصحية التي تظهر في الحمية ... فإن المريض يشاهد الفواكه والحلويات والأطعمة المختلف ، فيرغب في أن يأكل منها ولكنه مصاب بمرض السكر ، فإن حاول اتباع ميوله بالتناول من الفواكه والحلويات التي تكثر فيها مادة السكر فسوف يبتلى بأنواع الآلام.

أو أنه مصاب بمرض في الكبد فعليه أن يحتمي عن كثير من الأطعمة الشهية ، لأن الطبيب منعه عنها ... وقد يكون المرض شديداً إلى درجة يضطر المريض معها إلى أن يقنع بشيء قليل من الخضروات والفواكه المطبوخة فقط ، ولا مفر له من ذلك فأما أن يترك ميوله وشهواته فيحفظ سلامته وصحته ، أو ينقاد لها ويترك توصيات الطبيب فيلاقي جزاءه في النهاية باشتداد المرض ، أو الموت أحياناً.

(3) وتعد القوانين الوضعية من الحواجز المهمة التي تقف أمام الميول البشرية ، فإذا أرادت حكومة ما أن يظل قائمة وأن يكون لها مجتمع منظم ، فعليها أن تضع القوانين التي تحدد لكل فرد حقوقه وواجباته ، فتسمح ما هو ضمن القانون وتمنع ما سواه. وتعاقب المعتدي على حقوق الآخرين ... وليس هذا في واقعه إلا تحديداً لحرية الإنسان ، وعدم فسح المجال لممارسة أهوائه وشهواته كيفما يريد.

قد يستاء البعض لمحدودية حريته تجاه القانون ، فيطغى عليه ويحب أن يكون حراً ليفعل ما يريد ويقول ما يشاء ويذهب أنى يرغب ، لكن السلطة التنفيذية للقانون تجبره على الانقياد له.

يقول أحد الغربيين : القانون كاللجام الذي يوضع على فم الفرس الهائج فقد يطغى عليه ، مع فارق واحد هو أن اللجام الذي يوضع للفرس يضعه الإنسان. بينما القانون يضعه الإنسان على نفسه ، وقد يطغى عليه أيضاً.

لنتصور مستطرقاً جائعاً يرغب أشد الرغبة في أن يأكل من الحلويات والفواكه المنضدة في الحوانيت بحرية كاملة ليشتبع بطنه ، أو شاباً متميعاً في أشد الميل لا شباع نهمة الجنسي مع امرأة تسير في الشارع ، لكن القانون يراقبه ويعاقبه بشدة على ميوله غير القانونية.

هذه الأشكال الثلاثة من الحواجز والموانع عن حرية الإنسان جارية في جميع نقاط العالم ، بغض النظر عن الدين والعنصر ، فالخروج عليها يعتبر ذنباً وإجراماً. ولقد اعتنى الإسلام بها جميعاً وأوجب على أتباعه إتباعها ومراعاتها ، فالجري وراء الميول النفسية التي تخالف القوانين الكونية والصحية والاجتماعية ممنوع في القانون الإسلامي. والجانب الأكبر من الذنوب في الإسلام عبارة عن تنفيذ هذه الرغبات اللامشروعة.

يعتبر الانتحار بجميع صورته ذنباً في الإسلام ، سواء كان برمي الإنسان نفسه من شاهق ، أو الإلقاء في الماء ، أو شرب السم ، أو غير ذلك. وكذا الإضرار بالنفس والإلقاء باليد إلى التهلكة يعتبر ذنباً ، والصوم الواجب إن كان مضرراً بصحة الإنسان فلا يسقط وجوبه فقط بل يعتبر محرماً. وهكذا الذنوب الاجتماعية والإخلال بالأمن والنظام والتجاوز على أموال الآخرين ونفوسهم وأعراضهم ... وبصورة موجزة فإن كل الميول المنافية لسعادة المجتمع ممنوعة ، وارتكابها يعد ذنباً وإجراماً.

إنحطاط البشرية :

وهنا لا بد من الانتباه إلى نقطة مهمة ، وهي أن الذنب - بغض النظر عن الأخطار التي يتضمنها في الإخلال بالنظام العام الإضرار بالمصالح الفردية والاجتماعية - هو أهم عوامل انحطاط البشرية وتقهرها. فالمذنبون ليسوا متمتعين بالمزايا الإنسانية الشريفة والكمالات المعنوية ، فإن ظلمة الذنب تصير حجاباً يخفي نورانية القلب وصفاء الباطن. والمجرم قبل أن يلحق الضرر بالمجتمع أو بنفسه ، يعمل على انهيار شخصيته ويكبت الروح الخيرة في أعماقه. فعلى من يرغب في الفضائل الإنسانية ويحب الكمال والتعالي الروحي أن ينزه نفسه عن ظلمة الذنب والإجرام.

يقول الإمام علي (عليه السلام): « من أحب المكارم إجتنب المحارم » (1).

وفي حديث آخر عنه (عليه السلام): « من ترك الشهوات كان حراً » (2).

التفكير في الذنب :

إن الاسلام يخطو خطوة أوسع في هذا المجال ، ويقول بأن الانسان الواقعي هوالذي لا يكتفي بترك الذنوب فحسب ، بل لا يفسح مجالاً في ذهنه وفكره للتفكير في الذنب ، ولا يدع الفكرة المظلمة تمر بخاطره ... فإن التفكير في الذنب حتى ولو لم يصل إلى مرحلة التطبيق ، يوجد ظلمة روحية في القلب ويمحو الصفاء الروحي من الانسان.

يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): « صيام القلب عن الفكر في الآثام ، أفضل من صيام البطن عن الطعام » (3).

ويقول إمامنا الصادق (عليه السلام) راوياً عن عيسى بن مريم (عليه السلام) أنه كان يقول : « إن موسى أمركم أن لا تزنا ، وأنا آمركم أن لا تحدثوا أنفسكم بالزنا ، فإن من حدث نفسه بالزنا كان كمن أوقد في بيت مزوق فأفسد التزاويق الدخان وإن لم يحترق البيت » (4) ... أي أن فكرة الذنب توجد ظلمة في القلب - شاء الفرد أم أبى - وتسلب صفاء النفس ، حتى ولو لم يرتكبه الإنسان.

إن النكات الدقيقة التي أوردها الإسلام في موضوع السعادة الانسانية في القرون السالفة وعلمها اتباعه ، تستجلب أنظار العلماء المعاصرين في العصر الحديث فنراهم يفتنون إلى تلك الحقائق في كتبهم ومؤلفاتهم :

« للأمل والإيمان والإرادة القوية أثر كبير على الجسم ، وهو يشبه أثر البخار على القاطرة. إن النشاطات الجسدية والروحية تتكامل بدافع الحب فتكسب الشخصية قوة ورصانة وكمالاً. وعلى العكس

ص: 16

- 1- الارشاد للشيخ المفيد ص 141.
- 2- بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج 17 ص 67.
- 3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 203 طبعة دار الثقافة - النجف الأشرف.
- 4- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة للحر العاملي ج 5 ص 37.

فإن الرذائل تحط من الشخصية وتسحقها. إن الكسل والتردد في الرأي مثلاً من أهم العوامل على جمود الفكر، وكذلك العجب بالنفس والغرور والحسد فإنها من عوامل التفرقة والتباعد بين الناس، وهي جميعاً تمنع النفس البشرية من التكامل» (1).

« إن المعاصي - كما نعلم - تقلل من قيمة الحياة المعنوية. وإن تحمل العيوب والنواقص خطأ فظيع. فليس كل شخص حراً في تصرفاته، وعلى هذا فالذي ينحرف عن الطريق المستقيم في الحياة ويبدو متكاسلاً مفترياً على الناس ولا يبالي بارتكاب مختلف الذنوب يجب أن يعتبر مجرمًا عامًا. ولكل ذنب آثاره الوخيمة حيث يؤدي إلى الانحرافات العضوية والنفسية والاجتماعية. فكما أن العض على أنامل الندم لا يتلافى العيوب الناشئة في جسد المدمن على الخمرة أو العيوب الوراثية في أطفالهم ... كذلك لا يمكن ترميم الانحرافات الناشئة عن الحسد والحقد والغيبة والأثرة والأنانية» (2).

إن كل ما هو ممنوع في الشريعة المطهرة. وكل ما يعتبره الإسلام ذنباً وإجراماً يتصل إما بضرر مباشر أو غير مباشر تجاه المصالح المادية أو المعنوية للإنسانية حتماً. غاية الأمر أن البشر لم يطلعوا على جميع تلك الجوانب. ويرى البعض كثيراً من الذنوب كشرب الخمر والقمار والاتصالات اللامشروعة بين الجنسين رائجة في الدول الغربية فيظن أن الإسلام قد حرمها عبثاً ... وهو في توهمه هذا غافل عن أن ذلك كله حسب حساب دقيق، فقد يأتي يوم يفطن فيه الغرب إلى أضرارها فيمنعها أيضاً.

في رسالة من محمد بن سنان إلى الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) يسأله فيها عن صحة ما يدعيه بعض المسلمين من عدم وجود حكمة للحلال والحرام في الإسلام وأن المقصود من ذلك هو التعبد والانقياد إلى الله فقط. فكتب عليه السلام في جوابه:

« ... قد ضل من قال ذلك ضلالاً بعيداً » ثم يسترسل في ذكر تحريم المحرمات

ص: 17

1- راه ورسم زندكى ص 72. وهو ترجمة لكتاب ألفه بالفرنسية د. الكسيس كارل. وترجمه إلى الفارسية د. برويز ديري.

2- راه ورسم زندكى ص 80.

فيقول : « ووجدنا المحرم من الأشياء ، لا حاجة للعباد إليه ووجدناه مفسداً داعياً إلى الفناء والهلاك » (1).

نتائج الذنوب :

وإذا تصفحنا أقوال أئمة الاسلام وقادتنا الكرام (عليه السلام) ، نجد أنهم يعللون جميع المآسي والمشاكل والنكبات الفردية والاجتماعية بالجرائم والذنوب التي يرتكبها الناس ، نتيجة تخلفهم عن القوانين الالهية ، فيلاقون جزاءهم على ذلك التخلف والخروج على أحكام الله.

فلكل من الذنوب أثر خاص في الاضرار بالانسان ، فالظلم والخيانة الكذب والتزوير ، هتك الأعراض والميوعة ، قول الزور والتجاوز على حقوق الآخرين ، الفتنة والنميمة ... كل هذه الذنوب تشبه الأمراض التي تصيب جسم الإنسان. وهنا يجدر بنا الإشارة إلى بعض النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت (عليه السلام) التي تبين العواقب المادية والمعنوية للذنوب والجرائم :

1 - يقول الامام الباقر (عليه السلام) : « ما من نكبة تصيب العبد إلا بذنب » (2).

2 - وعن الامام الصادق (عليه السلام) : « تعوذوا بالله من سطوات الله ، بالليل والنهار ، قال (أي الراوي) : قلت له : وما سطوات الله؟ قال : الأخذ على المعاصي » (3).

3 - وعن الامام الصادق (عليه السلام) أيضاً : « إن الذنب يحرم الرزق » (4).

4 - وعن الإمام الباقر (عليه السلام) : « إن الله قضى قضاء حتماً : ألا ينعم على العبد نعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النعمة » (5).

ص: 18

1- (2) بحار الأنوار للمجلسي ج 3 118

2- الكافي للكليني ج 2 269.

3- نفس المصدر. وسطوة الله : غضبه وأخذه بالشدة ، كما في المصباح.

4- الكافي ج 2 271.

5- الكافي ج 2 273. وفيه تلميح إلى قوله عز وجل : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد 12.

5 - وعن الامام الرضا (عليه السلام) : « كلما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون ، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون » (1).

6 - وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) : « وايم الله ما كان قوم قط في خفض عيش فزال عنهم ، إلا بذنوب اقترفوها ، لأن الله ليس بظلام للعبيد » (2).

الجزاء الآجل :

لا- شك في أن كل ذنب يترك أثراً سيئاً في الفرد والمجتمع على السواء والمذنب يلاقي جزاءه حتماً ، غاية الأمر أن بعض الذنوب تظهر نتائجها بسرعة ويلاقي المجرم جزاءه عاجلاً ، بينما لا تنعكس آثار بعض الذنوب على الفرد والمجتمع إلا بعد مدة طويلة ... وعليه فالمجرم لا يلقي جزاءه إلا بعد مدة من الزمن أو بصورة تدريجية.

فالذين يحبون الفضيلة والكمال ويريدون بلوغ الأوج في الفضائل والمثل الانسانية يتحاشون ارتكاب كل أنواع الذنوب والجرائم ، سواء كان جزاؤها مؤجلاً أو معجلاً ... أما بعض قصار النظر الذين لا يتمالكون من اقتراف الذنوب ولا يراعون الله والقيم العليا والمثل الانسانية ، فإنهم يظنون أن الخلاص يكمن في ترك الذنوب ذات الجزاء العاجل ، وحينئذ فهم لا يرون مندوحة في أن يمارسوا شهواتهم وأهواءهم بالنسبة إلى الجرائم التي يكون الجزاء فيها آجلاً.

إن أوضح مثال على ذلك نجده في التعاليم الصحيحة. فالطبيب يقول للمريض المصاب بالاسهال : إمتنع عن تناول الأطعمة العسرة الهضم والفواكه النية ، والمريض يطيعه على ذلك. لأنه لو خالفه يصاب - بعد ساعة أو ساعتين مثلاً - بآلام شديدة ونزف معدي أو معوي وضعف عام في جسده ، بصورة موجزة : بما أن الجزاء سريع وعاجل فالمريض يضطر إلى إطاعة الطبيب.

أما إذا نصح هذا الطبيب شاباً بالاجتناب عن الخمرة والحذر عن الوقوع في

ص: 19

1- المصدر السابق ج 2 275.

2- المستطرف من كل فن مستظرف للابشيهي : ج 2 61. وخفض عيش : في سعة ولين من العيش.

أسرها ، وسأله الشاب : وماذا سيحدث إن شربتها؟ فيجيبه الطبيب : إنك ستجد بعد عشر سنين الآثار الوخيمة للخمرة في جسدك وروحك ... ستصاب بالعوارض القلبية والكلوية والكبدية ، وتقترن حياتك ببؤس وشقاء وانحلال ... وما أشبه ذلك.

ففي هذه الصورة نجد الشاب يتماهل في العمل بنصائح الطبيب ويعاقر الخمر ليل نهار ، والسبب في ذلك هو أن جزاءه آجل غير عاجل. وهكذا فكل قانون يكون عامل التنفيذ فيه قوياً وسريعاً فإنه يطبق بأحسن صورة وكلما فقد عامل التنفيذ أو كان الجزاء فيه أجلاً فإن تطبيقه لا يتم بصورة مرضية (1).

الجزاء العاجل :

إن القوانين الطبيعية تمتاز بأن مخالفتها تؤدي إلى أن يلاقي الفرد جزاءه عاجلاً ، ولذلك فإن الناس يخافون الخروج عليها ... النار تحرق فوراً ، الغاز يخنق رأساً ، ولذلك فإن هذه القوانين تقابل بالاطاعة التامة والانقياد الكامل ، ومعها يضطر المريض إلى إطاعة أوامر الطبيب حينما يصطدم بالآم شديدة وحمى قوية وضعف تام بعد مضي ساعة على مخالفتها.

وهكذا ، فالمجرمون الذين يخرجون على القوانين الاجتماعية إذا وجدوا أنفسهم أمام عقوبات صارمة كالسجن مع الأعمال الشاقة أو الإعدام مثلاً فإنهم يضطرون إلى إطاعة القانون واحترامه. ويحذرون من تجاوز حدودهم المقررة في إطار القانون.

إلا أنه توجد في القوانين السماوية ذنوباً وجرائم ، يكون الجزاء عليها في الدنيا بطيئاً وفي الآخرة أبطأ. ولهذا فإن كثيراً من الناس لا يرتدعون عن ارتكابها - أو لا يجدون في أنفسهم خوفاً من ارتكابها على الأقل - طائنين أنهم في حصن حصين عن الجزاء. ولقد رأينا كيف حدثنا التاريخ بالجريمة الكبرى التي ارتكبها عمر بن سعد في قتل الامام أبي عبدالله الحسين (عليه السلام) حيث وقع أسير التفكير الخاطئ الذي وجد نفسه - معه - في أمن من العقاب لكونه بطيئاً غير معجل ، ولذلك فقد سمع يردد -

ص: 20

1- وهذا هو السر في الصرامة الشدة التي يفرضها الاسلام في عقوباته ، مما جعل الجاهل يتحاملون عليه بأنه ليس ديناً صالحاً للتطبيق. والحال أن التجارب تثبت عكس ذلك.

« وهل عاقل باع الوجود بدين؟! ». إذ أن إمارة ري كانت معجلة بينما جزاء يوم القيامة بعيد وآجل ... وعليه فلا يجب ترك العاجل بالآجل.

بينما نجد القرآن الكريم يفند هذه الفكرة ، وينبه الناس إلى ضرورة

توقي الجزاء الآجل ، كما لو كان عاجلاً بقوله تعالى : « إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » (1).

يوم الجزاء :

إن يوم الجزاء بعيد جداً في نظر المذنبين والمجرمين ، لكن الله يرى ذلك اليوم قريباً جداً. إذ لا تمضي مدة طويلة حتى يلاقي هؤلاء المجرمون جزاء ما اقترفوه. وبالرغم من طول المدى فإنه لا بد من وجود يوم يعاقب فيه الخارجون على سنة الله وحكمه.

الآثار الوخيمة للذنوب :

إن جانباً من الأمراض الروحية والعصبيّة التي يصاب بها الناس ، ناتج من الانحرافات الخلقية وسوء القصد. فالحسد مثلاً يفعل في بدن الحسود وروحه ما يفعله السرطان في الجسم ، التكبر يولد في الإنسان بعض الاختلالات الروحية وقد يؤدي إلى الجنون ، ولكنه قد لا تظهر هذه العوارض بسرعة بل تكون بطيئة وتدريجية.

وكثير من الشبان ينحطون إلى أسفل درك من الحضيض نتيجة الميوعة والتفسخ الخلقي ... وأخيراً يؤدي بهم ذلك إلى الانتحار. وكم من رجل أردى به الحرص والطمع وطلب الجاه والأنانية إلى هوة سحيقة وعيش أمض من الموت ومصير مؤلم فظيع! ..

فالعاقل هو الذي لا يلوث أذياله بأي ذنب ، ويظل متحفظاً من أي انحراف في سلوكه ، وهكذا فإن الرجال العظماء والذين كانوا ولا يزالون مفاخر الإنسانية جمعاء في كل عصر ، لم يحصلوا على تلك المنزلة إلا لأنهم عاشوا عيشة طاهرة منزهة من

ص: 21

الدينس. فالفضائل والكمالات لا يمكن أن تتفق مع الذنوب ، ومن يريد الوصول إلى أوج الكمال والعظمة الروحية ، عليه أن يتخلى عن ميوله اللامشروعة وشهواته وأهوائه التي تقف في طريق تكامله.

يقول الامام علي (عليه السلام) : « إنك لن تدرك ما تحب إلا بالصبر عما تشتهي » (1).

قد يولد الاعجاب بالشهرة وطلب الجاه أثراً شديداً في نفس الفرد ، بحيث يضطره إلى أن يرخي عنان الصبر من يده ، ويرتكب كل جريمة في سبيل هدفه ... ومع ذلك فالمصيبة العظمى أنه لا يصل إلى ما يريد بالرغم من اتخاذه كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة لتحقيقه.

البؤس والحرمان :

وتأكيداً لما سبق نورد هنا حديثاً عن الامام الحسين (عليه السلام) نأمل أن يقع موقع الاهتمام والعناية من قبل المسلمين ، وخصوصاً : الشبان منهم ويضعوه نصب أعينهم في جميع مجالات نشاطهم مدى الحياة :

« من حاول أمراً بمعصية الله كان أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر » (2).

... إذا كانت في نفسك رغبة ملحة في جمع المال ، فاحرص على أن تجمعته من طريق مشروع وبأساليب صحيحة بعيدة عن الخيانة ... والسرقة ... وإن كنت ترغب في الحصول على شهرة قوية في المجتمع فلا- تطلب ذلك من طريق ال-جرام ، لأن النهاية هي البؤس والحرمان.

إن أصدق شاهد على كلمة الامام الحسين (عليه السلام) الأنفة الذكر ، نجده في تاريخ الطف بصورة جلية ، فإن عمر بن سعد بن أبي وقاص كان يميل بشدة للحصول على إمارة (ري) ، وكانت أوهام الرئاسة على تلك المدينة وقيادة زمامها قد عاشت في مخيلته ، حتى راح يضحي بكل شيء عنده للوصول إلى هدفه. وأخيراً لم يجد بداً من أن يسلك مسلكاً غير مشروع لتحقيق أمنيته هذه. فارتكب أشنع الجرائم وأبشعها في

ص: 22

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 149 ط النجف الأشرف.

2- بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج 17 149.

تاريخ البشرية وهي قتل الحسين (عليه السلام) وأصحابه مع تلك الحالة المفجعة الممضنة غير القابلة للوصف. كل ذلك أملاً في الحصول على إمارة (ري) ... وأخيراً - وبالرغم من ارتكابه تلك الجريمة العظمى - لم يصل إلى هدفه ، وخاب ظنه وخسر الدنيا بعد خسارته الآخرة ... هذا غير الوخز المؤلم من الضمير له والايقاع به في شبكة من الأمراض الروحية والعصبية ، نتيجة لخيانته الكبرى تلك ... وكانت نهاية حياته أن وقع فريسة دسمة بأيدي الثوار الذين نهضوا يطالبون بدم الحسين بقيادة المختار الثقفي ، وتحققت فيه قولة الامام عليه السلام : « من حاول أمراً بمعصية الله ، كان أفوت لما يرجو وأسرع لما يحذر ».

هذه نبذة يسيرة عن الذنب وبعض نتائجه وآثاره ، تطرقنا إليها كتمهيد للبحث وذلك بمناسبة قول النبي صلى الله عليه وآله في جواب علي عليه السلام : « أفضل الأعمال في هذا الشهر ، الورع عن محارم الله ».

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا في هذا الشهر ، وفي سائر أيام السنة للاجتناح عن السيئات والجرائم. وبذلك نجلب رضى الله تعالى بالحصول على السعادة في الدنيا ، والنعيم في الآخرة.

وفي نهاية المطاف أود أن أشير إلى أن بحثنا في المحاضرات القادمة سيدور حول أساس السعادة في تربية الطفل. وعليه فلا بد - كتمهيد لفهم الموضوع - من ذكر بعض المقدمات المرتبطة به ... فنبحث - أولاً - في أصل السعادة ، ودور الوالدين في تحقيق سعادة الطفل وشقائه ، والمقارنة بين التربية والوراثة. ثم ندخل إلى صلب الموضوع. ولا يخفى أننا في ضمن بحثنا عن التعاليم القيمة التي جاء بها القرآن الكريم والنصوص الواردة عن المعصومين عليهم السلام ، بشأن التربية وما يتعلق بها ، نستشهد بالبحوث العلمية الحديثة التي توصل إليها علماء الغرب. وغرضنا من ذلك أمران -

أولهما : - إنه يجب الاعتراف بأن للعلماء الغربيين مطالعات دقيقة وبحوثاً قيمة في كثير من الموضوعات. وعلى كل عاقل حر أن يستفيد من أفكار العلماء وتجاربههم

الصحيحة المعقولة ليستخدامها في حياته العملية. والإسلام دين العقل والمنطق ، ولذلك فقد أوصى المسلمين بأن يجدوا في طلب العلوم والحكم ويأخذوها من أي شخص كان وأينما وجدوها ، وإن كان الملقى بها منحرفاً من ناحية العقيدة أو مأسوراً لعبادة الأوثان والشرك بالله. وعلى سبيل المثال نذكر بعض النصوص الواردة بهذا الشأن : -

وراء طلب العلم :

- 1 - قال الامام علي (عليه السلام) : « خذ الحكمة ولو من المشركين » (1).
- 2 - وعنه عليه السلام أيضاً : « لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال » (2). ومعناها : أطلب الكلمة الحققة من أي شخص كان.
- 3 - وعنه (عليه السلام) : « خذ الحكمة ولو من أهل الضلال » (3).
- 4 - ويقول أيضاً : « الحكمة ضالة المؤمن ، فاطلبوها ولو من عند المشرك » (4).
- 5 - وعنه (عليه السلام) أيضاً : « أعلم الناس : من جمع علم الناس » (5).

الإسلام دين العلم والمعرفة :

الإسلام دين التكامل والتحقيق دين العلم والمعرفة ، يراعي موضوع حرية التعلم مراعاة كاملة ويصرح بوجوب تعلم العلم والحكمة من أي إنسان ولو كان ضالاً أو مشركاً.

إلا أنه يجب أن نعلم بأن الاسلام يمنح الحرية لأصحابه في استيعاب الحقائق العلمية الصحيحة ، لا لكل تقليد أعمى وسلوك أهوج.

إن كثيراً من الناس في بلادنا بهرتهم المدنية الغربية وجمالها إلى درجة أنهم

ص: 24

1- إثبات الهداة للحر العاملي ج 1 49.

2- المصدر السابق ج 1 46.

3- المصدر نفسه ج 1 46.

4- المصدر نفسه ج 1 47.

5- المصدر نفسه ج 1 47.

أخذوا يحسون بالحقارة والتصاغر في نفوسهم تجاهها ، ويتكبرون لتراثهم الخالد وتعاليمهم الدينية القيمة ، حتى ظنوا أنه لم يكن للمسلمين وجود إنساني فيما مضى أصلاً ، ولا قيمة لماضيهم المجيد وتراثهم الخالد ... هؤلاء يظنون أن كل ما هو في أوروبا وأمريكا وكل ما يجري على الناس هناك حسن وصحيح وجدير بالتقليد ، ويدّو لهم أن الطريق الوحيد للسعادة منحصر في اتباعهم من دون تعقل أو روية ، غافلين تماماً عن أن هناك مساوئ كثيرة في تلك البلدان في قبال بعض المحاسن التي يرونها. فالعقل - إذن - هو الذي يقلد محاسن الأمم المتقدمة ويجتنب عن مساوئها.

حسن الاقتباس :

وبهذا الصدد يقول القرآن الكريم : « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » (1)

وقد ورد في الحديث : « خذوا الحق من أهل الباطل ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق ، كونوا نقاد الكلام ، فكم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله كما زخرف الدرهم من نحاس بالفضة المموهة ، النظر إلى ذلك سواء ، والبصراء به خبراء » (2).

فلو كان مجتمعنا الاسلامي قد تمسك بتعاليم القرآن الكريم واختار حسنات المدينة الحديثة وتجنب سيئاتها ، لكان قد حصل على نجاح باهر في مجالات مختلفة إلى هذا الحين ... ولكن المؤسف أن الأمر على عكس ما يريده لنا القرآن. فنجد تقليد المدنية الحديثة في علومها وتكاملها وفي مجالات البحث والا-ختراع أقل - بكثير - من تقليدها في مجالات الانقياد للشهوات وشرب الخمر والميوعة والتحلل والفساد. فبينما نجد الشرقيين يسبقون الغرب في الجانب الثاني ، نجدهم في ركب متأخر عنهم في الجانب الأول ومع ذلك كله ، فالأمل لا يزال يحدونا إلى استعادة استقامة سلوكنا والأخذ بمنهجنا القرآني الصحيح الكافل لسعادتنا ورفقنا وازدهارنا ، والفرصة لا تزال سانحة للرجوع إلى اقتباس ما هو حسن وصالح من الغرب ، وترك ما هو مضر وفاسد فيه.

ص: 25

1- سورة الزمر 18.

2- إثبات الهداة ج 1 136.

... هذا فيما يخص الجهة الأولى من استشهدنا بأقوال العلماء الغربيين وبحوثهم في محاضراتنا هذه.

أما بالنسبة إلى الجهة الثانية ، فهي أن يتعرف المسلمون على حقيقة دينهم أكثر فأكثر ، ذلك لأننا نحاول - في محاضراتنا هذه - أن نستقصي الآيات القرآنية والنصوص الواردة بشأن (تربية الطفل) وما يتعلق به ، ونبحث عن الجوانب العلمية والنفسية التي أتت عليها ، ثم نستشهد - بالمناسبة - بنص العبارات الواردة في بحوث علماء النفس والتربية الغربيين وكتبهم ، وبذلك نقارن بين ما ورد في تعاليم الاسلام وما ورد في بحوث أولئك العلماء ، فتتضح عظمة التعاليم الاسلامية للملا ، ويعرف المسلمون أن البحوث والتحقيقات التي يجريها علماء الغرب والجهود التي يبذلونها للوصول إلى الحقائق العلمية ليست أمراً جديداً للبشرية ، بل جاء نبي الاسلام وأوصياؤه من بعده يشيرون إليها قبل أربعة عشر قرناً ، ويفيضون بها على الناس من منبع الالهام والوحي الالهي .

وبيديهي أنه كلما ظهرت القيمة العلمية للاسلام أكثر ، إزداد الناس - والطبقة المثقفة منهم بالخصوص - إذعاناً وإحتراماً لعظمة الاسلام والقرآن . وأي هدف أعظم من توجيه عقول البشرية إلى نور الاسلام وعظمته؟! .

إتباع العقل :

يسأل يعقوب بن السكيت من الامام الرضا (عليه السلام) أسئلة حول معاجز الأنبياء ، وبعد أن يجيبه عن تلك الأسئلة ، يسأله عن الحجة القاطعة والدليل الساطع على نبوة النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) قائلاً : « فما الحجة على الخلق اليوم؟ فقال (عليه السلام) : العقل » (1).

يشير الامام الرضا عليه السلام بكلامه هذا ، إلى أن الأفراد يجب أن ينظروا في تعاليم القرآن بنظر العقل والدقة ، ويوجهوا أفكارهم إلى حقيقة ساطعة هي : أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قام في عالم مظلم ودور جاهلي أهوج ، في الحجاز ... حيث مظاهر البداءة والتفرقة والحزازات ، حيث لا مدرسة ولا مكتبة ، ولا حديث عن العلم

ص: 26

والعالم ، ولا أثر للمنطق والتفكير ... قام في مثل ذلك الدور العصيب - وهو أُمي لم يدرس عند أحد - فأخذ يدعو الناس إلى الإيمان ، بحماس وثبات شديدين ويهديهم إلى شاطئ الأمن والسعادة ، وأخذ يقول في كل شيء كلمته بمنطق صحيح ودليل قاطع ، ووضع القوانين لكل جانب من جوانب الحياة ، وأخذ بيد تلك الأمة المتأخرة إلى حيث العزة والكمال والعظمة ... ولا تزال تعاليمه الرصينة تهب الحياة للبشرية من دون أن تفقد قيمتها العلمية والاجتماعية ... في مثل هذه الظروف وعلى مثل هذه الأوضاع يحكم العقل - بلا تردد - بأن البشر العادي - سواء في أمسه أو يومه - يستحيل عليه أن يقوم بعمل جبار كهذا ويترك هذه الآثار العظيمة في الجوانب المختلفة من الحياة. فليس ذلك النبوغ وتلك العظمة وهذه الرصانة في التعاليم إلا نتيجة الاتصال الوثيق بخالق الكون عن طريق الوحي والإلهام.

«إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ» (1).

وليس معنى الإيمان بالنبي والنبوة إلا هذا الاعتقاد بالارتباط المعنوي بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والله تعالى وكونه سفيراً له على وجه الأرض ، لهداية البشر إلى الصراط المستقيم ، وهذا هو المائز الحقيقي الذي يفصل بين النبي وبين الفلاسفة والعلماء العاديين ، فالعلماء قد درسوا في فرع واحد أو عدة فروع من العلوم بصورة اعتيادية ، ومن طريق الكتاب والمدرسة والمعلم وما شاكل ذلك حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه ... بينما النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أُمي لم يدرس عند أحد ، لكنه تلقى الوحي والإلهام من الله تعالى ، فكان هو مدرسة الأجيال كلها ، وكتاب العلماء كلهم ، وأستاذ المعلمين كافة.

وفي الختام نرجو أن نعمل على هدى النبي وأهل بيته الكرام عليهم الصلاة والسلام. متخذين من العقل الصحيح أقوى دليل على الإيمان والثبات على العقيدة.

ص: 27

إشارة

قال الله العظيم في كتابه الحكيم : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها. لا تبديل لخلق الله ... ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (1).

السعادة :

نشأ الانسان منذ نعومة أظفاره محباً للسعادة والهناء ، فاراً من البؤس والشقاء ... فكل الناس يحبون أن يكونوا سعداء مرفهين ، ويصرفون كل جهودهم في سبيل تحقيق ذلك الهدف المقدس النير ... السعادة.

ولكن المشكلة المهمة هي معرفة أساس السعادة وحقيقة الرفاه ، إذ لا يتسنى لمن لا يعرف حقيقة السعادة أن يطلبها ويسعى وراءها ، لأن السعي وراء أمر مجهول عبث وباطل.

وطوال القرون المتتالية والأعصار المنصرمة ، بحث العلماء عن السعادة البشرية وألفوا فيها وأوردوا نظريات مختلفة في هذا الموضوع. وكذلك الأمم والكتل البشرية اتخذت طرقاً معينة وأساليب خاصة للوصول إلى السعادة ، وإذا أردنا أن نستقصي جميع تلك النظريات والآراء والطرق والأساليب لاحتجنا إلى وقت أوسع من هذا ، إلا أننا سنكتفي بذكر أهم تلك الآراء والنظريات المعروفة الآن. ثم نشير إلى بعض الأحاديث الواردة بشأن السعادة. هذا ولا يخفى أن المدار في تلك النظريات والأقوال ومحل النزاع في البحث هو ما يعتبره كل طائفة أصلاً ثابتاً للوصول إلى السعادة وأساساً لتحقيقها.

ص: 28

1 - ذهب بعض العلماء والفلاسفة اليونانيين الذين سبقوا (أرسطو) إلى أن سعادة البشرية تنحصر في الكمالات النفسية ، وهم يرون أن أساس السعادة الانسانية أربع صفات هي : الحكمة ، الشجاعة ، العفة ، العدالة. فمن كان واجداً لهذه الصفات كان سعيداً ، ومعها لا حاجة إلى الكمالات الجسدية وسلامة الجسم أو أمور خارجة عن البدن ، فهؤلاء يقولون : « إن الانسان إذا حصل تلك الفضائل لم يضره في سعادته أن يكون ناقص الأعضاء مبتلى بجميع أمراض البدن » (1)

فالأمرض البدنية عندهم لا تضر بالسعادة إلا إذا أوردت نقصاً على الجانب المعنوي منه ، وأدت به إلى الجنون أو الحمق. وكذلك الفقر والتردي الاجتماعي فإنهما لا يضران بسعادة الانسان إذا كان محرزاً للصفات النفسانية الأربع الآتية الذكر.

2 - ويعتقد المرتاضون بالمبدأ النفسي في السعادة البشرية ، فهم يقولون : - إن السعادة والكمال يرتبطان بكمال النفس والتعالى في الجوانب الروحية فقط. ويجب تحقيق تكامل الروح وإظهاره في الخارج عن طريق الرياضة النفسية ومجاهدة الأهواء والشهوات. ويفرط المرتاضون في عدم اعتنائهم إلى الجانب البدني كثيراً حتى أنهم أشد تقريظاً من اليونانيين الذين سبقوا (أرسطو) بالنسبة إلى أبدانهم. فبينما كان يرى حكماء اليونان أن السعادة تتعلق بكمال النفس ولا يضر معها نقصان البدن - وليس في منهجهم ما يوجب الإضرار بالبدن - نجد المرتاضين يعتقدون بأن كمال النفس يتناسب تناسباً طردياً مع حرمان البدن والأضرار به. فكلما كانت درجة الحرمان عن اللذائذ والطيبات عندهم أكثر ، كانت درجة التكامل الروحي أكثر. ولهذا فأن السالكين في هذا الطريق يسعون بجهد واجتهاد لحرمان الجسد من ميوله وأهوائه ، ويعذبون أجسادهم بالنوم على المسامير أو التعليق من غصن شجرة وما شابه ذلك من أساليب التعذيب أملاً في الحصول على السعادة المعنوية الكاملة.

3 - وطائفة ثالثة تعتقد بالمبدأ النفسي في سعادة الانسان أيضاً ، ولكنها في نفس

ص: 29

الوقت لا- تغطط الجسد حقه. هؤلاء يقولون : إن السعادة الحقيقية تكمن في التكامل الروحي ويجب الاعتناء به كثيراً ، ولكن لا ينبغي التغافل عن إرضاء الميول الجنسية الخارجة عن حريم السعادة. ويؤكدون على نقطة مهمة هي أن كل ما كان مشتركاً بين الإنسان والحيوان من الصفات والميول والشهوات فهو خارج عن نطاق السعادة الانسانية ، ولذلك يقول قائلهم : « إن ما كان منها عاماً للإنسان والبهائم فليست سعادة لنا » (1).

إن نقطة الاشتراك بين هذه العقائد الثلاث التي كان لها أنصار في الأزمنة الغابرة بين الفلاسفة والحكماء اليونانيين وغيرهم من الناس طوال القرون المتتالية ، هي أن الجانب النفسي فقط هو الذي يراعى فيه ويفقد الجانب البدني الاعتناء والمراعاة اللازمة ، فالجسد عندهم يفقد قيمته الحقيقية وليس له أي دخل في تحقيق السعادة البشرية. والميول والرغبات المادية تلاقي حرماناً وكتباً شديدين في نظرهم ، حتى أنها لتقع تحت مطرقة الرياضة النفسية الثقيلة والتعذيب الشديد ... ولا يخفى على من له مسكة من العقل أن هذا هو الشقاء والحرمان بعينه ، وليس موصلاً إلى السعادة - كما يظنون - أبداً.

السعادة في المدنية الحديثة :

وتعرف السعادة في العالم اليوم - وفي كنف المدنية الحديثة - بلون آخر ، وتفسر بتفسير مضاد لتفسير الأمم السالفة والعصور القديمة مضادة تامة. فبينما كان أولئك يرون أن الأصل في الوصول إلى السعادة هو الكمال النفسي والتكامل الروحي ، يذهب هؤلاء إلى التمسك بالجانب المادي واعتبار الأهواء والرغبات المادية ملاكاً في معرفة السعادة. وعليه فالكمالات النفسية والسجيا الخلقية والفضائل تفقد أثرها على مذهب هؤلاء المتمدينين.

وبصورة موجزة ، فإن الافراط الشديد في الجانب الروحي ، والتفريط الشديد في الجانب المادي ... اللذين كنا نشاهدتهما عند فلاسفة العصور القديمة قد انقلبا إلى

ص: 30

العكس تماماً في المدينة الغربية المعاصرة. فأخذت بالافراط الشديد في الجانب المادي والتفريط الشديد في الجانب الروحي ، كرد فعل للنظرة السابقة. وهنا لا بأس بأن نتطرق إلى بعض تلك المبادئ بصورة إجمالية :

المبدأ الاقتصادي :

يعتقد العالم المتمدن اليوم - وفي المعسكر الشرقي منه بالخصوص - بأن السعادة منحصرة في التقدم الاقتصادي ، وأن مصير السعادة الانسانية مرتبط بمصير الوضع الاقتصادي ، هؤلاء ينظرون إلى كل زوايا الحياة بمنظار الاقتصاد ، ويعللون جميع المسائل الاخلاقية والاجتماعية والدينية والاعتقادية بعقل اقتصادية ... فهم يقولون : -

« إن تغير الأساس الاقتصادي يزعزع كل البناء الفوقي والهائل عل صور مختلفة من السرعة أو البطء ... هذا الانقلاب الذي يشاهد بالضبط الخاص بعلوم الطبيعة وبين الأشكال الحقوقية والسياسية والدينية والفنية والفلسفية أو بكلمة مختصرة ، الأشكال الفكرية التي يتصور فيها الناس هذا النزاع ويكافحونه ... فينبغي تفسير هذا الوعي في المجتمع بالقوى المنتجة وعلاقات الانتاج ... » (1)

وكما وجدنا المرتاضين والمنخرطين في سلك المبدأ النفسي ينكرون كثيراً من الحقائق المادية والميول الجسدية ، نجد في الطرف المقابل أن المنخرطين في سلك المبدأ الاقتصادي ينكرون كثيراً من الحقائق الروحية والاعتقادية والاخلاقية ولم يعتبروا لها وجوداً أصلاً ...

نحن لا ننكر أن الكمالات النفسية والسجايا الخلقية تشكل الأركان المهمة للسعادة ، ولكن لا يصح القول بأن السعادة البشرية منحصرة في الأخلاق والمثل. كما أننا لا ننكر أن الاقتصاد من الأسس القويمة للسعادة البشرية ، إذ بدونه لا تحصل السعادة الكاملة ، كما ورد في الحديث : « من لا معاش له لا معاد له » إلا أنه لا يصح القول بأن السعادة البشرية منحصرة في الاقتصاد.

ص: 31

1- المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، تأليف ستالين. ترجمة خالد بكداش ص 62.

وهنا لا بأس بأن نستشهد بكلام لأحد العلماء الغربيين المعاصرين بهذا الصدد : -

« نحن اليوم نسير في جادة الزمن مع التقدم التكنولوجي (1) من دون أن نغير أهمية إلى الاحتياجات الأصلية للجسد والروح. ومع أننا نتخبط في المادة نعتبر أنفسنا بمعزل عنها ولا نحاول أن نفهم بأنه يجب - لأجل الاستمرار في الحياة - السير بمقتضى طبيعة الأشياء وطبيعة أنفسنا لا على طبق الأهواء والرغبات. أن البشرية المتمدنة تتردى منذ قرون طويلة في هذه الهوة السحيقة. وإن تاريخ الانحطاط الخلقي والابتعاد عن الروح الدينية يتفق تماماً مع تاريخ الخروج على القوانين الأصلية للطبيعة. إنه لا يمكن حصر النشاطات البشرية كلها في الجوانب المادية فقط إلا بعد تحطيم شخصية الإنسان لأن الإنسان لم يخلق للأكل والتكاثر بل أقدم منذ نعومة أظفاره على ابتداء التكامل بحب الجمال ، والاحساس الديني والنشاط الفكري ، والشعور بالتضحية والحياة البطولية ... » (2).

« وإذا حددنا الإنسان بنشاطه الاقتصادي فقط فكأننا فصلنا جزءاً كبيراً منه. وعليه فإن الليبرالية والماركسية تسحقان الرغبات الأصلية والنوازع الفطرية في النفس الانسانية » (3).

« إن الفضيلة من القيم الانسانية القديمة ، ويمكن العثور عليها في العالم المتمدن ، إلا أنه يندر العثور عليها في الجماعات التي تزرع تحت نير النظم المادية ، إن المجتمع الذي يقدس الاقتصاد لا يعرف شيئاً عن الفضيلة. لأن الذي يريد الفضيلة لا بد وأن يتبغى إطاعة القوانين الحياتية. أما إذا قيد الإنسان نفسه بالنشاط الاقتصادي فقط فلا يطيع القوانين الكونية والاجتماعية أصلاً » (4).

ص: 32

1- التكنولوجيا : هو العلم الذي يعني بدراسة الفنون وأنواعها وتاريخها.

2- راه ورسم زندكى ص 34.

3- نفس المصدر.

4- نفس المصدر ص 77.

وتذهب طائفة كبيرة من المتمدين اليوم إلى أن الأصل في السعادة الانسانية هو اللذة. وعليه فالسعادة عبارة عن تحقيق اللذات المادية ، والمثل الأعلى للانسان السعيد هو الذي يستفيد من لذات الحياة أكثر من غيره.

ويمكن اعتبار العالم النفسي (سيجموند فرويد) ومن لف لفه ، رافعي راية هذا المبدأ. وكما رأينا أصحاب المبدأ الاقتصادي ينظرون إلى كل شيء بمنظار الاقتصاد ، فإن فرويد يعلل جميع ظواهر الحياة بمنظار الميول والدوافع الجنسية ، ولذلك فهو يقول في موضوع حقيقة السعادة :

« إنه لا يفوتني الادراك بأن الحب هو مركز الحياة ، وعليه فإن الناس يعللون كل فرح ونجاح بالحب والمحبة وهذا الوضع النفسي موجود عند الجميع. إن من المظاهر التي يظهر فيها الحب هو الحب الجنسي الذي يكسبنا حالة من الانجذاب والشعور باللذة. وفي النتيجة فإن هذه اللذة تكون قدوة ودليلاً لميلنا نحو السعادة. فأى شيء إذن أقوم من أن نسلك الطريق إلى السعادة في نفس الطريق الذي صادفناه أول مرة » (1).

أرأيت كيف يعتبر فرويد ، اللذة والشهوة الجنسية مصدراً لكل شيء؟! حتى أنه يقول : إن الشهوة الجنسية هي التي تظهر بمظهر الأخلاق نارة وفي صور العقائد والأديان تارة أخرى وهي نفسها التي تتشكل أحياناً بحنان الأم وعطف الأخ ، فهي الكل في الكل في هذه الحياة!!.

فمظاهر الحياة - عند فرويد - من أخلاقية وفنية ودينية وسياسية واقتصادية واجتماعية ، كلها وليدة الحب والجنس واللذة لا أكثر ، فالمظاهر وإن اختلفت إلا أنها متحدة في جوهرها ومآلها. واستمع إليه يقول :

« إن حنان الأم ، الحب الأبوي والأخوي ، الصداقة والصحة مشتقة من الجنس عند فرويد. وجميع الروابط الاجتماعية بين الأشخاص

ص: 33

كالعلاقة بين المعلم والتلميذ ، والعلاقة بين الأم والطفل وما شاكل ذلك إما أن تمتاز بطابع جنسي من ذاتها أو ترجع إلى أصل جنسي في النتيجة « (1).

ومع أن فرويد يقسم الغرائز الأولى عند الانسان إلى قسمين : الغرائز التي تتعلق بصيانة الذات ، والغريزة الجنسية ، نجده في المقام يغرق في الشهوة الجنسية حتى أنها تنسيه غريزة حب الذات - التي اعترف بها في بادئ الأمر - وكشاهد على ما نقول ، إليك العبارة الآتية :

« إن فرويد يثبت - بمعونة بعض الأمثلة - كيف أن الغريزة الجنسية التي هي أقوى وأعمق القوى الروحية عند الانسان قد تكيفت بصورة مجهولة عبر الزمن ، وظهرت بمظاهر الميول المختلفة والأشكال المتباينة ، بحيث إذا واجه طبيب اختلالاً روحياً - مهما كان جزئياً - يتمكن من أن يحكم بصورة قطعية على أن حادثة غير طبيعية قد طرأت على الجهاز الجنسي والرغبات الجنسية للمريض وعليه فإنه يرجعه إلى حالته الأولى بصورة تدريجية حسب التعاليم النفسية الدقيقة ، ويقلص من إطار مسؤوليته شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى نقطة الاختلال الباعثة على الانحراف في جهازه الجنسي ، هذه هي خلاصة نظرية (فرويد) في العلاج النفسي ... » (2)

هذا هو موجز الاكتشاف العظيم الذي راه فرويد والفرويديون منشأ التحول في العلاج النفسي الحديث. أما كيف استدل فرويد على أن أي اختلال روحي يستند إلى حدوث شيء في الغريزة الجنسية؟! أما كيف لا يكون التطور الحادث في الغريزة الجنسية هو المسبب عن حدوث الاختلال الروحي؟ ... فذلك ما لا يريد أن يفهمه فرويد واتباعه ، نعم! إن كان فرويد يدعي أن أكثر الاختلالات الروحية تستند إلى الغريزة الجنسية فلربما كان يلاقي كلامه هذا قبولاً من القارىء ، وكان يؤدي به إلى أن يفكر في نفسه أن فرويد كان باحثاً عميقاً وأنه استند إلى الاحصاءات الدقيقة

ص: 34

1- المصدر السابق 47.

2- كتاب فرويد ص 62.

للأمراض الروحية ووصل إلى هذه النتيجة ، أما حين يسمعه يقول :

« إذا واجه طبيب اختلالاً -روحياً - مهما كان جزئياً - يمكن أن يحكم بصورة قطعية على أن حادثة غير طبيعية قد طرأت على الجهاز الجنسي والرغبات الجنسية للمريض ... »

هنا يقطع الانسان بأن القائل قد وقع تحت تأثير الغريزة الجنسية إلى درجة أنه لا يتمالك على نفسه من الهذيان والتطاول بالباطل.

لنفرض عاملاً فنياً قد قضى أربعين سنة في عمل ما ، أصيبت عينه في أثناء العمل فدخل المستشفى ، وصرف جميع ما يملك في هذا السبيل وفقد بصره في النهاية. إن التفكير في العمى والبطالة والفقر والبؤس يقض عليه مضجعه ، وأخيراً يؤدي به إلى الاختلال الروحي ، وحين يفحصه الطبيب النفساني يتوصل إلى أن العلة الأصلية في ذلك الاختلال هو فقدان البصر وفقره ...

وهكذا فإن إنساناً محترماً قد أشرف على الشيخوخة يتهم بالسرقة أو الارتشاء من قبل أناس مغرضين ، فيذهب ماء وجهه وذلك يؤدي به إلى الاختلالات الروحية ، فلا يمكن أن يوجد في العلاج النفساني أصل لهذا الاختلال غير الاتهام بالسرقة ... وهكذا فإن أمثال هذه القضايا كثيرة في المجتمع ، ولا ربط لها أصلاً بالأمور الجنسية كما يدعي فرويد.

ولولا أن فرويد نفسه قد اعتبر غريزة حب الذات مغايرة للغرائز الأخرى كحنان الأم وغيره من الميول الطبيعية المتفرعة عن الغريزة الجنسية لكان يصح كلامه هذا وكان قابلاً للتصديق ، أما وأنه ينسب جميع الاختلالات الروحية إلى حدوث تغيرات في الغريزة الجنسية فليس معنى ذلك إلا اعتبار غريزة حب الذات فرعاً من فروع الغريزة الجنسية وهذا ينافي تقسيمه للغرائز إلى قسمين : حب الذات ، والجنس. فإن كنت تعتبر غريزة حب الذات مستقلة عن غيرها من الغرائز الجنسية يا أستاذ فرويد!! فلماذا لا تنسب بعض تلك الاختلالات الروحية التي ذكرتها إليها؟

إنه لا- ريب في أن الغريزة الجنسية تعتبر إحدى الغرائز القوية التي أودعها الله في النفس الانسانية إلا أن فرويد يفرط في هذا الموضوع ويغالي في حقها كثيراً.

ومن يطالع عقائد فرويد في الكتب المختلفة بدقة ، يصل إلى هذه النتيجة في نهاية المطاف ، وهي : إن الانسان مجموعة من اللحم الحي الذي يملك غريزتين إحداهما حب الذات والدفاع عنها ، والأخرى الشهوة الجنسية ، لكن جميع أوجه النشاط البشري في جميع المظاهر الحياتية ترتبط بالأخيرة وهي الغريزة الجنسية فقط.

إنه لم يوجد في تاريخ العلوم البشرية أحد قد تأثر بالغريزة الجنسية واهتم بها بقدر تأثر فرويد بها واهتمامه لها ، ولا يوجد أحد ينظر إلى الانسان هذه النظرة الطفيفة الخسيسة. والعلماء اليوم بالرغم من اعتمادهم على طريقة فرويد في معالجة الأمراض الروحية ، واتخاذهم أساليبه في التحليل النفسي ... يصرحون بأن هذه الطريقة وحدها ليست مجدية. ويجب ألا تنحصر معالجة الأمراض النفسية فيها ...

« إن كثيراً من العلاجات النفسية تكون ذات منظار ضيق ، وحتى التحليل النفساني الذي يؤدي إلى نتائج مرضية في كثير من الأحيان نجده يحصر بحثه على الغرائز فقط. هذه الطريقة توجه همها إلى أن ترضي الغرائز بصورة اتباع مبدأ اللذة. وهذا المبدأ لا يعنى بالجانب الأخلاقي ولا يتحدث عن الهدف الأصلي للشخصية وعلاقاتها الخيرة والشريرة عند تفاعلها بالتكافؤ الاجتماعي ولهذا السبب فلو غضضنا الطرف عن الفشل الذي يلاقيه التحليل النفساني بالنسبة إلى حرية بعض الرغبات والميول المتطرفة ، فإن العلاج النفسي الصحيح يجب أن يكون له هدف أسمى هو رفع شخصية الفرد - بعد ملاحظة أسس الشخصية - وتحقيق الرفاه للفرد والمجتمع على السواء ... » (1)

وبالرغم من أن نظرية فرويد لم تحصل على تأييد كثيرين من العلماء في العصر الحديث ، لافراطها بشأن الغريزة ... فإن الكثير من الغربيين يقرون (مبدأ اللذة) بالنسبة إلى تحقيق السعادة البشرية. إن أساس البحث حول تحقيق السعادة في الدول الأوروبية والأمريكية يدور على العمل لحياة أفضل وعيشة ترفل بالاستفادة من

ص: 36

اللذائذ ... ولهذا فإن قسماً كبيراً من الجهود البشرية في العالم المتمدّن قد خصص لجلب اللذائذ ، وإن الفضائل المعنوية والمثل العليا قد فقدت أهميتها بالنسبة إلى أكثر الناس حتى يذهب بعضهم إلى أنهم في غنى عنها :

« ومنذ حل الخلق النفعي مكان الخلق الديني والنفسي ، فإن الفضيلة لا تعتبر أمراً ضرورياً في نظر المتمدّنين ، بحيث يرى (رومن) أنه لا داعي لنا أصلاً لأن نكون أتقياء ، وإن اختيار الفضيلة سينحصر في علاقتها بالنفع واللذة الفرديين فقط ... » (1).

هذا الأسلوب من التفكير يعد خطأ فظيلاً من المدينة الحديثة ، وهو أعدى أعداء الانسانية وقيمها ومثلها الرفيعة ... وعلى أثر اللامبالاة تجاه الإيمان والفضائل المعنوية ، فإن عالم الغرب تنتشر فيه الجرائم يوماً فيوماً والشبان ينصرفون إلى هوة سحيقة من التردّي والتحلل والفساد وإن الاحصائيات السنوية في الدول الأوروبية والأمريكية لتدل على ازدياد السرقة والخيانة ، والاغتيا ل والانتحار إلى غير ذلك من أنواع الجرائم. وإن من المؤسف أن لا تكون بلادنا معدومة النصيب في هذه المشاكل والجرائم. وهنا يستطيع كل فرد أن يدرك أن المجتمع الذي يتمثل الهدف الأسمى من حياة أفرادهِ في اللذائذ المادية ولا تزيد الفضائل فيه على أنها تعتبر في عداد الأوهام والخيالات ، فإن الفساد والتفسخ يسرعان كالسيل الجارف إلى غزو أولئك الأفراد ويهددان حياتهم المادية والمعنوية بالفناء والدمار.

مبدأ الواقع :

إن الاسلام يبني أساس لسعادة البشرية على مبدأ الواقع أو الفطرة ... إنه ينظر إلى الانسان نظرة السماء الدقيقة ويؤسس سعادته على فطرته الواقعية وجبلته التي جبل عليها ... إنه ينظر إلى الانسان من جميع جوانبه المادية والمعنوية ، الروحية والجسدية ، ويحسب لكل جانب حسابه الخاص.

ومن هنا يظهر أن الذين كانوا يبحثون عن السعادة البشرية في الكمالات

ص: 37

1- راه ورسم زندكى للدكتور الكسيس كارل ترجمة برويز دبيري ص 79.

الروحية ومحق الغرائز الجسدية وكبتها ، وقعوا في خطأ فادح فقد أهملوا حق نصف من وجود الانسان.

وكذلك الذين يرون اليوم انحصار سعادة البشر في تقويم الاقتصاد أو اللذة والشهوة وإهمال الجانب المعنوي فيه. فإنهم خاطئون جداً.

إن الانسان يتكون من جسد وروح ، وعليه فهناك نوعان من الرغبات في داخله : الرغبات المادية والميول المعنوية. فمن أجل برغبة من الرغبات الفطرية عند الانسان ، فإنه يخل بالسعادة الانسانية بنسبة ما أهمل من رغبته. إن السعادة البشرية شأنها شأن شجرة باسقة تحمل آلاف الأغصان فبعضها يرتبط بالجانب المعنوي والروحي من الانسان ، وبعضها يرتبط بالجانب المادي منه ، والسعادة الحقيقية إنما تكون لمن تظله هذه الشجرة الطيبة بجميع غصونها وفروعها ، وتحيا فيه جميع الرغبات الظاهرية والباطنية.

إن التعاليم الاسلامية تستند إلى الفطرة ... الفطرة المودعة من قبل الله في خلق كل فرد ، والتي لا تتغير ولا تتبدل أصلاً :

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (1).

فالاسلام هو الدين القيم ... والمنهج الرصين الذي يماشي قانون الفطرة والخلقة. ولهذا فإن النجاح الأكيد سيكون للاسلام ، وإنه سينتصر على المذاهب والمبادئ الأخرى بحكم الجبرية التاريخية شاء أعداؤه أم أبوا :

«هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (2).

حجر الأساس في السعادة :

ولكي نثبت نظرة الاسلام الشاملة إلى الميول الفطرية عند الانسان - ماديها

ص: 38

1- سورة الروم 30.

2- سورة التوبة 33.

ومعنويها - في ما يخص السعادة البشرية نلفت أذهانكم إلى النقاط التالية :

الإيمان والأخلاق :

إن الإيمان بالله ، وتركيز النفس وتطهيرها من الجرائم والآثام ، والمواظبة على التحلي بالفضائل الانسانية تشكل حجر الأساس في بناء سعادة البشر ، وتعد من المناهج المهمة التي يتخذها الاسلام في هذا المجال.

وقد وردت في ذلك مئات الآيات والأحاديث.

يقسم الله تعالى في سورة العصر. بأن جميع الناس من أي عنصر كانوا ، وفي أي زمان عاشوا مبتلون بالخسران والبؤس ، إلا الذين أحرزوا بعض الصفات ، أولها الإيمان بالله :

«وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ... » (1) وفي سورة الشمس يقسم بالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والذي بناها ، والأرض والذي بسطها ، والنفس الانسانية والله الذي وازن بين عناصرها. وألهمها الخير والشر ...

« ... قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) » (2).

قسماً بكل هذه الآيات الالهية على أن السعادة والفلاح إنما يكونان لمن طهر نفسه من الآثام ونزه روحه عن الجرائم. وإن الشقاء والخيبة إنما تكونان لمن تلوث بالآثام والجرائم.

يقول الامام علي (عليه السلام) : « عنوان صحيفة المؤمن ، حسن خلقه » (3).

إن الآيات الكثيرة الواردة في القرآن حول السماء والأرض والأشجار والحيوانات ، والنطفة والجنين ... إلى غير ذلك من مختلف جوانب الوجود ، كلها تهدف إلى أن يوجه الانسان نظره إلى الخالق الكبير فيشتد إيمانه بالله العظيم. وإن الآيات الواردة بشأن الملكات الفاضلة والمثل العليا أو التي تذكر الصفات الرذيلة وتفصل القول في ذمها ، إنما نزلت لدعوة الناس إلى اكتساب الفضائل واجتناب

ص: 39

1- سورة العصر 2.

2- سورة الشمس 9.

3- سفينة البحار ص 410 مادة (خلق).

الردائل ، ولذلك فان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) يبين الواجب الذي بعث من أجله فيقول : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (1).

إن كل مسلم يعلم جيداً اهتمام الاسلام البالغ بالروح والكمال والأخلاق ، لكن من الواضح لكل مسلم أيضاً أن الروح والكمال والأخلاق ليست هي الكل في الكل بالنسبة إلى سعادة الانسان في الاسلام ، أن الاسلام لا يحصر اتباعه في حلقة من المعنويات فقط ، بل انه حين يدعوهم إلى تكميل الجانب الروحي يعني تمام العناية بالجانب المادي فيهم ولذا ندهم الطبيعية. ولأجل أن نتبين موقف الاسلام الصريح في هذا الموضوع علينا أن نتحدث عن رأي القرآن والحديث في المبدأ الاقتصادي ومبدأ اللذة - وهما المبدآن المتداولان في العالم المتمدن اليوم -.

لا شك في أن النشاط الاقتصادي واستغلال الجهود البشرية للانتفاع من الذخائر الطبيعية ، لهو من أقوم الارشادات الدينية. وقد وردت بهذا الصدد نصوص كثيرة. ان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليه السلام) يقدرون النشاط الاقتصادي كثيراً ، وهو يبلغ درجة قد يبدو الحث عليه فيها غريباً. ولأجل معرفة قيمة الاقتصاد في الاسلام نورد هنا بعض النصوص :

الجهد البشري :

1 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة » (2).

فالسعي وراء المال الحلال لضمان المعيشة واستمرار الحياة واجب على كل فرد من المسلمين.

2 - وقال أيضاً : « من أكل كد يده كان يوم القيامة في عداد الأنبياء ، يأخذ ثواب الأنبياء » (3).

ص: 40

1- المصدر نفسه.

2- بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج 23 6.

3- المصدر السابق.

وفي هذا الحديث يقارن بين من يكد ليحصل على قوت يومه ، والنبي الذي يكد لحياء الناس .

3 - وفي الحديث : « الكاد على عياله ، كالمجاهد في سبيل الله » (1)

فهذا يجاهد لدفع الضرر المادي عن المسلمين ، وذاك يكافح لدفع الضرر المعنوي ، ودفع الضررين كليهما مطلوب .

4 - وسئل الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أي كسب الرجل أطيب؟ فقال : عمل الرجل بيده » (2).

5 - كما ورد في الأسلوب الذي كان يعيشه الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « كان لما يفرغ من الجهاد يتفرغ لتعليم الناس والقضاء بينهم ، فإذا فرغ من ذلك اشتغل في حائط له يعمل فيه بيديه وهو مع ذلك ذاكراً لله تعالى ... » (3).

6 - عن عبد الله بن عباس : « كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا نظر إلى الرجل فأعجبه ، قال : هل له حرفة؟ فإن قالوا : لا ، قال : سقط من عيني » (4).

استغلال القوى الطبيعية :

وبعد أن أوردنا بعض الأحاديث حول الحث على الجهد البشري والانتفاع منه في شتى المجالات ، لنسرد بعض النصوص الواردة بشأن استغلال القوى الطبيعية والاستفادة منها :

1 - في الحديث : « إن قامت الساعة ، وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها » (5). فمن خلال هذا الحديث ندرك مدى اهتمام الاسلام بتشغيل القوى العاملة لاستغلال كنوز الأرض والاستفادة من خيراتها وعدم التماهل بشأنها ، حتى أنه ليحث الانسان على أن يبادر إلى غرس الفسيلة (أو

ص: 41

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج 2 424.

2- المصدر السابق ج 2 417.

3- المصدر السابق ج 2 417. والحائط : البستان.

4- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 23 6.

5- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج 2 501.

أي جهد إنتاجي آخر) وإن علم بأن القيامة ستقوم بعد لحظات.

2 - قال الامام علي (عليه السلام) : « نعم المال النخل ، من باعها فلم يخلف مكانها فإن ثمنها بمنزلة رماد على رأس شاهقة اشتدت به الريح في يوم عاصف ». ولا يخفى أن ذكر النخل ليس محصوراً فيه ، وإنما عبر به الامام لأن النخيل أكثر انتشاراً من غيرها من الأشجار في الجزيرة العربية ، فتراه ينهى عن بيع النخل من دون أن يكون قد زرع نخلاً في مكان آخر يستفيد منها في المستقبل.

3 - وفي حديث عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة ، إلا كانت له به صدقة ».

4 - يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « من وجد ماءً وترباً ثم افتقر ، أبعد الله » (1).

فهنا نجد (عليه السلام) يندد بالذي يملك المواد الأولية للزراعة وهي الماء والتربة. وتتوفر له الظروف الصالحة فلا يستغلها ويبقى فقيراً ، فإنه يستحق غضب الله ولعنته.

وهكذا نجد الاسلام يهتم بأمر العمل والانتاج وتشغيل دولب الاقتصاد الوطني إلى درجة لا تسمح بالتكاسل والتواني حتى في أخرج الظروف وأتعب الأوقات. فنجد الامام الصادق عليه السلام يقول لهشام : « يا هشام إن رأيت الصفيين قد التقيا ، فلا تدع طلب الرزق في ذلك اليوم » (2).

وبالرغم من هذا الحث الشديد وهذا الاهتمام البالغ بشأن الاقتصاد والتأكيد على العمل لتقويمه وتقويته في الاسلام ، فإنه لا يعتبر الكل في الكل بالنسبة إلى تحقيق السعادة الانسانية ، ولا يعطى أكثر مما يستحقه.

إن النشاط الاقتصادي وتشغيل القوى والجهود البشرية لاستغلال الذخائر الطبيعية ليس إلا فرعاً من فروع شجرة السعادة في الاسلام ... نعم لا بد لنا أن

ص: 42

1- بحار الأنوار للمجلسي ج 23 19.

2- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة ج 12 14.

نعترف بأنه فرع مهم وحيوي في تلك الشجرة. إلا أن الذين يعتبرون الاقتصاد هو الأساس في السعادة ، فإن اعتبارهم هذا يكشف عن عدم معرفتهم بحقيقة الانسان. ولذلك فهم ينزلونه - بنظرتهم هذه - عن مقامه الرفيع إلى مستوى آلة صماء أو حيوان فاقد الشعور.

الرهانية :

كان يظن كثير من الناس والفلاسفة في الماضي - ولا يزال الكثير منهم يظن - بأن الطريق إلى السعادة البشرية ينحصر في كبت الغرائز الحيوانية ، وإطفاء الميول الجنسية. وكانت هذه العقيدة حتى زمن قريب شائعة جداً في أوروبا وأمريكا. فقد وجد في العالم المسيحي نساء ورجال كثيرون يترهبون باسم الدين ويتركون الدنيا وملاذها ، ويعرضون عن قانون الخلقة المتقن ومنهج الفطرة السليمة أي الزواج الصحيح. وكان وقع هذا الترهب حسناً جداً في نفوس المسيحيين ... ظالين أنهم يتمكنون بهذا العمل أن يتخلصوا من قيود الحيوانية ويصلوا إلى الانسانية الحقيقية فيصبحوا كملائكة السماء في الطهارة والروحانية والتجرد :

« كان أكثر الفلاسفة وعلماء الأخلاق قبل فرويد ينبذون الغرائز ، أي أنهم كانوا يصرحون أحياناً ويلمحون أحياناً أخرى بأنها عوامل تجر الانسان إلى الخصائص الحيوانية وكانوا يؤكدون على أن التمدن الصحيح لا يمكن أن يتحقق في المجتمع إلا بالصراع العنيف مع تلك الغرائز التي كانوا يعتبرونها (أرواحاً حيوانية). وبعبارة أخرى فإن هؤلاء المفكرين كانوا يقولون بأن هذه الغرائز تمنع البشرية من التكامل ، ولو كان يمكن أن تفقد من المجتمع بالمرة ، كان من السهل إيجاد حياة اجتماعية متكافئة ومرتنة » . (1)

إن الغرائز الحيوانية والميول الجنسية تلعب دوراً مهماً في كيان الانسان ووجوده. فإن الله خلق البشر ، مع هذه الغرائز. وكل ما أودعه الله الحكيم في خلق الانسان فلا بد وأن يكون لمصلحة معينة.

ص: 43

إن الاسلام العظيم الذي لم يغفل جانباً من جوانب الحياة ، ولم يغمط الحقائق الفطرية المؤثرة في سعادة البشر حقها ... ليوصي المسلمين بالاستجابة للغريزة الجنسية وممارسة ميولهم الغريزية حسب منهج سليم ، ولذلك فانه يعتبر الامتناع عن الزواج عملاً غير مرغوب فيه. ويرى أن العزاب يشكلون خطراً مهماً على سلامة المجتمع ، فالرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : « شرار أمتي عزابها » (1).

ومن خلال سيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تجاه العازفين عن الزواج في المدينة ندرك مدى اهتمام الاسلام بهذه الناحية. فقد كان هناك رجل يسمى (عكاف) قد أعرض عن الزوج ، وقد حضر مجلس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مرة فسأله النبي عن إمكانياته وظروفه المالية والبدنية ، فأجاب بالاجاب فقال له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حينذاك بكل صراحة : « تزوج وإلا فأنت من المذنبين » (2).

إن التهرب والاعراض عن الدنيا يعتبر عملاً حسناً ومرغوباً فيه من الوجهة الدينية في عالم الغرب ، بينما القضية على عكس ذلك تماماً في الاسلام فالاعراض عن الزوج في نظره لا يعد سيئة فحسب ، بل يعتبر إعراضاً عن طريق الفطرة المستقيم وانحرافاً عن سنة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو يقول : « النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني ».

ومع أن الحث على الزواج والتأكيد على إرضاء النوازع الفطرية قد ورد بصورة كثيرة في القرآن الكريم والروايات العديدة ، فإن الشهوة لم تعرف أصلاً ثابتاً للسعادة ، بل يعتبرها السلام فرعاً من فروع شجرة السعادة لا غير .

السعي وراء اللذة :

يدعي (فرويد) أن الشهوة الجنسية تظهر في الانسان بصور مختلفة واللذة عبارة عن الاستجابة للميول الجنسية في مظاهرها المختلفة وصورها المتباينة. ويدعي

ص: 44

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج 2 531.

2- المصدر السابق.

آخرون : أن هناك ميولاً مستقلة ، وغرائز أخرى غير الغريزة الجنسية. وعليه فيجب الاستجابة لجميع تلك النوازع والغرائز ... وعلى أية حال فالأمر الذي لا خلاف فيه ، هو أن الانسان يشعر بارتياح شديد عندما يستجيب لميوله. وهذا الشعور بالارتياح هو الذي يعبر عنه باللذة ، والذي يبعث الحرارة والحيوية في المجتمعات البشرية ويهيئ فيهم عواطفهم. ولذلك فإن المجتمعات الحديثة تعتبر جلب اللذة أسمى الأهداف التي تهضم في نفسها قسماً كبيراً من نشاط العالم المتمدن حتى ظن البعض أنهم لم يخلقوا إلا لممارسة نشاطهم الجنسي وتحقيق اللذة.

ومن المؤسف أن الطبيعة قد ركبت بصورة نجد فيها امتزاجاً تاماً بين الآمال والآلام ، واللذة والألم. وهذا ما يوجب محدودية البشر في سلوكهم :

« إنه لا ينكر أن الاستجابة للميول الغريزية توجب الشعور باللذة عند الانسان ، ولكن في الغالب تصطدم هذه الاستجابة بآلام وليدة ظلم الطبيعة. إذن فالحياة حتى لو شابها حياة الحيوانات في الحرية فإنها لا توجب السعادة ، ولهذا فإن الفلاسفة وعلماء الأخلاق يرجحون أن يصرفوا بحوثهم في إيجاد الأساليب التي تهدى الآلام وترفع المصاعب عن طريق الحياة ، فنهضوا قد وصلوا إلى هذه النتيجة ، وهي : أن كل ألم معلول لا دراك معين ، وعليه فيجب السعي لا زالة أو تخفيف العلل الروحية والبدنية التي تؤدي إلى ذلك الإدراك ولذلك فإن أول علاج يجده الانسان في هذا السبيل هو استعمال المواد الكحولية والمخدرة الأخرى » (1)

وبالرغم من وجود المشاكل العديدة في طريق تحقيق اللذة ... فإن البشر لا يقتنع ولا يقف عند حد في السعي وراء رغباته الغريزية.

إن الاسلام لا يكتفي بالموافقة على الاستجابة للرغبات الفطرية فحسب ، بل يعتبر ذلك من شؤون تحصيل السعادة البشرية. إلا أنه يحسب حساباً دقيقاً لذلك. فإن إرضاء الغرائز والاستجابة لها مسموح في نظرة إلى حيث لا يؤدي إلى الشقاء

ص: 45

والفساد ، ولا يهودي بالمجتمع إلى هوة سحيقة من الاجرام والدنس.

إن من المستحيل أن يحصل الفرد - في أي مجتمع كان - على حريته المطلقة في الاستجابة لميوله وغرائزه ... إذ بعد الفراغ من وجود الحواجز الطبيعية أمام ذلك ، فإن الاخلال بالنظام والأمن أو الحرية الاجتماعية عامل قوي في إيقافه عند حده. ومن هنا نجد الاسلام لا يكتفي بالمنع من بعض اللذات التي يمنع منها العالم المتحضر في القرن العشرين ، بل يستنكر أشد الاستنكار اللذات التي تهدم صرح الإيمان والتقوى ، وتخالف الأسس الاخلاقية والانسانية. أما اللذات التي لا تؤدي إلى ضرر مادي أو معنوي كالزوجة الجميلة ، والطعام اللذيذ ، والملابس الأنيقة ، والدار الواسعة ، والمركب الحسن ، والرفاه في المال والمناظر الطبيعية الخلابة ... وعشرات غيرها من الأمور التي تعد إرضاء للميول الغريزية بشكله المعقول فإن الاسلام يعتبر ذلك جزء من منهجه القويم في تحقيق السعادة البشرية.

إرضاء الميول الغريزية :

وعلى سبيل المثال نستعرض بعض الشواهد من النصوص على ما ذهبنا إليه :

1 - قوله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » (1).

2 - قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » . (2)

3 - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أفضل نساء أمتي أصبحهن وجهاً وأقلهن مهراً » (3).

4 - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً : « إن من سعادة المرء المسلم أن يشبهه ولده ، والمرأة الجملاء ذات دين ، والمركب الهني ، والمسكن الواسع » (4)

ص: 46

1- سورة الأعراف 31.

2- سورة الأعراف 32.

3- بحار الأنوار للمجلسي ج 23 55.

4- بحار الأنوار للمجلسي ج 23 51.

5 - وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً: « أربع من سعادة المرء : الخلفاء الصالحون ، والولد البار ، والمرأة المواتية ، وأن تكون معيشته في بلده » (1)

6 - عن الامام الصادق (عليه السلام) : « ثلاثة هي من السعادة : الزوجة المواتية ، والولد البار ، والرزق يرزق معيشة ، يغدو على صلاحها ويروح على عياله » (2)

7 - وفي الحديث الشريف : « من سعادة المرء دابة يركبها في حوائجه ويقضي عليها حوائج إخوانه » (3)

8 - وعن الامام الصادق (عليه السلام) : « من السعادة سعة المنزل » (4)

9 - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من سعادة المرء : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والمركب البهي ، والولد الصالح » (5)

تجاوز حدود الفطرة :

وهكذا يتبين لنا أن الاسلام يعتبر إرضاء الميول الغريزية للبشر أمراً محبذاً ، ويهتم بذلك على أن من فروع السعادة البشرية ، أما أن يعتبرها أصلاً في ذلك فلا! إذ أن الذي يغرق في الملاذ؟ ويحصر نفسه في سجن الشهوة والغرائز فقط يكون قد حاد عن الفطرة الانسانية السليمة التي تأبى هذا النوع من الحياة ... حياة البهائم ... حياة الميوعة.

من هنا تأتي الكلمة القاطعة الصريحة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من لم ير الله عز وجل عليه

ص: 47

1- بحار الأنوار للمجلسي ج 23 55. ومعنى (أن تكون معيشته في بلده) أن يكون في رفاه اقتصادي فلا يضطر للخروج إلى غير بلده للتكسب وطلب العيش.

2- بحار الأنوار ج 23 50. والمرأة المواتية : المطيعة.

3- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 138. والدابة إذا توسعنا في معناها وقسنا الظروف أمكن شمولها للسيارة مثلاً في عصرنا الحاضر.

4- مكارم الأخلاق ص 65.

5- مكارم الأخلاق ص 65. وفي هذا الحديث (المركب البهي) بينما كان في الحديث رقم (المركب الهني). والظاهر تقارب معنييهما. إذ الأول يدل على المركب الوقر اللائق بالراكب. والثاني يكتفي بذكر الارتياح به في ركوبه.

نعمةً إلا في مطعمٍ أو مشربٍ أو ملبسٍ ، فقد قصر عمله ودنى عذابه « (1).

فالسعادة الحققة للبشر - في نظر المشرع الأعظم - هي في اكتمال جميع الجوانب المادية والمعنوية وإرضاء كل الميول الانسانية المشروعة وهكذا فمن يتخلى عن ميوله المادية بحجة الالتفات إلى الجهات المعنوية فهو مخطيء في نظر الاسلام ، وكذلك من يتخلى عن كمالاته الروحية سعياً وراء إرواء ظمأ شهواته وغرائزه. يقول الامام الباقر (عليه السلام) : « ليس منا من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه » (2).

تعاقل الروح والجسد :

إن حفظ التوازن بين الروح والجسد أهم عوامل النجاح والسعادة وإن أئمة الاسلام عليهم السلام كانوا إذا لا حظوا إفراطاً أو تقريظاً في سلوك أصحابهم في جانب مادي أو معنوي ، إهتموا بتعديل ذلك الانحراف وتسوية ذلك الخطأ.

كان في البصرة أخوان ، أحدهما : علاء بن زياد الحارثي ، والآخر عاصم. وكانا كلاهما من المخلصين لعلي (عليه السلام) ، وكانا مختلفين في السلوك ، فعلاء مفرط في حبه للدنيا وجمعه للمال ... أما عاصم فكان على العكس منه مدبراً ظهره للدنيا ، صارفاً جل وقته في العبادة وتحصيل الكمالات الروحية. وفي الواقع كانا كلاهما قد تجاوزا الطريق المستقيم ، وانحرفا عن الصراط السوي ...

وذات يوم مرض (علاء) فذهب علي (عليه السلام) لعيادته ، وما أن استقر به الجلوس حتى التفت الإمام إلى سعة عيشه وإفراطه في سعيه وراء المادة ، فخاطبه قائلاً : وماذا تصنع يا علاء بهذه السعة المفرطة من العيش؟ إنك إلى تحصيل وسائل سعادتك المعنوية أحوج ، فاسع في ذلك الجانب أيضاً ... ثم قال (عليه السلام) : اللهم الا أن تكون عملت ذلك كله لتمهيد طريق السعادة المعنوية ، لتتمكن من استقبال أكبر عدد ممكن من الضيوف في بيتك ، وتستطيع من صلة أرحامك وأداء حقوق إخوانك بأكمل وجه [ملاحظة : لمعرفة نص الكلام يراجع نهج البلاغة].

ص: 48

1- سفينة البحار مادة (دنى) ص 464.

2- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة للحر العاملي ج 4 106.

لقد أثر هذا الدرس البليغ - بأسلوبه الهادئ المتين - في (علاء) كثيراً ، وجاشت به العواطف للشكوى من تقريظ أخيه فقال : « أشكو إليك عاصم ابن زياد قال : وما له؟ قال : لبس العباء وتخلّى من الدنيا. قال : علي به! ».

وبعد أن أحضر عاصم بين يدي الامام وبخه قائلاً : « يا عدي نفسه (1) ، لقد استهّام بك الخبيث ، أما رحمت أهلك وولدك؟ أترى الله أحل لك الطيبات ، وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك ... ».

من خلال سرد هذه الحادثة التاريخية يتضح مدى استقامة المنهج الاسلامي الذي نطق به الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) ، وهو يعبر عن نظرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وحكم الله عز وجل ... لكن بقيت في نفس عاصم بن زياد مشكلة لم يجد لها حلاً ، وهي كيفية التوفيق بين كلام الامام (عليه السلام) وعمله ، حيث قد زهد في الدنيا وترك الملاذ ، فجاشت عواطفه وما أسرع أن قال :

« ... يا أمير المؤمنين : هذا أنت في خشونة ملبسك ، وجشوبة مأكلك؟! قال : إني لست كأنت ... إن الله فرض على أئمة الحق أن يقدرُوا أنفسهم بضعة الناس ، كي لا يتبيغ بالفقير فقره ... » (2).

هذه هي خلاصة سريعة لعرض الآراء المختلفة - قديمها وحديثها - حول تحقيق سعادة الانسان وقياسها بتعاليم الاسلام العظيمة وحلوله الشافية ...

على أن من الضروري أن نعلم : أن الأسس الأولى لسعادة الانسان إنما تخطط في رحم الأم. وإن التحقيقات العلمية الدقيقة أثبتت : إن العالم الرحم دوراً مهماً في تقرير سعادة الانسان أو شقائه ، ولهذا فسنحاول أن نتكلم بشيء من التفصيل عن هذا الدور في المحاضرة القادمة إن شاء الله.

ص: 49

1- عُديّ : تصغير عدو.

2- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج 11 32 ، طبعة دار الاحياء. وقوله (يتبيغ) أي يهيج به. كما يقال : (تبغ الدم بصاحبه) أي : هاج به.

قال الله تعالى في كتابه العظيم : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »(1).

يتطلب هذا البحث دقة وتعمقاً من الجهتين : العلمية والدينية. وللتمهيد إلى صلب الموضوع لا بد من توضيح بعض الأمور التي تتعلق بالبحث. هذا ولا يغيب عن البال أن الاكتشافات العلمية الحديثة ساعدت على فهم بعض الآيات والروايات كثيراً. ومن تلك الموارد موضوعنا اليوم ، حيث نأمل أن نتمكن من الاستفادة من التجارب العلمية الحديثة للوصول إلى أسرار بعض الآيات ، ونكات بعض الروايات المتعلقة بالموضوع ، والآن لنبدأ بذكر المقدمات :

معنى السعادة والشقاء :

إن أول نقطة يجب فهمها من الروايات والأحاديث في موضوع السعادة والشقاء وعلاقتها برحم الأم ، هو فهم معنى السعادة والشقاء.

السعادة : حسن الحظ. ويشمل كل ألوان الخير والراحة والرفاه والبركة ...

والشقاء : سوء الحظ. ويشمل جميع صنوف الشر والقلق والضيق والشدة ...

ومن هنا يظهر شمول كلتا الكلمتين واتساع دائرتيهما لكثير من المعاني ولكن كثيراً من الناس ينتقلون من لفظة (الشقاء) إلى معنى فقدان الإيمان والمعصية فقط. فالشقي عندهم هو المنغمس في الجرائم والمعاصي ، في حين أن الجريمة إحدى

ص: 50

مراتب الشقاء فقط. وهناك كثير من الأمور لا تعد ذنباً أو معاصي في عرف الشرع لكنها - مع ذلك - توجب الشقاء للإنسان. كما تصرح بذلك بعض الروايات ، نكتفي بنقل واحدة منها :

قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أربع من السعادة وأربع من الشقاوة. فالأربع التي من السعادة : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب البهي. والأربع التي من الشقاوة : الجار السوء والمرأة السوء ، والمسكن الضيق ، والمركب السوء » (1).

وبالرغم من أن المسكن الضيق والمركب السوء ليسا من الأمور التي توجب للإنسان معصية أو جريمة. فاننا نجد الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) يعدهما من أسباب شقاء الإنسان. وإذا كان المركب السوء والمسكن الضيق من شقاوة الرجل فيمكن اعتبار العمى والجنون منها بطريق أولى ، فإذا خلق الطفل أعمى في بطن أمه ، أو ولد مجنوناً لجنون في أبيه أو حمق في أمه ... فيمكن القول بأنه كان شقياً في رحم أمه.

قانون الوراثة :

أدرك الإنسان منذ أمد بعيد ، أن الموجود الحي ينقل كثيراً من الصفات والخصائص إلى الأجيال التي تليه ، فالجيل اللاحق يكتسب صفات الجيل السابق. فبذرة الزهرة تحفظ في نفسها خصائص الساق والورقة والزهرة والألوان الطبيعية لها ، وبعد الانبات تأخذ بإظهار تلك الخصائص واحدة تلو الأخرى.

إن بذرة المشمش تشتمل على جميع الصفات المائزة للشجرة التي وجدت منها ، فعندما تزرع هذه البذرة ، وتنبت ، وتأخذ بالنمو تظهر تلك الصفات تدريجياً. وهكذا فالقطة الصغيرة تشبه أبيها في هيكلها وشعرها ومخالبها. وترث صفات أسلافها. وكذلك الطفل الأفريقي فهو يشبه أبوه في سواد البشرة وتجعد الشعر ، ووضع الأنف

ص: 51

ولون العيون في حين أن الطفل الأوروبي يرث المميزات التي يختص بها العنصر الذي ينتمي إليه أبواه في لون البشرة والعيون والشعر ووضوح الأنف وما شاكل ذلك.

وبصورة موجزة نقول : إن قانون الوراثة من القوانين المهمة في حياة الموجودات الحية. وهذا القانون هو الذي يكفل للنبات والحيوان والانسان بقاء صورها النوعية الخاصة بها ... وعلى هذا الأساس يكتسب الأبناء صفات الآباء من دون حاجة إلى أي نشاط إرادي منهم.

عامل الوراثة :

حققت العلوم التجريبية انتصارات رائعة في مختلف مظاهر الطبيعة. وبذلك كشفت اللثام عن كثير من الحقائق التي كانت مجهولة لدى السابقين ولقد سائر (علم الأجنة) و (البحث عن الخلية) التقدم العلمي في المجالات الأخرى في تكامله وتوسعه يوماً بعد يوم.

لقد استطاع العلماء أن يفحصوا الموجودات الصغيرة بواسطة أجهزة قوية ومكروسكوبات (مجاهر) دقيقة ، توصلوا أخيراً إلى أن منشأ ظهور الموجود الحي هو وحدة صغيرة جداً تسمى (الخلية) ، وهذه تتكامل تحت شروط معينة ، وتظهر بصورة حشرة أو حيوان أو إنسان. إن اكتشاف هذا السر الدفين عقد قانون الوراثة أكثر ، وأدى إلى توسع البحوث فيه والتساؤل عن أسرار هذه الخلية وكيفية تأثير عوامل الوراثة فيها وأين تكمن؟.

« لقد صرف علماء الحياة وقتاً كثيراً خلف الميكروسكوبات في البحث عن أسرار الخلية. فإن المسألة كانت محاطة بمشاكل عديدة. فهم كانوا يواجهون الخلية من جهة وكيف أن هذا العضو المادي يحتفظ بخواصه الفيزيائية والكيميائية ، ومن جهة أخرى كانوا يصطدمون بقوانين الوراثة التي أخذت تتضح حسب معادلات رياضية دقيقة تبعاً لقانون (مندل) ».

« فأين يكمن عامل الوراثة؟ وفي أي جزء من الخلية؟ وعلى أي الأعضاء يقع عبء هذه الظاهرة؟ أي جزء من (البروتوبلازم) وأي

جانب من (النواة) يجعل الطفل يرث شكل أنف أمه وعيني أبيه. والصفة الفلانية من أجدادة؟! » (1)

وبعد الجهود العظيمة والتتبع الدقيق توصل العلماء إلى أن في الخلية (نواة) ببيضية الشكل ذات جدار مرن ، توجد في داخلها أجسام صغيرة تظهر عند انقسام الخلية ، ولقد أسموها ب- (الكروموسومات).

« ولقد توصل كثير من علماء الحياة إلى معرفة أعدادها وأثبتوا أن كل خلية من خلايا جسم الانسان تحوي 48 كروموسوماً ، وخلية الفأرة 40 ، والذبابة 12 ، والحمص 12 ، والطماطم 24 ، والنحلة 32 ... الخ » (2)

ولقد خطا العلماء في تحقیقاتهم العلمية في هذا المضمار خطوة أخرى ، فتوصلوا إلى أن في (الكروموسومات) أجساماً صغيرة جداً أطلقوا عليها إسم (الجينات) ، وأثبتوا أن هذه الأجسام هي الناقلة للصفات الوراثية في الحقيقة. فالجينات هي التي تؤثر في انتقال صفات الشعر والبشرة ووضع الأنف والشفيتين وغير ذلك من الصفات من الآباء والأمهات إلى الأولاد.

« ولقد أثبت علم الوراثة الحديث ، أن الصفات الوراثية تنتقل بواسطة الكروموسومات وتتوزع توزيعاً خاصاً في الخلايا التناسلية وعليه فإن لهذه الكروموسومات أجزاء صغيرة جداً يبلغ عددها العشرات والمئات تسمى ب- (الجينات) ، وهي تكون العوامل الوراثية. لقد توصلوا إلى وضع هذه الجينات في نوع من الذباب

ص: 53

1- تاريخ علوم ص 707 ، تأليف بي يروسو ترجمة حسن صفاري وهو كتاب قيم طبع سنة 1954 م للمرة الخامسة والستين باللغة الفرنسية عدا الترجمات إلى اللغات الأخرى.

2- المصدر نفسه. وهنا يلاحظ أن عدد هذه الكروموسومات زوجي في كل خلية ، فكروموسومات خلية الانسان 24 زوجاً ، والفأرة 20 زوجاً ، والذبابة 6 أزواج ، وهكذا ... فهذه تنقسم عند تكوين الخلايا التناسلية في الأحياء إلى قسمين لكي لا يتعاضم عددها بل يبقى ثابتاً في كل نوز. لأن بقاءها على حالها يؤدي إلى تضاعف عددها لاجتماع الخلايا الذكرية والأنثوية ، وهكذا تزداد في كل مرة إلا أن انقسامها يجعل عددها ثابتاً. وهذا الانقسام يسمى بالانقسام الخيطي.

اسمه (دروزوفيل) وعينوا مراكز تلك الجينات بالنسبة إلى الكروموسومات وعرفوا أبعادها ... » (1)

« إن الصفات الوراثية ترتبط بعوامل معينة تسمى ب- (الجينات) وإن عددها كثير جداً. هذا ولا تخلو الجينات من تأثير على بعضها البعض. فقد يرتبط تأثير واحد بعدة جينات بمعنى أن كلاً منها ينقل جزء معيناً من تلك الخواص والصفات ... » (2).

الوراثة قبل تطورها :

لم تكن البشرية تجهل قانون الوراثة تماماً فيما مضى ، بل كانوا يجهلون خصوصياتها ، إن علماء الماضي كانوا يعلمون أن في بذرة الزهرة ونواة الشجرة ونطفة الانسان والحيوان ذخائر تنقل صفات الأجيال السالفة للأجيال اللاحقة.

إن ما اكتشفه علماء الوراثة اليوم ، وتوصلوا إليه بأبحاثهم الدقيقة من وجود موجودات صغيرة داخل الكروموسومات تنقل الصفات الوراثية والتي أسموها (الجينات) ليس أمراً جديداً كل الجدة. فالرسول الأعظم والأئمة الطاهرون عليهم السلام ، الذين كانوا يكشفون الحقائق بنور الوحي والالهام لم يغفلوا أمر هذا القانون الدقيق. بل أشير إليه في بعض النصوص وأطلق على عامل الوراثة فيها اسم (العرق) .

وبعبارة أوضح : فإن المعنى الذي يستفيده علماء الوراثة اليوم من كلمة (الجينة) هو نفس المعنى الذي استفادته الأخبار من كلمة (العرق) وعلى سبيل المثال نذكر بعض تلك الروايات.

1 - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أنظر في أي شيء تضع ولذلك ، فإن العرق دساس » (3). وحينما نراجع المعاجم اللغوية في معنى كلمة (دساس) نجد أن بعضها - كالمنجد - يعلق على ذلك بالعبرة التالية : « العرق دساس أي : أن أخلاق الآباء تنتقل إلى الأبناء » (4).

ص: 54

1- جه ميدانيم؟ بنياد أنواع ص 69.

2- جه ميدانيم؟ سرطان ص 42.

3- المستطرف من كل فن مستظرف ج 2 218.

4- المنجد ، مادة دس.

فهذا الحديث يتحدث عن قانون الوراثة بصراحة. ويعبر عن العامل فيها بالعراق. فالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوصي أصحابه ألا يغفلوا عن قانون الوراثة بل يفحصوا عن التربة الصالحة التي يريدون أن يبذروا فيها ، لكي لا يرث الأولاد الصفات الذميمة.

2 - عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق » (1). وهذا الحديث يثبت إمكان اكتشاف الطهارة العائلية للفرد من السجاياء الفاضلة عنده.

3 - وهذا محمد بن الحنفية ابن الامام علي (عليه السلام) كان حامل اللواء في حرب الجمل ، فأمره علي بالهجوم ، فأجهز علي العدو ، لكن ضربات الأسنة ورشقات السهام منعت من التقدم فتوقف قليلاً ... وسرعان ما وصل إليه الامام وقال له : « إحمل بين الأسنة » فتقدم قليلاً ثم توقف ثانية ، فتأثر الامام من ضعف ابنه بشدة فاقترب منه و « ... ضربه بقائم سيفه وقال : أدركك عرق من أمك » (2).

فهنا يثبت الامام (عليه السلام) أن الجبن الذي ظهر واضحاً في ابنه محمد ليس موروثاً منه (عليه السلام) لأنه لم يعرف للجبن معنى قط ، فلا بد وأن يكون من أمه ، لأنها لم تكن من الفضيلة بدرجة تكون معها بمنزلة الصديقة الزهراء (عليه السلام) .

الشذوذ عن قانون الوراثة :

وبالرغم من أن قانون الوراثة قانون وثابت وعام. وأن انتقال الصفات الوراثية من الآباء والأمهات إلى الأبناء أمر مسلم به عند علماء الوراثة فإن هناك ظواهر تثبت شذوذ الطبيعة عن هذا القانون ، ولقد أثبتت التحقيقات العلمية أنواعاً من هذا الشذوذ في كثير من الفطريات والأعشاب والأزهار والأشجار والحشرات والحيوانات البرية والمائية والطيور وحتى في البشر.

لقد أثبت التجارب أن هذه الطفرة الحاصلة في بعض الصفات الوراثية قد تصبح وراثية فتنقل إلى الأجيال اللاحقة ، بينما تبقى في بعض الحالات جامدة لا تتعدى الأجيال التي تأثرت بهذه الطفرة.

ص: 55

1- غرر الحكم ودرر الكلم للامدي ص 167 ط دار الثقافة في النجف الأشرف.

2- تنمة المنتهى ص 17.

إن هذه الطفرة أو الشذوذ عن قانون الوراثة يمكن أن يعزى إلى سببين رئيسيين : أحدهما : التغيرات الحاصلة في وضع (الجينات) و(الكروموسومات) الموجودة في الخلية الحية. وثانيهما : وراثة الصفات الموجودة في الأجداد والأسلاف البعيدين وظهور بعض الصفات التي كانت مضمرة في الآباء.

والآن لنستعرض هذين العاملين بشيء من الاختصار :

(1) التغيرات الحاصلة في وضع الجينات :

« يجب أن لا يغيب عن البال أنه قد تظهر بعض الخواص الوراثية تبعاً للبيئة ، وعلى العكس فقد تختفي بعض الصفات في أحد الأجيال وتقف نهائياً. وقد تستمر الصفات الحادثة في الانتقال من جيل إلى جيل. هذه العملية تسمى بالطفرة ، والتي لم يتوصل بعد إلى معرفة عللها الواقعية. وعليه فمن الخواص الأصلية للطفرة هي قبلتها للتوارث ، ويستنتج من هذا أنه عند حصول نقصان في بعض الجينات أو الكروموسومات في الخلايا التناسلية ، وتحصل تغيرات مهمة في الأجيال اللاحقة من حيث بناء الجسم. ولقد بقي العلماء مقتصرين على ملاحظة الطفرة التلقائية (الذاتية) لمدة. ولكن مولر استطاع في سنة 1927 أن يحدث هذه الطفرة تجريبياً بواسطة توجيه بعض الأشعة على الخلايا التناسلية ثم جاء راديوم فاستطاع أن يجري تجارب دقيقة على تلك الخلايا بتأثير الأشعة السينية » (1)

وكثيراً ما نشاهد طفلاً أشهب العينين ، أشقر الشعر ، أبيض البشرة ذا هيكل غربي تماماً في حين أن أبويه يملكان عيوناً سوداً ، وشعرًا أسود ، وبشرة سمراء ، وهيكلًا شرقياً تماماً. إن هذه التغيرات التي تخالف السير الطبيعي لقانون الوراثة يمكن أن تستند إلى التغيرات الأولية والفجائية للجينات. وهذا التغير يوجد في النبات والحيوان والإنسان على السواء. وكثيراً ما يقع هذا التغير حيث يؤدي إلى اختلاف العناصر ومنشأ هذا كله راجع إلى الطفرة. ولكن العلوم البشرية لم تتوصل

ص: 56

بعد إلى العلل الواقعية لأمثال هذه الطفرات الحاصلة ، اللهم إلا مجرد بعض النظريات والاحتمالات الفارغة.

« من المحتمل أن تكون الطفرات التلقائية التي تظهر من دون علة واضحة ناشئة من تأثير بعض الأشعة الطبيعية كاشعاعات الأرض المتصلة بالقوة الناقلة لأمواج الراديو في الترية ، أو إشعاعات الهواء الناشئة من الشمس أو إشعاعات ما وراء السدم والمجرات ... » (1)

(2) الوراثة عن الأجيال البعيدة :

كان الفرض الأول يتضمن ظهور علل في الطبيعة تبعث على التغيرات الابتدائية للجينات ، وظهور صفات جديدة من دون سابقة ما ، ولكن الفرض الثاني في الموضوع هو وجود الجينات الصانعة للصفات الجديدة في خلايا الأجيال السابقة بصورة مضمرة ، وظهور عند حصول الشروط المساعدة لها.

« إذا أخذنا فأرتين إحداهما بيضاء والأخرى رمادية وزاوجنا بينهما ، فالجيل الناشئ منها يكون رمادي اللون هجينى. وهذا يدلنا على أن لبعض الألوان خاصية الغلبة ، ولبعضها خاصية المغلوبة. فإذا لقحنا الفران الناتجة من الجيل الأول فيما بينها كان الجيل الثاني على ثلاثة أنواع : - رمادي نقي (غالب) في ربع الحالات ورمادي هجينى في نصف الحالات ، وأبيض نقي (مغلوب) في ربع الحالات ، ومن هنا نستنتج أن اللون الأبيض الذي اختفى في الجيل الأول لم يندثر تماماً بل ظهر في الجيل الثاني بنسبة 1 3 عند تلقيح فأرتين رماديتين هجينيتين » (2)

« يمكن تمييز المجرم الذي نشأ على الاجرام من صغره عن غيره في

ص: 57

1- (2) نفس المصدر ص 102

2- جه ميدانيم؟ سرطان ص 42 ، وتمسى الصفة الغالبة في علم الوراثة بالعامل الغالب والصفة المغلوبة بالعامل المتنحي.

علم النفس بأنه يشبه الانسان القديم في اختلال تركيب الوجه أو الجمجمة. واندفاع الجبهة إلى الأعلى وحدة الأذن وعدم التصاقها تماماً. إن ظهور هذه العلامات ناتج من الوراثة والأخذ من الأجداد ، ولذلك فمن السهل ملاحظة غرائز الانسان القديمه في هؤلاء الأفراد. كما يمكن مشاهدة صفات الحيوانات القديمة المندثرة في بعض الحيوانات الحاضرة بـ (1).

الصفات المختفية :

ومن السهولة بمكان نستنتج من هاتين الفقرتين : أن الحيوان أو الانسان قد يرث من أبويه أو أجداده البعيدين صفات كانت مختفية فيهم ولكن توفر بعض الشروط المناسبة والبيئة الخاصة أدى إلى ظهور تلك الصفات في الأجيال اللاحقة. إن العلماء اليوم يربطون بين الانسان الحالي وأجداده الماضين بالجينات الناقلة للصفات الوراثية ربطاً دقيقاً ومعقداً في نفس الوقت.

« يمتد الانسان في الزمن مثلها يمتد في الفراغ إلى وراء حدود جسمه ... وحدوده الزمنية ليست أكثر دقة ولا ثباتاً من حدوده الاتساعية. فهو مرتبط بالماضي والمستقبل ، على الرغم من أن ذاته لا- تمتد خارج الحاضر ... وتأتي فرديتنا كما نعلم إلى الوجود حينما يدخل الحيمن في البويضة. ولكن عناصر الذات تكون موجودة قبل هذه اللحظة ، ومبعثرة في أنسجة أبويننا وأجدادنا وأسلافنا البعيدين جداً. لأننا مصنوعون من مواد آباءنا وأمهاتنا الخلوية. وتتوقف في الماضي على حالة عضوية لا تتحلل ... وتحمل في داخل أنفسنا قطعاً ضئيلة لا عداد لها من أجسام أسلافنا ... وما صفاتنا ونقائصنا إلا إمتداد لنقائصهم

ص: 58

1- جه ميدانيم؟ جنايت ص 36. هذا هو رأي علماء القانون الذين ينتمون إلى (المدرسة الوضعية). إذ ترى هذه المدرسة في شخص المجرم والصفات الوراثية التي تلقاها من أسلافه العامل الحاسم في تقرير مصيره ، من هؤلاء (لو مبروزو) ، بينما تبرز (النظرية الاجتماعية) في هذه المدرسة أهمية الأسباب الاجتماعية المتصلة ببيئة الجرم. ومن دعائها (فيري) و(جاروفالو).

« إن أساس تكوين أنسجة الانسان مسألة يكتنفها الغموض ، إذ أننا لا نعرف كيف جمعت (جينات) أبويه وأجداده في البويضة التي نشأ هو منها ، كما نجهل إذا كانت ذرات نووية معينة من أحد الأسلاف البعيدين المنسيين غير موجودة فيه. أو إذا كانت تغييرات اختيارية في (الجينات) قد لا تسبب في ظهور بعض الصفات غير المتوقعة. فقد يحدث أحياناً أن يبدي أحد الأطفال الذين عرفت ميول أسلافهم لعدة أجيال ، إتجاهات جديدة وغير متوقعة » (2)

الاعجاز العلمي للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) :

وبعد أن تطرقنا لذكر بعض الأسس الممهدة لقانون الوراثة وبالنظر إلى التحقيقات العلمية الدقيقة التي توصل إليها علماء الوراثة في العصر الحاضر ، يتضح جلياً مدى عمق بعض الأحاديث المروية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) نكتفي بذكر حديثين يتعلقان بمورد واحد أو موردين متشابهين. وهذان الحديثان يعتبران من المعاجز العلمية للنبي الكريم ، ولولا الاكتشافات الحديثة لما اتضح معناهما. لقد توصل علماء البشر طوال سنين عديدة وبعد جهود عظيمة صرفوها ليل نهار لادراك بعض الحقائق والوصول إلى أسرار دقيقة. لقد فتحت هذه التحقيقات العلمية باب فهم بعض الآيات والروايات الغامضة مما أدى إلى معرفة عظمة شخصية الرسول الأعظم الذي كان يتكلم بلسان الوحي ، ويرى بنور الالهام.

الحديث الأول :

« عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : أتى رجل من الأنصار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال : هذه ابنة عمي وإمرأتي ، لا أعلم منها إلا خيراً ، وقد أتتني بولد شديد السواد ، منتشر المنخرين جعد قطط ، أفطس الأنف ، لا أعرف شبيهه في أخواي ولا في أجدادي. فقال لامرأته : ما تقولين؟ قالت لا والذي بعثك بالحق نبياً ما أقعدت

ص: 59

1- الانسان ذلك المجهول ، للدكتور الكسيس كارل ص 203.

2- المصدر السابق 197.

مقعده مني - منذ ملكني - أحداً غيره قال : فنكس رسول الله رأسه ملياً ، ثم رفع بصره إلى السماء ثم أقبل على الرجل فقال : يا هذا إنه ليس من أحد إلا بينه وبين آدم تسعة وتسعون عرقاً كلها تضرب في النسب ، فإذا وقعت النطفة في الرحم اضطربت تلك العروق وتسأل الله الشبه لها. فهذا من تلك العروق التي لم تدركها أجدادك ولا أجداد أجدادك خذي إليك ابنك. فقالت المرأة : فرجت عني يا رسول الله « (1)

الحديث الثاني :

« عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي عليه السلام ، قال : أقبل رجل من الأنصار إلى رسول الله ، فقال : يا رسول الله هذه بنت عمي وأنا فلان ابن فلان ... حتى عد عشرة آباء وهي بنت فلان ... حتى عد عشرة آباء. ليس في حسي ولا حسبها حبشي ، وإنها وضعت هذا الحبشي ، فأطرق رسول الله طويلاً ثم رفع رأسه ، فقال : إن لك تسعة وتسعين عرقاً ولها تسعة وتسعين عرقاً ، فإذا اشتملت اضطربت العروق وسأل الله عز وجل كل عرق منها أن يذهب الشبه إليه ، قم فانه ولدك ولم يأتك إلا من عرق منك أو عرق منها ، قال : فقام الرجل وأخذ بيد امرأته وإزداد بها وبولدها عجباً » (2).

إن خلاصة ما توصل إليه علماء الوراثة في العصر الحديث بالنسبة إلى انتقال صفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة تنحصر في جملة أمور مذكورة كلها في هذين الحديثين.

1 - إن عوامل الوراثة ذرات صغيرة تسمى (الجينات) . وهي توجد في الخلية التناسلية من الأبوين أو الأجداد السابقين.

ولقد سبق وأن أشرنا في المقدمة الرابعة من البحث أن الروايات تسمى عامل الوراثة ب- (العرق) الذي ورد التصريح به في الحديثين كليهما.

2 - يرى العلماء أن عدد الجينات في الخلية التناسلية كثيراً نوعاً ما ومن خلال

ص: 60

1- وسائل الشيعة ج 5 128 باب أن الولد يلحق بالزوج.

2- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج 2 631.

نقلنا لبعض النصوص ظهر أنها تبلغ العشرات والمئات ومع ذلك فانهم لم يتوصلوا إلى إثبات أعدادها بصورة قطعية.

بينما نجد الحديثين المنقولين يصرحان بأن عدد الأعراق هو 99 ، فقد يكون المراد منها هو الاعراق الصانعة للصفات العنصرية فقط كلون البشرة ، ولون الشعر وتجعده ، ولون العين وغير ذلك من الصفات. وقد يكون التعبير عن ال- 99 للدلالة على الكثرة من دون الالتفات إلى العدد نفسه ، كما ورد في القرآن الكريم بشأن عدم جدوى استغفار النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للمنافقين : « إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » (1). فالمعنى : إن تستغفر لهم كثيراً ، لا عدد السبعين فقط كي يكون معناه أنك إذا استغفرت لهم إحدى وسبعين مرة فإن الله يغفر لهم!. فالخلاصة أن العلم الحديث وافق الحديث النبوي الشريف في كثرة عدد الأعراق.

3 - لا يحصر علماء الوراثة اليوم قابلية الوراثة في الأبناء عن آبائهم القريبين فقط ، بل يرون أنه قد يرث الولد صفات أجداده البعيدين وحتى الانسان القديم.

وكذلك الحديث الذي نقلناه فانه كان يرى قابلية الوراثة في الانسان عن أجداده السابقين وحتى الانسان الأول (أبو البشر آدم) كما ورد التصريح به في رواية عن الامام الصادق عليه السلام :

« إن الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يخلق خلقاً جمع كل صورة بينه وبين آدم. ثم خلقه على صورة إحداهن. فلا يقولن أحد لولده : هذا لا يشبهني ولا يشبه شيئاً من آبائي » (2).

إن جميع الصور والصفات القبلية للتوارث في الآباء والأجداد حتى أبي البشر آدم يمكن أن تدخل في بناء صورة الإنسان الذي ثبتت خليته التناسلية في الرحم. وبما أن البشر يجهلون المدى الواسع لقانون الوراثة وقد كان يصادف أن يخرج الولد على

ص: 61

1- سورة التوبة 80.

2- مكارم الأخلاق ص 114.

غير صورة أبويه فكان يؤدي ذلك إلى أن يشك الرجل في زوجته باحتمال أن الوالد من غيره ، نجد الامام الصادق عليه السلام يحذر بعض الرجال من أن يقولوا : إن الولد لا يشبهني ولا يشبه أبائي لأنه قد يكون آخذاً صفاته من أجداده البعيدين جداً.

4 - يرى علماء الوراثة أن الجينات الناقلة للصفات الوراثية توجد في نواة الخلية الذكرية والأنثوية على السواء. وقد يستند التغير الفجائي في تلك الصفات إلى أحدهما. وكذلك حكم النبي صلى الله عليه وآله حيث قال للأنصاري : « ولم يأتك إلا من عرق منك أو عرق منها ».

إنه لم يمض على الاكتشافات العلمية الحديثة في عالم الوراثة واكتناه الأسرار الدقيقة والرموز المعضلة للجينات والكروموسومات أكثر من قرن واحد ، بينما نجد أن كلام النبي صلى الله عليه وآله في هذا الموضوع يطوي قرنه الرابع عشر. فنبى الاسلام العظيم أخبر عن تلك الحقائق بنور الوحي المبين.

وهنا لا بأس من الالتفات إلى نكتة لطيفة ، وهي أن الأنصاري حين سأل النبي صلى الله عليه وآله توقف النبي صلى الله عليه وآله في جواب قليلاً ولم يجب بسرعة ، فما السر في ذلك؟!.

هناك حديث آخر يوضح الأمر جلياً ، ويجب على هذا السؤال : « إن يهودياً سأل النبي صلى الله عليه وآله مسألة فمكث النبي ساعة ثم أجاب عنها ، فقال يهودي : ولمن توقفت فيما علمت؟ فقال صلى الله عليه وآله : توقيراً للحكمة » (1). فكما أنه يجب توقير الحكماء والعلماء يجب توقير أقوالهم الحكمية أيضاً. وإن لأسلوب إلقاء الكلام دخلاً كبيراً في التأثير على نفس السامع ، فالكلام مهما كان عميقاً لو ألقى بسرعة وعجلة لا يؤثر التأثير المطلوب ، بعكس ما إذا ألقى بتأنٍ واتزان ، وكذلك فعل النبي صلى الله عليه وآله في الجواب على مشكلة الزوج والزوجة بالنسبة إلى ولدهما الذي لم يكن يشبههما إذ سكت قليلاً توقيراً لتلك الحكمة العظيمة.

5 - إن الصفات التي لها قابلية الانتقال من الآباء إلى الأبناء عديدة مثل :

ص: 62

الجنون والحمق ، لون البشرة ، لون العين ، بناء الوجه والأنف ، لون الشعر ، والخصائص المرتبطة به وغير ذلك. ولكن العلم الحديث لم يتوصل بعد إلى تحديدها تماماً.

العوامل المساعدة :

« ... تنتقل أمراض معينة كالسرطان والسل ... ألخ من الآباء إلى الأبناء ولكن كاستعداد فقط ، وقد تعوق أحوال النمو ظهور هذه الأمراض أو تساعد على تحققها » (1).

وكذلك السجيا الخلقية والصفات الحميدة أو الصفات الرذيلة للآباء والأمهات تهيء استعداداً في الأولاد ، فالآباء والأمهات الذين يمتازون بصفات الشجاعة والكرم والتضحية والخدمة ، يخلفون أبناء ذوي فضيلة وإباء وكرم. وعلى العكس من ذلك ، فإن الأسر المعروفة بالبخل والجبن والأنانية والحمق لا يخلفون في الأغلب إلا أولاداً حقراء لا وزن لهم في المجتمع.

ولا تقتصر هذه القاعدة التي ذكرناها على الانسان ، بل تسري في الحيوانات أيضاً ، فهناك عناصر معينة من الخيول تمتاز على غيرها بصفات خاصة. وكذلك الحمام فهناك بعض الفصائل المعينة فيه لها قابلية التربية والاستعداد للقيام ببعض الأعمال والخدمات.

سأل المأمون العباسي بعض خواصه ومحارمه يوماً عن سبب ما يلاقيه من جفاء وخيانة وقلة إنصاف من بعض أصحابه وأقاربه الذين كان قد قلدهم مناصب عالية ورتب مهمة في الدولة ، في حين أن المفروض أن يقابلوا إحسانه بالإحسان لا الاساءة ، فقال له أحدهم : إن المعنيين بأمر الحمام الزاجل والمهتمين بتربيته يتحققون عن أصله وفصيله الذي ينتمي إليه وعندما يطمئنون إلى عراقه نسبه يهتمون بتربيته كثيراً ويجنون من ذلك فوائد كثيرة ... « وأنت يا أمير المؤمنين تأخذ أقواماً من غير أصول ولا تدريج ، فتبلغ بهم الغايات فلا يكون منهم ما تؤثره » (2).

ص: 63

1- الانسان ذلك المجهول ص 196.

2- مجموعة ورام ج 2 286.

فمن الطبيعي أن لا يكون الأفراد المختارون لاشغال المناصب من دون امتحان ولا نظر في أصولهم وأحسابهم وأنسابهم ، على حالة مرضية من حيث الاخلاص والأمانة والوفاء ...

إن الاسلام يرى أن في سلوك الأباء والأمهات تأثيراً كبيراً على سلوك أبنائهم الذين يرثون صفاتهم الصالحة أو الطالحة ، ولذلك نجد القرآن الكريم يحكي على لسان نوح هذه الحقيقة الناصعة حيث يقول بعد أن يئس من هداية قومه طيلة 900 عام :

«وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (1).

ولقد رأينا قبل صفحات كيف أن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) يخاطب ابنه محمد بن الحنفية حينما جبن عن التقدم « أدركك عرق من أمك ».

الشرف الموروث :

يقول الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الفضائل العائلية : « إذا كرم أصل الرجل كرم مغيبه ومحضره » (2).

فمن كان ينتمي إلى نسب عريق في الفضائل كان ملازماً للصفات الخيرة في حضوره وغيبه وذهابه وإيابه.

وكذلك قال عليه السلام : « عليكم في قضاء جوائجكم بكرام الأنفس والأصول ، تنجح لكم عندهم من غير مطال ولا من » (3). ومن هنا يعلم أن الشرف العائلي في الأفراد يجعلهم يقضون حوائج الناس من دون أن يحملوهم مناً أو يتماهلوا في ادائها.

ص: 64

1- سورة نوح 26. هذا وتشير الآية إلى عاملي الوراثة والمحيط في التأثير على سلوك المجتمع. فإن الكافرين إما أن يفسدوا البيئة ، أو يخلفوا أولاداً طالحين.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للامدي ص 144 طبعة النجف الأشرف.

3- المصدر السابق ص 214 طبعة النجف الأشرف.

وروي عنه عليه السلام أيضاً : « عليكم في طلب الحوائج بشراف النفوس ذوي الأصول الطيبة ، فإنها عندهم أفضى ، وهي لديهم أزكى »
(1).

كما يقول في مورد آخر : « حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق » (2) فيستكشف عن حسن أخلاق الانسان شرافة طباع عائلته وكرم نفوسهم.
وكقاعدة عامة يمكن أن نقول : إنه يجب البحث عن الأفراد الشرفاء من بين العوائل الشريفة والعريقة ، فالأسر التي عرفت طوال سنين متمادية بالطهارة والتقوى ، والتي خرجت من جميع الامتحانات في الحياة بنجاح باهر ، لا بد وأن يبرز من بينها رجال شجعان يجاهدون في الصفوف الأولى دائماً (3) ، وكرام يمدون يد المعونة إلى الفقراء في أوقات الأزمة ، ويقدمون ثروتهم بكل خلوص وارتياح للمحتاجين ، فيسلون بذلك قلوب المصابين ويكونون آباء عطوفين لليتامى ، تملأ قلوبهم الرحمة والشفقة والخير والمحبة الناس.

الأسر المنحطة :

وعلى العكس من أولئك نجد الأسر المنحطة التي لا تفهم معنى للشجاعة ، ولا توجد كلمة الكرم والعفو في قواميسهم ، والذين لا يفكرون في شيء غير شهواتهم الدنيئة وأغراضهم الشخصية ، تملأ قلوبهم الأنانية والاثرة ، ولا يخلفون إلا أولاداً سافلين منحطين.
ولهذا نجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يحذر المسلمين - في موضوع الزواج - من اختيار الزوجة التي تنتمي إلى أسر منحطة سافلة مهما كانت جميلة فيقول : « إياكم وخضراء الدمن.

ص: 65

1- المصدر السابق ص 214 طبعة النجف الأشرف.

2- المصدر السابق ص 167 طبعة النجف الأشرف.

3- يتضح هذا جلياً في اختيار الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) لفاطمة الكلاية (أم البنين) بعد وفاة ابنة عمه الصديقة الزهراء ، إذ قال (عليه السلام) لأخيه عقيل - وكان عارفاً بالأنساب - : « أخطب لي امرأة ولدتها الفحولة من العرب لأرزق منها ولداً يكون عوناً لولدي الحسين يوم عاشوراء ... الخ » فإن الإمام ينظر إلى شجاعة الأسرة التي يريد أن يخطب منها زوجته لتنجب له ولداً شجاعاً.

قيل : يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال : المرأة الحسناء في منبت سوء « (1).

ومن خلال العهد الذي بعث به الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى مالك الأشتر النخعي (رض) حينما جعله والياً على مصر ، والذي يعتبر أحسن العهود من نوعه ... نجد فقرات عديدة تشعر الاهتمام بأصالة النسب ، كما في وصيته باختيار الأصحاب من العوائل الشريفة ، وذلك قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) :

« ثم الصق بدوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسماحة ، فإنهم جماع من الكرم ، وشعب من العرف » (2)

إختيار الموظفين الأكفاء :

ولنستمع إليه (عليه السلام) يقرر لابن الأشتر كيفية إنتخاب الموظفين الأكفاء ، ومراعاة الشروط الدقيقة في توليت المناصب والمهمات : « وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الاسلام المتقدمة ، فإنهم أكرم أخلاقاً ، وأصح أعراضاً ، وأقل في المطامع إشرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً » . (3)

فيشترط في الموظف الذي يقلد أمور الادارة أن يكون عفيفاً منتبهاً إلى عشيرة شريفة وأسرة عريقة في الاسلام والتدين ، لما في ذلك من مصالح عظيمة ، ودرء لمخاطر كثيرة ، فهؤلاء يؤدون واجباتهم بإخلاص ، لا- يرتشون ولا- يستغلون مناصبهم لاطماعهم وغاياتهم الشخصية.

يستفاد من مجموع البحوث السابقة : أن الطفل في رحم أمه يكون خلاصة

ص: 66

- 1- بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج 23 54. وخضرء الدمن عبارة عن الخضرة التي تنشأ من أنبات بعض الحشائش على قطعة من الأرض مليئة بالروث فيتراءى للناظر أنها أعشاب طيبة الرائحة ، لكن النظر إلى أصول هذه الحشائش يكشف للناظر وجود الروث تحتها. فالمرأة الحسناء التي تنتمي إلى أسرة منحطة شأنها شأن هذه الحشائش التي ظاهرها جميل وباطنها خبيث.
- 2- نهج البلاغة شرح محمد عبده ج 3 101 ، طبعة المكتبة التجارية.
- 3- نهج البلاغة شرح محمد عبده ج 3 105.

لمجموعة من الصفات الظاهرية والمعنوية لآبائه وأجداده القريبين والبعيدين ، وهناك عشرات العوامل المختلفة (الوراثية والطفرة) تؤثر فيهم آثاراً صغيرة أو كبيرة ، مفيدة أو مضرّة. فإذا كانت هذه العوامل كلها صالحة محبذة وكانت نتائجها حسنة ومفيدة فذلك معنى سعادة الطفل في بطن أمه. أما إذا كانت العوامل - كلها أو بعضها - فاسدة وسيئة فيعتبر الطفل شقيّاً في بطن أمه بنفس النسبة من فساد العوامل.

قد يتأثر الطفل ببعض الصفات - وهو في بطن أمه - كالجنون والحمق والعمى والشلل والصرع والتصاق التوأمين برأس واحد أو بدن واحد ، وعشرات غيرها من الانحرافات الأخرى ، فمن البديهي حينئذ أن يكون الطفل شقيّاً وهو في بطن أمه.

1 - قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الشقي من شقى في بطن أمه ، والسعيد من سعد في بطن أمه » (1).

2 - وفي حديث آخر : « الشقي شقي في بطن أمه ، والسعيد سعيد في بطن أمه » (2)

3 - وكذلك ورد عنه (عليه السلام) : « الشقي من شقى في بطن أمه » (3)

ولكي يمنع الاسلام من حدوث أولاد أشقياء وأجيال فاسدة وناقصة وضع تعاليم دقيقة وسلك أوضح السبل لالزام اتباعه بالعمل بها ، فوضع أصول التربية الاسلامية الدقيقة التي تعدل من سلوك الأفراد ، فيمنع ذلك من ظهور الصفات الرذيلة في أعقابهم. وكذلك نجد قوانين الأمم المتحضرة اليوم تهتم بهذا الموضوع فوضعت قوانين لم تتعد دائرة الوضع والتقنين ولم تصل إلى حيز التنفيذ. وعلى سبيل الاستطراد نستعرض بعض التعاليم الاسلامية بهذا الصدد باختصار :

ص: 67

1- بحار الأنوار للمجلسي ج 3 44.

2- المصدر السابق ج 3 43.

3- تفسير روح البيان ج 1 104. إلى هذه الأحاديث وأشبهها يستند القائلون بالجبر ، بحجة أن الله هو الذي يقدر السعادة والشقاء للانسان وهو في بطن أمه. ولكن اتضح الرد على هذه الشبهة من تفسيرنا السعادة والشقاء بمعناها الشامل لكل وجوه الخير والصالح والراحة ، أو جميع أصناف الشر والضيق والقلق لا خصوص الإيمان والكفر. ولقد أجبنا عن شبهة الجبر بالتفصيل في كتابنا (دفاع عن العقيدة).

الجنون من الصفات الخطرة التي تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء. إن الأبوين المصابين بالجنون لا ينتجان إلا مجانين ، وهذا هو قانون طبيعي غير قابل للتبديل ، والمولود المجنون ليس شقياً لنفسه فحسب بل يسبب شقاوة المجتمع أيضاً.

ومن خلال النص التالي يتضح مدى اهتمام الاسلام بهذا الموضوع فعن الامام الباقر (عليه السلام) : أنه « سأله بعض أصحابنا عن الرجل المسلم تعجبه المرأة الحسناء ، يصلح له أن يتزوجها وهي مجنونة؟ قال : لا ، ولكن إن كانت عنده أمة مجنونة فلا بأس بأن يطأها ولا يطلب ولدها » (1) يستنتج من هذا الحديث؟ اهتمام الاسلام بالسلامة العقلية للمجتمع ، فهو لا يرضى للمسلم بأن يتزوج مجنونة وإن كانت جميلة ، لأن ذلك يؤدي إلى إكثار المجانين في المجتمع.

لقد قرر الاسلام تسهيلات قانونية لفسخ الزواج في بعض الموارد ومن تلك الموارد : الجنون ، فإذا تزوجت المرأة من رجل ظناً منها بأنه فرد عاقل ثم انكشف لها جنونه فلها الحق في أن تفسخ عقد الزواج بنفسها من دون حاجة إلى القيود الموجودة في الطلاق ، وكذلك الرجل بالنسبة إلى زوجته المجنونة.

وهذا القانون مضافاً إلى أنه يحرم كلاً من الرجل والمرأة من القيود والأضرار الناشئة من جنون شريكته (أو شريكها) في الحياة ، يضع حداً فاصلاً دون إزدیاد أفراد مصابين بالجنون في المجتمع.

الحق والبلادة :

وكذلك الحق والبلادة والبلادة والبله فأنها تنتقل من الآباء والأمهات إلى الأبناء ، الأمر الذي يسبب أقسى أنواع شقاء المجتمع ، فالفرد الأحمق يظل طوال سني عمره

ص: 68

1- وسائل الشيعة للحر العاملي ج 5 10. ويظهر من التفريق الذي ورد في الحديث ، بين الزوجة والأمة : أن الإسلام يركز اهتمامه في منع التزوج من المجنونة إلى منع ظهور مجانين جدد ، ولذلك سمح للرجل بأن يشبع رغبته الجنسية مع جاريته ، لأن الجارية لا يراد منها الانجاب في الغالب بل يتخذ معها وسائل منع الحمل.

أسيراً للحرمان العقلي وعدم النضج الفكري مما يسبب للأمة مشاكل عديدة.

ولقد توصل العلم الحديث ، بعد التجارب العديدة والاحصائيات الدقيقة إلى خطر هذا النوع من الزواج ، ولذلك أخذ العلماء يحذرون الناس منه :

« يجب أن يعلم كل فرد أن الزوج من الأسر المصابة بالجنون أو الحمق أو البلاهة ، أو الإدمان على الخمرة يؤدي إلى تحطيم كيان المجتمع وهدم قانون التكاثر والتناسل ، مما يجر معه سلسلة من المعايب والجرائم التي لا تحمد عقبها » (1)

لقد نظر منقذ البشرية العظيم بعين الوحي النافذة إلى الحقائق إلى هذا الموضوع ، وأدرك أخطاره فحذر المسلمين منه ولذا نرى الامام الصادق عليه السلام يروي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إياكم وتزوج الحمقاء ، فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع » (2). وأحسن تعبير عن الأولاد الناتجين من آباء أو أمهات مصابين بالحمق هو الضياع.

« لقد لاحظ (كدار) في إحصائياته الدقيقة التي أجراها على الأسر التي كان آباؤها أو أمهاتها مصابين بضعف العقل وجود (470) طفلاً ضعيفي العقل منهم و (6) فقط سالمين وبديهي أن إيجاد جيل منحط ومجرم وأبله يعد خيانة كبيرة » (3).

شرب الخمر :

لقد انتشر شرب الخمر في كثير من دول العالم ، وتكبلوا بهذا الداء الوبيل وأسراره. هذا السم الفاتك لا يكتفي بتوجيه ضربات قاسية إلى المدمنين عليه فقط ، بل يتعداهم إلى أطفالهم البريئين ويجعلهم يرزحون تحت كابوس الأمراض والعوارض المختلفة. تترك الخمرة آثاراً سيئة على أجسام المدمنين عليها ، ومن تأثيراتها فيهم إيجاد اختلالات في خلايا المخ والأعصاب مما يجعلهم أناساً غير اعتياديين ، ومما يبعث على الأسف أن هذا الاختلال ينتقل إلى أولادهم ، والنطف

ص: 69

1- راه ورسم زندكى ترجمه برويز ديبري ص 91.

2- الجعفریات ص 92.

3- راه ورسم زندكى ص 74.

الحادثة من أناس مأسورين للخمرة تنتج أطفالاً منحرفين وغير اعتياديين في سلوكهم وتفكيرهم. إن قسماً كبيراً من المجانين الذين يقضون حياتهم في (مستشفيات المجانين) يننون من ويلات إنحراف آبائهم :

« إن قلة الذكاء وإختلال القوة العاقلة تنشأ من المشروبات الروحية والسلوك الافراطي في جميع جوانب الحياة ، إنه لا ريب في وجود رابطة قوية بين استعمال المشروبات الروحية والضعف العقلي في مجتمع ما. ومن بين الدول المتقدمة علمياً وصناعياً نجد فرنسا أكثرها استعمالاً للخمرة في حين أنها أقل تلك الدول حصولاً على جوائز نوبل »(1).

لقد عرف الاسلام جميع العوارض والويلات الناشئة من الخمرة ، ونظر نظرتة الثاقبة إلى آثارها السيئة في المدمنين عليها وفي أولادهم ، فلم يكتف بتحريم عصرها والتعامل بها وتعاطيها على المسلمين من الجهة القانونية فقط ، بل منع من الاتصال الجنسي والتناكح مع شاريبي الخمر بكل صراحة وهناك بعض الشواهد على ذلك :

1 - عن الامام الصادق (عليه السلام) : « من زوج كريمته من شارب خمر ، قد قطع رحمها » (2).

وبديهي أن يعتبر إنجاب أطفال مختلين (بدنياً وعصبياً وروحياً) قطعاً لرحم المرأة التي بإمكانها أن تنجب أولاداً سالمين من غيره.

2 - وعن النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « شارب الخمر لا يزوج إذا خطب » (3). وهناك العشرات من الروايات الواردة عن الأئمة المعصومين عليهم السلام في هذا الموضوع ، ولكن أشدها تحذيراً وأعظمها توبيخاً ما إذا حصل الاتصال الجنسي في حالة السكر ، كما يتضح ذلك من الحديث الآتي :

3 - عن الامام الصادق (عليه السلام) أنه قال : « أيما امرأة أطاعت زوجها وهو شارب

ص: 70

1- المصدر السابق ص 12.

2- وسائل الشعية للحر العامل ج 5 ص 9.

3- المصدر نفسه.

الخمير ، كان لها من الخطايا بعدد نجوم السماء ، وكل مولود يلد منه فهو نجس ، ولا يقبل الله منها صرفاً ولا عدلاً حتى يموت زوجها ، أو تخلع عنه نفسها « (1)

وإليك نصاً لأحد علماء الغرب بهذا الصدد : -

« يقول الدكتور كاريل : إن سكر الزوج أو الزوجة حين الاتصال الجنسي بينهما يعتبر جريمة عظيمة ، لأن الأطفال الذين ينشأون في ظروف كهذه يشكون في الغالب من عوارض عصبية ونفسية غير قابلة للعلاج » (2)

تعقيم المجانين الخمرين :

رأينا فيما مضى كيف الاسلام العلاج الحاسم في منع التزوج بالأفراد المصابين بالجنون الخمرة. ولقد عمل العلماء اليوم في التأكيد على منع هذا النوع من الزواج كثيراً حتى إنه يوجد في بعض الولايات الأمريكية قانون خاص بشأن تطهير النسل. بموجب ذلك القانون تجري عمليات للأولاد والبنات الذين أصيبوا بالجنون نتيجة إفراطهم في شرب الخمر لاختصاصهم وإحالتهم على العقم الدائم لمنع إنجابهم.

هذا وليست العوامل الباعثة على النواقص البدنية والنفسية للطفل في رحم أمه مقتصرة على هذه الأمور المختصرة ، فهناك عوامل عديدة أخرى لا تزال مجهولة للعلماء لحد الآن في حين أن لها تأثيراً في وضع الطفل في رحم الأم ، وموجدة لعيوب ونواقص أو باعثة على ظهور حسنات وفضائل فيهم.

فكثيراً ما يتفق وجود أولاد ناقصين ومختلفين عصبياً وعقلياً في حين أن آبائهم وأمهاتهم لم يكونوا معتادين على المشروبات الروحية وغيرها ، وعلى العكس فقد يصادف ظهور أفراد عصامين أذكاء من أسر حقيرة في المجتمع :

« ولكن نظراً لأن البشر ليسوا من أصل نقي فانه ليس في الامكان

ص: 71

1- لآليء الأخبار ص 267.

2- راه زندكى تأليف الكسيس كارل ترجمة ب دييري ص 91.

التكهن بحالة النسل الذي نيشأ من زواج معين. ومع ذلك ، فإنه من المعروف أن الأطفال الذين يولدون في أسرات مكونة من أفراد متفوقين يكونون في الغالب أكثر تفوقاً من الأطفال الذين يولدون في أسرت أدنى مرتبة ... ونظراً للمصادفات التي تحدث في اتحادات النويات فقد يشمل أحفاد الرجل العظيم على أفراد متوسطين ، كما قد يولد رجل عظيم لأسرة خاملة مغمورة « (1).

تأثير العوامل الجوية :

يستفاد من تحذير أئمة الاسلام (عليه السلام) في بعض الروايات عن قسم من الحوادث الجوية حين إنعقاد النطفة ، كالزلازل والطوفان ومقابلة قرص الشمس وما شاكل ذلك ، وكذلك منع الحمل من بعض الأطعمة ، أن لذلك كله تأثيراً في إيجاد آثار مرضية أو غير مرضية في الأطفال.

المصير :

وهنا نقطة مهمة يجب الالتفات إليها ، وهي أن السعادة والشقاء اللتان تصيبان الطفل في رحم الأم ، على نوعين : فقسم منها يكون قضاء حتمياً لا يقبل التبديل. فهذا النوع يلزم الطفل حتى نهاية حياته ، ومن هذا القسم : الجنون والعمى المتأصل. وقسم آخر يكون الرحم بالنسبة إليه كترية مساعدة فقط وحينئذ يكون بقاء تلك السعادات أو الشقاوات دائراً مدار الظروف التي تساعد على نموها.

إن القاعدة العامة للوراثة تقتضي أن ينجب الآباء المؤمنون والأمهات العفيفات أولاداً طيبين ، فهؤلاء يمكن أن يحرزوا السعادة في أرحام أمهاتهم فلا توجد في سلوكهم عوامل الانحراف الموروثة. إلا أننا لا نستطيع الحكم على هؤلاء بأن ينموا وينشأوا ويعيشوا إلى الأبد كذلك إذا قد يصادفون بيئة فاسدة تعمل على انحرافهم وتغيير سلوكهم وسجايهم الموروثة وقلبها رأساً على عقب ، وأخيراً نجد هذا الطفل الذي كان سعيداً في بطن أمه يعد في صفوف الأشقياء ويصير جرثومة للفساد والمجون والاستهتار.

ص: 72

وهكذا الطفل المولود من آباء وأمّهات لا يعرفون عن الإيمان شيئاً فإنه يعتبر شقيّاً في رحم أمه - تبعاً لقانون الوراثة - لكن قد يصادف بيئة صالحة وتربية جذرية تعمل على استئصال العوامل الشريرة من داخل نفسه وأخيراً يكون من الأتقياء المؤمنين والأفراد الصالحين في المجتمع.

ولهذا نجد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يصرح : « السعيد قد يشقى ، والشقي قد يسعد » (1).

وقد ورد عن الإمام علي (عليه السلام) أنه قال : « السعيد من وعظ بغيره والشقي من انخدع لهواه وغروره » (2).

وبصورة موجزة نقول : إن السعادة تحصل للإنسان من مجموعة عوامل طبيعية (وراثية) وتربوية. وكذلك الشقاء ... ولقد أوضح الامام الصادق (عليه السلام) هذا المبدأ في عبارة مختصرة فقال : « إن حقيقة السعادة أن يختتم للمرء عمله بالسعادة. وإن حقيقة الشقاء أن يختتم للمرء عمله بالشقاء » (3).

إن هذه الرواية تدلنا على حقيقة واضحة ، هي أنه يجب الا حاطة بجميع العوامل الوراثية والتربوية للفرد ، والنظر إلى نتيجة تفاعلاتها ثم الحكم عليه بالسعادة أو الشقاء.

هذا ، وسنبحث في المحاضرة القادمة ، العلة في اعتبار رحم الأم ملاكاً لسعادة الجنين دون صلب الأب في الروايات ، موضحين - إن شاء الله - دور الأم في بناء الطفل.

ص: 73

1- تفسير روح البيان ج 1 104.

2- نهج البلاغة ج 1 149.

3- معني الأخبار ص 345.

قال الله تعالى في كتابه العظيم : « ... والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ، ويوم أبعث حيا » (1).

كان بحثنا في المحاضرة الماضية يدور حول مصدر السعادة والشقاء ، والعوامل التي تؤدي إلى حصول الطفل عليها في رحم أمه. لقد أثبتنا - بالأدلة والشواهد - مدى تأثير الرحم في سلوك الفرد ، وقلنا : إن تلك التأثيرات الناتجة في السلوك يرجع شطر منها إلى دور الجنين في الرحم. والشطر الآخر إلى فن التربية والبيئة التي يعيش فيها الإنسان.

أما بحثنا في هذه المحاضرة فيدور حول نقطتين : -

(1) العلة في جعل الملاك في سعادة الأطفال وشقائهم في الروايات رحم الأم بالذات من دون يجري ذكر لصلب الأب.

(2) النواقص والعوارض التي تعتري الجنين في رحم الأم من دون سابقة.

أما بالنسبة إلى النقطة الأولى من البحث. فأننا نرى أن بذور الورد تبذر في جوف تربة الأصيل ، وبعد مرور مدة من الزمن تنبت البذرة بصورة سويق صغير يشق سطح التربة ، وينمو تدريجياً يأخذ بالتفرع والإزهار. إن بذرة الورد تعتبر الخلية التناسلية الكاملة ، وتخزن في باطنها جميع الذخائر اللازمة لانبات نبتة جديدة. ولا يشكل الأصيل سوى المحيط الذي تنمو فيه النبتة والبيئة التي تعيش فيها.

ص: 74

صحيح أن رحم المرأة يكون بالنسبة إلى نطفة الرجل كالأصيص بالنسبة إلى البذرة. إلا أن الأمر يختلف تماماً في موضوع تكوين الخلية التناسلية ، إذ ليست نطفة الرجل هي الخلية التناسلية الكاملة - كما كانت البذرة - وكذلك الرحم الأم يتحمل في المرحلة الأولى نصف مسؤولية عملية التلقيح ، ثم ينفرد في أنه يتحمل مسؤولية الاحتفاظ بالنطفة لمدة تسعة أشهر كاملة في داخله حتى يصنع إنساناً كاملاً.

ولهذا ورد في القرآن الكريم : «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ» (1). أي أننا خلقناه من نطفة مركبة وممزوجة من الرجل والمرأة كليهما.

« إن خلايا الخصية تفرز من غير توقف ، وخلايا الحياة كلها ، حيوانات ميكروسكوبية وهبت لها حركات نشيطة للغاية ، هي الحيوانات المنوية. وهذه الحيوانات تسبح في المخاط الذي يغطي المهبل من الرحم ، وتقابل البويضة على سطح الغشاء المخاطي الرحمي ...

وتنتج البويضة من النضج البطيء لخلايا المبيض الجرثومية. ويوجد نحو 300000 بويضة في مبيض الفتاة وتبلغ نحو اربعمائة منها فقط درجة النضج ، وفي وقت الحيض ينفجر الكيس المشتمل على البويضة. ثم تبرز البويضة فوق غشاء (بوق فالوب) ، فتقلها السيليا (الأهداب) المتحركة للغشاء إلى داخل الرحم وتكون نواتها قد تعرضت في تلك الأثناء لتغير هام. ذلك أنها تكون قد قذفت بنصف مادتها ... وبعبارة أخرى بنصف كل (كروموسوم). وحينئذ يخترق الحيوان المنوي سطح البويضة وتتحد كروموسوماته التي تكون فقدت أيضا نصف مادتها ، بكروموسومات البويضة. وهكذا يولد مخلوق جديد » (2).

ص: 75

1- سورة الدهر 2.

2- الانسان ذلك المجهول تأليف الدكتور الكسيس كارل تعريف عادل شفيق ص 78.

يستفاد من هذه الفقر أمران : الأول - أن نطفة الرجل تتحد بنطفة المرأة ، ويحصل من اتحاد نصف خلية الرجل ونصف خلية المرأة (الخلية التناسلية الكاملة) التي هي العامل الأول في ظهور الطفل والثاني - أن بويضة المرأة عندما تقابل سبل الحيامن الذكرية ، إنما تتلقح بواحدة منها فقط ، أما البواقي فتندثر .

« حينما يقذف الرجل بالسائل المنوي إلى الخارج فإنه يكون حليبي اللون - وبحجم 3 سم 3 ، يوجد في كل سانتيمتر مكعب منه من 100 إلى 200 مليون حيمن .»

« إن الحيامن المنوية قادرة على الاحتفاظ بقابليتها على التلقيح لمدة 48 ساعة بعد الخروج من الرجل . وذلك في وسط قلوي (قاعدي) وتحت درجة حرارة 37 مئوية ... » (1)

لم يكن بإمكان البشر قبل أربعة عشر قرناً أن يتصوروا أن منشأ ظهور الإنسان هو موجود صغير وضئيل يوجد منه في نطفة الرجل مئات الملايين في كل مرة. وهذه الذرة الصغيرة كافية في أن تلقح امرأة. ومع ذلك فقد صرح القرآن الكريم بهذه الحقيقة منذ ذلك الحين حيث قال الله تعالى : «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ» (2). أي أن الله جعل نسل الإنسان من خلاصة ماء حقير وضعيف ، فليس العامل في إبقاء نسل الإنسان هو هذا الماء الحقير الذي يخرج منه كله بل جزء منه ، وهو خلاصته (سلالته).

ويتضح تنبه الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى هذه الحقيقة من خلال الفقرة التالية:

« جاء رجل إلى علي عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين كنت أعزل عن امرأتي ، وإنها جاءت بولد. فقال علي عليه السلام : - وأناشدك الله هل وطأتها ثم عاودتها قبل أن تبول؟ فلا : نعم. قال : فالولد لك ... » (3).

ص: 76

1- هرمونها ... ص 29.

2- سورة السجدة 7.

3- بحار الأنوار للمجلسي ج 23 107.

من هذه الجملة ، يعلم أن الرجل كان يعز (يقذف السائل المنوي خارج مهبل زوجته) لمنع الحمل ، ومع ذلك فقد حدث أن حملت المرأة فأدى الأمر إلى أن يشك الرجل في زوجته فجاء يسأل علياً (عليه السلام) وإلا فانه لم يكن يرضى بأن يفشي سره. فوجد الامام (عليه السلام) حين يسمع بالقصة يسأله هل اتفق له أن جامع زوجته مرتين من دون أن يبول في الأثناء ، فأجابه بوقوع ذلك ، فصرح الامام بأن الولد له.

والسر في ذلك واضح ، لأنه عليه السلام كان يعلم أن ذرة صغيرة من النطفة كافية لأن تلقح بويضة المرأة فتحمل ، فبما أن الرجل جامع زوجته في المرة الأولى ثم قذف السائل خارجاً وبقي مدة لم يبيل فيها فبقيت الحيامن في المجرى ، وحين جامعها للمرة الثانية خرجت إحدى تلك الحيامن ولقحت المرأة من دون أن يشعر ، وبالرغم من أنه قذف السائل خارجاً في المرة الثانية إلا أن الحيامن المتبقية في المجرى كانت قادرة على الاحتفاظ بنشاطها لمدة 48 ساعة وكذلك فعلت.

وبالرغم من أن الأب والأم كليهما يشتركان في صنع الخلية الأولى للطفل ويتساوى دورهما فيه - ولهذا نجد أن الأطفال يكتسبون بعض صفاتهم من آبائهم وبعضها من أمهاتهم - لكن الرحم هو الذي يصنع الطفل ويخرج تلك الذرة الصغيرة بصورة إنسان كامل. وإن جميع الاستعدادات التي كانت كامنة في تلك الخلية الأولية تظهر إلى عالم الفعلية في رحم الأم. إذن فالمقدرات التفصيلية للطفل من الصلاح والفساد ، والجمال والقبح ، والمواقص والكمالات ، الظاهرية والباطنية كلها تخطط في الرحم.

المرحلة الأخيرة للتكوين :

هناك مئات التفاعلات والتأثيرات الاختيارية والاتفاقية تمر في طريق أصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، وتؤثر في الأطفال بصورة خفية حيث تظهر نتائجها جميعاً في الرحم. والرحم هو آخر مراحل التأثيرات المختلفة الطارئة على تكوين الطفل ، وعند عبوره هذه المرحلة يبدأ الحياة على الأرض. إذن فالسعادة والشقاء التكوينيْن للانسان يجب البحث عنهما في آخر المراحل وهو رحم الأم. ولهذا نجد الرسول

الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة الطاهرين (عليه السلام) بالرغم من عنايتهم الشديدة بالتأثير المشترك لأصلاّب الآباء وأرحام الأمهات حول سعادة الطفل وشقائه يوجهون جل إهتمامهم إلى رحم الأم فيقولون : « السعيد سعيد في بطن أمه ، والشقي شقي في بطن أمه » (1)

أثر غذاء الأم في الجنين :

هذا هو جواب السؤال الذي بدأنا به الحديث ، وهو أنه لماذا اعتبرت الروايات رحم الأم هو الملاك في السعادة والشقاء ، وأغفلت ذكر صلب الأب؟.

إنه لا مندوحة لنا من القول بأن دور الأم في بناء الطفل يفوق دور الأب بكثير. نعم لو اكتفينا بملاحظة دور الأب والأم في تلقيح البويضة بواسطة الحيمن لايجاد الخلية الأولى للطفل لكانا متساويين في ذلك الدور ، إلا أن الواقع أن الأم تتحمل في دور الحمل مسؤولية كبيرة وبالخصوص فيما يتعلق بأسلوب تغذي الأم ونوعه.

إن دور الأباء في البناء الطبيعي للطفل ينتهي بعد انعقاد النطفة وحصول التلقيح ، لكن دور الأم يستمر طيلة أيام الحمل ، فالطفل يتغذي من الأم ، ويأخذ منها جميع ما يحتاجه في بنائه. ولهذا فإن لسلامة الأم ومرضاها ، طهارتها ورذالتها ، سكرها وجنونها ... أثراً مباشراً في الجنين :

« إن الأب والأم يساهمان بقدر متساو في تكوين نواة البويضة التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديد ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النووية كل البروتويلازم المحيط بالنواة ، وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب في تكوين الجنين » (2)

« إن دور الرجل في التناسل قصير الأمد. أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر. وفي خلال هذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيميائية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص » (3)

ص: 78

1- مر تخريج الحديث بالفاظ متعددة وطرق مختلفة في الفصل السابق (السعادة والشقاء في رحم الأم)

2- الانسان ذلك المجهول ص 79.

3- الانسان ذلك المجهول ص 79.

إن الطفل أشبه ما يكون بعضو من أعضاء الأم تماماً ، عندما يكون في بطنها. وجميع العوامل التي تؤثر في جسد الأم وروحها تؤثر في الطفل أيضاً. إذا ابتلي أب - بعد انعقاد النطفة - بشرب الخمرة أو العوارض الأخرى فانها لا تؤثر في الطفل ، لأن صلة الطفل بأبيه إنما تكون ثابتة إلى حين انعقاد النطفة فقط ، لكن صلة الأم تستمر لمدة تسعة أشهر ، وعليه فإذا أقدمت الأم - في أيام الحمل - على شرب الخمر فإن الجنين يسكر ويتسمم أيضاً.

إن أحد أسباب سلامة هيكل الطفل ورشاقة قوامه ، أو عدمها في أيام الحمل يتعلق بالغذاء الذي تتناوله الأم وهي حامل. وكذلك الغذاء الذي كان يتناوله الأب قبل انعقاد النطفة.

« إذا كانت نطفة الأب مسمومة حين الاتصال الجنسي فإن الجنين يوجد ناقصاً وعليلاً ، وهذا التسمم ينشأ من تناول الأطعمة الفاسدة ، أو معاقرة الخمرة. إذن يجب الاجتناب عن الاتصال الجنسي حين التسمم والسكر بالخصوص » (1)

« يجب أن يكون الطعام الذي يتناوله الانسان في الليلة التي يقصد فيها الاتصال الجنسي للتكاثر كاملاً حاوياً لفيتامين (A) بالخصوص » (2)

« لقد قام أحد الأطباء الحاذقين في أوروبا بجمع إحصائيات دقيقة للنطف التي تنعقد في ليلة رأس السنة المسيحية فوجد أن 80% من الأطفال المتولدين من تلك النطف ناقصوا الخلقة وذلك لأن المسيحيين في هذه الليلة يقيمون أفراحاً عظيمة وينصرفون إلى العرش الرغيد والافراط في الأكل والشرب ويكثرون غالباً من تناول الخمرة إلى حد يجرهم إلى المرض. وبما أن المطاعم وحانات الخمر تستقبل أكبر كمية من الزبائن في هذه الليلة فإنه يتعذر على أصحابها أن يطعموهم الأطعمة السالمة تماماً ويتموا بشأنها كغيرها من ليالي السنة » (3) « يصاب بعض الأطفال في الأيام الأولى

ص: 79

1- إعجاز خوراكيها ، تأليف سيد غياث الدين الجزائري ص 153.

2- المصدر السابق ص 154.

3- المصدر السابق ص 154.

من أعمارهم بقروح وجروح تسمى (أكزما الأطفال) وهذه القروح لا تزول إلا بعد أن تعذب الوالدين لمدة طويلة ، وهي ناتجة من سوء تغذية الأمهات في أيام الحمل. فإن الأم لو اكرثت في أيام الحمل من أكل التوابل والأطعمة الحارة كالخردل والدارسين وما شاكل ذلك فالطفل يصاب بالأكزما « (1).

« إن الفواكه والخضروات التي تحتوي فيتامين (B) تعتبر العلاج القطعي للكنكة اللسان. والأم التي تتناول من هذا الفيتامين أيام حملها ، فإن جنينها يأخذ بالتكلم مبكراً ولا يصاب بالكنكة « (2).

« إن المشروبات الروحية تعتبر خطرة جداً للحوامل لأنها بغض النظر عن التسمم الذي توجده ، تهدم الفيتامينات التي تحتاجها الأم والجنين أيام الحمل ، فينشأ الطفل ناقصاً ومشوهاً « (3).

« إن تناول الأطعمة الفاسدة واللحوم بالخصوص - حيث تؤدي إلى التسمم - يجعل لون الجنين داكناً مائلاً إلى الاصفرار « (4).

الغذاء والجمال :

يرى العلم الحديث أن للأطعمة تأثيراً خاصاً في صباغة وجه الأطفال ورشاقة قوامهم ولون شعرهم وعيونهم ، وفي كل مظاهرهم. وكذلك الرويات والأحاديث فأنها لم تغفل شأن الإشارة إلى أثر الأطعمة والفواكه والخضروات والبقول ، فورد في بعضها الارشاد إلى استعمال أنواع خاصة منها للحامل : « عن الصادق عليه السلام ، نظر إلى غلام جميل ، فقال : ينبغي أن يكون أبو هذا أكل سفرجلاً ليلة الجماع « (5).

وهناك حديث آخر بشأن السفرجل : « ... وأطعموه حباً لاكم فإنه يحسن

ص: 80

1- المصدر نفسه ص 175.

2- إعجاز خوراكيها ص 176.

3- المصدر السابق ص 177.

4- المصدر السابق ص 168.

5- مكارم الأخلاق ص 88.

أولادكم (1) وعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : « أطعموا المرأة في شهرها الذي تلد فيه التمر ، فإن ولدها يكون حليماً تقياً » (2).

الحوادث غير المتوقعة :

يخضع الطفل في أيام الحمل لتأثيرات أمه ، وإن جميع الحوادث التي تقع للأبوين تؤثر فيه ، ويصنع الطفل بموجبهها. فقد يصادف أن تقع بعض العوامل في أيام الحمل فتؤدي إلى سعادة الطفل. وقد يكون العكس حيث تؤدي إلى شقائه أو سقوطه وانعدام حياته تماماً.

لننتصور مسافراً يركب سيارة ويقصد منطقة نائية جداً بحيث يطول سفره تسعة أشهر فهناك العديد من المخاطر في طريقه ، فمن المحتمل في كل لحظة أن يقع في هوة سحيقة ، أو واد عميق أو تصطدم سيارته بجبل ، أو لحظة أن يقع في هوة سحيقة ، أو واد عميق أو تصطدم سيارته بجبل ، أو يقذف إلى نهر ، أو تكسر يده ، أو يجرح بدنه ، وقد يصادف أن يطوي 99% من مجموع المسافة ، ويبقى له 1% فقط فتصادفه عتبة كاداء أو حادثة سيئة في ذلك الجزء الأخير ، فلا يمكن التأكد من وصول المسافر إلى مقصده بسلام إلا بعد أن يترك السيارة ويتجه إلى منزله الأخير.

وهكذا النطفة التي تنعقد في رحم الأم لأول لحظة ، فهي كالمسافر الذي استقل واسطة النقل ، وعليه أن يقطع المراحل الطبيعية طيلة تسعة أشهر. فهناك المئات من العراقيل والمخاطر تقع في طريقها. وفي كل لحظة يمكن أن تقع حادثة تؤدي إلى سقوط الجنين وموته ، أو تحدث فيه نقصاً وانحرافاً. وقد يصادف أن يقطع الجنين ثمانية أشهر من حياته بسلام ، وفي الشهر الأخير يصاب ببعض العوارض ، ولا يمكن القطع بسلامة الطفل وإجتيازه المراحل كلها ، وتولده سعيداً إلا بعد أن يتولد سالماً ، ويخرج إلى الدنيا الخارجية.

ولهذا فإن قسماً كبيراً من النجاح الباهر الذي أحرزه بعض العظماء في العالم

ص: 81

1- مكارم الأخلاق ص 88.

2- المصدر السابق ص 86.

يرجع إلى (طهارة المولد) ، وكذلك الانتكاسات التي تحدث لبعض الأفراد فانها ترجع إلى انحرافات الدور الجنيني.

طهارة المولد :

إن القرآن الكريم يعبر عن رجلين من هؤلاء العظماء بطهارة المولد (والسلام يوم الولادة) وهما يحيى بن زكريا ، وعيسى بن مريم. يقول القرآن في حق يحيى : «وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ» (1). ويقول على لسان المسيح ابن مريم : «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ» (2). والسلام بمعنى : عموم العافية. أي : الطهارة الكاملة للبدن والروح. وهذه الحقيقة أي طهارة المولد متساوية في حق جميع الرسل والأنبياء. والنكتة الأخرى التي يجب التنبيه إليها هي : أن القرآن عبر عن السلامة في دور الرحم بسلامة يوم الولادة ، وذلك لأن السلامة في تمام ذلك الدور لا تعرف إلا بعد ولادة الطفل سالماً ، واجتيازه تلك المراحل كلها بنجاح حيث تنقطع صلته تماماً برحم أمه.

« كان علي بن الحسين عليه السلام إذا بشر بولد ، لم يسأل : أذكر هو أم أنثى ؟ بل يقول : أسوي ؟. فإذا كان سوياً قال : الحمد لله الذي لم يخلقه مشوهاً » (3).

ولا ريب فسلامة المولد قيمتها ، إذ أنها هي السبب الأول في نشوء جيل مستو وخلق مجتمع فاضل تنتشر فيه روح السعادة والانسانية والصفاء.

مصدر السعادة والشقاء :

ينضح مما سبق مدى أهمية رحم الأم في سعادة الطفل وشقائه ، وكذلك اتضح السبب في عدم ذكر الروايات لأهمية أصلاب الآباء ، إذ أن الرحم هو مصدر السعادة والشقاء ، وفيه يتقرر مصير الإنسان وسلوكه بنسبة كبيرة. فبعض الأطفال يبتلى بقسم من العيوب والنواقص العضوية في ناحية أو أكثر من البدن ، ويولد مع تلك العيوب. وهناك بعض الأطفال نجدهم سالمين من حيث القوام البدني ، ولكنهم مصابون

ص: 82

1- سورة مريم 15.

2- سورة مريم 33.

3- مكارم الأخلاق ص 119 ط إيران.

ببعض الانحرافات والعوارض النفسية والروحية ، ولذلك فإن الشقاء قد لحق بهم وهم في بطون أمهاتهم.

إن الانحرافات البدنية والنفسية كثيرة. وهناك الكثير منها لا يزال مجهولاً لدى العلماء حتى اليوم. إلا أن قسماً كبيراً من تلك العاهات يمكن الإتياء منها إذا أحرزنا السلامة البدنية والنفسية للاباء والأمهات.

وإذ جر البحث إلى هذه العاهات التي تسبب ولادة الطفل شقيماً ، لا بأس بذكر بعضها وتعداد أنواعها ، لمناسبتها للبحث من جهة ، ولفوائدها للمستمعين الكرام من جهة أخرى.

العاهات العضوية :

« 1 - بقاء الجدار الداخلي للبطن مفتوحاً ، وحينئذ يؤدي إلى خروج الأحشاء إلى الخارج (خلف الجدار الخارجي) وإيجاد إنتفاخ ظاهر .»

« 2 - الفتق السري الناشئ من عدم انسداد الحبل السري قبل الولادة ».

« 3 - عدم التحام جدار السرة وحصول شق في مقدم البطن إلى جهة الطحال ».

« 4 - عدم التحام القفص الصدري بعظم القص وفي هذه الصورة يكون القلب سطحياً وواقعاً خلف الجلد مباشرة. وفي بعض الأحيان نجد بقاء قسم من الرئتين خارج القفص الصدري » (1).

الوجه :

« 1 - شق الشفة ، وينشأ هذا العيب من عدم التصاق الأنسجة الرابطة بين أجزاء الفك أو الأنف. هذه العاهات قد تؤدي إلى ظهور أثر جرح ، أو كشق صغير على جانب واحد جانبيين من الشفة ».

ص: 83

« 2 - شق الفحفف : هذا الشق ينشأ من عدم اتصال الأنسجة بين عظام الجمجمة ».

« 3 - عدم إنسداد الفتحة الواصلة بين العين والأنف هذه الفتحة التي تبدأ من الجفن الأسفل للعين وتمتد إلى جهة الفم ، قد تبقى مفتوحة أحياناً ».

« 4 - إتساع فتحة الفم أكثر من المعتاد. وهو ناشئ من عدم إلتيام الأخدود الواصل بين أنسجة الفك الأعلى والأسفل ».

« 5 - وقد يؤدي توقف أنسجة الوجه عن النمو إلى ظهور العاهات وبعض الحفر في الوجه » (1).

الهندام :

« 1 - توقف بعض أجزاء الأطراف عن النمو ، وفي هذه الصورة قد نجد الأطراف ملتصقة بالجسد مباشرة من دون وجود الساعد أو الساق ».

« 2 - ظهور أطراف زائدة - كاملة أو ناقصة - وهذا التشويه ينشأ في الغالب من انقسام الأنسجة الأولية ».

« 3 - عدم التناسق في اتصال مفاصل الرجلين وفي هذه الصورة تكون الأصابع في خلف القدم والكعب في الجانب الأمامي » (2)

الجهاز الهضمي :

« 1 - إنسداد المريء ، وعلامته تقيؤ الطفل للحليب في اليوم الأول فور ارتضاعه ».

« 2 - ضيق فتحة المريء حيث يؤدي فيما بعد إلى مشاكل كثيرة في بلع الأطعمة الصلبة - غير السائلة - ».

ص: 84

1- جنين شناسى ص 71.

2- المصدر السابق ص 73.

« 3 - الضيق الناشئ قبل الولادة لفتحة فم المعدة ، والنمو غير الاعتيادي للعضلة التي تغلق هذه الفتحة ».

« 4 - إنسداد ثقب المخرج ، أو أدائه إلى غيره من الحفر كالمثانة ونحوها » (1).

هذه نماذج مختصرة للعاهات والنواقص التي تصيب جسم الطفل ، وهي كثيرة ، فجميع أجزاء البدن سواء الجهاز العظمي والجهاز التناسلي والقلب والعروق الدموية والمخ والأعصاب خاضعة للتأثر بتلك العاهات ، وقد تكون خطرة جداً إلى درجة أنها تؤدي إلى نشوء رأسين على رقبة واحدة ، أو بدنين على ظهر واحد.

من قضاء الامام علي عليه السلام :

ولقد حدث مثل هذا الحادث في زمن الامام أمير المؤمنين عليه السلام إذ جاءته امرأة ولدت من زوجها الشرعي طفلاً له بدنان ورأسان على حقو (2) واحد ، فتحيروا في حصته من الأثر ، هل يعطونه حصّة واحدة أم حصتين ، فصاروا إلى أمير المؤمنين عليه السلام يسألونه عن ذلك ليعرفوا الحكم فيه ، فكان جواب الامام عليه السلام : « إعتبروا إذا نام ثم أنبهوا أحد البدنين والرأسين. فإن انتبها معاً في حالة واحدة فهما إنسان واحد. وإن استيقظ أحدهما والآخر نائم ، فهما إثنان وحقهما من الميراث حق إثنين » (3).

والسر في هذا القضاء العادل والحكم الدقيق واضح ، لأنه اعتبر ملاك الحكم هو المركز العصبي ، إذ عليه المعول في توجيه الانسان ، فإن كانت قيادة واحدة توجه البدنين والرأسين فهو شخص واحد. ولكن إذا كان يدير كل قسم جهاز عصبي

ص: 85

1- جنين شناسی ص 109 ، وكما ورد في كتب التواريخ فان الحجاج بن يوسف الثقفي كان مصاباً بهذه العاهة ، فقد كان فاقداً للدبر حين الولادة ، ثم ثقبوا له موضعه (أنظر تنمة المنتهى ص 98).

2- ورد (الحفو) بمعنى سطح الجبل في بعض كتب اللغة ، والظاهر أنه يستعمل بمعنى (الظهر) أيضاً. كما تدل على ذلك القرينة في المقام.

3- بحار الأنوار للمجلسي ج 9 ص 485 الطبعة القديمة.

مستقل عن الآخر ، فهما بدنان ، وأحسن طريقة لمعرفة أن الجهاز العصبي الذي يدير الجسم في هذا الانسان واحد أو اثنين هو إيقاظه من النوم.

فكما أن الشخص الواحد تدار عيناه بواسطة جهاز واحد ، وهما يشبهان مصباحين مربوطين بزور واحد يشتعلان ويطفأ معاً ، فلا يمكن أن تكون إحدى العينين يقظة والأخرى نائمة ... كذلك الرأسان والعيون الأربعة ، فإن كانت تدار كلها بجهاز عصبي واحد ، فلا يمكن أن يكون أحد الرأسين بهدوء ، وبقي الثاني نائماً ، فيدل هذا على أن لهما دماغين مختلفين يصدران إرادتين متباينتين ، ويستجيبان لأثرين متضادين ، فكأنهما طفلان نائمان في فراش واحد متشابكان تماماً. ومع ذلك فيستيقظ أحدهما قبل الآخر.

وبالرغم من خفاء كثير من أسباب هذه الانحرافات على البشر ، فإن لنا أن نقطع بأن حدوث أي عيب في الخلية التناسلية الأولى يؤدي إلى أن يصير الطفل في وضع غير اعتيادي ، كما ثبت ذلك في بعض الحيوانات حين أجريت تجارب عديدة عليها.

« لقد استطاع شابري أن يوجد أجنة غير اعتيادية بإيجاد خدوش في الخلايا الأولية وقد نال هذا الابداع بالخصوص استحساناً بالغاً ، لأن إجراء الاختبارات على خلايا بيضة لا يتجاوز طولها 1% - 2% المليمتر ليس أمراً سهلاً » (1)

الانحرافات الكامنة :

لا- تنحصر العيوب والعاهات التي تصيب الطفل في رحم الأم بالنوع البدني منها فقط. فكثيراً ما يتفق إصابة الطفل بعوارض وانحرافات روحية فهي ليست ظاهرة بل كامنة ، ولكن الأم هي التي أوجدت العوامل المساعدة لذلك الانحراف الكامن الذي لا يلبث - بعد الولادة - أن يظهر تدريجياً ، فيكشف الزمن عن أسرار عميقة كانت مكتومة في سلوك الفرد فجميع تلك الاستعدادات تأخذ بالظهور إلى عالم الفعلية واحدة تلو الأخرى.

ص: 86

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام : « الأيام توضح السرائر الكامنة » (1)

وورد عن الامام جواد عليه السلام : « الأيام تهتك لك الأمر عن الأسرار الكامنة » (2).

وهكذا ، فكما أن الأم المصابة بالسل والسرطان تكون عاملاً مساعداً في إصابة طفلها بنفس المرض ، فالأم المأسورة للانحرافات الروحية والسيئات الخلقية والصفات الرذيلة تكون تربة مساعدة أيضاً لانحراف سلوك الطفل وتفكيره أيضاً. وتأخذ تلك الانحرافات الروحية بالظهور بالتدريج في الطفل.

« إن ولد السارق مصاص الدماء ، تكون قابليته على الارادة الصحيحة؟ من ولد المجنون. فإن الأفراد الذين يملكون انحرافات وراثية موجودون في جميع طبقات المجتمع. ويمكن العثور عليهم بين الأغنياء والفقراء والمثقفين والعمال والفلاحين ... كثيرون هم الذين ينهزمون أمام المشاكل لأبسط حادثة ، والمتلونون الذين لا يستقرون على حال ، ولا يقفون على تصميم وضعفاء الارادة التائهون في خضم الحياة ، والكسالى الذين يشبهون الجماد في خمولهم وجمودهم ، والحساد الذين يكتفون من الحياة بتوجيه الانتقاد إلى الآخرين ، وضعفاء العقول المصابون بالشذوذ العاطفي ، والخلاصة أولئك الذين لا يتجاوز عمرهم العقلي أكثر من 10 سنين أو 12 سنة. ومما لا ريب فيه أن هذا النقص منشؤه وراثي إلى حد بعيد ، ولكن ليس بمقدورنا أن نعين نسبة العوامل الوراثية إلى العوامل التربوية (البيئية) في توليد هذه العاهات. ومع ذلك فإن النماذج الافراطية من ضعف العقل الاختلال الروحي والبكم والبلادة تدل بوضوح على وجود عيوب وراثية - بدنية وروحية - » (3).

ص: 87

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 28.

2- بحار الأنوار للمجلسي ج 17 ص 214.

3- راه ورسم زندكى ص 156.

ومن هنا يتضح لنا السر في أن الدين الاسلامي الحنيف يعتبر الصفات الرذيلة والملكات الذميمة والتمادي في الاجرام في عداد الأمراض الخطرة. فالخلق السيء ليس سبباً للأمراض الروحية والعصبية فحسب ، بل يؤدي أحياناً إلى اختلالات بدنية عظيمة ، مما يؤدي إلى إصابة صاحب الأخلاق السيئة بأمراض جسدية ، وهكذا نجد الأمهات المصابات بالانحرافات الخلقية والأمراض المعنوية يلدن أطفالاً مصابين أيضاً.

وهنا نكتة مهمة : وهي أن الأمراض الجسدية يمكن أن تكشف بسرعة لظهور بوادرها كالحمي وما شاكلها ، ولكن المصابين الأمراض الروحية ومضاعفاتها ومخلفاتها ليس فيهم بوادر ومقدمات ، ولذلك فإن المصاب لا يلتفت إلى الخطر ، إلا عندما يتأصل فيه المرض ويستبد به الانحراف ... حيث يكون أحياناً غير قابل للتدارك أصلاً.

ومن المؤسف له أن أكثر الناس في العالم (ومن ذلك بلادنا أيضاً) يصرفون جل اهتمامهم إلى الجهات المادية فقط ، غافلين عن الجهات المعنوية ولهذا السبب بالذات فانهم يتلقون الفضائل الخلقية والمثل الانسانية والتقوى على أنها أمور حقيرة حتى أن البعض يفرضون أنفسهم في غنى منها.

الغفلة عن الانحرافات الروحية :

يرى الناس أن المرض منحصر بالنوع الجسماني منه ، فالسيئات الخلقية والملكات الرذيلة لا يعتبرونها أمراضاً. المصاب بالسل والسرطان يعتبر مريضاً ، أما الحسود والحقود فليس مريضاً عندهم ، إنهم يرون قرحة المعدة أو الاثني عشر مرضاً ، ولكن الافساد في الأرض والأنانية لا يرونهما كذلك.

وهكذا نجد الرجال حين الإقدام على الزواج يعطفون جل اهتمامهم على جمال الوجه والهندام وسلامة الجسد للمرأة ، من أن يسألوا عن صفاتها الخلقية وملكات المعنوية ، وكذلك نظرة النساء إلى الرجال. فقصر القامة أو الحول في العين يعتبر عيباً في الزواج. ولكن الأنانية وبذاءة الأخلاق لا تعد من العيوب عندهم. وعليه فمن البديهي أن السيئات الخلقية تنتشر بسرعة في ظرف كهذا ، ويزداد عدد المصابين بها يوماً بعد يوم.

وبما أن السجاياء الخلقية من الأركان المهمة في موضوع تربية الطفل وهي في نفس الوقت مفيدة لجميع الطبقات ، نرى من الضروري أن نفصل القول فيها.

إتصال الجسد بالروح :

إن الإنسان مركب من روح وجسد ، وكل منهما يؤثر في الآخر ، فكما أن الجهود الجسمانية تترك آثاراً عميقة في الروح الإنسانية ، كذلك الأفكار والمعنويات فأنها تؤثر على بدنه ، وهذه القاعدة كانت من جملة المسلمات عند الفلاسفة والعلماء في القرون الماضية.

لنفرض إنساناً لا يملك أبسط المعلومات عو الخط أو الرسم ، ومع ذلك يأخذ القلم أو الفرشاة بيده ويتمرن أشهراً وسنين طوالاً وبالتدريج نجد أن روحه تقع تحت تأثير هذا التمرين الجسماني حتى يصير فن الخط أو الرسم في النهاية ملكة نفسانية له. وما هي إلا أيام حتى يكون في عداد خطاطي أو رسامي العالم. هذا تأثير الجسم في الروح.

ولنفترض إنساناً يخجل أو يخاف من شيء ما. وبالرغم من أن الخوف أو الخجل شعور نفسي ومن الأمور المتعلقة بالروح ، نجد أن هذه الحالة النفسية تؤثر في بدنه ، فالمصاب بالخوف يصفر لونه ، أما المصاب بالخجل فيحمر وجهه ، وهذا تأثير الروح في الجسم.

ولم يفت العلم الحديث التنبه إلى هذه النقطة ، وهي تأثير كل من الروح والجسد في بعضهما البعض ، بل أثبت العلماء ذلك ، وذكروا هذه القاعدة بأسلوب أوضح في كتبهم :

ولنستمع إلى (الكسيس كارل) يقول :

« من الواضح أن النشاط العقلي يتوقف على وجوه النشاط الفسيولوجي فقد لوحظ أن التعديلات العضوية تتصل بتعاقب حالات الشعور وعلى العكس من ذلك فإن تتصل بتعاقب حالات الشعور وعلى العكس من ذلك فإن حالات وظيفية معينة للأعضاء هي التي تقرر الظواهر السيكولوجية. وليدل الكل المكون

من الجسم والشعور بالعوامل العضوية والعقلية أيضاً... فالعقل والجسم يشتركان معاً في الإنسان « (1).

تأثير الجسم في الروح :

« وحقيقة الأمر ، أن المراكز المخية لا- تتكون من المادة العصبية فحسب ، إذ أنها تشتمل أيضاً على سوائل غطست فيها الخلايا وينظم تأليفها بواسطة مصل الدم. ويحتوى مصل الدم على إفرازات الغدة ، والنسيج التي تنتشر في الجسم كله ، ولما كان كل عضو موجوداً في النخاع الشوكي بواسطة الدم والليمفا ، فمن ثم فإن حالاتنا الشعورية مرتبطة بالتركيب الكيميائي لأخلاط العقل مثل ارتباطها بالحالة التركيبية لخلاياه. وحينما يحرم الوسيط العضوي من إفرازات غدد (السوبر ارينال) فان المريض يسقط فريسة للانقباض الشديد ، ويشبه حيواناً شرساً ، وتؤدي الاضطرابات الوظيفية لغدة الثايارويد إما إلى الهياج العصبي والعقلي أو إلى البلادة وفقد الاحساس. وقد وجد معتوهون وضعاف عقول ومجرومون في أسر ، أصبح تغير تركيب هذه الغدة فيها بسبب إصابتها بجروح أو بأمراض ، مسألة وراثية « (2).

« ولضياح أرقى التجليات الروحية. يكفي حرمان بلازما الدم من بعض المواد. فحين تتوقف غدة الثايارويد عن إفراز الثايروكسين في الدم مثلاً يضع الشعور بالأخلاق وتذوق الجمال والاحساس الديني. وكذا إزدیاد أو نقصان نسبة الكالسيوم يؤدي إلى اختلالات روحية كثيرة. ولهذا فالشخصية الانسانية تأخذ طريقها إلى الاضمحلال في الانسان المدمن على الخمرة «.

« إن مما لا شك فيه أن الحالة النفسية ترتبط بالحالة الجسمانية تماماً ، وبصورة موجزة : فإن الجهود الفكرية والنشاط العاطفي ينشأ من

ص: 90

1- الانسان ذلك المجهول ص 114.

2- المصدر سابق ص 115.

من خلال هذه النصوص اتضح لنا تاثير الجسم والقوى البدنية في الأجهزة المعنوية والنفسية. والآن لنبحث عن كيفية تأثير الأفكار والعوامل النفسية في شؤون الانسان الجسدية.

تأثير الروح في الجسم :

« فالعواطف - كما هو معروف جيداً - هي التي تقرر تمدد أو تقلص الأوردة الصغيرة عن طريق الأعصاب المحركة ، فهي إذن تقتزن بتغيرات في دورة الدم في الخلايا والأعضاء. فالفرح يجعل جلد الوجه يتوهج في حين يكسبه الغضب والخوف لوناً أبيض ... وقد تحدث الأنباء السيئة تقلصاً في الأوردة الجوفاء أو أنيميا القلب ، والموت المفاجئ في أشخاص معينين ، كما أن الحالات العاطفية تؤثر في الغدد كلها ، وذلك بزيادة دورتها أو نقصها ... أنها تنبه أو تقف الافرازات أو تحدث تعديلاً في تركيبها الكيميائي ... فالرغبة في الطعام تثير اللعب حتى ولو لم يكن هناك أي طعام ... فكلاب بافلوف كان لعبها يسيل على أثر سماعها صوت جرس ، لأن جرساً دق قبل ذلك ، حينما كان الحيوانات تطعم. وقد تؤدي العاطفة إلى إثارة نشاط عمليات ميكانيكية معقدة. فبينما يثير الانسان عاطفة الخوف في القط ، كما فعل (كانون) في تجربته المشهورة ، فإن أوعية غدد (السوبرارينال) تتمدد ، وتفرز الغدد الأدرينالين. ويزيد الأدرينالين ضغط الدم وسرعة دورته ويهيئ الجسم كله إما للهجوم أو للدفاع ... إن العواطف تحدث تعديلات كبيرة في الأنسجة والأخلاط. وبالأخص في الأشخاص الشديدي الحساسية ... فقد ابيض شعر رأس امرأة بلجيكية كان الألمان قد حكموا عليها بالاعدام في الليلة السابقة لتنفيذ الحكم فيها ... وثمة

ص: 91

امرأة أخرى أصيبت بطفح جلدي في أثناؤ إحدى الغارات الجوية ، وكان هذا الطفح يزداد احمراراً وإتساعاً بعد انفجار كل قنبلة ومثل هذه الظواهر بعيدة عن أن تكون استثنائية أو شاذة. فقد برهن (جولترين) على أن الصدمة الأدبية قد تحدث تغييرات ملحوظة في الدم. إذ حدث أن تعرض أحد المرضى لخوف عظيم فهبط ضغط دمه فنقص عدد كريات دمه البيضاء وكذلك الفترة التي استغرقها تخثر بلازما الدم « (1)

« الاضطرابات الروحية التي توجب توقف المبيض عن العمل : أثبتت تجارب الحرب العالمية الأخيرة أن البقاء في المعسكرات الكبيرة لمدة طويلة يسبب انقطاع النزيف الشهري الذي يتسبب من تغيرات دورية تحصل في المبيض في حين أن هذا الاضطراب يرجع إلى حالته الأولى بمجرد الرجوع إلى الحياة الاعتيادية من دون حاجة إلى علاج أصلاً » (2)

« يقول في البحث عن العوارض البدنية الناتجة من مرض روحي خاص : إنه يسبب اختلال جميع العضلات والأعصاب ، يسبب زيادة التبول في بعض المراحل ، ونقصانه بشدة في مراحل أخرى ، يؤدي إلى الأرق أحياناً وإلى شدة النعاس أحياناً. وهكذا يضطرب النشاط الجنسي أيضاً فقد يشتد تارة وقد يقل ويخمد. وحتى البشرة لا تسلم من تغيرات هذا الاختلال. حيث تظهر على الجلد بعض الدمامل التي لا تعالج بأي دواء أصلاً ، في حين تزول من تلقاء نفسها في بعض مراحل المرض. هذه هي العوارض العديدة لهذا الداء الفتاك » (3).

ص: 92

1- الانسان ذلك المجهول. ترجمة عادل شفيق ص 116.

2- هورمونها ص 33.

3- جه ميدانيم؟ بيماريهاى روحي وعصبى ص 13.

إن الاسلام يعتبر الانحرافات الخلقية والصفات الرذيلة أمراضاً. ولهذا وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تعبر عنها بالأمراض. إنه يعتبر المكر والخداع مرضاً فيقول في وصف المنافقين :

«يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ... فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» (1)

وكذلك عندما منع القرآن نساء النبي وحريمه من التكلم بالرقعة واللين فإنه علل ذلك من ناحية الخوف من طمع المستهترين الذين لا يعرفون للعبة وزناً ولا يدركون للشرف معنى فنراه يقول : «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» (2).

وهكذا يصرح الامام علي (عليه السلام) بالنسبة إلى الحقد ، « الحقد داء دوي ومرض موبى » (3)

ويقول بالنسبة إلى متابعة هوى النفس : « الهوى داء دفين » (4).

وإليك نصاً عن أحد علماء الغرب بهذا الصدد :

« لا يقل خطر الحسد عن ميكروب الطاعون الرئوي لأنه يجعل صاحبه يعمل لاضرار الآخرين أكثرين أكثر من العمل لجلب المنفعة لنفسه. وهكذا الحقد والبغضاء وغيرهما من الصفات الرذيلة تعتبر معاول هدامة لا أكثر » (5).

مظاهر الأمراض النفسية :

إن الأمراض الروحية والانحرافات النفسية يظهر أثرها على روح المريض نفسه قبل كل شيء ولكل منها مظاهر وعوارض خاصة. فالاضطراب ، والحيرة ، والاستيحاء ، والجمود ، واليأس ، والجبن ، ونحوها تعد من الحالات المرضية ،

ص: 93

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 35 طبعة دار الثقافة النجف الأشرف.

2- المصدر السابق ص 17.

3- راه ورسم زندكى ص 114.

4- سورة البقرة 8 - 9.

5- سورة الأحزاب 32.

وقد يشتد أثر هذه الاضطرابات والانحرافات فيؤدي إلى الجنون.

« وهناك نوع من الجنون يظهر في الأشخاص السالمين والمعتدلين في سلوكهم. إن تحليل أدمغة هؤلاء بأقوى الميكروسكوبات يثبت سلامة أدمغتهم ، وعدم وجود أي نقص في أنسجة المخ عندهم. فلماذا يا ترى يفقد هؤلاء عقولهم؟ لقد أقيمت هذا السؤال على كبر الأطباء في إحدى المستشفيات العقلية عندنا. فأجاب ذلك العالم الذي كان له الكثير من التحقيقات الواسعة والتجارب الدقيقة في أحوال المجانين ، أجاب بصراحة بأنه لم يفهم بعد السبب في فقدان الناس عقولهم ولم يتوصل أحد إلى سر الموضوع بالضبط. ومع ذلك فهو كان يقول بأن كثيراً من هؤلاء المجانين الذين عالجتهم وجدت أن الجنون يرضي فيهم الشعور بالأنانية ، فكأنهم يجدون في عالم الخيال ما هم محرومون منه في حياتهم الاعتيادية. ثم نقل لي هذه القصة فقال : توجد هنا تحت العلاج سيدة أصيبت بحادث مزعج في حياتها الزوجية ، حيث كانت تأمل أن تحرز منزلة عالية في المجتمع بعد الزواج والحصول على الأولاد والعيش المرفه لكن حوادث الدهر هدمت قصر آمالها ، فهجرها زوجها إلى درجة أنه لم يرغب في أن يتناول الطعام معها ، فأجبرها على أن تسكن الغرفة الواقعة في الطابق السفلي من العمارة. هذا الحادث دفع بها إلى الجنون ، والآن ترى نفسها في عالم الخيال وكأنها تطلقت من زوجها السابق ، وتزوجت من مليونير إنكليزي ، وتصر على أن نسميها : الليدي سميث ، أضف إلى أنها تتصور في كل ليلة أنها ولدت طفلاً. فمتى ما تراني تقول لي : (سيدي الدكتور لقد ولدت البارحة طفلاً) « (1).

وهكذا ، فإن الذين يعمرن نفوسهم بآمال طوال ، ويبقون في أسر الميول

ص: 94

1- آئين دوست يابی ص 36.

المفرطة يجب أن يعلموا أنهم مصابون بمرض خلقي وانحراف روحي. وكما قال الامام علي (عليه السلام): « الهوى داء دفين » هذا الداء يؤدي إلى الجنون أحيانا، وقد يجبر في بعض الأحيان إلى الموت الحتمي، يقول الامام علي (عليه السلام): « من جرى في عنان أمله عثر بأجله » (1).

وما أكثر الذين قتلوا حتف آمالهم الطويلة البعيدة، وما أكثر الرجال والنساء المنتحرين لعدم تحقيق أمنياتهم وعدم وصولهم إلى آمالهم غير الناضجة!!.

تأثير السلوك في الجسم :

والأثر الثاني للأمراض الخلقية هو رد الفعل الحاصل منها في أجساد المصابين بها، فالرجل السيء الخلق ليس مأسوراً للانحراف الروحي فقط، بل إن ذلك الانحراف يؤثر في جسمه فيصاب بعوارض مختلفة.

إن العلم الحديث يعتبر هذه القضية من المسائل القطعية المسلمة، وسنبحث عنها بالتفصيل إن شاء الله في المحاضرات القادمة عند حديثنا عن أسلوب التربية الصحيحة. وهنا نكتفي بنقل نص بسيط إلى القارئ الكريم :

« هناك بعض العادات التي تقلل من القدرة على الحياة، كالأنانية والحسد والتعود على الانتقاد في كل شيء واحتقار الآخرين وعدم الاطمئنان بهم. لأن هذه العادات النفسية السلبية تؤثر على الجهاز السمبثاوي الكبير والغدد الداخلية. وبإمكانها أن تؤدي إلى اختلالات عملية وعضوية أيضاً » (2).

إن الروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام قد أكدت على هذه الناحية وصرحت بأن الأخلاق السيئة تجعل جسد صاحبها مريضاً وضعيفاً، وعلى سبيل المثال نذكر بعض الروايات الواردة عن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) حول الحسد وتأثيره السيء في أبدان الحساد :

ص: 95

1- سفينة البحار للقمي مادة « أمل » ص 30.

2- راه ورسم زندكى ص 87.

1 - « العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد » (1).

2 - « الحسد يذيب الجسد » (2).

3 - « الحسد يفني الجسد » (3).

4 - « الحسود دائم السقم » (4).

5 - « الحسود أبداً عليل » (5).

نستنتج مما سبق عدة أمور :

1 - إن الروح والجسد مرتبطان. ويؤثر كل منهما على الآخر.

2 - تعتبر الأخلاق الرذيلة والصفات المذمومة أمراضاً في عرف الدين والعلم.

3 - لهذه الأمراض - مضافاً إلى عوارضها الروحية - آثار على الجسد فتؤدي إلى انحراف صحة المصابين بها أيضاً.

والآن وبعد أن أخذنا جولة واسعة في موضوع الأمراض الروحية وكيفية إنتقالها بالوراثة ، نرجع إلى صلب الموضوع وهو دور الأم في تحقيق سعادة الطفل وشقائه.

تأثير حالات الأم على الجنين :

إن جميع الحالات الجسدية والنفسية للأم تؤثر على الطفل. لأن الطفل في رحم الأم يعتبر عضواً منها. فكما أن الحالات الجسدية للأم والمواد التي تتعدى منها تؤثر على الطفل ، كذلك أخلاق الام فأنها تؤثر في روح الطفل وجسده كليهما. وقد يتأثر الطفل أكثر من أمه بتلك الأخلاق. فإذا أصيبت الأم في أيام الحمل بخوف شديد ، فالأثر الذي تتركه تلك الحالة النفسية على بدن الأم لا يزيد على اصفرار الوجه ، أما بالنسبة إلى الجنين فإنه يتعدى ذلك إلى صدمات عنيفة.

ص: 96

1- سفينة البحار مادة (حسد) ص 251 وغرر الحكم ص 42.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 23.

3- المصدر السابق ص 22.

4- المصدر نفسه ص 85.

5- المصدر نفسه ص 20 طبعة دار الثقافة - النجف الأشرف.

« إذا حدث للمرأة في أيام الحمل حادث مخيف فإنه يتغير لونها ويقشعر بدننها لكن تظهر على جسم الجنين آثار امتناع اللون تسمى بالخسوف » (1).

وهكذا فإن هموم الأم وغمومها ، غضب الأم واضطرابها ، تشاؤم الأم وحقدتها ، حسد الأم وأنانيتها ، خيانة الأم وجنائيتها ، وبصورة موجزة جميع الصفات الرذيلة للأم ... وكذلك إيمان الأم وتقواها ، طهارة قلب الأم وتقولها ، صفاء الأم وحنانها ، مروءة الأم وإنسانيتها إطمئنان الأم وراحة بالها ، شجاعة الأم وشهامتها ، وبصورة موجزة جميع الصفات الحميدة للأم ... جميع هذه الصفات خيرها وشرها تترك آثارها في الطفل ، وتبني أساس سعادة الجنين وشقائه. وهنا يتحقق قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي استشهدنا به في المحاضرة الثالثة : « الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه ».

وإليك النص الآتي كشاهد من العلم الحديث :

« إن الاضطرابات العصبية للأم توجه ضربات قاسية إلى مواهب الجنين قبل تولده ، إلى درجة أنها تحوله إلى موجود عصبي لا أكثر. ومن هنا يجب أن نتوصل إلى مدى أهمية التفات الأم في دور الحمل إلى الابتعاد عن الأفكار المقلقة ، والهم والغم ، والاحتفاظ بجو الهدوء والاستقرار » (2)

إن الاسلام قام بجميع الاحتياطات اللازمة في موضوع الزواج للاهتمام بطهارة الأجيال الاسلامية ، وأمر بتعاليم دقيقة في الزيجات حول الجهات الروحية والجسدية للرجال والنساء. ولقد رأينا فيما مضى كيف أن الاسلام منع من التزوج من المصابين وبالحرق والجنون والمدمنين على الخمرة ولكنه لم يكتف في سبيل ضمان النشء الاسلامي بذلك الحد بل منع - في مقام الاستشارة - من تزويج الرجل سيء الخلق :

ص: 97

1- إعجاز خوراكيها ص 172.

2- ما وفرزندان ما ص 27.

« عن الحسين بن بشار الواسطي قال : كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام ان لي قرابة قد خطب إلي وفي خلقه سوء ، قال : لا تزوجه إن كان سيء الخلق » (1).

الامراض الوراثية :

لسلوك الأم تأثير عميق في سعادة الأطفال وشقايتهم. وعليه فرّجه الذي يأمل أن يحصل على ولد شريف وطاهر القلب لا بد له من أن يمتنع من التزوّج من النساء البذيئات (2).

« لقد أثبت أطباء الأمراض النفسية أن من بين الأطفال المصابين بتلك الأمراض يوجد 26% منهم وروثوها من أمهاتهم. إذ لو كانت الأم ذات جهاز عصبي سالم ، فإن الطفل يكون سالماً أيضاً. فلو كانت تفكر الأم في صحة طفلها وسلامة جهازه العقلي فلا بد وأن تفكر في سلامة نفسها قبل تولده » (3).

إن هناك سلسلة من القوانين المتقنة والقوية تحكم الكون ، وتلك القوانين هي التي أوجدت هذا النظام العظيم المحير للعقول في مختلف الكائنات والتي أخصعت جميع أجزاء العالم لحكمها. فكل موجود مضطر إلى الانقياد لها وإطاعتها.

السنن الآلهية :

وهكذا يعمل قانون (الحياة) بدقة عجيبة ، ونظام متقن تحت سلسلة من الشروط الدقيقة على إكساء المادة الجامدة لباس الوجود. وفي قبالة قانون (الموت) يعمل على سلب الوجود من تلك الموجودات تحت شروط معينة أيضاً. وكذلك قانون (الوراثة) فإنه يعمل بدقة وحكمة على نقل صفات الجسم الحي - من نبات أو حيوان أو إنسان - وخصائصه إلى الأجيال اللاحقة.

إن القرآن الكريم يعبر عن قوانين الكون (التي تعتبر قانون الحياة وقانون الوراثة

ص: 98

1- وسائل الشيعة للحر العاملي ج 5 105.

2- والسفر في ذلك واضح لأن الفلاح الذي يريد الحصول على ثمرة صالحة لا بد له من أن يبذر بذرته في تربة صالحة. وإلا ففساد التربة يؤثر في الثمرة ، لأنها تحيط بها وهي مصدر غذائها.

3- صحيفة (إطلاعات) الإيرانية العدد 10355.

من ضمنها) بالسنن الالهية ويرى فيها أنها ثابتة غير خاضعة للتغير والتبديل (1) : «فَلَنْ تَجِدَ لِسَانَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَانَ اللَّهِ تَحْوِيلًا» (2)

ويعتبر الانسان جزءاً ضئيلاً جداً من هذا المنهاج العالمي العام ، وعليه أن يخضع - كسائر أجزاء الكون - للقوانين العامة والسنن الالهية.

الانقياد للقوانين والسنن :

والانسان يتأثر بتلك القوانين من اللحظة الأولى التي تنعقد نطفته في رحم أمه إلى يوم الولادة ، وهكذا من دور الرضاعة إلى المراهقة إلى الكهولة إلى الشيخوخة إلى الموت. فالسنن الالهية ترافقه خطوة خطوة ، وتصدر أوامرها غير القابلة للعصيان إليه. فإذا قرر أن يتخلف عن قانون الخلقة فانه يجد عقابه على قدر عصيانه.

فعلى العاقل أن يطيع قوانين الخلقة ولا يتخلف عنها ، بل يعمل على التوفيق بين ميوله ورغباته وبين السنن الالهية. فيجتنب عما يخالف الموازين والتعاليم الصحيحة كيما يضمن لنفسه حياة سعيدة هائلة.

أما الجاهل فعلى العكس من ذلك يغض النظر عن تلك السنن ويطلق العنان لميوله ورغباته ويأمل في أن يخضع العالم كله له في شهواته وأهوائه وبما أن هذه الرغبة ليست قابلة للتطبيق فلا يمر زمن طويل حتى يلاقي حتفه عندما يصطدم بقوانين الخلقة.

يقول الامام علي (عليه السلام) : « إن الله يجري الأمور على ما يقتضيه ، لا على ما نرتضيه » (3).

إن الخمر - السم المهلك - يترك آثاراً خطيرة على أنسجة الجسم ، على المخ والأعصاب ، والكلية والكبد ... وغيرها من الأعضاء ، وهذا هو أحد قوانين الخلقة. فالرجل العاقل يجب أن يصون نفسه من التخلف عن هذا القانون فيجتنب

ص: 99

1- لايضاح الربط الدقيق بين الارادة الالهية والعلل المادية في تفسير هذه القوانين وإيجاد هذه السنن الكونية يرجع شبهة (إما الله والسنن الطبيعية) من كتاب (دفاع عن العقيدة) للمترجم.

2- سورة فاطر 43.

3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 219.

عن الخمرة كي يبقى إلى آخر العمر في حصن منيع من عواقبها الوخيمة. ولكن الجاهل ظناً بالقدره على المقاومة أو اعتماداً على تحقيق اللذة العاجلة يلوث نفسه بها فيتسمم تدريجياً ، ولا تمضي مدة طويلة حتى يقضي أعز أيام شبابه في زاوية المستشفى مع جسم نحيف وكبد ملتهب ومتورم ، وأعصاب مختلة ومرتعشة ، وبذلك الصورة يتجرع آخر لحظات حياته غصصاً وهموماً لقاء تخلفه عن القانون الكوني.

يقول النبي العظيم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لا تعادوا الأيام فتعاديكم » (1).

وكذا ورد عن الامام علي (عليه السلام) أنه قال : « من كابر الزمان غلب » (2) فالذي يعاند الزمان يهلك.

وعن الامام الجواد (عليه السلام) راوياً عن جده (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من عتب على الزمان طالت معتبته » (3). فالذي ينظر إلى الدنيا نظرة المتشائم المتكرر ويعاتب الدنيا سخطاً عليها ، فإن عتابه سيطول من دون جدوى.

ومن هنا يتحتم على الآباء والأمهات الذين يأملون أن ينشأ منهم أطفال عقلاء سالمون أن يراعوا جميع القوانين التكوينية من الجانبين الجسدي والروحي. فكل عيب أو انحراف يظهر في سلوك الأطفال - مهما كان حقيراً - فان العلة في ذلك هو التخلف عن بعض السنن الالهية في هذا الكون العظيم.

ومن خلال الحديث الذي أملاه الامام الصادق عليه السلام على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي في موضوع التوحيد ، تقتطف الفقرة التالية فقد كان الامام يتحدث عن بلوغ الأولاد وإنبات الشعر في وجوههم فسأله المفضل قائلاً : « يا مولاي ، فقد رأيت من يبقى على حالته ولا ينبت الشعر في وجهه وإن بلغ حال الكبر. فقال : ذلك بما قدمت أيديهم وإن الله ليس بظلام للعبيد » (4) ومنه يتضح أن إنبات الشعر في

ص: 100

-
- 1- سفينة البحار مادة (يوم) ص 741. وواضح أن العداء مع الأيام لا يعني إلا التخلف عن قوانينها وعدم الانقياد للسنن الكونية الصارمة.
 - 2- تحف العقول ص 85.
 - 3- بحار الأنوار للمجلسي ج 17 ص 101 الطبعة القديمة.
 - 4- بحار الأنوار ج 2 ص 20.

وجه الرجال بعد البلوغ لما كان قانوناً من قوانين الخلقة ، فإن تخلفه في مورد ما ، لا بد أن يكون معلولاً لعوامل بشرية.

الأطفال المنحرفون :

إنه بالرغم من وجود الوسائل العلمية والعملية التي يملكها الغربيون في أوروبا وأمريكا نجد الأطفال المصابين بالعيوب والانحرافات يتولدون بنسبة هائلة. واليك الخبر الآتي : -

« يولد في الولايات المتحدة الأمريكية 4200000 طفل سنوياً. ولكن مئات الألوف منهم مصابون بنواقص وعيوب ناشئة قبل الولادة. وأكثرهم يشكون من الأمراض القلبية ، والشلل العصبي ، والصرع ، والعمى ، والصمم ، وغير ذلك. ومضافاً إلى ذلك فمن بين خمس نساء حوامل لا- تقلح واحدة منهم في ولادة طفل حي والسبب في ذلك أمران : أحدهما الاجهاض. والآخر موت الطفل حين الولادة. هذه الحقائق ولدت مشاكل شخصية وطبية كبيرة في الولايات المتحدة الأمريكية وهي تحتل جانباً مهماً من اهتمام الأطباء » (1).

إن الدول الأوروبية والولايات السوفياتية لا تقل إصابة بهذه المشاكل والمصائب من أخواتها الولايات المتحدة الأمريكية. فلو كان أولئك يضعون إحصائياتهم تحت متناول من يشاء كما يفعل الأمريكيان ، لعلمنا أنه ينشأ فيها سنوياً ما لا يقل عن مئات الألوف من المنحرفين والمصابين بالعيوب والنواقص.

والحق أن تولد مئات الألوف من الأطفال المنحرفين في السنة مصيبة عظيمة ومشكلة عويصة لدولة. ومما لا شك فيه أن جرائم الأبوين وعدم رعايتهم للقوانين الأخلاقية والكونية والالهية وتماديهم في تناول المسكرات وتلبية نداء الشهوة من دونما رادع ، ومقامراتهم واضطراباتهم العصبية هي العوامل الأساسية لهذا الشقاء العظيم.

ص: 101

1- مجلة (أخبار هفتة) الإيرانية الصادرة بتاريخ 1338 2 28 هجرية شمسية. وبعد مثل هذه الاحصائيات نرجو أن يحكم القارئ الكريم من هم التقدميون؟!.

إشارة

قال الله تعالى : «وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» (1).

ركنا السعادة :

سندخل من اليوم في بحث التربية والأدوار التي بعد الولادة. إن التربية أحد ركني السعادة ، فالسعادة البشرية تتركز على ركنين مهمين هما : الوراثة والتربية. وفصلنا القول نوعاً ما في البحث عن الوراثة فيما مضى. ولكننا في هذه المحاضرة وما يليها من المحاضرات سنبحث عن أهمية العامل الثاني المؤثر في سلوك الفرد ، وهو التربية.

إن أهمية التربية قد تتجاوز أهمية الوراثة إلى درجة أن بإمكانها أن توقف قانون الوراثة إلى حد ما. فتتغلب عليه وتضطره إلى الانسحاب من الميدان حسب درجة قوتها وإصالتها إلا في الموارد التي تكون الصفات الوراثية ذات طابع حتمي (أي لا يمكن أن تتغير في الطفل مهما كانت العوامل الأخرى قوية)

ففي هذه الصور ، حيث تعتبر تلك الصفات الوراثية قضاء حتمياً وقدرأ لازماً بالنسبة للطفل تقف التربية عن التأثير أيضاً.

ولأجل أن نلفت أذهان المستمعين الكرام إلى هذه الحقيقة بصورة أوضح لابد من البحث بصورة موجزة عن القضاء والقدر والمصير ، ثم ندخل إلى صلب

ص: 102

الموضوع. فهناك الكثيرون ممن يؤدي بهم الجحود أو الجهل إلى أن ينكروا تأثير القضاء والقدر إنكاراً تاماً زاعمين أنهما أمران وهميان لا أكثر. كما أن هناك طائفة أخرى في قبال هذه الطائفة تخضع جميع الوقائع والأحداث - جهلاً بحقائق الدين والعلم - إلى القضاء والقدر الحتميين ، ويرون أن البشر عاجز عن مقابلتها أو حفظ نفسه عنها. ولكن الواقع أن العالم كله يدور على أساس القضاء والقدر وعلى أساس مقاييس وقوانين دقيقة.

معنى القدر :

يقول الله تعالى في القرآن الحكيم : «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» (1) فأصغر الذرات الأرضية وأكبر الأجرام السماوية قد خلقت كلها على أساس مقياس دقيق وتقدير صحيح ، كل قد انتظم في مكانه الخاص به ... وهذا هو معنى القدر. إن عالماً فلكياً يستفيد من هذا التقدير العظيم والحساب الدقيق فيتوصل بمحاسباته الرياضية إلى التنبؤ عن وقت خسوف القمر ومدة الخسوف ومقداره قبل أشهر عديدة. فإذا لم يكن وضع الشمس وحركة القمر على أساس نظام متين ثابت لا يتغير ، فانه يستحيل على الفلكي أن يصل إلى هذا التنبؤ. وبهذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن حركة الشمس والقمر فيقول «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ» (2).

وهكذا ، فإذا وجدنا الفضاء الفسيح بأجرامه العظيمة منظماً وثابتاً ، وإذا كانت قطعة من الحجر تسحب من الفضاء إلى المركز بفعل جاذبية الأرض ، وإذا خرجت البذرة من تحت سطح الأرض بصورة نبتة ، وإذا وجدنا النطفة تنمو في رحم الحيوان أو الانسان فتتحول إلى موجود كامل ... فذلك كله يسير طبق القوانين والسنن الالهية وكلها مظاهر لقضاء الله وقدره. إذن فالعالم يسير بموجب القضاء والقدر وكل يجري إلى مصيره المعين له بحسب التقدير الالهي.

ص: 103

1- سورة القمر 49.

2- سورة الرحمن 5.

وأحد الموجودات في هذا العالم هو الانسان ، ترتبط كل قواه وأفعاله ، وجميع حركاته وسكناته بالقضاء والقدر الالهيين. فدقات القلب ودوران الدم ، والاحساس في العصب ، والهضم في المعدة ، والتصفية في الكبد ، والإبصار بواسطة العين ، والسمع بواسطة الأذن ... كل أولئك يسير حسب قضاء الله وقدره ، ولكن النقطة المهمة في البحث هي أن القضاء والقدر ينقسم بالنسبة إلى الانسان إلى قسمين : -

فقسم منه يتسم بطابع الحتمية والجبرية حيث يجري من غير إرادة الانسان واختياره ، وقسم آخر جعله الله تعالى طوع إرادتنا وخاضعاً لاختيارنا.

ولنأخذ مثلاً على ذلك : اللسان ، فهو عضو من أعضائنا وجزء من بدننا وله مقدرات كثيرة. فأحد تلك المقدرات جريان الدم في عروقه. ومنها أيضاً تكلمه. أما جريان الدم في عروق اللسان فهو خارج عن إرادتنا وإختيارنا ، فالدم يجري في الأوعية الدموية الموجودة في اللسان سواء شئنا أم أبينا. وهنا (في دوران الدم في اللسان) قضاء ان : الأول جريان الدم في عروق اللسان بالتقدير الالهي. والثاني جبرية هذا الدوران وحتمية في اللسان بالتقدير الالهي أيضاً حيث لا مجال لإرادتنا واختيارنا فيه.

هذا هو أحد المقدرات بالنسبة إلى اللسان ، وقد عرفنا التقدير الالهي فيه.

وأما المقدر الآخر فهو صدور التكلم منه. ولكن الواضح أن التكلم نفسه خاضع لإرادتنا ، فبإمكاننا أن نتكلم ، وبإمكاننا أن نسكت. كما أننا نستطيع أن نصدق في كلامنا ، ونستطيع أن نكذب. فهنا أيضاً (في تكلم اللسان) قضاء ان : الأول صدور التكلم من اللسان بالتقدير الالهي. والثاني اختيارية التكلم ، وإرادته أيضاً بالتقدير الالهي.

ومن هنا يتضح جلياً أن القضاء والقدر قد يجريان بصورة جبرية.

وأحياناً يقع القضاء الحتمي بواسطة قدر اختياري لنا. فمثلاً نجد أن الموت أمر مسلم وحتمي على جميع البشر بحكم القضاء الالهي ، وهو صريح قوله تعالى : «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ». ولكن هذا القضاء الحتمي قد يتم بنحو الموت الطبيعي وانقطاع النشاط

الحيوي. كما يمكن أن يتم إرادة واختيار من قبل شاب يملك من القوة وسلامة البدن ما تجعل باستطاعته أن يعيش سنين طوالاً فيقدم على الانتحار.

وهكذا فالشيخ الذي عمر مائة سنة حتى مات حتف أنفه ، والشاب الذي لم يعيش أكثر من عشرين سنة حتى انتحر بإرادته واختياره متساويان في أنهما ماتا بقضاء الله وقدره ، مع فارق واحد وهو أنه في الصورة الأولى كان القضاء والقدر حتميين غير اختياريين ، بينما في الصورة الثانية إستغل الشاب حرية الاختيار بالنسبة إلى القضاء والقدر وأنهى بذلك حياته.

وعلى هذا يجب أن لا نستغرب من قول الراوي عن الرضا (عليه السلام) حيث يقول : « سمعت الرضا عليه السلام يقول : كان علي بن الحسين (عليه السلام) إذا ناجى ربه قال : اللهم إني قويت على معاصيك بنعمك » (1) ومعنى هذه الرواية أن الذي يقدم على المعصية إنما يستغل نعمة الحرية والاختيار التي وهبها الله له بالقضاء والقدر استغلالاً سيئاً ، فيصاب بالانحراف.

إرادتنا واختيارنا :

النقطة التي تزل عليها الأقدام - غالباً - هي أن الناس متى سمعوا إسم القضاء والقدر ظنوا أنه حتمي وجبري. في حين أن الحق ليس كذلك ، فقد يتمثل القضاء والقدر الالهي في اختيار الناس وإرادتهم. وهناك حديث عن الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يؤيد هذا الموضوع بوضوح :

« عن أمير المؤمنين أنه قال لرجل - سأله بعد انصرافه من الشام - فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن خروجنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر؟ قال عليه السلام : نعم يا شيخ ، ما علوتم تلعة ولا هبطتم وادياً إلا بقضاء الله وقدره ... ».

« فقال الشيخ : عند الله احتسب عنائي يا أمير المؤمنين؟ » أي : فليس لأتعبنا التي تحملناها في سفرنا هذا من أجر عند الله ...؟

فيجيب الامام (عليه السلام) :

ص: 105

« مه يا شيخ ، فان الله قد عظم أجركم في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي مقامكم وأنتم مقيمون ، وفي انصرافكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من أموركم مكرهين ولا-إليه مضطرين ، لعلك ظننت أنه قضاء حتم وقدر لازم؟! لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، ولسقط الوعد والوعيد » (1).

فنجده الامام عليه السلام في هذا الحديث ينسب جميع الأفعال الارادية للبشر إلى القضاء والقدر الالهي. ولكنه مع ذلك يقول : إن هذا القضاء لم يكن حتمياً والقدر لم يكن لازماً. وبنفس المضمون ورد حديث آخر عن الامام الرضا عليه السلام يسأل فيه الراوي عن معنى الأمر بين الأمرين فيقول : « فما أمر بين أمرين ؟ فقال : وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا وترك ما نهوا عنه » (2).

الأمر بين الأمرين

الأمر بين الأمرين (3) :

وهنا يسأل الراوي : « فقلت له : فهل لله عز وجل مشية وإرادة في ذلك ؟ فقال :

ص: 106

1- تحف العقول ص 468.

2- بحار الأنوار ج 3 ص 5.

3- تنقسم المذاهب الاسلامية بالنسبة إلى موضوع (حرية الارادة عند الانسان) إلى ثلاث فرق : فطائفة ترى أن للانسان الحرية الكاملة في إتيان ما يريد وترك ما يشاء ، وهؤلاء هم (المفوضة) حيث يقولون بأن الله فوض إليهم الأمور. وطائفة ثانية ترى أن الانسان لا يملك أي حرية في أفعاله بل أفعاله في الحقيقة هي أفعال الله التي خلقها فيه ، وهؤلاء هم (المجبرة) حيث يقولون بأن الله أجبرهم على أفعالهم. والطائفة الثالثة تقف موقفاً وسطاً بين الافراط في حق الارادة الانسانية والتفريط فيها وهي التي ترى أن (لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين) وهؤلاء هم (الامامية). وأول من عبر عن هذا الاصطلاح عندهم إمامهم السادس جعفر بن محمد الصادق (رئيس المذهب الجعفري). ولقد كثر البحث والنقاش في الاستدلال على صحة أحد هذه المذاهب الثلاثة ، ولكن المثال الآتي يؤيد صحة استناد أفعالنا إلى إرادتنا وحريرتنا ، في حين كونها مسيرة بإرادة الله أيضاً ويثبت حقانية مذهب الأمامية في الموضوع. لنفرض إنساناً كانت يده شلاء لا يستطيع تحريكها بنفسه. وقد استطاع الطبيب بأن يوجد فيها حركة إرادية وقتية بواسطة قوة الكهرباء بحيث أصبح الرجل يستطيع تحريك يده بنفسه متى وصلها الطبيب بسلك الكهرباء وإذا انفصلت عن مصدر القوة لم يمكنه تحريكها أصلاً. فتحريك المريض يده والطبيب يمدده بالقوة في كل آن يوضح الأمر بين الأمرين ، حيث لا تستند الحركة إلى الرجل مستقلاً لأنها موقوفة على إيصال القوة إلى يده ، وقد فرضنا أنها بفعل الطبيب. ولا تستند إلى الطبيب مستقلاً ، لأن التحريك قد أصدره الرجل بإرادته ، فالفاعل لم يجبر على فعله لأنه يريد ولم يفوض إليه الفعل لأن المدد من غيره ، وهكذا فالأفعال الصادرة منا بمشيتنا ، ولكننا لا نشاء شيئاً إلا بمشيئة الله. ولتفصيل الموضوع يراجع كتب العقائد والكلام المفصلة. وكذلك تجد رد شبهة الجبر بالتفصيل في كتاب (دفاع عن العقيدة) ص 1. 151 : للمترجم.

أما الطاعات فإرادة الله ومشيته فيها : الأمر بها ، والرضا لها ، والمعاونة عليها ، وإرادته ومشيته في المعاصي النهي عنها ، والسخط لها ، والخذلان عليها « فهذه الفقرة تبين إرادة الله في أعمال البشر وكيفية التأثير عليها ... » قلت : فله عز وجل فيها القضاء؟! قال : نعم ، ما من فعل يفعله العبد من خير وشر إلا ولله فيه قضاء. قلت : فما معنى هذا القضاء؟! قال : الحكم عليهم بما يستحقونه على أفعالهم من الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة « (1).

ف نجد أن الامام الرضا عليه السلام يسند جميع الأفعال الصالحة والطالحة للبشر إلى القضاء الالهي بكل صراحة فإن قضاء الله في أعمال البشر هو حريتهم ... تلك الحرية ، وذلك الاختيار اللذين يستحق بهما الثواب في الطاعة والعقاب في المعصية.

القضاء الالهي :

ولأجل أن يتضح الموضوع للمستمعين الكرام بصورة أحسن نضرب مثلاً على الانتحار. فلو أن شخصاً رمى نفسه من فوق سطح العمارة إلى الأرض المبلطة بالرخام ، وقال في نفسه : لو كان المقدر لي أن أموت فاني ألقى حتفي وإن لم أرم بنفسي من فوق السطح ، وإن كان المقدر أن أبقى حياً فاني سأستمر على الحياة وإن رميت نفسي من على السطح ... ففي ذلك خطأ فظيع. لأن لله تعالى عدة مقدرات جبرية بهذا الشأن ، ومقدر اختياري واحد. أما المقدرات الجبرية فهي عبارة عن :

1 - إن القضاء والقدر الالهيين قد جعلوا الرخام الذي يغطي ساحة هذه القاعة صلباً وقوياً.

2 - خلقت جمجمة الانسان بموجب القضاء والقدر من عظم دقيق قابل للتهشم.

ص: 107

3 - القضاء والقدر أكسب الأرض قوة الجاذبية ، حيث تجذب الأجسام التي في الفضاء ، إليها.

4 - إن القضاء والقدر الالهيين يحكمان بأن كل من يرمي نفسه من مكان شاهق إلى أرض صلبة تتكسر جمجمته ويتلاشي مخه.

5 - القضاء والقدر الالهيين يقضيان بموت الانسان عند تلاشي مخه. هذه هي الأقدار الالهية الحتمية والجبرية بالنسبة إلى حادثة الانتحار.

6 - القضاء والقدر الالهيان يحكمان بأن للانسان الارادة والاختيار الكاملين ، فله أن يرمي نفسه من السطح ويموت أو يمتنع عن ذلك فينزل من السلم درجة درجة.

إذن ، يجب أن نقول لذلك الشخص الواقف على السطح لغرض إلقاء نفسه إلى الأرض : إن القضاء الالهي بالنسبة إلى موتك وحياتك يتبع إرادتك واختيارك. فإن اخترت اللقاء بالنفس من السطح فالمقدر أن تموت. وإن اخترت الهبوط على السلم فالمقدر لك أن تبقى حياً. وعلى كلتا صورتين تجري القضية بموجب القضاء والقدر. ومن خلال الحديث الثاني ، نتبين حرية الارادة الانسانية ، بالرغم من جريان القضاء والقدر على جميع الأمور ، لأن للانسان تمام الاختيار في سلوك الطريق المؤدي إلى الخير أو الشر. فإن سلك أحدهما وصل إلى النتيجة بلا شك : -

« عن ابن نباتة قال : أن أمير المؤمنين عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر. فقليل له يا أمير المؤمنين تفر من قضاء الله؟ قال : أفر من قضاء الله إلى قدر الله عز وجل « (1).

حرية البشر :

إن أهم ما يمتاز به الانسان على غيره من الموجودات على وجه الأرض هو حريته التي وهبها الله تعالى إياه. فجميع الترقيات وأوجه التكامل التي حصل عليها البشر لحد الآن ترجع إلى هذه الميزة. تمر قرون مديدة على النحلة ولا تزال تبني

ص: 108

بيتها على شكل سداسي وستستمر تبني بيتها على هذا الشكل في القرون المقبلة ، لأنها مجبرة في هذا العمل ولا تملك عقلاً أو تفكيراً. تقودها غريزتها التي أودعها الله تعالى فيها. ولكن الانسان الحر لا يزال يتكيف لبيئته وظروف حياته ، فقد انتقل من سكنى الكهوف إلى تكوين الأ-كواخ ، ومنها إلى إنشاء القصور الضخمة التي نراها اليوم. ومن المؤمل أن نفصل القول حول الحرية البشرية والاختيار الفطري للانسان في محاضرة خاصة إن شاء الله.

للاسان أن يقرر مصيره :

إن جانباً من القضاء والقدر يرجع إلى إرادتنا واختيارنا. وان الرسالات السماوية تدور حول أفعالنا الارادية. ولهذا فان الثواب والعقاب من قبل الله نظير الجزاء والعقاب البشري في أنه يرجع إلى إرادة البشر واختيارهم. وهكذا فإن لكل منا أن يقرر مصيره بيده. وما أكثر أولئك الذين يدفعهم الكسل وحب الذات إلى التقصير في إداء الواجبات الاجتماعية اللازمة ، ثم ينسبون الشقاء الذي يلاقونه إلى القضاء والقدر ، في حين أنهم كانوا يملكون الحرية الكاملة ، ولم يستغلوا هذه الحرية استغلالاً حسناً بل أساءوا التصرف إليها وجلبوا الشقاء لأنفسهم!!.

إن الله تعالى يقرر في القرآن الكريم أن الذين يرثون الأرض ولهم الحق في أن يقودوا بزمامها هم الرجال الصالحون فقط :

«وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ» (1).

والعباد الصالحون هم الذين وصلوا إلى جميع مدارج الكمال المادي والمعنوي بفضل الايمان والعلم. وفي ظل الفضائل الخلقية والملكات الطاهرة ونتيجة الجهد والجد ... وبذلك صاروا يستحقون إسم الانسان الحقيقي.

إن القضاء الحتمي والذي لا- يقبل التخلف في هؤلاء الرجال الصالحين هو أن يرثوا حكومة الأرض ولكن الوصول إلى مقام الصلاح واستحقاق تلك الدرجة (قدر)

ص: 109

إختياري يتعلق به ذلك القضاء الحتمي ... وهؤلاء هم الذين يتمكنون أن يتبعوا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بإرادتهم وإختيارهم ويصلوا إلى المقام الذين يستحقون معه وراثة الأرض. وهم الذين إن استغلوا حريتهم التي وهبها الله إياهم استغلالاً سيئاً هروا إلى هوة سحيقة من الجهل والاحاد والفساد والكسل والأنانية.

نستنتج مما سبق أن العالم كله يدار بواسطة القضاء والقدر. أي أن السنن الالهية هي التي تحكم في هذا الكون. وكذلك الأمور التي ترتبط بالإنسان. فانها خاضعة للقضاء والقدر ، غاية ما هناك أن جانباً من القضاء والقدر المتعلق بالبشر يكون مصيراً حتمياً لا أثر لإختيارنا وإرادتنا فيه كدقات القلب ودوران الدم ... وجانباً منه تابع لإرادتنا وإختيارنا ، ولنا أن نستغله إما استغلالاً حسناً أو سيئاً.

الوراثة والتربية :

وبعد أن تطرقنا بصورة موجزة إلى القضاء والقدر وبيان علاقته بالإرادة البشرية ، ندخل إلى صلب الموضوع.

إن الطفل يرث في رحم الأم صفات الآباء والأمهات ، وهذا الأمر خاضع للقضاء والقدر. والصفات التي تنتقل بالوراثة تكون على نحوين :
فقسم منها يكون على نحو القضاء والقدر الحتمي والمصير. القطعي الذي يبقى مدى الحياة ملازماً للطفل ، وفي هذه الصورة تكون ظروف الرحم (علة تامة) لتلك الصفات. والقسم الثاني ما يكون على نحو العوامل السماعدة في انتقالها إلى الأبناء ، فهي ليست مصيراً حتمياً وفي هذه الصورة تكون ظروف الرحم (عاملاً مساعداً) لها.

« يتحدد مصير أفراد معينين بشكل قاطع في حين يتوقف مصير آخرين - إن كثيراً أو قليلاً - على أحوال نموهم » (1).

« من المعروف أن ضعف العقل والجنون والاستعداد الوراثي للنزف الدموي والصمم والبكم نقائص وراثية ... كذلك تنتقل أمراض معينة كالسرطان والسل ... إلخ من الآباء إلى الأبناء ولكن

ص: 110

كاستعداد فقط ، وقد تعوق أحوال النمو ظهور هذه الأمراض أو تساعد على تحققها ... » (1).

وكما أن لون البشرة والعين أو قصر النظر في العين من الأمور الوارثية التي لا تقبل التغيير فإن الجنون الوراثي أيضاً من العيوب التي لا تقبل التغيير. فالطفل الذي يولد من أبوين مجنونين يظل مجنوناً مدى الحياة ، وهذا هو مصيره الحتمي.

المصير الحتمي :

هذا المصير الحتمي لا يمكن أن يتبدل بتعاليم الأنبياء الرصينة ، ولا بالوسائل الطبية والتربوية ، فهو مجبر على الجنون ، وهكذا الطفل الذي يولد في رحم الأم أحماً بليداً ، ويرث البله والبلادة من أبويه يستمر مدى العمر على ذلك الواضع ، ولن تؤثر الأساليب التربوية فيه.

« إن أحوال النمو لا تستطيع أن تحول الطفل الضعيف البليد الشعور ، المشتت العقل ، الجبان ، الخامل ، إلى رجل نشيط أو زعيم قوي شجاع. » (2)

وبهذا الصدد يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام : « الحمق داء لا يداوى ومرض لا يبرأ » (3).

وهكذا فالطفل الذي يولد من أم مصابة بالسل يملك تربة مساعدة لنشوء هذا المرض فيه وقد ورث هذه التربة المساعدة من أمه. ومع هذا فإن إصابته بالسل ليست قضاءً حتمياً وقدرًا جبرياً. فإن العوامل الصحية الظروف الحياتية الصالحة يمكن أن تضمن له سلامته من المرض. فإذا انفصل عن أمه بعد الولادة مباشرة وخضع لمراقبة دقيقة في بيئة صحية فيمكنه أن يعيش سالماً مدى العمر. أما إذا تربى في حجر أمه المصابة بالسل وارتضع من لبنها الملوث ، فبالا مكان أن يصاب بالسل بسهولة.

ص: 111

1- المصدر السابق ص 196.

2- المصدر السابق ص 197.

3- غرر الحكم ودرر الكلم ص 72 ط إيران.

وكما سبق فإن الحالات النفسية والملكات الصالحة والطالحة للآباء والأمهات تؤثر في الأطفال. وهكذا فالطهارة والرزالة ، والشجاعة والجبين والكرم والبخل ، وغيرها من الصفات المختلفة تكون تربة مساعدة للصالح أو الفساد في سلوك الطفل ... ولكن هذه الصفات ليست قدراً حتمياً بل يمكن إصلاح الفاسد بالطرق التربوية الصالحة ... وعلى العكس تبديل التربة المساعدة للصالح إلى الفساد بالطرق التربوية الفاسدة.

التربية والبيئة :

إن الطفل المتولد من أبوين صالحين يملك تربة مساعدة لنشوء الصفات الخيرة في نفسه ولكن إذا ترك في بيئة فاسدة منذ الصغر ، أو سلم إلى أفراد خبياء بذيئي الأخلاق فإن النتيجة ستكشف عن فرد فاسد شرير ، لأن الصفات الموروثة والفضائل العائلية لا تستطيع المقاومة أمام قوة التربية (1).

وعلى العكس من ذلك فإن الاطفال الذين يتولدون من أبوين فاسدين ويملكون التربة المساعدة لنشوء الآثار السيئة في سلوكهم ، لو تركوا في محيط مليء بالصالح والخير وسلموا إلى مربين صالحين فمن الممكن أن تختفي تلك الآثار السيئة عنهم وينشأوا أفراداً يتسمون بالفضيلة والايمان.

« وتؤثر العوامل السيكولوجية تأثيراً أكبر على الفرد ، فهي التي تكسب حياتنا شكلها العقلي والأدبي. إذ أنها تولد النظام أو التفرق. وهي التي تدفعنا إلى إهمال أنفسنا أو السيطرة عليها ، كما أنها تغير شكل تكوين الجسم ووجوه نشاطه بوساطة الدورة الدموية والتغيرات الغددية ، فإن لنظام العقل والاستعداد الفسيولوجي تأثيراً

ص: 112

1- وأصدق شاهد على ذلك قصة (ابن نوح) حيث جالس الملحدون وخالط الفساد ، فاختلفت معالم الفضائل التي ورثها عن أبيه في سلوكه وهكذا اتصف بصفات قرئانه ، وصار ملحداً مثلهم ، وحينما دعاه أبوه إلى أن يركب السفينة لينجو من السيل ولا يصيبه عذاب الله ، أجابه بما يحكي القرآن عنه « سأوي إلى جبل يعصمني من الماء » وبالرغم من أن نوحاً قال له : « إنه لا عاصم اليوم من أمر الله » لم يلتفت إلى كلامه ، وكانت نتيجة الغرق.

قاطعاً ليس على حالة الفرد السيكلوجية فقط بل أيضاً على تكوينه العضوي والاخلاطي ومع أننا لا نعلم إلى أي مدى تستطيع التأثيرات العقلية التي تنشأ من البيئة أن تحسن أو تقضي على الميول المستمدة من الأسلاف ، فإنه لا شك في أنها تلعب دوراً رئيسياً في مصير الفرد ، فهي أحياناً تبدد أسمى الصفات العقلية ، وتجعل أفراداً معينين ينمون بدرجة لم تكن متوقعة على الإطلاق ... وهي تساعد الضعيف وتجعل القوي أكثر قوة».

« إنه مهما يكن من أمر ميول الأسلاف ، فإن كل فرد يدفع بتأثير أحوال النمو في طريق يقوده إما إلى العزلة في الجبال أو إلى جمال التلال أو إلى أحوال المستنقعات حيث يطيب للسواد الأعظم من الرجال المتحضرين أن يعيشوا » (1)

الصفات القابلة للتغيير :

إن الامام محمد بن علي الباقر (عليه السلام) يعبر عن قابلية تغيير بعض الصفات الوراثية للطفل في رحم الأم بكلمة (البداء) ، في ضمن حديث طويل بهذا الصدد فيقول :

« ثم يوحى الله تعالى إلى الملكين : إكتبا عليه قضائي وقدري ، ونافذ أمري واشترط لي البداء فيما تكتبان ... » فهذا يدل على أن القضاء والقدر في حق الطفل ليس أمراً قطعياً ، بل قابل للتغيير والتبديل حسب بداء الله تعالى ...

« ... فيقولان : يا رب ، ما نكتب؟ فيوحى الله عز وجل إليهما أن إرفعا رؤوسكما إلى رأس أمه ، فيرفعان ... فإذا اللوح يقرع جبهة أمه. فينظران فيجدان في اللوح : صورته ، ورؤيته ، وأجله وميثاقه ، شقياً أو سعيداً ، وجميع شأنه. فيكتبان جميع ما في اللوح ويشترطان البداء فيما يكتبان » (2).

ص: 113

1- الانسان ذلك المجهول ص 198.

2- الكافي ج 6 ص 14. وللتحقيق في معنى البداء وكيفية نسبته إلى الله تعالى نقول : « البداء من الأوصاف التي ربما تتصف بها أفعالنا الاختيارية من حيث صدورها عنا بالعلم والاختيار ، فإننا لا نريد شيئاً من أفعالنا الاختيارية إلا بمصلحة داعية إلى ذلك ، تعلق بها علمنا ، وربما تعلق العلم بمصلحة فقصدنا الفعل ثم تعلق العلم بمصلحة أخرى توجب خلاف المصلحة الأولى ، فحينئذ نريد خلاف ما كنا نريده قبلاً ، وهو الذي نقول : بدا لنا أن نفعل كذا (أي ظهر لنا بعدما كان خفياً عنا كذا) والبداء : الظهور ، فالبداء ظهور ما كان خفياً من الفعل (بظهور ما كان خفياً من العلم بالمصلحة) ثم توسع في الاستعمال فأطلقنا البداء على ظهور كل فعل كان الظاهر خلافه. فقال : بدا له أن يفعل كذا (أي ظهر من فعله ما كان الظاهر منه خلافه). ثم إن وجود كل موجود من الموجودات الخارجية له نسبة إلى مجموع (علته التامة) التي يستحيل معها عدم الشيء وعند ذلك يجب وجوده بالضرورة وله نسبة إلى (مقتضيه) الذي يحتاج الشيء في صدره منه إلى شرط وعدم مانع) ، فإذا وجدت الشرائط وعدمت الموانع تمت (العلة التامة) ووجب وجود الشيء وإذا لم يوجد الشرط أو وجد مانع لم يؤثر (المقتضي) أثره ، وكان التأثير للماز. .. وحينئذ يصدق البداء فإن هذا الحادث إذ نسب وجوده إلى مقتضيه الذي كان يظهر بوجوده خلاف هذا الحادث كان موجوداً ظهر من علته خلاف ما كان يظهر منها. ومن المعلوم أن علم الله تعالى بالموجودات والحوادث مطابق لما هو في الواقع من وجودها ، فله تعالى علم بالأشياء من جهة مقتضياتها وهذه خاضعة لوجود الشرائط وفقد الموانس. وفي هذا النوع يمكن أن يفقد شرط أو يوجد مانع في الأثناء فيظهر خلاف ما كان ظاهراً منه. ويحصل فيه (البداء). فلا يكون حينئذ قضاءً حتمياً لا يتبدل ، بل هو قابل للتغيير ، ولهذا قال الله تعالى في القرآن الكريم : « يمحو الله ما يشاء ويثبت ... الآية ». راجع تعليقة العلامة الفيلسوف البار

نجد في هذا الحديث نكتتين لطيفتين : الأولى : أن اللوح ليس في ساعد الأم ولا في صدرها بل في جبينها. إن الجبهة بالرغم من أنها من الناحية الجسمية لا تزيد على أنها أحد أعضاء البدن ، إلا أن بالامكان أن تكون كناية عن الجهاز المعنوي وعن أفكار الدماغ عند الأم ، وعلى هذا فإن مجموعة المقررات التكوينية لجسم الأم وفكرها تكون ممهدة لبناء الطفل.

والنكتة الثانية : ورود كلمة (البداء) بالنسبة إلى الأمر الالهي ، والملائكة أيضاً يشبتون اللوح بشرط البداء ، وفي هذا دلالة صريحة على أن جميع الصفات الوراثية في رحم الأم ليست مصيراً حتمياً ، فان هناك عوامل (قد تكون البيئة والتربية منها) تغير تلك الصفات.

إذا كانت جميع الصفات الوراثية حتمية غير قابلة للتغيير ، وإذا كانت جميع الصفات الرذيلة في الأبوين تنتقل إلى الأولاد تماماً شأنها شأن لون العيون أو

الجنون والحماقة ... لم يكن معنى لارسال الأنبياء من قبل الله تعالى ، وكانت الشرايع والتعاليم السماوية لغواً لا فائدة فيها ، كما أنه من العبث قيام المحاولات الاصلاحية والمذاهب التربوية في المجتمعات البشرية ، لأنها لا تستطيع أن تؤثر في السلوك الموروث.

« ويميل نمو الجسم في اتجاهات مختلفة استجابة للوسط فتصبح صفاته الفطرية حقيقية أو تظل خاملة. فمن المحقق أن ميولاً وراثية معينة تتعدل تعديلاً كبيراً بطروف تكويننا » (1).

تغلب التربية على الوراثة :

تبلغ العادات التربوية والتمارين الاصلاحية المتواصلة درجة من القوة في التأثير بحيث تتغلب على الصفات الوراثة وتحدث وضعاً جديداً في الأفراد ، يقول الامام علي (عليه السلام) بهذا الصدد : « العادة طبع ثانٍ » (2).

إن الرئتين في الانسان خلقتا لاستنشاق الهواء ، والذي يدخل السيجارة لأول مرة ، ويرسل دخانها إلى أعماق رئتيه يحس باضطراب عجيب ، إذ يحس بدوار في رأسه ، يبدأ بالسعال ، تنتابه حالة التقيؤ تملأ الدموع عينيه وهكذا ينقلب حاله أثر الدخان. وهذا بديهي لأن الرئة لم تصنع للدخان بل للهواء النقي.

ولكن بتكرار التدخين تعتاد الرئة على الدخان وتتخلى عن طبعها الأولي الذي كان ينفر من الدخان. وهكذا ينقلب ما كان يبعث على النفور والاضطراب إلى أداة للتسلية والترويح عن النفس وهنا نقول بأن الرئة قد تربت على استنشاق الدخان ، وعلى أثر التكرار حصلت على طبع ثانوي وتركت طبعها الاول. ولهذا السبب فانها ترتاح لعملها غير الطبيعي وتستمر عليه.

إن الأنبياء لم يأتوا لأن يحولوا المجانين الوراثيين إلى عقلاء ، أو يجعلوا من البلداء الفطريين نوابغ ، لأن هذا ما لا يمكن أن يحدث ... لأن الأنبياء يريدون أن

ص: 115

1- الانسان ذلك المجهول ص 197.

2- غرر الحكم ودرر الكلم ص 19. طبعة دار الثقافة - النجف الأشرف -

يخضعوا البشر إلى مراقبة إيمانية وعملية في خصوص الصفات القابلة للتغير على ضوء التربية الصحيحة ، لا يصلهم إلى السعادة والكمال الانساني.

أما بالنسبة إلى الذين ينتمون إلى أصول عائلية فينمون فيهم قابلياتهم ومواهبهم ويخرجون الفضائل الكامنة من مرحلة الاستعداد إلى مرحلة الفعلية لكيلا ينحرفوا عن الصراط المستقيم مسير حياتهم. ويحفظوا ثروتهم الوراثية العظيمة من الملكات والفضائل ، لكيلا يقعوا في هوة الفساد والجهل الطيش على أثر مصاحبة الفساد والجهل والطائنين.

وأما بالنسبة إلى الذين ورثوا الصفات البذيئة من أبويهم فيعمل الأنبياء على إطفاء الاستعدادات الكامنة نحو الفساد فيهم بالتربية الصحيحة التدريجية واتخاذ الأساليب الأخلاقية الدقيقة. وبذلك يخرجونهم من طبائعهم الأولى إلى طبائع جديدة حاصلة من إحياء قوى الخير والصالح في نفوسهم وتكون النتيجة أن يحوز هؤلاء على درجة لا بأس بها من الكمال ... هذا العمل أمر ممكن في نظر العلم والدين. فما أكثر أولئك الذين كانوا متصفين بصفات رذيلة ثم زرع الاسلام في نفوسهم بذور الخير والصالح واقتلع جذور الشر والفساد ، فوصوا بفضل التربية الاسلامية الرصينة إلى أوج السعادة.

« لوحداية الانسان أصل مزدوج. فهي تأتي في وقت واحد من تركيب البويضة التي ينشأ منها وكذلك من تطوره ونموه ومن تاريخه ... إن الخصائص الوراثية في البويضة ليست إلا ميول أو إمكانيات وهذه الميول تصبح حقيقة أو تظل تقديرية تبعاً للظروف التي تواجهها النطفة ، فالطفل ، ثم المراهق ، إبان نموهم ... وهكذا يتوقف أصل الانسان على الوراثة أكثر أهمية من النمو ، أو العكس بالعكس؟ ... إن الملاحظات والتجارب تعلمنا أن الدور الذي تلعبه الوراثة والنمو يختلف في كل فرد ، وإن قيمتها النسبية لا يمكن تحديدها عادة » (1).

ص: 116

يرى العلماء أن التربية عامل قوي جداً حيث تقدر أحياناً على أن توقف عمل الخواص الوراثية السيئة وتعود بالأفراد إلى طريق السعادة والكمال وقد لاتعطي التربية نتيجة حتمية كاملة ... وهذا يتبع الخصوصيات الفطرية للأفراد حيث أنها متفاوتة.

ولكن الثابت أننا يجب أن ننظر إلى جميع الأفراد بعين القبلية ونحتمل أن تؤثر فيهم الأساليب التربوية الصالحة ، فإن كانت هناك استعدادات كامنة للخير والكمال فانها تظهر بفضل التربية الصالحة وتخرج من مرحلة القوة إلى مرحلة الفعل [كما يقول المنطقيون].

« ولما كنا لا نعلم طبيعة هذا الاستعداد بالدقة ، فيجب علينا أن نفترض أنه مناسب وأن نتصرف تبعاً لذلك. فمن المحتم أن يتلقى كل فرد تعليماً يؤدي إلى نمو صفاته المحتملة إلى أن يتبين بصفة قاطعة أن هذه الصفات غير موجودة » (1).

التربية للجميع :

إن الاسلام الذي لم تفته صغيرة ولا كبيرة من الوسائل المؤدية بالبشر إلى السعادة والكمال ، لم تفته هذه الناحية فركز تعاليمه الرصينة على أسس التربية الصالحة. إن الاسلام يدعو جميع الناس من أي طبقة كانوا إلى الإيمان والطهارة ، ولذلك فهو يرى كل فرد - مهما كانت خصائصه العائلية الوراثية واستعداداته الفطرية - قابلاً لتلقي الإيمان والخلق والفاضل ... وهو لا يخيب أمل أي فرد ، بل يحاول البحث في أعماق فطرته للوصول إلى القيم الحية التي يمكن أن تنمي وتستخرج من بين زوايا النفس وتجلى فتبعث على الحياة من جديد.

ومن النماذج الحية لاعتناء الاسلام بتربية الأفراد الذين يرثون الصفات الرذيلة عن أبويهم سلوكه المفضل مع الأطفال اللاشرعيين. إن مما لا شك فيه أن ولد الزنا

ص: 117

يحمل في فطرته صفات شريرة - كما سنثبت ذلك إن شاء الله - ولكن الاسلام يعتبره قابلاً للتربية بدليل أنه يدعو لتلقي التعاليم اليمانية والخلقية والسلوك الخير المؤدي إلى السعادة.

ومن الواضح أنه لو كان منقذ البشرية ورسول الاسلام العظيم يرى في الانحراف والشقاء مصيراً حتمياً لأولاد الزنا ويعاملهم معاملة المجانين الفطريين الذين لا يقبلون العلاج ... لما كان يدعوهم إلى دين الله (1).

لقد وضع الاسلام وجميع الأديان السماوية قواعد وقوانين خاصة للزواج. ولذلك فقد اعتبرت الشرايع السماوية الخروج عن تلك القوانين أمراً غير مشروع، فالزنا يعتبر جريمة شنيعة. وكثير من الملل التي لا تملك شريعة سماوية قد وضعت قوانين خاصة لمنع الاختلاط غير المشروع، وبصورة موجزة فإن العلاقة الزوجية الصحيحة في نظر العالم مقيدة بشروط وحدود خاصة.

والطفل الذي يولد ن طريق مشروع يكون ولدًا قانونياً أما أولاد الزنا فهم يعرفون بالأطفال اللاشرعيين. وفي الاحصاءات الدولية للسكان يصرح بعدد الأطفال اللاشرعيين بعد انتهاء تعداد السكان، وفي هذا دلالة على اختلاف أولاد الزنا والأولاد القانونيين في نظر العالم.

« في قرار صدر أخيراً عن دائرة التحقيقات الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية يحكي أن عدد الأطفال اللاشرعيين في العالم الماضي كان 208700 شخصاً. وهذا الرقم يرينا نسبة عالية في الارتفاع عن السنوات العشر الماضية إذ يبلغ 47% من الزيادة. إن القرار الآنف الذكر يضيف بأن قسماً كبيراً من هؤلاء الأطفال اللاشرعيين نشأوا من الشبان الذين لم يتقدموا في السن كما أن 40%

ص: 118

1- لقد رفع الإسلام التكليف عن قسم من الناس. منهم المجانين. وهذا دليل على أنه لا يراهم قابلين لتقبل الدعوة إلى الله حال كونهم مجانين. ولكنه لم يرفع التكليف عن ولد الزنا حين يبلغ. ولو كان الشقاء الحاصل في نفوس أولاد الزنا متأصلاً كالجنون لم يكن معنى لتكليفهم بالتكاليف الشرعية، فتكلفتهم يدل على إمكان اصلاحهم وتغيير سلوكهم.

من هؤلاء قد أولدتهم فتيات لا تزيد أعمارهن على العشرين سنة» (1). «لندن - رويتر - وكالة الأنباء الفرنسية ... ذكر الدكتور : ج. أ. أسكوت مدير صحة لندن في تقرير رفعه أنه كان من بين كل عشرة أطفال طفل واحد ناشئ من العلاقات اللامشروعة في لندن في العام الماضي».

«لقد أكد الدكتور أسكوت أن نسبة الأطفال اللامشرعيين آخذة في الازدياد. حيث كان عددهم في عام 1957 لا يتجاوز 33838 بينما ارتفع إلى 53433 في السنة التالية» (2).

الأطفال المنحرفون :

يرى أئمة الاسلام أن أولاد الزنا مصابون بالانحراف الروحي ، الأمر الذي يؤدي بهم إلى سوء الأخلاق ومخالفة القوانين والاستهانة بها. يقول الامام الصادق (عليه السلام) :

«إنه يحن إلى الحرام ، والاستخفاف بالدين ، وسوء المحضر» (3).

وهنا يمكن أن يخطر السؤال الآتي على أذهان البعض فيقولون : إن الأطفال يوجدون من نطفة الأبوين ، وإن الجهاز التناسلي في الرجل والمرأة يعمل عمله حسب نظام دقيق. وهذا العمل الطبيعي لا يختلف في العلاقة القانونية وغير القانونية. فأي أثر لإجراء صيغة الزواج أو صدور ورقة العقد في واقعية النطفة؟ ولماذا يجب أن يكون ولد الزنا مصاباً بالانحراف؟.

وبالرغم من أن الجواب على هذا السؤال قد اتضح من البحوث السابقة حيث ذكرنا فيها تأثير الحالات النفسية على البدن ، وتأثر الروح بالأعمال الجسمانية ... بالرغم من ذلك كله فإننا سنفصل القول في خصوص الاختلاط اللامشروع ذاكرين أسباب الانحراف في سلوك أولاد الزنا ...

ص: 119

1- يونائتدبرس جريدة إطلاعات الإيرانية العدد 10523.

2- جريدة إطلاعات الإيرانية العدد 10523.

3- سفينة البحار مادة (زنى) ص 560.

سئل الامام الصادق عليه السلام : « لم حرم الله الزنا؟!

قال : - لما فيه من الفساد ، وذهاب الموارث ، وانقطاع الأنساب ... لا تعلم المرأة في الزنا : من أحبلها؟ ولا المولود يعلم : من أبوه؟. ولا أرحام موصولة ، ولا قرابة معروفة ... » (1)

هناك عشرات المسائل الأخلاقية والنفسية والاجتماعية والتربوية والعائلية والاقتصادية والعاطفية سببت تحريم المشرعين الالهيين (أي الأنبياء) للزنا واعتباره أمراً مخالفاً للقانون.

الأطفال اللامشروع :

وهناك نقطة لطيفة هي أن العالم المتمدن يعتبر الزنا مشكلة وظهور الأطفال اللامشرعيين مشكلة أخرى ، كما أن الاسلام يعتبر الاختلاط اللامشروع بين الرجل والمرأة معصية ، وحمل المرأة عن طريق الزنا معصية أخرى أفظع من الأولى. وإليك النصوص الآتية التي تثبت ذلك :

1 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما من ذنب أعظم عند الله تبارك وتعالى بعد الشرك من نطفة حرام وضعها امرء في رحم لا تحل له » (2).

2 - فقال الرضا (عليه السلام) : « إن الدفق في الرحم إثم والعزل أهون له » (3).

3 - عن الامام الصادق (عليه السلام) : « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أقر نطفته في رحم يحرم عليه » (4).

إن الزاني والزانية إذا لم يولد منهما طفل ، فإن جريمتهم أنها تجاوزا حريم

ص: 120

1- سفينة البحار للشيخ عباس القمي. مادة (زنى) ص 560.

2- مستدرک الوسائل للنوري ج 2 567.

3- المصدر السابق 567 2 ويظهر من الحديث أن الزنا مع العزل (قذف النطفة خارج الرحم) أهون للزاني من الزنا مع قذف النطفة داخل الرحم لأنه يمنع اختلاط الأنساب على الأقل.

4- وسائل الشيعة للحر العاملي ج 5 375.

القانون الجنسي، أما إذا حملت المرأة من الزنا، فإن الجريمة تتضاعف لأنه سيظهر في المجتمع ولد جبل على مخالفة القانون وارتكاب الجرائم. ومن الواضح أن خطر هذا أشد من الجريمة الأولى.

ولتوضيح وضع الأطفال اللاشرعيين، وبيان الفرق بينهم وبين الأطفال القانونيين علينا أن نبحث عن الحالات النفسية للمرأة التي حملت بصورة غير مشروعة لنقيسها بالحالات النفسية للنساء الشرعيات، ونحلل الفروق بينهما تماماً... ولأجل أن يلتفت المستمع الكريم إلى الموضوع بجد نقصر بحثنا على الحالات النفسية للنساء المسلمات فقط.

هناك ملايين النساء والفتيات المسلمات يعشن في الدول الإسلامية، وهن يختلفن بحسب درجات إيمانهن... فالبعض منهم معتقدات بالاسلام حقيقة ويعتبرن مخالفة التعاليم الاسلامية ذنباً يستحق العقاب عليه... فإذا صادف وإن زلت امرأة من هذا النوع في سلوكها وارتكبت الزنا فهي تواجه حالتين من الاضطراب النفسي والضغط الروحي :-

إحدهما : الاحساس بالخوف الشديد من الله لارتكابها ذنباً.

والثانية : الاضطراب والخوف من انفضاح أمرها أمام أهلها، والناس بصورة عامة...

أما النساء اللاتي لا يملكن من الايمان والتدين ما كانت تملكه الطائفة الأولى، فهؤلاء يمكن أن يرتكبن الزنا ويحسنن لذلك بخوف تجاه الله تعالى ولكنه ضعيف. ولكن إهتمامهن إلى الرأي العام أكبر. فهن يخشين تمام الخشية من نبذ الرأي العام ونفوره تجاههن ولا يرضين أبداً بأن يسميهن المجتمع (زانيات) أو (فاحشات). وحتى الرجال الذين لا يتورعون من الزنا لا يرضون بالاختلاط مع النساء المعروفات بالزنا، والمشهورات بهذا العمل الشنيع.

وهناك طائفة ثالثة من النساء ابتليت بترك العفة وارتكاب الزنا، إما إتباعاً للهوى أو للفقر والبؤس. هؤلاء النساء وإن كن يبدن الرضا بهذا العمل، ولكن في ضمائرهن عقدة لا تقبل الإنكار. ومتى ما وجدن من يحفظ سرهن إنطلق لسان

الضمير فيهن يتحدث له عن الشقاء والبؤس الذي يلاقينه ، وأظهران عدم رضاهن بهذا العمل الشنيع . ولهذا فإذا صادفن من لا يعرف عنهن الفحشاء والفساد ، ظهرن بمظهر العفيفة الطاهرة.

والخلاصة : إن التعاليم الدينية ، والعادات الاجتماعية ، والتقاليد العائلية قد أوجدت في نفوس جميع النساء والرجال المسلمين ، سواء كانوا عدولاً أو فساقاً ، متقين أو فاقدين للتقوى ... أوجدت في ضمائرهم وجداناً لا يقبل الإنكار من أن الزنا عمل قبيح ، وأن الفاحشة تكون منفورة دائمة بين الناس .

الزواج القانوني :

بعد أن تحدثنا عن بعض الحالات النفسية للمرأة التي تقوم باتصال غير مشروع نتحدث عن العلاقات المشروعة التي تقوم على أساس إطاعة القانون.

فعندما يقيم الشاب والشابة زواجاً قانونياً ، يراعيان فيه جميع القوانين والمقررات ، لا نجد اضطراباً بسيطاً في ضمير الرجل والمرأة ولا يشعران في باطنهما بوحشة أو خوف من الله أو الناس . يمارسان إتصالهما بفكر هادئ وروح مطمئنة . وفي مثل هذه الظروف تنعقد النطفة بصورة طبيعية مائة في المائة . هذا مضافاً إلى أن المرأة في أيام الحمل ليست غير مضطربة فحسب ، بل إنها فرحة في ضميرها ومستبشرة بالحمل . لأنها تعلم أن ذلك القران الخير قد أنتج ثماره ، وما هي إلا أيام قلائل حتى يزين حجرها مولود سعيد ، وعشرات أو مئات النساء والرجال سيأتون للتهنئة بولادته مستصحبين معهم باقات الزهور والهدايا الكثيرة!!

إرتياح البال :

لقد جلب ارتياح بال الأبوين وحالتهم الطبيعية من جهة التأثير في البناء البدني والروحي للطفل إنتباه العلماء في العصر الحديث . ولم يفت الأئمة عليهم السلام هذا الأمر . بل أكدوا على أثر الأطمينان النفسي وارتياح الضمير عند الأبوين في إيجاد الطفل . يقول الامام الحسن العسكري (عليه السلام) في موضوع الشبه بين الطفل وأبويه أو عدمه : « فإن الرجل إذا أتى أهله بقلب ساكن وعروق هادئة ، وبدن غير مضطرب ، استكنت

النطفة الطبيعية :

إذا كان قلب الأبوين حين انعقاد النطفة منتظماً ، وجريان الدم طبيعياً ، والبدن خالياً من الاضطراب ، فالطفل يكون شبيهاً لأبويه حسب القاعدة. إن أصح الحالات الطبيعية للطفل هو أن يشبه أبويه. وأصح الحالات الطبيعية للأبوين هو الكفيل بظهور ذلك الشبه الطبيعي.

والنتيجة التي نستنتجها من هذا البحث ، هي : أن الرجل والمرأة اللذين يقيمان علاقة زوجية طاهرة مع مراعاة القوانين الدينية لا يحسان باضطراب وهلع حين الاتصال الجنسي ، فالنطفة التي توجد منهما في تلك الحالة ، وفقدان الاضطراب إلى حين الولادة يضمن نشوء إنسان طبيعي خال من الانحراف الفطري والخلقي.

أما الشاب والشابة اللذان يتصلان بغير زواج قانوني ، فمهما لا شك فيه أن حالتهما ليست هادئة وطبيعية مائة في المائة ، وإذا كانا يهتمان بالتعاليم الدينية ويخافان من إنفضاح الأمر أمام أبويهما فإن الاضطراب سيتضاعف أما إذا لم يكونا مرتبطين بالتعاليم الدينية فإن الخوف من الفضيحة أمام المجتمع كاف في إيجاد حالة من الهلع والاضطراب في الطرفين.

وإذا لم تنعقد نطفة من هذا الاتصال اللامشروع ، ولم يستقر جنين في رحم المرأة ، فإن الطرفين قد ارتكبا بذلك ذنباً في السر. أما إذا حملت المرأة من ذلك الاتصال فإن إفشاء السر بين الناس وانفضاح أمرهما سيعمل على ازدياد اضطرابها.

الاضطراب أيام الحمل :

إن الفتاة التي تقدم على الزنا خفية عن أبويها ، بمجرد شعورها بالحمل تضطرب أشد الاضطراب ، وتنتابها رعشة تسري إلى فرائصها. ذلك لأن انتفاخ بطنها في أقرب وقت سيفضح سرها ، ولذلك فإنها تقضي لياليها بالأرق وتعيش أيامها غارقة في التفكير ، والدموع السائلة والندم المتواصل ... وما أكثر أولئك اللاتي أدى بهن

ص: 123

الأمر إلى الانتحار والتخلص من هذه الحياة أو تحمل المشاق العظيمة في سبيل إجهاض الجنين الالقانوني ... الأمر الذي يجر معه الأمراض والآلام الشديدة.

أما إذا لم تقدم هذه المرأة على الانتحار ، ولم تقم بإجهاض الجنين ، وبعد نقضاء أيام الحمل تولد الطفل ، هل تتصورون بأن هذا الطفل يمكن أن يكون سالماً وطبيعياً؟ فمضافاً إلى أن الاضطراب كان مستولياً على الأبوين حين انعقاد النطفة ، ولم تنشأ النطفة الأولى لهذا الطفل بصورة طبيعية ، فإن كابوس الاضطراب والقلق كان مسيطراً على المرأة طيلة تسعة أشهر (أيام الحمل) فهناك الغصص والآلام والهموم التي حولت تلك المرأة إلى مخلوقة ضعيفة عليلة ... ولا يخفى أن الطفل كان شريكاً مع أمه في تلك الآلام والمحن.

لقد ذكرنا في المحاضرة السابقة أن التجارب العلمية الدقيقة أثبتت نقطتين مهمتين : -

الأولى : أن المرأة إذا أصيبت في أيام الحمل بخوف شديد وانتابتها رعدة من جراء خوفها تظهر بقع على جسم الطفل.

والثانية : أن الاضطرابات العصبية للأم في أيام الحمل تؤدي إلى تولد الطفل عصبياً ... فإذا كانت حادثة مخيفة بسيطة أو حالة عصبية في وقت قصير تخلف أثراً سيئاً في الطفل ، فالقلق الذي يستمر تسعة أشهر لا بد وأن يكون أثره أعظم!!.

النقل القانوني والتهريب :

إن الفرق بين الاتصال المشروع واللامشروع بين الرجل والمرأة مثل الفرق بين النقل القانوني والتهريب ، وبين السفر إلى الخارج مع الجواز وبدونه ... فالمسافر عن كل من الطريقتين يحتمل أن يعبر الحدود ويدخل الدولة الأخرى ، ولكن مع فارق مهم هو أن حامل الجواز الذي يدخل الدولة الأجنبية بواسطة سمة الدخول يمتاز باطمئنان وارتياح بال ، يتنقل كيف يشاء ويتصل بمن يشاء ، من دون أن يحس في باطنه قلقاً أو اضطراباً. ولكن المسافر الذي لا يحمل جوازاً يرى نفسه معرضاً للخطر في كل لحظة ، فهو قلق مضطرب ، حركاته غير متزنة يصحبها إرتباك وتلفت إلى اليمين والشمال ، وحذر من مراقبة الأفراد له. إذا قابل فرداً ظن أنه يراقبه

وسيرفع تقريراً عنه إلى الحكومة وما أسرع أن يلقي القبض عليه ... وهكذا فهو يتمتع لونه مقابل سؤال بسيط ، وترتعد فرائضه ويفقد توازنه. كل هذه الاضطرابات والحالات غير الاعتيادية التي تنتابه ، لأجل أن هذا المسافر قد دخل دولة أجنبية بدون جواز أو سمة دخول. إن العقد وإجراء الصيغة في الزواج بمثابة الجواز والسمة للسفر إلى الخارج.

الخروج على القانون :

وتوجد بين النساء الملوّثات بالانحرافات الجنسية ، طائفة لا تملك الايمان كي يراقبن الخوف من الله ولا تملك مسعة حسنة في المجتمع كي يخفن من انفضاح الأمر ، ولذلك فيرتكبن الزنا من دون اكتراث ولا- يرين فرقاً بين الاتصال القانوني وغير القانوني. فإذا حملت هذه المرأة من الزنا ، فبالرغم من أنها لم تصب بالاضطراب والقلق طلية أيام الحمل ، ولكن في ضميرها نقص مهم ، وفي فكرها انحراف أهم ، وهو الخروج على القانون ... وهذه الصفة نفسها كسائر الصفات الرذيلة تخلق تربة مساعدة في الطفل للخروج على القانون. وفي كل مرة تحمل هذه المرأة من الزنا تؤثر حالتها النفسية في نفسية الطفل وتجرح على المجتمع آثاراً سيئة.

يقول الامام الصادق (عليه السلام) : « لا تزوجوا المرأة المستعلنة بالزنا ، ولا تزوجوا الرجل المستعلن بالزنا ، إلا أن تعرفوا منهما التوبة »
(1).

إن بعض النساء يتزوجن ولكن نفوسهن القذرة الدنيئة تميل إلى الرجال الأجانب ، ومن الممكن أن ترتكب الزنا بالرغم من أنها ذات زوج وتستفيد من ذلك لأنها يجعل الزوج حصناً منيعاً أمام التهم الاجتماعية. إن ما لا شك فيه أن هذه المرأة مصابة بالانحراف النفسي. وحتى إذا حملت من زوجها القانوني ، فإن الطفل بالرغم من كونه قانونياً حسب المقررات الشرعية ولكنه من جهة الانحراف الروحي والفساد النفسي لا- يقل عن ولد الزنا ، إذ أن الطفل يرث الصفات الرذيلة من أمه فهو ينزع إلى الإجرام والخروج على القانون دائماً ، يقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

ص: 125

« واشتد غضب الله على امرأة ذات بعل ملأت عينها من غير زوجها ، أو ذى محرم منها. وأنها إن فعلت ذلك أحبط الله كل عمل لها فإن أوطأت فراشها غيره ، كان حقاً على الله أن يحرقها بالنار بعد أن يعذبها في قبرها » (1).

كان الحجاج بن يوسف الثقفي فرداً غير طبيعي ، وخطراً في نفس الوقت ، والتاريخ أحصى له جرائم وجنايات عظيمة سودت وجه البشرية. إن مما لا شك فيه أن عوامل عديدة تدخلت في إنحراف سلوك هذا الانسان مما جعلته خطراً وشريراً إلى هذه الدرجة ، ومن الممكن أن قسماً وافراً من ذلك يرجع إلى روح أمه المنحرفة.

إن أم الحجاج (فارغة) كانت زوجة (المغيرة بن شعبة) قبل أن تتزوج يوسف الثقفي وكان عمر بن الخطاب يسير في أزقة المدينة في بعض الليالي ... فسمع امرأة تغني في أحد البيوت وتنشد البيت الآتي : -

هل من سبيل إلى خمر فاشربها *** أم من سبيل إلى نصر بن حجاج؟

فتأثر عمر من هذا البيت ، وساءه أن تكون في عاصمة حكومته امرأة تترنم بغرام شاب أجنبي بالرغم من أنها متزوجة ، فأحضر النصر بن الحجاج - وكان شاباً جميلاً - فحلق رأسه وسفره إلى البصرة » (2).

إن المرأة المحصنة التي تفكر في رجل أجنبي وتتمنى معاورة الخمر والوصول بالنصر بن حجاج إذا حملت من زوجها القانوني نطفة ، فإن انحرافها سيؤثر في نفس طفلها. إن المرأة التي لا تفهم لاحترام القوانين الالهية التعاليم الدينية معنى ، لا يستغرب منها أن تلد طفلاً مثل الحجاج في فساده وانتهاكه حريم الناس وأرواحهم وأموالهم.

ص: 126

1- لنالي الأخبار ص 496.

2- يراجع عن تفاصيل القصة : الكامل لابن الأثير 1 344 ، وشرح ابن أبي الحديد ج 2 100 ط دار الكتب ، وعيون الأخبار ج 4 24.

إن من سعادة الرجل وحسن حظه أن تكون أمه عفيفة ، متصفة بالأخلاق الفاضلة. يقول الامام الصادق عليه السلام : « طوبى لمن كانت أمه عفيفة » (1)

نستنتج من البحوث السابقة : أن أولاد الزنا ليسوا طبيعيين مائة في المائة. ومما لا شك فيه أن الأشخاص المجرمين قد ورثوا العوامل المساعدة على الانحراف من آبائهم. ولكن من الجهة العلمية ليست تلك الانحرافات حتمية في نفوسهم ، ولم تسلبهم الارادة والاختيار ، وبعبارة أخرى فإن كون الطفل ابن زنا ليس علة تامة لشقائه وانحرافه ، فإن ظروف المحيط والعوامل التربوية يمكن أن تعطل العوامل الوراثية وتبدلها بالصفات الحسنة وتهدي صاحبها إلى طريق الخير والصالح.

المراقبة التربوية :

والإسلام ينظر إلى أولاد الزنا من جهة القابلية التربوية بنفس هذه النظرة ويخضعهم للمراقبة التربوية والإيمانية شأنهم في ذلك شأن الأولاد القانونيين ولذلك فهو يدعوهم كغيرهم إلى التعاليم الخلقية والملكات الطاهرة والإيمان وعبادة الله ، ويقيدهم بالتكاليف الشرعية فيجازي ولد الزنا على أعماله كما يجازي غيره ويعاقب كما يعاقب ، سواء بسواء. يقول الامام الصادق عليه السلام : « إن ولد الزنا يستعمل ، إن عمل خيراً جزى به وإن عمل شراً جزى به » (2).

يرى البعض أن أولاد الزنا الزنا محرومون عن الفيض الالهي والرحمة الربانية بسبب كونهم ناشئين من زنا ، وأن عليهم أن يحيوا بشقاء ومصيرهم إلى جهنم بلا ريب ... لكن هذا ينافي العدل الالهي ، فالله تعالى لا يعذب شخصاً بما هو خارج عن اختياره. فإذا أسلم من ولد من الزنا بإخلاص وعمل بوظائفه الشرعية فانه يمارس الحقوق التي يحق لكل مسلم أن يتمتع بها في الدنيا ، ويشمله الفيض الالهي العظيم في الآخرة.

ص: 127

1- بحار الانوار ج 23 79.

2- سفينة البحار مادة (زنى) ص 560.

إن ولد الزنا يمكن أن يصل إلى درجات الكمال كغيره من أفراد المسلمين مع فارق واحد : هو أنه عليه أن يخضع لمراقبة أشد ، كي يتمكن بذلك من مواجهة آثار الانحراف الوراثي ويؤمن نفسه من أخطاره الجسيمة.

ونظراً لأن الأساليب التربوية والظروف البيئية تختلف ، وأن القوى الوراثية متفاوتة في الأفراد كما يقول الدكتور الكسيس في النص الذي نقلناه أنه يعامله معاملة غيره مع إضافة تشديد المراقبة عليه في تلقيه الدروس الإيمانية والأخلاقية ... فانه يبقى في حيلة من أمره ومن مزاجه القائم على الانحراف. ولذلك فلا يرضى بأن يسلم زمام الحكم ومقدرات الأمة بيده.

إن ولد الزنا لو كان أعلم علماء عصره فانه لا يحق له أن يتقلد منصب مرجعية التقليد العام للمسلمين ، وقيادة الأمة الإسلامية ، ومهما كان صاحب ذوق رفيع ونبوغ كامل في العلم ، فالاسلام لا يرضى له أن يتقلد منصب القضاء بين المسلمين ، لأن من الممكن أن تظهر صفته الوراثية الرذيلة فجأة ، وتلتهم نار الفساد الكامنة تحت الرماد ، وتقطع بذلك القيود الدينية والتربوية ، وتجرب بذلك الويل والشبور للذين يتقلد زمامهم.

وملخص ما مر أن بعض الصفات الوراثية تتصف بصفة الحتمية وهي من مصاديق القضاء والقدر الذي لا يقبل التغيير. والبعض منها يسلك كعامل مساعد فقط في سلوك الطفل فهو ليس قضاء حتمياً وقدرًا لازماً ...

وإن الأساليب التربوية وعوامل المحيط إن اتفقت مع تلك الصفات الوراثية ظهرت بسرعة. وإن خالفها فإن التربية تتغلب على الوراثة ، والمحيط يكون أقوى من الصفات الموروثة.

ولهذا فإن الاسلام يهتم بتربية الأفراد الذين يملكون تربة مساعدة للفساد والانحراف ويأمل وطيداً باحتمال إصلاحهم وسلوكهم سبل السعادة.

وحجر الأم هو المحيط الأول لتربية الطفل. فطوبى للأطفال الذين يولدون من

آباء وأمهات طاهرين إهتموا بتربيتهم وتنشئتهم نشأة دينية صالحة ...

والاسلام يحترم هذا النوع من الآباء والأمهات ... ويوصي الأطفال بأن يخضعوا لهم يقوموا بواجب الاطاعة والاحترام تجاههم ، جزاء على جهودهم ، ويأمرهم بن يدعو لهم بدعاء الخير.

«وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ...».

ص: 129

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5)، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» (1)

للوصول إلى السعادة، وتحقيق الكمال اللائق بالإنسان من الناحية التربوية، يجب الالتفات إلى أصليين مهمين :

(الأول) : إحياء الاستعدادات الفطرية المفيدة.

و(الثاني) : إماتة الميول المنحرفة والاتجاهات الشريرة. ونعبارة أوضح فإن المربي الممتاز هو الذي يستطيع من أن ينمي القابليات والموهب الفطرية التي يملكها الطفل بالأساليب التربوية الصالحة من جانب. ومن جانب آخر يعمل على دحر الصفات الوراثية الشريرة والاتجاهات التي لا تلائم السلوك الصحيح. ولأجل أن يتضح مدى أثر التربية وأهميتها بالنسبة إلى الوصول إلى الكمال الانساني اللائق به نرى لزماً أن نبحث في هذه الجهات بحثاً مفصلاً. والظاهر أن هذا البحث مضافاً لما سيوضحه من ضرورة التربية بالنسبة للإنسان سير شدنا إلى إحدى آيات الله الدقيقة في هذا الكون ويدلنا على إرادته الحكيمة في تسييره.

إمّياز الانسان عن سائر الأحياء :

بالرغم من أن الانسان يعد أحد الموجودات الحية في العالم، ويتركب وجوده من سائر العناصر المكونة للموجودات الأخرى ... لكنه يمتاز عنها بخصائص

ص: 130

ومميزات تفصله عن سائر الأحياء. إن الانسان يختلف عن الأشجار والأزهار ، وعن الحشرات والحيوانات في جهات متعددة ، ومن جملة هذه الفروق : أن الحيوانات لا تحتاج في بلوغها الكمال المحدد لها إلى تعليم وتربية. إن الغرائز الفطرية التي أودعها الله تعالى فيها هي التي ترشدها بانتظام وفي جميع مراحل حياتها إلى مطالبيها ، وهي تسلك طريق تكاملها بصورة صحيحة ... لكن الانسان يحتاج إلى التعليم والتربية ، فإنه إن لم تكن تربيته مطابقة لأساليب علمية وعملية لا يصل إلى الكمال اللائق به ، ويستحيل أن تظهر استعداداته الفطرية ومواهبه إلى حيز الخارج.

إن القرآن يحكي لنا قصة موسى وهارون حين توجهوا بأمر من الله إلى فرعون وقومه ليدعواهم إلى توحيد الله وعبادته ، ومن خلال تلك القصة يسأل فرعون عن الخالق الذي يدعوان إليه قائلاً : « فمن ربكما يا موسى؟! » فيجيبه موسى (عليه السلام) : « ربنا الذي : أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!!! »

الأعضاء اللازمة للحياة :

يتبين لنا من الآية السابقة أن الله تبارك وتعالى قد وهب لكل موجود ما يحتاجه ، وقرر له ما ينبغي له. ومن الواضح أن درجة احتياج كل موجود إلى شيء ما تختلف ... فالحيوانات مثلاً يختلف بناؤها الطبيعي ونوع الغذاء ، الذي تحتاجه ، وقد طورها الله على الشكل الملائم لها ، فأعطاهم الأعضاء اللازمة لحياتها ، أعطى الأسد مخالب قوية لتمزيق اللحوم ، ومنح الشاة أسناناً حادة لقضم الأعشاب ... وهب البعوض قوة الركض والجري السريع ، وأعطى للبعوض الآخر القدرة على الطيران ، خلق في البعوضة الضعيفة خرطوماً للمص ، وجهاز الطيور الداجنة بمنقار يختلف تماماً عن منقار الطيور القانصة.

إن أول دليل يقدمه موسى لفرعون على وجود الله تعالى هو أن : ربي هو الذي نظم بناء الخلق العظيم بعلم وحكمة ، وأعطى لكل موجود ما يستحقه ويحتاجه في بلوغ مقاصده ، ولذلك فإن آثار قدرته تعالى ظاهرة في كل موجود. يقول الشاعر :

فانظره في حجر وانظره في شجر *** وانظره في كل شيء ... إنه الله

ويقول الآخر :

وفي كل شيء له آية *** تدل على أن--ه واحد

استخدام العضو :

إن الحصول على الأدوات والآلات أمر ... وكيفية استخدام تلك الآلات أمر آخر ، فمكبرة الصوت عبارة عن جهاز لتوزيع الصوت وإيصاله إلى ابعد ما يمكن ، ولكن استخدام هذا الجهاز والاستفادة منه يحتاج إلى علم وإطلاع بشؤونه ، فمن الممكن أن توجد قاعة ما أجهزة فخمة لتكبير الصوت ولكن لا يوجد عامل فني واحد يعرف كيفية استعمالها. وهكذا ، فوجود وسائل الفحص بالأشعة السينية وأدوات الجراحة في المستشفى يختلف عن كيفية استخدامها. فانه لا بد من طبيب ممارس كي يعرف كيفية التصوير بدقة ، وتشخيص حصى الكلية مثلاً ، ثم كيفية شق بطن المريض بالمباضع والسكاكين واستخراج الحصى ، وإعادة خياطة موضع الجرح بدقة ... وفي النهاية برء المريض وخلاصه من الآلام.

ولهذا نجد أن الدليل الثاني الذي يقدمه موسى لفرعون على وجود الله تعالى هو : أنه بعد الفراغ من تزويد الله تلك الموجودات بالوسائل والأدوات اللازمة ، علمها كيفية استخدام تلك الأعضاء وطريقة الاستفادة من تلك الآلات والأجهزة كلاً على حدة. إن بعوضة ضعيفة تعرف كيف وأين تدخل مضخة الدم أي خرطومها الذي هو بمثابة المحقنة الطبية لتمص الدم بذلك ، وتحفظ حياتها بالتغذي عليه.

هذا النظام الدقيق ، وهذه الأساليب المتقنة لا يمكن أن تصدر من ناحية الطبيعة العمياء ، وعلى نحو الصدفة التي لا تعي ولا تشعر. إن الذات التي تتمثل فيها القدرة الكاملة والعلم المحيط والارادة التامة التي أوجدت هذا الكون بحسب نظام دقيق منحصرة في الله تعالى.

التكامل البشري :

يتقدم الانسان دوماً نحو الرقي والتكامل ... كثير من الحقائق كان يجهلها الناس أمس الأول وكشف الحجاب عنها أمس ، وقسم من الحقائق كانت مجهولة أمس ، وإذا بالعلم يكشف عن أسرارها اليوم ... وهكذا فإن هناك كثيراً من الحقائق

يجهلها العالم اليوم ، ولكنها ستتكشف لعالم الغد. وعلى مر الأيام كلما انكشفت زاوية مجهولة في هذا الكون الفسيح ورفع النقاب عن سر مكنون ... إطلع العالم على النظام الحكيم الذي أودعه الله ، فيقف إجلالاً ويركع خضوعاً وخشوعاً حيال عظمته وحكمته.

وحين كان موسى يتكلم مع فرعون حول توحيد الله ... وحين نزل حديث موسى بن عمران بصورة آية من القرآن على نبينا العظيم ، كانت معلومات البشر عن نظام الخلقة ، وأسرارها العجيبة محدودة وضئيلة جداً ولم معلومات البشر عن نظام الخلقة ، وأسرارها العجيبة محدودة وضئيلة جداً ولم يكن الناس ليتوصلوا إلا- إلى ما تراه عيونهم المجردة القاصرة غافلين كل الغفلة عن أن الحقائق التي لا تدرك بالعين المجردة ، والأمواج التي لا تسمع بالأذن العادية أكثر بكثير من المبصرات والمسموعات العادية للبشر. لكن أئمة الاسلام الهداة ، والقادة المعصومين الذين كانوا ينظرون بنور الوحي والإلهام وبعين الحقيقة والواقع التي لا تحجبها الأستار المادية ، كانوا على علم بجميع تلك الحقائق.

يذكر الامام علي (عليه السلام) هذه الحقيقة في خطبة من خطبه ، ضمن حمد الله والثناء عليه قائلاً : « وما الذي نرى من خلقتك ، ونعجب له من قدرتك ، ونصفه من عظيم سلطاناتك؟ وما يغيب عنا منه وقصرت أبصارنا عنه ، وانتهت عقولنا دونه ، وحالت سواثر الغيوب بيننا وبينه ... أعظم » (1).

الموجودات المجهرية :

لم يكن ليعرف الانسان قبل أربعة عشر قرناً شيئاً عن العالم المثير والعجيب للموجودات المجهرية ، ولم يكن بالامكان للعلماء في عصر نزول القرآن أن يؤمنوا أن في القطرة الواحدة من نقطة الرجل تسبح ملايين الموجودات الحية ... ولكننا نجد في ذلك العصر حينما يسأل (الفتح بن يزيد الجرجاني) من الامام الرضا (عليه السلام) عن سبب تسمية الله باللطيف يقول الامام في جوابه : « للخلق اللطيف ، ولعلمه

ص: 133

بالشيء اللطيف ... ومن الخلق اللطيف ، ومن الحيوان الصغار ومن البعوض والجرجس وما هو أصغر منها ، ما لا يكاد تستبينه العيون بل لا يكاد يستبان - لصغره - الذكر من الأنثى ، والحدث المولود من القديم « (1)

هذا الحديث يرينا أن الامام الرضا عليه السلام كان مطلعاً في ذلك الزمان على وجود الحيوانات المجهرية ، ولذلك فهو يذكر السبب في تسمية الله باللطيف ، خلقه تعالى للأشياء الدقيقة الصغيرة بنظم متقن وإبداع عجيب ، حيث أنها لصغرها لا يمكن أن ترى بالعين المجردة.

المستقبل الوضاء :

وفي تلك الأيام التي كانت معلومات علماء البشر محدودة وكانوا لا يعرفون الكثير من الحقائق المكتشفة اليوم لعدم حصولهم على الوسائل والآلات العلمية ... وفي تلك الأيام بالذات ظهر القرآن الكريم ببشارة سعيدة للبشرية ، وبعث في نفوس البشر الأمل الوطيد في وصولهم إلى حقائق خفية وأسرار مكنونة فقال : «سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» (2).

فتنطلق هذه البشارة باعثة الأمل في نفوس الباحثين ليعلموا أن المستقبل سيظهر لهم الكثير من آيات الله في الآفاق الكونية ، وفي بناء البشر أنفسهم ... ليصوا إلى النتيجة المطلوبة وهي أن الله هو الحق والموجود.... وكأن الله تعالى يقول للبشر في عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : - بالرغم من أنني أظهرت كثيراً من الآيات والحقائق للبشر ، ولكن الحقائق التي يمكن اكتشافها لهم هي أكثر بكثير من الحقائق المكتشفة لحد الآن. وفي المستقبل القريب ، سأظهر لهم من الآيات الجديدة والحقائق الكثيرة ما يكفل لهم إتصاح الحق والقدرة الالهية أكثر.

وكان الأئمة عليهم السلام كانوا يتنبأون بالتقدم العلمي للبشر ، والتعمق الذي سيبدلونه

ص: 134

1- الكافي للكليني ج 1 119.

2- سورة السجدة 53.

في بحوثهم في العصور التالية ، ولذلك فكانوا يذكرون ذلك في الأوقات المناسبة ...

« سئل علي بن الحسين (عليه السلام) عن التوحيد ، فقال : الله عز وجل علم أنه يكون في آخر الزمان أقوام متعمقون ، فأنزل الله : «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)» والآيات من « سورة الحديد » ... » (1).

إن مما لا شك فيه هو أن البشر اليوم قد اكتشفوا - بفضل التقدم العلمي - كثيراً من الحقائق والأسرار في الآفاق الكونية والنفس الانسانية مما لم يكن يحسد به أصحاب القرون السابقة ، فمثلاً كان السابقون يستفيدون من قوله تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » بمقدار ما كان يعرف البشر من أسرار العالم حينذاك ، فكانوا يعرفون مثلاً أن النحلة تملك الأدوات اللازمة لها في صنع غذائها وكذلك تعرف بفضل الهداية الفطرية كيفية استخدامها. أو أن الحمامة تعرف - بالهداية الفطرية - كيف وأن تضع عشها ، وكيف تحافظ على فروخها.

أما العلماء اليوم فإنهم عبروا المراحل التي تدرك بالعين المجردة. وشاهدوا الموجودات الحية التي ليست قابلة للرؤية ، بواسطة العين المسلحة (بسلاح المجهر) ، وتمكنوا أن يراقبوا نشاط الخلية التي تعتبر الوحدة الأولى لجميع الأحياء في العالم. إن ما لا شك فيه هو أن هذه الاكتشافات العلمية قد كشفت الستار عن كثير من آيات الله الخفية وأرتنا قدرة الله العظيم في الهداية الفطرية التي أودعها في هذه الموجودات لمزاولة نشاطها بصورة أوسع مما مضى.

عالم الخلية :

لقد قام الدكتور (الكسيس كارل) (2) بتجارب دقيقة حول حياة الخلايا خارج

ص: 135

1- تفسير البرهان ص 1228.

2- من العلماء المعروفين في علم الأجنة ، ومعرفة الأنسجة في العالم ، لقد كتب أحدهم عن شخصيته : « وأعظم هذه الاكتشافات هو معرفة الأجنة (جمع جنين) التي توصل إليها الكسيس كارل. لقد تمكن من أن يعتني بتربية الأنسجة بصورة دقيقة ، حتى توصل إلى الاحتفاظ بقطعة من قلب دجاجة لمدة ثلاثين سنة في معهد (روكفلر) بنيويورك »!!.

محيط البدن وتوصل إلى كشف رموز دقيقة في اختبارات العلميه ، ومن خلال قراءة بعض الفقرات من عباراته يتضح لنا أن الخلية الصغيرة الدقيقة لم تحرم أيضاً من فيض الهداية الفطرية التي أودعها الله تعالى في هذا الكون ، إنه يقول :

« ولقد عرف علماء التشريح والفسولوجيا الصفات المميزة للأنسجة والأعضاء أي جمعيات الخلايا ، منذ أمد بعيد ولكنهم نجحوا حديثاً فقط في تحليل صفات الخلايا نفسها ولقد أمكن دراسة الخلايا الحية في قنينة بسهولة كما يمكن دراسة النمل في الخلية. وذلك بسبب الطرق الحديثة المستخدمة في توزيع الأنسجة. ولقد كشفت هذه الخلايا عن نفسها وعمما وهبته من قوى لا يرقى إليها الشك ذات صفات مذهلة ... ومع أن هذه الصفات تقديرية في أحوال الحياة الطبيعية ، فإنها تصبح حقيقة تحت تأثير المرض حينما يتعرض الوسط العضوي إلى تغييرات (طبيعية - كيميائية) معينة » (1).

« والخلايا ، كالحوانات ، تنتمي إلى أجناس مختلفة ، وهذه الأجناس أو الأنواع تعين بصفات تكوينها ووظائفها المميزة لها » (2).

« وحينما تربى مختلف هذه الأنواع من الخلايا في قنينة فإن صفاتها المميزة تصبح من الواضح مثل الصفات المميزة لمختلف الجراثيم. فلكل نوع صفاته الفطرية الملازمة له والتي تظل محدودة حتى بعد أن تنقضي بضعة أعوام على انفصاله من الجسم ... » (3)

« ويبدو أن الخلايا تتذكر وحدتها الأصلية حتى حينما تصبح عناصر مجهرة لا عدد لها .. أنها تعرف ، من تلقاء ذاتها ، الوظائف المطلوب منها تأديتها في الجسم كوحدة. فلو أننا زرعنا خلايا أبشلية عدة أشهر ، وهي بعيدة عن الحيوان الذي تنتسب إليه ، فإنها

ص: 136

1- الانسان ذلك المجهول ص 65.

2- المصدر نفسه ص 67.

3- الإنسان ذلك المجهول ص 68.

تنظم نفسها تنظيمًا يشبه الفسيفساء كما لو كانت ستحمي سطحاً تاماً ومع ذلك فإن هذا السطح يكون غير موجود ، كذلك فإن كرات الدم البيضاء التي تعيش في قنينة تبدل قصارى جهدها للفتك بالجراثيم والكرات الحمراء على الرغم من عدم وجود جسم تتولى حمايته من غزو هذه الأعداء. وذلك لأن إمامها الفطري بالدور الذي يجب عليها أن تلعبه في الجسم إن هو إلا وسيلة للبقاء تلتزمها جميع عناصر الجسم .«

« وتختص الخلايا المعزولة بقوة إعادة إنشاء التكوين الذي يتميز به كل عضو من غير إرشاد أو من غير غرض معين ، فلو أن عدة كرات حمراء انسالت بفعل الجاذبية ، من قطرة من الدم وضعت في وسائل البلازما وكونت مجرى دقيقاً ، فإنها سرعان ما تنشئ له شاطئين ولن يلبث هذان الشاطئان أن يغطيا نفسيهما بخويطات من الليفين ويصبح المجرى أنبوية تنسال فيها الكرات الحمراء مثلما تنسال في وعاء دموي ، وتحيط نفسها بغشائها المتموج. وفي هذه الأثناء يتخذ مجرى الدم مظهر وعاء شعري مغلف بطبقة من الخلايا القابضة وهكذا فإن كرات الدم الحمراء والبيضاء المعزولة تستطيع أن تنشئ قطاعاً صغيراً من جهاز الدورة الدموية على الرغم من عدم وجود قلب أو دورة دموية أو أنسجة لترويتها » (1).

القيام بالواجب في الخلية :

إن ما كان يعرفه علماء البشر بالأمس عن الهداية الفطرية للموجودات الحية كان مقتصرًا مثلاً على أن القطة التي هي من الأحياء قد جهزت بالوسائل والأدوات اللازمة لإدامة الحياة ، و جهزت بجهاز خاص لتربية صغارها لغرض بقاء النسل ... أولاً ، وأنها تعرف كيف تستعمل تلك الأدوات والوسائل في حياتها والاستفادة منها ، وكيف تحمل وتضع وبأي صورة تربي صغارها ... ثانياً.

ص: 137

أما علماء اليوم فقد توصلوا إلى أن القطة تعني آلاف الملايين من الخلايا الحية التي تمتاز بخصائص معينة ، اجتمعت كل مجموعة منها لصنع عضو خاص والمهم أن كل واحدة من هذه الخلايا الحية التي لا ترى بالعين المجردة قد جهزت بلوازم إدامة الحياة وكل منها تعرف - بفضل الهداية الفطرية - الطريق إلى تكاملها والوصول إلى غايتها ، وكما شرح لنا العالم الاختصاصي بمعرفة الخلايا ، فإن هذه الخلايا لا تنسى واجبها حتى في خارج بدن الموجود الحي (أي في المختبرات العلمية) بل تستمر في أداء وظيفتها بأحسن وجه قرره لها الله تعالى بقلم قضائه.

الجنين المختبري :

قبل سنتين نشرت الجرائد والصحف المحلية خبراً حول توصل البروفسور الايطالي (دانييل بتروجي) إلى إيجاد طفل في المختبر من نطفة الرجل والمرأة...

« باريس 14 كانون الثاني وكالة الأنباء الفرنسية ، لقد أعلن اليوم أن البروفسور دانييل أحد علماء - الأحياء - الايطاليين استطاع أن يلحق نطفة الرجل والمرأة في خارج رحم الأم وأن يوجد جنيناً يقوم بتربيته بصورة صناعية » (1).

« لقد أكد العالم الايطالي أن الفلم الذي صورته يوضح كيفية دخول (الحيمن المنوي) في (البويضة) داخل أنبوبة الاختبار. والنطفة التي انعقدت بهذه الصورة استمرت في النمو لمدة 29 يوماً » (2).

« إن المحافل الكاثوليكية ومجلس الفاتيكان يرون أن هذه الاختبارات تفسد روح البشرية وأخلاقها ويعتقدون بأن علماء العالم يجب أن يجتنبوا عن مثل هذه التجارب التي تؤدي إلى وجود موجود حي ثم قتله » (3).

ص: 138

1- جريدة (إطلاعات) الايرانية - العدد 10410.

2- جريدة (إطلاعات) الايرانية - العدد 10429.

3- المصدر نفسه - العدد 10411.

إننا لا نريد أن نبحث عن أساس هذا العمل وحكم قتل هكذا طفل من الوجهة الشرعية ، ولكننا نقول : إنه من الجانب العلمي نجد أن هذا العمل مقتبس من أحد القوانين الكونية ، وهذا هو دليل الهداية الفطرية الالهية في عالم الخلية. إن (الحيمن المنوي) هو أحد مصاديق (كل شيء) الذي تحدث عنه موسى بن عمران بقوله « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ».

هذا الموجود المجهرى مجهز بلوازم الحياة ، ومضافاً إلى ذلك فإن الله قد منحه جميع الهدايات اللازمة له ، والتي منها : العشق إلى بويضة المرأة. إن الوضع الاعتيادي للبويضة هو في عنق الرحم ، والحيامن مأمورة - بحكم الهداية الالهية الفطرية - أن توصل أنفسها إلى البويضة ، وتظهر جميع النشاطات في سبيل الوصول إليها ... وتكون النتيجة أن أحد تلك الحيامن يلحق البويضة ويصير سبباً لظهور الانسان.

وكما أشرنا سابقاً فإن تجارب العلماء قد أثبتت أن الخلايا تستمر في عملها حتى خارج البدن ، ولا تنسى واجبها ، ولهذا فإذا استطاع البروفسور الايطالي من أن يضع بويضة المرأة في أنبوبة الاختبار بدلاً من عنق الرحم وهياً الظروف اللازمة لذلك ، فإن الحيامن لا تقف عن أداء وظيفتها التي خلقت لأجلها ، بل نلقح البويضة هناك وتوجد طفلاً.

وهكذا فإن لكل مجموعة من الخلايا وظيفة معينة ، تؤديها في محيطها الاعتيادي ، ولا تكف عن إتيانها في الظروف غير الاعتيادية أيضاً ، وهذا السر العظيم للخلقة دقيق إلى درجة أن العلماء لم يتوصلوا بعد إلى كثير من رموزه.

« تتميز أنواع الخلايا بطريقتها في الحركة ، وفي اتحاد إحداها مع الأخرى وشكل مجموعاتها ، ودرجة نموها واستجابتها لمختلف الكيمائيات ، والمواد التي تفرزها والطعام الذي تحتاجه ، كما تتميز بشكلها وبنائها ... إن قوانين تنظيم كل مجموعة خلايا - أي كل عضو - مستمدة من هذه الخصائص العنصرية. وإذا كانت خلايا النسيج تملك فقط الصفات التي ينسبها علم التشريح لها ، لما كان في استطاعتها أن تنشئ جسماً حياً ... انها تملك قوى أخرى ،

تكون مخبأة عادة ولكنها تصبح فعالة حينما تستجيب لتغيرات معينة في الوسيط ، وهكذا تتاح لها فرصة علاج الحوادث غير المتوقعة إبان الحياة العادية أو في أثناء المرض ... وتتحد الخلايا في جماهير كثيفة هي الأنسجة والأعضاء التي يتوقفها تنظيمها الهندسي على الاحتياجات التكوينية والوظيفية للجسم في مجموعة « (1).

« وجميع الخلايا الحية تعتمد كل الاعتماد وبصفة خاصة على الوسيط الذي غاصت فيه وهي تعدل هذا الوسيط من غير توقف ، وتعدل هي به من غير توقف أيضاً. بل الحقيقة أنها غير قابلة للانفصال عنه مثلما لا ينفصل جسمها عن نواته. وبنائها يتبعان الأحوال المادية (الطبيعية - الكيميائية) والكيميائية للسائل المحيط بها ... » (2).

وتملك الخلايا نشاطات مختلفة في الحالات الاعتيادية وغير الاعتيادية وغير الاعتيادية وإن الظروف البيئية تؤثر فيها. وفي حالة المرض حيث يكون وضع البدن غير اعتيادي تقوم الخلايا بنشاطات خاصة دقيقة وغير واضحة تماماً لصالح البدن ولدفع المرض. وكذلك أيام الحمل تكون وضعاً لا اعتيادياً بالنسبة إلى المرأة. وبالرغم من أن الخلية التناسلية الأولى تنتج من تلقيح البويضة بالحمين ، - ولا يختلف محيط الرحم مع محيط المختبر من هذه الجهة - لكن ما لا شك فيه هو أن خلايا بدن الأم تقع تحت تأثير العوامل البيئية للحمل طيلة التسعة أشهر حيث يتم خلالها نمو الطفل في الرحم وتؤثر تلك التأثيرات في البناء الطبيعي للطفل بلا ريب ، ولهذا السبب فإن البروفسور الايطالي قد قطع التجربة في اليوم التاسع والعشرين بالنسبة إلى أيجاد الطفل في المختبر.

« إن الجنين أخذ شكله اللازم له طيلة (25 يوماً) ، وتوقفت التجربة في اليوم (29) عمداً. لقد أعلن العالم لايطالي أنه أوقف التجربة عمداً ، لأنه كان من

ص: 140

1- (1) الانسان ذلك المجهول ص68

2- المصدر نفسه ص 65.

المحتمل أن ينشأ من نمو هذا الجنين عملاق ضخم ، ويكون النمو التالي للجنين غير طبيعي».

« هذا الأمر يدلنا على أن العلماء لم يستطيعوا بعد ، من إيجاد الظروف اللازمة لتربية النطفة وتحويلها إلى طفل جديد خارج بدن الانسان. ويبدو أن هناك أسراراً دقيقة حول تغيير أشكال الأنسجة ، ونفوذ الهورمونات بين نطفتين إنسانيتين لم تكشف لحد الآن » (1)

إن بعض الجهال والمنحرفين الذين يستغلون الفرص المناسبة لاسداء الضربة القاضية إلى التعاليم الدينية. قد استغلوا هذه المناسبة فراحوا يقولون إن البشر استطاع أن يخلق بشراً مثله ، وبهذا لا داعي لموافقة المتألهين حول حصر نسبة الخالقية إلى الله. ولتوضيح الموضوع والرد على هذه الشبهة لا بد من تمهيد بعض المقدمات.

جهاز التفقيس :

إن الطريقة الطبيعية في تربية فروخ الدجاج هي أن يستقر البيض تحت جناحي الدجاجة وريشها ، ويفقس البيض بعد ثلاثة أسابيع ... ولقد فكر البعض فيما مضى في إيجاد حرارة مشابهة لحرارة جسد الدجاجة في الدرجة في جهاز خاص وذلك لغرض التفقيس بلا دجاجة. ولقد تم هذا العمل فعلاً ، واليوم يفقس عدد كثير من البيض عن كتاكيت بواسطة الحاضنات الاوتوماتيكية ... ولكن لم يظهر لحد الآن من يتمكن من صنع البيضة - التي هي بمنزلة خلية كبيرة لنطفة الكتكوت - وسوف لن يستطع من ذلك في المستقبل ، بل يجب عليه أن يحصل على البيض من نفس الطريق الذي قرره خالق الكون ، أي عن طريق الدجاجة. (2)

ص: 141

1- جردية إطلاعات الايرانية - العدد 10411 ، تاريخ 26 10 1339 هجرية شمسية.

2- وهنا نضيف إلى عبارة الاستاذ الفلسفي نكتة مهمة. وهي أنهم على فرض صنعهم للبيضة أيضاً بطريقة ميكانيكية ، فلا يسمى عملهم ذلك خلقاً ، بل هو اقتباس لخلق الله ... إذ لا يتم ذلك على فرض الامكان إلا بعد فحصهم لمكونات البيضة وعناصرها وتحليلها ومعرفة ظروف تركيبها من حرارة وضوء ورطوبة ... الخ ، كي يتمكنوا من صنع بيضة مثلها ، حينذاك لا يسمى عملهم هذا خلقاً بل هو تقليد لخلق الله.

واليوم نجد أن البروفسور الايطالي قد أخذ نطفة الرجل والمرأة - التي هي بمنزلة البيضة - من مجراها الطبيعي ، ولقحها في المختبر - الذي هو بمنزلة مكان التلقيح - مع فارق واحد هو أن جهاز التلقيح يؤدي عملاً واحداً هو تنظيم درجة الحرارة وتقليب البيضات ظهراً لبطن يومياً لمنع الترسب ... بينما يجب على البروفسور الايطالي أن يقوم بمائة عمل أو مئات الأفعال لتهيئة الظروف المتنوعة من الحرارة والرطوبة والمحيط المساعد ، والمواد الغذائية الصالحة ، وتغذية الجنين ... وغيرها من العوامل. نعم! لا شك في أنه قام بعمل مهم من الناحية العلمية ، ولكنه لم يصنع الحيمن والبويضة ، بل إنه حصل على أساس الخلقة البشرية وخليته الأولى بواسطة الرجل والمرأة ، ومن بين أحضان الطبيعة والمجرى الطبيعي للقضاء والقدر الآلهيين ، ولكنه قام بتلقيحهما وتربيتهما وتغذيتهما في داخل المختبر. وإذا أمكن القول بأن جهاز التلقيح أو المتصدي لتنظيم درجة حرارة الجهاز أو واضع الزيت فيه هو خالق الكتكوت (الفرخ) الذي يخرج منه ، أمكن القول هنا أيضاً بأن البروفسور والمختبر قد خلقا الجنين!!!

سر الحياة المجهول :

إن العالم لم يتوصل بعد إلى كشف رمز الحياة ، وحل سر الوجود على وجه الكرة الأرضية. فكيف بقدرته على صنع خلية حية تكون منشأ ظهور البشر أو الحيوان. إن علماء الحياة بعد القايم بجهود عظيمة في هذا الميدان يبعثون الأمل في نفوس الناس بإمكان معرفة كيفية ظهور الموجود الحي بعد ألف سنة ...

« وبعد ألف سنة ، يتوصل الانسان إلى كشف سر الحياة ولكن لا يدل هذا على أن باستطاعة البشر أن يوجد ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية. لقد أعلن هذا الموضوع في مؤتمر انعقد باسم (داروين). وقد أعلن (البروفسور هانز) العالم الأمريكي أن العلماء سيبحثون عن سر الحياة خلال الألف سنة القادمة » (1)

أما بالنسبة إلى تلقيح البيضة بالحيمن في المختبر ، والتجربة الناقصة التي قام

ص: 142

بها البروفسور الايطالي ، فلو فرض أن العلماء توصلوا إلى جميع الخصائص الخلوية المجهولة في بدن الأم ، وتفاعلاتها الكيميائية في أيام الحمل ، واستطاعوا من إيجادها في محيط المختبر ، وأوجدوا طفلاً كاملاً وسالماً ... فليس هذا العمل غير مناف لأساس التوحيد فحسب ، بل يبقى سنداً قوياً على النظام الدقيق الذي يسود الكون ، ودليلاً بارزاً على وجود الخالق الحكيم العالم الذي أوجد حتى الذرات غير المرئية في هذا العالم حسب نظام دقيق وتقدير مطابق. وهنا يتبين قوله تعالى : « إنا كل شيء خلقناه بقدر » . إذ أنه لا شك في أن الطبيعة الجاهلة والصدفة العمياء لا يمكن أن يصدر منها هذا النظام العجيب.

نستنتج مما سبق أن الحيوانات والحشرات وحى الخلايا تملك قسطاً وافراً من الهداية الفطرية الالهية ، ولا تحتاج في الوصول إلى كمالها اللاتق بها إلى التعليم والتربية. إن النحل والعناكب تعرف منهجها التكاملي على نحو الغريزة الفطرية ، وكذلك الحيامن والكريات البيض تعرف وظائفها عن طريق الهداية الالهية.

إن بعض النشاطات التي تظهر من الحيوانات والحشرات بإرشاد من هدايتها الغريزية دقيقة ومهمة إلى درجة أنها تبعث الانسان على التعجب والحيرة!

حشرة الأموفيل :

« إن حشرة الأموفيل لا تأكل الديدان ، بل هي تتغذى على الأعشاب ، لكن صغارها تحتاج إلى الديدان في تغذيتها في أولى أدوار حياتها ، ولهذا فإن هذه الحشرة تلسع الديدان وتخدرها بالسم المخصوص الذي تفرزه ولكن لا تقتلها ... وذلك لكي تولد صغارها فتستطيع التغذي على هذه الديدان. إن حشرة الأموفيل تعلم أن الديدان لو قتلت قبل ولادة صغارها فانها تتعفن ولا تصلح غذاء لها. إن هذه الحشرة قد اكتشفت أنه لو لم تخدر الديدان بالدرجة الكافية فانها تستعيد نشاطها وتأخذ بالفرار ... فتموت صغارها جوعاً ، لذلك فانها تلسع الدودة بصورة غير قاتلة بل مخدرة فقط » (1).

ص: 143

إن الحيوانات والحشرات تسير بأحسن ما يكون من الانتظام في طريق حياتهما وتكاملها - في كنف الهداية الفطرية - ولا تحتاج في ذلك إلى التربية والتعليم.

الخصائص المشتركة بين الانسان والحيوان :

أما البشر فإن جانباً من مناهجه الحياتية وقوانينه التكاملية تدار بواسطة لهداية الفطرية من قبل الله تعالى ، وفي ذلك يشبه الحيوانات والحشرات في أنه لا يحتاج إلى مرشد ومعلم. فالمعدة في هضمها للطعام ، والكبد في تصفية الغذاء وتحويله إلى دم ، يعرفان واجباتهما على أكمل وجه ولا يحتاجان في ذلك إلى من يرشدهما ويهديهما. وكذا مبيض المرأة فانه يعمل بصورة تلقائية على صنع بيضة واحدة في كل شهر. وكذلك الرحم في صنع الجنين ، وغدد الثديين في صنع الحليب للطفل. فكل هذه الاعضاء قد تلقت دروسها في مدرسة الخلقة والابداع.

والانسان لا يحتاج في إحساسه بالجوع والعطش والتعب والرغبة في النوم وإدراك البلوغ والرغبة الجنسية إلى دراسة ومدرسة ، إذ أنه يدرك هذه الحقائق بصورة فطرية. لكن الأطفال يحتاجون إلى المربي والمعلم في موردين : الأول في صفات مشتركة بين الانسان والحيوان. والثاني من خواص الانسان. وسنضرب لكل منهما بعض الأمثلة الموجزة.

أما الموارد التي يتشارك فيها الانسان مع سائر الحيوانات ، فهي أن الحيوانات تعرف أعداءها وتهرب منها بلا حاجة إلى دراسة وتلقين ، ولكن الانسان يعرف أعداءه عن طريق التعلم والتجربة. الحيوانات تعرف مقدار حاجتها إلى الطعام من ناحية الكم والكيف ، وتعرف كيفية تربية أطفالها وتغذيتهم أيضاً بلا- حاجة إلى معلم ، ولكن الانسان عرف احتياجاته الغذائية ونسب المواد الغذائية التي يجب أن يتناولها بعد تجارب عديدة ومحاولات طويلة ، أما تغذية الأطفال بالصورة الصحيحة فيخضع لنظر الطبيب.

إن صغار القط تدرك الفواصل تماماً وتعرف مقدرتها أيضاً ، فلا تقفز إلى الأماكن التي تكون الفاصلة نحوها بعيدة ولا تستطيع القفز نحوها ولكن الأطفال لا يفهمون هذه الأمور فما أكثر ما رأيناهم يسقطون من السطوح العالية ويموتون.

وهكذا المهر فانه يفهم خطر الغرق في الماء ولا يرمي بنفسه في ولم يسمع لحد الآن أن مهرة قد اختنقت في نهر القرية أو بركتها جهلاً ، لكن أطفال البشر هم الذين يسقطون في أحواض البيوت والمساح فيغرقون!

والحيوانات لا تحتاج في الأمور الصحية وحفظ سلامتها وسلامة صغارها إلى التعليم والتربية ، ولكن البشر نراه ماداً يد الحاجة دائماً إلى العم والعالم لحفظ سلامته وسلامة أطفاله على ضوء ارشاداته. هذه هي بعض الأمثلة البسيطة على المقارنة بين الصفات المشتركة بين الانسان وسائر الحيوانات.

خواص الانسان :

أما فيما يتعلق بالجانب الثاني. فإن في باطن الانسان قابليات ومواهب خاصة لا توجد في الحيوانات أصلاً. هذه المواهب والقابليات هي التي تبلغ بالانسان إلى أعلى درجات الكمال الانساني في المداخل الايمانية والمراحل الأخلاقية ، وبذلك تحفظه عن كل المندسات والردائل ... وهي التي تجعله مسيطراً على علام طبيعة في المجال العلمي وإدراك نواحي الخلقة ، وبذلك تخضع له جميع القوى والطاقات الأرضية ، ثم تفسح له المجال للسيطرة على الأجرام السماوية وتسخيرها أيضاً. لكن هذه الثروة العظيمة التي ينحصر بها الانسان تكمن في الباطن بصورة استعدادات وقابليات ولا تظهر لوحدها أصلاً ، وفي ظل التربية والتعليم فقط يمكن إخراج تلك الذخائر العظيمة من القوة إلى الفعل ، ومن الاستعداد إلى حيز التنفيذ والاستغلال.

إن أصوات الحيوانات التي تكون كل منها بمنزلة علامة خاصة ، لا تحتاج إلى تمرين وتربية ، ولكن التكلم الذي لا يعدو كونه أبسط الظواهر الانسانية لا يتم من دون مرشد ومرب ، إذ لو ترك الطفل من أول يوم ولادته وحيداً لا يتكلم معه ، فلا شك في أن قابلية على التكلم تموت ولا تصل إلى عالم الفعلية ، وهكذا سائر الاستعدادات الفطرية في الانسان فانها تظهر عن طريق التربية والتعليم فقط.

قيمة التربية :

لقد تبين - بما ذكر - ضرورة التربية وأهميتها في إظهار الكمالات الباطنية للبشر ، وإخراج الاستعدادات الفطرية إلى حيز الفعلية ، إن الانسان لا يصل إلى

الكمال اللائق به بدون التعليم والتربية ، ولا يتمكن أن يسير بدونهما في الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه.

بعد أن اتضحت لدينا المقدمات السابقة ، لنرجع إلى بيان الأساسين اللذين ذكرناهما في مطلع الحديث ... لقد كان الأساس الأول هو أن يتنبه المربي القدير إلى جميع الاستعدادات الكامنة في الطفل ، ويعمل على تنميتها مع مراعاة الموازنة بين ميوله والتوفيق بينها ، وإخراجها إلى حيز الفعلية ... وهذا يتفرع على معرفة الانسان ومواهبه وملكاته الكامنة والبارزة. وبعبارة أوضح ، فإن التربية الصحيحة هي التي تكون مطابقة للفطرة الواقعية للانسان ، ولا يوفق المربي إلى ذلك إلا عندما يدرك جميع الميول والغرائز الطبيعية في الانسان أولاً والعمل على تنمية تلك الميول وإرضائها في مقام التربية ثانياً.

معرفة النفس :

إن الروايات الواردة عن أئمة الاسلام (عليه السلام) في لزوم معرفة النفس كثيرة ، وهي - وإن اختلفت في ألفاظها وأساليبها - ترمي إلى اعتبارها أساس السعادة الانسانية. وهنا لا بأس بسرد بعض تلك الروايات :

- 1 - يقول الامام علي (عليه السلام) : « أفضل المعرفة ، معرفة الانسان نفسه » (1).
- 2 - وكذلك يقول (عليه السلام) : « أعظم الجهل ، جهل الانسان أمر نفسه » (2).
- 3 - وقد ورد عنه (عليه السلام) : « أفضل العقل معرفة المرء نفسه. فمن عرف نفسه عقل. ومن جهلها ضل » (3).
- 4 - وكذلك يقول (عليه السلام) : « من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم (4) ».

ص: 146

1- غرر الحكم ودرر الكلم ص 87 طبعة دار الثقافة - النجف الأشرف.

2- المصدر نفسه ص 88.

3- المصدر نفسه ص 94.

4- المصدر نفسه ص 293.

5 - وقد ورد عنه : « من لم يعرف نفسه ، بعد عن سبيل النجاة وخبط في الضلال والجهاالات » (1).

وهكذا نرى في هذه الروايات أن أساس السعادة قائم على معرفة النفس. فمن لم يعرف نفسه ولم يدرك قيمتها الواقعية لا يصل إلى الكمال الانساني اللائق به ابداً ، والذين يجهلون كل شيء عن الثروات الفطرية المودعة في نفوسهم لا يتمكنون من العمل على إحيائها واستثمار المواهب الكامنة عندهم.

« روي عن كميل بن زياد ، قال : سألت مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قلت : يا أمير المؤمنين : أريد أن تعرفني نفسي ، فقال : يا كميل : أي النفس تريد أن أعرفك؟ قلت : يا مولاي هل هي إلا نفس واحدة؟ فقال : يا كميل إنما هي أربعة : النامية النباتية والحسية الحيوانية ، والناطقة القدسية ، والملكية الالهية ... » (2)

إحياء الميول المعنوية :

إن الانسان يملك غير الطبع النباتي ، والشهوة الحيوانية ، ثروة عقلية بشرية وروحاً ملكوتية إلهية ، فالسعيد من اعتنى بجميع ذخائره وثرواته المادية والمعنوية ، وحاول استغلالها والاستجابة لها حسب قياس صحيح. وهكذا فالانسان في الوقت الذي يهتم بجلب اللذائذ الجسمانية ويستجيب للميول الحيوانية يجب أن يهتم بصفاء باطنه. وإحياء الميول المعنوية التي تعد جزءاً من فطرته ، ويحاول استخدام مواهبه كلها في سبيل الوصول إلى التكامل ، منقاداً في ذلك للفطرة بإخلاص تام ، لكي لا يلقي عقابه على يد الطبيعة التي تخلف عن قوانينها.

الانحراف عن طريق الفطرة :

إن من المؤسف أن الحياة العصرية قد انحرفت بالبشر عن طريق الفطرة وقصرت اهتمامها على الجوانب المادية فقط. إن أكثر الأفراد اليوم يرون البشرية من

ص: 147

1- المصدر نفسه ص 296.

2- آداب النفس للسيد محمد العيثاني ج 11 ط. طهران. وللحديث تفصيل طويل مذكور في (مجمع البحرين للطريحي ، مادة نفس).

خلف منظار اللذائذ والشهوات ، فيتناسون أهمية الجوانب المعنوية. وعلى هذا الأسلوب من التفكير يربون أبناءهم أيضاً فيعطفون جل اهتمامهم على العيش الرغيد والالتذاذ أكثر ، في حين أن اهتمامهم بتربية الايمان الفطري والسجايا الخلقية والواجبات الروحية ... لا يبلغ الواحد في المائة من العناية بالجوانب المادية ، ولا شك في أن الانحراف عن طريق الفطرة لا يبقى بلا عقاب.

إن المدنية الحديثة تسيطر على العالم منذ مدة ، والعلماء يقفون كل يوم على حل رمز جديد من كتاب الكون ، ويخطون خطوة جديدة في طريق العلم ، ويحرزون انتصارات عظيمة في هذا السبيل. ولذلك فإن اسلوب المعيشة قد تغير والحياة ملئت جمالاً ، وخضع البر والبحر والجو لسيطرة البشر ، فالأكواخ المرطوبة المظلمة قد استبدلت بالقصور الضخمة الفاخرة المجهزة بجميع وسائل الراحة. وهكذا حلت النفاثات الجميلة القوية محل الفرس والجمال حيث توصل المسافر في أتم الراحة وأسرع الوقت إلى مقصده. ولا غرابة إذا رأينا أن المغازل اليدوية للعجائز وأدوات الحياكة اليدوية للشيوخ تخلي مكانها لمعامل الغزل والنسيج الاوتوماتيكية ، وهكذا خرجت الزراعة عن شكلها القديم ، وبدأ المزارعون العمل في الحقول بأحدث المكنائ الزراعية وفقاً لأحدث النظريات العلمية ... وبصورة موجزة : نرى أن العلم قد أخذ طريقه إلى جميع مظاهر الحياة ، مضيئاً - كالشمس - كل مكان ، ومنظماً وسائل الراحة المادية والرفاه في العيش.

المدنية والأمراض الروحية :

... ولكن هذه الانتصارات التي أحرزها الانسان في مختلف الميادين لم تقدر على إيجاد التوازن الفكري والارتياح الروحي للبشر ، بل نجد الأمر على عكس ذلك ، فبنفس النسبة التي تتقدم فيها المدنية وتهيئ وسائل جلب اللذة والشهوات للبشر نجد أن اضطرابه وانزجاره ، شقائه وبؤسه يزداد. إن الأمراض الروحية والعصبية والاختلالات العقلية والجنون أضحت مثل سحب سوداء وخطيرة قد سيطرت على أفق الدول المتمدنة بصورة فظيعة مخيفة.

« لقد كتبت الجرائد الرسمية الامريكية ، في مطلع هذا العام أن في

العام الماضي بلغ مصرف الأقرص المنومة والمهدنة للأعصاب ، والخاصة للأمراض الروحية المستعملة في أمريكا مائتي مليون دولار. هذا الرقم الهائل إنما هو للأدوية المستعملة في حالات ضعف الأعصاب والقلق الفكري ، أما الأقرص المسكنة للأوجاع أمثال الأسبرين فانها تشمل مبالغ طائلة أخرى من ميزانية الدولة « (1)

إن الدول العظمى في العالم تعمل على استئصال جذور الأمراض المختلفة بمختلف الوسائل العلمية والتطبيقية ، لتخلص شعوبها من شر التيفوئيد والهيضة والملاريا ونحوها ، ولكنها بدلاً عن ذلك قد ملأت المستشفيات بالمصابين بالأمراض الروحية والعقلية ، وتزيد من عددهم الهائل يوماً بعد يوم.

« ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة. ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلاتها وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم ... ويقول س. و. بيرسي : إن شخصاً من كل 22 شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين حين وحين ، وفي الولايات المتحدة تبدي المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال عدد المصدومين. ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات نحو 86000 حالة جديدة ». « إن أمراض العقل خطر داهم. انها أكثر خطورة من السل والسرطان وأمراض القلب والكلية ، بل التيفوس والطاعون والكوليرا ... ولا شك في أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم على النقص الخطير الذي تعاني منه المدنية العصرية ، وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية » (2).

هذه النصوص ترينا أن حالات الجنون والأمراض الروحية تأخذ بالازدياد

ص: 149

1- جريدة (إطلاعات) الإيرانية العدد 10163.

2- الانسان ذلك المجهول ص 123.

بسرعة هائلة في الدول العظمى والمتمدنة ، فالدكتور كارل إنما يكتب هذه الفقرات عن الوضع الروحي في أمريكا قبل 30 سنة تقريباً ولكن النشرة الاحصائية الرسمية في أمريكا لعالم 1960 ميلادية ، تشير إلى أرقام أعلى من الأرقام السابقة. فمثلاً بينما نجد أن النشرة المذكورة تذكر عدد المصابين روحياً في المستشفيات العقلية الأمريكية 340000 سنة 1932 ميلادية ، نجد أن هذا الرقم يرتفع إلى الضعف سنة 1959.

إزدياد الجرائم والجنايات :

تلك النشرة نفسها تذكر في (ص 311) أرقام الجرائم المختلفة التي تلقتها من محاضر محاكمات القضاة ، وتكتب أرقام ثلاث سنوات بهذه الصورة : -

عام 1955 ... 2,262,450 جريمة

عام 1956 ... 2,563,150 جريمة

عام 1957 ... 2,796,4400 جريمة...

وهكذا تلاحظون أن الجرائم أيضاً في طريقها إلى الازدياد يوماً بعد يوم. والآن لنذكر بعض الاحصائيات الطريفة حول الموضوع :

« الجنائية في فرنسا ، إسم كتاب ألفه رجلان من علماء الاجتماع في فرنسا أحدهما هو (بول شولو) ، والآخر (جان سوزنين) ، بعد أن استفادا من الاحصائيات والملفات الجنائية بمعونة البوليس. لقد ورد في إحدى تلك الاحصائيات ما يلي : - تقع في فرنسا سرقة واحدة في كل دقيقتين ، وعملية اختطاف واحدة في كل عشر دقائق ، وسرقة سيارة في كل ثلاثين دقيقة ن واتصال جنسي غير مشروع في كل ثلاث ساعات ، وجناية واحدة في كل أربع ساعات ... » (1)

« لندن - أعلنت مؤسسة التحقيقات في الصحة النفسية : ان خمسة آلاف رجل وامرأة بريطانيين ينتحرون كل عام. وهذا العدد يساوي

ص: 150

حالات الموت الناشئة من اصطدام السيارات في هذه البلاد. وفي مدينة لندن التي لا تزيد سكانها على التسع ملايين ، يكون معدل الانتحارات في كل يوم 3 انتحارات « (1).

إن ما لا شك فيه هو أن هذه المصائب هي وليدة التخلف عن قوانين الخلقة ، فالتمدن الحديث قد صرف كل جهوده في سبيل توسعة اللذائذ المادية وإيجاد الرفاه المعيشي للبشر ، وغفل - تمام الغفلة - عن الجوانب الروحية في النفس الانسانية.

الافراط في الشهوة :

والمدينة الحديثة قد سدت على الناس أبصارهم ومسامعهم وصورت لهم أن معنى (الانسانية) ليس إلا العمل على إيجاد حياة أفضل ، والانتفاع من اللذة أكثر وكأن ليس للانسان هدف غير ذلك. فالكل يفكرون في كيفية الحصول على مسكن أحسن ، ومركب أجمل ، ومقام أرفع ، ويجدون في أن يعرفوا أي السبل تدر عليهم ثروة أكثر كي يتمكنوا من ممارسة شهواتهم بصورة أوسع ...

وتسعى شركات الأفلام السينمائية دوماً في سبيل إخراج أفلام أكثر تهيجاً ، ورقصات أشد إثارة ، لتتمكن من إرضاء شهوات الناس إلى أبعد مدى ممكن وبذلك لتحصل على أرباح أكثر ...

واجتماعات المساجد والكنائس آخذة في الضعف والتأخر. أما حانات الخمر ودور السينما والمراقص والملاهي فأنها مليئة بالحاضرين ومكتظة بالشباب ...

الرجل الثري يحترم ويعتنى به عناية بالغة لثروته ، أما الفرد المؤمن التقى الذي يعتبر ثروته الايمان والفضيلة ، فلا يملك واحداً بالمائة من احترام ذلك الرجل.

إن نجمة سينمائية تمكنت - بخروجها بجسد نصف عريان وإتيانها حركات مهيجة - من إرضاء ميول المتفرجين ، وعندما دخلت بلدة أخذ الآلاف من الناس يتنافسون في الخروج لاستقبالها معتبرين النظر إليها فوزاً عظيماً وسعادة كبرى. ولكن إذا دخل عالم في الأخلاق والتربية أو رجل مؤمن ورع يكون كلامه وأفعاله

ص: 151

قدوة للعفة والصلاح إلى تلك البلدة فلا يخرج لاستقباله سوى أفراد قليلين يعدون بالأصابع

ومحنة الكتب أشد ، فالكتب التربوية المفيدة والعلمية الصالحة لا تلقى إقبالاً من القراء ، بينما نجد أن القصص المهيجة والأشعار المغرية تنفذ في فترة قصيرة ويعاد طبعها عدة مرات.

إختلال التوازن :

هذه الشواهد وعشرات من أمثالها ترينا أن التوازن بين الروح والبدن قد اختل في المدنية الحديثة. فالميل المادية والشهوانية تراعى ويدافع عنها ولذلك فقد اتسعت دائرتها ، وفي قبال ذل نجد أن العواطف الانسانية والميل الروحية مفقودة ولا يبحث عنها أصلاً. هذا العمل إنما هو حرب صريح مع الفطرة ، ومخالفة مباشرة لقانون خلقه البشر ... ومن البديهي أن الخروج على قوانين الكون لا يبقى خالياً من عقاب.

« إننا فقدنا جميع مقرراتنا الداخلية كما فقدنا تعاليمنا الدينية ، والأجيال الحاضرة تجهل حتى وجود مثل هذه القيم في الماضي. وهكذا فالعدالة ، الشرف ، الاستقامة ، المسؤولية ، الطهارة ، العطف على الناس ، الشهامة ... قد أضحت عبارات فارغة لا معنى لها ، وكلمات تقابل بالسخرية من قبل الشباب ، وإذا اتفق وأن رأينا منهم شوقاً نحو العقائد الدينية فذلك كاحترامهم للأشياء النادرة في المتاحف. إن الانسان الحديث لا يعرف لغير اللذة أساساً آخر لحياته وسلوكه » (1).

إن الانسان لا- يستطيع الاستمرار في حياته من دون أن يؤمن وسائل الحياة المادية ، فهو محتاج إلى الطعام واللباس والمأوى ، وإضاء الميل الجسدية بحكم القضاء القطعي الالهي ، وعليه أن يسعى في سبيلها ... ولكن يجب أن لا ينسى أن المطالب الفطرية للبشر ليست منحصرة في ميوله المادية فقط ، فإن ما يسبب الفضيلة

ص: 152

والكمال للإنسان ويفصله عن سائر الحيوانات هو ثرواته المعنوية وفضائله الروحية فمن أهمل الذخائر الروحية المودعة لديه فهو (حيوان) في لباس (إنسان).

« لا يستطيع أحد أن ينكر أن البشرية تخضع لقوى منبثقة من الفكر والعقائد. وكانت نتائج بعض الفكر المجردة أن غيرة محيطنا وقلبته رأساً على عقب (وهي العلوم التجريبية والميكانيكية) ، وتركت أثراً كبيراً في حياتنا الفردية والاجتماعية. ولكن يجب البحث عن العواطف الباطنية والالهامات الفطرية في ضمن الفكر التي يمكن تسميتها ب- (الفكر العتلية) (1) كالعقائد الأولية للطموح وحب الكمال والعقائد الدينية. وكل نظرية تغفل النظر إلى هذه الفكر ، وتسعى في سبيل إيجاد الراحة المادية للبشر كما تفعل بقطيع من الأغنام فإن تلك النظرية تكون ناقصة ومنحرفة » (2).

حيوان في لباس إنسان :

ومن هنا يتضح أن المبادئ التي تبشر بها المدنية الحديثة لا ترمي إلا إلى خلق قطيع من الأغنام المتلبسة بلباس الآدميين.

والامام علي (عليه السلام) يشير إلى هذه النكتة في ضمن حديث له مع كميل بن زياد حول بعض الناس المنحرفين ، فيقول : « ... أو منهوماً باللذة سلس القياد للشهوة ، أو مغرماً بالجمع والادخار ... ليسا من رعاة الدين في شيء ، أقرب شيء شهماً بهما : الانعام السائمة » (3).

ص: 153

1- هكذا ورد في تعبير المؤلف. ولعل ذلك يرجع إلى العتلة. والمراد بالعتلات في بحوث الميكانيك من علم الفيزياء ، هو الآلات التي تستعمل لرفع وتحريك أجسام عظيمة بصرف جهود بسيطة. كما لو رفعنا صخرة كبيرة بواسطة وضع قضيب حديدي تحت ركن من أركانها وأسندنا ذراع القضيب إلى صخرة صغيرة مثلاً. ويجري قانون العتلات في البكرات المتسلسلة التي تحفض ثقل الأجسام إلى النصف بعدد البكرات ، وكثيراً ما نشاهد أمثلة ذلك في الرافعات (السلينكات) التي ترفع أجساماً ثقلاً بصرف جهود بسيطة. وعلى أي حال فالمراد من (الفكر العتلية) هنا هو الفكر التي يستعان بها في تيسير الحياة الهائلة السعيدة والصفاء الفكري بمجهود بسيط.

2- سرنوشت بشر ص 147.

3- شرح نهج البلاغة للملافتح الله ص 550.

فنرى كيف يشبه الامام هاتين الطائفتين (المطيعون للشهوات - والمفتنون بجمع المال) بالحيوانات والبهايم حيث لا تظهر لهم عواطف دينية والتزامات عقيدية.

« إن الرقي الحقيقي للانسان الذي يوصل إلى الكمال ينحصر في العمل على تكميل النفس الانسانية وصقلها وتهذيبها ، لا في تطوير الوسائل والأدوات التي يستخدمها في ضمان راحتة المادية. هذا المذهب الأخير هو مذهب الماديين الذي يجلب الخزي والعار للانسانية ، لأنه يبعد عن نظره أشرف الصفات في الانسان. وهذه الصفات فقط بإمكانها أن تضمن سعادته التي هو أرقى من سعادة الأبقار المجتررة ... »
(1)

إحياء الانسانية :

إن هدف الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) من تعاليمه الدينية العالية هو إحياء الانسانية. إن الاسلام يريد أن يحرك المواهب الباطنية والميول الفطرية في البشر ، وفي الوقت الذي يضمن له اللذائذ الجسدية يرشده إلى الكمالات الروحية والايمانية. فالانسانية لا تكمن في رغد العيش وضمان اللذائذ الدنيوية ، والانسان الذي ينسى نفسه ، ويغفل عن امتيازاته المعنوية ، ويحاول أن يحصر نفسه بين جدران الشهوات الحيوانية ... لا شك في أنه أخذ طريقة نحو التسافل مهما كانت حياته رغيدة وعيشته مطمئنة والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة في ضمن الآية التي إفتتحنا بها البحث فيقول : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

ديوان الفطرة :

إن الانسان خلق بحسب؟ الآية على أحسن صوره من الكمال الطبيعي ، فمن اتبع كتاب الخلق وديوان الفطرة وعاش بثروة الايمان وطهارة العمل فعاقبته أنه يصل إلى أعلى درجات الانسانية ، ومن حاد عن طريق الفطرة السليمة يتردى إلى أسفل

ص: 154

سافلين. وما أكثر أولئك الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً ، يعيشون في بيوت حقيرة ، ومع ذلك فإن حب الله القدير يعمر قلوبهم وتحيا فيهم السجايا الخلقية ، ويعيشون مثل ملائكة الجنة في غاية الطمأنينة والرفاه والاستقرار الروحي ... هؤلاء هم البشر الواقعيون الذين لا يفكرون في شيء غير الطهارة والفضيلة.

وعلى العكس فما أكثر أولئك الذين يعيشون في القصور الضخمة لكن فقدانهم لعنصر الايمان وانشغالهم بارذائل يجعل قصورهم تلك جحيماً لا يطاق ، حيث نار الحسد والحقد والتشاؤم والأنانية تحرق أرواحهم ، والحرص والطمع والخيانة والجناية ترديهم إلى هوة سحيقة من الفساد والشقاء والبؤس.

ملجأ البشرية :

في مد الحياة وجزرها ، وفي اضطراباتها الروحية ... يعتبر الاتجاه إلى الله والايمان بالتعاليم الدينية أحسن ملجأ للبشرية. ومما يؤسف له أن المدنية الحديثة لا- تقيم وزناً لهذه القيم والمثل ، وكثير من الشبان والشابات يلجأون إلى الخمرة في يوم اندحارهم ورسوبهم ، أو ينتحرون.

« عزلت المادة نهائياً عن الروح. وحينئذ اتخذت التركيبات العضوية والآليات الفسيولوجية حقيقة أكبر كثيراً من التفكير والسرور والحزن والجمال. ولقد دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك طريق أدى إلى فوز العلم وانحلال الانسان ».

« فإذا كان على الحضارة العلمية أن تتخلى عن الطريق الذي سارت فيه منذ عصر النهضة وتعود إلى ملاحظة المادة الجامدة ببساطة فسوف تقع أحداث عجيبة على الفور ستفقد المادة سيادتها ، ويصبح النشاط العقلي مهماً كالنشاط الفسيولوجي ، وسيبدو أن لا مفر من دراسة الوظائف الأدبية والجمالية والدينية كدراسة الرياضيات والطبيعة والكيمياء. وسوف تبدو وسائل التعليم الراهنة سخيفة. وسيسأل علماء الصحة عن السبب الذي يحدوهم إلى الاهتمام فقط بمنع الأمراض العضوية دون الأمراض العقلية والاضطرابات العصبية ، كما سيسألون عما يجعلهم لا يبذلون إهتماماً بالصحة

الروحية. ولماذا يعزلون المرضى بالأمراض المعدية ، ولا يعزلون أولئك الذين ينشرون الأمراض العقلية والأدبية ، ولماذا يعتبرون العادات المتولدة عن الأمراض العضوية عادات ضارة دون العادات التي قد تؤدي إلى الفساد والاجرام والجنون؟! « (1)

جسد الطفل وروحه :

إن الانسان عبارة عن الجسد والروح ، والمادة والمعنى . فالتربية الصحيحة والتامة عبارة عن إحياء جميع الميول المادية والمعنوية ، والمربي القدير هو الذي يلاحظ التوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح . فكما يعتني بسلامة جسد الطفل ، يجب أن يعتني بسلامة نفسه أيضاً . فيحاول أن يبذر في نفسه بذور الفضيلة والايمان من أولى أدوار حياته ليتربى تربية طاهرة صحيحة .

فكثير من العوارض النفسية والمآسي التي تؤدي إلى الأمراض الروحية والعقلية ، وقد تجر إلى الجنون أو الانتحار أحياناً ... إنما هي معلومة للانحطاط الخلفي والانحراف عن السجيا الانسانية . ومن المؤمل أن نبث - بتوفيق من الله - في قسم منها في المحاضرات القادمة .

قلنا : أن الأساس الثاني لبحثنا في هذه المحاضرة هو أن المربي القدير يجب أن يسعى لدحر الميول المنحرفة والصفات البذيئة التي ورثها الطفل من أبوية (كتربة مساعدة) ، فيعمل على قمعها وإخفاء آثارها . ويزرع مكانها البذور الصالحة للسلوك المفضل . فبعض الأطفال قد ورثوا الجبن ، البخل ، الكسل ، الخسة ونحوها من الصفات من أبويهم ، وهذه الصفات ليست من قبيل القضاء الحتمي والمصير القطعي الذي لا يقبل التغيير - كما سبق آنفاً - بل بإمكان التربية الناجحة والبيئة الصالحة ان تبعد الطفل عن المفاسد ، وترشده إلى طريق الفضيلة والطهارة .

كانت الجزيرة العربية قبل الاسلام مصابة بأنواع الانحرافات الروحية والخلقية طيلة قرون متمادية ، حيث الرذائل متأصلة في جذور ذلك المجتمع كالخيانة والسرقة ، والعصبية والافساد ، والجبن والحمق ، وما أشبه ذلك . ومن البديهي أن

ص: 156

أطفالهم يتولدون مع استعدادات للسلوك غير المرضي مضافاً إلى أن البيئة الفاسدة كانت تساعد على نمو تلك الصفات الرذيلة وظهور الاستعدادات الفاسدة إلى عالم التنفيذ.

أعظم مربى للبشر :

... ومع ذلك فإن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) عمل بفضل أساليبه التربوية الصالحة وتعاليمه الدينية العظيمة على قمع الصفات الرذيلة في نفوس أولئك الذين خضعوا لتربيته ، وزرع مكانها الصفات الحميدة والملكات الفاضلة.

يروى لنا التاريخ قصة الجيش البسيط الذي قدم به أبرهة من الحبشة إلى مكة لهدم بيت الله الحرام. ورأينا كيف أن أهالي مكة الجبناء خرجوا منها من فرط خوفهم ووحشتهم ولجأوا إلى سفوح الجبال ، ولم يجرأوا على المقاومة يوماً واحداً. ولكن الأساليب التربوية الدقيقة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غيرت أسلوب حياتهم تماماً... فنفس أولئك الناس الذين كانوا ضعفاء قبل مجيء الاسلام ، أظهروا من الشجاعة والاقدام والشهامة في ظل إرشادات النبي وفي كنف مدرسته التربوية العظيمة حيث صمدوا لأقوى دول العالم آنذاك ، واستطاعوا من أن يخوضوا أعظم الحروب ويفتحوا البلدان العظيمة ويرجعوا إلى أوطانهم فاتحين غانمين... وهكذا شأن جميع الصفات الرذيلة فقد اختفت من نفوسهم بفضل تعاليم الاسلام وحلت محلها الصفات الحميدة والسجايا الخلقية الفاضلة.

أجل! فالمربي القدير - يستطيع بفضل الأساليب الدقيقة - من قمع الصفات الشريرة وإحلال الصفات الخيرة محلها. ولا يخفى أن الطفل كالنبته الصغيرة ، حيث يمكن تصحيح سلوكه حسب البرامج الصالحة ، ولكن الذين اعتادوا على السلوك الفاسد طيلة سنوات عديدة ، إصلاحهم صعب جداً ، ويجب أن يتحمل المربي في سبيل ذلك أساليب متقنة وجهوداً عظيمة.

يقول الامام الحسن العسكري (عليه السلام) : « رد المعتاد عن عادته كالمعجز » (1).

ص: 157

فالذي اعتاد الكذب طيلة أربعين سنة مثلاً يكون إصلاحه أصعب بكثير من الطفل الذي لا يزيد عمره على ثلاث سنوات ... وإذ استطاع النبي الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) من إصلاح كبار العرب وهدايتهم إلى الطريق الصحيح فإن مقدرته (ومقدرة تعاليمه الرصينة) على تربية الأطفال الذين يملكون عوامل مساعدة للفساد ، قد ورثوها من أبويهم تكون أسهل ، ونجاح تلك الأساليب أضمن.

إشارة

قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » (1)

لقد تعرضنا في المحاضرة السابقة إلى بيان أن جميع الموجودات الحية في العالم تسير في طريقها المرسوم لها على أكمل وجه ، وذلك بفضل الهداية الفطرية الغريزية التي أودعها الله تعالى فيها ، حتى أن الخلية الصغيرة قد شملها هذا الفيض الالهي العظيم. والحيوانات لا تحتاج في وصولها إلى الكمال اللائق بها إلى معلم مرب ، فهي في غنى عن التعليم والتربية.

والانسان ، وإن كان شطر مهم من نشاطاته المختلفة ثابتاً على أساس الهداية الفطرية ويسلك طريقة في ظلها ... لكنه في شطر آخر منها محروم من هذه الهداية ، بل يجب عليه اكتساب المعرفة. فلو سئنا عما يقوم مقام الهداية الغريزية بالنسبة إلى الشطر الثاني من نشاطات الانسان وجهوده ، فيجب أن نقول في الجواب : « العقل ! ».

العقل بدل الغريزة :

فالانسان وإن كان أقل نصيباً من الحيوانات بالنسبة إلى الهداية الفطرية لكنه بدلاً عن ذلك يملك عقلاً يرشده إلى سبل السعادة ويوصله إلى الكمال اللائق به.

ص: 159

1 - يقول الامام علي (عليه السلام) : « كفاك من عقلك ما أضوح لك سبل غيك من رشدك » (1).

أي أنه يكفي في قيمة العقل وعظمته أنه يميز للانسان طريق الضلال والشقاء عن طريق النجاة والسعادة. فبينما نجد في عالم الحيوانات أن المرشد لها إلى طريق سعادتها وكمالها هو الغريزة ، يكون المرشد عند الانسان هو العقل.

2 - قيل له (عليه السلام) : « صف لنا العاقل » قال : « هو الذي يضع الشيء موضعه » (2). إن الحيوانات تضع كل شيء يرتبط بحياتها في موضعه دون أن تخطئ. ولكنها تقوم بذلك بدافع الهاية الفطرية ، أما الانسان فيقوم بهذا العمل بهداية العقل.

3 - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « لكل شيء مطية ، ومطية المرء : العقل » (3). والمراد من المطية هو المركب الذي يصل به الراكب إلى اهدفه. فالحيوانات تطوي طريق سعادته بمركب القدرة الغريزية وتصل إلى غايتها أي كمالها اللائق بها ، أما الانسان فانه يطوي طريق سعادته بواسطة مركب العقل.

4 - قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « قوام المرء عقله ». إن نظام حياة الانسان قائم على العقل. بينما نجد نظام الحيوانات قائما على الغرائز.

المقارنة بين العقل والغريزة :

يختلف العقل والغريزة من جهات عديدة. ولكننا سنقارن بين هاتين القوتين العظيمتين الالهيتين من جوانب أربعة فقط : (1) المناهج العملية والاساليب الغريزية في كل من الحيوانات تكون على نمط واحد ولا يوجد بينها اختلاف في ذلك. أما الانسان فانه يملك اساليب مختلفة ومناحي متعددة في أفكاره ونشاطاته. فمثلا نجد النحلة تعيش في مناطق عديدة من الكرة الارضية ، وتعتبر الخلية بمنزلة دولة مستقلة لها ، فيوجد في دولة منظمة من تنظيمات وقوانين. ولكنها متشابهة من حيث أن

ص: 160

1- نهج البلاغة ص 606.

2- المصدر السابق ص 565.

3- بحار الأنوار للمجلسي ج 1 ص 32.

الأساس في تلك التنظيمات قائم على الهداية الفطرية والغرائز التي أودعها الله تعالى فيها. تتعين الملكة في جميع المناطق حسب شروط معينة متساوية والواجبات المقررة لكل طائفة من النحل معينة حسب قانون الغريزة، وكذلك الغرف فانها تبنى في جميع الخلايا على شكل سداسي. أما الحكومات البشرية فانها تدار حسب أنظمة مختلفة، ولها منظمة خاصة وقد وضعت كل حكومة قانوناً معيناً لها، والسر في ذلك هو أن الإنسان لا يستند إلى الغريزة في نشاطاته، بل يعتمد على العقل والتفكير. ومعلوم أن لكل شخص أو أمة أسلوبها الخاص في التفكير.

الغريزة وإدراكها للواقع :

لما كانت الغريزة عبارة عن الهداية الفطرية التي أودعها الله العالم الحكيم في الأحياء فانها لا تخطئ أبداً، بل تعمل بعين البصيرة النافذة. أما العقل فانه يجب أن يستعين بالمقدمات لاستخراج النتائج، فقد يخطئ في المقدمات وقد يخطئ في كيفية الاستنتاج منها. وهناك العشرات من المؤثرات التي تترك أثارها على العقل، مثل: الغضب والشهوة والعادات الاجتماعية التقاليد العائلية... وهذه تنحرف بالعقل عن طريقه المستقيم فيحرم من إدراك الواقع والحقيقة في النهاية.

فما أكثر السيئات الحقيقية التي تضر بالسعادة الانسانية ومع ذلك فهي محبذة ومحبوبة لدى بعض الأمم. وعلى العكس فما أكثر الحسنات التي تعين الإنسان في وصوله إلى السعادة والكمال ومع ذلك فهي مذمومة ومهجورة عند بعض الأمم. وإذا كان العقل وحده كافياً في معرفة الحقائق وإراءة طريق السعادة والشقاء لما كانت هناك حاجة لإرسال الأنبياء لهداية البشر وتكليف الناس بإطاعتهم (1). يقول الامام موسى بن جعفر (عليه السلام) لهشام بن الحكم ضمن حديث طويل: « يا هشام، إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة. فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول ... » (2).

ص: 161

1- للتفصيل في هذا الموضوع يراجع فصل (ما حاجتنا إلى الأنبياء مع وجود العقل؟!) من كتاب (دفاع عن العقيدة) للمترجم.

2- الكافي لثقة الاسلام الكليني ج 161 ، ط طهران.

إن عدم نضج العقل البشري طوال القرون المتمادية هو الذي سبب إختلاف الناس في كيفية تعيين مناهج حياتهم ومعرفة طريق سعادتهم. وقد تؤدي هذه الاختلافات إلى مطاحات ومشاحنات عظيمة ، ومفاسد لا تحبر.

والعالم المتحضر - بالرغم من النجاحات العلمية والعملية الباهرة التي أحرزها - لم يكن بعيداً عن هذا البؤس ، فهو لا يزال يحترق في نار الاختلافات العقيدية وبذلك يعرض السلام العالمي والأمن العام إلى أعظم الأخطار في كل آن. ومن أبسط الأمثلة على ذلك أننا نرى اليوم أن الشيوعية قد صارت سبباً في أعظم وأخطر الانشقاقات الفكرية ، فهناك الملايين من العقلاء والمثقفين والجامعيين يعتقدون بأن طريق السعادة الانسانية منحصر في تطبيق النظام الشيوعي ، وأنه إذا قدر لهذا النظام أن يسود العالم يوماً وتطبقه جميع الأمم والقوميات في العالم فإن البشرية ستصل إلى أوج عظمتها ، وستضمن لها سعادتها وكمالها اللائق بها. وللوصول إلى هذا الهدف يجب السعي بكل جهد لازالة الموانع - الواحدة بعد الأخرى - وكذلك يجب العمل لبث الفكرة بمختلف وسائل الدعاية والاعلان ، فلربما يشمل هذا الفيض العظيم العالم كله ، وتكون النتيجة تطبيق السعادة على الناس كلهم في أرجاء المعمورة!!.

... وفي قبال هؤلاء يوجد ملايين العقلاء والعلماء والمثقفين والجامعيين يعتقدون بأن الشقاء والبؤس والانحطاط يتمثل في النظام الشيوعي ، والنسبة طردية بين انتشار هذا النظام في العالم وفقدان الراحة والسعادة من الانسانية ، فالشيوعية تعني دمار الانسانية كلها ، والنظام الشيوعي معناه خنق الحرية وكتبتها ، والمذهب الشيوعي يعني قتل الأخلاق والفضيلة ... ويجب العمل بكل الجهود لاحباط مساعي الشيوعيين ولمحاربة هذا النظام الخبيث ، وقلع جذوره التي تعمل على هدم الانسانية وخنق الحرية وقتل الأخلاق. ويجب استخدام جميع أجهزة الدعاية والاعلان لمحو هذا المبدأ الهدام ، والداء الويل الذي يكمن الخطر فيه أكثر مما هو في الطاعون والهيضة ، وبذلك ينجو البشر من هذه الفكرة الفاسدة القذرة ... وفي ذلك اليوم فقط يمكن الاطمئنان إلى سعادة البشرية!!!.

لامجال للشك في وجود هذا الاختلاف الفكري بين عقلاء البشر كما واضح لأدنى متتبع ... ومرد ذلك كله إلى قصور العقل عن إدراك الواقع. فإذا كان العقل في الانسان ينفذ إلى الحقائق ويدرك الواقعيات كما هو الحال بالنسبة إلى الغريزة في الحيوانات ، كان يستحيل وقوع البشرية في أمثال هذه الاختلافات والمطاحنات ... وهذا هو السر في إرسال الأنبياء من قبل الله تعالى ، فإنهم جاؤوا لجبران قصور العقل ، ليقولوا الكلمة الحققة في موارد الاختلاف ، ويثبتوا الحقيقة الساطعة في المنازعات وبذلك ليخلصوا البشرية من ورطة الجهل وحيرة الضلال :

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ... » (1).

لقد رأينا كيف أن الحيوانات تدرك الواقعيات المرتبطة بها عن طريق الغرائز التي تمثل الهداية الفطرية لله تعالى إياها ، لكن الانسان لا يستطيع أن يدرك الواقعيات التي توصله إلى السعادة عن طريق العقل دائماً ، بل عليه أن يعتمد على الهداية التشريعية - التي تتمثل في تعاليم الأنبياء - ليتمكن من إدراك الطريق المستقيم والمنهج الحقيقي للسعادة ...

هذا هو أول أوجه الفرق بين العقل والغريزة!

حرية العقل :

2 - أما النقطة الثانية التي يختلف فيها العقل عن الغريزة فهي أن الغريزة تعمل بصورة جبرية ولا يملك صاحب الغريزة في الأفعال الغريزية أية إرادة أو اختيار. فالنحلة مجبرة على أن تبني بيتها بشكل سداسي ، مستخدمة في ذلك الشمع كمادة إنشائية. ولا يحق لها أن تحدث أي تغيير في هذا العمل كما نجد أن الانسان - بحكم غريزته - يبلغ في وقت معين وتبدو الرغبة الجنسية فيه من دون ارادته واختياره ... لكن الأحكام العلية تجري بإرادة الانسان واختياره ، وهو حر في تنفيذ

ص: 163

أوامر العقل أو عصيانها. وهذه الحرية هي أعظم مائز للبشر بالنسبة إلى جميع الموجودات في عالم الأحياء.

إن القرآن الكريم يشير إلى حرية الانسان في مواضع عديدة ويعتبرها من الودائع الفطرية في بناء الانسان. وهنا لا بأس من الاستشهاد ببعض تلك الآيات في ضمن الفقرات التالية :-

الحرية الفطرية :

يقول تعالى : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ... » (1).

أي أننا خلقنا الانسان من نطفة خليطة من الرجل والمرأة ، ثم نمتحنه ...

وإذا نظرنا إلى الحيوانات ، وجدنا أنها هي أيضاً تتكود من خليط من نطفة الذكر والأنثى. فالخلية الأولى للخروف أو الأرنب إنما هي خليطة (أمشاج) ، وبذلك تشبه الانسان ... إلا أنه ألحق كلمة (نبتليه) بعد كلمة (أمشاج) بالنسبة إلى الانسان ، وهذه عبارة عن فصل مميز بين الانسان وسائر الحيوانات ، وذلك لأن الاختبار إنما يصح عندما يكون الشخص المختبر مالكا للحرية والاختيار ، فمثلا لا يمكن أن يقال بالنسبة إلى الشخص المسجون في سجن لوحده والمراقبة مشددة عليه : أنه يمتحن ليرى هل يسرق أم لا؟. لأنه غير قادر على السرقة في محيط السجن فيجب أن يخرج من محيط السجن الضيق ويتجول بين المجتمع بحرية كي يعرف أنه سارق أم لا.

إن الخروف والأرنب وغيرهما من الحيوانات ، قد تكونوا من نطفة أمشاج أيضاً ، ولكن لا يوجد امتحان بالنسبة إليهم ، لأنهم مسجونون في سجن الغرائز ، ولا يملكون اختياراً من أنفسهم. والانسان هو الذي تخلق خليته الأولى ونطفته الأصلية منذ اللحظة الأولى على أساس هابليته للاختبار والحرية وأوجد مع ملاحظة إحتوائه على الارادة والختيار.

وبهذا الصدد يقول الله تعالى : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا » (2).

ص: 164

1- سورة الدهر 2.

2- سورة الدهر 3.

فالإنسان فقط هو الذي يستطيع أن يشكر نعمة الهداية الإلهية بحرية ويؤدي واجبه على أحسن صورة أو يكفر بالنعمة وينحرف عن طريق الحق والاستقامة.

وبالرغم من أن الحيوانات تملك أيضاً نصيباً وافراً من نعمة الهداية الإلهية ، فلم يرد في حقها «إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» ... وهي علامة الحرية وسمة الاختبار. فانها مجبرة على اتباع المنهج الفطري الإلهي دون زيادة أو نقصان ، ولذلك يقول الله تعالى : «مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»(1).

الصراط المستقيم :

هذا الصراط المستقيم هو الذي شرعه الله في يكون ، وكل الدواب تسير على هذا الطريق السوي ... والطريق الذي شرعه نبي الاسلام العظيم هو صراط الله المستقيم أيضاً ، فله هداية فطرية وهداية تشريعية ، وكلتاهما تمثلان الصراط المستقيم في هذا الكون ، مع فارق بسيط هو أن الحيوانات لا تملك اختياراً في سلوكها طريق الهداية الفطرية ، بينما البشر حر في اتباع الهداية الشرعية وعدم اتباعها : «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (2)

إن القرآن يقوم بنصيحة بني الانسان الأحرار في سلوك طريق السعادة ويخاطبهم بقوله : إن هذا هو صراطي المستقيم فاسلكوه ولا تفرقوا في السبل التي تبعدكم عن جادة الحق وطريق الفطرة فتقعون في التيه.

إن للانسان والحيوان كليهما صراطاً مستقيماً في طريق تكاملها. الصراط المستقيم الذي يسلكه الحيوان تكويني ، والصراط المستقيم الذي يسلكه الانسان تشريعي. وكلا الطريقين معينان من قبل الله تعالى.

والفرق بينهما أن الحيوان مجبر في سلوك طريقه التكويني ولكن الانسان مختار

ص: 165

1- سورة هود 56.

2- سورة الأنعام 153.

في ذلك : «وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ» (1) في هذه الآية نجد أن الله تعالى يعبر عن الهداية الغريزية للنحلة بالوحي. إن هذه الحشرة الصغيرة تلقت برنامج عملها عن طريق الوحي الالهي وفي مقام التنفيذ نجدها مجبرة على اتباع الالهام الالهي خطوة إثر خطوة دون أي تخلف.

إلهام الخير والشر :

والانسان يتنحم من فيض الالهام الالهي ، فقد ألهمه الله الخير والشر ... «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» (2) ولكنه على العكس من النحلة حر في تنفيذ الالهام الالهي والجري على طبقه. فله الحرية الكاملة في أن يتبع قوانين الله وأحكامه فينال بذلك السعادة والكمال ، أو يتخلف عنها فيقع في روعة الشقاء والفساد : «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) » (3).

إن جميع الموجودات الأرضية والسماوية تقف - بحكم قانون الفطرة - وقفة الخضوع والعبودية أمام خالقها العظيم ، ولا يتخلف أحد منها عن هذا الواجب التكويني ، ولكن بعض أفراد البشر نجدهم يخرجون - بسوء اختيارهم وإساءة التصرف إلى حريتهم - عن هذا الواجب ... فالبعض يؤدون هذا الواجب وهو الخضوع أمام خالقهم العظيم بحرية ، وآخرون يخرجون عليه بحرية أيضاً. «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ» (4).

فنجد تعبير القرآن الكريم هنا حيث يتحدث عن الموجودات الأرضية والسماوية وجميع ما في الطبيعة من نبات وجماد وحيوان يقول بأنهم جميعاً يسجدون لله ، لكنه حين يصل إلى الانسان يقول كإن كثيراً منهم يسجد وطائفة كثيرة أيضاً تستحق العذاب ...

ص: 166

1- سورة النحل 68.

2- سورة الشمس 8.

3- سورة الشمس 9.

4- سورة الحج 18.

للامام موسى بن جعفر (عليه السلام) حديث طويل حول العقل والعقل مع هشام بن الحكم ، وأول فضيلة يذكرها للانسان العاقل ، عبارة عن حريته وحسن اختياره. وهو يقول : « يا هشام : إن الله تبارك وتعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه قال : «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ» (1).

إن الحرية المطلقة والاختيار الكامل الذي لا يحده شرط أو قيد إنما يختصان بذات الله فقط : « كذلك الله يفعل ما يشاء » (2).

لقد أراد الله للحيوانات عند خلقها أن تكون فاقدة للارادة والاختيار وأن تطبق مراسم الهداية التكوينية بدون أي اعتراض ، لكنه تعلقت إرادته في مورد خاص أن يخلق موجوداً مالكاً للارادة والاختيار ، ويمنحه شيئاً من الحرية والقدرة ... فخلق الانسان ووهبه العقل ، وأبصره بطريق السعادة والشقاء ، وأعطاه الحرية في مقام العمل ، حتى يستطيع الذهاب إلى أي اتجاه أراد باختياره.

وهب أن بنية الانسان تتكون من نفس العناصر الأولية لهذا العالم وبالرغم من أنه يشترك مع عالم النبات والحيوان في صفات طبيعية كثيرة ولكنه يمتاز عنها بمزية تجعله لائقاً لتحمل مسؤولية الحرية والاختيار. ففي الانسان توجد ثروة خاصة ، وكنز إلهي دفين ، وشعلة نيرة ، وروح سماوية تجعله يرتقي على جميع الموجودات في الطبيعة.

يتحدث الله تعالى في القرآن الكريم للملائكة عن إرادته لخلق الانسان فيقول : «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (3).

ص: 167

1- الكافي ج 1 13.

2- سورة آل عمران 40.

3- سورة الحجر 29.

نعم هذه روح الله تعالى ... فمتى تمت تسوية بناء هيكل الانسان ونفخ الله تعالى فيه من روحه وجب على الملائكة أن يسجدوا له. إن تسوية الهيكل ليست مختصة بالانسان ، بل هي موجودة في جميع الموجودات. إن الله تعالى يقول في خلق السماء : «رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا» (1) وبالنسبة إلى نبات الأرض يقول : «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ» (2).

إذن : فالشيء الذي يختص به الانسان ، ويسبب له العظمة والرقى والكمال هو الحقيقة المجهولة التي يعبر الله تعالى عنها بروحه.

« عن محمد بن مسلم ، قال : سألت أبا جعفر عن قول الله عز وجل : « ونفخت فيه من روحي » قال : روح إختاره واصطفاه وخلقاه وأضافه إلى نفسه ، وفضله على جميع الأوامر فأمر فنفخ منه في آدم » (3).

« عن أبي بصير عن أبي جعفر في قول الله عز وجل : « ونفخت فيه من روحي » قال : من قدرتي » (4). فنجد الامام الباقر عليه السلام يعبر عن روح الله في هذا الحديث بالقدرة الالهية.

قابلية الائتمار والانتهاز :

لقد منح الله الانسان شيئاً من قدرته ومشيتته المطلقة ، وبعد خلق آدم ظهرت أولى مظاهر القدرة والاختيار والحرية في توجه الأمر والنهي إليه من قبل الله.

«وَكُلًّا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ» (5).

الأمر والنهي ، كل ولا تأكل ، إفعل ولا تفعل ... كل ذلك يمكن تصوره في

ص: 168

1- سورة النازعات 28.

2- سورة الحجر 19.

3- تفسير البرهان ص 557.

4- تفسير البرهان ص 558.

5- سورة البقرة 35.

فرض الاختيار والارادة فقط. وإنما يقال للرجل ظالماً حيث يملك الحرية في العمل ويخرج على القانون بإرادته.

نستنتج من استعراض النماذج السابقة : إن الانسان يمتاز بمكانة خاصة من جهة الارادة والاختيار. فالحيوانات تنقاد للهداية التكوينية دون أي قيد أو شرط ، وتنفذ أوامر الغرائز الكامنة فيها بجبر ودون أي قدرة على الخروج عليها. لكن الانسان حر في تنفيذ أوامر العقل. وهنا يجب أن لا نغفل نقطة مهمة هي : أن جسد الانسان وروحه ، صورته ومعناه ، عقله وإرادته ، وبصورة موجزة : ذاته وجميع صفاته في قبضة القدرة الالهية. إنه مخلوق وجد بإرادة الخالق القاهرة ، إنه موجود تمتع بالوجود بفضل إرادة موجهه ، وإن وجوده قائم به ، والحرية الحقيقية ، والاختيار الكامل إنما يكونان للخالق العظيم الذي تكون ذاته المقدسة وصفاته الكمالية قائمة بذاته الأزلية ، والذي لا يحتاج إلى أحد ، في حين أن الجميع يحتاجونه ، وعلى هذا فان الانسان ليس مجبراً ولا مكتوف التدين في أعماله لأن أفعاله مستندة إلى العقل والارادة وليس أسيراً للغرائز كسائر الحيوانات ، ومن جهة أخرى فليس الانسان مختاراً مطلقاً وحرّاً بلا قيد أو شرط لأنه هو وحياته وجميع صفاته قائمة بذات الله تعالى ، والمختار المطلق والقادر الحقيقي هو الله القائم بذاته ، والانسان واقع في مرحلة وسطى بين المختار المطلق والمجبر المطلق.

يقول الامام الصادق (عليه السلام) : « لا جبر ولا تفويض ، ولكن أمر بين أمرين » (1).

« ... عن أبي الحسن الرضا ، قال : قلت له : إن أصحابنا بعضهم يقول بالجبر وبعضهم يقول بالاستطاعة. فقال لي : أكتب ، قال الله تعالى : يا ابن آدم ، بمشييتي كنت أنت الذي تشاء ، وبقوتي أديت إلي فرائضي ، وبنعمتي قويت على معصيتي » (2).

يستفاد من كلام الامام الرضا (عليه السلام) أن الانسان ليس مجبراً ، لأنه يعمل باختياره ولكن اختياره يستند إلى الافاضة الالهية ، فهو يملك إرادة بإرادة الله ويملك قدرة

ص: 169

1- بحار الأنوار للمجلسي ج 3 6.

2- عيون أخبار الرضا ج 1 144.

بقدره الله ، والعبارة الجامعة في هذا المقام هي الجملة التي يقولها أكثر المصلين في صلاتهم ... (بحول الله وقوته أقوم وأقعد).

إذن فالنقطة الثانية التي يختلف فيها العقل عن الغريزة هي أن أوامر الغريزة تنفذ بصورة جبرية. بينما نجد أن الانسان حر في الانقياد إلى أوامر العقل.

التكامل اللامحدود :

3 - هناك فرق كبير بين الغرائز والعقل ، وهو أن عدد الغرائز محدود وللتكامل الناشئ من الغرائز حد ثابت لا تتجاوزه ولكن الانسان يستطيع التدرج في مراتب الكمال - بفضل عقله وحرية - بدون أن يحد ترقيه حد معين ، وكلما يتقدم يجد مجال التقدم والتكامل أمامه مفتوحاً. ولهذا السبب فان المجتمع الانساني كان ولا يزال يخطو الخطوات الواسعة في مجال التقدم في ظل عقله وتفكيره ، مبتكراً في كل فن آلاف التحولات والتطورات في شؤون الحياة المختلفة. أما الحيوانات السجينة في قلعة الغرائز فانها باقية في نفس الحد الذي كانت عليه قبل عشرات القرون ولم ترفع خطوة واحدة في سبيل الترقى والتكامل الجديد.

وبالرغم من أن الحيوانات مصونة من التعرض للانحراف والخطأ بفضل غرائزها ، لكن الانسان معرض للخطأ والاشتباه مرة بعد أخرى ، وهب أن الغرائز توجد أشد التنظيم وأدقه في حياة الحيوانات ، ولكن الانسان لم يصل - لحد الآن - إلى تنظيم حياته الاجتماعية والعقلية بشكل مشابه لما هو موجود في غرائزه ... بالرغم من هذا كله فان قيمة العقل لا يمكن أن تقاس مع الغريزة. إن الآلة الحاسبة تجيب على العمليات المحدودة الخاصة بها ، وكذلك الغرائز الحيوانية فشأنها شأن الآلة الحاسبة في السرعة والمحدودية. إن ميزة العقل البشري على الغرائز الحيوانية هي بقدر ميزة عقل المهندس المخترع للآلة الحاسبة على الآلة نفسها ، إن النتائج الحاصلة من الآلة الحاسبة ليست ناشئة من الفكر والتدبر ، وكذلك الحيوانات فإن أفعالها ليست على أساس الروية والتفكير.

« إن الحيوانات بالرغم من جهلها بنفسها وبيئتها ، تجد طريق الوصول إلى مسالك الحقيقة بدقة عجيبة ، أما الانسان فليس

كذلك. وكأن الحياة اتخذت للتكامل في العالم طريقين مختلفين : أحدهما الغريزة والآخر الذكاء والارادة ». « إن جميع الموجودات ما عدا الانسان تملك شيئاً من العلم الفطري عن العالم وأنفسها. هذه الغرائز تقودها بشكل دقيق تماماً للوصول إلى الحقيقة. وعليه فلا تملك حرية خداعة. إن الموجودات التي تتميز بالعقل هي التي تخدع وتقبل التكامل في النتيجة. اما الحشرات فهي على عكس ذلك ' تتميز بنظام جماعي ثابت لم يطرأ عليها التغيير منذ عشرات الالاف من السنين وحتى اليوم».

«إن أنثى الكلب - على العكس من أنثى الانسان - لا تخطيء في مراقبة صغارها أبداً، الطيور تعرف متى يجب أن تبني أعشاشها. والنحلة تعرف المواد الضرورية للملكة أو العمال أو الحرس. إن الحيوانات لا تملك حرية وذلك لأتوماتيكية الغريزة، ولذلك فهي لا تستطيع أن تعيش كما يعيش الانسان متمتعاً في أسلوب حياته بإرادته وحرية. إن الانسان لا يعرف بعد كيفية إدارة نفسه، ولم يوفق أبداً لبناء تمدن الكمال التي يستطيع بها أن ينظم حياته الاجتماعية بنسبة الدقة الموجودة في تنظيم الغريزة لتجمع النحل. وعليه فإن جهودنا يجب أن تبذل بصورة رئيسية في دعم رصيدنا الروحي»⁽¹⁾.

أثر التربية في الحيوان :

هناك بعض الحيوانات مثل الخيل والكلاب والقردة تملك شيئاً من الذكاء ، ويمكن إخضاعها للتربية إلى درجة ما. والمربي يستطيع أن يعلمها قسطاً من الصفات. ولكن العقل الذي هو منشأ الترقى والتكامل العلمي ورصيد التفكير يختص بالانسان. ولهذا السبب فان التربية مؤثرة إلى درجة ما في الحيوانات الراقية. مما لا شك فيه أنه لا يمكن تربية الحصان بشكل يستطيع معه يوماً أن يشترك في المؤتمر

ص: 171

الاعلى للبحوث الذرية في الجامعة ويتحدث عن كيفية تحطيم النواة المركزية للذرة. والكلب مهما تربى بصورة فائقة فانه لا يستطيع أن يبحث عن سرطان الدم وأساليب علاجه. فالحيوان مهما كان راقياً وذكياً يحذو حذو غريزته في الحياة دائماً ولا يملك أدنى قدرة على التخلف عن الهداية التكوينية له.

« بالرغم من كون الغريزة عند الحيوانات الراقية كالقروود والفيلة والكلاب محاطة بهالة من الذكاء فان الغريزة هي الحاكمة والمسيطرة في الأفعال الحيوية الرئيسية لها » (1).

يقول الامام الصادق (عليه السلام) في حديثه إلى المفضل : « تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان في كثير من أعضائه أعني الرأس والوجه والمنكبين والصدر وكذلك أحشائه شبيهة أيضاً بأحشاء الانسان ، وخص مع ذلك بالذهن والفطنة التي بها يفهم عن سائسه ما يومئ إليه ... أن يكون عبرة للانسان في نفسه ، فيعلم أنه من طينة البهائم وسنخها ، إذ كان يقرب من خلقها هذا القرب. ولولا فضله الله بها في الذهن والعقل والمنطق كان كبعض البهائم. والفصل الفاصل بينه وبين الانسان بالصحة هو : النقص في العقل والذهن والنطق » (2).

نعود فنقول إن الفرق الثالث بين العقل والغريزة هو أن الانسان يواصل سيره التكاملي في ظل العقل والتفكير ، بينما الحيوان محصور في قلعة الغرائز ، أن الحيوانات التي تملك شيئاً من الذكاء والفطنة تقبل التربية إلى درجة ما. ومع ذلك فان حياتها قائمة على أساس الغرائز الفطرية.

تنمية الأفكار :

4 - والفرق الرابع بين العقل والغريزة هو : أن الغرائز تصل إلى مرحلة الفعلية مع النمو الطبيعي للحيوان. ولا تحتاج في ذلك إلى التربية والتعليم. أما العقل فانه ينمو على أثر التوجيهات الصحيحة في التعلم والتربية ويظهر كماله الباطني بصورة تدريجية ، وينتقل من القوة إلى الفعلية وبعبارة أخرى : فان العقل يصل إلى حياته

ص: 172

1- راه ورسم زندكى ص 28.

2- بحار الأنوار للمجلسي ج 2 301.

اللائقة به في ظل التوجيهات اللازمة وإذا فقد التنمية الصحيحة ولم يقع في طريق التفكير السليم فانه يموت ويفقد أثره. إن الهدف الأول للأنبياء - ونبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالخصوص - هو إحياء العقل وتنمية أفكار الناس : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ».

فها هو القرآن يدعونا إلى تلبية أوامر الله والرسول وتطبيق تعاليمه. إن كل ما كان يحدث عند الجاهلية من شرك وعبادة للأصنام وارتكاب للجرائم ووآد البنات كان نتيجة قتل العقل وإطفاء نور التفكير.

يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « إن للجسم ستة أحوال : الصحة والمرض والموت والحياة والنوم واليقظة. وكذلك الروح : فحياتها علمها وموتها جهلها ، ومرضها شكلها ، وصحتها يقينها ، ونومها غفلتها ، ويقظتها حفظها » (1).

فالسعادة تكون لمن كانت روحه حية بالعلم ، وسالمة باليقين ، ويقظة بالتنبه. إن الاسلام يعتبر التفكير واستخدام العقل والتدبر في عوالم الطبيعية أعظم العبادات. وقد وردت بهذا الصدد آيات وروايات كثيرة. كان الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) يوصي ولده الحسن (عليه السلام) فيقول : « لا عبادة كالتفكير في صنعة الله عز وجل » (2).

لكي يصل الانسان إلى الكمال الانساني ، عليه أن يفكر ، يحيي عقله ، يتدبر في آثار خلق الله ... ويصل عن هذا الطريق إلى أوج الرقي المقرر له.

نستنتج مما سبق : أن دليل الحيوان في حياته هو الغريزة ، ودليل الانسان هو العقل. الكمال الناشئ من الغريزة ثابت دائماً ويسير على وتيرة واحدة. أما العقل فانه يقود الإنسان إلى كمالات وترقيات جديدة. الغرائز لا تحتاج إلى التعهد والتربية وتظهر لوحدها ، أما العقل فيجب أن يصل إلى مرحلة الفعلية عن طريق التربية الصحيحة.

ص: 173

1- البحار ج 14 398.

2- سفينة البحار للقمي مادة (فكر) ص 382.

يجب علينا أن لا- نغفل حقيقة مهمة : وهي أن سعادة الانسان ليست مرتبطة بتكامل عقله فقط ، فهناك ثروة أخرى في كمين الانسان بالاضافة إلى العقل ألا وهو العاطفة. إن ما لاشك فيه هو أن الشعور العاطفي يجب أن تراقب رعايته بالصورة الصحيحة شأنه في ذلك شأن العقل. فالعقل والعاطفة يجب أن يسيرا في طريق الكمال المنشود كتفاً لكتف. وفي ظل هاتين القوتين العظيمتين يستطيع الانسان أن ينال مقامه اللائق به.

ومع أننا سنتطرق بالتفصيل إلى البحث عن العواطف وقيمة المشاعر في المراحل التربوية وجميع شؤون الحياة في البحوث القادمة ، لكننا هنا نذيل بحثنا عن العقل ببعض الجمل عن العاطفة وأهميتها بصورة موجزة.

دور العقل والعاطفة :

يلعب العقل دور الدليل المرشد في ضمان سعادة الانسان ، ولكن الطاقة المحركة له هي العواطف والمشاعر. العقل في الحياة يشبه العدل في كونه ضرورياً للمجتمع. ولكن العقل والعدل كليهما أمران صارمان لا يملكان مرونة وحناناً. أما اللحام الذي يربط بين أجزاء المجتمع ويوجد الأخاء والحب بينها فهو العاطفة. لقد ورد ذكر العدل والاحسان معاً في القرآن الكريم ، فهو يأمر بهما معاً : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ» (1).

والمجتمع يحتاج في تحديد حقوق الأفراد ، وتعيينها إلى العدل ، ولكن بالعاطفة والاحسان يروي ظمأ المجتمع من الحب والحنان. إن غذاء العقل هو العلم ، وغذاء العواطف هو الأخلاق والفضيلة ، ومما لاشك فيه أن العقل هو أساس السعادة الانسانية ، ولكن الانسان يبحث عن محبوب آخر يمنحه الطاقة الحرارية ويسبب له الحيوية والنشاط والرفاه ، ذلك هو العاطفة. إن جميع التضحيات ، ومظاهر الايثار ، الحب والحنان ، الشفقة والمساعدة ، الحب والوفاء ... كل ذلك ينبع من المشاعر العاطفية.

ص: 174

« لا يوجد أحد يضحى بنفسه في سبيل الحقيقة العلمية تماماً. إن الجدران المرتفعة على أساس الجهل والتماهل والكسل لا تتحطم بالمنطق أبداً. إن ما يدفع الإنسان إلى العمل هو العقيدة لا المنطق. إن العقل لا يستطيع أن يمنحنا قوة الحياة طبقاً لطبيعة الأشياء ، إنه يرشدنا إلى الطريق فقط ولا يدفعنا إلى الأمام أبداً. نحن لا نقدر على التغلب على العوائق التي في طريقنا ما لم تنبعث من أعماقنا موجة من العواطف ، و؟ فقط هو الذي يستطيع تهديم الحواجز العالية الضخمة التي تخفي خلفها إثرتنا وأنانيتنا ، ويشعل فينا لهيب الشوق والعشق ويجرنا بأسايرير مفتحة إلى طريق التضحية المؤلم. إن مطالعة كتاب في الحقوق لا يبعث فينا الشوق والرغبة » (1).

تزكية النفس :

وكما يسعى الإنسان في سبيل إحياء مواهبه الفكرية ، وإدراك الحقائق العلمية ويحزق تقدماً جديداً في كل يوم ... عليه أن يسعى في سبيل تزكية؟ وتطهيرها أيضاً. يحيي بذلك إنسانيته ، ويرضي عواطفه النبيلة بالفضائل الأخلاقية. إن المجتمع الذي يقوم على العلم فقط ويكون فاقداً للفضيلة والأخلاق لا يطاق. لأنه لا يوجد في ذلك المجتمع اطمئنان وارتياح بال والناس يكونون كراكبي سفينة في وسط بحر هائج يشعرون بخطر الغرق والسقوط في كل آن. وبغض النظر عن الجانب الديني فان الفضائل الخلقية والملكات الطاهرة من الضروريات الحيوية لمجتمع سعيد فاضل.

« عن علي (عليه السلام) أنه قال : لو كنا لانرجو جنة ولا نخشى ناراً ولا ثواباً ولا عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق ، فانها مما تدل على سبيل النجاح » (2).

إن شطراً مهماً من سعادة المجتمع مرتبط بالفضائل الخلقية ، كما أن شطراً مهماً من شقاء المجتمع وفساده له ارتباط وثيق بالانحطاط الخلقي والصفات البذيئة.

ص: 175

1- راه ورسم زندكى ص 113.

2- اداب النفس للسيد محمد العيناثير ج 1 26.

يقول الامام علي (عليه السلام) : « رب عزيز أذله خلقه ، وذليل أعزه خلقه » (1).

وعن الامام الصادق (عليه السلام) أنه قال : « حسن الخلق يزيد في الرزق » (2) وعن الامام علي (عليه السلام) : « في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق ».

وعنه أيضاً : « حسن الخلق خير رفيق ».

إن من أهم الخصائص الكبرى التي يمتاز بها لأنبياء ، والتي كانت السبب المباشر في تأثيرهم في المجتمع ونفوذهم الى عقول الأفراد وأفكارهم هي ملكاتهم الطاهرة وسجاياهم العظيمة : « إن الله خص الأنبياء عليهم السلام بمكارم الأخلاق » (3). وبهذا الصدد جاء الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ذاكرا الهدف الأسمى من بعثته وظهوره بين ظهرائي المجتمع الجاهلي آنذاك قائلا : « بعثت الأتمم مكارم الاخلاق » (4).

« إن الخطأ الاجتماعية الكبيرة في عصرنا الحالي هي الاعراض عن اتباع قانون التكامل الروحي. وحصر الروح بصورة إستبدادية عنيفة بالقوى العقلانية ، وتربية القوى الفكرية فقط. ذلك أن الفكر يستطيع بمساعدة العلم أن يضمن السيطرة على جميع الأشياء لكنه تناسى النشاطات الروحية الأخرى. إن الانسان المعاصر لم يفهم بعد خطر الخروج على قانون التكامل الروحي ، ويظن أن التنمية الفكرية تعادل التربية الروحية ، ولم يعلم بعد أن الى جانب العقل توجد النشاطات المعنوية اللازمة للسير الصحيح في الحياة. إن السيطرة التدريجية للفساد وقلة الأدب والانحراف والادمان على الخمرة والكسل والحسد والحقد والتزوير والكذب والخيانة تحصل عندما يسحق قانون التكامل الروحي » (5).

« إنه خطأ فظيع إرتكبه دعاة التمدن والتجدد في إهمالهم للتكامل

ص: 176

1- سفينة البحار للمحدث القمي مادة (خلق) ص 411.

2- المصدر نفسه.

3- المصدر السابق ص 410.

4- المصدر السابق.

5- راه ورسم زندكى ص 67.

الروحي. إن العمر الروحي للأغلبية العظمى من الناس لا يتجاوز ال- 12 أو 13 عاماً» (1).

تنمية العقل والعاطفة :

يشكل العلم والأخلاق جناحين قويين للطيران الانسان إلى أوج الانسانية. إن المجتمع الذي يعمل على إحياء العقل والعاطفة معاً هو أسعد المجتمعات. فبالعلم يتقدم نحو الترقى والتكامل ، وبالعواطف والأخلاق توجد البيئة الصالحة ... البيئة التي يسودها جو من الحب والحنان والاخلاص حيث يعيش الجميع في غاية المودة والأخاء.

حيث توجد الأخلاق والعواطف ولا يوجد غلم فلا تكامل هناك ولا تقدم ، ينعدم الادراك لحقائق الحياة هناك ، الانسان يكون محروماً من الانتصارات العلمية الباهرة في تلك الصورة.

وحيث يوجد العلم ولا يوجد إيمان ولا فضائل ، وحيث يوجد العلم ولا يوجد شرف ولا تقوى ، وحيث يوجد العلم ولا يوجد أثر للفضائل الخلقية والانسانية ... هناك تظهر الأنانية والاثرة ، وهناك يسيطر الجشع والحرص على الناس ، هناك يقع الأفراد في شرك الفساد والخيانة ، هناك تجد الاعتداء والتجاوز على حقوق الآخرين ، يعكر جو الصفاء والأمن ...

إن المهندس الفني في صنع السيارة يراعي الموازنة بين قوة المحرك وقوة جهاز الإيقاف (البريك). فكلما يزداد المحرك إلى الجانب الايجابي أي الحركة ، يزداد على قدرة الايقاف وهو الجانب السلبي وذلك لكي يحمي السيارة ومسافريها في اللحظة الحرجة وعند الاشراف على السقوط ويسيطر عليها فيوقفها.

والتقدم العلمي في العالم المعاصر بمنزلة التكامل المتزايد لقوة المحرك الاجتماعي. أما الفضائل الخلقية فانها بمنزلة (البريك) الذي يحفظ الناس في ساعة الخطر من الموت والسقوط. والانسان يكون سعيداً عندما يرفع من المستوى

ص: 177

الايماي والأكلاقي في الوقت الذي يلاحظ فيه الترقيا العلمفة في العالم. وذلك لفسأأأ العلم في الطرأ المففف فقط. ومن المؤسف أن البشرفة سالكة في الاأأ المأالف لهذا الطرأ منذ مدة ... وكأنه كلما أأأأ العلم ، يأأ الايمان والأأوى في الأناقص والأألف.

إن العالم اليوم أصبح - بأفف الجانب اليماني والأألاقي فيه - أشبه بسيارة بلا (برك) أأأر في سيرها بأورة ألفة ، والناس يقضون أفا ملفة بالأضطراب والألق وهم أائفون من أن أفل بهم الأفا إلى رأس منلق يؤأف بهم إلى الهاوفا ، ففأر الرؤساء بأشغال النار وأفناأك فسأغل الأأأ العلمف للأأأط في النار والأم والأأاء على الكرة الأرضفة في بأع ساءا.

« إذا بأف الأأاء أراً أفر أابع للأأراك المأقول أو الالهام بالأفم الأألافة فذلك أمر أأر أأاً. فالأأاء لفس بأأنا إلى الماأفا فأأب ، بل بأأنا إلى البهلفة ، هذه الأسأر أأأ قبل إألاع العالم على أأأأ الأأبلة الأرفة بفأرة وأفزة ، وهذا الأأأأ يظهر معانف هذه الكلمات بأورة واضأة. فأأ أأبه الناس فأأة إلى أن أنأأاراً عملفاً عجففاً فهدأ السلام العالمف بأورة فأففة وفأأة رأأ الأول الأف نسفمفها بالمأأأنة أن أأأاًاً أألافاً فقط هو الأأار على أمافأهم أأاه هذا الأأر. الوقت ضفأ إلى أرة أنه فمكن الأأصول على النأاة المأأمل بأواسأة المأاهأا المأأوبة فقط ، ولكن الكل فعلم أن الاأأما والأأأأان إلى هذه المأاهأا لا فأأاوز أأأار الشأص الموقع علىفا إذا لم فكن هذا الشأص أمفناً ومألفصاً. أو لم فكن ممأل أمة أكسب كلامه وشرفه رصفاً مأفناً ، فلا فبأف معنف لألك الاأاففاا. أنه لأول مرة في الأرفأ البشرف فرف أن الصراع بفن الأأاء والأفم الأألافة صار موضوعاً أوففاً فأوقف علىه الأفا أو الموأ. نحن نأمل أن فسأفأ من هذه العأمة ، ولكن المؤسف أننا نشك في ذلك ... » (1).

ص: 178

لقد قامت الآيات الأولى التي نزلت لأول مرة على نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم بعثته على عمودي الايمان والعلم ، فلقد قال تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) » (1) فلقد قدم بذلك الايمان بالخالق العظيم ، ثم عقب عليه بذكر العلم : « اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » (2)

من هنا نستنتج أن العلم الذي يكون في ظل الايمان ، يكون مصوناً من كل خطر ، ويسبب سعادة البشرية. أما إذا انفصل العلم عن الايمان بالله فمن الممكن أن يعود بالأضرار الباهضة في بعض الحالات.

التربية السليمة للطفل :

إن تعهد العقل والعاطفة بالتربية والتنمية ، والذي هو أساس سعادة الانسان يجب أن يبدأ من مرحلة الطفولة. فمرحلة الطفولة أحسن مراحل تعلم الأسلوب الصحيح في الحياة. فقدرة الاقتباس والتقليد وحاسة التقبل عند الطفل شديدة ، فباستطاعته أن يتلقى جميع حركات المربي وسكناته ، وأقواله وأفعاله بدقة عجيبة أشبه بعدسة تصوير. وفي الوقت الذي يتكامل جسد الطفل وينمو يجب أن تسلك روحه في طريق التعالي والتكامل أيضاً وكما يعتنى بسلامة جسد الطفل يجب أن يعتنى بسلامة مشاعره ومعنوياته. يجب تعويد الطفل على النظافة. الأدب ، الصدق ، المسؤولية ، العطف ، حب الخير ، وعشرات الصفات الفاضلة الأخرى فمن الصعوبة بمكان تغيير سلوك الأشخاص الذين لم يتعودوا في أيام طفولتهم على السلوك التربوي الصحيح. إن أسعد الناس هم أولئك الذين نشأوا على التربية السليمة والصفات العالية منذ حداثة السن حتى أصبحت جزءاً من كيانهم ، بحيث تظهر عليهم في الكبر دون أي مانع أو تكلف أو تصنع.

وهكذا يلعب الآباء والأمهات دوراً مهماً في بناء سعادة الأطفال ويتحملون

ص: 179

1- سورة العلق 1 - 2.

2- سورة العلق 3 - 4 - 5.

مسؤولية كبيرة على عوانتهم ، وفي الواقع أن المدرسة الأولى للتربية هي حجر الأم.

« من الصعوبة لفرد بالغ أن يقلع من نفسه جذور التربية الروحية والخلقية والفكرية الفاسدة. فالعادات البذيئة لا تنقل جذورها. إن الذين تعودوا منذ الصغر على إطاعة قوانين الحياة هم وحدهم الذين يستطيعون أن يسلكوا طريقاً صحيحاً. هذا هو واجب الأبوين ، فعليهما القيام به خصوصاً في الأعوام الأولى من عمر الطفل. وإذا كانا يجهلان الأساليب الفنية التربوية - الجسدية منها والروحية - والتي تختلف بحسب العمر والجنس والبيئة ، فلا يستطيعان القيام بهذه المهمة. فالأم بصورة خاصة محتاجة إلى هذه المعلومات ولأجل أن يقع التعليم والتربية مفيدين يجب التبكير في ذلك ، أي أنه يجب الاهتمام بالجوانب الفسيولوجية للطفل فقط منذ الأسابيع الأولى للولادة ، وبعد مضي عام واحد يجب أن يبدأ بالمسائل الروحية. إن قيمة الزمن ليست واحدة للطفل ولأبويه. إن يوماً واحداً في السنة الأولى أطول بكثير من يوم واحد في السن الثلاثين. وربما تبلغ الستة أضعاف بالنسبة لأكثر الحوادث الفسيولوجية والروحية. وعليه فيجب أن لا يهمل الدور الطفولي الخصب بلا إنبات. فمن المحتمل أن تكون نتيجة تنفيذ مقررات الحياة أكثر حتمية طوال الأعوام الستة أولى من الحياة » (1).

قلب الطفل صفحة بيضاء :

يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) لولده الحسن : « إنما قلب الحدث كالأرض الخالية. ما ألقى فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشغل لبك » (2).

إن قلب الطفل صفحة بيضاء ، لا يوجد فيها فكرة صحيحة أو خاطئة. والاباء

ص: 180

1- راه ورسم زندكى ص 118.

2- نهج البلاغة ص 442.

والأمهات الشاعرون بالمسؤولية هم الذين يستغلون ذلك أقصى الاستغلال ويجعلون قلوب أطفالهم تتزين بالملكات الفاضلة والأخلاق الحميدة.

إن عواطف الطفل ومشاعره تظهر قبل عقله ، ويمكن الاستفادة من أحاسيسه قبل ذخائره العقلية بكثير. إن الأطفال في جميع أنحاء العالم يرسلون إلى المدارس بعد السنة السادسة ، ومن ذلك الحين تفتح المواهب الفكرية للطفل ، في حين أن أحاسيسه ومشاعره تبدأ بالنشاط قبل ذلك بزمن طويل.

وفي الوقت الذي لا يفهم الطفل المسائل العليمة ولا يدركها ، يدرك القضايا العاطفية وتؤثر فيه كالحدة والغلظة ، واللين والرفق ، العطف والحنان ، الاحترام وعدم الاعتناء وغير ذلك ، وبصورة موجزة فإن موضوع تنمية المشاعر والأحاسيس يشغل قسماً مهماً من المسائل التربوية. ويقع عبء المسؤولية في أداء هذا الواجب على الأبوين بالدرجة الأولى. فرياض الأطفال عاجزة عن أن تحل محل العائلة والأم في إحياء جميع مشاعر الطفل الخفية بصورة لائقة ، وهداية الطفل إلى السير الطبيعي الفطري.

لقد بحثنا في هذه المحاضرة عن العواطف بصورة موجزة ، في ذيل البحث عن العقل. ونأمل أن نفصل القول فيها في المحاضرات القادمة لنبيين أهمية تنمية المشاعر من الناحيتين العلمية والدينية.

قال الله تعالى في كتابه : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ» (1)

طول مرحلة الطفولة عند الانسان :

إن مرحلة الطفولة عند صغار الانسان أطول من جميع مراحل الطفولة عند اللبائن الأخرى. والمقصود من مرحلة الطفولة هو : الفترة التي لا يستغني فيها الطفل تماماً عن أبويه ، بل هو محتاج إليهما فيها.

هناك بعض الحيوانات التي لا تملك دوراً طفولياً أصلاً كأغلب الأسماك والحشرات. إن السمكة تضع البيض في أحضان الطبيعة ، فيتكامل البيض على أثر العوامل الطبيعية - وبقلم القضاء الإلهي - وفي اليوم الذي تخرج فيه صغار الأسماك من البيض تذهب نفسها وراء الحياة والطعام ولا تحتاج إلى رعاية الأبوين.

وهناك بعض الحيوانات التي تملك دوراً طفولياً كالسباع والطيور والدواب ، لأنها بعد الولادة حتى فترة من الزمن تحتاج في التغذية والرعاية إلى الأبوين. والبعض منها يحتاج إلى الأم فقط ، ولكنها بصورة عامة لا يتجاوز دور الطفولة عندها عن بضعة أسابيع أو أشهر فسرعان ما تنفصل عن الأبوين مستمرة في حياتها بصورة مستقلة. أما مرحلة الطفولة عند أطفال الانسان (أي أيام إحتياجهم إلى الأبوين) فهي تطول على مثيلاتها عند الحيوانات بكثير ، وتمتد إلى فترة بعيدة. إن البنيان الجسدي لصغار الحيوانات ينمو بسرعة ، وبعد فترة قصيرة تكون جاهزة للانتفاع منها في طريق الحياة ، أما النمو الجسمي لأطفال الانسان فهو يحتاج إلى

ص: 182

وقت طويل ... فيجب أن تنقضي أشهر عديدة حتى يستطيع الطفل أن يفتح أصابعه ويمسك بها شيئاً ، ويستغرق سنة واحدة حتى يكون قادراً على المشي بعد الانكباب والنهوض ، ويحتاج إلى عامين أو أكثر لكي يفتح لسانه تدريجياً للتكلم ، وتمر بعد ذلك أعوام كثيرة حتى يستطيع أن يدرك شيئاً عن العالم الخارجي بالنسبة إلى نفسه وأهله ، وأعوام أطول ضرورية له لتكسبه نوعاً من الاستقلال والشخصية كي يستطيع بهما من العيش لوحده في المجتمع.

اللبائن ترضع صغارها لعدة أسابيع أو أشهر وتلتزم برعايتها ، ثم تتركها ، لأن الصغير قد جهز في هذه الفترة القصيرة بكل متطلبات الحياة ويقدر على إرادة نفسه بنفسه.

لكن المرأة ترضع طفلها عاملين كاملين تلتزم برعايته طوال هذه المدة وتعتني بصحته ونظافته وحمايته عن الحوادث فتحافظ عليه من البرد والحر والحرق ، والغرق ، والسقوط ، وما شاكل ذلك ... وعندما تقطمه ، فليس طفلها إنساناً كاملاً بل هو طفل عاجز ، يجب أن يخضع لرعاية الأبوين وتمر عليه السنين حتى يصبح إنساناً سويّاً قادراً على الحياة المستقلة. على الرغم من أن سرعة النمو العضلي عند الحيوان وبطأه عند الانسان تعتبر من علل قصر أيام الطفولة عند الحيوان ، ولكن ما لا شك فيه أن أحد الاسباب المهمة لطول فترة الطفولة عند الانسان يرتبط بموضوع التربية والتعليم. إن صغار الحيوان تتلقى أسلوب العيش والمعلومات الحياتية عن طريق الغريزة التي هي من نعم الله عليها بصورة تلقائية ولا تحتاج في ذلك إلى تعلم أو تربية. فالحيوان يحتاج إلى أمه إياماً قليلة ليأخذ منها الغذاء المناسب وتشملها الرعاية اللازمة كي يخوض معركة الحياة بعد ذلك ... أما أطفال الانسان فانهم يجب أن يتلقوا من أمهاتهم بالاضافة إلى التغذية والصحة ، مناهج مفصلة عن الحياة. وفي الواقع أن الأطفال يتلقون من أمهاتهم غذاءين : الغذاء المادي والغذاء الروحي. إن حجر الأم مضافاً إلى قيامه بالتغذية الجسدية ، يعتبر مدرسة لتربية الطفل

وإن فترة هذه المدرسة طويلة. فما لم يتخرج الطفل من هذه المدرسة لا يزال طفلاً، وهو يحتاج إلى الأم، ولا يليق للانطلاق في الحياة.

التغذية السليمة :

كما أن جسم الطفل يحتاج إلى غذاء، فإن روحه أيضاً تحتاج إلى غذاء. إن النمو الطبيعي والاعتيادي لجسم الطفل يكون نتيجة التغذية السليمة، والنمو الكامل لروح الطفل يخضع أيضاً لأسلوب التغذية التربوية الصحيحة والتنمية النفسية السليمة. يقول القرآن الكريم : «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ».

بديهى أن الانسان يجب أن يهتم بطعامه وينظر إليه بعين القة والبصيرة والظاهر أن المراد من الطعام هنا هو المواد النباتية التي يتغذى منها الانسان بقرينة الآيات اللاحقة التي تتحدث حول نزول المطر، وإخضرار الأعشاب ونمو الأشجار المثمرة. إن التفكير في المواد الغذائية والدقائق الموجودة في عالم النبات والحيوان يدفع الانسان إلى الإيمان بالله والمعاد، كما أنها تعتبر من زاوية العلوم الطبيعية مجالاً واسعاً للبحوث العلمية والاستنتاجات المفيدة منها. لكن الامام الباقر والامام الصادق عليهما السلام يفسران الطعام في هذه الآية بالعلم :

1 - « عن أبي جعفر في قوله تعالى : (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) قال : علمه الذي يأخذه، عمن يأخذه فلينظر الانسان إلى طعامه » (1).

2 - « عن أبي عبد الله في قوله تعالى (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) قلت : ما طعامه؟ قال : علمه الذي يأخذه، عمن يأخذه » (2).

غذاء الروح :

بالاضافة إلى الحديثين السابقين نجد الأئمة عليهم السلام يعبرون في موارد أخرى عن التعاليم الروحية ب- (الغذاء) أو (الطعام) ، ويعتبرون التعلم غذاء للروح. وسيكون

ص: 184

1- تفسير البرهان ص 1173.

2- نفس المصدر ص 1173.

بحثنا معتمداً على هذين الحديتين لننطلق منهما إلى التعليم والتربية على أساس هذه التعبير ، أي باعتباره غذاء روحياً.

وعلى الرغم من أنه يمكن عقد المقارنه بين غذاء الروح والجسد من عدة جوانب والاستفادة من هذا التشبيه لأغراض مختلفة ، لكن بحثنا هذا سيدور حول نقطتين : (الأولى) نظافة الغذاء وسلامته (الثانية) كون الغذاء جامعاً ، وكاملاً. وقبل الخوض في الحديث لا بأس بتقديم مقدمة في أهمية الغذاء للجسد والروح ، ومجاري تغذية كل منهما.

يحتاج الانسان كسائر الأحياء إلى الغذاء ، فبالغذاء يستطيع أن يستمر في حياته ، وإذا لم يتناول طعاماً فانه يموت. إن جميع الشهوات والميول الانسانية التي هي مصدر النشاطات المختلفة تستيقظ بعد تناول الطعام وتدفع الانسان إلى الحركة والعمل والسعي. وفي العصور المظلمة كان بعض الناس يتوهمون أن الأنبياء لا يحتاجون إلى الطعام لمنزلتهم السامية ، ولذلك فقد جاء القرآن الكريم مفنداً هذه النظرة بصراحة : «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ» (1).

خطر الجوع :

الجوع من أخطر حالات الانسان وأدقها تأثيراً ، حتى كأن الجائع ينسى دينه وإيمانه ، ويغفل عن الحنان والعاطفة. ومن أجل أن يملأ بطنه ينقلب إلى حيوان مفترس.

لقد حدث في البصرة في القرن الثالث من الهجرة انقلاب عظيم. فقد قام (صاحب الزنج) في السنوات القليلة التي حكم فيها بأعمال إجرامية شديدة من إهراق الدماء البريئة وما شاكل ذلك حتى ذهب ضحية سيفه آلاف الرجال والنساء والأطفال. أما الذين قدر لهم أن ينجوا بأرواحهم من طغيانه فقد كانوا يقضون النهار مختفين ، ويخرجون ليلاً بقلوب مليئة بالرعب والخوف للحصول على بعض الطعام. وقد عطلت الأعمال وتركت المزارع واستولى على الناس قحط شديد ، فاضطر

ص: 185

الناس إلى أكل لحوم الكلاب والقطط وحتى أجساد الأموات فيما بعد. وكان يؤدي بهم الجوع أحياناً إلى أن يقتلوا الأشخاص المشرفين على الموت وأكل لحومهم والتاريخ يروي لنا قصه غريبة عن ذلك العصر. فقد وجدت امرأة ماسكة رأساً مذبوحاً وهي تبكي ، فسألوها عن سبب بكائها. فأجابت أن الجوع كانوا مجتمعين حول أختها لتموت فيأكلوا لحمها ، وقبل أن تموت تماماً قطعوها وتقاسموا لحمها ، ولكنهم ظلموني فلم يشركوني في لحمها بل أعطوني رأسها فقط لاطعم منه. إن هذه المرأة كانت لفرط الجوع قد نسيت عواطفها فلم تفكر في قتل أختها ولم تتأثر لذلك. بل كان بكاؤها لعدم إشراكها في لحمها (1).

وكذلك روح الانسان ، فهي حية بالغذاء الروحي ، فالانسان المحروم من التربية المعنوية والبعيد عن العلم لا يملك حياة انسانية أبداً. فهو في صورة انسان لكنه في الواقع أخطر وأوطأ من أي حيوان مفترس.

طريق تغذي الجسم :

إن جسم الانسان يشبه قلعة محكمة الأسوار ، يحيط به الجلد كجدار يقوم حولها ، والعروق التي تعتبر بمثابة الطرق الرئيسية والفرعية في هذه القلعة لا ترتبط بالمحيط الخارجي ، أما المواد التي يحتاجها فانها تدخل فيه بواسطة طريقين رئيسيين هما : الجهاز الهضمي والجهاز التنفسي. إن البدن يتصل بالبيئة الخارجية عن هذين الطريقين فهو يتلقى بهما المواد الغذائية والعناصر الضرورية للحياة ويستمر في القيام بأعماله.

ومع أن الجسم يملك قوى دفاعية منظمة ، ويخضع الطريقان الأنفا الذكر لرقابة شديدة من جميع الجوانب ، فقد يصادف دخول المواد المضرة والخطرة من هذين الطريقين إلى الجسم ، فتؤدي إلى اضطراب الصحة وإحداث الأضرار العظيمة.

« تستمد المادة الغذائية التي يحملها الدم إلى الأنسجة من ثلاثة مصادر : من الهواء الخارجي عن طريق الرئتين ، ومن سطح

ص: 186

الأمعاء ، وأخيراً من غدد الأندوكرين. وجميع المواد التي يستعملها الجسم ، فيما عدا الأوكسجين تأتي عن طريق الأمعاء سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ... ويكاد الجدار المعوي يحمي الجسم حماية تامة من غزو ذرات تخص أنسجة كائنات أخرى ، وذلك بمقاومة تسرب البروتينات الحيوانية أو النباتية إلى الدم. ومع ذلك فانه قد يسمح أحياناً لمثل هذه البروتينات بالدخول ... « (1).

طرق تغذي الروح :

إن الجهاز الروحي للانسان - بما فيه من الروح ، والنفس ، والمخ ، والعقل - ليس متصلاً مع المحيط الخارجي بصورة مباشرة. فهناك طريقان رئيسيان تربطان من الجهة المعنوية بين البيئة الخارجية والجهاز الروحي للانسان ، هما : العين والأذن. فإن القسم الأكبر من الواردات الفكرية والتغذية المعنوية عند الانسان يحصل من هذين الطريقين. وكما وجدنا إمكان مرور المواد المضرة من حدود الأمعاء وحوصلات الرئتين أحياناً بالرغم من وجود القوى الدفاعية التي تراقب الواردات الغذائية والتنفسية ، يشتد هذا الخطر بالنسبة إلى الواردات الفكرية والتربوية عن طريق العين والأذن بلا رقابة أو تمييز بين الصحيح والفساد منها ، حيث تنفذ هذه الواردات بواسطة هذين الطريقين إلى النفس وتصل إلى أعماق الفكر وتؤثر آثارها الصالحة أو الفاسدة.

سلامة الطعام ونظافته :

بعد هذه المقدمة الوجيزة ننتقل إلى صلب الموضوع فنقول : إن النقطة الأولى التي يجب أن نبحث عنها هنا هي مسألة سلامة الطعام ونظافته. إن مما لا شك فيه أن بعض النباتات وكذلك لحوم بعض الحيوانات لا تلائم البناء الانساني ، وإذا تغذى شخص منها فانها تسبب مسموميته أو حدوث أمراض أخرى له. في العصور

ص: 187

المتماذية كان الانسان - لقله الموارد الغذائيه من جهة ، وجهله بالغذاء المفيد والمضر من جهة أخرى - يأكل كل حيوان يصطاده ، ويتغذى على لحم الكلب ، والقطه ، والحوت ، والفيل ، وغيرها من الحيوانات والحشرات وحتى من لحوم الانسان واللحوم العفنة والفاسدة. ومن جراء ذلك فقد لاقى ملايين الناس حتفهم لتسمم الطعام أو أنهم فقدوا الاعتدال والسلامة في مزاجهم على الأقل. واليوم أيضاً توجد طوائف وشعوب تقتفي أثر ذلك السلوك الخاطئ ويأكلون من لحوم الحيوانات المفترسة والسباع وحتى من لحوم البشر - إذا قدر لهم ذلك - ولا يزالون يصابون بنفس العوارض والآلام.

« أثبتت البحوث الجغرافية للتغذية أن الانسان الذي يعيش في أحضان الطبيعة شأنه شأن الشعوب المتمدنة في العالم في عدم الالتزام بعقيدة معينة ، وهو يأكل أي موجود حي ، كالحية ، والحشرات ، والديدان ، واللحوم المتعفنة ، ولحم الكلب والفار وما شاكل ذلك ... هذا عندما لا يجدون لحوا أبناء جنسهم » (1).

إن إحدى الخدمات المهمة التي أسداها الأنبياء لهداية البشر هي الاهتمام بالمواد الغذائية. إن أولئك القادة الروحانيين قد قسموا الأطعمة منذ أمد بعيد إلى الخبيث والطيب ، واعتبروا بعض الحيوانات محللة الأكل وبعضها محرمة الأكل ، وأجازوا لأتباعهم أن يتغذوا مما يحل أكل لحمة ومنعواهم عن أكل ما لا يحل أكل لحمة منعاً باتاً.

الأطعمة المفيدة والمضرة :

لقد استطاع الانسان في عصرنا هذا أن يعرف - بفضل التقدم العلمي - الأطعمة المفيدة والمضرة ، إلى درجة ما. فالأمم المتمدنة تمتنع عن أكل اللحوم الفاسدة والحيوانات المريضة.

ولقد عرف العلماء المواد الغذائية والعناصر المعدنية وغير المعدنية الضرورية للانسان وتوصلوا إلى كمية المواد العضوية الموجودة في أنواع الخضراوات واللحوم

ص: 188

والزيوت الحيوانية والنباتية ، ولقد استطاعوا تعيين الكميات اللازمة من كل نوع لفرد واحد في الأعمار والحالات المختلفة في قوائم الاعاشة والتموين ، فتوصلوا مثلاً إلى بيان نوعية الغذاء اللازم لطفل في السنة الثانية ، أو صبي في العشرة ، أو عامل يبذل جهداً عضلياً ، أو أستاذاً يصرف جهداً فكرياً ، أو شيخ عجوز يقضي وقته كله في الراحة.

إن معرفة الأطعمة المفيدة والمضرة من جهة ، وازدياد إنتاج المواد الغذائية من جهة أخرى ، عاملان رئيسيان في إنهاء الاضطراب الناجم من سوء التغذية في دول العالم المتمدن. فشعوب هذه الدول ليسوا مضطرين إلى أن يأكلوا من لحوم السباع والحيوانات المفترسة والميتة واللحوم المتعفنة أو أن يملأوا بطونهم من الأطعمة المسمومة والحيوانات المريضة والملوثة.

وعلى الرغم من الخطوات الواسعة التي قطعها علماء الغرب في هذا المضمار ، فإنهم لم يتوصلوا بعد إلى معرفة جميع الجوانب المفيدة والمضرة في الأطعمة ، فهناك جوانب كثيرة لم تصل إليها يد العلم.

« وبفضل التقدم العلمي في مجال صناعة الأدوية ومعرفة الأطعمة ، ظهرت فوائد وخصائص عديدة في المواد الغذائية وازدادت أهمية الغذاء يوماً بعد يوم. وفي القرن الأخير قامت بحقوق عميقة في المواد الغذائية وحصل الباحثون على نتائج ومعلومات دقيقة وقيمة ، ولكنه يمكن القول بأنهم لم يتوصلوا بعد إلى معرفة فوائد جزء من الألف جزء بل جزء من المائة ألف جزء منها » (1).

لقد حظر الاسلام بعض الأطعمة ومنع من استعمالها قبل أربعة عشر قرناً. واليوم نجد العالم المتحضر في أوروبا وأمريكا لا يرى مانعاً من أكلها. ان الشعوب الغربية تتغذى على دم البقر والغنم ، أما في الاسلام فإن شرب الدم حرام. وكذلك يأكلون لحم الخنزير والأسماك المحرمة في الشريعة الاسلامية. والدول الأوروبية

ص: 189

والأمريكية تتناول الخمر بكل حرية ، أما في الشريعة الإسلامية فإن الخمر محرمة ... إن ما لا شك فيه أن تداول هذه الأطعمة عندهم نتيجة قصور العلم في دنيا الغرب. ولو كان العلم الحديث متوصلاً إلى معرفة جميع جوانب الفائدة والضرر في الأطعمة لما كان يبيح تناول الدم أو شرب الخمر أصلاً. وسوف لا تمضي مدة طويلة حتى يكشف العلم في تقدمه ، الحقائق العلمية المتينة التي جاءت بها التعاليم الإسلامية فيعترف حينذاك بعظمة الإسلام.

أثر الطعام في روح الانسان :

والطريف هنا أن أثر الطعام لا يقتصر على جسم الانسان منتجاً آثاره الصالحة أو الفاسدة ، بل أنه يترك من الجهة المعنوية آثاره الحسنة أو السيئة على روح الانسان ، وهذا الأمر متسالم عليه من قبل العلماء المعاصرين. وقد صرح الإسلام بذلك في تعاليمه القيمة .

إن المختبرات العلمية في العصر الحديث قادرة على فحص المواد الغذائية من حيث العناصر الطبيعية المكونة لها وخواصها الكيميائية إلى حد ما ، أما الآثار المعنوية والأخلاقية للأطعمة فإنها إما أن تكون غير قابلة للفحص المختبري أبداً ، أو أن الوسائل الحديثة لم توفق لهذا الموضوع لحد الآن على الأقل ، وعلى هذا فما أكثر الأطعمة التي تضر بسعادة الانسان من الجانب المعنوي والنفسي ، والعلم قاصر عن إدراك تلك الحقائق في العصر الحاضر.

« إن تأثير المخلوطات الكيميائية التي يحتوى عليها الطعام على النشاط الفسيولوجي والعقلي لم يعرف معرفة تامة حتى الآن ... فالرأي الطبي فيما يتعلق بهذه المسألة ليست له غير قيمة ضئيلة لأنه لم تجر تجارب ذات أمد كاف على البشر للتحقيق من تأثير طعام معين عليهم. وليس هناك شك في أن الشعور يتأثر بكمية الطعام وصفته » [\(1\)](#)

ص: 190

« نحن نعرف كيف نغذي أطفالنا كي يصبحوا رشيقي القامة وعلى جانب كبير من الجمال وتقل وفياتهم. وذلك بمعونة علم معرفة الغذاء الحديث. لكن هذا العلم لم يعلمنا كيف نوجد جهازاً عصبياً متيناً، وفكراً معتدلاً وشجاعة، وحسن خلق، ومقدرة عقلية، وكيف نحميهم من الانهيار النفسي » (1)

يقول الامام الرضا عليه السلام : « إن الله تبارك وتعالى لم يبيح أكلاً ولا شرباً إلا لما فيه من المنفعة والصالح ولم يحرم إلا لما فيه الضرر والتلف والفساد » (2). فتحریم الأشياء إذن أو إباحتها عن أساس المصالح والمفاسد لا أكثر.

شرب الدم والقساوة :

إن نظرة أئمة الاسلام إلى الأطعمة كانت تشمل جميع منافعها ومضارها الروحية والبدنية، وقد صرحوا في بعض الموارد بالمفاسد الروحية والنفسية لها عند التعرض لذكر اضرارها البدنية. وها هو كلام الامام الرضا عليه السلام في علة حرمة شرب الدم بعد ذكر الأضرار البدنية لذلك : « ويسيء الخلق، ويورث القسوة للقلب، وقلة الرأفة والرحمة، ولا يؤمن أن يقتل ولد ووالده » (3).

الخمير والاجرام :

والامام الباقر (عليه السلام) حين يتطرق لعلة حرمة الخمير يقول : « إن مدمن الخمير كعابد وثن، ويورثه الارتعاش، ويهدم مروءته، ويحمله على التحبسر على المحارم من سفك الدماء، وركوب الزنا » (4).

إن العوارض التي تصيب البدن من جراء شرب الدم يمكن قياسها أما قساوة القلب فلا يمكن فحصها في المختبرات. وكذلك أثر الكحول على الأعصاب

ص: 191

1- راه ورسم زندكى - المقدمة - ص (ب).

2- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج 3 71.

3- بحار الأنوار للمجلسي ج 14 772.

4- بحار الأنوار للمجلسي ج 14 771.

والابتلاء بالخرف فانه غير مخفي على العلماء ، ولكن لا يمكن مشاهدة المروءة والقيم الأخلاقية في المختبر.

إن التغذية تلعب دوراً أساسياً في المسائل الاجتماعية في العصر الحديث. فالمؤسسات المختصة بهذا الموضوع والمجهزة بالوسائل العلمية المختلفة تفحص جميع جوانب الغذاء ، بأن لا يكون فاسداً ، وأن يكون الباعة أو الطهارة سالمين ، وأن تكون المطاعم مطابقة للشروط الصحية من كل جانب ... وبصورة موجزة فانها تعمل جهدها مستعينة بالوسائل العلمية والقوى التنفيذية الصارمة لكي تقف أمام تلوث الغذاء وفساده. فقد يصادف سمم البعض من جزاء تناول (الدوندرمة) وحينئذ تعمل جميع المؤسسات ، والناس يعترضون ، والجرائد تتحدث حول الموضوع ، البائع يوقف ويتحقق معه : لماذا صنعت الدوندرمة من حليب فاسد وسببت تسمم مئات الأفراد!!.

وإذا لم تكن قيمة التغذية الروحية أعلى من قيمة التغذية المادية فهي ليست أقل منها. فمن الضروري أن يبذل الاهتمام للغذاء الروحي بنفس النسبة من الاهتمام بالغذاء المادي ، والذي يرغب في أن يكون سعيداً يجب عليه أن يلتفت إلى سلامة غذائه الروحي كالتفاتته إلى سلامة غذائه المادي. إن خطر التسمم الروحي أشد بكثير من خطر تسمم الجسم ، فإذا تسمم ألف شخص في مدينة من جراء تناول طعام فاسد ولم تنجح علاجات الأطباء معهم وماتوا جميعاً فقد مات من تلك المدينة ألف شخص فقط. أما إذا أصيب ألف فرد في تلك المدينة بالتسمم الفكري والروحي فمن المحتمل أن يتسبب هؤلاء في تسمم أهل المدينة كلهم ، وقد يؤدي وجود ألف فرد منحرف في دولة إلى انهيار تلك الدولة بأجمعها.

من السهل إعادة الصحة والسلامة لمن أصيب بالتسمم الناشئ من تناول طعام فاسد بالعناية الصحية الدقيقة ، أما الفكر المسموم والمشبع بالأفكار الخاطئة والمنحرفة بإعادة السلامة إليه من الأمور الصعبة جداً. إن خطر إناء من الدوندرمة الفاسدة في محل أقل بكثير من خطر فيلم مسموم وهدام. وحين يقدم أبو الأسرة على شراء طعام لأطفاله يحاول التأكد من سلامة ذلك الطعام ، أما حين يقدم على شراء كتاب أو مجلة ليضعها في متناول أيدي أطفاله فهو لا ينتبه إلى أن هذه المجلة

إنما هي غذاء أرواحهم فإن كان فاسداً أصيبت الأسرة بأجمعها بذلك التسمم الفكري.

« عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال : ما لي أرى الناس إذا قرب إليهم الطعام ليلاً تكلفوا إنارة المصابيح ليصروا ما يدخلون بطونهم ، ولا يهتمون بغذاء النفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم ، ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب في اعتقادهم وأعمالهم » (1).

« قال الحسن بن علي (عليه السلام) : عجت لمن يتفكر في مأكوله ، كيف لا يتفكر في معقوله ، فيجنب بطنه ما يؤذيه ن ويردع صدره ما يرديه » (2).

إن الذي يهتم بصحته لا- يتناول طعاماً من يد شخص مصاب بالسل أو الجدري لأنه لا يطمئن إلى سلامة الطعام ونظافته. هناك أفراد مصابون بالأ-مراض الروحية والخلقية ولذلك فإن أقوالهم وكتاباتهم التي تعبر بمثابة غذاء روحي للناس ليست مأمونة ، وذلك لأن من الممكن أن يلوث فساد الفكر ألسنتهم وأقلامهم أيضاً ويؤدي ذلك إلى انتشار الانحراف والفساد في المجتمع. إلى هذا يشير الامام الباقر والامام الصادق (عليه السلام) في تفسير الآية موضوع البحث : « فلينظر الانسان إلى طعامه ، قال : علمه الذي يأخذه عن يأخذه » فعلى الانسان أن ينتبه إلى علمه الذي هو غذاء روحه عن يأخذه. فإن كان المعلم منحرفاً وفاسداً فلا يمكن الاطمئنان إلى سلامة أقواله وتعاليمه.

أهمية التغذية في الطفل :

على الرغم من أن الاهتمام بسلامة الغذاء - بنوعيه - ضروري في جميع مراحل حياة ويجب أن يخضع لرقابة شديدة دائماً ، لكن ما لا شك فيه أن سلامة التغذية الروحية والمادية بالنسبة إلى الطفل أهم منها بالنسبة إلى الشاب أو الشيخ ، لأن

ص: 193

1- سفينة البحار للقمي ص 84 - مادة طعم.

2- نفس المصدر ، والصفحة.

مرحلة الطفولة هي المتعهدة ببناء كيان الطفل روحياً وجسدياً ، وإن حطة واحدة يمكن أن تؤدي إلى انحراف الطفل عن طريق السعادة وبقاء آثارها السيئة طوال أيام حياته ... ذلك أن اللبنة الأولى في بناء البيت إذا وضعت بصورة منحرفة إستمر البناء في انحرافه مهما علا في السماء.

« إن كثيراً من الأفراد بالرغم من أنهم يملكون أسساً وراثية جيدة يعجزون عن إدارة حياتهم بسبب العيوب المكتسبة التي لا يقل تأثيرها من العيوب الموروثة ».

« يحتمل أن يكون 25% من حالات البلاء نتيجة الاختلالات الحادثة على نمو المخ طوال الحياة الجنينية أو عند الولادة ، أو في المرحلة الأولى من حياة الطفل. إن اتزان الجهاز العصبي وسلامة التفكير يرتبطان إلى حد بعيد بتركيب المواد الغذائية في مراحل تكون المخ والنتوءات العصبية. من البديهي أن الجهاز العصبي والبنيان العام وشعور الأطفال الذين تغذوا من القهوة والخبز الأبيض والسكريات ، والكحول أحياناً ... يكون مصاباً وغير سليم » (1)

« لقد علمنا علم التغذية الحديث : أن التغذية الفاسدة يمكن أن تؤثر في الطفل ، فتوجد فيه نقائص بدنية وروحية غير قابلة للعلاج » (2).

يمتاز المتقدمون في السن عن الأطفال في أنهم بفضل وجود العقل

يملكون قوة دفاعية ، فمن الممكن أن يقيسوا الأشياء التي يسمعونها أو يقرأونها في الكتب بعقولهم ، فإن لم تكن صحيحة رفضوها ... وبعبارة أخرى يستطيعون طرد الغذاء العقلي الفاسد من المخ ويمتنعون عن هضمه. أما الطفل فلضعف إدراكه لا يملك قوة دفاعية تجاه المستوردات الفكرية الفاسدة ، فهو يتقبل كل كلام فارغ ، وكل عقيدة باطلة ، وكل أسطورة مسمومة ، وكل قول هدام ... ويثبت ذلك في تفكيره وتستمر آثاره الفاسدة إلى مدى الحياة.

ص: 194

1- راه ورسم زندكى ص 158.

2- المصدر السابق ص 74.

كثيراً ما تتأثر نفوس الأطفال بالايحاءات الجاهلة التي تصدر من الأبوين تجاه الطفل فينشأون ضعفاء جبناء ، أو كذابين خونة. إن للاعتقاد بنجوسة العدد (13) والتشاؤم من صوت البوم وما شاكل ذلك أصولاً ثابتة في أفكار بعض الناس ، وقد تظهر أحياناً بصورة عقدة نفسية تجعل الحياة جحيماً لا يطاق. أكثر هذه الأفكار الخاطئة يرجع إلى أيام الطفولة ومنشؤها التربية الفاسدة والتغذية الروحية المنحرفة.

يقول المسيح (عليه السلام) في هذا الصدد : « بحق أقول لكم : إنه كما ينظر المريض إلى طيب الطعام فلا يلتذ به مع ما يجده من شدة الراجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبارة ، ولا يجد حلاوتها مع ما يجد من حب المال » (1).

فالأطفال الناشئون على الأساليب التربوية الفاسدة لا يلتذون بحلاوة الفضلية التي هي الطعام اللذيذ لروح الانسان ، ذلك أن أرواحهم مريضة والمريض لا يلتذ بالطعام اللذيذ.

إلى هنا نكون قد انتهينا من النقطة الأولى في الموضوع ، وهي البحث عن سلامة الغذاء ونظافته بكلا نوعيه. والآن لننتقل إلى النقطة الثانية في البحث ، وهي : الغذاء الكامل. الغذاء الكامل .

الغذاء يجب أن يكون جامعاً وكاملاً ، فالبحوث العلمية الحديثة لفتت أنظار الناس إلى هذه النقطة وهي أن البدن يحتاج لاستمرار حياته إلى المواد الغذائية المتنوعة. فلا يكفي نوع واحد أو نوعان لحفظ حياة الانسان وسلامته. فاللحم وحده أو المواد الدهنية وحدها ، أو المواد السكرية فقط لا تشكل غذاء كاملاً. إن نقصان المواد الغذائية يؤدي إلى عوارض ومختلفة كان يجهلها الانسان فيما مضى ، فإن جانباً كبيراً من الأمراض والوفيات التي كانت تحدث في الماضي كان سببه نقصان المواد الغذائية الضرورية.

ص: 195

لقد أُلّف العلماء في موضوع الغذاء وتركيباته المختلفة كتباً عديدة وجرت بحوث دقيقة حوله في نقاط مختلفة من العالم. وهنا لا بأس من اقتباس بعض العبارات من تلك الكتب لزيادة الاطلاع.

« هناك ترابط وثيق بين النشاط الخلقي والفكري والغدي فان المواد التي تفرزها الغدد الواقعة فوق الكلية والتي تصنع (الهيبوفيزوثيروكسيد) هي التي أعدت دماغ باستور للاكتشافات التي تعتبر فاتحة للعصر الحديث في تاريخ البشرية. إن الذكاء وصلابة الايمان التي تجعل الانسان يتحمل المشاق العظيمة التي تعترض طريقه ، وفي نفس الوقت ناتجة من الغدد الداخلية ، وعدد الخلايا المخية ... إن أبسط تغيير في مقدار الحديد والكالسيوم والفلزات من الدم يؤدي إلى فقدان الاتزان العضوي والنفسي عند الانسان » (1).

« إن الاختلالات التي توجد طوال مرحلة الطفولة أو الشباب في بناء الغدد الداخلية والجهاز العصبي ، تنعكس على الشعور دائماً. فانعدام اليود في المناطق المسكونة من مرتفعات الألب وهمالايا يوقف نمو غدة الثايروكسيد ويصاب الأطفال بالبلادة الثايروكسيدية » (2).

« يلاحظ انتشار إنحناء العظام عند أطفال الفقراء خصوصاً في المدن الكبيرة ، ويظهر ذلك بتكلس عظام البدن وعدم انتظام ونزاعة الأسنان. وهذا المرض إنما هو نتيجة عدم كفاية الفيتامين D وعدم التوازن بين الكالسيوم والفسفور في البدن » (3)

« إن خروج العينين من الحديقة مرض يمكن أن يؤدي إلى العمى ،

ص: 196

1- راه ورسم زندكى ص 167.

2- راه ورسم زندكى ص 158.

3- جه ميدانيم؟ تغذيه انسان 24.

وسبب ذلك نقصان الفيتامين A في الطعام (المادة الصفراء التي توجد في الجزر والخضروات تتحول في البدن إلى فيتامين 1) « (A).
« أحياناً يكون فقر الدم مرتبطاً بالغذاء ، إن عدم كفاية الحديد في الكريات يؤدي إلى نقصان المادة الملونة التنفسية في الدم أي الهيموغلوبين » (2).

« وربما كان بطء نمو الأطفال والمراهقين وانحراف مزاج البالغين ناشئاً من قلة الحوامض العضوية في البدن » (3).

التغذية السليمة :

تشكل الروايات المتعلقة بالأطعمة والأشربة وإرشاد الناس إلى التغذية السليمة ، جانباً واسعاً من التعاليم الإسلامية العظيمة ، فهناك نصوص كثيرة حول اللحوم المفيدة والمضرة والتوازن في استعمالها ، وكذلك الدهون والسكريات والفواكه والحبوب والخضروات.

إن الحقائق التي توصل إليها علماء البشر عن طريق التجارب العلمية في هذا المضمار ، سبقهم إلى كشفها أئمة الاسلام عن طريق الوحي والالهام ولقد طبقوها على أنفسهم وأرشدوا أتباعهم إلى العمل بها أيضاً وهنا نشير إلى زاويتين منها فقط على سبيل المثال.

أ - نخالة :

« تشكل نخالة الغلات كالقمح والشعير والرز وما شاكل ذلك مصدراً مهماً من مصادر الفيتامين 4) « (B).

« يظهر مرض الكساح مصحوباً باختلالات العصبية والمعدية

ص: 197

1- نفس المصدر ، والصفحة.

2- المصدر نفسه ص 25.

3- نفس المصدر ، والصفحة.

4- إعجاز خوراكيها ص 95.

والقلبية ، ويمكن أن يؤدي إلى الموت. لقد أثبت العالمان (ايكمان) و(كريتس) أن هذا المرض يحدث من فقدان نوع من الفيتامين BI في الطعام. إن حبة الرز الكاملة (مع القشرة) واجدة للفيتامين B1. لكن الحبة المهبوشة لا تحتوي على هذا الفيتامين « (1).

والآن لننتقل إلى سيرة أئمتنا عليهم السلام في الأطعمة ، وبالنسبة إلى النخالة بالخصوص :

« يقول سويد بن غفلة : دخلت على الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) يوماً وقد حان وقت تناول الغذاء فرأيت جالساً على جانب مائدة ، وفي ده رغيف أرى قشار الشعير في وجهه ، فذهبت إلى خادمته وقلت لها : يا فضة ألا تتقين الله في هذا الشيخ؟! ألا تنخلون له طعاماً مما أرى فيه من النخالة؟ فقالت : قد تقدم إلينا أن لا ننخل له طعاماً ... فرجع سويد إلى الإمام ثانية وذكر قصته مع فضة ، فتبين أن الإمام عليه السلام قد تعلم هذا الأسلوب من النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) ... ثم تذكر عظمة النبي قائلاً : بأبي وأمي من لم ينخل له طعام « (2). وها هو الإمام الصادق (عليه السلام) يتحدث عن طعام سليمان فيقول : « ويأكل هو الشعير غير منخول » (3).

ب - الخضروات :

« كان البحارة والمكتشفون والجنود المرابطون في الأماكن القاحلة يصابون - لعدم وجود الفيتامين C في طعامهم - بمرض خطير يسمى ب- (رقة الدم). إن حالة المصاب مؤلمة جداً ، فالدم يجري من لثته ، وأسنانه تسقط ، يجري الدم من مؤخره ، تلتهب رتته ، تنفك عظامه ويصاب بالإغماء الشديد والإعياء المذهل ، ويموت بعد شهرين أو ثلاثة من معاناة الآلام الشديدة. إن الخضروات الطرية تعالج هذا المرض أو تمنع ظهوره. إن كيفية هذه المسألة قد

ص: 198

1- جه ميدانيم؟ تغذية إنسان ص 23.

2- بحار الأنوار للمجلسي ج 9 ص 501.

3- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج 3 ص 103.

اتضح بفضل الاكتشافات الجديدة نسبياً في موضوع الفيتامينات « (1).

وإذا ما تصفحنا سيرة أئمتنا عليهم السلام بهذا الصدد ، نجد التأكيد الشديد على استعمال الخضروات مع الطعام. « عن أحمد بن هارون ، قال : دخلت على الرضا (عليه السلام) فدعا بالمائدة ، فلم يكن عليها بقل ، فأمسك يده ثم قال : يا غلام أما علمت أنني لا آكل على مائدة ليس عليها خضراء؟ فأت بها ، قال : فذهب وأتى بالبقل ، فمد يده فأكل وأكلت معه « (2).

فهنا نجد الامام الرضا (عليه السلام) يتمتع عن أن يمد يده إلى مائدة ليس فيها شيء من الخضروات حتى تخضر له.

« إن جميع الأمراض ترتبط بسوء التغذية إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، وإن علاج جميع الأمراض متوفر في المواد الغذائية. إن الغذاء الجيد لا يقتصر أثره على إشباع الانسان ووقايته من أشد الأمراض فقط ، بل يمنحه عمراً طويلاً ، ويجعله وسيماً ورشيقاً ، وينشط دماغه ويقوي مواهبه « (3).

العلاج بالغذاء :

تعالج بعض الأمراض في العصر الحديث بواسطة الغذاء ، وبذلك تعود للأفراد قوتهم وصحتهم ، وعن طريق الغذاء الكامل المناسب نجد أنهم يحولون الوجوه الشاحبة إلى وجوه نضرة ، والعيون الغائرة إلى براق ، ولد راعى الاسلام في العصور الماضية هذه النكتة تماماً. فمن بين الروايات العديدة التي وردت في موضوع الأطعمة على اختلاف أنواعها نجد الرسول الأعظم والأئمة الكرام (عليه السلام) قد عالجوا المرضى والعجزة بالارشادات الغذائية ، وتجاوزوا ذلك إلى إرشادات حول تقوية

ص: 199

1- جه ميدانيم؟ تغذية إنسان ص 22.

2- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 90.

3- إعجاز خوراكيها لغيث الدين الجزائري ص 14.

الذكاء والحافطة عن طريق بعض الأطعمة. إن العسل من الأطعمة اللذيذة ، ولقد تحدث القرآن عنه : «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ» (1).

إن العالم الحديث يمتنع - قدر المستطاع - عن استعمال الواء. ذلك أن الدواء في نفس الوقت الذي يقع مفيداً من جهة يكون مضرًا من جهة أخرى ... يقول الامام الرضا (عليه السلام) بهذا الصدد : « ليس من دواء إلا ويهيج داء » (2). فأحسن طرق العلاج وآمنها ، هو الاستفادة من المواد الغذائية المختلفة التي أودعها الخالق العظيم بين أحضان الطبيعة لفائدة البشر.

« الكل يعلمون أن العامل الوحيد في انتشار الأمراض التي تنتقل بالعدوى موجودات صغيرة جداً تسمى ب- (الميكروبات). وبعد أن اكتشف باستور وجود هذه الميكروبات ، تصور الناس جميعاً أنهم يستطيعون اقتلاع جذور الأمراض بمقاومة انتشار الميكروبات ، ولذلك فقد انتشر في أنحاء أوروبا طريقة شرب الماء المغلي والأطعمة المطبوخة تماماً ».

« كان الجميع يتوقعون هبوط نسبة الوفيات والاصابات بالأمراض يوماً بعد يوم ، ولكن المؤسف أنه لم يتوقف فشل هذا التوقع عند عدم إنتاج هذه الطريقة في تقليل الاصابات ، بل إن أكثر من نصف سكان أوروبا - والأشخاص الواعون منهم بالخصوص ، الذين كانوا مراقبين أكثر من غيرهم وكانوا يخافون من الميكروبات ويطيعون أوامر الأطباء بصورة عمياء - قد أصيبوا بأمراض عديدة. وبديهي أن أمراض هؤلاء لم تكن من نوع الأمراض المعدية التي تنتقل بالجراثيم ، بل كانت نتيجة الفرار من الأطعمة النيئة ، وغلي الأطعمة التي تموت فيتاميناتها بالغليان » (3).

ص: 200

1- سورة النحل 69.

2- روضة الكافي ص 273.

3- إعجاز خوراكيها ص 25.

يستنتج مما مر : أن سلامة الانسان منوط بالتغذية الصحيحة والكاملة. إن الطعام يجب أن يكون حاوياً لجميع المواد اللازمة التي تحتاجها الأقسام المختلفة من الجسم. إن الاستفادة السليمة من النعم الالهية والانتفاع الجامع والمعتدل من الأطعمة المطبوخة والنية ، من اللحوم المحللة والمواد الدهنية والسكرية والفواكه والخضروات كفيل يجعل الانسان قوياً وسليماً طيلة عمره.

وكذلك سلامة الروح وسعادتها. فهي منوطة بالتغذية الروحية الكاملة والسليمة. فالذين يريدون أن يحصلوا على روح سليمة ونفس طاهرة وقوية يجب عليهم الاهتمام بجميع ميولهم الروحية وعواطفهم المعنوية وإشباعها عن طريق التغذية الكاملة.

إنه يجب البحث عن الغذاء الروحي الكامل في مجموعة الايمان والعلم والفكر والأخلاق والعواطف الانسانية وغير ذلك من المزايا الروحية.

إن من الأطعمة الضرورية والمفيدة للبدن ، اللحوم على اختلاف أنواعها (من لحوم الطيور والأنعام والأسماك). وتبعاً للتعاليم الدينية والعلمية يجب على الانسان أن يستفيد لحفظ حياته وسلامته من هذه المادة الحياتية المهمة ، ولكننا على يقيم من أن الحم وحده لا يكون غذاء كاملاً ، ولا يستطيع أن يحفظ للانسان حياته وصحته إلى الأبد.

والفروع العلمية المختلفة من طبيعية ورياضية وأدبية تشبه أنواع اللحوم الضرورية ، ولكن لا تشكل هذه العلوم وحدها غذاء روحياً كاملاً للانسان ولا تستطيع أن تحفظ للروح الانسانية حياتها وسلامتها إلى الأبد.

وما أكثر البحارة الذين كانوا يملكون في بواجرهم المقادير الكافية من اللحوم والمواد الدهنية والسكرية ، ولكن حيث أنهم كانوا فاقدين للخضروات ، فقد خلت أطعمتهم من الفيتامين C ، فأصيبوا بنزف اللثة والمخرج والتهاب الرئة ، وماتوا أخيراً بأفزع صورة وأشد الآلام ، وكذلك ما أكثر الأشخاص المطلعين على المقدار الكافي من مسائل العلوم الطبيعية والرياضية ، ولكنهم عند هجوم المصائب عليهم ، أصيبوا بالأمراض النفسية أو الروحية أو أقدموا على الانتحار لعدم وجود الرصيد الايماني والأخلاقي عندهم.

إن إصابة أولئك وموتهم كان لنقص المواد الغذائية البدنية ، وإصابة هؤلاء وانتحارهم لنقص المواد الغذائية الروحية ، ونتيجة كل منهما الشقاء والموت. فكما أن غذاء الجسد يتشكل من مجموعة من العناصر المختلفة : الدسم ، السكر ، الفسفور ، الكالسيوم ، الحديد ، اليود ، الفيتامين ، ونظائرها ، وأن فقدان أي عنصر منها يؤدي إلى عوارض خاصة كذلك غذاء الروح يتشكل من مجموعة من الثروات المختلفة : العلم ، الإيمان ، العفة ، الأمانة ، الشجاعة ، التقوى ، وأمثالها. وإن فقدان أي واحد منها يتضمن عواقب وخيمة.

« وبصورة كلية فإن نظام التغذية الفاسدة عبارة عن فقدان بعض العناصر وعدم تعادلها ، من دون أن تظهر علائم بعضها في مقابل البعض الآخر. فحينذاك يصبح الجسم ضعيفاً ومستعداً لتقبل الأمراض المختلفة. وكما تقول (مدام راندوان) فإنه يمكن الوصول إلى الأسباب الرئيسية لبعض الأمراض القاضية كالسل والسكر والسرطان في سلسلة من الأخطاء التي ترتكب بالنسبة إلى كيفية صنع الأطعمة طيلة أجيال عديدة. أن الجسم يستطيع أن يعيش مع وجود التغذية الناقصة وغير المتعادلة لفترة ما ، ولكن سرعان ما تظهر الاختلالات وحينذاك فالألم يكون شديداً جداً. وقد يؤدي ذلك إلى انهيار الصحة تماماً. إذا ظهر مرض سار فإننا نقاوم الجراثيم الناقلة لذلك المرض ونكافحها ، ولكننا لكشف العلة الأصلية في نشوء ألم ما نحتاج إلى دقة شديدة ، وعلى أي حال فإن تشخيص المرض أصعب من إزالته بكثير » (1).

الروح الضعيفة :

لقد وجدنا أن الجسم يستطيع أن يعيش مع التغذية الناقصة ، وينمو قليلاً. ولكن عندما يصاب بمرض سار فلا يستطيع مكافحته إذ يواجه اختلالات عديدة ، فالآلام الشديدة تقض عليه مضجعه وقد تؤدي به إلى الموت.

ص: 202

وكذلك الروح فانها تستطيع أن تستمر على الحياة مع التغذية الروحية الناقصة ، ويكون الفرد حينذاك فرداً اعتيادياً في المجتمع ظاهراً ولكن في المواقف الحرجة ، وأمام الحوادث المؤلمة ، لا يملك قدرة المقاومة وأخيراً يفشل في المعركة وينسحب بعد أن فقد شخصيته.

قد نجد شاباً مؤدباً ، وقرأً ، يبدو اعتيادياً جداً ، ولا يشاهد منه أي انحراف ، يقضي الأيام في الذهاب إلى الثانوية ، وحين يحين موعد الامتحان يستعد لذلك ، ويجب على الأسئلة ، ولكنه يرسب في ثلاثة دروس فيتألم لهذه الحادثة كثيراً ، ولا ينام ليله ، تسوء أخلاقه ويتشاءم من النظر إلى أي انسان في الحياة ... وبدلاً من أن يتصرف بتعقل ويصمم على أن يجتهد أكثر ويعد نفسه لامتحانات السنة القادمة ، يختلي بنفسه وينهي حياته بتناول شيء من السم ...

هذا الشاب لا بد وأن تكون تغذيته الروحية ناقصة ، فلم يعلم في طفولته على التحمل والصلابة والصبر ، فسقطه أحدث اختلالات كبيرة في فكره وقضى عليه أخيراً.

وكما يعجز الجسم الذي نشأ على التغذية الناقصة من مكافحة الأمراض السارية ، تعجز الروح التي تربت على التغذية الروحية الناقصة عن مجابهة الحوادث المؤلمة في الحياة.

إن من يصل إلى منزلة اجتماعية لائقة ولا يقدر على أن يتمالك على نفسه من الظلم والتعدي ، ومن يخسر شخصيته في مقابل الرشوة ويحكم على خلاف الحق والانصاف ، ومن يسحق جميع مظاهر الشرف والأخلاق في سبيل إرضاء ميوله الجنسية ، ومن يؤدي به الغنى والثروة إلى التكبر والأنانية ... وبصورة موجزة : من ينحرف عن طريق الفضيلة والأخلاق في مقابل عامل روحي واحد ... فذلك لأن روحه قد نشأت على التغذية الناقصة ولم تتغذ من جميع المواد الغذائية الروحية بصورة كاملة وسليمة.

قابلية المقاومة :

قابلية مقاومة الجسم تظهر في هجوم الأمراض السارية ، وقابلية مقاومة الروح تظهر في الحوادث والمصائب التي تلاقي البشر في مختلف مراحل حياتهم. يقول

« ... بينما المنصور بن أبي عامر في بعض غزواته إذ وقف على نشز من الأرض مرتفع ، فرأى جيوش المسلمين من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله قد ملأوا السهل والجبل. فالتفت إلى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجعي ، فقال له : كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال : أرى جمعاً كثيراً وجيشاً واسعاً كبيراً ، فقال له المنصور : ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبرائة؟ فسكت ابن المضجعي فقال له المنصور : ما سكوتك أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال : لا ، فتعجب المنصور. ثم قال : فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال : لا. فحنق المنصور ثم قال : أففيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال : لا ، قال : أففيهم خمسون رجلاً؟ م الأبطال؟ قال : لا- ، فسبه المنصور وأغلظ عليه وأمر به ، فأخرج على أسوأ حل. فلما توسطوا بلاد الروم اجتمعت الروم وتصادف الجمعان. فبرز عالج من الروم بين الصنفين شاكي السلاح وجعل يكر ويفر ويقول : هل من مبارز؟! فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة ، فقتله العالج. ففرج المشركون وصالحوا واضطراب المسلمون لها. ثم جعل العالج يموج بين الصنفين وينادي : هل من مبارز؟! إثنين لواحد. فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العالج ، وجعل يكر ويحمل وينادي ويقول : هل من مبارز؟! ثلاثة لواحد!! فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العالج ، فصاح المشركون وذلل المسلمون وكادت أن تكون كسرة فليل للمنصور : ما لها إلا ابن المضجعي. فبعث إليه فحضر فقال له المنصور : ألا ترى ما صنع هذا العالج الكلب منذ هذا اليوم فقال : لقد رأيته فما الذي تريد؟ قال : أن تكفي المسلمين شره. قال : الآن يكفي المسلمون شره إن شاء الله تعالى. ثم قصد إلى رجال يعرفهم. فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهرت أوراكاها هزلاً وهو حامل قرية ماء بين يديه على الفرس والرجل في حليته ونفسه غير متصنع فقال له ابن

المضجعي : ألا ترى ما يصنع هذا العليج منذ اليوم. قال : قد رأيته فما الذي تريد؟ ... أن تكفي المسلمين شره؟ قال : حباً وكرامة. ثم إنه وضع القربة بالأرض وبرز إليه غير مكترث به فتجاولا ساعة فلم يرى الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض ولا يدرون ما هناك ، وإذا برأس العليج يلعب بها في يده. ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور فقال له ابن المضجعي : عن هؤلاء الرجال أخبرتك ... ثم رد إلى ابن المضجعي منزلته وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين « (1) والخلاصة : إن كلاً من الروح والجسد يحتاج في تأمين سعادته ووصوله إلى كماله اللائق به إلى الغذاء الكامل والجامع. وإن فقدان أي عنصر من الغذاء يهيئ تربة مساعدة للانحراف أو الضعف في الروح والجسد.

النمو السريع للطفل :

وبالرغم من ضرورة المراقبة الغذائية اللازمة في جميع مراحل الحياة ، لكن مرحلة الطفولة تحتاج إلى مراقبة أشد ، ذلك أن الطفل ينمو في الأعوام الأولى من حياته بصورة أسرع ، ويتكامل بناؤه الفكري أكثر سرعة.

« إن الجزء الوحيد من البدن الذي يستثنى من قانون التكاثر بالانقسام هو الجهاز العصبي أي المخ وشبكة الأعصاب ، ذلك أن الوليد يأتي إلى الحياة مع الخلايا العصبية الكاملة ، ولا يصنع الجهاز طيلة أيام حياته حتى خلية مخية أو عصبية واحدة. ولذلك فإن انعدام هذه الخلايا نتيجة لصدمة أو مرض لا يمكن أن يجبر. ومع هذا كله فإن المخ ينمو على الرغم من ثبات عدد خلاياه وهذا النمو يحصل في الأعوام الثلاثة الأولى بسرعة عجيبة بحيث يمكن إرجاع 95% من نمو الدماغ عند الإنسان إلى تلك الأعوام الثلاثة » (2)

ص: 205

1- المستطرف من كل فن مستظرف للابشيهي ج 1 218.

2- هورمونها ص 11.

إن عبء مسؤولية الوالدين في هذه المراحل ثقيل جداً. فإن الغفلة عن سلامة الغذاء المادي والروحي للطفل وكمالها تؤدي إلى عوارض غير قابلة للتدارك. فالطفل يكتمل بناؤه في الأعوام الأولى من حياته ، ولا بد من الاعتناء بجميع جوانبه المادية والمعنوية. إن نقص التغذية الروحية أو الجسدية في هذه الأيام تتضمن نتائج وخيمة ، إن خطأ صغيرة يمكن أن تؤدي إلى مشكلة عظيمة يستمر الطفل ين منها إلى نهاية عمره.

« قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : ألا- كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. فالأ-مير على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع عن أهل بيته وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على أهل بيت بعلمها وولده وهي مسؤولة عنهم. ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » (1)

فعلى الوالدين المسلمين أن يتنبها إلى المسؤولية الدينية العظيمة عليهما في تربية أطفالها. وليعلما أن الأطفال ودائع الله في أيديهما فالوالدان اللذان يؤديان واجبهما الديني في تربية الأولاد بصورة صحيحة يكونان قد أديا الأمانة أداء كاملاً ، ويستحقان الأجر والثواب عند الله على ذلك. أما الوالدان اللذان يتخلفان عن ذلك فهما خائنات ... لأنفسهما ولأطفالهما ، وللمجتمع الذي يعيشون فيه ، وهما يستحقان العقاب والحساب العسير أمام الله تعالى.

ليست المسؤولية العظمى للآباء في أن يجمعوا في حياتهم ثروة ضخمة ويورثوها إلى أولادهم. ذلك أن الولد إذا لم يحصل على تربية صحيحة فإن الثروة تبعثه على الفساد والشقاء. إن مسؤولية الوالد تعني أن يربي ابنه على الملكات الفاضلة والقيم العليا والإيمان الصحيح وإعداد له لخوض معركة الحياة بطهارة ونبل ... وولد كهذا يستطيع أن يحيا حياة عزيزة وسعيدة وفي نفس الوقت يستطيع أن يكتسب ثروة كبيرة عن طريق مشروع.

ص: 206

يقول الامام علي (عليه السلام) : « خير ما ورث الآباء الابناء الأدب » (1).

ونعمة كبيرة يمتاز بها الأولاد الذين تحدرُوا عن آباء مؤمنين قاموا بتربيتهم تربية صحيحة ومن نتائج تلك التربية أنهم يعيشون حياة مطمئنة محبوبون لدى الجميع ... إنهم يجب أن يشكروا الله تعالى على تلك النعمة ويترحموا على والديهم ، ويحافظوا على الملكات الفاضلة التي تربوا عليها ، فلا يفقدوها بمعاشرة الفساد ومجالسة الأشرار.

أما الأولاد الذين لم يتلقوا تربية صحيحة من آبائهم ، فان عليهم أن يبادروا إلى إصلاح أنفسهم ، ليكونوا واثقين من أنهم قادرون على تدارك تقصير والديهم بحقهم إذا تمسكوا بالأساليب العليمة والدينية الصحيحة ، وبذلك يستطيعون أن يسلكوا الطريق إلى السعادة والطهارة والعفة.

ص: 207

1- غرر الحكم ودرر الكلم ص 173 طبعة دار الثقافة.

قال الله تعالى : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) ... » (1)

تكون الميول المودعة في باطن الانسان رصيد سعادته وأساس تقدمه ... فإن كل تلك الميول والمتطلبات قد أوجدت حسب نظام دقيق ، وبمقادير صحيحة : «وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» (2).

والسعيد هو الذي يتبع قوانين الخلقة المتقنة ، ويستجيب لجميع ميوله الروحية والجسدية باتزان وتعقل . فمن يفرط في الاستجابة لنداء أحد ميوله أكثر من الحد اللازم ، أو على العكس من ذلك يكبت في نفسه بعض ميوله الطبيعية ولا يفسح المجال لاروائها يكون خارجاً على المنهج الفطري ومصاباً بالانحراف والشقاء بنفس النسبة.

ميول الروح والجسد :

إن الميول والرغبات الموجودة عند الانسان تكون تارة : واضحة وظاهرة ويسعى جميع الناس في سبيل إرضائها ... فمثلاً ليست حاجة الانسان إلى الطعام والهواء والماء والنوم ، والميل الطبيعي للعب عند الأطفال والغريزة الجنسية عند الشبان والشابات أمراً خافياً على أحد. هذا النوع من الميول يدركها جميع الناس ... وبديهي أن مدى الاستجابة لهذه الميول يرتبط بالارشادات الدينية والعلمية ، ولكن توجد في الانسان ميول أخرى تكون مستترة وغير ظاهرة وحيث أنها كذلك فقلما يلتفت إليها. إن جميع الناس يعلمون أن الطفل يحتاج إلى الماء والغذاء ، ولكن

ص: 208

1- سورة نوح 13 - 14.

2- سورة الرعد 8.

القليل منهم يدرك ضرورة تنمية شخصية الطفل. إن الوالدين يدركان حاجة الطفل إلى اللعب والنوم ، ولكن قلما يدرك الوالدان حاجة الطفل إلى العطف والحنان إلى درجة ما أيضاً. إن أولياء الأطفال يتنبهون إلى سلامة القلب والكبد والكلية وسائر أعضاء جسد الطفل تنبهاً كاملاً ، ولكنهم لا يهتمون إلى السلامة الروحية والأخلاقية للأطفال بنفس الدرجة.

إن العناية بالميول الباطنية والرغبات النفسية للطفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة تعد من المسائل الأساسية في التربية ، وإن رصيد القائمين على تربية الأطفال في هذا السبيل هو التعاليم الدينية والأساليب العلمية الصحيحة وإن اندحار وكبت أي واحد من هذه الميول الفطرية يؤدي إلى إيجاد عقدة في روح الطفل ، يظهر رد فعلها طيلة العمر في جميع مجالات الحياة ، ويسبب مئات الانحرافات والمآسي.

ونظراً لأهمية الميول الباطنية للطفل في موضوع التربية فسنحاول أن نفصل القول فيها في المحاضرات القادمة مع تضمين ذلك بذكر التعاليم الإسلامية العظيمة في هذا الصدد ، وبيان دور الوالدين في القيام بهذه المهمة.

أما بحثنا في هذه المحاضرة فينحصر في بيان أن الإرضاء الكامل للميول الباطنية عند الطفل ، والاهتمام بجميع جوانب شخصيته لا يحصل إلا في محيط الأسرة ، فإن حجب الأم وحضن الأب فقط قادران على أداء هذا الدور الفعال في حياة الطفل.

إرضاء جميع الميول :

إن دار الحضانة عاجزة عن أن تحل محل الأسرة ، وإن مرشدة الأطفال لا تستطيع أن تقوم مقام الأم في إرضاء عواطف الطفل ومشاعره. إن حنان الأم قوي في الإنسان والحيوان إلى درجة أنه لا يوجد بعد غريزة حب الذات عاطفة أخرى تعادل عاطفة الأمومة. إن قلب الأم يفتح بحب الطفل ، ولذلك فهي لا- تتوانى عن القيام بأكبر التضحية في سبيل رشد ونموه. وحين تبسم الأم بوجه طفلها وحين تضمه إلى صدرها ، وحين تشمه وتقبله من فرط الحنان والعطف ... تسري موجة من

النشاط واللذة في أعماق روح الطفل وتبدو على ملامحه وعينيه آثار الفرح والرضا. وقد يبكي الطفل أحياناً من دون أن يشكو ألماً أو جوعاً لكن بكاءه لكي يناعي ، إنه جائع إلى الحنان والعطف ، يبكي لغذائه النفسي ، فبمجرد أن الأم تحتضنه وتضمه إلى صدرها ، أو تمرر يدها على رأسه فهو يهدأ ، إن ملاطفة الطفل ومناغاته غذاء نفسي للطفل ، ويجب أن يتغذى من هذا الغذاء النفسي بالمقدار اللازم.

دقات قلب الأم :

من القضايا المشاهدة لدى الجميع ارتياح الطفل وهدوءه عندما تضمه الأم إلى صدرها ، لقد أثبتت التجارب العلمية الحديثة : أن دقات قلب الأم أوقع في نفس الطفل وأنس له من أي لحن آخر ، ولذلك فإن دور الحضانة تسجل صوت هذه الدقات على شريط ، وعندما يبكي الطفل يفتح الشريط بالقرب من أذنه ويهدأ بهذه الصورة.

فالفتاة التي قد تلقت قدراً كافياً من الحنان من محيط الأسرة في أيام طفولتها ، وتغذت روحها من عطف الوالدين ، لا تحتاج في دور المراهقة إلى الحنان ولا تلين بسماع بضع كلمات دافئة معسولة من هذا وذاك ، ولا تستجيب لتلك الانفعالات بسرعة.

وعلى العكس فإن الفتاة التي لم تتلق قدراً كافياً من الحنان في طفولتها ولم تشبع غريزتها الباطنية بحب الوالدين ، تملك روحاً ضعيفة جداً ، وبإمكان شاب مراوغ لبق أن يحرفها عن الطريق ياهدائه إليها باقة من الزهور ، ويبضع كلمات دافئة ... وبذلك يجني على عفتها وطهارتها وتسقط الفتاة إلى الأبد في هوة سحيقة من الفساد والانحراف ، أو تغسل العار بالانتحار.

نقص التربية في رياض الأطفال :

لقد انتشرت رياض الأطفال في المدن الأوروبية منذ عهد قريب ، وتقوم تلك المؤسسات برعاية الأطفال ، فالأمهات الموظفات وكذلك النساء اللاهيات اللاتي لا يردن أن يجدن مزاحمة من أطفالهن في مجالس الرقص والقمار والفساد ، يستغلن هذه الفرصة ، ويودعن أطفالهن في (رياض الأطفال).

إن حياة الطفل في روضة الأطفال جميلة جداً بحسب الظاهر، فهو يلبس الملابس النظيفة والأنيقة، ويمشط شعره، وقوامه رشيق، إن روضة الأطفال تجهز بالوسائل الصحية اللازمة فالغرف مبنية على الأساليب الفنية والأسرة مغطاة بالشراشف، والطعام يحضر حسب المناهج الصحيحة، والطفل يلعب بالمقدار الكافي، وينام في الوقت المقرر، وبصورة موجزة فإن جانباً مهماً من ميول الطفل ورغباته الروحية والجسدية يكون مضموناً.

لكنه توجد في أعماق الطفل عواطف ومشاعر لا تشبع في المحيط الاجتماعي لروضة الأطفال، فهناك فرق كبير بين علاقة امرأة واحدة تشرف على مائة طفل - لغرض الانتفاع المادي فقط - بالطفل، ولهيب الحب السماوي المودع في قلب الأم. فلا توجد المناغاة الحارة التي تبعث الطفل على الرضا والانشراح إلا في حجر الأم، أما في روضة الأطفال فلا.

إن الطفل الذي يعيش بين مائة طفل حياة غير مستقلة، لا يدرك معنى للشخصية والاستقلال الفردي، وهما من أبرز الخصائص الإنسانية (1) إن حركات الطفل وسكناته يمكن أن تراعى بدقة في الأسرة بينما تضيق أفعاله وسط أفعال مائة طفل كموجة بين مئات الأمواج في البحر حيث تصطدم بعضها ببعض، وتزول كلها.

« يجب ألا يكون التعليم مانعاً من التوجيه الصائب ... مثل هذا التوجيه يعود إلى الوالدين، فهما وحدهما وبصفة أخص الأم، قد لاحظا منذ شبها الصفات الفسيولوجية والعقلية التي يهدف التعليم

ص: 211

1- ومن المناسب أن ندرج هنا ما أورده مجلة (العربي) في فصل (دردشة) تحت عنوان: (الأم هي المعلمة الأولى): « تستطيع الأم الفاضلة أن تؤدي مهمة مائة أستاذ من أساتذة المدارس. هذا ما قاله الشاعر الانجليزي جورج هربرت وهذا ما أثبتته التاريخ. فجورج واشنطن أول رئيس للجمهورية في الولايات المتحدة الأمريكية، كان قد فقد أباه وهو في الحادية عشرة من عمره، وما كان ليشب على نحو ما شب عليه من رصانة الخلق وقوة الشخصية لو لم تكن أمه على جانب كبير من الحكمة والاقتدار. وقد تولت تربيته، منفردة، بعد وفاة أبيه. ويصدق ذلك كثيراً أو قليلاً على عدد من أعلام الأدب والعلم والشعر عبر التاريخ نذكر منهم على سبيل المثال: جوته، وجري، وشيللر، وبيكون، وأرسكني. فلولا تربية أمهاتهم لهم لما احتل هؤلاء مكانتهم بين الأعلام المبدعين ». عن مجلة العربي 95 ص: 59

إلى تنظيمها وتوجيهها ... لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة حينما استبدل المدرسة بتدريب الأسرة استبدالاً تاماً ... ولهذا تترك الأمهات أطفالهم لدور الحضانة حتى يستطيع الانصراف إلى أعمالهن ، أو مطاعمهن الاجتماعية ، أو مبادلهن ، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية أو للعب البريدج ، أو ارتياد دور السينما ، وهكذا يضيعن أوقاتهن في الكسل ... إنهن مسؤولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار فيتعلم منهم أموراً كثيرة ... إن الكلاب الصغيرة التي تنشأ مع كلاب أخرى من عمرها نفسه في حظيرة واحدة لا تنمو نمواً مكتملاً كالكلاب الحرة التي تستطيع أن تمشي في أثر والديها ... والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين ، وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكاء لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقاً للقوالب الموجودة في محيطه ... إذ أنه لا يتعلم إلا قليلاً من الأطفال الذين هم في مثل سنه. وحينما يكون وحده فقط في المدرسة فإنه يظل غير متكامل ... ».

« إن إهمال مؤسساتنا الاجتماعية للفردية مسؤول أيضاً عن تقمص الراشدين ... كما أن الانسان وحيد وكأنما هو يضيع في المدن العصرية الضخمة ... إنه خلاصة اقتصادية ... وحدة في القطيع ، إنه يتخلى عن فرديته » (1)

تربية اليتيم :

وعلى أننا سنبحث عن أهمية الأسرة في مناغاة الطفل في محاضرة خاصة ونبين وجهة نظر الاسلام فيها ... سنعرض هنا لقضية تربية اليتيم وموقف التعاليم الاسلامية العظيمة منه ، لكي يتضح موضوعنا في هذا اليوم ، ثم ننتقل إلى دور الأسرة في تربية الطفل.

ص: 212

كثيراً ما يصادف أن يموت الآباء أو الأمهات في أيام الحروب أو في الحالات الاعتيادية ، ويخلفون أطفالاً صغاراً يجب أن يحافظ عليهم في المجتمع وليصيروا رجال الغد بفضل التربية الصحيحة ، وإن الدول وضعت للأيتام نظاماً معينة تكفل لهم حقوقهم.

والإسلام أيضاً يتضمن التعاليم القانونية والخلقية الخاصة به في حل هذه المشكلة. فإذا كان الطفل اليتيم قد ورث من أبويه مالاً فإن القيم (وهو الشخص يعين من قبل الحاكم الاسلامي العادل لادارة شؤون اليتيم) يقوم بتهيئة ما يحتاج إليه من طعام ولباس ومسكن من ماله الخاص أما إذا لم يملك اليتيم مالاً ، فإن بيت المال هو المسؤول عن مصارفه فحياة اليتيم إذن مؤمنة طبقاً للنظام المالي في الاسلام. ولكن النكته الجديرة بالدقة هي : أن الاسلام لا يرى انحصار سعادة اليتيم في توفير وسائل الحياة المادية من الطعام واللباس والمسكن فقط.

اليتيم إنسان قبل كل شيء ، ويجب أن تحيي فيه جميع الجوانب المعنوية والفردية ، وله الحق في الاستفادة من الحنان والعطف والأدب والتوجيه ، وكل ما يستفيد منه الطفل في حجر أبويه. اليتيم ليس مثل شاة في القطيع يذهب صباحاً إلى المرعى معهم ويرجع في المساء. إنه إنسان ويجب الاهتمام بميوله الروحية وغذائه النفسي مضافاً إلى الرعاية الجسدية والغذاء البدني.

اليتيم في أحضان الأسرة :

إن الرويات الكثيرة تصر على معاملة اليتيم معاملة بقية الأطفال في الأسرة ، وأن يقوم الرجال والنساء مقام الوالدين في رعاية اليتيم. لقد كان بإمكان الحكومة الاسلامية في عصر الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) من الناحية المادية أن تنشئ في كل مدينة داراً لرعاية اليتيم وتصرف عليهم من بيت المال ، ولكن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يفعل ذلك. لأن هذه المؤسسات والدور ناقصة من وجهة نظر التربية الكاملة من الناحيتين الروحية والمادية. فالأسرة فقط هي التي تستطيع أن تلبي نداء عواطف الطفل ، ولذلك فقد ظل يوصي الآباء والأمهات وأولياء الأسر بمنطق الدين والايمان بالمحافظة على اليتيم. وأخذته إلى بيوتهم وإجلالته على مواعدهم ، ومعاملته كأحد

أولادهم ، والسعي في تأديبه وإدخال السرور على قلبه بالعطف والحنان والمحبة.

لا شك أن تأسيس دور للأيتام وإكسابهم وإشباعهم ، عبادة إسلامية كبيرة ، ولكن مناغاة اليتيم والعطف عليه ، وتأديبه وتربيته عبادة أخرى وقد خص الله لذلك أجراً وثواباً خاصاً.

وها نحن نعرض النصوص الواردة في حق اليتيم :

- 1 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « خير بيوتكم بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيوتكم بيت يساء إليه » (1).
- 2 - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من عال يتيماً حتى يستغني ، أوجب الله له بذلك الجنة » (2).
- 3 - وعنه (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من كفل يتيماً من المسلمين ، فأدخله إلى طعامه وشرابه ، أدخله الله الجنة البتة ، الا أن يعمل ذنباً لا يغفر » (3).
- 4 - عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال : « من مسح رأس يتيم ، كانت له بكل شعرة مرت عليها يده حسنة » (4).
- 5 - « من أقعد اليتيم على خوانه ، ويمسح رأسه يلين قلبه » (5).
- 6 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من أنكر منكم قساوة قلبه ، فليدن يتيماً فيلاطفه وليمسح رأسه يلين قلبه بإذن الله ، فإن لليتيم حقاً » (6).
- 7 - عن حبيب بن أبي ثابت أنه قال : « جيئ بمقدار من العسل إلى بيت المال ، فأمر الامام علي (عليه السلام) بإحضار الأيتام ، وفي الحين الذي كان يقسم العسل على المستحقين كان بنفسه يطعم الأيتام من العسل ، فقيل له يا أمير المؤمنين ما لهم

ص: 214

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج 1 148.

2- تحف العقول ص 198.

3- مستدرك الوسائل ج 1 148.

4- المصدر السابق ج 2 616.

5- سفينة البحار مادة (يتم) ص 731.

6- الوسائل ج 1 157.

يلعنونها؟ فقال : إن الامام أبو اليتامى وإنما ألعنتهم هذا برعاية الآباء « (1).

8 - قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : « أدب اليتيم مما تؤدب منه ولدك واضربه مما تضرب منه ولدك » (2).

9 - من وصية الامام أمير المؤمنين إلى أولاده : « الله الله في الأيتام فلا تغبوا أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم » (3).

10 - عن فقه الرضا (عليه السلام) : « وإن كان المعزى يتيماً فامسح يديك على رأسه » (4).

11 - « لما أصيب جعفر بن أبي طالب ، أتى رسول الله أسماء فقال لها : أخرجي لي ولد جعفر فأخرجوا إليه فضمهم وشمهم. قال عبد الله

بن جعفر : أحفظ حين دخل رسول الله على أمي ، فنعى لها أبي ونظرت إليه وهو يمسخ على رأسي ، ورأس أخي » (5).

يستفاد من مجموع النصوص الاسلامية ضرورة تربية الأيتام كسائر الأطفال في المجتمع ، ولهم الحق في الاستفادة من جميع المزايا والعواطف الانسانية. إن الأيتام في الدولة الاسلامية يمتازون برعاية كاملة من حيث الطعام واللباس والحنان والأدب بحيث لا يحسون بأي فرق بينهم وبين سائر الأطفال. وطبيعي أن تربية كهذه تكون مصونة من الانحراف والخطأ. وإن طفلاً كهذا لا يصاب بعقدة الحقارة والذلة ، فينمو بصورة معتدلة وتشيع رغباته الباطنية جميعها بشكل صحيح ، ولكن القيام بمثل هذا الواجب المقدس والعبء الثقيل يتطلب إيماناً قوياً وعقيدة مستقيمة.

لقد اهتم الاسلام بتعليم أتباعه هذا الدرس المقدس والآن حيث يطوي هذا الدين السماوي قرنه الرابع عشر نجد في أطراف العالم الاسلامي الرجال والنساء

ص: 215

1- البحار ج 9 536.

2- الوسائل ج 5 125.

3- نهج البلاغة ص 470.

4- مستدرک الوسائل ج 1 147.

5- بحار الأنوار ج 18 212.

الكثيرين الذين يفتحون صدورهم - بكل رضى واعتزاز - للقيام بهذه المهمة ، ويتورعون عن إتيان أصغر عمل سبب الأذى لليتيم وجرح عواطفه.

« وحين يحرم الموت المبكر طفلاً من ملجئه الطبيعي يشدد الآخرون في رعايتهم له والاستجابة لاحتياجاته. لكن هذا العمل لا بد وأنه منبثق من كنز عظيم يفيض بالحنان والعاطفة. وإن كنزاً كهذا لا يوجد إلا في باطن ثلة قليلة من البشر الممتازين » (1).

وإذا كان قائد الاسلام العظيم يوصي الأسرة الخيرة باحتضان الأطفال اليتامى لتربيتهم التربية الصحيحة ومعاملتهم كأطفالهم كي يحصلوا على المقدار الكافي من الحب والحنان ، ويتلقوا الأدب والسلوك المستقيم ، ويصبحوا أفراد كاملين ، فهل يمكن أن يرضى الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) للأُمّهات أن يتركن أطفالهن لأعداء يعرفنها ويحرمنهم من التربية الصحيحة ، والفوائد المهمة التي يستطيعون أن يحصلوا عليها في محيط الأسرة فقط؟!.

« إن حرارة الأسرة تسبب تفتح جميع المشاعر والعواطف الراقية الكامنة في نفس الطفل بنفسها ، وبذلك يتطبع الطفل منذ حدثته على الصدق والأمانة والشهامة. إن الأسرة هي الميدان العملي لتطبيق تعاليم الشعور بالمسؤولية والوجدان ، وإظهار ذلك كله بصورة بارزة ظاهرة أمام عيني الطفل ». « إن الأسرة التي ينتشر فيها الوفاء والتضحية ، الصدق والشهامة في الأقوال والأفعال ، الأمانة والشجاعة في العمل ، الايثار والتواضع ... ترسم نموذجاً صالحاً للأطفال ».

« إن جميع هذه العوامل تتجلى لعيني الطفل بالتدرج خلال حياته ، وفي الحين الذي يتلقاها بصورة تلقائية يتطبع عليها بدوره » (2).

ص: 216

1- ما وفرزندان ما ص 3.

2- ما وفرزندان ما ص 4.

إن محيط الأسرة مدرسة تستطيع أن تنمي المواهب الكامنة في نفس الطفل ، وتعلمه دروساً في العزة والشخصية ، الشهامة والنبيل ، التسامح والسخاء ... وغير ذلك من القيم الانسانية العليا ، لا روضة الأطفال.

كان الامام علي (عليه السلام) - دون أية مبالغة - إنساناً كاملاً ، وشخصية مثالية في العالم كله ، فلقد ظهرت جميع الصفات الانسانية والملكات الفاضلة على أكمل وجه في هذا الرجل الالهي. إنه معلم مدرسة الانسانية ومثلها الأعلى. فلقد خضع له الصديق والعدو ، المسلم وغير المسلم ، وكل من اطلع على تاريخه المشرق النير.

هذه الشخصية الالهية الكبيرة نجده يفخر بكل صراحة بالتربية التي تلقاها في أيام طفولته ويتحدث لنا عن الثروة المعنوية الضخمة التي حصل عليها في تلك المرحلة من حياته الشريفة ، ويتباهى بمربيه العظيم نبي الاسلام القدير فيقول : « وقد علمتم موضعي من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليد يضمنني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه » (1).... ثم يستطرد فيقول : « يرفع لي في كل يوم علماً من أخلاقه ويأمرني بالاعتداء به » (2)

لقد تشبعت جميع الميول العقلية والعاطفية للامام علي (عليه السلام) في فترة الطفولة في حجر النبي الحنون ، فلقد أروى عواطفه بالمقدار الكافي من ينبوع محبته وعطفه من جهة ولقد أعطاه دروساً في الأخلاق وأمره باتباعها من جهة أخرى.

ومن كان في طفولته واجداً لأثمن الذخائر الروحية والمادية من الوجهة الوارثية ، ومن ناحية التربية قد تلقى المثل في أظهر أسرة وكان مربيه الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) جدير بأن يكون في الكبر قائد السعادة البشرية وأمير جيش الإيمان والتقوى ...

إن الاساليب التربوية العميقة الحكيمة التي اتخذها الرسول الأعظم صلى الله

ص: 217

1- نهج البلاغة ص 406.

2- نهج البلاغة ص 406.

عليه وآله مع علي (عليه السلام) قد أحيت جميع مواهبه الكامنة وأوصلته في مدة قصيرة إلى أعلى مدارج الكمال ، فلقد تقبل الاسلام في العاشرة من عمره عن وعي وإدراك وعمل على نشر تعاليمه متبعاً في ذلك سيرة النبي ولم ينحرف عن الصراط المستقيم قدر شعرة إلى آخر حياته.

ونموذج آخر للتربية الصالحة نجده في التاريخ المشرق للامام الحسين بن علي (ع) فهو غير خفي على أحد. فلقد خلدت القرون المتמادية شهامة الحسين وتضحيته، إثارة وعظمته في إعلاء كلمة الحق والعدالة ، ولم يغب ذلك كله عن أذهان البشرية على مر الأجيال. ولقد تباهى ذلك الامام العظيم كوالده بطهارة أسرته العريقة في أخرج المواقف. وتحدث عن تربية عائلته له آنذاك قائلاً : « ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين : بين السلة والذلة ، وهيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت » (1).

أجل! فلقد قال الله تعالى : «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ» (2) والامام الحسين (عليه السلام) هو نفسه من المؤمنين وهو قائد المؤمنين وعليه يجب أن لا ينصاع لقوى الظلم والبغي. وأما دليله الثاني فهو أنه من أسرة أنفت الذل وأبت الضيم. وكأنه يقول : إني تربيت في حجر الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلي بن أبي طالب والصديقة الزهراء ، لقد نشأت على الشرف والاباء ... كان بيتنا الصغير منبع الفضيلة والشهامة ، ولم تجد الحقارة طريقاً لها إلى أسرتنا ... لقد تربيت في أحضان من عاشوا حياة ملؤها العز والحرية ، فكيف أرضى بالذلة والخضوع متناسياً ثروتي العائلية؟! هذا مستحيل ، فلن أباع يزيد أبداً ولا أخضع لأوامره ...

هذه الشهامة والعزة ، وهذا الأباء والشرف ... نتيجة التربية الأصلية في الأسرة ، التربية النابعة من حنان الوالدين وحبهما ، ذلك الحب الممزوج بالإيمان ، التربية التي ملؤها الصفاء والخلاص والطهارة والواقعية.

... إن رياض الأطفال أعجز من أن تربي أولاداً كهؤلاء. فهي مؤسسة تجارية

ص: 218

1- نفس المهموم ص 149.

2- سورة المنافقين 8.

قبل أن تكون مركزاً ثقافياً وتربوياً ، فإن مؤسسي رياض الأطفال يهدفون في الدرجة الأولى إلى الحصول على مال من وراء الأجور الشهرية للأطفال ، ويهتمون بالتربية في الدرجة الثانية ، مع أن التربية أيضاً سطحية وبسيطة. إن الآباء والأمهات الذين لا يملكون هدفاً بغير التربية يجدون لذتهم في أن يربوا أولادهم تربية صحيحة ويجعلوهم أفراداً جديرين أكفاء في المجتمع ، وإن مركز هذا النشاط هو الأسرة فقط.

ثم إن الميزة الأخرى التي تضفي أهمية كبيرة على قيمة الأسرة هي إحياء الخصائص الفردية. فالأفراد ليسوا متفاوتين فيما بينهم من ناحية المنظر والبناء الخارجي فقط ، بل يختلفون من حيث معنوياتهم ونفسياتهم أيضاً. وهذا نفسه أحد مظاهر القدرة الإلهية ... « ما لكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً » . قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الناس معادن ، كمعادن الذهب والفضة » (1).

الأطفال الممتازون :

وهكذا نجد أن بعض الأطفال يولدون مع صفات وخصائص معينة لا توجد عند الأطفال الاعتياديين. فربما يوجد العقل والادراك والذكاء والفتنة ، الحافظة وسرعة الانتقال ، الشهامة والسيطرة على النفس ، وقسم آخر من الصفات في بعض الأفراد بصورة أكثر من المعتاد. ويختلف العظماء والنوابغ في العالم من حيث البناء الطبيعي عن بقية الأفراد. وإن النجاح الذي أحرزه كل منهم في ميدانه في أثناء حياته يعزى إلى الدقة المعمولة في خلقهم وبنائهم. وعلى سبيل الشاهد ننقل قصة أبي زكريا التبريزي تلميذ أبي العلاء المعري وقد تلمذ على يده سنوات عديدة. ولما كان أبو العلاء مكفوف البصر فلقد كان لا يستطيع القراءة. وفي أحد الايام كان أبو زكريا يقرأ لأبي العلاء كتاباً له في مسجد المعرفة وفي الأثناء حضر مسافر من تبريز إلى الجامع ليصلي ، فسر أبو زكريا لرؤيته كثيراً وتوقف عن قراءة الكتاب لعدة لحظات فسأله الاستاذ عن السبب ، فأخبره بمجيء صاحبه. فأمره أبو العلاء بأن يذهب إليه ويتحدث معه فقال له : أمهلني أكمل الصفحة ، فقال : لا ، وسأنتظرك حتى

ص: 219

تنتهي حديثك. فجلس أبو زكريا مع صاحبه على بعد خطوات من أبي العلاء وأخذ يتحدث معه باللغة المحلية ويسأله عن بعض القضايا فيجيبه. وعندما رجع إلى استاذة سأله : أي لغة هذه؟ قال : لغة آذربايجان! فقال : إنني لم أفهم ما تداول بينكما من حديث ، ولكنني حفظت ما قلتماه ، وأعاد جميع الألفاظ بلا زيادة أو نقصان. فتعجب صاحب أبي زكريا من حافظة أستاذة بشدة ، وكيف أنه حفظ تلك الألفاظ بسرعة دون أن يفهم معانيها (1).

نوابغ العالم :

لقد وجد على مر القرون المتصرمة نوابغ عظماء لا يقاسون مع سائر الأفراد من حيث إدراك الحقائق العلمية ، والذكاء الخارق. وإن الترقيات التي نالت البشر في الحياة المادية مدينة إلى مواهب هؤلاء الرجال البارزين فهم الذين أدركوا الحقائق العلمية بفضل مواهبهم الخاصة ، وقادوا ركب الانسانية إلى الأمام.

« إننا نختار من بين الملايين أفراداً معدودين في تلك الدولة حيث خدموا التقدم العام ، واستطاعوا بفضل مواهبهم أو داهائهم أن يجعلوا أنفسهم فوق مستوى الآخرين ، وأن يكونوا قائدي زمام التمدن ».

« إننا نلاحظ الانسانية على أنها مجموعة حية في حالة دائمة من التغير والذكاء ، ونعلم أن تطورات هذه المجموعة تبدأ بواسطة أناس نادريين ومتفردين في الغالب! »

« هذه الأدمغة البارزة هي مركز الأمواج التي تشبه الأمواج الحادثة عند سقوط قطعة من الحجر في الماء. هؤلاء يمكن أن يوجدوا في آسيا ، أو أمريكا ، أو أي طبقة أخرى من البشر. هؤلاء ليسوا صينيين ، أو أمريكيان ، أو إنكليز ، أو فرنسيين ، أو هنود ... إنهم بشر » (2).

ص: 220

1- ينقل القصة بكاملها صاحب (قاموس دهخدا) الفارسي عند ترجمة (أبي العلاء المعري) ص 636.

2- سرنوشت بشر ص 190.

إن تكامل الانسان في المدارج المعنوية ، وخلاصة من عبادة الأصنام والنار ، ونجاته من الأوهام والخرافات مدين لجهود الأنبياء والرسل. فلقد كانوا أناساً غير اعتياديين في بنائهم ومواهبهم الباطنية. وبالرغم من أن تعاليم الأنبياء والقوانين التي يسنها الرسل إنما هي من السماء وهو يقومون بإيصالها إلى البشر فقط ، يجب أن لا ننسى أن هذه المنزلة لا يستطيع إحرازها كل فرد ، وليس بإمكان كل فرد أن يصير نبياً. «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» (1).

لم يكن نبوغ نبي الاسلام العظيم قبل نزول الوحي عليه ، وكمال عقله وذكائه الخارق أمراً مخفياً على الناس. فانه كان فريداً في بابه قبل أن يختاره الله لهذا المنصب العظيم. فالأفكار العالية والقريحة الفريدة التي كان يمتاز بها كانت قد رشحته لأن يكون أوحدياً ، وقدوة للبشرية أجمع ، ذلك الرجل العظيم ، والشخصية المثالية كان جديراً بمقام النبوة ، ولذلك فقد اختاره الله تعالى لهذه المهمة.

الخصائص الفردية :

الخلاصة : إنه يوجد في باطن بعض الأطفال من المواهب الخاصة ما ليست موجودة عند باقي الأفراد. وإن ظهور تلك الخصائص يسبب تقدم البشرية ورفقها ، فإنهم يجب أن يخضعوا منذ الصغر إلى رقابة تربوية صحيحة ، وتهياً لهم ظروف وبيئة صالحة ، وإن البيئة الوحيدة التي تستطيع أن تنمي القابليات الخاصة وتستغل الطاقات الكامنة وتخرجها إلى حيز الوجود هي الأسرة.

« وبدلاً من أن يشبه الآلة التي تنتج في مجموعات ، يجب على الانسان - بعكس ذلك - أن يؤكد وحدانيته ولكي نعيد تكوين الشخصية يجب أن نحطم هيكل المدرسة والمصنع والمكتب ... إننا نعلم أنه من المستحيل أن ننشئ أفراداً بالجملة ، وأنه لا يمكن اعتبار المدرسة بديلاً من التعليم الفردي ... إن المدرسين غالباً ما يؤدون عملهم التهذيبي كما يجب ، ولكن النشاط العاطفي والجمالي

ص: 221

والديني يحتاج أيضاً إلى أن ينمى ، فيجب أن يدرك الوالدان بوضوح أن دورهما حيوي ويجب أن يعدا لتأديته ... ».

« حينما اعترف المجتمع العصري بالشخصية كان عليه أن يقبل عدم مساواتها ، فكل فرد يجب أن يستخدم تبعاً لصفاته الخاصة ... وفي محاولتنا توطيد المساواة بين الناس ألغينا الصفات الفردية الخاصة التي كانت أكثر نفعاً ، إذ أن السعادة تتوقف على ملاءمة الفرد ملاءمة تامة لطبيعة العمل الذي يؤديه ... ولذلك يجب أن ينوع البشر بدلاً من أن يصبحوا جميعاً على نسق واحد ، كذلك يجب أن تستبدل هذه الاختلافات التي حفظتها وهولتها طريقة التعليم وعادات الحياة ... » (1).

ولقد تلقى الامام علي (عليه السلام) الاختلافات الطبيعية بين الأفراد باهتمام بالغ ، وربط مصير سعادة الناس وخيرهم بالمحافظة على تلك الاختلافات كما ربط شقاءهم وهلاكهم بإزالة تلك الفوارق الطبيعية.

« قال أمير المؤمنين (عليه السلام) : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا فإذا استوتوا هلكوا » (2).

مسيرة التربية للفطرة :

من الضروري أن يستفاد من الاختلافات الطبيعية للبشر في موضوع التربية ، وتربية كل فرد حسب المواهب والقابليات المودعة في بنائه الفطري لكي يستفيد المجتمع أقصى الفائدة من جميع الذخائر الفطرية المودعة في باطن الأفراد.

وإذا أغفلنا هذه النقطة التي أقرها الله بحكمته البالغة ولم تنسجم تربية كل فرد مع غرائزه الفطرية فإن الفرد سيبقى محروماً من الكمال اللائق به ، ويكون مصاباً بالانحراف بنفس النسبة.

ص: 222

1- الانسان ذلك المجهول ص 239 - 240.

2- البحار للمجلسي ج 17 101.

يتولد بعض الأطفال مع خصائص غير مرغوب فيها ، قد ضربت جذورها فيهم كسوء الخلق أو التلذذ بإيذاء الآخرين.

« حيث يقع سلوك الإنسان وخلقته تحت تأثير التحريكات الداخلية يمكن اعتبار الغضب خاصة أصيلة فيه. فالطفل لا يعلم ما يصنع ، أو أنه لا يدرك الموقف كما ينبغي أن يدركه ، إن هذا الغضب شديد وخطر ».

« نرى الطفل يتدحرج على الأرض ، يضرب رأسه بالجدار ، يقتلع شعر رأسه ، يضرب ، يعض من حوله ، يحطم الأثاث ، يكسر زجاج النوافذ ، وبما يرتكب جريمة قتل ... ».

« وبعد هذه الفورة من الغضب يهدأ الطفل ، وحين يستولي عليه التعب تماماً يحس من نفسه بحاجة شديدة إلى النوم » (1).

... لقد أثرت ظروف خاصة على بنية أطفال كهؤلاء ، فجعلتهم ينشأون على هذه الخصائص ، ويجب أن لا نلومهم على ذلك ، يقول الامام الصادق (عليه السلام) بهذا الصدد : « لو علم الناس كيف خلق الله تبارك وتعالى هذا الخلق ، لم يلّم أحد أحداً » (2).

هؤلاء الأطفال يجب أن يوضعوا منذ البداية تحت رقابة تربية صحيحة وأن يهتم المربي بجميع خصائصهم النفسية ويستخدم تلك الميول الفاسدة في المجاري الصحيحة ، وإرضائها بهذه الصورة.

« يستطيع الشخص المصاب بعقدة الإيذاء إرضاء رغبته هذه في طريق آخر حسب مستواه الثقافي وظروف حياته أي أنه إذا كان مستواه العلمي واطناً يختار مهنة القصابة ويصبح قصاباً وإذا كان حائزاً على درجة علمية راقية فيستطيع أن يشتغل جراحاً ، وبهذه الصورة تشبع رغبته في إيذاء الآخرين بطريقة تلقائية » (3).

ص: 223

1- جه ميدانيم؟ (أطفال دشوار) ص 48.

2- وسائل الشيعة للحر العاملي ج 4 ص 71.

3- أنديشه های فروید ص 258.

والنتيجة التي توصلنا إليها ضمن بحوثنا المتقدمة هي : أن الأسرة تستطيع أن تتعهد ثلاثة أمور مهمة مضافاً إلى المحافظة على الطفل وتربيته الاعتيادية. هذه الأمور هي :

1 - تهتم بجميع الميول الداخلية والمثل الانسانية للطفل وتعمل على إرضاء كل منها في موارده وبالمقدار المناسب له. وبذلك يكتسب الطفل شخصية كاملة متزنة.

2 - تهتم بالأطفال البارزين الذي يملكون قابليات ومواهب عالية بصورة خاصة وتهيئ الوسائل اللازمة لظهور تلك المواهب والقابليات وتقويتها لتعطي ثمارها بعد حين.

3 - إذا كان الطفل يملك بعض الخصائص السيئة فإن من الممكن أن يخضع في ظل الأسرة لرقابة صحيحة ، وبالتالي تعديل تلك التصرفات غير المرغوب فيها وهدايتها إلى الطريق الصحيح.

هذه هي الوظائف الرئيسية التي يمكن للأسرة أن تقوم بها بينما تعجز روضة الأطفال عن القيام بها.

الأسر الشريفة والأسر المنحطة :

وفي نهاية المطاف يجب أن نتنبه إلى نكتة مهمة ، وهي أنه ليس باستطاعة أي أسرة أن تقوم بالتربية الصحيحة وليس بإمكان حجر كل أب أو أم أن يصبح أحسن مدرسة للطفل. فالشرط الأساسي هو أن يكون جو الأسرة نزيهاً مبرئاً من الفساد والإجرام والخيانة وارتكاب الخطأ بل يشترط أن يكون الوالدان حائزين على صفات وملكات فاضلة. فالوالدان المنحرفان لا يستطيعان أن يربيا في أحضانهما أطفالاً صالحين فإن (فاقد الشيء لا يعطيه).

ولقد قال الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره *** هلا لنفسك كان ذا التعليم

إبدأ بنفسك فانها عن غيرها *** فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

لقد أدى إسراف المدنية الحديثة في الجوانب المادية والشهوات الحيوانية إلى إضعاف الجوانب المعنوية والروحية. فإن كثيراً من الأسر فقدت معنوياتها على أثر

التلوث بأنواع الجرائم والذنوب ، وانتجوا في النهاية أولاداً مجرمين ومنحطين ، فاسدين ومنحرفين!!.

« في كثير من الأسر لا- يواجه الطفل إلا أساليب فاسدة وبعيدة عن الأخلاق ، ولا يتجلى أمام ناظره الثاقبين إلا أمثلة السلوك الأهوج والإهمال والكسل. من المؤسف أن هذه الحقيقة غير قابلة للإنكار ، وأن عدداً كبيراً من حوادث السقوط والانهيال في المجتمع ينبع من هذه النقطة. وإذا لم يقدر طفل أن يظهر بصورة إنسان كامل في أمثال هذه الأسر المنحطة ، وسببت إرادته المهملة التائهة نوعاً من الفوضى والاضطراب في المجتمع فيجب أن نقول : إن أسرة واحدة قد قصرت في أداء واجبها الطبيعي. لقد كتب الدكتور (آدفير) بهذا الصدد : إن مسألة التربية في الأسرة تصطدم بهذه النقطة وهي أن الوالدين يجب أن يكونا غنيين بالعواطف الراقية والأفكار الممتازة ، حتى تشع هذه الصفات منهما إلى الخارج ، وتثير الطريق لطفلهما وتحثه على السير في الطريق الصحيح » (1).

« لقد أصبحت الأسرة جواً مخزياً للتربية بصورة عامة لأن الآباء والأمهات في العصر الحديث قد تجاوزوا الحد المقرر في السذاجة أو العصبية ، أو الضعف ، أو الشدة وربما يعلم أكثرهم بعض العيوب لأطفالهم. فما أكثر الأطفال الذين يجدون صوراً مختلفة عن سوء الأخلاق ، والفساد ، والمشاكسة ، والسكر في البيت والأسرة ، والكثيرون منهم إن لم يجدوا مثل هذه القضايا في البيت فلا بد وأنهم تعلموها من أصدقائهم. فيمكن القول بلا مبالغة أن كثيراً من الآباء والأمهات في العصر الحديث يجهلون تربية أطفالهم مهما كانت الطبقة التي ينحدرون عنها والمدارس أيضاً لا تستطيع بع أن تؤدي واجبها لأن الأساتذة لا يختلف سلوكهم عن سلوك الأبوين كثيراً ... ».

ص: 225

« والخلاصة أنه ليس بإمكان المدرسة ولا الأسرة أن تعلم الطفل أسلوب الحياة الأمثل. ولهذا السبب فإننا نجد في سحنات وجوه الشباب مرآة صافية قد انطبعت عليها صورة عدم كفاءة القائمين على تربيتهم » (1).

« إن التناسل في أكثر الشعوب تحضراً أخذ في التناقص كما أنه لا ينبغي إلا نسلًا ضئيلاً... قد أتلقت النساء أنفسهن إختياراً بشرب الخمر والتدخين ، كما أنهن يعرضن أنفسهن لخطر (الرجم) رغبة منهن في نحافة أجسامهن ، وعلاوة على ذلك فإنهن يرفضن الحمل ... ويعزى هذا النقص إلى تعليمهن وأنانيتهن ... » (2).

إنهيار الأسر الشريفة :

تستطيع أسرة شريفة أن تربي في حجرها أولاداً أبراراً متى كان الرجال والنساء في تلك الأسرة غير منحرفين أو منحطين ، بل كانوا محافظين على الرصيد المعنوي الذي ورثوه عائلياً ، ليسلموه إلى من يخلفهم جيلاً بعد جيل ، أما إذا وجد الاجرام والفساد والذنوب طريقه إلى تلك الأسرة فستخلى الفضائل والمثل الحميدة مكانها للردائل ، وتبديل الأسرة الأصيلة التي اعتادت الشرف والمجد عدة مئات من السنين إلى أسرة منحطة خلال قرن أو نصف قرن.

ولقد اهتم علماء الغرب بهذا الموضوع ، وتحدثوا كثيراً عن عيوب الأسر وتلوث الآباء والأمهات في بلدانهم. وانتقدوا الأوضاع بشدة ، وهم يبدون قلقهم على مستقبل بلدانهم من تربية أولادهم الفاسدة وإيجاد الجيل المجرم المنحل. أما في بلادنا حيث المستوى الثقافي العام أوطأ منه في الغرب وحيث الانحطاط الخلقي ينتشر بسرعة أكثر في الأسر والعوائل وبين الشباب فإن الأمر يدعو إلى القلق أكثر.

فضعف الأسس الدينية والخلقية من جهة ، والإفراط الشديد في العلاقات غير الشرعية بين الشبان والفتيات من جهة أخرى ، قد أخذنا ينخران في أجساد بعض

ص: 226

1- راه ورسم زندكى ص 164.

2- الانسان ذلك المجهول ص 228.

الأسر العريقة كداء السرطان ، ويعملان بأشد ما يمكن لاقتلاع جذور الفضائل واحدة بعد الأخرى.

بالأمس كان بعض الآباء يملكون أرواحاً قوية بفضل الرصيد الايماني والمعنوي ، ولم يكونوا ليقتربوا في سلوكهم من الدنس والاجرام ، وكانوا مستقيمين في معاملاتهم ، ويتغلبون على مشاكل الحياة بقوة الايمان والثبات ... واليوم نجد أبناءهم ذوي نفسيات ضعيفة جداً وذلك لا بتعاضدهم عن الإيمان والإهمال في الواجب ، ونجدهم مصابين بأنواع الجرائم ، ولا يستطيعون الوقوف أمام مصاعب الحياة أبداً ، بل ان الملجأ الأخير لهم هو الانتحار!!

بالأمس كان أولئك الآباء يجالسون الفضلاء والأشراف في المجالس العلمية ومجالس الترفيه والتسلية ... واليوم أصبح أبناؤهم يجالسون المنحرفين والنساء الباغيات اللاهيات في مراكز الفساد!!.

بالأمس كان أولئك الآباء يقضون ساعات فراغهم في جو الأسرة المليء بالدفء والحنان والسكينة ، مع أعصاب هادئة وروح مطمئنة ... أما اليوم فان أبناءهم يقضون أوقاتهم الثمينة في محلات القمار بأعصاب محطمة وأرواح مضطربة!!.

ما أكثر الأمهات العفيفات اللاتي كن بالأمس ينظمن شؤون عوائلهن ويربين في أحضانهن أحسن الأولاد وأليقهم وأسعدهم ... واليوم نجد بناتهن اللاهيات قد تركن البيت والأسرة ، ورأين سعادتهن في الاجهاض وإقامة العلاقات اللامشروعة مع الشبان المنحرفين وعباد الشهوة في دور السينما ومراكز الفساد الأخرى!! لقد اختفى الايمان والتوحيد ، الصلاة والعبادة ، صفاء القلب والمناجاة في السحر ، التقوى والورع ، مساعدة الضعفاء وخدمة الناس ، في بعض الأسر تماماً ، وأخذ الفتيان والفتيات لا يفكرون بغير الشهوة واللذة ولسوء الحظ لا يجدون لذتهم إلى في ذلك السم الزعاف ... الخمرة والحشيشة. لقد تحولت موائد الاحسان والاطعام في بعض العوائل إلى موائد القمار ، وتبدلت مجالس الفضيلة والموعظة إلى مجالس اللهو والطرب ... لم يبق للقيم الانسانية والمثل العليا اسم ولا رسم ، وقد تركت الشجاعة وعزة النفس مكانها إلى الذلة والانحطاط والحقارة ، وحل التملق محل

الشخصية وعلو الهمة ... ولقد ضرب الحقد والحسد ، الأنانية والاثرة ، التهمة والخيانة وعشرات العادات الرذيلة الأخرى - التي يعد كل منها داء خطير في نفسه - بجذورها في أعماق القلوب ، وتعمل على إحراق القلوب والأجساد باستمرار!.

والخلاصة : أن أخلاف بعض الأسر العريقة والشريفة نجدهم بصور رجال ونساء ضعيفي العقول ، عليلي الأمزجة ، منحرفين وسيئي الأخلاق ، قد عملت العادات الخطيرة في إضعاف أجسادهم ، وعملت الأفكار الهدامة والسيئات الخلقية على انحراف نفوسهم فهم يقدمون على كل رذيلة ، لا يتهيبون للكذب والتملق ، ولا يقيمون وزناً للسرقة والارتشاء ، الفساد وإيجاد الفتن ، الغيبة والتهمة ، بل إن ذلك كله أمور إعتيادية في نظرهم!.

إن الآباء والأمهات المصابين بهذه الانحرافات ، والساقطين في هوة الرذيلة لا يستطيعون أبداً أن يربوا في أحضانهم أولاداً شرفاء ، إن الأطفال الذين يتلقون تربيتهم في أمثال هذه الأسر المنحطة يكونون - بلا شك - عناصر خبيثة في المجتمع.

فبديهي - حينئذ - أن روضة أطفال منظمة نملك مشرفين مهذبين شاعرين بالمسؤولية ، تفوق هذه الأسر بكثير. ذلك أنها إن لم تستطع إحياء الخصائص الفردية للطفل ، فلا أقل من أنها لا تعلمه على الكذب والدجل والاجرام والسباب ، وإن لم تقدر على تلقيه دروساً في الشهامة والتضحية فلا أقل من أنها لا تمد أمامه موائد الخمر والقمار ، ولا تفتح عينيه على الرذائل والذنوب الكبيرة. ومن المؤسف أن هذه الانحرافات لم تقتصر على تلويث أذيال بعض الأسر المنحطة وإسداء ضربة قاصمة إلى الأمة وروح الوطنية فيها بذلك فقط بل أنها شملت حتى الأجواء الساذجة في الأرياف ... وانتشر الاجرام والانحطاط في كل مكان كداء الطاعون والهيضة ... لكن الذي يبعث على الأمل هو أن الفرصة لم تفت بعد ، ولم ينقض وقت الكفاح ، فلا يزال يوجد في هذه البلاد أسر شريفة كثيرة ورجال ونساء مؤمنون ومسلمون يتحصنون بالايمان ضد الانحراف ... يجب أن نستغل هذه الفرصة ونتخذ التدابير اللازمة لمكافحة المآسي في مجتمعنا.

قال الله تعالى : «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)» (1).

يوجد في باطن كل فرد ميول كامنة لكل منها دور مستقل في تحقيق سعادة الانسان. إن تنمية كل واحد من الميول الطبيعية بالصورة العادلة والصحيحة بمنزلة نمو فرع من فروع شجرة السعادة ، وإن خنق كل واحدة من الغرائز وكبتها معناه القيام بخطوة في سبيل الشقاء والانحراف فعلى القائمين بالتربية وترتيب المناهج التربوية منذ البداية على أساس الغرائز الطبيعية والادراكات الفطرية للأطفال ، فإن التربية التي تعتمد على أساس الفطرة تكون ثابتة وورصينة.

وسنحاول إن شاء الله أن نبث من هذه المحاضرة فصاعداً في الادراكات الباطنية والغرائز الانسانية التي هي الأسس الثابتة السليمة والتي تسمى ب- (الوجدان الفطري).

الوجدان :

الوجدان عبارة عن القوة المدركة في النفس الانسانية ، والوجدانيات هي الحقائق التي يدركها الوجدان. ولا بد من الاستفادة من القوتين الفطريتين (الوجدانين الطبيعيين) في عمليات التربية الايمانية والاخلاقية وهما : فطرة المعرفة. والآخرى : فطرة تمييز الخير من الشر ، وتسمى الأولى بالوجدان التوحيدي ، والثانية بالوجدان الأخلاقي. الوجدان التوحيدي : هو إدراك جميع الشعوب والأمم - من أي طبقة كانوا - بفطرتهم الطبيعية ووجدانهم الباطني أن هناك قوة لا محدودة وقدرة

ص: 229

عظيمة غير خاضعة للتغيرات تسيطر على هذا الكون. تلك الحقيقة المجهولة التي يدركها كل انسان هي الله تعالى ، وتلك القوة المدركة الموجودة في باطن كل فرد ، والتي تدلنا على هذه الحقيقة هي الوجدان التوحيدي.

أما الوجدان الأخلاقي : فهو عبارة عن القوة المدركة المودعة في باطن كل فرد ، والتي تميز الخير من الشر. وبعبارة أخرى : يوجد في باطن جميع الأفراد من مختلف الشعوب والأقوام (الآسيويين ، والأوروبيين ، الأفريقيين والأمريكان ، البيض ، والسود ، الرجال والنساء ، المؤمنين والملحدين) قوة مدركة مستترة يستطيعون بها إدراك كثير الأمور الصالحة والفاصلة من دون حاجة إلى معلم أو مرب ، أو كتاب أو مدرسة ... هذه القوة المدركة تسمى عند علماء النفس بالوجدان الأخلاقي.

محكمة الوجدان :

يمكن تمثيل الوجدان الأخلاقي بقاض حاذق وقوي يحاكم صاحبه عند ارتكابه جريمة ويحكمه ، ويجازيه على أعماله السيئة بالضربات المؤلمة التي يوجهها على روحه وأعصابه.

لا توجد في العالم محكمة تضاهي محكمة الوجدان في قوتها وحرمتها فالمجرم مهما كان قوياً فإنه ضعيف وعاجز أمام قاضي الوجدان ، ولا يستطيع أن يهرب من عقوبات محكمة الوجدان بأي وسيلة أصلاً.

للجنون أو الأمراض النفسية والعصبية عوامل مختلفة ، وإن مما لا شك فيه أن من تلك العوامل الضربات الداخلية والضغط الشديد للوجدان. إن الوجدان الأخلاقي يسلب المجرم استقراره وراحته ، ويقض عليه مضجعه ويجعل الحياة أمام عينيه سجنًا لا يطاق ، فالاحساس بالخيانة والاحرام يلتهب في باطن المجرم كشعلة متوهجة تحرق روحه وجسمه. وقد يكون أثر العقوبات الوجدانية في إيجاد الاختلالات النفسية شديداً ومعقداً إلى درجة أنه لا يستطيع أي طبيب نفساني مهما كان حاذقاً أن يعالجه ويعيد للمريض حالته الاعتيادية السابقة. إن المحكومين أمام قاضي الوجدان والمصابين ببعض الأمراض النفسية ، أو الجنون من جراء الضغط الداخلي ، يكونون في حالة خطرة جداً فقد يقومون ببعض الجرائم الكبيرة ويقودون

« من الاختلافات الجوهرية بين الانسان والحيوان المفترس أن الحيوان المفترس يستولي على فريسته بهدوء ويأكلها ثم يرتاح لهذا العمل ويتلذذ به ، في حين أن الانسان إذا قتل أحد أبناء جنسه يقع في خوف وألم شديدين. وحيث لا يستطيع أن يطرد هذا الخوف والألم من نفسه يتشبث لاثبات حقانيته بالتهم الكاذبة فيلصقها بضحيتته ومن دون أن يحس أنه قد صار بصورة متهم يدافع عن نفسه باستمرار ، ويتحامل على الأفراد الآخرين الذين يحتمل أن يلوموه على أفعاله ، وبهذه الصورة فإن الخطأ الأولى لا يقف أثرها على إيجاد الاختلالات العظيمة في مرتكبيها ، بل أنها تجر وراءها سلسلة من الجرائم الجديدة والفظيعة التي ترتبط بتآلم الوجدان الاخلاقي والإحساس بالحقارة ».

« ولأجل الوجدان الأخلاقي هذا ، الذي لا مفر من لومه وعذابه ، يكون الانسان أكثر توحشاً من الحيوان المفترس. هذه المخاوف ليست من آثار غريزة الهجوم بل انها دليل صادق على قوة الوجدان الأخلاقي عند الانسان ، تلك القوة التي لا تقبل الانكسار والغلبة » (1).

قد يمكن أن تطوى أسرار جريمة ما ، ولا تفتح إضبارة للمجرم في المحاكم القضائية ، أو يغفل المجرم القاضي ويمسح القضية ، أو يتهم شخصاً بريئاً في مكانه ويحفظ نفسه عن العقاب ... ولكن لا يمكن إغفال قاضي الوجدان ولا يستطيع المجرم بأي حيلة أن يبرئ نفسه في محكمة الوجدان على خلاف الواقع.

إن الوجدان الأخلاقي يحاكم المجرم بأشد ما لديه من قوة ودقة ويتغلب عليه ، فهو في الغرفة التي يختلي فيها ، والفراش الذي يأوي إليه ، وفي المكان الذي لا يراقبه أحد يتلوى كالسليم ، ويجد عقابه على أعماله السيئة من هذا الطريق.

يكون الوجدان التوحيدي والوجدان الأخلاقي - من وجهة نظر الدين والعلم - دعامتين أساسيتين للتربية الانسانية السليمة ، فإن دعوات الأنبياء اعتمدت على هذين الأساسين القويين بمعونة العقل. فالدين يستند إلى الفطرة في باطن الانسان. وإن (العرض) الديني الذي كان يصدر من قبل الأنبياء كان في مقابل (الطلب) الطبيعي عند الناس. ولهذا السبب فإن الدين استقام وأرسى قواعده على الرغم من جميع الموانع والمشاكل التي لاقاها في طريقه.

تمر اليوم قرون طويلة على ظهور رسل السماء ، ولا تزال شعلة الإيمان متوهجة في قلوب الناس ، لأن المصدر الأصيل لهذه الشعلة المتوقدة هو : فطرة الانسان ، فما دام على وجه الأرض إنسان ، وما دامت هناك فطرة ، فإن هذا المشعل الوهاج لا ينطفئ بل هو مستمر في إشعاعه.

وهنا يجب أن نبين أن الوجدان التوحيدي والأخلاقي ... هذه الحقيقة التي نجدها في كمين كل انسان ، ليس ظاهرة متصنعة ، ولم يوجد على أثر الوراثة الاجتماعية طيلة قرون ، وبفضل التعاليم الدينية والتربية بل إنه أمر غريزي ونداء فطري منبعث من باطن الانسان ، وجد مع وجود الانسان ، وسيبقى إلى الأبد معه.

قد يمكن للبعض أن يكافحوا بعض ميولهم الفطرية في ظروف خاصة ويكتبوا تلك الغرائز في نفوسهم ، ولكن كفاحهم ذلك وكتبهم هذا لا يمكن أن يزيل الحقيقة الفطرية ، ويمحو الغريزة الانسانية التي جبل عليها جميع البشر.

فالغريزة الجنسية - مثلاً - أمر فطري غير قابل للإنكار ، ولكن وجد على مر الأجيال ملايين الأفراد من تاركي الدنيا في أوروبا والمرتاضين في القارة الهندية ، كافحوا هذه الغريزة وخنقوها في نفوسهم بالضغط والاكراه إلى درجة أن بعضهم أخذ لا يحس في نفسه أي ميل جنسي أصلاً ، أفيسطيع هؤلاء أن يسحقوا الحقيقة الفطرية للغريزة الجنسية بهذا العمل؟! هل يحق لهؤلاء أن ينكروا وجود الميل الجنسي في البشر؟!.

وكذلك أمر الذين يتجاهلون الفطرة الايمانية والأخلاقية في أنفسهم ويكافحون

غريزة التدين حياة طويلة ويعيشون ملحدين ، فانهم لا- يستطيعون أن ينكروا وجود فطرة الايمان والأخلاق في الانسان ، فلا صلة بين انحرافهم عن صراط الفطرة المستقيم وبين حقيقة الوجدان الطبيعي والبناء الفطري القائم على الايمان والأخلاق.

إن الاسلام يعتبر الأسس الرصينة للايمان والأخلاق من الثروات الفطرية الانسانية ، ويرى أن التوصل إلى وجود الله ، ومعرفة الخير والشر إنما هو جزء من تكوين الانسان ...

إحياء الفطرة :

إن أهم واجبات الأنبياء هو إيقاظ الجوانب الفطرية عند الانسان واستغلال الثروات الالهامية فيه. يقول الامام علي (عليه السلام) في هذا الصدد : « فبعث الله فيهم رسله ، وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته ، ويذكروهم منسي نعمته ويجتمعوا عليهم بالتبليغ، ويشيروا لهم دفائن العقول » (1).

الفرق بين التذكير والتعليم :

ربما تكون قد حفظت قصيدة قبل عشرين سنة ، ونسيتها على أثر الإهمال والغفلة ، وليست لديك أية التفاتة إلى شيء منها أصلاً ، ويصادف أن يقرأ شخص تلك القصيدة أمامك فبمجرد أنه يبدأ بقراءة البيت الأول تحس بأنس وقرب إلى تلك القصيدة فتعمل حافظتك وتجتهد لتذكر الأبيات التي نسيتها ... وفي الواقع فإن الذي قرأ لك الأشعار ونبهك إلى حقيقة موجودة في ضميرك لكنها منسية هذا الشخص يسمى ب- (المذكر) ، ويسمى عمله (تذكيراً). أما إذا نظم شخص قصيدة حديثة وقرأها لك وعلمها إياك بيتاً بيتاً ، فيقال له (المعلم) ويسمى عمله (تعليماً).

من هنا ندرك السر في تسمية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في القرآن الكريم باسم المذكر أحياناً ، وباسم المعلم أحياناً أخرى. إذ أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في عمله الديني والتهديبي يقوم بكلا

ص: 233

الدورين ، فعندما يوقظ الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) الجوانب الفطرية في النفس الانسانية ، وينبه الناس إلى ضمائرهم الباطنة ، يعبر عنه القرآن الكريم بالمذكر : « ذكر ، إنما أنت مذكر » (1). وعندما يأتي بتعاليم جديدة ونظم غير موجودة في الفطرة الانسانية يسمى عمله تعليمًا : « وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » (2).

الأساس الرصين للفطرة :

إن أولى الأمور الفطرية عند الانسان في نظر الاسلام هو معرفة الله فلقد جاء في القرآن الكريم والنصوص المتواترة عن المعصومين عليهم السلام اعتبار معرفة الله أوضح البديهيات في فطرة البشر.

وإن وجود المذاهب المختلفة والعقائد المتضاربة في جميع العصور بين جميع الشعوب والأقوام دليل واضح على وجود غريزة التدين في فطرة الانسان والكل يبحثون عن ضالتهم المنشودة :

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» (3).

هذا هو الأساس الرصين للفطرة ، ويظهر في الميل الغريزي للتدين ومعرفة الله جل وعلا ، وعلى سبيل الاستشهاد نورد النصوص التالية :

1 - عن زرارة قال : « سألت أبا جعفر (عليه السلام) : ما الحنيفية؟ قال : هي الفطرة التي فطر الناس عليها ... فطرهم على معرفته » (4).

2 - عن الامام الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى : (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) قال : « فطرهم على التوحيد » (5).

ص: 234

1- سورة الغاشية 20.

2- سورة البقرة 151.

3- سورة الروم 30.

4- البحار للمجلسي ج 2 87.

5- المصدر السابق ج 2 88.

3 - عن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه » (1).

يستفاد من هذا الحديث أنه يوجد الأساس الأول لتقبل الدين في فطرة جميع الأطفال ، ويستغل الأبوان - وهما القائمان على تربية الطفل - هذه الثروة الفطرية ويربيان الطفل على الدين الذي يريدانه. فإن لم تكن غريزة التدين موجودة في فطرة الانسان لم يكن معنى لتأثير توجيه الوالدين في اعتناق الطفل لدين معين طيلة حياته.

4 - عن الامام الصادق (عليه السلام) : « ستة أشياء ليس للعباد فيها صنع : المعرفة ، والجهل ، والرضا ، والغضب ، والنوم ، واليقظة » (2).

فحين يولد الطفل تكون صفحة خاطره بيضاء صافية لا يوجد فيها أي معرفة: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا» (3) لكن الله تعالى قد جهز الطفل بالغرائز كالشهوة والغضب والنوم واليقظة لاستمرار حياته. ففي هذا الحديث يرى الامام الصادق عليه السلام أنه لما كان الطفل فارغاً من أي علم أو معرفة فإن فطرة المعرفة تعتبر من الافاضات الالهية في الطفل ، ولذلك قد ذكرها في عداد الغرائز الفطرية.

5 - عن محمد بن حكيم ، قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : « المعرفة من صنع من هي؟ قال : من صنع الله ، ليس للعباد فيها صنع » (4).

6 - عن أبي ربيعة ، قال : « سئل أمير المؤمنين (عليه السلام) : بما عرفت ربك؟ قال : بما عرفني نفسه! » (5).

7 - عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه « سئل عن المعرفة أمكتسبة هي؟

ص: 235

1- المصدر السابق ج 2 88.

2- إثبات الهداة بالبراهين والمعجزات للشيخ الحر العاملي ج 1 85.

3- سورة النحل 78.

4- الكافي لثقة الاسلام الكليني ج 1 163.

5- الكافي لثقة الاسلام الكليني ج 1 163.

قال : لا ، فقل له : فمن صنع الله وعطائه هي ؟ قال : نعم ، وليس للعباد فيها صنع « (1).

يستفاد من النصوص المتقدمة ، والروايات الأخرى الواردة في الباب أن الإسلام يعتبر - بكل صراحة - معرفة الله أمراً فطرياً عند الانسان ، ويرى أنها من الثروات الطبيعية فيه ، شأنها في ذلك شأن بقية الغرائز.

مطالعة كتاب الخلقة :

يسلك الأنبياء بين الناس بالنسبة إلى المعرفة الالهية دور المذكر لا المعلم فانهم يقومون بإزاحة أستار الغفلة عن الضمير الباطن والفطرة الانسانية ، إنهم جاؤوا ليوصلوا المعرفة الفطرية الاجمالية إلى مرحلة الايمان الاستدلالي العقلي التفصيلي عن طريق الارشاد إلى التفكير والتدبر في الآيات ، وعن طريق مطالعة كتاب الخلقة ، حيث تتجلى مظاهر الدقة والاتقان في كل ذرة من موجودات هذا الكون الفسيح ، وبذلك ليؤمن الناس بعظمة خالقهم ويخضعوا له في مقام العبودية ويطيعوا أوامره.

إن المعرفة الفطرية قابلة للتوضيح بأسلوبين :

(1) إدراك القدرة اللامتناهية :

يدرك كل فرد من أفراد البشر من أي طبقة كان ، وإلى أي عنصر انتمى بوجود قدرة لا متناهية وقوة عظيمة مسيطرة على الكون كله ، وذلك بفضل وجدانه الفطري ... قدرة عظيمة لا توصف وقوة ثابتة لا تتغير ، قدرة فوق جميع القدرات ، وقوة يرجع إليها كل فرد عند اليأس من السنن الطبيعية والعادية للأشياء ، فعندما تغلق بوجهه جميع أبواب الأمل والرجاء يجد باب تلك القدرة مفتوحاً ويستعين بتلك القدرة اللامتناهية ، يدرك بوجدانه أن تلك الذات المجهولة ، تلك الحقيقة المستترة ، تلك القدرة اللامتناهية إذا أرادت حلت المشكلة وفتحت جميع الأبواب. هذا الادراك ليس. ناشئاً من العقل والبرهان ، بل إنه ناشئ من الوجدان والفطرة وهو موجود في باطن كل فرد ، ويكون جزءاً أساسياً من كيانه ، هذا الادراك الفطري

ص: 236

هو الأساس الأول للتدين ... ولقد عرف الأنبياء هذه الحقيقة المجهولة باسم (الله).

« قال رجل للصادق (عليه السلام) : - يابن رسول الله ، دلني على الله ما هو؟ فقد اكثر علي المجادلون وحيروني ... فقال له : يا عبدالله هل ركبت سفينة قط؟

قال : نعم!

قال : وهل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ، ولا سباحة تغنيك؟!

قال : نعم.

قال : فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال : نعم!

قال الصادق (عليه السلام) : فذلك الشيء هو (الله) القادر على الانجاء حيث لا منجى ، وعلى الاغاثة حيث لا مغيث « (1)

ولقد أشار علماء العصر الحديث إلى هذه الحقيقة بألفاظ وكلمات مختلفة :

يقول (ماكس مولر) : « إن الاحساس اللامتناهي يوجب نشوء العقيدة والدين « (2).

ويقول (انيشتين) : « إن عقيدتي هي عبارة عن الحمد المتواضع الضئيل لروح فائقة لا حدية « (3).

أما (جان جاك روسو) فيقول : « ليس طريق الايمان بالله منحصرأ في العقل وشكوكه وأوهامه ، بل إن الشعور الفطري هو أفضل طريق لا ثبات هذا الموضوع (4).

والذين لهم أدنى معرفة بأسلوب تفكير (فرويد) وأتباعه يعلمون أنهم كانوا مصرين على إنكار الفطريات الايمانية والأخلاقية ، وأنهم يعتبرون الدين والمذهب أمراً من صنع البشر. أما في مقام المعرفة الفطرية فقد وقعوا في مأزق حرج واضطروا إلى التراجع قليلاً والتحدث بأسلوب أهدأ وأقل إثارة...

ص: 237

1- معاني الأخبار للشيخ الصدوق ص 4.

2- إرتباط إنسان وجهان ج 1 69.

3- المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

4- إرتباط إنسان وجهان ج 1 175.

« لا يمكن الإنكار أنه يوجد بعض الأشخاص يقولون أنهم يحسون في أنفسهم إحساساً لا يستطيعون وصفه بصورة جيدة. هؤلاء يتحدثون عن إحساس يتصل بالأبدية ».

« هذا التصور الذهني ينعكس من إحساس أبدي معروف عند العرفاء الكبار ، وفي التفكير الديني الهندي. ويحتمل أن يكون أساس الشعور الديني الذي يظهر بصورة العقائد والمذاهب المختلفة ».

« إن فرويد يتردد في هذا الموضوع ، ويقر بأنه لم يستطع بتحليلاته النفسية أبداً أن يجد أثراً لمثل هذه الاحساسات في نفسه. ولكنه يضيف رأساً وبصراحة كاملة أن هذا لا يسمح له بإنكار هذا الاحساس بالنسبة إلى الآخرين » (1).

(2) ربط المعلول بالعلة :

يستطيع كل فرد أن يدرك بواسطة وجدانه الفطري ومن دون حاجة إلى معلم أو مرب ، أن كل معلول يحتاج إلى علة ، ولا يوجد أثر بلا مؤثر. المصنوع يحتاج إلى صانع ، والبناء يحتاج إلى بناء ، ان الوجدان الفطري الذي يربط بين الأثر والمؤثر طبيعي إلى درجة أن الطفل بمجرد أن يصبح قادراً على التكلم يسأل أمه باستمرار عن علل الحوادث المختلفة ، هذه الأسئلة ليست ذات صلة بالتفكير ولا ناجمة من المحاسبة العقلية ، لأنه لا يدرك المسائل العقلية بعد. وهكذا فإن أكثر القبائل البشرية الوحشية تملك هذا الوجدان الفطري. يقول الشريف الرضي (ره) عند شرحه لبعض روايات الفطرة :

« وهذا يدل على أن فطرة ابن آدم ملهمة معلمة من الله بأن الأثر دال دلالة بديهية على مؤثرة بغير ارتياب » (2).

ما أكثر الأفراد الذين استفادوا من كنز المعرفة الفطرية عندهم بفضل إيمانهم ووعيهم ، وتوصلوا إلى وجود الله الخالق الحكيم عن طريق التفكير والتدقيق في آية

ص: 238

1- أنديشه هاي فرويد ص 89.

2- إثبات الهداة ج 1 103.

أو عدة آيات الهيّة ، ووقفوا خاضعين له في مقام العبودية مطيعين أوامره ونواهيه ... وعلى العكس فما أكثر الأفراد الذين لم يلتفتوا لنداء الفطرة المنبعث من أعماقهم وتجاهلوا الحقيقة ، ولم يتوقفوا لعبودية الله والخضوع له حتى يوماً واحداً ، طيلة حياتهم. وكذلك ما أكثر الأفراد الذين حاولوا إحياء المعرفة الفطرية في نفوسهم ، ولكنهم ضلوا عن الطريق المستقيم ، وعبدوا الجماد والنبات والحيوان ، أو الشمس والقمر والنجوم بدلاً من خالق الكون.

ولأجل أن يتضح معنى المعرفة الفطرية للسامعين الكرام أكثر نعقد مقارنة بين صنع الله وصنع البشر من حيث الدلالة على وجود الصانع ونتوصل ضمن المقارنة إلى بعض النتائج المفيدة.

إن القرآن الكريم يرى في الكون والموجودات كلها أنها صنع الله وتنظيمه ... «صَنَعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْتَنَ كُلَّ شَيْءٍ» (1). إذن فالله تعالى هو صانع العالم وجميع الموجودات مصنوعة له. ولقد استعمل القرآن الكريم مادة (الصنع) بالنسبة إلى أعمال البشر أيضاً في عدة مواضع ، فقال في موضوع سفينة نوح : «وَيَصِّصْ نَحْ الْفُلْكَ ...» (2). وفي قصور فرعون والفراعنة يقول : «وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصِّصْ نَحْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ» (3). وفي الأشياء السحرية التي صنعها سحرة مصر لمعاندة موسى «وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا» (4). وفي صنع داود للدروع : «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ» (5).

إذن فإن جميع الطائرات والسيارات والمعامل والآلات والأدوات وجميع ما كونه البشر يكون من صنع الانسان كما أن جميع ما في العالم صنع الله ، مع فارق واحد هو : أن الله يخلق المادة والصورة معاً ، بينما الانسان يصنع المادة التي خلقها الله بالصورة التي يريدها.

ص: 239

1- سورة النمل 88.

2- سورة هود 38.

3- سورة الأعراف 137.

4- سورة طه 69.

5- سورة الأنبياء 80.

ومن هذه المقارنة بين صنع الله وصنع الانسان نصل إلى بعض النكات التي تتعلق بموضوع بحثنا وهي : -

1 - الأثر يدل على المؤثر :

يدرك الانسان بصورة فطرية أن لكل مصنع صانعاً ، كما يدرك كل فرد - مثقفاً كان أو أمياً ، وحشياً أو متمدناً - أن للطائرة والسيارة صانعاً صنعهما ، وإن للعمارات الصغيرة والضخمة بناها ، ولقد كانت القبائل الوحشية تدرك هذا الموضوع أيضاً ، فعندما كان أحد يرى آثار أقدام إنسان أو حيوان في صحراء واسعة مغطاة بالثلوج ، كان يقطع بأن إنساناً أو حيواناً قد عبر من تلك المنطقة. وإذا صادف كوخاً صغيراً وسط صحراء قاحلة قائماً على بعض قطع الأخشاب والأشواك كان يحكم بوجود صانع لذلك الكوخ ، وبالنسبة إلى الكون الذي هو صنع الله تعالى يوجد في فطرة كل إنسان هذا النوع من الادراك. فعندما يشاهد شروق الشمس والقمر وغروبهما ، وعندما يرى الربيع واخضرار الأشجار أو الخريف واصفرار أوراقها ، وعندما يلتفت إلى الرعد والبرق والمطر يحس في وجدانه الباطني أن قوة عظيمة وثابتة هي التي أوجدت هذا النظام فيميل إلى البحث عن مصادر هذه القوة. هذا الادراك الطبيعي الموجود في باطن جميع الأفراد بقلم القضاء الالهي هو تلك المعرفة الفطرية التي يعبر عنها الامام (عليه السلام) بأنها ليست اكتسابية وأنها مخلوقة من قبل الله في باطن كل فرد.

2 - المعرفة الاجمالية والايمان التفصيلي :

إن كل فرد يدرك بفطرته أن للطائرة النفاثة صانعاً ، وكل فرد يدرك بصورة طبيعية أن للقاح الخناق الذي يخلص آلاف الأطفال من الموت الحتمي مخترعاً ، ولكن هذا لا يكفي في نظر جميع العقلاء والعلماء في الاشادة بفضل مهندس مخترع أو طبيب مكتشف. فلو أرادت دولة أو أمة أن تحترم جهود هؤلاء الذين خدموا البشرية يجب عليهم أن يتجاوزوا دور المعرفة الجزئية إلى مرحلة أرقى ، وهي ذكر أسماء المخترعين وهوياتهم وتشجيعهم عن طريق تقديم الهدايا والجوائز إليهم.

وهكذا يدرك كل فرد بفطرته أن لهذا العالم الفسيح خالقاً وأن لهذا الأثر العظيم

والعجيب مؤثراً ، ولكن لا يكفي هذا في مقام الشكر لله تعالى وتعظيمه. بل يجب أن يخطو الانسان خطوة أوسع ويطلع على آثار قدرة الله ويؤمن به ، ويشكره للنعم الكثيرة التي لا تحد ولا تحصر ، وإن الفطرة الأولى لا تحتاج إلى معلم ، والأنبياء جاءوا لهداية البشر في المرحلة الثانية.

3 - عدم تقدير الجهود :

وبالرغم من أن الناس يستفيدون من مصنوعات بني جنسهم بصور شتى لكن القليل منهم يقدر جهود العلماء والمهندسين الذين صنعوا تلك المصنوعات إن باستطاعة المريض المشرف على الهلاك أن يركب طائرة ويصل في ظرف بضع ساعات إلى أرقى المستشفيات في العالم وتجرى له عملية جراحية وينجو من الموت والألم. هذا المريض يعلم أنه لو لم تكن الطائرة ، ولو لم يكن العقار المخدر ، ولو لم تكن العقاقير المطهرة للجراثيم ... ولو لم تكن عشرات الاختراعات العلمية فانه يموت ... إن المريض يدرك بفطرته أن لكل من هذه المخترعات مخترعاً ، ولكنه في سبيل العلاج والتطبيب لا يفكر إلا في نفسه والمنافع التي يحصل عليها من تلك الاختراعات غافلاً عن المهندسين العظماء والمخترعين الكبار الذين أوجدوا تلك الصنائع ، ولا يتذكروهم في مقام تقدير جهودهم.

قد يقف الخطيب في قاعة ضخمة ويلقي محاضرة على عشرات الألوف من المستمعين موصلاً صوته إليهم بواسطة جهاز تكبير الصوت وهو يدرك بفطرته أن لهذا الجهاز صانعاً ولولاه لما استطاع أن يوصل صوته إلى هذا العدد الضخم من الناس. ولكنه غافل عن معرفته الفطرية ولا يتنبه إلى مخترع هذا الجهاز أصلاً ، بل يفكر في رغبته فقط ويتنبه إلى وصول صوته إلى أكبر عدد ممكن من الناس فحسب.

هذا وإن الجميع يعلمون أن هذه الغفلة وعدم تقدير جهود المخترعين والمنشئين لا يغيران من الواقع شيئاً : فلكل مصنعٍ صانع ولكل أثرٍ مؤثر.

إن موقف البشر تجاه صنع الله تعالى وتجاه عظمتة في تدبير شؤون الكون يشبه الموقف السابق. فجميع الناس يستفيدون من نعمه التي لا تعد ولا تحصى كل يوم ، وكلهم يدركون أن لهذا الخلق خالقاً ، ولكل مصنعٍ صانعاً فبعضهم يقدرون عظمتة

الخالق ويشكرونه على نعمه ولكن البعض الآخر يتكبرون له ولا يعترفون له بالجميل والفضل والانعام ...

العالم الالهي والعالم المادي كلاهما يلاحظان النظام الدقيق في الكون وكلاهما يدركان أسرار الحكمة والعظمة في العالم ... مع فارق كبير بينهما هو أن العالم المادي يرى النظام فقط ، أما العالم الالهي فانه يرى النظام والمنظم معاً. وفي نفس الوقت الذي يهتم فيه بدقائق صنعه ، وشواهد عظمته يتجه إلى عظمة الخالق ويقف خاضعاً تجاه مقامه المنيع مقدماً مراسيم الشكر والثناء والاعتراف بالجميل.

4 - المهندس التقدير والصدفة العمياء :

لنفرض أنه يوجد في مخزن ما مليون طن من الأحجار والطابوق والاسمنت والحديد والجص والأخشاب والزجاج واللوازم والمقايض والأسلاك والأنابيب وغير ذلك من المواد الانشائية. وكان مليون طن من هذه المواد تحت اختيار مهندس معمار ، فانه يخرج تلك الكمية من المخزن وينشئ على أرض مسطحة عمارة ذات ثلاث طوابق ... وبعد مدة يأتي سيل جارف ويخرج المليون طن من المواد الانشائية الباقية في المخزن إلى الخارج ويكومها على بعد بضعة كيلومترات مكوناً تلاً من ذلك الخليط. العمارة ذات الثلاث طوابق إنما هي إنتاج ذلك المهندس التقدير ، والتل المتراكم عمل طبيعي للسيل.

إن العقلاء من كل أمة وفي أي عصر حينما يدخلون العمارة التي أنشأها المهندس يجدون أن كل شيء قد وضع في محله حسب نظام دقيق ومحاسبة أساسية : فالطابوق في داخل البناء والرخام فوقه والأعمدة الحديدية ذات القياسات الخاصة تحفظ السقف ، والأبواب مرتبة في أماكنها والأسلاك مربوطة بالأزرار والمصابيح الكهربائية ، وحنفيات الماء البارد والحرار متصلة بالأنابيب ومعدة للعمل في الحمام والمغسلات ، والسلالم تربط طوابق العمارة ببعضها حسب هندسة دقيقة ... وبصورة موجزة فإن كل شيء في ذلك البناء موضوع في محله والنظام يسيطر على جميع أجزاء البيت.

أما حين يذهب العقلاء إلى التل الذي صنعه السيل ، فلا يجدون نظاماً هناك. فأحجار الرخام قد ركبت تحت الطين وأعمدة الحديد مبعثرة هنا وهناك ، والأسلاك متشابكة فيما بينهما وملتفة بصورة مشوشة حول الأعمدة والأحجار ، والأبواب مكسرة وشبه مكسرة ، البعض منها بصورة أفقية والآخر بصورة عمودية ، وبصورة موجزة : فإن الشيء الذي يفتقد في نتاج السيل هذا ، هو النظام والقياس الصحيح.

يتضح للناظر العاقل من مقارنة هذين النموذجين أن صانع العمارة كان عالماً ، وأن صانع التل كان فاقداً للعلم والشعور ، ولقد وضع المهندس كل شيء في محله حسب قياسات ومحاسبات دقيقة أما السيل فلم يكن نتاجه صادراً عن وعي وإرادة بل أن اندفاع الماء قد بعثر كل شيء في مكان ما من دون نظم أو ترتيب. إن بناء الكون الفسيح ونظامه العظيم مركب من آلاف الملايين من الأجرام الكونية الصغيرة والكبيرة ، وإن الكرة الأرضية التي نعيش على ظهرها إنما هي جزء صغير من تلك الأجرام التي لا تعد ولا تحصى ، وأن الأحياء على ظهر هذا الكواكب من نبات وحيوان وإنسان كل منها ذرة صغيرة جداً بالنسبة إلى الكرة الأرضية نفسها. إن فطرة كل فرد ترشده إلى أن لهذا الصنع العظيم صانعاً وأن لهذا البناء المحير وهذا الأثر العجيب مؤثراً. وإن الالهيين والماديين ويتفقون في هذا الأمر الفطري لكنهم يختلفون في معرفة هذا الصانع وتعيين هذا المؤثر.

يرى الماديون - أي المنكرون لله - أن الكون العظيم نتيجة الصدفة فقط فهناك ملايين الحوادث غير الاختيارية والعوامل غير الارادية طوال آلاف الملايين من السنين اجتمعت لتوجد هذا الأثر وتنشئ هذا البناء. وبعبارة أوضح : انهم يقولون ان العالم يشبه ذلك التل المبعثر والقائم على غير قياس ونظام ... الموجود نتيجة جرف السيل لتلك المواد الانشائية.

أما الالهيون فانهم يرون أن مظاهر النظام والترتيب الدقيق تبدو في كل زوايا الوجود ، وأن الصدفة العمياء والطبيعة الفاقدة للارادة والوعي غير قادرة على أن توجد هذا الأثر الحكيم والملهي إدراكاً ووعياً. إن الله العالم القادر الحكيم هو الذي أقام نظام الكون على أساس المحاسبة الدقيقة والنظام المتقن وبعبارة أوضح : فإن هذا الكون أشبه بتلك العمارة المنظمة الجميلة التي أنشأها تفكير المهندس

القدير وعمله ، حيث نجد كل شيء مستقراً في محله حسب قياس صحيح.

لقد استدل العالم الشهير (داروين) على عقيدته بالنسبة إلى الله تعالى في رسالة له إلى عالم ألماني عام 1873 م بهذه الصورة :

« إن العقل الرشيد والفكر السليم لا يشك أبداً في أن من المستحيل أن يوجد هذا الكون الفسيح مع هذه الآيات الواضحة والشواهد المتقنة ، مع هذه النفوس الناطقة والعقول المفكرة نتيجة للصدفة العمياء الجاهلة. ذلك أن الصدفة العمياء لا تستطيع أن توجد نظاماً دقيقاً وبناءً قوياً. وهذا في نظري أكبر شاهد على وجود الله. أنا لا أبحث عن بقية البراهين والأدلة التي تثبت وجود الله ، لأن باستطاعة هذا البرهان وحده أن يقنع كثيراً من الباحثين والمتتبعين » (1).

« يقول العالم الذائع الصيت (انيشتين) : يندر أن نجد شخصاً لا يملك بين أفكاره العلمية العميقة شعوراً دينياً. لكن ذلك الشعور الديني يختلف عن شعور البسطاء. إن شعوره الديني يكون في الغالب بصورة حيرة مجذوبة نحو الانسجام الدقيق المشاهد في الطبيعة هذا الانسجام يحكي عن عقل عظيم إذا قسنا التفكير البشري والنشاط الانساني معه كانا لا شيء تماماً » (2).

سنل (باستور) بعد اكتشاف أسرار عالم الميكروبات عن رأيه في أصول الديانة فقال : إن عقيدتي بالدين قد ترسخت أكثر من السابق » (3).

« ولكن في الاستطاعة أن نشير إلى شيء حدث منذ زمن بعيد ، عند بدء الحياة على الأرض ، وكان له شأن عظيم ، ذلك : أن خلية واحدة قد نمت عندها القدرة المدهشة على استخدام ضوء الشمس

ص: 244

1- (1) أصل الأنواع - مقدمة المترجم الفارسية - ص 26

2- إرتباط إنسان وجهان ج 1 69.

3- إرتباط إنسان وجهان ج 1 219.

في حل مركب كيميائي ، واصطناع غذاء لها ولأخواتها من الخلايا. ولا بد وأن لدات أخريات لخلية أصلية أخرى قد عاشت على الغذاء الذي أنتجته الخلية الأولى ، وأصبحت حيواناً ، في حين صارت الخلية الأولى نباتاً والنباتات التي هي نسل هذه الخلية هي التي تغذي جميع الكائنات الحية الآن ، فهل يمكننا أن نعتقد أن كون خلية قد أصبحت حيواناً ، وأخرى قد أصبحت نباتاً إنما حدث بطريق المصادفة؟ « (1).

لقد اتضح من البحوث السابقة أن للمعرفة الالهية أساساً فطرياً في باطن كل فرد ، وأن هذه المعرفة الفطرية تتحول إلى إيمان تفصيلي بمعونة العقل والتدبر في الآيات الكونية ، وأن أساس الإيمان والمذهب قائم على الفطرة والعقل. وبالرغم من أن القرآن الكريم يستند في المعرفة إلى الفطرة ويعبر عن ندائها ب- (الدين القيم) فانه يدعو الناس إلى التدبر في أسرار الخلق ويأمرهم بالتعقل والتفكير.

إن الذين اتبعوا الأنبياء واهتموا بتربية بذور الفطرة في تربة العقل آمنوا بالله تعالى ، ووقفوا خاضعين أمام عظمتة وقدرته. أما الذين لم يصغوا لنداء العقل ، ولم يوجهوا الفطرة بالتدبر والتعقل إلى الوجهة الصحيحة فانهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وسار بعضهم في طريق المادية والاعتقاد بالصدفة بينما سار آخرون في طريق الوثنية وما شاكل ذلك.

الانحراف عن طريق الفطرة :

لقد وجه الشيوعيون - الذين يتبعون المبدأ الاقتصادي وينظرون كل شيء بمنظار الاقتصاد - حملات شعواء ضد الدين والعقيدة.

« يقول لينين : إن الدين أحد وسائل الضغط الروحي على الطبقة الكادحة التي تكد لغيرها دائماً ، وتعيش في الحرمان المستمر ...

ص: 245

1- العلم يدعو للإيمان تأليف إكريسي موريسون. ترجمة : محمود صالح الفلكي

إن الماركسية تعتبر جميع المذاهب الحديثة ، والتنظيمات الدينية لعبة بيد الطبقة البرجوازية والهدف من ذلك كله هو استغلال الطبقة العاملة والحط من قدرها ... » (1).

هؤلاء يوجهون للتعاليم الدينية اتهامات في كتبهم لا- يمكن أن تغفر. وكنموذج على محاولاتهم الهدامة والمخالفة للحقيقة نتعرض لموضوع الصبر في الاسلام وكيفية تفسير الشيوعيين له ، بالرغم من أن الموضوع خارج عن دائرة بحثنا :

التفسير الخاطي للصبر في الاسلام :

كان رؤساء العشائر قبل ظهور الاسلام يحكمون بالظلم والقسوة جماعة من المساكين والضعفاء ، وكانوا يستولون على أموالهم ، ويذيقونهم شر العذاب. ولقد جاء الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمر الله ليقيم العدل وينهي ذلك الوضع المخزي وليحفظ للضعفاء حقوقهم ، ويضرب على أيدي الطغاة والظالمين.

ولقد ارتبك الجائرون من موقف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقاموا لمناهضته واتفقوا للوقوف بوجهة ... وكان على المسلمين الضعفاء أن يقفوا صفاً واحداً أمام جبهة الظلم والجور ، وهذا عمل صعب يتطلب جهداً كبيراً. فأخذ القرآن الكريم في تشجيع معنويات المسلمين وحثهم على المقاومة ، وأمرهم بالصبر في قبال السيوف والرماح ، وطلب منهم مجابهة المصائب بصدور رحب مطمئناً لهم بأن الباطل سيندحر وأن النصر محتم لهم

1 - « فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (2).

2 - « وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » (3).

ص: 246

1- المادية التاريخية ص 90.

2- سورة الأنفال 66.

3- سورة البقرة 177.

3 - «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» (1)

4 - «وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا» (2).

5 - «فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» (3).

فنجده أن القرآن الكريم يحث المسلمين على الصبر والثبات في مواجهة صفوف الجائرين ودعاة الباطل ، ويدعوهم إلى عدم الرضوخ للباطل وعدم الاستكانة للظلم ، وحمل راية التوحيد والحق ، والعدل والحرية لطرد العدو.

أما الشيوعيون فانهم حين يصلون إلى هذه النقطة يقومون بخيانة كبيرة ويعملون - على خلاف الانصاف والانسانية على تشويه الحقيقة وتفسير أمر الاسلام بالصبر تفسيراً يخالف الواقع فيقولون :

« لقد جاء الدين يؤيد مصالح الطبقة الحاكمة ، ويحث العامل على الجِد والتعب والتحمل ، وفي قبال ذلك يعده بالجنة ، ويقول ان الله يحب الذين يتحملون الآلام والمصائب (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) » (4).

يا للوقاحة! إنهم يعملون على نشر هذه التلفيقات والتحريفات ضد الدين لجرف شباب المسلمين الفارغي الأذهان ... وليحكم رجال العلم والفضيلة في حق هؤلاء!!.

فرويد والفطرة :

يمكن اعتبار فرويد وأتباعه ممن انصاعوا لكلماته دون وعي أو إدراك من جملة الماديين المنحرفين عن الفطرة ، ولكنهم يسدلون ستار التحليل النفسي والبحث العلمي على انحرافهم ذاك. وبما أن موضوعنا يدور حول الفطرة الايمانية والوجدان

ص: 247

1- سورة محمد 31.

2- سورة آل عمران 120.

3- سورة آل عمران 146.

4- المادية التاريخية ص 91.

الأخلاقي لا بد من توضيح بعض النقاط عن موقف فرويد من هذه المسألة :

1 - إنه لا شك في أن فرويد كان محللاً نفسياً حاذقاً. ولكن علم التحليل النفسي يختلف عن علم معرفة الانسان ، وكما أن الطبيب يعرف مزاج الانسان وليس هو مزاج الانسان ، فإن فرويد طبيب نفسي وليس تمام النفس الانسانية. وإذا حصر أحد البشرية كلها في علم النفس فقد ظلم الانسانية.

« ولن تكون رئاسة السيكلوجيا أقل خطراً من الفسيولوجيا والطبيعة والكيمياء ... فقد أحدث (فرويد) أضراراً أكثر من التي أحدثها أكثر علماء الميكانيكا تطرفاً فإن من الكوارث أن نختزل الانسان إلى جانبه العقلي مثل اختزاله إلى آلياته الطبيعية الكيميائية » (1).

2 - لقد اعتنى فرويد في معرفة الانسان بالشهوة الجنسية قبل كل شيء. وبدلاً من أن يجعل بحثه يدور حول الانسان أخذ يبحث عن الجنس ونظر إلى الانسان من زاوية الميل الجنسي فقط. إن فرويد يرى أن الانسان السعيد هو الذي يروي ظمأه الجنسي بأي طريق شاء. إنه لا يلتفت إلى السجيا الانسانية والملكات الفاضلة ، ولذلك فهو ينتقد الأوضاع والتعاليم الدينية وقوانين العالم المتمدن في عدم فسح المجال وعدم إعطاء الحرية الكاملة للناس في إرضاء ميولهم الجنسية ، ولم يرض بهذا الظلم بالنسبة إلى الغريزة الجنسية :

« إن انتخاب أي موضوع من قبل فرد مراهق ينحصر في الجنس المخالف ، وفي الغالب تمنع الميول الجنسية التي تحصل في الخارج من التوالد والتناسل وذلك بعلّة الفساد والانحراف. إن هذا العمل يؤثر بنسبة كبيرة في جماعة من الناس ويبحث على تقليل لذتهم الشهوانية وبذلك يسبب إحجافاً شديداً ».

« إن الشيء الوحيد الذي بقي لحد الآن حراً ولم يمنع منه هو الميل نحو الجنس المخالف ضمن قيود خاصة أيضاً ، لأن العلاقة مع

ص: 248

الجنس المخالف يجب أن تكون مشروعة أولاً ، ويجب أن يكتفي كل فرد بفرد واحد من الجنس المخالف فقط » (1)

إن فرويد يدافع عن الشهوة الجنسية لسحقه للمثل الانسانية ، ويعمل من أجل فسخ المجال التام أمام ممارستها! إن اتباع مذهب فرويد في إرضاء الميول الجنسية معناه الانحراف إلى طريق الدعارة والفحشاء والشقاء. والأسلوب الفكري الفرويدي يسدد ضربة قاصمة إلى أساس تكوين الأسرة والحنان العائلي وتربية الطفل. إن تحليل كلمات فرويد في الغريزة الجنسية يجر وراءه سلسلة من النتائج الوخيمة التي ننزه اللسان عنها.

3 - إن عقدة الحقارة في مدرسة التحليل النفسي الفرويدي مسألة قابلة للانتباه ، فإن المصابين بهذه العقدة والذين يحسون والحقارة في نفوسهم تظهر فيهم ردود الفعل المختلفة. فما أكثر سكون الناس وانزواءهم وتكبرهم وتواضعهم ، ونصائحهم ، واستدلالاتهم التي تنبع من عقدة الحقارة. لكن تظهر بالمظاهر الآتية الذكر.

منشأ عقدة الحقارة عند فرويد :

لقد كان (فرويد) معرضاً للاستهزاء والسخرية في أيام شبابه نظراً لاعتناقه اليهودية ، وإن جميع المترجمين له يصرحون بهذه النكتة :

« ولد سيجموند فرويد في 6 مايس 1856 في مدينة صغيرة (فرايبرك) واقعة في ولاية (مراوي) ، لقد كان أبواه وأقاربه ينحدرون من عائلة يهودية قديمة ، كانت على أثر الاضطهاد الذي كان يلاقيه اليهود في تلك العصور قد رحلت من (بالاتينا) الواقعة في (باوير) وسكنت في (مراوي). والنكتة التي يجدر ذكرها هي أن فرويد كان معرضاً لاستهزاء وإزدراء زملائه دائماً بالنسبة لمذهبه وعنصره. وإن رد الفعل الذي أوجدته تلك السخرية في نفسه ، يظهر في ميله إلى التطرف والانزواء » (2)

ص: 249

1- انديشه های فرويد ص 129.

2- انديشه های فرويد ص 10.

لقد أدى اعتناق فرويد اليهودية أن يعرض للتحقير والاستهزاء منذ الصغر ، وبذلك سحقت شخصيته وعزة نفسه. هذا الأمر جعله ينظر نظرة تشاؤمية تجاه الدين الذي سبب له السخرية والزدرء. فقد كان التفكير في الدين يشوش عليه ويقض عليه مضجعه ، وكان يعجز منه.

« لقد لخص فرويد بحثه في الاتجاه الديني في هذه الجملة : إنني أجد نفسي مضطرباً وقلقاً عند البحث في أمثال هذه المسائل التافهة ، واني أعترف بذلك دائماً » (1).

يرى فرويد : أن الميول المكبوتة في أيام الطفولة لا تتمحي ، بل تنتقل إلى الضمير الباطن وتنشئ ردودها المختلفة طيلة الحياة ، ومن المناسب أن نستفيد من هذه الجملة وتحقق عن ضميرة الباطن لنجد المظاهر التي أدت إليها شخصية فرويد المنحرفة وعقدة الحقارة التي كانت ناشئة في ضميره الباطن من جراء السخرية الدينية.

رد الفعل لعقدة الحقارة :

لم يقف رد الفعل الذي أدت إليه عقدة الحقارة في نفس فرويد عند حد الانزواء والابتعاد عن المؤثرات الدينية بل راح يثار لكرامته وينتقم من الاستهزاءات التي حصل عليها تحت ظل اعتناقه اليهودية. ولقد استغل البحث النفسي لمناهضة الدين وأعمل جهده في إجتثاث أصول العقيدة وإذ كان هدفه على خلاف الحق والواقع ، فقد أتى بقضايا واهية وكلمات لا أساس لها من الصحة أصلاً.

إنكار الفطرة :

لما كان الايمان بالله الأساس الأول للدين في علم الانسان ، ولما كان الالهيون والعلماء مستجيبين لنداء فطرتهم وتوجيه عقولهم إلى الايمان بخالق الكون الذي أودع فيه هذا النظام الدقيق وهذا الانسجام الكامل ، فقد بدأ فرويد في إنكار الفطرة التوحيدية وكانت الخطوة الثانية التي أعقبها في هذا المجال ، التغافل عن

ص: 250

المنطق الاستدلالي والعقلي للعلماء وتعريف الدين بسلسلة من العوامل النفسية تحت ستار من التحليل النفسي.

إن نظرية فرويد بالنسبة إلى الأديان معروفة في جميع الكتب التي تعرضت لبيان نظرياته ، وللاستشهاد ننقل هنا بعض البعارات من كتابين بهذا الصدد :

« لا يتفق أي دين مع دليل تام ، فالدين توهم يتخذ قوته من نتيجة تلقي الميول الغريزية عندنا » (1)

« لا يقوم الدين بأصوله وتعاليمه بعمل من وجهة نظر البحث النفسي ، غير إيضاح القلق والاضطراب عند الأشخاص. وبعبارة أخرى فإن فرويد يعتقد أن سبب ظهور الدين يرجع إلى ظاهرتين :

أ - القلق والاضطراب الانساني في قبال الميول الغريزية.

ب - خوف الانسان من الطاقات المتغلبة في الطبيعة ».

« وعلى هذا فان فرويد على خلاف (روناك) لا يرى دخلاً للعقل في تكوين المذهب ، ويعتبره أمراً نفسانياً فقط » (2).

« يرى مذهب التحليل النفسي أن الاستنتاج الديني من الموجودات يرجع الى حالتنا الطفولية ، إن الطفل يجد نفسه أمام عالم عظيم ، وعلى الأم أن تؤمن مخاوف الطفل تجاه العالم كله وحمايته من الاضطرابات. وبعد ذلك يلقي عبء هذه المهمة على الآباء ، فيجب عليهم القيام بدورهم طوال مدة الطفولة ».

« إن الخوف الناشئ في الطفولة يمتد حتى البلوغ أيضاً وإن الفرد البالغ يستأنس بجميع الأخطار التي تهدد حياته إنه يحتاج - كالطفل - إلى حماية شبيهة للتي يحتاجها في الاعوام الاولى من حياته في قبال أخطار العالم ومشاكله ولذلك فهو يبدأ ينظر الى تلك القوة التي فوق البشر وتلك الألوهية كشيء ذي حقيقة » (3).

ص: 251

1- فرويد وفرويد يسم ص 150.

2- انديشه هاى فرويد ص 86.

3- فرويد وفرويد يسم ص 148.

هل كان فرويد جاهلاً في الواقع ، أو أنه تجاهل بسبب عقدة الحقارة التي يحس بها ضد الدين ، لأخذ الثأر؟!

هل إن الآف العلماء الالهييين الذين آمنوا في الماضي والحاضر بالله كان اعتقادهم مبنياً على أساس البحوث النفسية لفرويد؟!

أفهل كان السبب في اعتقاد حملة راية العلوم ، وقادة التقدم العلمي بالله في العصر الحديث هو الخوف من قوى الطبيعة الظالمة - كما يقول فرويد؟!

هل آمن (انشتاين) ذلك العالم الذائع الصيت لأجل القلق والاضطراب من الميول الغريزية أو الخوف من الزلازل؟.

هل إن اعتقاد (داروين) بالله كان خوفاً من رعيد السماء وبرقها ليلقي نفسه - كالطفل - في أحضان السماء؟!

هل كان منشأ إيمان (بركنسن) و(باستور) العالمين الفرنسيين هو الخوف من أمواج البحر ، أو المواد البركانية التي ألفت بها فوهة بركان؟!

هل كان إيمان العلماء الالهييين في أوربا وأمريكا في العصر الحديث والذين نالوا جوائز (نوبل) ناشئاً عن الخوف من الحوادث الطبيعية ، وهل أن أساسهم النفسي هو الضعف في أيام الطفولة واللجوء إلى الأب السماوي الموهوم؟!

بأي جرأة علمية يقول فرويد وأتباعه : « لا ينطبق الدين مع أي دليل »؟!

كيف يدعي هؤلاء أن العقل لا يتدخل في البحث عن الدين؟!

لماذا يعتبرون إيمان الألوفا من العلماء كان خوفاً من القوى الطبيعية الضالمة ويستسهلون هذه التهمة تجاههم؟!

لماذا هذه المغالطات تجاه الدين من رائد التحليل النفسي الذي يدعي الاستجابة لنداء الواقع دائماً؟!

هذه أسئلة يجب أن يجيب عليها الأناس المثقفون الواعون.

وسنختم بذلك هذه المحاضرة على أن نبحت عن الوجدان الأخلاقي في المحاضرة القادمة.

قال الله تعالى في كتابه الكريم : «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)» (1).

فطرة الوجدان الأخلاقي :

وجدنا في المحاضرة السابقة كيف ينكر (فرويد) إستناد الوجدان الأخلاقي إلى الفطرة. فلقد صرح بأن الوجدان الأخلاقي عبارة عن مجموعة النواهي الاجتماعية والغرائز المكبوتة في مختلف مراحل الحياة تعارف المجتمع على تسميتها بالوجدان.

لكن طائفة كبيرة من العلماء في الماضي والحاضر ترى أن للوجدان الأخلاقي أساساً فطرياً ، وأنه داخل في بنية الإنسان وكيانه. ولما لم تكن عقول العلماء وأفكارهم مصونة من الخطأ والانحراف ، ولأجل الوصول إلى مقياس صحيح يمكن بواسطته معرفة صحة أقوال شخص عالم أو خطئها يجب أن نعرض نظرياته العلمية على آيات القرآن الكريم والنصوص الصحيحة الواردة عن المعصومين عليهم السلام . فإن كان فيها مخالفة صريحة لتلك الأسس الإسلامية الثابتة فيجب أن نقول - بلا ريب - أن ذلك العالم انحرف عن جادة الحق ، وأن تفكيره كان خاطئاً.

ولأجل أن يتضح موضوع الوجدان الأخلاقي للمستمعين الكرام لا بد من الابتداء بذكر الآيات الواردة في المقام ، ثم التعرض للنظريات الحديثة لمقايستها معها ، وذلك للوصول إلى معرفة صحتها أو سقمها.

ص: 253

يرى الاسلام أن الوجدان الأخلاقي (أي القوة المدركة الباطنية التي تميز الخير من الشر) جزء من البناء التام للانسان ، وفطرته. على أنه وإن لم يرد تسمية تلك القوة الفطرية باسم الوجدان الأخلاقي ، في القرآن والأحاديث لكن قد ورد التصريح بها بعبارات أخرى :

1 - قوله تعالى «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)» وبصدد تفسير معنى النفس اللوامة ، ينقل صاحب تفسير البرهان هذا الحديث عن علي بن إبراهيم « ... نفس آدم التي عصت خالقها » (1).

فالانسان حين يرتكب ذنباً يسمع نداء اللوم والعتاب من باطنه ، ذلك النداء يقض مضجعه ، إن علماء النفس يسمون هذه القوة التي تلوم الانسان بالوجدان الأخلاقي (2). والقرآن يسميها بالنفس اللوامة. إن استعمال كلمة (النفس) هنا يشير إلى أن القوة اللائمة هي روح الانسان نفسه وجزء من هيكله. والحديث أيضاً يؤكد على أن هذه القوة النفسية كانت موجودة عند الانسان الأول (آدم) أيضاً.

2 - قوله تعالى : «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)» (3) ولقد ورد عن الصادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية قوله : « بين لها ما تأتي وما تترك » (4).

يستفاد من استعمال كلمة الالهام بالنسبة إلى خلق النفس الانسانية أن القوة المدركة للخير والشر هي من الافاضات الالهية وجزء من خلقة الانسان وهيكله.

3 - قوله تعالى : «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)» (5).

4 - « عن حمزة بن محمد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال : سألته عن قول الله عز

ص: 254

1- تفسير البرهان ص 1160.

2- (*) جرى علماء النفس على تسمية هذه القوة بالضمير الباطن ، والنفس العليا ... الخ.

3- سورة الشمس 7-8.

4- الكافي لثقة الاسلام الكليني ج 1 163.

5- سورة البلد 10.

وجل : «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10)» قال : نجد الخير والشر « (1). يستفاد من ذكر الله تعالى للهداية إلى الخير والشر عند بيان تكوين الانسان وبعد ذكر نعمة العين واللسان والشفة ، أن إدراك الخير والشر أمر فطري في الانسان ويكون جزءاً من بنائه. حيث يقول : «أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) ».

نستنتج من هذه النصوص ونصوص أخرى في الباب ، أن الاسلام يعتبر إدراك الخير والشر فطرياً عند الانسان ، لكن يجب أن نعلم أنه لا يتسنى للانسان إدراك جميع أوجه الخير والشر بصورة فطرية ، وإلا-فأي ضرورة في إرسال الأنبياء؟ ذلك أن الجانب الفطري من هذه الادراكات منحصر في المسلمات الأولية للخير والشر أو الفضائل والردائل ، ويبقى جانب من هذه الادراكات يحتاج فيها الانسان إلى التعليم والاقتراس.

وبعبارة أوضح نقول : هناك طائفة من الأفعال تكون ضرورية لسعادة الانسان وطائفة أخرى مضرة بسعادته وكماله فنسمي الطائفة الأولى (خيراً) والطائفة الثانية (شراً).

الوجدان الفطري والتربوي :

يستطيع الانسان أن يصل إلى معرفة الخير والشر من طريقين : الفطرة والتربية. فهناك طائفة من الأمور الخيرة والشريرة تدركها جميع الأمم والشعوب في العالم ، ولا تحتاج في فهمها إلى معلم ، بل إنها من الأمور الفطرية عندهم. ويمكن تسمية هذا القسم باسم (الوجدان الأخلاقي الفطري).

وهناك طائفة من الخيرات والشرور ، لا يدركها الانسان بفطرته بل إن الأنبياء - القائمين على تربية البشرية - هم الذين علمونا حسناتها أو قبحها ، وقد أصبحت لها على مر العصور جذور عميقة في نفوس الناس ، هذه الطائفة غير فطرية ويمكن تسميتها باسم (الوجدان الاخلاقي التربوي).

ص: 255

إن خيانة الأمانة والتزوج بالأم يشتركان في القبح في نظر الوجدان الأخلاقي للناس ، ولكن الفرق بينهما أن قبح الخيانة ناشئ من طريق الادراك الفطري ، أما قبح التزوج بالأم فانه ناشئ من تعليم وتربية الرجال العظماء في العالم. ولهذا فيجب أن نقول : إن الخيانة قبيحة بحكم الوجدان الأخلاقي الفطري ، وأن التزوج بالأم مذموم بحكم الوجدان الأخلاقي التربوي.

نظرية فرويد واتباعه :

« إن الطفل يرغب في الحركة والنشاط بحرية ، ولكن هذه الرغبة تصطدم منذ البداية بمقتضيات الحياة الاجتماعية إنه يرغب في أن يرفع احتياجاته الطبيعية كما يشاء ولكنه يلزم بمراعاة النظام والنظافة ، فلا يترك الطفل في أن يعتدي على رفيقه كما يشاء أو أن يعرض أمه ، أو يحطم دماه ووسائل لعبه ، وأخيراً فانهم يقفون حجر عثرة أمام إرضاء ميوله الناشئة من الأنانية والاعجاب بالنفس ».

« لما كان كل ميل يتعين بهدف خاص ، فعلى الطفل أخيراً أن ينصرف عن هدفه في هذه الموارد. إن ما يهم لبحوثنا وتحقيقاتنا هو أن نعلم ماذا سيؤدي إليه هذا (الانصراف) ؟ ».

« يجب أن نبحث عن أن جميع مظاهر الميول المكبوتة في الوجدان الباطني ، معلولة لعدم ملائمتها مع الظروف الاجتماعية ».

« توجد الرغبات المكبوتة في الشعور الباطني ، ولكن يجب أن نتذكر أن هذه الميول تحتل جزءاً من الشعور الباطن فقط. فالشعور الباطن يحتوي على عناصر أخرى منها بعض العوامل النفسية الموروثة عند الانسان. وما يتسرب إلى الشعور الباطن للطفل في مراحل تكامله من طاقات لم تجد لها مجالاً للاستغلال » (1).

« يرى فرويد أن الوجدان الأخلاقي ليس إلا رد فعل. وليس عملاً

ص: 256

ذاتياً أو عميقاً يرتبط بالروح الانسانية بل إنه تأمل ساذج في المحرمات الاجتماعية « (1). » يرى فرويد أنه لا يوجد تصور للخير أو الشر لا في تاريخ البشرية ولا في تاريخ الفرد ، هذه التصورات تنفر من المحيط الاجتماعي فقط « (2).

من هذه الجمل القصيرة نصل إلى أن (فرويد) لا يرى للوجدان الأخلاقي أساساً فطرياً أصلاً. بل يرى أنه كما يوضع اللجام في فم الحصان الشموس للسيطرة عليه ، كذلك يفعل الوجدان الأخلاقي - الذي هو حصيلة النواهي الاجتماعية - في تهدئة السلوك الاجتماعي والمحافظة على النظام فيه. بينما نجد أن طائفة كبيرة من العلماء في العصر الحديث يخطئون نظريات فرويد ويرون أن الوجدان الأخلاقي يستند إلى أساس فطري عميق في النفس الانسانية ، وله جذور ثابتة في طبيعة الانسان. وإن نداه الطاهر والسماوي يسمع من الأعماق في جميع مراحل الحياة ، وفي الحالات المختلفة.

« يقل روسو في كتابه (أميل) بهذا الصدد : إن الوجدان هو الغريزة التي تتحدى الفناء بقوة السماء. وهو المرشد الباعث على الاطمئنان عند الأفراد البسطاء والمحدودين لكن الأذكاء والأحرار ، وهو الحكم المستقيم في سلوكه والمميز بين الخير والشر « (3).

« إن مشاهدة الأمراض الروحية من جانب ، والقوى الروحية الطبيعية من جانب آخر ترينا بعض القضايا التي تشهد على الأهمية العظمى للوجدان الأخلاقي في البحوث النفسية ، وفرق ذلك مع (رد الفعل) (4).

« ليس الوجدان الأخلاقي في طاقة مفتعلة بل انه أعمق العوامل في

ص: 257

1- ييماريهاى روحى وعصبى ص 64.

2- انديشه هاى فرويد ص 105.

3- جه ميدانيم؟ جنايت ص 15.

4- ييماريهاى روحى وعصبى ص 64.

الطبيعة الانسانية. ليس في وسع الأفراد إطفاء أو دحر هذا الوجدان بالتظاهر بالأ-مور المختلفة. ومضافاً إلى ذلك فإن ثبات الوجدان الأخلاقي العجيب حتى في أشد الحالات المرضية ، وفي حالة الجنون والانحطاط الروحي ، وبقائه بعد خفوت شعاع العقل والذكاء يزيد على أهمية ذلك في الروح الانسانية. يتساءل بعض العلماء : أليس الوجدان الأخلاقي حصيلة التعليم والتربية والدين؟ ولكن يجب أن نتذكر أنهم قد حصلوا في الأدوار الأولى على آثار واضحة لهذا الوجدان. إن استغفار القبائل البدائية واستيحاشها يدل على قدم الوجدان منذ تلك العصور. وإن إنكار هذه الحقيقة بمثابة أن لا نفهم من الشخصية الانسانية أي شيء « (1).

عدم نضج كلمات فرويد :

ونظراً للتطرف الشديد الملحوظ في كلمات فرويد ، فقد صرح كثير من العلماء المعاصرين بطلانها ، وأوردوا الأدلة المفصلة في ردها. فقد استعمل فرويد أسلوب الأساطير بدل البحث العلمي والبحث والتحليل الواقعي في موضوع الوجدان الأخلاقي والدين. إنه يبني أصول المذهب والوجدان على قبيلة خيالية إصطنعها في ذهنه ، واستمر بحثه ، ومتى اصطدم بالحواجز تخلى عن البحث. إن قسماً من علماء النفس الغربيين الذين ساءروا نظريات فرويد تقريباً لم يستطيعوا السكوت على عدم نضج كلماته بصدد المذهب : - « إن الذي يطالع آثار فرويد ويصل إلى هذه النتيجة وهي أنه لم يجب على استفسارات وأسئلة القراء في القضايا المذهبية وما شاكل ذلك. ولكن يجب أن لا يغيب عن أذهاننا أن فرويد لم يدع أبداً أنه قدم توضيحاً كافياً في المسائل الدينية » (2).

ونظراً لأن التحليل النفسي يعرض إلى الأسواق الفكرية في بلادنا كمتاع جديد ،

ص: 258

1- المصدر السابق ص 67.

2- أنديشه هاى فرويد ص 86.

ولا بد من اقتران اسم فرويد معه ، فمن الممكن أن يستغل البعض كلماته - عمداً أو جهلاً - لالقائها كقواعد مسلم بها وبحوث ثابتة في أذهان الشبان الساذجين والمؤمنين ، وبذلك يتسببون في انحرافهم العلمي والديني ، أو يروجون سوق الدعارة والتحلل والتفسخ ، ويجرون جيلنا الجديد إلى هوة سحيفة لا تحمد عقباها ... فنرى لزماً أن نناقش بعض كلمات فرويد بصورة علمية ونضعها على طاولة التشريح ، عسى أن تقع مفيدة لشبابنا الأعزاء والمثقفين منهم بالخصوص.

إنكار الوجدان الفطري :

من المغالطات المهمة التي يذهب إليها فرويد ، إنكاره للوجدان الفطري. فالوجدان الفطري في نظره ليس إلا رد فعل. ولو كان فرويد يقسم الأمور الوجدانية عند الانسان إلى طائفتين : إحداها فطرية ، والأخرى ناتجة من النواهي والمراقبات الاجتماعية فإننا كنا نوافقه على ذلك ولكنه يعتبر جميع الأمور الوجدانية وليدة الرقابات الاجتماعية والميول المكبوتة ويصرح بأنه لا يوجد في الانسان تصورات أولية للخير وللشر ، ويتطرق في كلماته إلى موضوع القتل ويجعل بحثه يحوم حوله.

ولأجل إتضاح الوجدان الأخلاقي الفطري ، وللتمهيد إلى الحديث عن كيفية الإدراك الفطري لقتل النفس وطائفة من الصفات الخلقية الأخرى لا بد من ذكر مقدمة :

إن لفوهة البندقية حركتين : إحداها ناشئة من احتراق المواد الداخلية للطلقة ، والثانية الحركة الطبيعية. ففي الصورة الأولى إذا حركنا زناد البندقية ووجهنا الفوهة إلى أي جانب فإن الطلقة تندفع إلى ذلك الجانب ، وفي الصورة الثانية إذا تركنا فوهة البندقية حرة في الفضاء ودون أي حركة ، فإن الطلقة تندفع إلى جانب واحد وهو جهة الجاذبية الطبيعية للأرض.

فإذا أردنا قياس الحركة الطبيعية للرصاص فيجب أن نتركها حرة في الفضاء تماماً ، ولا نخضعها لتأثير أي عامل مخالف.

إن الوجدان الأخلاقي والميول الباطنية للانسان تشبه الحركة الطبيعية

للرصاصية. فإذا أردنا أن نعرف الإدراك الخلقي والوجدان الفطري للانسان يجب علينا أن نبحث على إنسان طبيعي مائة في المائة ... الانسان الذي لم يخضع لأي تأثير مخالف. فمثلاً إذا أردنا أن نعرف مدى قبح قتل النفس في الوجدان الفطري عند الانسان ، يجب أن نبحث على إنسان لم تلوث فطرته ولم يتغلب على إدراكه الباطني عارض من العوامل المختلفة. فإن من يرتكب جريمة قتل لوقوعه تحت تأثير الشهوة أو الغضب ، أو أن من يقتل الناس في ساحة الحرب على أساس التعصب وطلباً للشهرة ، أو أن يرتكب جريمة شنيعة حصولاً على المال أو وصولاً إلى الجاه ... هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مجالاً مناسباً للبحث عن الإدراك الفطري للوجدان الأخلاقي عند الانسان ، لأن حركة هؤلاء تشبه الرصاصية المندفعة تحت تأثير الاحتراق الداخلي للبارود ، إذاً أن حركتها غير طبيعية.

ولأجل أن يسلب فرويد قبح قتل النفس من إدراك الوجدان الأخلاقي وينسبه إلى ندامة القاتل من عواقب الجريمة الوحشية ، يفترض قبيلة خيالية في فكره ، ثم يصنع من الشهوة الجنسية بطلاً للأسطورة حيث يقدم على قتل الأب الخيالي. ثم يستند إلى هذه القبيلة الافتراضية ويأتي بسلسلة من النظريات الباطلة التي لا أساس لها من الصحة أصلاً بالنسبة إلى الله والدين والأخلاق والوجدان!!.

« يرى فرويد أن الأب أو رئيس القبيلة كان يحتفظ لنفسه بالملكية الجنسية لجميع النساء ، أي أنه كان يتصرف في النساء والبنات ، وكان يسلك بشدة وخشونة تجاه أبنائه الذين كان يعتبرهم الرقباء الجنسيين والمزاحمين لقدرته ».

« كان هذا الأسلوب مستمراً مدة من الزمن حتى فقد الأب قوته بالتدريج إلى أن انهزم من الميدان تحت ضربات قاضية وجهها نحوه أحد أو جماعة من أولاده » (1).

« ولم يكن مقدوراً لأحد من الأولاد أن يحقق أمنيته ويستحل منزلة أبيه ، إذ أنه على ذلك كان يلاقي نفس مصير أبيه وكما نعلم فإن

ص: 260

ردود الفعل الروحية والمعنوية لليأس والفشل أعظم أثراً من ردود فعل الانتصار» (1).

« ولقد أدى قتل الأب في القبيلة الأولى وردوده الروحية الناتجة عنه إلى ظهور الأمر الصادر من النفس فيما بعد والقال : إنك سوف لا تقدم على القتل » (2).

« ربما لو لا لم تقع جريمة قتل الأب في تلك القبيلة ولم تظهر نتائجها المؤلمة فما بعد ، فإن أحفاد الانسان الأول كانوا يستمرون في قتل بعضهم البعض ذلك أن هذا القتل هو الذي سبب صدور الأمر النفسي بصورة : - إنك سوف لا تقدم على القتل - ثم انتقل إلى جميع أفراد البشر » (3).

لما كان فرويد قد آلى على نفسه أن ينظر إلى الانسان من زاوية الغريزة الجنسية فقط ، وإغفال بقية الجوانب فيه ، يرى في العامل الجنسي للآباء في هذه الأسطورة المزعومة سبباً لقتل الأب.

لقد قام فرويد بذكر مجموعة من المغالطات وسلسلة من الكلمات الباطلة على أساس هذه القبيلة الوهمية والقتل الخيالي ، ولا يهمننا التطرق إليها جميعاً في بحثنا هذا ، غير أن محل شاهدنا منها هو موضوع قتل النفس.

تلخص آراء فرويد في هذا الصدد : أنه لما كان ينكر وجود الجذور العميقة للوجدان الأخلاقي في روح الانسان ، ويتجاهل وجود التصور البدائي للخير والشر في أعماقه ، فإنه يفسر قضية قتل الأب بجهل الانسان بقبح قتل النفس فإن أبناء القبيلة كانوا واقعين تحت ضغط جنسي ، وكانوا يريدون الوصول إلى نساء القبيلة ، وكان وجود الأب مانعاً من ذلك. ولأجل تحقيق أغراضهم الجنسية أزاحوا المانع عن طريقهم وقتلوا الأب ثم انتبهوا إلى وجود موانع أخرى في طريقهم وعرفوا أنهم

ص: 261

1- المصدر السابق ص 80.

2- المصدر السابق ص 82.

3- المصدر السابق ص 88.

لا يستطيعون الوصول إلى أمانهم. فندموا على فعلتهم وصدر الأمر الذي مضمونه : « إنك سوف لا تقدم على القتل » ... هذا الأمر انتقل إلى جميع أفراد البشر وتلقى الناس جميعاً موضوع القتل على أساس أنه فعل قبيح. فالحقيقة - في نظر فرويد - أن جذور قبح قتل النفس في عالم الانسان استمدت من إعلان الأبناء المولعين بالجنس ، الذين قتلوا أباهم ثم ندموا على ما فعلوا.

تحليل أسطورة قتل الأب :

ولنبداً بتحليل أسطورة القبيلة وقتل الأب وأفعال الأبناء ، ليتضح صحة أقوال فرويد أو سقمها.

الفطرة وراء ستار الشهوة :

لقد أسلفنا في مقدمة البحث أنه لتشخيص الفطرة يجب أن نجعل بحثنا على إنسان حر طليق من جميع الجوانب ، ولم يكن واقعاً تحت ضغط الشهوة أو الغضب ، أو حب المال والجاه وما شاكل ذلك.

أما أبناء القبيلة الذين يحترقون في نار الشهوة ، ويقتلون أباهم بصورة جنونية لغرض الوصول إلى النساء فليسوا أفراداً أحراراً وطبيعيين ، وأن حالتهم النفسية لا يمكن أن تكون مقياساً لتشخيص الفطرة الأخلاقية ، وكما أن النار تدفع البارود الموجود في الطلقة من فوهة البندقية وترميها بسرعة فائقة إلى اتجاه غير طبيعي ، فكذلك نار الشهوة - وهي أكثر دفعاً من البارود - حيث دفعت أبناء القبيلة إلى اتجاه مخالف للفطرة الانسانية وأدت بهم إلى قتل الأب. فإذا لم يحس الأبناء حين ارتكابهم للقتل بقبح ذلك ، فلأجل شدة نار الشهوة ، لا لفقدان الفطرة.

لا يقتصر الأمر على العصور القديمة أو القبائل المتوحشة ، وإنما القضية تسير على هذا المنوال حتى في عصرنا المتمدن هذا ، في عالمنا الذي يمر عليه - على حد قول فرويد - قرون عديدة على إيجاد إعلان الأبناء الذين قتلوا أباهم ، الاستهجان من تلك الجريمة في الضمير الباطن للأفراد. فما أكثر الشبان الذين يرتكبون القتل على أثر الشهوة الجنسية أو إثارة قوة الغضب والانتقام ، ولا يشعرون بأنفسهم ساعة الجريمة ولا يتذكرون إعلان الأبناء الذين قتلوا أباهم.

يقول فرويد : إن ردود الفعل الناتجة من إقدام الأبناء على قتل أبيهم هي التي سببت الندم على جريمتهم. إنه يعترف بالندم بعد القتل ولكنه يرى أن السبب في ذلك هو ردود الفعل الروحية المرتبطة بالشهوة أو الحياء. لم لا يحتمل الأستاذ فرويد أن الندم حصل على أساس ردود الفطرة أي نداء الوجدان الأخلاقي ، الوجدان الذي كان موجوداً في الإنسان وسيبقى موجوداً فيه؟!.

في حين نجد أن بعض علماء النفس الأوربيين التابعين لمدرسة فرويد قد احتملوا هذا الوجه :

« وعلى أية حال ، فيجب الاعتراف إما بوجود إحساس ووجدان أخلاقيين مشابه لما هو موجود في الأمم المتقدمة أو على فرض فقدان هذا الوجدان ، فإن الروابط النفسية بين الأب والأولاد كانت شديدة لدرجة كافية لايجاد الضربات الروحية ، والندم المتوصل » (1).

لقد وجدنا أن نار البارود قد وجهت الطلقة في الفضاء إلى جانب غير طبيعي بشدة ، وبمجرد إنتهاء استمرارية الانطلاق تتحرر الطلقة من الضغط وتسلك جهتها الطبيعية وترجع إلى الأرض بسرعة وكذلك الشهوة أو الغضب فانهما يخرجان الإنسان عن طوره الطبيعي ويوجهانه إلى حركة غير طبيعية فيرتكب قتلاً أو جنائية. وبعد أن تطفئ نائرة الشهوة أو الغضب ويتخلص الإنسان من الضغط الذي كان يعانيه يثوب إلى رشده ويعود إلى طريقه الطبيعي ، فيقوم وجدانه بتوجيه اللوم إليه على اجرائم التي قام بها ويجعله تحت كابوس روحي شديد.

إن التفسير الطبيعي لسبب الندم في أبناء الأسطورة قتل الأب هو نداء الوجدان.

الحالات غير الطبيعية :

يجب أن نعترف سلفاً أن للقبائل البدائية حالات غير طبيعية كثيرة كالقبائل

ص: 263

المتحضرة ، وهي يجب أن تستبعد من البحث العلمي. فمثلاً لا يمكن الاستناد في البحث عن الوجدانيات إلى حالة أبناء القبيلة الذين صمموا على قتل أيهم لثورتهم الجنسية العارمة ، وقتلوه. ولا إلى أفراد القبيلة التي يهاجم بعضهم بعضاً لسبب الجوع وعدم الوصول إلى صيد الحيوانات أو الأعشاب. أو إلى أسرة سرقت صيد أسرة أخرى وأكلته ووقع الخصام بين الأسرتين ، وهجم بعضهم على بعض لعامل الغضب والتأثر ... إلى غير ذلك من الحالات غير الطبيعية.

إننا يجب أن نبحث عن القبيلة الخيالية التي افترضها فرويد في حالة يكون رجالها ونساؤها ، شبيها وشبابها في حالة طبيعية تماماً ، ولم يكن أبسط عامل مهيج في سلوكهم ومزاجهم باعثاً على انحرافهم عن طريق الفطرة ولنفرض أنه اتفق خروج جميع أفراد القبيلة في جو لطيف إلى التنزه في قطعة أرض خضراء ، واجتمعوا على ضفاف نهر صغير وبالقرب من حقل واسع وانسجموا في أتم المحبة والوثام ... فالصغار أخذوا يلعبون هنا وهناك ، والشباب مولعون كل بعمله ، فقسم منهم يتأرجحون بين أغصان الأشجار ، والقسم الآخر يرمون بأنفسهم في النهر مفضلين السباحة ، وطائفة تقفز على الأرض وتلعب وبأيدي طائفة أخرى عصي خاصة يقفزون بواسطتها ... وفي هذه الأثناء إذا أهوى أحد الشباب بعصاه المدببة على رأس شاب آخر بلا سبب أصلاً وفي تمام الانتباه والارادة ، وقتله بتلك الضربة. ألا يوجد هذا العمل إستياء في نفوس أفراد القبيلة؟ ألا يعتبر هذا العمل في أنظارهم قبيحاً؟ هل إن شج رأس إنسان مع العلم والعمد مساو لكسر حجارة؟ ألا يلومونه على عمله؟ ألا يحس في نفسه بالاضطراب والقلق من فعله؟ وإذا كان شاب آخر جالساً على الأرض ويقلع الحصى منها بواسطة العصا المدببة التي في يده ، وفجأة اتجه إلى طفل صغير وطرحه أرضاً وأخرج عينيه من حدقتيه ألا يسأله أفراد القبيلة عن سبب اقتلاع عيني الطفل؟ ألا يعتبرون هذا العمل قبيحاً؟ ألا يعاقبون المرتكب لتلك الجريمة أو يلومونه على الأقل؟ هل أن اقتلاع عيني طفل بريء مساو في أنظار أفراد القبيلة مع اقتلاع الحصى من الأرض؟.

يدعي فرويد أنه يتساوى كسر الحجار وشج رأس الانسان وقتله في نظر أفراد القبيلة من حيث الحسن والقبح. وكذلك يتساوى عندهم إقتلاع الحصى من الأرض

واقتراع العين من الحديقة ... ذلك أن الانسان لا يملك وجداناً أخلاقياً فطرياً ، ولا يدرك الخير والشر بذاته.

إن نظرية فرويد في موضوع نفي الوجدان الأخلاقي تافهة عند علماء النفس إلى درجة أن تلاميذه وأتباع مدرسته لم يستطيعوا السكوت عن سفسطاته.

« وطبيعي أننا يجب أن لا نتلقى جميع نظريات فرويد على أنها صحيحة ومنطبقة مع الواقع تماماً ، فمثلاً لا تخلو نظريته في الوجدان الباطن من عيوب ونواقص » (1).

تراجع فرويد عن عقيدته :

وألطف من ذلك أن فرويد نفسه قد غير عقيدته تجاه الوجدان الأخلاقي في أواخر أيام حياته ، واضطر إلى الاقرار بمحكمة الوجدان الباطن.

« يقول فرويد في أحد آثاره الأخيرة باسم (المؤتمرات الحديثة في التحليل النفسي) إننا مضطرون للاذعان بوجود محكمة قضائية خاصة في الحياة النفسية ، والتي تلعب دور الانتقاد والامتناع » (2).

يفسر فرويد عامل ارتكاب جريمة القتل في القبيلة الخيالية - شأنه في كل قضية - بالغريزة الجنسية للأبناء ، في حين وجود عوامل أخرى يمكن أن تكون منشأ للفعاليات والنشاطات المفيدة والمضرة التي تصدر من الانسان.

« إن فرويد لا يتحدث عن المؤسسات الاجتماعية المختلفة أو الظروف والأحوال الاقتصادية للمجتمعات المختلفة بحيث يكون أفق منظاره من الجانب الاجتماعي ضيقاً جداً ».

« إنه يظهر نظرية مبتورة عن الحياة الاجتماعية ، ويعتبر محيط الأسرة مستقلاً عن العوامل الاقتصادية والسياسية ومرتبطة بعقدة أوديب بصورة منحصرة ».

ص: 265

1- انديشه هاى فرويد ص 66.

2- فرويد وفرويديسم ص 67.

« وبالنتيجة فإن فرويد يغفل أهمية الصراع الطبقي في داخل المجتمع ، في حين أن الصراع الطبقي يقوم بدور مهم بآثاره الايجابية والسلبية التي تترتب عليه » (1).

حادثة القتل الأولى في تاريخ الانسان :

إن أول حادثة للقتل وقعت في تاريخ الانسان ، هي أن أخاً قتل أخاه ، ولم يكن الدافع إلى ذلك - حسب النصوص الاسلامية - هو الغريزة الجنسية ، بل خلافة الأب أو حب الرئاسة الممزوج بالغضب!.

يسأل سليمان بن خالد من الامام الصادق (عليه السلام) عن سبب أول حادثة للقتل في أسرة آدم ، فيجيبه الامام عليه السلام : « يا سليمان إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى آدم : أن يدفع الوصية واسم الله الأعظم إلى هابيل وكان قابيل أكبر منه ، فبلغ ذلك قابيل فغضب ، فقال : أنا أولى بالكرامة والوصية » (2).

تقول المدرسة الاسلامية : إن أول حادثة للقتل في تاريخ البشرية قد وقعت بسبب حب الرئاسة وثورة القوة الغضبية. أما المدرسة الفرويدية فانها تصورت أن القتل في القبيلة البدائية الموهومة كان بسبب الغريزة الجنسية والقدر الجامع بين المدرستين أن القتل كان في ظرف غير عادي وحالة غير طبيعية.

إنطفاء الوجدان :

إن أنصار الوجدان الفطري يشرحون حالة الانسان النفسية بالصورة التالية : إن الانسان يدرك في الحالة الطبيعية قبح القتل بواسطة الوجدان الأخلاقي والالهام الالهى ، ولا يزاحم حرية الأفراد الآخرين. وعندما تثور إحدى الغرائز ويقع الانسان تحت تأثير عوامل الغضب ، والجنس والجوع ، والحسد ، وحب الذات والمال والجاه ، وما شاكل ذلك ، فإن شعلة الفطرة تنطفئ ، ولا يسمع الانسان نداء الوجدان وحينذاك يرتكب جريمة القتل بصورة جنونية.

ص: 266

1- أنديشه هاى فرويد 83.

2- تفسير البرهان ص 282.

هذا الوضع الثابت كان موجوداً في باطن الانسان منذ البداية ، ولا يزال يوجد في جميع نقاط العالم على نفس المنوال. ولقد اعترف المؤمنون بتعاليم الأنبياء وأكثر العلماء في العالم بهذا المنطق الطبيعي الذي يسمع من لسان الفطرة في كل زمان ومكان. أما فرويد وأتباع مدرسته فقد شرحوا قصة القتل من زاوية التحليل النفسي بالنحو الآتي : -

« ربما لو لم تقع جريمة قتل الأب في تلك القبيلة ، ولم تظهر نتائجها الوخيمة المؤلمة فيما بعد ، فإن أحفاد الانسان الأول كانوا يستمرون في قتلهم بعضهم البعض ذلك أن هذا القتل هو الذي سبب صدور الأمر النفسي بصورة : إنك سوف لا تقدم على القتل. ثم انتقل إلى جميع أفراد البشر » (1).

1 - لقد استعمل في البداية لفظة (ربما) ، وهذا يدل على أن اتباع مدرسة فرويد لا يؤمنون بهذه النظرية مائة في المائة ، بل أنهم يواجهونها على أساس التردد والشك.

2 - يستفاد من هذه العبارة أن أبناء البشر كانوا يستمرون في قتل بعضهم البعض بلا رادع أو مانع ، وإن حادثة قتل الأب الوهمي والندم الناشئ من ذلك ، الذي أدى إلى صدور الاعلان الخيالي كانت السبب في إيقاف جرائم القتل.

إذا كان فرويد وأتباعه يرون أن توسع جرائم القتل قبل صدور الاعلان كان ناشئاً من ثورة غريزة من الغرائز كالذي حدث في قتل الأب ، فيجب أن نقول لهم ، إن الاعلان لم يترك أصغر الأثر في الانسانية لاستمرار جرائم القتل حتى بعد صدوره. ففي حالة السلم يقتل يومياً مئات الأفراد في العالم لسبب الجنس والغضب والحسد ، وأما في حالة الحرب فلا تعد الضحايا!! ..

فإن قالوا : إن أفراد البشر كانوا قبل صدور ذلك الاعلان يقتل بعضهم بعضاً دون أي ثورة من الغرائز بل وفي الحالات الاعتيادية وجاء الاعلان ليمنع حدوث مثل تلك الجرائم ... فبديهي أنهم خالفوا الواقع في ذلك. ذلك أن الكلاب ،

ص: 267

الذئاب ، النمر وكذلك الطيور حين تصطرع فيما بينها فليس إلا- بهيجان غريزة الجوع أو الجنس وما شاكل ذلك ، أما في الحالات الاعتيادية فلا يزاحم بعضها بعضاً. أللهم إلا أن تدعي المدرسة الفرويدية أن الانسان أخط من الكلاب وأشد توحشاً من الذئاب. ونتيجة ذلك إن الذئاب لا تتنافس ولا تتزاحم في الحالات الطبيعية ، أما أفراد الانسان فانهم يقتل بعضهم بعضاً في الحالات الطبيعية وفي مثل هذه العبارات السخيفة فليحكم النقاد والباحثون!.

قبح الخيانة :

لقد سبق أن قلنا : إن الوجدان الأخلاقي يدرك كثيراً من أمهات الفضائل والردائل ، ولا ينحصر ذلك الادراك بقبح القتل ، الذي حللناه تحليلًا مفصلاً ، وتعرفنا فيه إلى عبارات فرويد ونظرياته وكنموذج آخر نستعرض قبح الخيانة في نظر الوجدان.

لنفرض طفلاً يملك تفاحة ، ويودع تفاحة ، ويودع تفاحته عند آخر ليذهب إلى غسل يديه ويرجع. إنه يتوقع - طبيعياً - وينتظر - فطرياً - أن يسترجع أمانته. فإذا جاء ووجد أن الطفل الآخر قد أكل التفاحة فانه يتألم ويلومه ويدينه بفعل قبيح. وأما الطفل الذي أكل التفاحة فانه هو الآخر يحس بالتألم ، ويضطرب ، يصفر وجهه ، يحاول الفرار والابتعاد عن ساحة الخطيئة. وكذلك الأطفال المتفرجون فانهم يعتبرون هذا الفعل خطأ ، ويدركون بأن الذي أكل التفاحة قد ارتكب فعلاً قبيحاً. هذا الاحساس أو الشعور لا يرتبط بالتعليم والتربية وإنما هو إدراك ينبع من أعماق الفطرة وموجود عند جميع الأطفال.

أما فرويد فانه ينكر القبح الفطري للخيانة ، شأنه في سائر الأمور الفطرية الوجدانية ، ويعتقد أن الانسان الأول كان لا يفهم شيئاً من الحسنات السيئات الخلقية. وهنا نجد من المناسب أن نرجع إلى القبيلة الوهمية التي تصورها فرويد لنجعل بحثنا يدور حولها.

إذا كان فرويد يدعي أن أفراد القبيلة كانوا كقطيع من الأغنام لا يدركون معنى الأمانة أصلاً. فمن البديهي أن البحث عن قبح الخيانة يكون لغواً مع هذه الدعوى. إذ يجب أن لا نتحدث عن قبح الخيانة مع الأغنام التي لا تدرك الأمانة كي تدرك

عكسها. ولكن المفروض أن فرويد لا يستطيع أن يدعي مثل ذلك ، لأنه قال عند التحدث عن أبناء القبيلة الذين قتلوا أباهم :

« ولم يكن مقدوراً لأحد الأولاد أن يحقق أمنيته ويستحل منزلة أبيه إذ أنه على ذلك كان يلاقي نفس مصير أبيه ».

يستفاد من هذه العبارة أن أفراد القبيلة الوهمية كانوا عقلاء مفكرين متعمقين إلى درجة أنهم كانوا يشاهدون الستار الذي يكمن وراء ستار الرئاسة ، وكانوا يعلمون أنهم بقبولهم الرئاسة سيلاقون نفس المصير المؤلم الذي لاقاه أبوهم من قبل ، وبديهي إن إدراكاً كهذا يكون نتيجة التعقل والتفكير ، ومن الواضح أن القبيلة الخيالية لم تكن تحت سيطرة حكومة الغرائز العمياء الصماء مثل الأغنام ، بل كانوا يدركون معنى الأمانة بكل وضوح.

لنفرض أن إحدى نساء القبيلة خرجت في الصباح إلى الغابة واستطاعت بعد عناء شديد أن تقطف بعض الفواكه لطعامها وطعام أطفالها ، وقد جرحت بالأشواك ... وفي أواخر النهار تحمل الفواكه إلى حيث تسكن القبيلة. وبما أن طفلها يضيع في أثناء الطريق ، فانها تودع الثمار عند أحد أفراد القبيلة الذي كان بالقرب من تلك المنطقة ، وتعود إلى الغابة للبحث عن طفلها. وعندما ترجع تجد أن الشخص الذي أودعت الثمار عنده قد وزعها بين أفراد أسرته وأكلوها جميعاً ... أليس هذا العمل مخالفاً لما كانت تتوقعه المرأة بفطرتها؟ ألا تحس المرأة أن عملاً قبيحاً قد وقع؟. ألا يحق لها أن تصيح وتولول وتضرب الخائن؟. وإذا اجتمع أفراد القبيلة واطلعوا على القضية ألا يسألون الخائن عن قبح فعله؟ ألا يسمحون لتلك المرأة أن تأخذ حقها من الخائن؟ ألا تدل هذه الردود الروحية على القبح الفطري للخيانة؟! إن جواب فرويد على هذه الأسئلة كلها بالنفي. إنه يقول : إن الخيانة ليست من الناحية الفطرية فعلاً حسناً أو قبيحاً. ذلك لأن الانسان الأول لم يكن يدرك الحسن والقبح.

أما أتباع الرسالات السماوية ، وكثير من العلماء في الماضي والحاضر فانهم يرون أن قبح الخيانة - كسائر الوجدانيات - أصيل في بناء الانسان. إن الله تعالى وهب الانسان ثروة فطرية عظيمة لهدايته إلى الحياة السعيدة ، وليصل عن هذا الطريق

إلى الكمال الانساني اللائق به ، ولكن الانسان الحر والطلق من تلويثات الغرائز فقط هو الذي يستطيع أن يسمع نداء الفطرة ، ويدرك الخير والشر.

يقول الامام (عليه السلام) بهذا الصدد : « إن الله إذا أراد بعبد خيراً طيب روحه فلا يسمع معروفاً إلا عرفه ، ولا منكراً إلا أنكره » (1).

الدعوة على أساس الفطرة :

لقد وجه الأنبياء اهتمامهم إلى الفضائل الأخلاقية التي لها جذور إلهامية وتكوينية في النفس الانسانية ، ولقد دعوا الناس في مناهجهم التشريعية إلى إحياء الفطرة الأخلاقية ، يقول الامام الصادق (عليه السلام) : « إن الله لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة » (2). وفي حديث آخر : « لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده ، فإن ذلك شيء قد اعتاده ، فلو تركه استوحش لذلك ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته » (3).

هذا الحديث يرشدنا إلى البحث عن انسانية الرجل في حياة وجدانه الأخلاقي ، فإن من يطفئ جذوة الفطرة في باطنه وينحرف عن الصراط المستقيم يكون قد انسلخ عن الانسانية ، وإن بدا صلاحه وكان يطيل الركوع والسجود. إن الوجدان الأخلاقي إذا كان حراً ولم تعصف به عواصف الجبن والغضب يدرك الخير والشر بالالهام الالهي ، ويستطيع أن يكتشف طريق سعادته من شقائه : « ونفس وما سواها ، فآلهمها فجورها وتقواها ».

عدالة الوجدان :

إن الوجدان الأخلاقي يعتبر من أهم وأعظم العوامل التنفيذية للوقاية من الجرائم. فإنه الذي يوجه اللوم والتقريع إلى المجرم ، ويوجه نحوه بذلك أشد الضربات. إن الوجدان الأخلاقي أظهر وأقدس محكمة قضائية لمعالجة الجرائم

ص: 270

1- إثبات الهداة ج 1 87.

2- سفينة البحار ، مادة (صدق) - ص 18.

3- سفينة البحار ، مادة (صدق) - ص 18.

والجنايات. وإن عدالة محكمة الوجدان تضارع عدالة المحكمة الالهية في القيامة ... فكما أن الله تعالى يحكم بين الناس بالحق في ذلك اليوم، كذلك الوجدان الأخلاقي، فانه يحاسب المجرم ويجازيه، ولهذه المناسبة بينهما فان الله تبارك وتعالى قد قرن النفس اللوامة بيوم القيامة في القرآن الكريم حين قال: «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)».

« الأخلاق الصحيحة هي التي تستند على أساس احترام الوجدان. وإن الوجدان الأخلاقي يعمل دائماً للارتباط بالدين لأنه سر نشوء الاطمئنان والاعتماد. ولهذا فان الوجدان الأخلاقي يحكم في الأفعال بصورة عادلة وصحيحة بصورة كلية، وذلك بخلاف العقيدة التي يمكن أن تؤثر فيها الدعايات بسهولة ».

« إن احترام الوجدان الاخلاقي ليس منشأ الحرية والرفاه الاجتماعي فحسب، بل إنه منشأ الهدوء النفسي أيضاً. والآن حيث لا يمكن الخروج على إطاعة الوجدان الأخلاقي، فالأجدر أن نتقبل أوامره بكل ارتياح وشوق ونخضع لحكمه وعدالته. هذه الطاعة النفسية توجد سلوكاً حميداً ومفضلاً » (1).

« لا بد من الاهتمام بالتعذيب الناشئ من عدم إرضاء الوجدان الأخلاقي. فالندم، والغضب، والتحمس للتبئة، والحق، هذه كلها من نتائج تعذيب الوجدان الأخلاقي. هذا التعذيب يمكن أن يوجد بعض الأمراض الروحية الخفيفة » (2).

الميثاق الفطري :

لقد ورد التعبير عن الوجدان الأخلاقي في بعض الرويات بالميثاق الالهي. فعندما خلق الله الانسان علمه والشر، وكأنه عقد معه ميثاقاً واخذ منه عهداً تكوينياً في أن يلتزم بالتعاليم الفطرية، ولا ينحرف عن صراط الفطرة المستقيم.

ص: 271

1- بيماريهای روحی وعصبي ص 69.

2- المصدر نفسه ص 70.

فالذين يخرجون على الميثاق الفطري ويخالفون أوامر الالهام التكويني والوجدان الأخلاقي يعيشون في هذه الحياة بقلق واضطراب تماماً ويحسون بملامة دائماً ، وأما في القيامة فانهم يتلون بعذاب الله.

وعلى العكس فإن الذين يوفون للميثاق الفطري حقه ويستمعون لنداء الالهام الالهي المتمثل في أوامر الوجدان الأخلاقي فانهم يعيشون حياة ملؤها الاطمئنان والهدوء ، وينصرفون من هذه الحياة إلى الحياة الأخرى مع نداء : «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً» (28).

يتطرق الامام (عليه السلام) في ضمن حديث له إلى أوصاف المؤمن الكامل فيقول : « صدق بعهد الله ، وفي بشرطه ، وذلك قوله عز وجل : (رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) فذلك الذي لا يصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة » (1).

وفي حديث آخر : « وفي الله بالشروط التي اشترطها عليه ، فذلك مع النبيين والصديقين والشهداء ولا صالحين وحسن أولئك رفيقاً ، وذلك ممن يشفع ولا يشفع له ، وذلك ممن لا يصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة » (2).

إطاعة الوجدان الأخلاقي :

إن نتيجة اتباع الميثاق الفطري الأخلاقي هو الهدوء النفسي والسكينة والاطمئنان. إن اتباع الوجدان الأخلاقي يورث الفضيلة والتجلي الروحي وإن الانحراف عن الفطرة يسبب الضلال والفساد. ولقد كان الأنبياء يبذلون الجهود العظيمة التي لا تعرف الملل ولا الكلل ليعرفوا الناس بفطرتهم ويزيحووا الأستار المظلمة للغرائز والشهوات عنها وليحيوا الفضائل الانسانية فيهم. «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ» (3).

إن أيام الله هي أيام الخلقة والفطرة ، أيام الايمان والفضيلة ، فكان على النبي موسى (عليه السلام) أن يذكر الناس بتلك الأيام ويعلمهم نعمة الهداية الالهية التي كانت

ص: 272

1- بحار الانوار 15 50.

2- المصدر نفسه ج 15 51.

3- سورى إبراهيم 5.

موجودة فيهم منذ اليوم الأول. فأنتم الذين تسعدون إن اتبعتم أوامر الإلهام الإلهي ، وتشقون وتعذبون إن خالفتم تلك الأوامر.

إن الوجدان الأخلاقي ثروة إنسانية كبيرة لتحقيق السعادة ، فبالإمكان وقاية الناس من الجرائم والمخالفات بإحياء الوجدان الأخلاقي فيهم ، وبذلك يمكن هدايتهم إلى الطريق المستقيم.

ولأجل التأكيد على ما نقول ، نسوق الحادثة التاريخية التالية شاهداً على ذلك :

« قال : سمعت غلاماً بالمدينة وهو يقول : يا أحكم الحاكمين ، أحكم بيني وبين أُمي . فقال له عمر بن الخطاب : يا غلام لم تدع علي أُمك؟ فقال : يا أمير المؤمنين أنها حملتني في بطنها تسعاً وأرضعتني حولين كاملين فلما ترعرعت وعرفت الخير من الشر ، ويميني من شمالي طردتني وانتفت مني وزعمت أنها لا تعرفني . فقال عمر : أين تكون الوالدة؟ قال : في سقيفة بني فلان. فقال عمر : علي بأم الغلام. فأتوا بها مع أربعة أخوة لها. وأربعين قسامة يشهدون لها أنها لا تعرف الصبي ، وإن هذا الغلام مدع ظلوم غشوم يريد أن يفضحها في عشيرتها ، وأن هذه جارية من قريش لم تتزوج قط ، لأنها بخاتم ربها ، فقال عمر : يا غلام ما تقول؟ فقال : يا أمير المؤمنين هذه والله أُمي ، حملتني في بطنها تسعاً وأرضعتني حولين كاملين ، فلما ترعرعت وعرفت الخير والشر ، ويميني من شمالي طردتني وانتفت مني وزعمت أنها لا تعرفني ، فقال عمر : يا هذه ما يقول الغلام؟ فقالت : يا أمير المؤمنين والذي احتجب بالنور فلا عين تراه ، وحق محمد وما ولد ما أعرفه ولا أدري من أي الناس هو ، وإنه غلام يريد أن يفضحني في عشيرتي وأنا جارية من قريش ولم أتزوج قط واني بخاتم ربي . فقال عمر : ألك شهود؟ فقالت : نعم هؤلاء. فتقدم الأربعون قسامة وشهدوا عند عمر أن الغلام مدع يريد أن يفضحها في عشيرتها وأن هذه جارية من قريش لم تتزوج قط. وأنها بخاتم ربها. فقال عمر : خذوا بيد الغلام وانطلقوا به إلى السجن حتى نسأل عن الشهود ، فإن عدلت شهادتهم جلدته حد المفترى. فأخذوا بيد الغلام وانطلقوا به إلى السجن. فتلقاهم أمير المؤمنين عليه السلام في بعض الطريق فنادى الغلام : يا بن عم رسول الله ، إني غلام مظلوم. فأعاد عليه الكلام الذي تكلم به عمر ثم قال : وهذا عمر قد أمر بي إلى السجن. فقال

علي (عليه السلام) : ردوه إلى عمر ، فلما ردوه قال لهم عمر : أمرت به إلى السجن فرددتموه إلي؟ فقالوا : يا أمير المؤمنين أمرنا علي بن ابي طالب أن نرده إليك وسمعناك وأنت تقول : أن لا تعصو لعلي أمراً. فبينما هم كذلك إذ أقبل علي (عليه السلام) فقال : علي بأمر الغلام ، فأتوا بها فقال علي (عليه السلام) : يا غلام ما تقول؟ فأعاد الكلام على علي (عليه السلام) فقال علي لعمر : أأذن لي أن أقضي بينهم؟ فقال عمر : سبحان الله وكيف لا وقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : أعلمكم علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، ثم قال للمرأة : يا هذه المرأة ألك شهود؟ قالت : نعم. فتقدم الأربعون قسامة فشهدوا بالشهادة الأولى ، فقال علي (عليه السلام) : لأقضين اليوم بينكم بقضية هي مرضاة الرب من فوق عرشه. علمينها حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فقال لها : ألك ولي؟ قالت : نعم! هؤلاء إخوتي. فقال لأخوتها : أمري فيكم وفي أختكم جائز؟ قالوا : نعم يا بن عم محمد ، أمرك فينا وفي أختنا جائز. فقال علي (عليه السلام) : أشهد الله وأشهد من حضر من المسلمين أنني قد زوجت هذا الغلام من هذه الجارية بأربعمائة درهم والنقد من مالي. يا قنبر : علي بالدراهم. فأتاه قنبر. فصحبها في يد الغلام فقال : خذها وصحبها في حجر امرأتك ولا تأتني إلا وبك أثر العرس - يعني فقال : خذها وصحبها في حجر امرأتك ولا تأتني إلا وبك أثر العرس - يعني الغسل - فقام الغلام فصب الدراهم في حجر المرأة. ثم تلبسها ، وقال لها : قومي. فنادت المرأة : النار النار يا بن عم محمد أتريد أن تزوجني من ولدي؟ هذا والله ولدي ، زوجني إخوتي هجيناً فولدت منه هذا. فلما ترعرع وشب أمروني أن أتني منه وأطرده هذا والله ولدي ، وفؤادي يتغلى أسفاً على ولدي ، قال ... ثم أخذت بيد الغلام وانطلقت ، ونادى عمر : واعمره لولا علي لهلك عمر « (1).

الاستفادة من الوجدان :

إن الزوج بالأمر قبيح ومذموم في الضمير الباطن ، وفي الوجدان الأخلاقي التربوي للناس ، ولقد استفاد الامام علي (عليه السلام) في مقام القضاء ولكشف الواقع من قوة الوجدان ، واكتشف ضمير المرأة ، وحملها على الاعتراف بالواقع الذي حاولت إخفاءه ، وإذا كان الوجدان الأخلاقي التربوي مؤثراً لهذا الدرجة في الوقاية من

ص: 274

الانحراف فمن البديهي أن تأثير الوجدان الأخلاقي الفطري الذي هو جزء من الفطرة الانسانية في إصلاح المجتمع أشد وأعمق.

فمن الضروري أن يستفيد القائم على تربية الطفل من الوجدان الفطري له منذ البداية ويحيي الميول الالهامية فيه ويقيم التربية على أساس الفطرة. وطبيعي أن تربية كهذه ستبقى ثابتة على أساس الفضيلة والطهارة.

ص: 275

قال الله تعالى :

«لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)» (1).

لقد تطرقنا في المحاضرة السابقة إلى قصة الأم التي أنكرت ولدها الحقيقي ، وقد إستند الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى قوة الوجدان الأخلاقي في مقام القضاء ، واكتشف الضمير الباطن للمرأة وجعلها تقر بأمومتها ولما للاختبار النفسي والوصول إلى الأسرار الباطنية من أهمية كبيرة في البحوث النفسية والتربوية فأنتنا نخصص بحثنا في هذه المحاضرة لذلك.

العقدة النفسية :

هناك بعض الأسرار التي توجد عقدة في باطن الاشخاص حيث لا يمكن اكتشافها من جهة ، وإن كتمانها يسبب القلق والاضطراب من جهة أخرى وهي تجعل الحياة أحياناً مرة وجحيماً لا يطاق ، وأحياناً تسبب أمراضاً نفسية. إن السبيل الوحيد للعلاج منحصر في اكتشاف ذلك السر المكتوم وحل تلك العقدة وهذه مهمة شاقة جداً.

الضمير الباطن والظاهر :

ولا يضاح معنى الضمير الباطن والضمير الظاهر من زاوية علم النفس نجد من الضروري أن نمثل لهما بمثال : تصوروا أسرة متوسطة مسلمة عاشت حياتها في طهارة وشرف ، فالزنا والاستهتار يعدان عملاً شنيعاً في أنظار أفراد الأسرة. ولم يسبق لهم أن دنسوا أذيالهم بتلك الجريمة. تتعارف فتاة من هذه الأسرة مع شاب

ص: 276

بصورة سرية ، وبعد عدة لقاءات عادية يتفقان على أن يقضيا نهراً كاملاً معاً. تخرج الفتاة بحجة التذاكر في الدروس والذهاب إلى بيت إحدى زميلاتهما وتذهب مع رفيقها للنزهة إلى (سد كرج) ، يتنزهان لساعتين أو ثلاث ، ويتلذذان بمشاهدة المناظر الطبيعية الجميلة ... وعند الظهر يذهبان إلى بيت ما للاستراحة وتناول طعام الغذاء. المحيط الهادئ وانعدام الرقيب عليهما يهيجان عواطف الشباب و - بصورة موجزة - ينال وطره من الفتاة. وبالرغم من أن الفتاة لم تكن تملك فكراً هادئاً من أول الصباح وكانت تحس بالقلق في باطنها ، لكن فقدان بكارتها سبب لها انهيار شديد ، ولكن الآوان قد فات ، وقد وقع ما كان واجباً أن لا يقع. وعند المغرب يرجعان إلى المدينة. كان غياب الفتاة هذا اليوم للمطالعة والتذاكر العلمي في الظاهر ، ولكن قد وقع في الباطن اتصال غير مشروع. إن الفتاة تحس باضطراب شديد من جراء عملها هذا ، وتشعر بأن شرفها مهدد بالخطر ، فإن أفشي سرها فإن ذلك سيجر لها فضيحة عظيمة. إنها تفكر ، وتخطط ، وتصمم في النهاية - خلاصاً من الفضيحة - أن لا تتزوج مدى العمر وتحفظ بهذا السرة تصحبه معها إلى القبر ، ولتنفيذ خطتها هذه تبدأ بالتمهيد للموضوع ، تتحدث عن مشاكل الزواج أحياناً. ثم لا يمضي بضعة أشهر حتى يجيء إليها من يطلب يدها. الفتاة تختفي عن الخاطبات ، وتخبر أبويها وأفراد أسرتها عن امتناعها عن الزواج وتتحدث عن تصميمات دائمة : لا أتزوج ، الرجال غير أوفياء ، لا يوجد رجل في مجتمعنا. لماذا أتزوج؟ لماذا أرمي نفسي في دوامة المشاكل والآلام؟ وما أكثر الفتيات اللاتي تزوجن ورجعن بعد عدة أشهر إلى بيوت آبائهن ، حوامل ، وقضين حياة ملؤها الكدر والأسى. إنني لا أرمي نفسي في هوة الشقاء والتعاسة أبداً وتكثر من الحديث عن أمثال هذه القضايا وتستشهد ضمناً بحياة بعض الفتيات ، ولكنه يوجد في باطن الفتاة ضمير مستتر آخر تكتمه عن كل أحد. ولكنها حين تختلي بنفسها أو تذهب إلى الفراش تتحدث إلى نفسها : ما أشأم ذلك اليوم! لماذا ألقى نفسي في هذه المخاطر؟ كيف أدت نفسي إلى الشقاء والتهلكة كيف أعيش عمري وحيدة محرومة من لذة الحياة الزوجية؟ تتحدث مع نفسها عن الماضي دائماً وتظهر الندم والأسف باستمرار ، وقد تهمني الدموع لذلك !!! ..

يوجد في باطن هذه الفتاة ضميران : أحدهما ظاهر. والآخر ضمير باطن. لقد رتبت الأحاديث في ضميرها الظاهر وأينما جلست تتحدث قائلة : لا أتزوج ، الرجال غير أوفياء ، لا يوجد رجل في مجتمعنا أصلاً ، لا أسبب الشقاء لنفسي ، وما شاكل ذلك من الأحاديث ... أما في ضميرها الباطن فتوجد أشياء لا ترضى بأن تخبر عنها أحداً. وهي المطلعة عليها فحسب. لماذا خرجت للنزهة؟ لماذا عاشرت رفيق السوء؟ لماذا أشقيت نفسي مدى العمر؟ وما شاكل ذلك ...

رقابة الضمير الباطن :

ولأجل ألا يطلع شخص على أسرار ضميرها الباطن ، فان الفتاة تراقب حركاتها وألفاظها تماماً ، وتتكلم بكل حيطة وحذر ، وتنفر من الكلمات التي ترتبط بسرها ، وتحاول أن لا تستعملها في أحاديثها أصلاً ومثلاً على ذلك فانها تتألم وتنفر من كلمات ، السد ، كرج ، البحيرة ، المحركات ، الجسر ، البساتين ، وتتجنب ذكرها دائماً ، وعلى ما يقول علماء النفس فان ضميرها الظاهر يضع ضميرها الباطن تحت رقابة شديدة.

تمر سنة أو سنتان على هذا الوضع ، ولكن القضية تكسب لوناً جديداً بالتدريج. فمن جهة تصاب الفتاة - على أثر الضغط الروحي الدائم ، والألم الباطن ، والاضطراب والأرق - بالاضطراب الفكري ، والانزجار النفسي ، وتققد طاقتها بالتدريج. ومن جهة أخرى فان والديها وأسررتها يرون هذا الوضع الشاذ نتيجة عدم الزواج ، ويلحون عليها في أن تتزوج وتنهي كلماتها الباطلة. وهكذا تؤدي هذه المجموعة من العوامل الداخلية والخارجية إلى أن تصاب الفتاة بمرض روحي وتصاب بالجنون في النهاية. يراجع أهلها الطبيب ، ولكن المرض يشتد يوماً فيوماً ، وإن الطريق الوحيد للعلاج هو اكتشاف السر الذي تعرفه الفتاة فقط ، وهي غير مستعدة لا فشاء ذلك السر بأي ثمن كان.

إن اكتشاف الضمير الباطن للفتاة ، والوصول إلى سرها الذي يقع تحت رقابة شديدة مهمة شاقة جداً ، ويجب الاستفادة من بعض الآثار والعلامات التي تنبع من أعماق روحها في حالات خاصة.

« يجب لهذا العمل التصدي لاكتشاف الشواهد والامارات وكما يمكن أن نتوصل إلى وجود حيوان عظيم يسبح تحت ماء المحيط المظلم المتراكم ، من بعض حركات الماء أو الارتفاع الموقت في سطح الماء ، فلا بد من ممارسة ودقة كثيرتين للاستفادة من بعض الظواهر الموقته في كشف بعض الأسرار ، وأخيراً فبالامكان أن يترصدوا - بكل صبر وتحمل - اللحظة الخاطفة التي يفقد المصاب وعيه ويكشف عن السر عندما لا يحس بأي رقابة عليه » (1).

طرق اكتشاف السر الباطن :

يمكن الاستفادة من بعض الوسائل العديدة في الوصول إلى اكتشاف الأسرار الباطنية للأشخاص ، ما عدا التعذيب فانه عمل غير إنساني ، وإليك بعض النمماذج :

1 - لقد وجدنا - في المحاضرة السابقة - كيف استفاد الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) من قوة الوجدان وقبح التزوج مع الابن ، في اكتشاف سر المرأة ، إذ أجبرها على أن تعترف بأمومتها بصراحة وتعلن الأساليب الشاذة التي ارتكبتها لانكار ذلك.

2 - القصة المعروفة التي جرت بين (ابن سينا) والمريض بمرض العشق : لقد حضر ابن سينا عند مريض كان يخفي في ضميره عشقاً شديداً لا يستطيع إظهاره ، أخذ نبضه في يده وطلب ممن كان يعرف أسماء محلات المدينة أن يذكرها واحدة بعد الأخرى ، وعندما وصل إلى إسم إحدى المحلات أخذ نبض المريض يدق بسرعة شديدة. فأمر (ابن سينا) أن يذكر أسماء أزقة تلك المحلة. ولقد أدى ذكر اسم أحد الأزقة إلى الاسراع في نبض المريض. وأخيراً طلب أن يذكر له أسماء البيوت التي في ذلك الزقاق. وأسماء الساكنين في تلك البيوت ، حتى جاء ذكر فتاة ، فاشتد نبض المريض بصورة فائقة .. وهناك توجه (ابن سينا) إلى الحاضرين وقال لهم : إن هذا المريض يعشق فتاة ذلك البيت وأغرم بها. لقد توصل (ابن سينا) إلى

ص: 279

اكتشاف سر المريض عن طريق دقات نبضه واكتشف عشقه وغرامه لتلك الفتاة (1).

3 - يمكن إخضاع المريض للتنويم الاصطناعي ، وإجباره على إفشاء أسرار الباطنية بعد سلب إرادته واختياره.

4 - تغير سحنات الوجه : فمن الممكن التوصل إلى الأسرار الباطنية عن طريق ملاحظة التغيرات الطارئة على سحنات الوجه والحركات غير الاعتيادية التي تصدر منهم في بعض الأحيان. فمثلاً يقرأ أحد أفراد الأسرة صحيفة بصوت عال والكل يصغون إليه ، ويصل في الأثناء إلى حادثة فتاة أغفلها شاب وفعل معها كذا وكذا. إن جميع أفراد الأسرة يتلقون الحادثة بصورة اعتيادية تماماً ويتعجبون منها أو يتأثرون بالمقدار العادي ، ولكن الفتاة الأنفة الذكر التي أغفلت وفقدت شرفها وعفافها تضطرب عند سماع القصة المشابهة لقصتها ، ويمتقع لونها ، وتصاب بالقلق والذهول ، لا ترغب في سماع القصة ، ولكيلا يطلع الآخرون على قلقها واضطرابها تظهر بمظهر الغافلة عن الحادثة ، وتشغل نفسها بشغل آخر في ذلك الوقت ، أو تنادي طفلة جيرانهم بصوت عال ، وبصورة موجزة فانها تحاول أن تتظاهر بأنها غير مصغية للصحيفة وتتشاغل بشغل آخر ، وهي غافلة عن أن هذه الأعمال إنما هي علائم وضعها الشاذ ، وهي تكشف بذلك قلقها الباطن.

الخلاصة : إن تغير سحنات الوجه والقيام بالحركات غير الطبيعية والمرتبكة ، من أهم وسائل اكتشاف أسرار الأشخاص وضمايرهم الباطنة.

أما فرويد :

لقد استند فرويد لاكتشاف أسرار الأشخاص ، إلى طريقتين أكثر من غيرهما ، وهما : الكلمات أو الأفعال التي تصدر في غير محلها ، والتي تقع سهواً ومن دون إرادة ، والأحلام وتفسيرها.

لقد ظن بعض علماء الغرب أن فرويد أول من استند إلى فلتات اللسان ، وتفسير الأحلام في الوصول إلى الضمير الباطن وربما يقع بعض الباحثين في بلادنا أيضاً في

ص: 280

نفس الخطأ، في حين أن الاسلام سبق فرويد إلى العمل بهما. وقد ذكرت تطبيقات عليهما في بعض الكتب الدينية. هذا مضافاً إلى أن نظرية فرويد حول تفسير الأحلام ناقصة وغير ناضجة. أما نحن فسنحاول أن نتكلم في هذه المحاضرة بشيء من الاسهاب والوضوح حول الموضوع.

فلتات اللسان :

ولأجل أن يتضح دور فلتة اللسان في فضح أسرار الانسان ، نستشهد بنفس قصة الفتاة. لما كانت الفتاة تحمل في داخلها خاطرة سوداء وذكريات مرة عن حادثة (كرج) وتخاف من انفصاح أمرها بشدة ، فهي تصمم على أن لا تتحدث عن (كرج) ولا عما شاهده هناك. وتلاقي لذلك عنثاً شديداً وتراقب نفسها دائماً. ويصادف أن تذهب إلى زيارة عمها بصحبة أبايها ، وذلك بمناسبة عودته من زيارة الامام الرضا (عليه السلام) بخراسان. وتذهب العشيرة كلها بصورة تدريجية لزيارته ، الغرفة مكتظة بالزائرين ، والكل يباركون قدوم الزائر الجديد. وعلى الفتاة أن تتكلم بكلمة أو كلمتين وتحيي عمها بذلك ، وفي اللحظة المناسبة ، وعندما يلتفت عمها نحوها ترفع صوتها وتقول مع كمال الأدب : لقد شرفت يا عمي العزيز ، أهلاً وسهلاً بك ، قرت الأعين بك ، تقبل الله الزيارة أرجو أن تكون قد استأنست كثيراً بزيارة (كرج). العم يبتسم ، ثم يتشكر منها ولكنه يقول : أنا لم أذهب إلى كرج بل كنت ذاهباً إلى مشهد ، وهنا تضطرب الفتاة وتحس بارتباك شديد وتعتذر من خطأتها. إن الاتيان بكلمة (كرج) بدلاً من (مشهد) يمكن أن يعد أمراً اعتيادياً جداً في أنظار الناس ، وربما يحمل الأمر عندهم على خطأ لفظية ، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى عالم نفساني. فإن لكلمة (كرج) التي فلتت من لسان الفتاة جذوراً في نفسها. فيجب البحث عن منشأ هذه الكلمة ، خصوصاً وأن الفتاة قد تغير لونها وارتبكت بعد أن عرفت أنها أخطأت فإن عينيها المضطربتين ووضعهما المرتبك يكشفان عن بركان ثائر في باطنها.

قد تنبعث من النار المستورة بالرماد شرارة ترشدنا إلى أن في قلب الرماد ناراً ، وإن فلتان اللسان والحركات غير الارادية تشبه الشرارة المنبعثة من باطن الرماد والتي يمكن الاستناد إليها في الوصول إلى الضمير الباطن.

« من المتاهات التي أخضعها فرويد لبحوثه في بدء اختراعاته هي الأفعال الساهية ، إن المراد من الأفعال الساهية في اصطلاح النفسيين ، هو الأفعال التي تصدر من الانسان وهي فاقدة للأهمية في بداية الأمر. كالاشتباه في استعمال الألفاظ أو العبارات. إن علم النفس القديم كان يعزو - عبثاً - هذه الاشتباهات وهذا النوع من السهوف في الكلام إلى الصدفة والتعب الفكري ، والذهول وعدم الدقة. أما فرويد فلم يكتف بهذه الايضاحات وأخذ يبحث بدقة أكثر ، لماذا ينفصح الذهول؟ وما معنى الذهول أصلاً؟ أليس سوى ظهور الأفكار والتوجيهات التي لا يراد لها الظهور في وقت ما؟ لماذا لا يقع عمل إرادي ، ويقع بدلاً منه عمل من دون أن يريده شخص؟ نحن نفكر ، نريد أن نتكلم وفجأة نعبر بعبارة أخرى غير التي كنا قد أعدنا لها في أذهاننا لماذا؟ لا بد من ميكانيكية تجعلنا نتقوه بكلمة بعيدة عن ذهننا تماماً بدل الكلمة التي نريد استعمالها كقطعة النقد الزائفة. لا بد من وجود ميكانيكية خاصة توجد انحرافاً في خواطرننا في نفس اللحظة التي نريد أداء الكلمة المقصودة ».

« إن العمل العاثر ليس كما تظن الغالبية عملاً ناشئاً من الذهول والارتباك في التفكير ، بل إنه أحد الموارد التي تظهر فيها الفكرة المكبوتة من أعماق عالم اللاشعور. هذه الأخطاء إنما هي نماذج مما تحاول الإرادة الشعورية إخفاء بصورة دائمة ».

« من هنا يستنتج : أن العمل العاثر والساهي يفضح أمر صاحبه دائماً تقريباً » (1)

إن الفتاة كانت تريد أن تقول (مشهد) ولكن فلتت على لسانها كلمة (كرج). ومع الانتباه إلى سوابق الفتاة وأنها تعيش حياتها في اضطراب وتشويش بال لفترة غير قصيرة ، وأنها مصابة بمرض نفسي وتبتعد عن الزواج وعن ذكره فإن الاتيان بتلك الكلمة أمر يسترعي الانتباه فباستطاعة الوالدين أن يكتشفا ضميرها الباطن ويطلعان

ص: 282

على سرها المكتوم. ولقد ظن البعض أن فرويد هو أول من التفت إلى هذه النكتة مستعيناً بفلتات اللسان في الوصول إلى كشف الأسرار. يقول (فليسین شاله) في موضوع السهو، ولاشتباه، ما يلي :

« إن فرويد ينسب إلى جميع هذه الأفعال التي تعتبر لأول وهلة محرد مصادفة واعتيادية، طابعاً لم يتوصل إليه فكر أحد، ويكتشف في وراء تلك الأفعال عن قضايا مخبوءة أو استياء، أو ميل نحو أمر مضاد » (1).

لقد صرح الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) بهذه الحقيقة النفسية في كمال الوضوح حين قال : « ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه » (2).

يمثل فرويد للكلام الساهي العابث بمثال ننقطه نصاً :

« يقف معلم في حصة الانشاء بالنسبة إلى موضوع إنشائي أعده أحد تلاميذه. على سبيل التمجيد به، ويقول خطأ : (لا أعلم كيف اذم!) إن المعلم بحسب فحواه الارادية وأفكاره الشعورية لما كان في مقام التمجيد فلا بد أنه كان يريد أن يقول : (أمدح). ولكنه لما كان عالماً بتفاهة الموضوع الانشائي الذي كتبه التلميذ فكان مقصوده متوجهاً نحو (المذمة) نفسها. وعلى هذا فان فلتة المعلم في كلامه كشفت عن نيته الأصلية والباطنية تلك النية التي كان يريد أن يسترها بإرادته الشعورية لمبررات خاصة ويظهرها في صورة المدح والتمجيد. وفي الحقيقة فانه في حين ارتكاب تلك الخطأ قد عبر عن عقيدته التي كان يبطنها، ولكنه كان يتفادى ظهورها » (3).

وإذا حاول أحد أن يختصر هذه العبارة، ويوجز هذا النص فلن يستطيع أن يأتي بأجمع وأشمل من كلام الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) . فسلام على روح طاهرة من إمام

ص: 283

1- فرويد وفرويديسم ص 48.

2- نهج البلاغة ص 518.

3- فرويد ص 37.

كشفت كثيراً من الحقائق العلمية قبل أربعة عشر قرناً في عبارات قصيرة وجمل مفيدة.

لقد أخطأ (فليسین شاله) حين ادعى أن هذا الموضوع لم يخطر ببال أحد حتى زمان فرويد، وإن حديثه لا يستند إلى بحث علمي متين فليس (فرويد) أول من تنبه إلى فلتات اللسان. لقد سبقه إليها قائد الاسلام العظيم في عبارة قصيرة جداً بكل صراحة، وأوضح دورها في كشف الأسرار المخبوءة.

هناك أحاديث أخرى في الكتب الدينية في هذا الموضوع. وبالرغم من أنه لم يصرح فيها بالكلمات الساهية وفتلات اللسان، إلا أنه يمكن استفادة هذا الموضوع منها، يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام): «إن أحببت سلامة نفسك وستر معاييك، فأقلل كلامك، وأكثر صمتك» (1) إن الانسان لا يكشف عن عيوبه الباطنية مع إرادته واختياره أبداً، ولكنه حين يثرثر فقد تفلت من بين كلامه - ودون اختيار أو قصد - بعض أسرارهِ وعيوبهِ، وكذلك ورد عنه (عليه السلام): «قلة الكلام تستر العوار، وتؤمن العثار» (2). ويقول الامام الجواد (عليه السلام) راوياً عن جده: «المرء مخبوء تحت لسانه» (3) أي أن اللسان يستطيع أن يكشف سر الانسان إما عمداً أو سهواً.

وعن الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام): «إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك عليك من أعدائك ما سكن» (4).

الأحلام وتفسيرها :

إن الطريقة الثانية التي اعتمد عليها فرويد كثيراً في اكتشاف الضمير الباطن هي تفسير الأحلام، ولقد كانت توجد - ولا تزال - عقائد مختلفة في الماضي والحاضر حول الأحلام. ولقد تطرق فرويد نفسه في كتابه (تفسير الأحلام)، وكذلك كل من كتب عن نظريات فرويد، إلى بيان آراء العلماء الآخرين ونظرياتهم في هذا الموضوع

ص: 284

1- غرر الحكم ودرر الكلم طبعة دار الثقافة. النجف الأشرف ص 274.

2- المصدر السابق ص 537.

3- بحار الأنوار ج 17 ص 101.

4- غرر الحكم ودرر الكلم ص 155.

بإسهاب. ولأجل أن يتض الموضوع للمستمعين الكرام ، نرى لزماً أن ننقل بعض العبارات من تلك النظريات المختلفة هنا :

« كان المعروف فيما مضى أن الأحلام تلهم إلى النفوس بواسطة قوة فوق طاقة الانسان. كانوا يعتقدون منشأ الالهام وجوداً غير أرضي ، وخارجاً عن طاقة الانسان ، وحيث كانوا يعتبرون المظهر لكل إرادة خارجة عن قدرة الانسان الخارجة عن الأرض متمثلاً في الآلهة ، اضطروا لاعتبار الأحلام نوعاً من الظهور الجسماني لارادتهم ، حيث كانوا يبشرون الأفراد بالخير والأمل أو يتنبأون لهم بوقوع المآسي والحوادث المؤلمة. وبالتدريج فقد برز الكهنة في تأويل إشارات الحلم الغامضة ، وتفسير أسرار الدقيقة ، ومن هنا صار علم تفسير الأحلام من العلوم البدائية في المجتمع الانساني ، علماً له أهمية في الحياة اليومية الناس : لأن الكهنة على خلاف علماء النفس المعاصرين الذين يسعون في تفسير الأحلام إلى البحث عن حياة الانسان الماضية ، كانوا يعملون في تفسير الأحلام على اصطناع أخبار عن المستقبل على لسان الآلهة ونشرها » (1). إن بعض الفلاسفة لم يتعدوا كثيراً عن طريق الكهنة في تفسير الحلم على ضوء عالم ما وراء الطبعية ، ويقولون بأن منشأ الحلم هو نشاط خاص للروح التي تصعد إلى العالم الأعلى كما يقول (شوبر) : إن النوم عبارة عن انطلاق الخاطر عن قيد العالم الخارجي وخلص الروح من أسر المادة » (2).

« أما الأطباء الذين يكتبون حول الأحلام فانهم - بخلاف الفلاسفة - لا يعتبرون الحلم عملاً روحياً. بل يرون أن صور الأحلام هي نتاج حركات الجسم والحواس التي تصل من العالم أو من اختلاج الأعضاء الباطنية إلى النائم وعلى هذا يجب اعتبار الحلم أمراً تافهاً

ص: 285

1- فرويد ص 38.

2- تفسير الأحلام تأليف فرويد ص 4.

شيئاً بلحن يخرج منه إنسان لا يجيد الضرب على الآلة الموسيقية ، كما يقول (بينز) : إن الحلم عمل جسماني ، تافه دائماً ، وناشئ من المرض في الغالب. يقولون : إن العوالم الخاصة بالأحلام هي نتاج النشاط المشوش للأفكار اليقظة في دماغ الشخص النائم. والمتحركة على أثر الحركات الجسمانية « (1).

« يرى فرويد أن الحلم برزخ بين حياتنا المخفية وحياتنا المعقولة والمنطقية. ولهذا فإننا إذا دققنا البحث ونظرنا إلى الموضوع من قريب أمكننا أن نصل إلى نتائج مهمة ».

« ويرى فرويد أنه لا يمكن اعتبار أي حلم عبثاً وباطلاً وبغير معنى ، بل وعلى العكس من ذلك لما كان نتيجة عمل روحي فلا بد أن يكون له معنى ومفهوم خاص. وفي النهاية فليس الحلم مظهراً من إرادة فوق طاقة البشر بل إنه نموذج عن الإرادة المخفية للإنسان » (2).

الاسلام والأحلام :

إن الروايات الإسلامية لا تنظر إلى جميع الأحلام نظرة واحدة ، بل إنها تقسم الأحلام إلى ثلاثة أقسام : قسم منها عبارة عن الأفكار العادية أو الأسرار المخفية للإنسان ، التي تظهر بنفسها أحياناً. أو تظهر بصورة أخرى أحياناً لعلل خاصة. هذا النوع من الأحلام فقط هي التي لها قيمة علمية عظيمة في نظر التحليل النفسي وعلماء النفس ، وبواسطتها يمكن الوصول إلى الضمير الباطن للأشخاص ، وتعيين الجذور الأصلية للأمراض الروحية.

والقسم الثاني من الأحلام ، عبارة عن الأفكار المشتتة والمضطربة التي تتطرق إلى ذهن الإنسان في اليقظة أحياناً ، وخصوصاً في حالات المرض ولا قيمة علمية ونفسية لها ، وقد عبر عنها بـ « أضغاث أحلام » أو الأفكار الشيطانية.

ص: 286

1- المصدر السابق ص 5.

2- فرويد ص 39.

والقسم الثالث هو الأحلام التي لها جانب الهامي ، والتي ينكشف بواسطتها بعض الحقائق المجهولة من كل جهة.

يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « الرؤيا ثلاثة : بشرى من الله ، وتحزين من الشيطان ، والذي يحدث به الانسان نفسه فيراه في منامه » (1).

التحليل النفسي قبل فرويد :

ليس مقصودنا من هذا البحث ، الحديث عن الرؤيا وتفسيرها ، بل إن مرادنا هو بيان أن قسماً من الأحلام هي التي تكشف أسرار الانسان وتفضح الضمير الباطن للأفراد ، ولثبت أن هذا الموضوع ليس من اختراعات فرويد ، بل إن أولياء الاسلام وبعض علماء المسلمين قد سبقوه إلى ذلك :

ولأجل أن يتنبه المستمعون الكرام في بداية الحديث إلى هدف البحث نستشهد بمثال من قصة الفتاة المخدوعة :

لقد أوردت الحادثة المزعجة والمكتومة ضربة قاضية نحو شرف الفتاة وعفتها ، فقد أغفلها شاب في (كرج) وأزال بكارتها والفتاة لم تذكر هذا السر لأحد بل احتفظت به في ضميرها الباطن. وفي عالم الرؤيا يريد ذلك السر أن ينكشف ولكن الفتاة لم تكن في حال اليقظة مستعدة لأن تكشف ذلك السر لأحد ، وكان ضميرها الظاهر مخضعاً لضميرها الباطن للرقابة الشديدة ، فهي في حالة النوم كأنها تدرك تلك الفضيحة ، لكن قوة مجهولة لا تسمح بأن تنكشف المخزاة بلا ستار لذلك فان صورة الحقيقة المرة تتبدل ، وتظهر بمظهر غير مخز تماماً.

« إن حلم الشخص البالغ مخفي خلف آلاف الأستار من الكذب والتزوير والأخلاق والقوانين والأنظمة الاجتماعية وإن هناك نوعاً من (فوق الأنا) تراقب أفعال الشخص ولو في عالم الرؤيا. لهذا فان الانسان يرتكب جريمته في الحلم خلف ستار من (فوق الأنا) فيخفي نفسه عن نفسه ، وفي عالم كهذا حيث يتم كل شيء بالنكاية والاستعارة وإخفاء الحقائق وراء أقنعة عديدة فان التعبير الصحيح

ص: 287

والبسيط والمجرد عن الأفعنة لا يمكن أن يظهر أصلاً في الضمير الانساني».

« في أحلام الشخص البالغ تريد بعض الأحاسيس أن تخرج إلى الوجود ، ولكنها لا تملك الجرأة على الخروج بذلك المظهر بصورة صريحة حرة ، بل إنها تراقب (فوق الأنا) الأخلاقية والاجتماعية ، وتضطر إلى أن ترسل التنبؤات المختلفة والصور الخداعة والمتباينة إلى ضميرنا » (1).

ولهذا فإن منتزه (كرج) وغرفة الدار ، وصورة الشاب الذي خدعها والعمل المنافي للشرف والعفة ، وبصورة موجزة فإن القصة الحقيقية للجريمة لا تأتي إلى خاطر الفتاة في الحلم. وعلى فرض أنها رأت حلمًا كذلك فإنها لا تخبر أحداً به ، ولكنها ترى في الحلم أنها في بستان كبير متعلقة بغصن شجرة ، وتحت قدميها هوة سحيقة ومظلمة مليئة بالوحل والطين ، وهي مضطربة لأجل ذلك وتخاف من أن يفلت الغصن من يدها وتسقط في الهوة ولكنها تقع في ما كانت تحذر منه ويفلت الغصن من يدها فجأة وتسقط في تلك الحفرة المظلمة وتتحطم وسط الأوحال!.

تحرير الضمير الباطن :

هذا الحلم هو مظهر الضمير الباطن ، وانعكاس لتلك القصة الواقعية التي كانت تخشى الفتاة من إظهارها ، مع فارق بسيط هو أن القصة نفسها لما كانت مخزية وقبيحة فإن لباسها يتغير ، وتتبدل صورة الاتصال الجنسي بشاب أجنبي إلى شكل التعلق بغصن شجرة ، ويبدو التردّي الاجتماعي الناشئ من ذلك الاتصال في إطار السقوط في الوحل.

« هناك رابطة العلية والمعلولية بين ظلمة صور الأحلام وحالة الكبت النفسي. والنتيجة أنه إذا كان الحلم مظلماً فذلك لأن طائفة من الأفكار الباطنة والمكبوتة قد منع الوجدان من ظهورها » (2).

ص: 288

1- فرويد ص 43.

2- تفسير الأحلام ، تأليف فرويد ص 71.

هذا الحلم يبدو - في نظر الأفراد العاديين - تافهاً لا قيمة له ، ولكن الذي يستطيع تفسير الأحلام وتحليلها يرى في هذا الحلم مفتاحاً لمخزن أسرار الفتاة ، وبذلك يتمكن من اكتشاف الضمير الباطن لها.

لقد أعطى فرويد أهمية كبيرة للحلم وتفسيره من حيث الوصول إلى الضمير الباطن ، وإن قسماً كبيراً من مدرسته في التحليل النفسي أشغله هذا الفصل . وقد قوبل هذا الموضوع بأهمية بالغة في أنظار طائفة من الغربيين وكتبوا حوله البحوث المطولة ، طانين أن (فرويد) هو أول من تنبه إلى هذا الأمر . واليكم بعض النماذج :

« إن تفسير الأحلام هو الطريق الصحيح للوصول إلى الضمير الباطن في الحياة النفسانية ، ويمكن ملاحظة هذه المعادلة الغامضة في أول أثر لفرويد حول الحلم . إنه ربط ظهور الأحلام في إحدى كتاباته التي انتشرت في الشطر الثاني من حياته بالتحليل النفسي . هذا العلم الحديث لم يوجد قاعدة أساسية أو أدق قابلية للقياس مع أصول الأحلام . إنه أرض مجهولة تنشأ من العقائد العمومية والتصرف » (1).

« إن الحلم عبارة عن نوع من الاعتراف ، لكنه اعتراف مصحوب بلحن مناسب ، وعلى هذا يجب تصحيحه . هذه الأفكار المختفية تسلط - فور اكتشافها - أضواء ساطعة على جميع أجزاء الحلم . وتكمل النقائص الموجودة بين تلك الأجزاء وتجعل المجموعة الاعتيادية منها قابلة للفهم . هذا هو الأسلوب الذي يتبعه فرويد في تفسير الأحلام » (2)

« أما الموضوع الأساسي فهو : أنه كيف نستطيع أن نرسو في هذا البحر الخضم المتلاطم ؟ كيف نبسط شيئاً لا يرى بصورة واضحة تماماً ؟ كيف يستطيع البصيص الضعيف الذي يظهر على صفحة الحلم المظلمة لبضع لحظات أن يكشف عن حقيقة خفية وغامضة

ص: 289

1- فرويد وفرويديسم ص 58.

2- المصدر السابق ص 61.

تماماً؟ إن اكتشاف هذه الرموز والوصول إلى هذه الأسرار الخفية والمبهمة تحتاج إلى فراسة وذكاء من شخص ساحر ماهر ، أو مخبر عن الغيب ، فريد في نوعه ».

« أما فرويد فبدون أن يتشبث بالسحر أو يعرف نفسه كمطلع على الغيوب ، يوجد في أعماله رمز لا يقف في سبيله رادع أو مانع. إن سر نجاح فرويد يكمن في أنه يبدأ في حل أغمض الأسرار من أبسط المقدمات » (1).

يستفاد من هذه العبارات مدى اهتمام الغربيين بفرويد وأساليبه في تفسير الأحلام ... ومدى تأثيرهم بوجهات نظره.

التحليل النفسي في الاسلام :

لقد وجد في الاسلام بالضافة إلى التفسيرات التي أدلى بها الأئمة عليهم السلام عن بعض الأحلام أحياناً ، أفراد عاديون كانوا يستطيعون اكتشاف الضمير الباطن للأشخاص ، والوصول إلى أسرارهم عن طريق تفسير أحلامهم. هؤلاء لم يكونوا ساحرين ، ولا مدعين للعلم بالغيب ، بل انهم كانوا أشخاصاً عاديين تماماً ، ولكن أذكاء في نفس الوقت. وأن بعض نماذج تفسيرهم للأحلام مهمة وراقية إلى درجة أنه قلما نجد لها مثيلاً في جميع كتب علم النفس في العصر الحديث.

من الأشخاص الذين اشتهروا في تفسير أحلامهم (ابن سيرين) لقد بدأ التحليل النفسي عن طريق الحلم قبل ثلاثة عشر قرناً ، وأوضح الحقائق الغامضة الكثيرة عن هذا الطريق « إسمه محمد ، وكان معاصراً للحسن البصري. وكان أبوه (سيرين) صفاراً » (2).

وقبل أن نعرض لبعض النماذج عن تفسير الأحلام في الاسلام من وجهة التحليل النفسي ، لا بد من أن نتطرق إلى نكتتين :

ص: 290

1- فرويد ص 41.

2- قاموس دهخدا الفارسي ص 321 - ابن سيرين.

أ - ربط الحلم بالعواطف :

إن العواطف الدينية والثقافة العامة تختلف في كل أمة عن غيرها من الأمم ، فهناك فرق شائع بين مشاعر فرد مسلم متعرف على تعاليم القرآن الكريم ، وبين ياباني بوذي ... وطبعي أن تكون أحلام المسلم ممتزجة بالعواطف الاسلامية والمشاعر القومية له ، وأن تظهر أحلام الياباني البوذي في صور متناسبة مع اعتقاداته القومية والدينية.

والشخص المفسر للأحلام يستطيع أن يقوم بمهمته بصورة جيدة ، متى ما كان عارفاً بالعواطف الدينية والثقافة القومية للشخص الحالم. ولهذا فان المفسرين الاسلاميين للأحلام ، يستندون إلى الآيات القرآنية والأحاديث الدينية التي تستند إليها عواطف الناس ومشاعرهم.

« يعتقد فرويد أن الذين يكونون على مستوى واحد من الثقافة يستعملون إشارات وعلائم متشابهة في معالم الوجدان الباطن لهم ، ويجب اكتشاف هذه الاشارات والرموز من خلال أحلامهم » (1).

ب - الرموز والكنيات في الحلم :

غالباً ما لا يسمح الادراك الوجداني للقبج ، والنفور الاجتماعي ، أو الأخلاق والآداب العامة في ظهور محتويات الضمير الباطن بالصورة الحقيقية في الحلم ، لذلك فان الأفكار المخفية تظهر في صورة المظاهر المختلفة وعلى شكل رموز أو كتابات. فعلى المفسر أن يكون على جانب كبير من الفراسة والذكاء لكي يستطيع أن يكتشف من الصورة الظاهرية للحلم والتي ملئت رموزاً وكنيات ، الحقيقة التي تكمن وراءها ، ويفسر الحلم بذلك تفسيراً كاملاً.

« إن أسلوب الحديث في هذا العالم اللاشعوري لا بد وأن يختلف عن أسلوب الحديث في الحياة الظاهرية التي تعودناها اختلافاً بيناً. واننا لا نستطيع في بادئ الأمر أن ندرك المقصود من تلك الأحاديث فيجب في الوهلة الأولى أن نسعى لتفسير وتوجيه

ص: 291

مظاهرها بحسب الالفباء المصطلحة عندنا. لأن لغة الأحلام تشبه اللغات البدائية كالمصرية، والكلدانية، والمكسيكية، في أنها مكونة من رموز وعلائم، ولا بد من تفسير هذه الرموز في كل مرة حسب الاصطلاح الجاري والمعمول به عندنا « (1).

وقد جاء في الحديث: « للرؤيا كنى وأسماء، فكنوها واعتبروها بأسمائها » (2).

« إن تبدل الشكل الباطن إلى الصورة الظاهرة نسميه بالحلم. والعمل المعاكس له أي تبديل الصورة الظاهرة بالباطن نسميه بالتحليل » (3).

والآن نعرض لبعض نماذج من الأحلام المعبرة من حيث التحليل النفسي في الاسلام:

1 - « قال رجل لعلي بن الحسين (عليه السلام): رأيت كأنني أبول في يدي. قال: تحتك محرم. فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع » (4). في هذا الحلم نجد أن اليد - وهي عضو من أعضاء البدن - كناية عن الأخت - وهي عضو الأسرة - والبول رمز للمني. والامام عليه السلام فسر البول في اليد بنكاح المحرم. فإن كان الرجل يعرف أن زوجته هي أخته في الحقيقة، فإن تفسير الحلم يعتبر اختباراً نفسياً واكتشافاً للضمير الباطن للرجل. وإن لم يكن يعرف ذلك، فهو الالهام.

2 - « أتى إلى أبي عبد الله (عليه السلام) رجل فقال: يابن رسول الله رأيت في منامي كأنني خارج عن مدينة الكوفة في موضع أعرفه، وكأن شيخاً من خشب أو رجلاً منحوتاً من خشب على فرس من خشب يلوح بسيفه، وأنا أشاهده فزعاً مرعوباً. فقال له (عليه السلام): أنت رجل تريد اغتيال رجل في معيشته. فاتق الله الذي خلقك ثم يميته. فقال الرجل: أشهد أنك قد أوتيت علماً واستنبطته من معدنه. أخبرك يابن رسول الله عما قد فسرت لي. إن رجلاً من جيراني جاءني وعرض علي ضيعة، فهممت أن

ص: 292

1- فريد ص 39.

2- بحار الأنوار 14 436.

3- تفسير الأحلام ص 18.

4- المستطرف من كل فن مستظرف ج 2 89.

أملكها بوكس كثير لما عرفت أنه ليس لها طالب غيري» (1).

3 - « جاءت امرأة إلى ابن سيرين فقالت له : رأيت كأني أضع البيض تحت الخشب فتخرج فراريح. فقال ابن سيرين : ويلك اتقي الله فانك امرأة توفقين بين الرجال والنساء فيما لا يحبه الله عز وجل ، فقيل له من أين أخذت ذلك؟ قال : من قوله تعالى في النساء : «كَانَّهُنَّ يَبْضُنَّ مَكْنُونٌ» (49) وشبه المنافقين بالخشب : « كأنهم خشب مسندة ». فالبيض النساء. والخشب : هم المفسدون ، والفراريح : هم أولاد الزنا » (2).

وكان الأمر كما ذكره ابن سيرين ، وانكشف سر المرأة بتلك الرؤيا.

4 - « روي عن ابن سيرين أنه أتاه رجل فقال : رأيت كأني أقشر بيضة وأرمي صفارها وأكل بياضها. فقال ابن سيرين : هذا رجل نباش للقبور ، فقيل له : من أين أخذت هذا؟ فقال : البيضة : القبر. والصفار : الجسد. والبياض : الكفن. فيلقي الميت ويأكل ثمن الكفن وهو البياض » (3).

لقد ظهرت الخيانة الخفية للرجل الذي كان يشق القبور ليلاً ويسرق الأكفان بصورة حلم ، مع تغيير شكل الضمير الباطن. ولقد استطاع (ابن سيرين) العالم الحاذق ، أن يفسر تلك الرؤيا ويكتشف ذلك السر.

5 - جاء رجل إلى (ابن سيرين) ومعه جراب ، فقال له : رأيت في النوم ، كأني أسد الزقاق سداً وثيقاً شديداً فقال له : أنت رأيت هذا قال : نعم ، فقال لمن حضره : ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان وربما يكون في جرابه آلة الخنق ، فوثبوا عليه ، وفتشوا الجراب ، فوجدوا فيه أوتاراً وحلقاً فسلموه إلى السلطان » (4).

6 - جاء رجل إلى (ابن سيرين) قائلاً : رأيت فيما يرى النائم أني أجامع فأرة ، ويخرج من شرجها ثمرة. فقال له ابن سيرين : هكذا أفهم أنك متزوج بامرأة زانية. قال : نعم. قال له : إنها حامل. وأبشرك بأنها تلد لك ولداً طاهراً شريفاً » (5).

ص: 293

1- روضة الكافي ص 293. والاعتيال هنا بمعنى : الخديعة.

2- حياة الحيوان للدمي ج 1 234 - دجاج.

3- حياة الحيوان للدمي ج 1 234 - دجاج.

4- المستطرف ج 2 88 مطبعة الاستقامة القاهرة 1383 هجرية.

5- نامه دانشوران ج 2 176.

7 - وجاءه رجل فقال له : رأيت كأنني أسقي شجرة زيتون زيتاً ، فاستوى جالساً ، فقال : ما التي تحتك؟ قال : علبة إشتريتها. وفي رواية جارية وأنا أطوها ، فقال : أخاف أن تكون أمك ، فكشف عنها فوجدها أمه « (1).

يتضح من استعراضنا لهذه النماذج القليلة من تفسير الأحلام أن الاختبار النفسي والوصول إلى الضمائر الخفية للأفراد عن طريق تفسير أحلامهم ليس أمراً جديداً حتى يتصور أن فرويد أول من ابتكرها وتختص بمدرسته ... وأن في الاسلام أفراداً أذكيا ونوابغ طرقوا هذا الباب قبله. ومنهم مفسر الأحلام الشرقي (ابن سيرين) حيث بدأ تجاربه وأعماله الرائعة قبل 13 قرناً.

نصيحة في نقل الحلم :

للمرسل الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) نصيحة دقيقة في الرؤيا. إنه يقول : « لا تقصها إلا على وادٍ ، أو ذي رأي » (2). أما بالنسبة إلى الواد (الصديق) فإنه إن لم يكن يعرف طريقة تفسير الحلم ، فلا أقل من أنه لا يعجل للانسان بفكرة مشؤومة ، وخاطرة سيئة ، « وإن لم يكن عالماً بالعبرة ، لم يعجل بما يغمك » ... ثم يتطرق (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بيان فوائد ذكر الحلم لمن يجيد تفسيره فيقول : « ولعله أن يكون في تفسيرها موعظة يردعك عن قبيح ما أنت عليه ».

فرويد ونظريته البتراء :

إن الموضوع الجدير بالانتباه هو أن نظرية فرويد حول الأحلام بتراء وغير ناضجة. لقد نظر فرويد كغيره من الماديين إلى جميع الأمور نظرة مادية فقط. وكما انحرف عن الطريق السوي في موضوع الخالق والدين ، فقد انحرف - لاتجاهه المادي البحت - في موضوع الأحلام أيضاً ، ولم يستطع أن يدرك الواقع من جميع جهاته. إنه يرى الأحلام مظهراً للأفكار الباطنة فقط.

ص: 294

1- المستطرف ج 2 88.

2- البحار ج 14 437.

« يمكن وصف الحلم بأنه تحويل الأفكار المخفية إلى الشكل الظاهر. والخلاصة أن الحلم ليس موجدًا ، لا يخلق شيئاً من نفسه ولا يحكم أو يستنتج ».

« إن عمل الحلم عبارة عن التلخيص أو الإيجاز ، التبديل أو التحويل ، تغيير الصورة أو التمثيل ... ومن ثم فهو التنظيم والطلاء بالشكل الذي انتهينا من شرحه قبل قليل ».

« والذي يبدو لي أن قسماً من محتويات الحلم يكون نتيجة للنشاط الذهني في النوم ، ولكن الذي يتضح من تحليل الحلم أن هذه التعقيلات كانت موجودة في الأفكار الباطنة للشخص الحالم. وظهرت بعينها في النوم ».

« كل قصة منطقية واستنتاجية تشاهد في الحلم هي نفسها التي كانت موجودة في الأفكار الباطنة » (1).

وكما أن الكهنة كانوا يفسرون الأحلام بالتنبؤات عن الوقائع المستقبلية وكان تفسيرهم خاطئاً ...

وكما أن طائفة من علماء القرن السادس عشر والسابع عشر كانوا يرونها معلولة لسلسلة من الأعمال العضوية ونشاطات بعض الأنسجة العصبية ، وكانت نظرتهم هذه خاطئة ...

كذلك نظرية فرويد في حصر جميع الأحلام بخصيصة نفسية واحدة وهي أنها مظهر للوجدان الباطن ... فإنها غير صحيحة ، إن ما لا شك فيه أن طائفة من الأحلام عبارة عن تجليات الضمير الباطن وهذا القسم منها يعتبر سليماً يربط وادي النفس الخفية بوادي النفس الظاهرة. وهذا ما قال عنه الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « والذي يحدث به الإنسان نفسه ، فيراه في منامه ».

وهذه الطائفة هي التي قام بتفسيرها على أحسن وجه (ابن سيرين) في عدة

ص: 295

موارد. لقد توهم فرويد أن جميع الأحلام يجب أن تفسر وتعبّر بنفس اللغة ، وإن منشأ خطأه هو حصره هذا.

الحقائق المجهولة :

ما أكثر الأشخاص الذين توصلوا إلى اكتشاف حقائق مجهولة في الماضي والحاضر عن طريق الأحلام ، ولطالما كان الحلم مخبراً بصورة صريحة أو مع شيء من التحوير - وبمساعدة التفسير - عن بعض الحقائق التي لم تكن تخطر على بال الحالم أو ضميره الباطن! وإن هذه الطائفة من الأحلام من الكثرة بمقدار أنها لا تقبل الإنكار والتكذيب. وهناك في الأسر الشرقية والغربية أفراد عديدون تقع لهم أمثال هذه الأحلام.

لقد توفيت زوجة أحد العلماء القديرين المعاصرين ، وكانت تطلب في أيام حياتها مبلغاً مهماً من المال من شخص ما ، ويوجد عندها سند يثبت الدين ، والمدين طالبهم بالسند الرسمي ، ولقد قامت ابنة المتوفاة بالبحث عن السند في البيت كله ، وفي أي مكان تحتمل وجوده فيه من دون أن تصل إلى نتيجة. ولم يكن المدين مستعداً لدفع دينه دون أن يقبض السند الرسمي. فيئس الورثة من استحصال الدين. وفجأة رأت الخادم في الحلم أنها رأت سيدتها المتوفاة تأمرها بأن تخبر ابنتها بأن السند في جيب الثوب الفلاني. فذهبت البنت إلى مكان ذلك الثوب ووجدت السند فيه كما أخبرت به الخادم. هذه الرؤيا لا يمكن تفسيرها حسب أصول التحليل النفسي لفرويد. فليست ظهوراً لمكونات الضمير الباطن للخادم. فإن الخادم لم تكن تعرف عن موضوع الدين والسند أي شيء أصلاً ، حتى تعرف محله!.

لهذا النوع من الأحلام حساب خاص ، أوضحه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله : « ... بشرى من الله » كما مر ، وهي نوع من الإلهام الإلهي ، وهي كثيرة إلى درجة أنها لو جمعت من كل عصر لأصبحت بصورة كتاب كبير. لم يتحدث فرويد عن هذا النوع من الأحلام أصلاً ، ولا يستطيع أن يقول شيئاً عنها ، ذلك أن فرويد رجل مادي ، وإن الاعتراف بهذا النوع من الأحلام والاذعان لها (وهي تكشف عن حقائق مجهولة تماماً) لازمة اعتراف بالمبادئ الروحية ، والتصديق بعالم ما فوق المادة ، والاعراض

عن المذهب المادي ، وفرويد غير مستعد للاعتراف بهذا الأمر. هب أن امتناعه عن الاعتراف بالحقيقة ، لا يغير من الواقع شيئاً ، ولا تستطيع أفكاره الهوجاء إخفاء حقيقة مسلمة تملك آلاف الشواهد الحية عند شعوب العالم المتحضر.

وإتماماً للفائدة ، نعرض لبعض النماذج من هذا النوع من الأحلام أيضاً :

1 - حلم ملك مصر : لقد رأى ملك مصر - كما يحدثنا القرآن - سبع بقرات ضعاف تأكل سبع بقرات سمان. وسمع سنابل يابسة ومعها سبع سنابل خضراء ... «وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنَّ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ» (1).

فعرض رؤياه على رجال بلاطه وعلماء بلاده ، فعجزوا عن تعبيرها ، وسموها بأضغاث أحلام ...

أما يوسف الصديق ، فقد كان حاذقاً في تعبير الرؤيا ، وفسر الحلم الذي رآه الملك بالشكل التالي : جدوا في أمر الزراعة لسبع سنين ، وادخروا في كل عام ما يفضل من قمحكم ، واخزنوا الزائد عن الاستعمال في سنابله فبعد هذه الأعوام السبع يجتاح البلاد قحط عظيم ويستمر هذا القحط لسبع سنوات ، ويقع الناس في حرج وشدة. وفي هذه الفترة يجب الاستفادة من القمح المخزون. ولقد تحقق كلام يوسف تماماً واستفادوا في أعوام القحط من ذخائر السنوات السابقة ونجت البلاد في ظل دراية يوسف من السقوط الحتمي والموت المحتم. وعلى أثر هذا التفسير العلمي الدقيق والخدمة العظيمة التي أسداها يوسف إلى الشعب المصري فقد صار محبوباً من قبل الناس ، وأدى ذلك إلى أن يصل يوسف - بمساندة الرأي العالم - إلى زمام الحكم لسنوات طوال.

لم يكن حلم ملك مصر تلخيصاً لمكونات الضمير الباطن ، ولم يكن التفسير العجيب الذي أدلى به يوسف مستنداً إلى الختبار النفسي ، والتوصل إلى الوجدان

ص: 297

المكنون للملك. فقد كشف هذا الحلم عن مستقبل مجهول تماماً ، وأعلن عن حادثة خفية.

2 - رأى عبد الملك بن مروان في المنام : أنه يبول في محراب مسجد الرسول الأعظم أربع مرات. فسأل ابن سيرين عن تفسير رؤياه. فقال له ابن سيرين : أربعة من أولادك يصلون إلى مقام الخلافة ، ويقفون للإمامة في محراب الرسول الأعظم ، ويتعهدون قيادة شؤون المسلمين ، وكان كما قال. فقد تنزى كل من وليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك فترات قصيرة واحداً تلو الآخر على منصب الخلافة. لقد كشف هذا الحلم عن مستقبل مجهول لم يكن ليعرفه أحد أصلاً (1).

3 - ينقل عن المهدي العباسي ، أنه رأى في المنام أن وجهه قد أسود ، فسأل المعبرين عن تعبير ذلك فعجزوا إلا إبراهيم الكرمانی ، فانه قال : توجد لك بنت. قالوا : من أين علمت ذلك؟ قال : لقوله تعالى : «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا» فأعطاه المهدي ألف درهم ولما حصل له بنت زاد عليه ألف درهم آخر (2).

هذه الرؤيا كشفت عن مستقبل مجهول لم يكن أمره بيد أحد : فالخليفة يحلم بشيء ، ثم يتحقق حلمه بعد أشهر عندما تلد زوجته بنتاً له.

4 - جاء رجل إلى (ابن سيرين) وقال له : رأيت في المنام أن ديكاً قد دخل إلى منزلي وقطف بضع حبات شعير. فقال له ابن سيرين إذا سرق من بيتك شيء فراجعني. وجاء بعد أيام. وقال : لقد سرق سجاد من بيتي. فقال له ابن سيرين : لقد سرقه المؤذن فذهب الرجل إلى المؤذن وطالبه بسجاده ، وتنازع معه حتى استرد ماله « (3).

وهكذا نجد أن هذا الحلم أخبر عن أمرين خفيين : وقوع السرقة وتعيين السارق.

ص: 298

1- تامة المنتهى ص 80.

2- الكنى والألقاب 1 314.

3- نامه دانشوران ج 2 176.

وعلى أية حال فإن طائفة من الاحلام لا يمكن أن تفسر حسب أصول التحليل النفسي والمدرسة المادية ، وهي قابلة للتفسير على مبنى الالهيين والمعتقدين بما وراء الطبيعة والمادة.

إن الجانب المعنوي والالهام الروحاني لبعض الأحلام مهم إلى درجة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول عنها : « إن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزء من النبوة » [\(1\)](#).

ص: 299

1- بحار الأنوار للشيخ المجلسي ج 14 435.

قال الله تعالى : «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا» (1).

إنّضح لنا مما ذكرناه في المحاضرات السابقة أنّ في الضمير الانساني قوة تسمى بالوجدان الأخلاقي. وفي الموارد التي يرتكب الانسان جريمة يقع فريسة اللوم والتقريع من تلك القوة الباطنية. إنّ الوجدان الأخلاقي من القوة والقدرة بحيث أنه لا يترك المجرم ونفسه حتى في عالم النوم. يستعرض أمام عينه جرائمه بصورة الرؤيا ، وبذلك يلومه عليها ...

إنّ قوة الوجدان الأخلاقي وإدراك قبح الاجرام هو الذي يحور صورة الحلم ولا يسمح بأن يظهر المجرم على صورته الواقعية من جهة ويجعل المجرم من جهة أخرى يشاهد جرائمه في الرؤيا برعب وقلق وأنّ الانقياد لأوامر الوجدان الأخلاقي وإطاعة مقرراته وظيفة حتمية لكل انسان ... فإنّ مخالفته تتضمن مصائب ومآسي لا تجبر. وسيدور بحثنا في هذه المحاضرة حول الاستفادة من الوجدان الأخلاقي ، وتنفيذ قوانينه والنتائج الوخيمة التي تترتب على مخالفته والخروج عليه.

قوتان باطنيتان :

هناك قوتان في طريق إرضاء الميول أو ضبطها وعدم الاستجابة لها في باطن كل انسان : احدهما ايجابية ، والأخرى سلبية. أما القوة الايجابية فهدفها جلب اللذائذ وإرضاء الغرائز فقط ، وتميل إلى إشباع جميع الميول الطبيعية بدون قيد وشرط وأنّ تحقق جميع الرغبات. هذه القوة لا تفهم الخير والشر ، أو الصالح

ص: 300

والفاسد ، إنها تنادي باللذة فقط وليس لها هدف غير ذلك. ولقد عبر القرآن الكريم عن هذه القوة الباطنية ب- (النفس الامارة) ... حيث يقول عز من قائل : «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ» (1).

وأما القوة السلبية في باطن الانسان ، فهي تتمثل في القوة التي تمنع الانسان في جلب اللذائذ عن ارتكاب الجرائم والوقوع في الدنس ، وتلطف من حدة الميول ، وتلجم النفس الأمارة الشמוש ، إنها تسمح بإرضاء الغرائز والاستجابة للميول بالمقدار الذي لا يتصادم مع المقررات العقلية والعرفية والشرعية ، أما ما عدا ذلك فإنها لا تسمح به. ولقد عبر القرآن الكريم عن هذه القوة المعدلة للميول ب- (النفس اللوامة) ... حيث يقول تعالى : «لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)» (2).

قيادة الغرائز :

مما لا شك فيه أن الحياة البشرية مدينة إلى الميول والغرائز التي أودعها الله تعالى في مزاج الانسان ، ذلك أن الغرائز والرغبات النفسانية هي القوة المحركة العظمى التي تدبر دولب الحياة الانسانية ، ولا توجد أي قوة في الانسان تبعثه على النشاط والحيوية كالغرائز. ولكن النغطة الجديرة بالملاحظة والانتباه أن هذه الغرائز إذا نفذت واستجيب لها بالصورة الصحيحة وبالشكل المعقول فإنها تبعث على الخير والسعادة ، أما إذا لم يلتزم العقل قيادتها وكان إرواؤها على غير نظام أو ترتيب ، فلا شك في أنها تتضمن مآت المآسي وتؤدي بالانسان إلى عاقبة سيئة.

عشرات الأرياف يمكن أن توجد على ضفاف نهر ، ومئات الأسر تستطيع أن تعيش فيها على أتم الرفاه والراحة ... إن جميع المزارع والحقول والمراعي وبصورة موجزة جميع مظاهر العمران هناك وجدت من ماء ذلك النهر. وإذا لم يكن ذلك النهر موجوداً ، لم يكن أثر للعمران ولم تكن توجد الأرياف ، ولكن قد يصادف

ص: 301

1- سورة يونس 53.

2- سورة القيامة 1-2.

أن ينحدر السيل من الجبال ويؤدي فيضان النهر إلى أن يتجاوز النهر مجراه ، ويهجم على المزارع والمساكن بصورة جنونية ، ويؤدي إلى خسائر عظيمة في الأرواح والأموال وتسف الأتعاب والجهود التي بذلها الريفيون المساكن طيلة سنوات عديدة!!.

إنه لا- يمكن الاستغناء عن النهر ، لأن النهر يعتبر الشريان الرئيسي لحياة هؤلاء الناس في الأرياف ، وإن مظاهر العمران ظهرت بفضل وجود النهر - ولأجل أن نستفيد من فوائد النهر ، ولا ترد علينا خسارة أو ضرر من جراء الفيضان ، علينا أن نبني سداً محكماً عليه ، ونمنع من طغيانه ومن الواضح أن بناء السد يجعلنا ننتفع من فوائد النهر باستمرار ، ونكون في مأمن من أضراره وخسائره.

طغيان الغرائز :

إن الغرائز والميول البشرية تشبه النهر الذي تقوم عليه الحياة الفردية والاجتماعية. فإن كانت الاستجابة لها بصورة معقولة وحسب مقاييس ثابتة فانها تمنح الحياة نشاطاً وحيوية ، أما إذا أرضيت بالصورة الفوضوية العارمة ومن دون نظام أو ترتيب فلا شك في أنها تؤدي إلى الشقاء والانحيار. وبعبارة أخرى : فكما أن النهر كان مسخراً لصالح الناس تارة وكان الناس مسخرين لتأثير النهر تارة أخرى ، كذلك الغرائز فانها قد تخضع لقيادة العقل ، وقد يخضع العقل لقيادة الغرائز. إن السعادة تتحقق متى خضعت الميول جميعها لسيطرة العقل ، وكانت منقاداً لأوامره ومقرراته.

هذا الكلام مقبول لدى جميع الماديين والمتألهين في العالم ، فقد أقر العقلاء والعلماء جميعهم بأن الانقياد للغرائز وإرضاءها بلا قيد أو شرط يتنافى مع التمدن والسعادة البشرية.

« تقضي الحياة ، وخصوصاً الحياة الاجتماعية للإنسان ، أن تهدي الغرائز الأولى منذ البداية ، وتوجه نحو الأهداف الاجتماعية ، وبصورة أوضح نقول : كما أنه يجب إقامة سد أمام مجرى الماء لإدارة محرك من المحركات المعتمدة على قوة الماء فإن التمدن

يجب أن يخضع الغرائز لسيطرة دقيقة ، وذلك ليبلغ بالإنسان إلى الرقي والتكامل « (1).

إن أول نقطة يجب أن تسترعى انتباهنا في هذا المقام ، هي أن إرضاء جميع الميول النفسانية بصورة حرة وبلا قيد أو شرط أمر مستحيل. ذلك لأن تحقيق بعض الرغبات يتنافى مع إتيان الرغبات الأخرى ، وفي الواقع يوجد تناقض واضح بين كثير من ميول الإنسان. لقد أوضح الامام علي عليه السلام التناقض القائم بين بعض الميول والرغبات بعبارة قصيرة وحكيمة ، إنه يقول :

« ما أعجب أمر الإنسان ، إن سنج له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن سعد نسي التحفظ ، وإن ناله خوف حيره الحذر ، وإن اتسع له الأمن أسلمته الغيرة ، وإن جددت له النعمة أخذته الغزوة ، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى ، وإن عضته فاقة شمله البلاء ، وإن جهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط في الشبع كظته البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل إفراط به مفسد ، وكل خير معه شر ، وكل شيء له آفة » (2).

فما أكثر الرغبات النفسية التي تدفع الإنسان إلى الإفراط في الاستجابة للغريزة الجنسية ، أو الطعام في حين أنه يتنافى مع الرغبة في الصحة ، وما أكثر اللذائذ التي يتطلبها الإنسان من قبيل الخمرة والحشيشة ، في حين أنها تتضمن عوارض مختلفة ونتائج وخيمة تهدد حياة الإنسان.

الوجدان والغرائز :

هناك نقطة أخرى يجب أن نتنبه لها ، وهي أن الحرية المطلقة للغرائز بلا قيد أو شرط تتنافى والوجدان الأخلاقي للبشر. فإن الذي يريد إرضاء جميع الميول بكل حرية ، ويحاول الاستجابة لرغباته وتحقيقها ، لا بد أن يكون منقاداً لغرائزه ، معرضاً بوجهه عن النداء السماوي والمقررات القيمة الصادرة من الوجدان الأخلاقي الذي هو ودیعة إلهية عند الإنسان ، مستهتراً بالكرامة والشرف والنبيل!!.

ص: 303

1- أنديشه های فروید ص 51.

2- اداب النفس للعينائي ج 2 111 ، نقلاً عن إرشاد المفيد ص 142.

« لا بد للانسان أن يختار من بين أمرين أحدهما : الأمر الأول أجنبي وأعمى وطاغية حيث لا يراقب إلا التنفيذ دون النظر إلى القصد والنية. أما الأمر الثاني فانه أليف ومحبوب. صحيح أنه متعب ولا يرتضي بسرعة لكنه يعرف آمالكم الخفية ويطلع على كيفية شخصيتكم. إنه يجب التوفيق بين الغرائز والوجدان الأخلاقي. وإيجاد هذا التوافق أمر ممكن ، ذلك أن الوجدان الأخلاقي الواقعي لا يريد كبت الغرائز مرة واحدة ، بل يحاول أن يخضعها للنظام والسيطرة ، ويوجهها نحو هدف أعلى وأليق. وهذا العمل أحسن وأهم للغريزة من إطلاق عنانها أيضاً ، كما يرى فرويد ، لأن هذه الحرية تتضمن فساداً وانهياراً في النهاية » (1).

إن مخالفة أوامر الوجدان الأخلاقي قد تؤدي إلى بعض الأمراض النفسية والجنون. والاستجابة المعقولة للميول والغرائز أساس الحياة وركن السعادة الانسانية ، وهذا الأمر ضروري ومحبوب شرعاً وعقلاً ... لكن المذموم والقبيح من وجهة النظر الدينية والعلمية هو إطلاق العنان لجميع الميول والرغبات.

لقد عبر القرآن عن هذه الحقيقة أحسن تعبير حيث يقول : «أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا».

عبادة الهوى :

إن الذي يقع في أسر عبادة هوى النفس ، ويكون عبداً مطيعاً لغرائزه وميوله ... يصاب بأخطر الأمراض النفسية ، ويكون معرضاً للانهيار والشقاء في كل لحظة ...

1 - يقول الامام علي (عليه السلام) : « إن أخوف ما أخاف عليكم إثنان : إتباع الهوى وطول الأمل » (2).

2 - ويقول الامام الصادق (عليه السلام) : « إحدروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم ،

ص: 304

1- جه ميدانيم؟ بيماريهاي روحى وعصبى ص 70.

2- نهج البلاغة ص 105.

فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم ، وحصائد ألسنتهم « (1).

3 - وعنه (عليه السلام) أيضاً : « لاتدع النفس وهواها ، فإن هواها رداها » (2).

4 - وعن الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « أشجع الناس من غلب هواه » (3).

5 - وعن الامام الجواد (عليه السلام) : « من أطاع هواه ، أعطى عدوه مناه » (4).

6 - يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « إن أطعت هواك أصمك وأعماك » (5).

7 - ويقول في مورد آخر : « فاز من غلب هواه ، وملك دواعي نفسه » (6).

8 - وورد عنه أيضاً : « قاتل هواك بعقلك » (7).

إن عبادة الأهواء والانقياد التام للميول النفسانية لهو أقصى درجات الشقاء والهلاك للإنسان ، فإذا وقع شخص في أسره فسرعان ما ينجرف إلى هوة الانهيار والسقوط.

« الإنسان مختار مطلق ، لكنه مع ذلك لا يستطيع أن ينتفع من حريته خارج المناطق المحددة له بلا مخاطرة أو مغامرة. إن الحرية تشبه الديناميت في أنها وسيلة مهمة وخطرة في نفس الوقت ، فلا بد من الإلمام بكيفية استعمالها ، لحسن الحظ فإن الذي يستطيع أن يستعملها بصورة صحيحة هو الذي يكون ذا عقل وإرادة ».

« إن التضارب الموجود بين الحرية الانسانية والقوانين الطبيعية الملزمة يوجب التدريب على تركية النفس. ولأجل أن نحافظ على

ص: 305

1- الكافي لثقة الاسلام الكليني ج 2 335.

2- الكافي ج 2 336.

3- سفينة البحار للقمي ص 728 مادة هوى.

4- المصدر السابق ص 728.

5- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 287 ط إيران.

6- المصدر نفسه ص 227 ط النجف الأشرف.

7- المصدر نفسه ص 234 - ط النجف.

أنفسنا من أخطار الحوادث يجب علينا أن نقاوم كثيراً من الميول والرغبات».

« في كل مرة استطاع الانسان أن ينتفع من كامل حريته يكون قد سحق القوانين الطبيعية ، ولا بد أن يلاقي جزاءه. إن الموفقية في الحياة تستلزم التضحية ، وبواسطة التخلي عن قسم من الحرية يستطيع الانسان أن يعيش على طبق نظام الأشياء » (1).

الوجدان وتعديل الهوى :

يستطيع الراغبون في السعادة والساعون من أجلها ، أن يستفيدوا من عوامل عديدة لتعديل ميولهم. من تلك العوامل. العقل ، والوجدان ، والتعاليم الدينية. وحيث كنا نتحدث عن الوجدان الأخلاقي ، فيدور بحثنا هنا حول طرق الاستفادة منه في تعديل الغرائز والرغبات النفسانية.

إن الوجدان الأخلاقي هو الدليل الظاهر والنافذ إلى الواقع المودع في باطن الانسان. وهو قوة قاهرة ، يدلك - بالفطرة - جميع أوجه الخير والشر ، ويهدي إلى الصراط المستقيم ، ويوصلهم إلى دار السعادة والسلام.

قال الامام الصادق عليه السلام لرجل : « إنك قد جعلت طيب نفسك ، وبين لك الداء وعرفت آية الصحة ودلت على الدواء. فانظر كيف قيامك على نفسك ؟ » (2).

فبواسطة الوجدان الأخلاقي والفطرة الانسانية يهتدي الانسان إلى معرفة أمراض نفسه وعلاجها كالطبيب ، ويستطيع الوصول إلى سلامة روحه.

وفي غريزتي الشهوة والغضب القويتين ، وميل الانسان إلى المال والجاه تكمن نقطة انزلاق البشرية نحو الهاوية ، إن هوى النفس يدفع الانسان بأشد ما يمكن من القوة لتنفيذ رغباته ومتطلباته الغريزية ، وألا يجتنب في سبيل الوصول إلى هدفه من كل نشاط هدام ، في حين أن الوصول إلى الهدف يتطلب في بعض الأحيان الاتيان ببعض الأعمال اللاإنسانية وارتكاب الجرائم والجنايات. إن من القوى التي تستطيع

ص: 306

1- راه ورسم زندكى تأليف ألكسيس كارل ص 39.

2- الكافي للكليني ج 2 454.

التعديل من الغرائز ، وتقدر على وقاية الانسان من الانحراف والانزلاق في الهاوية وحفظ أذيال الفرد من التلوث بالجرائم : قوة الوجدان الأخلاقي. فمن حافظ على هذه الوديعة الالهية في باطنه وأبقى سراج السعادة مضيئاً ، يستطيع الانتفاع من هداية الوجدان ويبقي نفسه من كثير من الخيانات والجرائم.

لقد أعار الاسلام أهمية عظيمة إلى هذه القاعدة الأساسية ، واستفاد من الوجدان الأخلاقي في مجال الإصلاح الاجتماعي كثيراً.

التعامل على أساس الوجدان :

لقد ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) أنه كان يقول : لقد أوصى الله تعالى موسى بن عمران بأربعة أشياء :

« ... وأما التي بينك وبين الناس ، فترضى للناس ما ترضى لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك » (1).

وهناك موقف آخر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد كان واضعاً رجله في رحل جواده قاصداً إحدى الغزوات ، فاستوقفه رجل وطلب منه أن يعلمه عملاً فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما أحببت أن يأتيه الناس إليك ، فأته إليهم ، وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأته إليهم » (2).

... وهكذا يتضح جلياً موقف الاسلام من التعامل مع الناس وأصول المعاشرة فيما بينهم ، وهذه وصية الامام أمير المؤمنين عليه السلام إلى ولده الحسن : « واجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لنفسك ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك » (3).

وقد ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) : « أحبوا للناس ما تحبون لأنفسكم ، أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حق جاره » (4). وعن الامام الباقر

ص: 307

1- المحجة البيضاء في إحياء الأحياء للفيض الكاشاني ج 3 371.

2- المحجة البيضاء 371 3.

3- تحف العقول ص 74.

4- وسائل الشيعة للحر العاملي ج 3 202.

عليه السلام في قول الله عز وجل : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » قال : « قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم » (1).

سعادة المجتمع :

لقد وجدنا في الأحاديث المتقدمة أن الفطرة الأخلاقية والادراك الباطني عند الناس قد اعتبرت مقياساً للروابط الاجتماعية. فإن ما لا شك فيه أنه لو كانت الروابط الاجتماعية في بلد ما قائمة على أساس الوجدان الأخلاقي وكان كل عضو في المجتمع يراعي الحسنات والسيئات الفطرية بالنسبة إلى باقي الأعضاء ... لكان يغمر ذلك البلد بالسعادة والهناء ولم يكن للغرائز والميول النفسية أية سلطة أو تجاوز على الآخرين.

إن القادرين على اتباع نداء الوجدان هم الذين يملكون زمام غرائزهم وميولهم. أما الأشخاص المستعبدون لشهواتهم والذين ينقادون لأهوائهم فلا ينالون هذه المفخرة أبداً.

جزاء مخالفة الوجدان :

إن من النتائج الوخيمة لمخالفة الوجدان ، الاضطرابات الروحية والاختلالات النفسية. فإن من يمتنع عن سماع نداء الوجدان الأخلاقي ويقدم على الجرائم إرضاء لرغباته النفسية مخالفاً في ذلك فطرته الانسانية لا بد وأن يلاقي جزاءه الشديد من قبل الوجدان ، بغض النظر عن العقاب الديني والأخروي. وإن تعذيب الضمير وتقريع الوجدان من القوة في أعماق الروح الانسانية بحيث تسلب المجرم راحته وتتركه في دوامة من الاختلالات والأمراض الروحية أو الجنون.

« لقد أسند فرويد منظومته الفلسفية إلى الغرائز ، ومن الواضح أنه أوضح بعضاً من نشاطاتها ولكنه أهمل البحث عن الوجدان أو الضمير واعتبره منفذاً اجتماعياً فحسب. أما الواقع فيرشدنا إلى أن قضاء الخير والشر عمل أساسي يغلب على الشخصية ويبلورها

ص: 308

وينسحقها ويلائم بينها وبين الحياة الاجتماعية ... من الممكن أن يتلي الوجدان بأفات معينة فيسبب حدوث بعض الأمراض الروحية الحقيقية. فمثلاً نجد فيسبب حدوث بعض الأمراض الروحية الحقيقية. فمثلاً نجد الأمر كذلك في الهستيريا المصحوبة ببقطة الضمير والتي تظهر على صورة الندم القاتل واتهام النفس ، والاحساس بالاجرام ، لقد أشرنا إلى بعض الآثار المباشرة وغير المباشرة للاحاساس بالاجرام في سلسلة من التحقيقات. هذه الآثار عبارة عن التعذيب الأليم والتفريع الشديد « (1).

بإمكان المجرم أن يهرب من وجه العدالة وحكم القانون في المحاكم القضائية العالمية بطرق مختلفة ، وينجو من العقاب في النهاية. وبإستطاعته إغفال بعض الحكام عن طريق التهديد أو التطميع ، أو عن طريق اليمين الكاذبة وشهود الزور ... أما حاكم محكمة الوجدان البصير الحاذق فلا يغفل.

قد يتخلص المجرم من العقاب بواسطة الفرار من قاعة المحكمة ، أو الفرار من أرض الوطن ، أما محكمة الوجدان فانها تخضع المجرم لسيطرتها دائماً ، فأينما يذهب تصحبه وتلاحقه ... ذلك أن محكمة الوجدان عبارة عن ضميره الباطن ولا ينفصل عنه ضميره أبداً.

في بعض الأحيان تكون مظاهر تعذيب الضمير ، وملاحقة محكمة الوجدان للمجرم ، والضغط الروحي الشديد الذي يلاقه منها واللوم القارع الذي يراه في أحكامها ... مؤلمة إلى درجة أنها تبعث كل من يشاهده عن القلق والاضطراب. وعلى سبيل المثال نذكر قصة حياة الشاب الضابط الذي دمر (هيروشيما) بالقنبلة الذرية في الحرب العالمية الماضية.

جنون ضابط شاب :

إن الوضع المؤلم لهذا الشاب الضابط الذي سبب الفناء والدمار لعشرات

ص: 309

الآلاف من الرجال والنساء ، والشيوخ الشباب والأطفال الرضع في لحظات قليلة أصدق شاهد على ما ذهبنا إليه قبل قليل. وإليك بعض الأخبار عن أيامه الأخيرة مقتطفة من الصحف الإيرانية نقلاً عن وكالات الأنباء العالمية.

« وكالة الأنباء الفرنسية. لقد أعلن اليوم اختفاء الضابط الأمريكي الطيار (كلود إيتري) الذي دمر مدينتي هيروشيما وناغازاكي عام 1945 بأول قنبلة ذرية ، منذ اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول. لقد كان هذا الضابط الطيار مصاباً ببعض الاختلالات العصبية منذ مدة وكان خاضعاً للمعالجة في مستشفى (فالوا). لقد وجد (كلود) نفسه بعد انتهاء الحرب أمام الضربات الروحية القاسمة وذلك بعد اطلاعه على الخسائر التي تسبب فيها بقنبلته ، إنه كان يجد نفسه المسؤول الأول عن قتل أهالي مدينة (هيروشيما). إن معالجة الأطباء كانت عقيمة له ، وأخيراً اضطر إلى أن يعيش في مستشفى الأمراض العقلية » (1).

« لقد نشرت الصحف الأمريكية الصادرة صباح اليوم في صفحاتها الأواى صورة ومشخصات (كلود إيتري) ولقد طلب البوليس من الملايين من أبناء الشعب الأمريكي في التعاون معه للقبض على كلود إيتري. والآن يقضي عشرات الملايين من الأمريكيان أوقاتهم في البحث عنه حيث أنه أصيب بالجنون تماماً. إن أكثر العوائل الأمريكية لا تهنأ بالنوم طوال الليل خوفاً من كلود إيتري لأن أصحاب العيادات النفسية قد أعلنوا عن : أن كلود إيتري لأن أصحاب العيادات النفسية قد أعلنوا عن : أن كلود إيتري يرى نفسه السبب في مقتل عشرات الآلاف من أبناء الشعب الياباني ولذلك فهو يحاول أن يقوم بعمل خطير كعقاب لنفسه. أعظم وسام حربي : - لقد فاز كلو إيتري بعد تدميره لمدينتي هيروشيما وناغازاكي بنيل أعظم وسام حربي في أمريكا. وإن كلود إيتري الذي انتخب من بين آلاف الطيارين يوماً ما لمهارته في قيادة الطائرة ، ولأعصابه

ص: 310

الفولاذية ، والذي عهد إليه بإلقاء أول قنبلة ذرية ... قد أصيب الآن بالجنون ».

« إن عمر كلود إيترلي اليوم 40 عاماً. لقد قام في غضون السنوات الأخيرة بأعمال السرقة ومخالفة القانون عدة مرات ، لكنه كان يعنى في كل مرة ، نظراً لكونه في عداد أبطال القوة الجوية الأمريكية في يوم ما » (1).

« لقد استعانت سلطات البوليس الأمريكي ببناء الشعب في إجراء التحقيق مع كلود إيترلي ، ذلك أن أطباء الأمراض النفسية كانوا قد أعلنوا : أنه لما كان الطيار الأمريكي السابق مصاباً بمرض روجي شديد ، فمن الممكن أن يقوم بأعمال خطيرة تهدد الأمن العام ، إن الطيار الذي دمر عام 1945 مدينتين يابانيتين كان يردد هذه الجملة منذ مدة : أنا قاتل الـ 150 ألف من الناس ولا أغفر لنفسى خطيتي الكبيرة هذه. لقد مات في التدمير الذري من المدن اليابانية 150 ألف شخص على الأقل وكلود إيترلي يرى نفسه مسؤولاً عن قتل هؤلاء جميعاً. لقد عثر أحد رجال البوليس على كلود إيترلي في مدينة دالاس من ولاية تكساس عندما كانت سيارته واقفة عند أحد فروع شوارع تلك المدينة ، وذلك لاشارة المرور الحمراء على الطريق ... » (2).

لقد كان الضابط الأمريكي الشاب ذا أعصاب فولاذية عند القيام بإلقاء القنبلة الذرية. وكان سليماً من حيث المقدرة البدنية ، لقد فاز الضابط الشاب بنيل أعظم وسام حربي في أمريكا بعد التفجير الذري ، وإن من المحتم أنه لاقى النجاح في مهمته تشجيعاً وتقديراً فائقين من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ... ولكن هذه العوامل كلها لم تستطع أن تنقذه من السقوط ، وأخيراً أصيب بالجنون ، إن إفناء 150 ألف شخص بين رجل وامرأة ، وطفل وشاب ... مخالفة صريحة للوجدان. إن الأعصاب الفولاذية ، والطاقات الحيوية ، وأعظم وسام حربي ، وتشجيع واستحسان حكومة الولايات المتحدة وشعبها ... كلها لم تستطع الوقوف أمام قوة الوجدان ،

ص: 311

1- جريدة اطلاعات الإيرانية العدد 10382.

2- جريدة اطلاعات الإيرانية العدد 10392.

فقد انتصر الأخير عليها جميعاً، وأصيب الشاب المسكين بالجنون وظهر بصورة موجود مفترس وخطير.

لقد كان البركان الثائر في نفس الشاب من جراء ردود الفعل الناشئة من وجدانه قوياً إلى درجة أن جميع المتخصصين بالعلاجات الروحية عجزوا عن معالجته، فلقد أخذ الضغط الشديد من قبل الضمير يقض عليه مضجعه يقظة ونوماً، وليس من البعيد أن يؤدي إلى موته.

الرشيد وغادر :

وهناك نموذج آخر لمخالفة الوجدان يظهر في قصة هارون الرشيد مع جارية أخيه الهادي، نقلها هنا لما فيها من فائدة : -

« ... يحكى أن هارون الرشيد حج ماشياً، وإن سبب ذلك أن أخاه موسى الهادي كانت له جارية تسمى (غادر) وكانت أحظى الناس عنده، وكانت من أحسن النساء وجهاً وغناء، فغنت يوماً وهو مع جلسائه على الشراب، إذ عرض له سهو وفكر وتغير لونه وقطع الشراب، فقال الجلساء : ما شأنك يا أمير المؤمنين؟.

قال : لقد وقع في قلبي أن جاريتي (غادر) يتزوجها أخي هارون بعدي.

فقالوا : يطيل الله بقاء أمير المؤمنين، وكلنا فداؤه.

فقال : ما يزيل هذا ما في نفسي ...

وأمر بإحضار هارون وعرفه ما خطر بباله، فاستعطفه وتكلم بما ينبغي أن يتكلم به في تطيب نفسه، فلم يقنع بذلك وقال : لا بد أن تحلف لي!

قال : لأفعل، وحلف له بكل يمين يحلف بها الناس من طلاق وعتاق وحج وصدقة وأشياء مؤكدة فسكن. ثم قام، فدخل على الجارية فأحلفها بمثل ذلك، ولم يلبث شهراً ثم مات.

فلما أفضت الخلافة إلى هارون، أرسل إلى الجارية يخطبها ...

فقلت : يا سيدي كيف بايمانك وايماني؟!!!

فقال : أحلف بكل شيء حلفت به من الصدقة والعتق وغيرهما إلا تزوجتك،

فتزوجها وحج ماشياً ليمينه ، وشغف بها أكثر من أخيه حتى كانت تنام فيضجع رأسها في حجره ولا يتحرك حتى تنتبه ، فبينما هي ذات ليلة إذ انتبهت فرعة ...

فقال لها : ما لك ؟!

فقلت : رأيت أخاك في المنام الساعة وهو يقول :

أخلفت وعدك بعدم--إ*** جاورت سكان المقاب--ر

ونسيتني ، وحنثت في *** وغدوت في الحور الغرائر

فظللت في أهل الب--لاد *** إيمانك الكذب الفواجر الصبا

ونكحت غادرة أخي! *** صدق الذي سماك غ--ادر

لا يهنك الإلف الجديد *** ولا تدر عنك الدوائ--ر

ولحقت بي قبل الصب--اح *** وصرت حيث غدوت صائر

... والله يا أمير المؤمنين ، فكانها مكتوبة في قلبي ، ما نسيت منها كلمة.

فقال الرشيد : هذه أضغاث أحلام.

فقلت : كلا والله ما أملك نفسي ... وما زالت ترتعد حتى ماتت بعد ساعة « (1).

هذه الجارية كانت قد أخلفت وعدها مع الهادي ، وبسبب مخالفتها لنداء الفطرة والوجدان كانت تحس بالاضطراب والقلق دائماً. إن تعذيب الضمير لم يتركها لوحدها ، بل كان يوجه الضربات القاسية نحوها ليلاً ونهاراً ، في اليقظة والحلم. إلى أن لقيت حتفها على أفعع شكل.

إن الإنسان معرض في كل مرحلة ومنزلة إلى الخطر من ناحية ميوله وأهوائه. وإن الغفلة عن نداء الضمير ، والانقياد التام لل رغبات النفسية يمكن أن يؤدي في اللحظة الحاسمة إلى قلب حياة الإنسان رأساً على عقب ويبعث على الانهيار والسقوط الذي لا يمكن أن يعالج بأية قوة.

ص: 313

وبهذا الصدد يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « كما من شهوة ساعة ، أورثت حزناً طويلاً » (1).

على مفترق الطرق :

قد يحدث النزاع في باطن الانسان بين الميول النفسانية والوجدان الأخلاقي ، فان الشهوات والغرائز تهيج الانسان من جانب ، وتحثه على تحقيق رغباته اللامشروعة. بينما يقف الوجدان - من الجانب الآخر - في أتم القوة والفعالية مكافحاً ومعلنًا معارضته الصريحة لارتكاب الجريمة.

أما عباد الشهوة والأفراد الحقراء الذين لا يهتمون بارتكاب الجرائم ، فانهم يصممون بسرعة ، ويحققون رغباتهم اللامشروعة مهملين نداء الوجدان.

وأما المؤمنون والعقلاء فانهم يسعون للتخفيف من ضراوة الميول اللامشروعة. ومن دون أي تردد يختارون الطريق الصحيح منزهين أذيالهم من التوث بالجريمة والفساد ، ملبيين نداء الوجدان.

ويقف على مفترق الطريقين طائفة تهتم بشؤونها الدينية والوجدانية بمقدار ما ، ولكن رصيدها الايماني ليس بالمقدار الكافي لمواجهة الميول اللامشروعة. فهؤلاء يقفون مترددين تملكهم الحيرة ، فلا يستطيعون أن يعضوا الطرف عن الميول المتطرفة ويتخلوا عن اللذائذ المنافية للدين والوجدان شأنهم في ذلك شأن المؤمنين ، كما لا يستطيعون أن يصمموا بصورة حتمية على ارتكاب الجريمة شأنهم في ذلك شأن المنحرفين.

هؤلاء يتذرعون ببعض المبررات ، وبعض الأدلة الواهية لإسكات ضمائرهم ، وهم يأملون أن يحققوا رغباتهم النفسانية من دون أي اضطراب داخلي أو قلق باطني ... ولكنهم غافلون عن يقظة الوجدان ، وأنه من الذكاء والفتنة بحيث لا تنطلي عليه التلفيقات ولا تغيير مظهر الذنب بمظهر آخر ، ولا يكف عن واجبه المقدس ، وهو توجيه اللوم إلى المجرم.

ص: 314

« إذا كنا نقضي من هذه الظواهر بانطفاء جذوة الوجدان فقد وقعنا في خطأ كبير. إن الوجدان لا يزال حياً حتى في حالات الموت الروحي ، ويستمر في القيام بعمله بكل هدوء ويستطيع أن يكشف عن وجوده فجأة باشراقة خلابة وغير متوقعة. فهناك إلى جانب الوجدان الذي يقوم بإظهار ميوله وعقائده وأفكاره ، يوجد وجدان مستتر يحكي عن حالة روحية غير مرئية. إنه يمكن الاستعانة ببعض التعابير التي يستعملها المريض والتي تعد فاقدة للمعنى وجنونية في الظاهر ، كدليل على وجود هذا الثبات. هذه التعابير ترينا أن الوجدان يستطيع أن يبقى حياً تحت خرائب الذكاء والعقل ».

« إن الوجدان يؤثر حتى في حياة الأنسجة وفي وضعية الأعمال الجسدية التي تملك شخصية حية بنفسها أيضاً » (1).

وفي قضية عمر بن سعد ، وقيامه بتلك المعركة الدامية على صعيد كربلاء أملاً في الحصول على حكومة الري ، أجلي شاهد على ما ذهبنا إليه. فمن جهة نجد أن قتل الحسين بن علي (عليه السلام) وثلة من أصحابه الأبرار والأبرياء عمل مخالف للوجدان والدين والعقل. ومن جهة أخرى كان يرغب في الحصول على حكومة الري وفي ذلك لذة الرياسة ، والرغبة النفسية التي تلح عليها نفسه الأمارة. فعندما اقترح عبيد الله بن زياد حكومة الري عليه بشرط قتل الامام الحسين (عليه السلام) اضطرب عمر لذلك وتحير في أمره. فلو كان فرداً مؤمناً ومتديناً لكان يرد ذلك الاقتراح بسرعة ولم يكن يقوم بتلك الجريمة الشنيعة لقاء حكومة لا تدوم أياماً. وإذا كان إنساناً منحرفاً وبعيداً عن الدين بتمام معنى الكلمة لا يقيم وزناً للوجدان والايمان والعقل والرأي العام ، فانه كان يوافق على الاقتراح بدون تردد ولا يقول شيئاً أبداً. ولكن الذي يظهر من وضعه أنه كان يحس بالاضطراب وعدم الارتياح لعمله هذا في ضميره الباطن ولكن لم يكن إحساسه هذا بالدرجة التي تجعله يغض الطرف عن لذة الرئاسة والجاه. فاستمهل عبيدالله ليأتيه بالجواب النهائي. وحين أقبل عليه المساء تنحى زاوية خلية ، وجسد أمام ناظريه معسكرين متعارضين يقف في أحدهما الله والرسول ، والعقل

ص: 315

والشرف، والوجدان والانسانية ... أما في المعسكر الآخر، فيقف حب الجاه والرئاسة، اللذة والشهوة، الحكومة وعبادة الذات، فبقي متحيراً بين ذينك المعسكرين فعندما كان ينظر إلى الله والوجدان والعقل كان يقول: يجب ألا أرتكب هذه الجريمة الشنيعة، أن لا أشارك في دم الحسين (عليه السلام) أما حين كان يلتفت نحو الشهوة والرئاسة كان يقول: يجب ألا أترك الفرصة تقوتي، فإن مقاماً مع هذه العظمة لا يتيسر دائماً ... وأخيراً تذرّع ببعض المغالطات الباطلة لاقناع الوجدان الذي يوجد في باطن كل انسان متدين وملحد. وأخيراً حلل القضايا من الوجهة الدينية، وكان أن قال:

يقولون أن الله خالق جن--ة*** ونار، وتعذيب، وغل يدي--ن

فإن صدقوا فيما يقولون، إنني ***أتوب إلى الرحمان من سنتين

وإن كذبوا فزنا بدنيا عظيمة*** وملك عقيم دائ--م الحجلي--ن

فأوجد هذه المسرحية الخيالية في ذهنه وجعلها ملجأً لجنايته، وتبريراً لخيانته، ظاناً أنه يستطيع إقناع وجدانه بهذا العمل، وأنه يستطيع أن يخفيه خلف أستار المغالطات الموهومة، ويحفظ نفسه من تعذيب الضمير إلى الأبد غافلاً عن أن الوجدان الأخلاقي الفطري ينظر بنور الواقع، وأنه لا يسكت بالتبريرات الباطلة، فالوجدان مشعل وضاء موجود في باطن الانسان. بأمر من الله، ولا يمكن إطفاءه بهذه الكلمات. إن الوجدان الأخلاقي لا ينسى واجبه السماوي، ولا يدع المجرم لوحده، ولا يفسح المجال له ليتخلص من تعذيبه ولومه وتقريعه.

ولقد صمم ابن سعد على ألا يستمع لنداء الوجدان، ويتجاهل وجوده تماماً، ولكن تجاهل الحقيقة لا يقدر على إزالة الحقيقة.

« إن ما لا شك فيه أن هذه الحالات ناتجة عن أن الانسان يمتنع عن سماع نداء الوجدان، هذا الامتناع هو الذي يولد هذا التصور الخادع القائل بأنه لا يوجد وجدان. في حين أن الوجدان اليقظ قد لاذ بالوجدان المغفول » (1).

ص: 316

وأخيراً فقد صمم على ارتكاب الجريمة ، وأقدم على أعظم الذنوب أملاً في الحصول على حكومة الري ... ولكن أسفرت النتيجة عن حرمانه من تلك الأمنية ، وهنا تناوشته الضربات القاضية من قبل الوجدان من جهة وحز في نفسه انهياره السياسي وفشله الاجتماعي من جهة أخرى ... فوقع في أسر الأمراض الروحية والاضطراب النفسية وسلبت من راحته فأمر أن يمد فراشه طوال الليل والنهار ، فكان يستلقي في الفراش تارة ، ويتمشى في البيت أخرى ويتخطى في الأزقة بلا إرادة ثالثة ... وكانت عاقبته أن لاقى حتفه على يد أحد الضباط الثوار في ذلك الفراش ، وأنهى حياته المشؤومة بهذا الوضع المزري.

الهدوء النفسي :

إن أسعد الناس هو الذي يملك نفسه ويسيطر على رغباته ، لا يحوم حول الذنب ، يستمع إلى النداء الواقعي للوجدان باذن الذكاء ، يعيش حياة ملؤها الهدوء والارتياح ، ويغادر الحياة بروح مطمئنة ونفس هادئة ... ولكن المؤسف أن هؤلاء الأفراد هم الأقلية في كل مجتمع وأمة ... فإن الأكثرية يقعون تحت أسر الأهواء والميول النفسانية ، ونجد أن الغرائز والشهوات تسيطر بقوتها القاهرة ، على أكثر طبقات المجتمع وتبعثهم على الاجرام والدنس!.

لقد فتح الأنبياء عليهم السلام أبواب الاستغفار والتوبة والكفارات على هؤلاء لإنقاذ المجرمين من الانهيار التام ، ولارجاعهم مرة أخرى إلى طريق السعادة والفضيلة وتخليصهم من تعذيب الضمير ... ولذلك نجد أن رسل السماء كانوا يبشرون الناس على مر العصور بالعفو والمغفرة والرحمة من الله العظيم ، ولهذا الارشاد السماوي العظيم أهمية كبيرة في أنظار علماء النفس المعاصرين ، حيث يعتبرونه من المسائل الأساسية في علاج الأمراض الروحية.

« إن تعذيب الضمير مؤلم جداً ، فقد يظهر بمظهر الندم الذي لا يمكن تهدئته إلا بتدارك الخطأ أو الدية ، ولهذا فان لغفران الذنوب

إن على المجرمين إما أن يستمروا في انحرافهم ويتمادوا في طغيانهم يعمهون ، ويزجوا بأنفسهم والمجتمع في النتائج الخطيرة والوخيمة ، والنفسية لها والاجتماعي ، أو يرجعوا عن الطريق المنحرف ويتوبوا إلى الله تعالى أملاً في العفو والمغفرة. ويكفوا عن الذنوب فيصبحوا أناساً طبيين طاهرين تماماً.

في الصورة الأولى نجد عوارض وأخطاراً تنتاب الفرد وتعم غيره من جراء الاستمرار في إجرامه نستعرض على سبيل المثال بعضاً منها :

1 - خطر اليأس :

إن المجرم الذي يستلذ طعام الاجرام ، ويرى أن القيام به متأصل في نفسه وغير قابل للزوال ، ولا يملك أي أمل في تطهير نفسه ومغفرة الله له يستمر في ارتكاب الجرائم بجسارة وجرأة كبيرتين لا يتورع من القيام بأي عمل مخالف، وبديهي أن الإنساناً كهذا يصبح فرداً خطراً في المجتمع بدلاً من أن يكون عضواً نافعاً فيه ، ذلك لفقدانه الأمل في المغفرة، واليأس من العودة إلى الصواب، ولجرائته في الذنوب ... وهكذا يكون خطراً شديداً على مجتمعه.

2 - إتهام الأبرياء :

إن المجرم يحاول - لتبرئة نفسه، وبسبب الآلام الوجدانية التي يلاقيها - أن يتهم الأبرياء ، وينسب جرائمه إليهم ... وهذا العمل بنفسه يعد جريمة أكبر من ارتكاب الجريمة ذاتها ، إذ من الممكن أن يؤدي في بعض الحالات إلى نشوء الاختلالات الاجتماعية ، والمفاسد التي لا تدراً ، أو أن يعرض أرواح الناس ، أموالهم إلى أخطار شديدة.

« إن الجرائم تضمن أخطاراً كبيرة لمجتمع ، والاحساس بالا-جرام يمكن أن يؤدي إلى ظهور بعض الأعراض النفسية التي منشؤها حب البراءة والتي تنتهي إلى تحطيم الكيان الاجتماعي ، وإذا دققنا في

ص: 318

الموضوع وجدنا أن هذه الأعراض الناشئة من حب البراءة، تقود الانسان إلى اتهام الآخرين، وأن الأبرياء الذين يرمون بالتهمة الكاذبة يقفون بدورهم موقفاً دفاعياً ضد تلك الاتهامات وهكذا تولد موجة من التهم والمواقف الدفاعية التي لاحظنا بعض النماذج الحية منها ... وأخيراً تنتهي هذه الحالات بهدم العنصر الأخلاقي والقيم المثلى في المجتمع الذي تحدث فيه «(1)».

3 - غفران الذنوب :

عندما تكون نوعية الذنب مهمة جداً، ولا يملك المذنب أملاً في المغفرة والعفو الالهي فإن الضغط الشديد الذي يلاقيه من الوجدان الأخلاقي يؤدي به إلى الجنون ويبعث به إلى ارتكاب الجرائم الخطيرة، ويفقد مجتمع بأسره راحته وهدوءه من جراء جرائمه التي لا تعد ولا تحصر. أما في الصورة الثانية عندما يندم المذنب على ما ارتكبه بفضل إرشادات الأنبياء، ويطمئن إلى المغفرة والعفو، ويظهر ندمه وتوبته بلسان لاعتذار إلى المقام الالهي ... حينذاك تحل عقدته الباطنية، ويهدأ وجدانه، ويتخلص من اللوم الباطني ويستمر في حياته بروح مطمئنة هادئة وبهذه الصورة يمكن الوقوف أمام سقوط عضو من أعضاء المجتمع.

« عندما تمد الأيدي إلى أحضان الوجدان، وعندما يقر المجرم بذنبه، ويستعد لاصلاح نفسه ... فان الأمل في الرحمة والمغفرة يطفئ الاحساس بالجريمة، ويولد فيه الهدوء والسكينة حيث يستطيع بهما أن يخرج رأسه بفخار من كابوس الاجرام الفضيع، وينسى بذلك ماضية «(2)».

على أن التوبة الحقيقية والمغفرة للذنوب والفرار من الضغط الوجداني تستلزم

ص: 319

1- جه ميدانيم؟ بيماريهاي روي وعصبى ص 66.

2- بيمهاريهاي روي وعصبى ص 67.

بعض القواعد والأسس المعنوية والنفسية ، وبدونها لا يمكن الحصول على الاطمئنان النفسي ، والفرار من دنس الجريمة وهي :

1 - الاقرار بالذنب :

على المذنب أن يقر ويعترف بذنبه تجاه المقام الالهي بصراحة ، ويطلب منه العفو والمغفرة. إن الاقرار بالذنب يستطيع أن يزيل درن الذنب ، ويجلب رحمة الله الواسعة ، ويقنع الوجدان الأخلاقي الناظر بعين الواقع ، ويحل العقدة الباطنية ، ويخلص الانسان من الضغط المتواصل للنفس اللوامة.

أما الذين يرتكبون الذنوب ، ولا يعترفون بإجرامهم بسبب الأنانية والكبرياء لا يتوقفون للتوبة الحقيقية ، ويكونون مشمولين للعذاب الالهي ومصابين بمضايقة الوجدان ، واللوم والتقريع المستمرين منه.

« عن أبي جعفر عليه السلام : والله ما ينجو من الذنب إلا من أقر به » (1) وقد ورد عنه (أي الامام الباقر - ع -) أيضاً : « ما أراد الله تعالى من الناس إلا خصلتين : أن يقرؤا له بالنعم فيزيدهم ، وبالذنوب فيغفرها لهم » (2)

يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام : « حسن الاعتراف يهدم الاقتراف » (3).

2 - رجاء المغفرة :

يجب على المذنب أن يكون مطمئناً إلى رحمة الله الواسعة وراجياً لعفوه ومغفرته ، لأنه لو لم تكن فيه هذه الحالة النفسية والاعتقاد الواقعي لا يستطيع أن يزيل وصمة الاجرام بالتوبة والاعتذار ، ولا يتسنى له التخلص من تأنيب الضمير.

لقد وضع الاسلام الناس في مركز وسط بين الخوف والرجاء فحث المستقيمين في سلوكهم على عدم الاعتداد والعجب بالنفس ، وان لا يروا أنفسهم بأمن من

ص: 320

1- الكافي 2 426.

2- الكافي 2 426.

3- الارشاد للمفيد ص 142.

عذاب الله لحظة واحدة ، وأوصى المذنبين أيضاً بأن لا يياسوا ، بل يعمرُوا قلوبهم بالرحمة من الله دائماً.

يقول الامام الصادق (عليه السلام) بهذا الصدد : « إن من الكبائر عقوق الوالدين ، واليأس من روح الله ، والأمن لمكر الله » (1).

إن ميدان الخوف والرجاء في الروايات الإسلامية واسع جداً ، فمهما كان المذنبون غارقين في المعاصي يجب عليهم أن لا يياسوا من رحمة الله. يقول الامام أمير المؤمنين لولده (عليه السلام) مذكراً إياه برحمة الله التي لا تنهاى ومغفرته التي لا تقف عند حد ... « وارج الله رجاء أنك لو أتيت به بسيئات أهل الأرض غفرها لك » (2).

فليس للمسلم المذنب أن ييأس من فيض رحمة الله ، مهما عظمت ذنوبه ... « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (3).

3 - الندم وطلب المغفرة :

إن على المذنب بعد الاقرار بالذنب ، ورجاء المغفرة ، أن يطلب العفو والغفران في كمال الصدق مظهراً ندمه الواقعي على أفعاله السيئة ، وطبيعي أن يغفر الله الذنب مهما كان عظيماً في ظروف مثل تلك ، وهذا هو معنى التوبة الحقيقية. فإذا أظهر شخص الاستغفار بلسانه ولم يكن نادماً في قلبه على اعماله البذئية ، فانه لم يتب توبة حقيقية ولا تطهر نفسه.

يقول الامام الرضا (عليه السلام) بهذا الصدد : « من استغفر الله بلسانه ولم يندم بقلبه ، فقد استهزأ بنفسه » (4).

ص: 321

1- الكافي للكليني ج 2 277.

2- مجموعة ورام ج 1 50.

3- سورة الزمر 53.

4- مجموعة ورام ج 2 110.

إن المذنبين الذين يتوقفون للتوبة الحقيقية ويخلصون أنفسهم بذلك - وفي ظل العناية الإلهية - من دنس الذنوب ، يحوزون على ضمان هادئة وأرواح مطمئنة ، فلا يحسون بالحقارة والضعة في نفوسهم بعد ذلك ولا يسمعون تأنيباً من الضمير ، ويبلغ بهم التنزه عن الذنوب إلى درجة أنهم يصبحون كأن لم يترفوا ذنباً أصلاً ، يقول الامام الصادق (عليه السلام) « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (1).

الايمان وتدارك الخطأ :

لا بد من التنبيه إلى هذه النقطة ، وهي أن الشرط الأول للتوبة الحقيقية وغفران الذنب هو الايمان بالله. إن الذي لا يملك رصيذاً قوياً من الايمان أو أنه مادي ومنكر لله أساساً ، لا يوفق لتطهير نفسه عن طريق التوبة وغفران الذنوب ، فهو يلاقي الجزاء الصارم من تأنيب الضمير وكابوس الوجدان حتى آخر عمره ، إن السبب في الاختلالات الروحية أو الجنون الذي يحصل للبعض من جراء تعذيب الضمير إنما هو فقدان عنصر الايمان عندهم ، وعدم إحساسهم بوجود ملجأ معنوي. ولذلك فهم لا يستطيعون حل العقدة النفسية المتفاقمة في نفوسهم عن طريق التوبة والاستغفار. ولقد شاهدنا كثيراً من هؤلاء في عصرنا الحاضر ، كما أنهم كانوا موجودين في العصور السابقة أيضاً.

كيف يستطيع عمر بن سعد (وهو الذي يظهر تزلزل العقيدة في كلماته ، ويبدو وترده في الأصول الإسلامية المسلم بها) أن يظهر نفسه عن طريق التوبة الحقيقية؟!.

وعلى العكس من ذلك ، فإن الذين تتألق في نفوسهم جذوة من الايمان والاعتقاد بالله ، إذا ارتكبوا ذنباً كبيراً فإن أدنى التفاتة نحو الله والاستغفار منه كاف في تخليصهم من ورطة المعصية ، وإذا كان يأسهم من رحمة الله على أثر الغفلة أو

ص: 322

الجهل فبمجرد أن يطلعهم على ذلك مرشد ديني عظيم نجدهم يرفعون أكف التضرع نحو الله تائبين نادمين ، والله يتقبل توبتهم ويغفر لهم ذنوبهم.

إن في القصة الآتية أجلى شاهد على ذلك : -

« كان علي بن الحسين عليه السلام في الطواف ، فنظر في ناحية المسجد إلى جماعة ، فقال : ما هذه الجماعة؟ قالوا : هذا محمد بن شهاب الزهري ، اختلط عقله فليس يتكلم فأخرجه أهله لعله إذا رأى الناس أن يتكلم فلما قضى عليه السلام طوافه خرج حتى دنا منه ، فلما رآه محمد بن شهاب عرفه ، فقال له علي بن الحسين عليه السلام : ما لك؟ قال : وليت ولاية فأصبت دماً فدخلني ما ترى. فقال له علي بن الحسين : لأننا عليك من يأسك من رحمة الله أشد خوفاً مني عليك مما أتيت. ثم قال له : أعطهم الدية. فقال : فعلت فأبوا. قال : إجعلها صبراً ، ثم انظر مواقيت الصلاة فآلقها في دارهم » (1).

ف نجد أن الامام عليه السلام يحل مشكلة اليأس عند ذلك الوالي الذي قتل شخصاً بغير حق فأصيب بالجنون. بعلاج نفسي بسيط ... ولذا نجد أن الغربيين يهتمون بهذه العلاجات. وفي ذلك يقول الأستاذ (هنري باروك) فيما مضى من حديث :

« إن تعذيب الضمير مؤلم جداً ، فقد يظهر يظهر بمظهر الندم الذي لا يمكن تهدئته إلا بتدارك الخطأ أو الدية. ولهذا فإن لغفران الذنوب دوراً كبيراً وأهمية عظيمة في الأديان السماوية ».

ص: 323

قال الله تعالى : «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (1).

لقد تعرضنا في محاضرة سابقة إلى ضرورة استناد تربية الطفل إلى الإدراكات الطبيعية والميول الفطرية للانسان ، فأساليب التربية التي تبنى على هذا الأساس تكون هي الصحيحة ، وهي الطريق الواقعي للسعادة الانسانية. وجرنا هذا الحديث إلى البحث في الوجدان الفطري بصنفة : العقيدى والأخلاقى بإسهاب ضمن ثلاث محاضرات. ولهذا فسيصور بحثنا من اليوم فصاعداً حول كيفية الاستفادة من الفطريات في تربية الطفل.

الأساس الأول للتربية :

إن الأساس الأول الذى يجب تعليمه للطفل في سبيل التربية الصحيحة إشعاره بوجود الله والإيمان به بلسان ساذج متسير الفهم. لقد سبق أن بينا في المحاضرة العاشرة أن الحاجة للإيمان بالله موجودة في باطن كل انسان بفطرته الطبيعية. فعندما يبدأ جهاز الإدراك عند الطفل بالنشاط والعمل ، ويستيقظ حس التبع فيه ، يأخذ في السؤال عن علل الأشياء ومنشأ كل منها ، فان نفسه الطاهرة وغير المشوبة تكون مستعدة تماماً لتلقى الإيمان بخالق العالم ، وهذه الحالة هي أشد الحالات طبيعية في بناء الطفل.

وعلى القائم بالتربية أن يستفيد من هذه الثروة الفطرية ، ويفهمه أن الذى خلقنا ،

ص: 324

والذي يرزقنا ، والذي خلق جميع النباتات والحيوانات والجمادات ، والذي خلق العالم ، وأوجد الليل والنهار ، هو الله تعالى ... إنه يراقب أعمالنا في جميع اللحظات فيثيبنا على الحسنات ويعاقبنا على السيئات.

هذا الحديث سهل جداً وقابل للاذعان بالنسبة إلى الطفل ونفسه فنراه يؤمن بوجود الله في مدة قصيرة ويعتقد به. بهذا الأسلوب نستطيع أن نخلق في نفس الطفل حب النظام والالتزام ونحثه على الاستقامة في السلوك وتعلم الفضائل الخلقية والملكات العليا بالتدريج.

إن للايمان بالله - وهو إحياء لأعظم قوة وجدانية عند الانسان - آثاراً ونتائج مهمة في إحياء سائر الفطريات الخلقية والمثل العليا ، وبإمكانه أن يخرج تلك الفطريات جميعها من مرحلة القوة إلى الفعلية بأحسن صورة وبعبارة أوضح نقول إن للايمان بالله أثرين مهمين : (الأول) أنه يعمل على إحياء أعظم واقعية وروحانية أي الفطرة العقيدية ، ويصب ركائز السعادة الواقعية للانسان. (والثاني) : إن جميع الفطريات الروحية والفضائل الخلقية تستيقظ في ظل القوة التنفيذية للايمان ، وتحقق في الخارج.

ومهما بلغت قيمة الوجدان الأخلاقي ، ومهما خطر دوره في تحقق سعادة الانسان ، لكنه إذا لم يكن مستنداً إلى الايمان فلا يقوى على حفظ البشرية من التردى والسقوط. وكذلك سائر الصفات الصالحة إن لم يكن لها سند إيماني فانها تندحر أمام الغرائز والميول اللامشروعة في الصراع بينها.

القوانين الطبيعية من سنن الله :

لا شك في أن العالم ثابت على أساس من العلم والنظام الدقيق ، والحكمة المتناهية ، فكل جزء من أجزاء الكون قد استقر في الموضع المخصص له حسب نظام دقيق وقياس كامل. وهذه الظاهرة بنفسها تعتبر في نظر العلماء سنداً ثابتاً ودليلاً متقناً على وجود المبدأ القادر للعالم. إن الصدفة (التي يستند إليها الماديون في نظريتهم) لا علم لها ، ولا قدرة ، ولا حافظة ، ولا وجدان ... وهي تعجز عن أن توجد هذا النظام العجيب والمحير للعقول.

يشرح الامام الصادق (عليه السلام) بعض آثار عظمة الله وقدرته في عالم المخلوقات لتلميذه المفضل الجعفي ، ويستدل بها على وجود الله تعالى ، وفي الأثناء يسأل المفضل من الامام (عليه السلام) قائلاً : « يا مولاي ، إن قوماً يزعمون أن هذا من فعل الطبيعة. فقال : سلهم عن هذه الطبيعة ، أهى شيء له علم وقدره على مثل هذه الأفعال أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدره فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فإن هذه صنعته. وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمد ، وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة فاعلم أن هذا الفعل للخالق الحكيم ، وأن الذي سموه طبيعة هو سنة في خلقه الجارية على ما أجراها عليه » (1).

إن النظام الدقيق والانسجام الشامل لأرجاء الكون ، هو معلول القوانين والسنن المتينة للكون. وهذه النواميس والسنن الكونية تحكم جميع الموجودات ، فهناك القوانين الفلكية التي تنظم آلاف الملايين من الأجرام السماوية ، وتجعل كلا منها في المدار الخاص به ، أما قوانين الحياة فهي تنظم عالم النباتات والحيوانات والبشر بالدقة المتناهية. لكن هذه القوانين لا تملك أقل إطلاع عن الأعمال العظيمة والمحيرة التي تقوم بها. إن مثل القوانين الطبيعية في النظام والترتي والجهل بالنشاط الصادر منها مثل الآلة الحاسبة : ففي نفس الوقت الذي تؤدي الآلة الحاسبة عملها مجيبة على المسائل الرياضية لا تعرف شيئاً عن عملها ، إن الآلة الحاسبة لا تعرف أنها تشتغل في المصرف ، إنها لا تعال بمدى ضخامة الأعداد التي تجيب عليها بسرعة. إن الآلة الحاسبة تؤدي عملها هذا تبعاً لقاعدة الجبر ، ولا تملك أي إرادة أو اختيار في ذلك. لكن تركيبها الدقيق والنظم يعد أكبر سند متقن وصريح على وجود مهندس عالم كون تلك الآلة بعلمه وقدرته ، وسيرها لأداء هذه المهمة.

كذلك القوانين الطبيعية في العالم التي لا تملك علماً أو اختياراً. وهي تكون دليلاً واضحاً وشاهداً على وجود الخالق الحكيم الذي أوجدها وعين لكل منها واجباً خاصاً.

ص: 326

ولقد رأينا كيف أن الامام الصادق (عليه السلام) استدلل عن طريق القوانين الطبيعية على وجود الله تعالى واعتبر ذلك سنداً محكماً على إثباته.

العالم في نظر الالهيين والماديين :

إن الأثر الأول الذي يظهر من إحياء المعرفة الفطرية والايان بالله والذي يقسم الناس إلى صنفين : مؤلهين وماديين ، هو نظرتهم إلى الكون فالالهيون يرون أن هذا الكون عبارة عن هيكل عظيم وضخم أسس بعلم الله تعالى وإرادته على أساس المصلحة والحكمة ، أما الماديون فيرون أن الكون عبارة عن مجموعة أوجدتها الصدفة العمياء الصماء ، بلا علم أو اختيار.

الالهيون يرون أن الانسان موجود ممتاز خلقه الله مع قابلية التعالي والتكامل الذي لا يقف عند حد وسوى له طريق التقدم في ظل العقل. أما الماديون فيرون أن الانسان وجد على أثر طائفة من العوامل الاتفاقية وحصل على العقل عن طريق الصدفة ، وصار بهذه الصورة الحاضرة.

الالهيون يرون أن الوجدان الخلقي ثروة ثمينة أودعها الله تعالى في باطن الانسان لضمان سعادته ، وأن الخالق الحكيم الذي هيا لكل موجود ما يساعده في التكيف لظروف الحياة هو الذي منح للانسان هذه الطاقة الجبارة (الوجدان) ليميز في ظلها بين الخير والشر ، ويسير في طريق التعالي النفسي ، والتكامل الروحي. أما الماديون فانهم يرون أن الوجدان الانساني يشبه الانسان نفسه في كونه وليداً للصدفة ، وواقعاً على سبيل الإتفاق.

الالهيون يرون أن الانقياد إلى أوامر الوجدان إنما هو انقياد للهداية التكوينية التي أوجدها الله الذي يجب الخير والسعادة للانسان ، وهم يرون أن الوجدان الأخلاقي قوة مقدسة ، ومشعل وضاء ، أشعله الخالق العظيم في باطن كل إنسان. ولذلك فانهم ينظرون إلى هذه الثروة العظمية التي هي منحة الله تعالى بعين التكريم والاحترام. ويرون طريق الساعدة والفلاح منحصراً في تنفيذ أوامرها. أما الماديون فيرون أن الوجدان - وهو معلول للصدفة العمياء الصماء - لا يتصور له أي احترام أو تقديس ولا ضرورة في تنفيذ أوامره أصلاً ، لأنه لم يوجد تبعاً للعلم والمصلحة.

إن ما لا شك فيه أن إحياء المعرفة الفطرية وسيلة لحسن تنفيذ سائر الفطريات. فالذين يؤمنون بالله إيماناً واقعياً ويعملون على إيقاظ الفطرة التوحيدية في باطنهم ، يصغون إلى نداء الوجدان الأخلاقي بدقة وينفذون أوامره ، لأنهم يرون فيه إلهاماً إليها ، وهداية نحو السعادة.

« إن افراد البشر في أي سن كانوا ، يستجيبون للاحساس في نشاطهم أكثر من استجابتهم للمنطق ، وبذلك يطيعون قوانين الحياة الصامرة إذا وجدوها مظهراً لأرادة الله تعالى لا قوة عمياء ... برغبة أكثر. ولقد ثبت بالتجربة أن الانقياد إلى شخص واحد يكون أفضل بكثير من الانقياد إلى قاعدة. إن القوانين الطبيعية التي تخص حفظ الحياة ودوام التكاثر ، والتعالى النفسي تلقى سندا ونفوذاً أكثر إذا استندت إلى المشيئة الإلهية » (1).

لقد شرحنا في محاضرات سابقة أن الغرائز والهدايات التكوينية في عالم الحيوانات هي التي تخطط لها طريق تكاملها وتقدمها ، وهي مجبرة عليها لانقياد لها ولا- توجد هناك رقابة لتنفيذ تلك الخطط من قبل الحيوانات ، أما الانسان العاقل والحر في إطاعة الإلهام الإلهي ومخالفته ، يستطيع أن يتقاد لتلك الهداية ويسعد بها أو يخالف فيشقى. إن الايمان وإحياء المعرفة الفطرية هو الرقيب الصارم لتنفيذ الهدايات التكوينية والفطريات الخلقية. إن القوة الايمانية تستطيع أن تحفظ الانسان في مزالق الغرائز. وتحثه على إطاعة أوامر الوجدان الأخلاقي والالهام الالهي.

تعارض الوجدان والغرائز :

إن جميع الناس يملكون وجداناً فطرياً ... كلهم يعلمون أن الظلم قبيح ويدركون أن الخيانة سيئة ... الكل يرتاحون للصدق ، ويميلون فطرياً إلى الأمانة والوفاء بالوعد ، كل الناس يستاءون من الخيانة والكذب وبصورة موجزة : فإن الناس جميعاً يدركون حسن وقبح أصول الفضائل والرذائل بوحى من فطرتهم. ولكنهم في مقام العمل قلما يلتفتون إلى نداء الفطرة ، ذلك أن الانسان حر في إطاعة أوامر

ص: 328

الوجدان أو الخروج عليها فعندما لا يوجد تعارض أو تصادم بين الوجدان والميول النفسانية فإن الانقياد للوجدان أمر هين. ولكن عندما تستلزم إطاعة الوجدان الأخلاقي التخلي عن بعض الميول الغريزية فهناك تشدد العقدة، وفي الغالب تنتصر الغريزة ويندحر الوجدان، إلا إذا كان الوجدان مستنداً إلى الإيمان وكان الاعتقاد الحقيقي بخالق الكون يدعم الصفات الانسانية.

لقد تعرض الصديق يوسف في ريعان شبابه وأخرج مراحل نضجه الجنسي، إلى أخطر مشكلة منافية للعفة والشرف: فقد وقعت امرأة متزوجة في غرامه، وعرضت عليه الاتصال الجنسي به. كانا - كلاهما - بشرين ولكل منها رصيد ضخم من الميول الجنسية... ولكن قوة الغريزة غلبت على عفة المرأة وجعلتها تطاوع رجلاً غريباً في نفسها فاستسلمت إلى ميولها بينما نجد أن للقوة الايمانية والبرهان الالهي الأثر الفعال في الدفاع عن عفة يوسف وصد تيار الغريزة الجارف. وبذلك حفظ شرفه، واحتفظ على نقاوة ذيله من دنس الانحراف «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ» (1).

طغيان الغرائز واندحار الوجدان :

كان (عبد الملك بن مروان) يعيش حياة هادئة في شبابه، وكان إنساناً رحيماً وشفوقاً، يعطف على الناس، ولا يحاول إيذاءهم ولا يتحدث عن أحد بشر، كانت رغباته النفسية وميوله الغريزية مخفية، وذلك لعدم وجود ميدان لظهورها... ولم يكن يتصور أنه سيمسك بزمام الحكم في الدولة الاسلامية الواسعة ويتصرف في مقدرات ملايين الناس في يوم من الأيام.

ومرت الأيام بالتدريج، حتى ظهرت الأوضاع والتحويلات المفاجئة التي أدارت سير الزمن لصالحه. فقد تربع أبوه (الذي كان والياً في يوم ما على المدينة ثم عزل من ولايته عليها) على دست الخلافة، على أثر التطورات السياسية المعروفة، ونصب (عبد الملك) ذلك الشاب العطوف ولياً للعهد....

ص: 329

ولم تمض أشهر قليلة حتى دس السم إلى مروان ومات ... فجلس عبد الملك على كرسي الخلافة بعده ... وهنا استيقظت ميوله وشهوته ووجدت لها مجالا واسا للمبارزة والكفاح.

لقد كان الوجدان يحكم إلى الأمس القريب في سلوك عبد الملك دون معارض أو معاند ، ولذلك كان يجتنب من الظلم والأفعال الانسانية أما اليوم فقد استيقظت غرائزه ، وتعالّت ألسنة نيرانها ، حتى اضطر وجدانه إلى الانسحاب والاندحار أمام تلك الأوضاع ، وكأن لم يكن في باطن عبد الملك وارتكبوا الجرائم الفظيعة التي لا حد لها ولا حصر.

يذكر لنا المؤرخون أنه لما أرسل (يزيد) جيشاً إلى مكة لقتل (عبدالله بن الزبير) كان عبد الملك يقول : العياذ بالله أفهل يجهز أحد جيشاً لمحاربة بيت الله الحرام؟! أما عندما تولى الخلافة بنفسه فقد أرسل جيشاً أعظم بقيادة الحجاج بن يوسف (المجرم المعروف) إلى مكة ، وقتل في سبيل ذلك كثيراً من الناس في حرم الله ليقبض على عبدالله بن الزبير وأخيراً فقد حز رأسه وأرسله إلى عبد الملك في الشام وعلق جثته على عود المشنقة!.

حينئذ يقول عبد الملك : إني كنت أتمنع من قتل نملة ضعيفة أما الآن فعندما يخبرني الحجاج عن قتل الناس لا أجد أي قلق أو تأثر في نفسي! لقد قال أحد العلماء واسمه (الزهري) يوماً لعبد الملك : سمعت أنك تشرب الخمر! فأجابه نعم والله ، أشرب الخمر ، وأشرب دماء الناس أيضاً⁽¹⁾.

ما أكثر الناس من أمثال عبد الملك على مر التاريخ ، وحتى في عصرنا الحاضر! إن الغالبية العظمى من الناس يتبعون ضمائرهم في الحالات الاعتيادية ولكنهم عندما تثور غريزة من غرائزهم يسحقون الوجدان بأقدامهم ، ويطلقون العنان لميولهم النفسية ، إلا إذا استكانوا بالايमान وتسלحوا به ضد طغيان الغرائز! ... «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي»⁽²⁾.

ص: 330

1- تتممة المنتهى ص 84.

2- سورة يوسف 53.

العقل والغرائز :

والعقل هو الآخر عامل مهم في التلطيف من حدة الغرائز ، وتعديل الميول النفسانية ، فعندما يكون طغيان الغرائز خفيفاً يستطيع العقل إلى حد ما من تخفيف حدتها. أما عندما يشتد هيجانها ، وتظهر الغرائز بصورة سيل عارم يقتلع كل ما يجد في طريقه فان سد العقل يتحطم وبذلك يفقد العقل الانساني قدرته على المقاومة ، وتندفع نيران الرغبات النفسية كمخزن مشتعل من البارود ، وحينذاك يكون زمام الأمور بيد الشهوة ، تسيطر على الانسان وتوجهه كيف تشاء.

وعن أمثال هؤلاء الأفراد يتحدث الامام علي (عليه السلام) فيقول : « قد أحرقت الشهوات عقله ، وأماتت قلبه ، وأولعت عليها نفسه » (1).

العلم والغرائز :

يتصور البعض ان ارتفاع المستوى الثقافي ، والتقدم في المدنية قادر على التخفيف من حدة الغرائز الثائرة ، والأخذ بيد الانسان إلى الفضيلة والكمال ... غافلين عن أن قوة التمدن المادية (أي العلم الفاقد للايمان) عاجزة عن الوقوف أمام تيار الغرائز ، شأنها في ذلك شأن العقل والوجدان ذلك أن الغرائز والشهوات من القوة في سلوك الانسان بحيث أنها عندما تثور ، ويشتد ضرامها وتندفع كسيل منحدر من قمة جبل ، تدع العقل والعلم والوجدان كقطع الخشب والأحجار التي تنقلع لأول صدمة ، ثم تتقلب وسط الأوحال إلى أعماق الوادي.

غلبة الغريزة على العلم :

ما أكثر المثقفين والعلماء الذين لا يملكون قوة الوقوف أمام تيار الميول الغريزية والرغبات اللاإنسانية ، ولا يستطيعون ضبط نفوسهم في تلك المواقف!.

ما أكثر المثقفين الذين يستطيعون تأليف كتاب حول قبح الارتشاء وأكل أموال الناس بالباطل ، وإثبات فساد ذلك من الناحية الاجتماعية والقضائية والاقتصادية

ص: 331

والسياسية والوطنية وغير ذلك من النواحي ، ولكنهم في مقام العمل وفي مرحلة التطبيق ، لا يتورعون من أخذ الرشوة ، ولا ينصرفون عن الدرهم الواحد!.

ما أكثر المتمدنين الذي يعرفون أضرار الخمرة عن طريق العلم ويعرفون عوارضها المختلفة على الكبد والكلية والأعصاب والجهاز الهضمي ولكنهم لا يستطيعون الامتناع عن شربها حتى ليلة واحدة!.

ولهذا فقد وردت أحاديث كثيرة في ذم العلماء لا يطبقون علمهم وينقادون لأهوائهم ... منها :

1 - قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « العلماء عالمان : عالم عمل بعلمه فهو ناج ، وعالم تارك لعلمه فقد هلك » (1).

2 - وقد ورد أيضاً : « أوحى الله إلى داود : لا تسألني عن عالم قد أسكره حب الدنيا ، فأولئك قطاع الطريق على عبادي » (2).

3 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا أباذر ، إن شر الناس عند الله يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه » (3).

4 - وفي حديث آخر : « أشد الناس عذاباً في القيامة ، عالم لم يعمل بعلمه ، ولم ينفعه علمه » (4).

إن نسبة الجرائم والجنايات تزداد يوماً بعد يوم في الأمم المتقدمة في العالم بالرغم من الرقابات البوليسية الشديدة والعقوبات القانونية ... وهذا هو أجلى شاهد على أن التمدن والرفي وارتقاء مستوى الثقافة عاجز بوحده من مقاومة طغيان الغرائز ودفع الانسان إلى التمسك بالفضائل والمثل الانسانية ولحسن الحظ فإن علماء الغرب أنفسهم يعترفون بهذا!.

ص: 332

1- لنالي الأخبار ص 192.

2- لنالي الأخبار ص 192.

3- لنالي الأخبار.

4- مجموعات ورام ج 1 220.

« إن الأعمال التخريبية التي يرتكبها كثير من الناس بمجرد اضمحلال بعض القيود والموانع الاجتماعية تثبت أنه وإن كان الأفراد يعيشون في المجتمع ويوجدون المدينيات المختلفة ، لكنهم ليسوا متمدينين ».

« هذه الأكثرية بهذا المعنى ليست متمدنة ، حيث تحترم مظاهر المدنية تحت ضغط الرقابة الاجتماعية فقط » (1).

الهمجية في لباس التمدن :

لقد كان العالم المتمدن يرفع عقائره السلام والرخاء والانسانية قبل الحرب العالمية. ولكنه عندما اندلعت نيران الحرب انفجرت القنابل واضطربت نيران المعارك الدموية وتحطمت الهياكل الجوفاء للمدينة وفقدت زينتها الظاهرة ... حينذاك ظهر العالم المتمدن في ثوب الهمجية والفوضوية - أي لباسه الواقعي فقد استولت سحب الـجرام وسفك الدماء على سماء العالم وحل الحقد والانتقام محل الضحكات المصطنعة في وجوه الجماهير المتمدنة!.

« التباعد ، والقتل العام للمدنيين ، ومعسكرات العمل الاجباري (التي لم يكن ينتشر فيها الجوع والأمراض السارية فحسب ، بل كانت تستعمل فيها مختلف وسائل التعذيب والقمع والارهاب) والتدمير الشامل اللامعقول بالقنابل ... كل هذه الوسائل كانت تستعمل كأساليب طبيعية واعتيادية في الحرب. ولذلك فقد كان الخوف والاضطراب مستولياً على العالم أجمع في الحرب العالمية الثانية ، وهكذا اختفت مظاهر احترام الحياة والمثل الانسانية ، والقيم الأخلاقية في كل مكان » (2).

لقد كان فرويد (وهو الذي يبدي مخالفته الصريحة للتعاليم الدينية والعقائد الإلهية) قبل الحرب يأمل انتشار التعاليم والقوانين التربوية وأصول المدنية الحديثة

ص: 333

1- إنديشه هاي فرويد ص 116.

2- إنديشه هاي فرويد ص 117.

حتى تستطيع أن تحل محل الدين في أفكار العامة وبذلك يوصل البشرية إلى الكمال المنشود لها ... إنه يقول :

« إن ما لا شك فيه أن الدين قد قدم خدمات مهمة إلى الانسانية والمدنية نظراً للدور الكبير الذي لعبه في تهدئة الغرائز غير الاجتماعية ، ولكنه لم يستطع أن يتقدم في هذا المجال بالمقدار الكافي » (1).

إن فرويد يوصي بما يلي :

« من المستحسن أن نختبر منهاجاً تربوياً غير ديني ، فيعود الناس على غض النظر عن هذه التسلية ، ولأجل أن يشبوا أمام الأخطار والصدمات معتمدين على أنفسهم فقط ، عليهم أن يهجروا هذا الملجأ ».

إنه يعتقد بأن :

« الفرد يستطيع في هذه الصورة فقط أن يكون إنساناً راشداً ، وسيبدأ الكفاح مع القوى الشريرة في الطبيعة » (2).

أوهام فرويدية :

كان فرويد يعتقد قبل بدء الحرب العالمية بارتفاع المستوى الأخلاقي للأمم في ظل المدنية ، إنه كان يتصور أن الانسان يستطيع في ظل المدنية الحديثة وأصول التربية المادية أن يصل إلى طريق الفضيلة القيم العليا ، لكن اندلاع نيران الحرب والجرائم التي وقعت فيه هزت أفكار فرويد ، وقلبت تفكيره رأساً على عقب ، فاعترف بأوهامه السابقة وتفكيره الخاطئ ... وراح يقول :

« ولقد أدت مشاهدة الأعمال التي تتصورها غير مطابقة للمدنية ، وما نتج من هذه الأعمال الوحشية من نظرتنا إلى البشر على أنهم

ص: 334

1- اندیشه های فروید ص 96.

2- اندیشه های فروید ص 97.

مجرمون إلى أن نغرق في الألم والتأثر واليأس. ولكن هذا لا يأس والألم ليسا وجهين في الحقيقة ، وذلك أنا نعتبر سكان العالم لهذه الجهة منحطين وقد كنا مخطئين في نظرتنا إليهم قبل الحرب على أنهم في مستوى أخلاقي ومعنوي أعلى مما هم عليه « (1).

« بعد سرد هذا البيان الموجز الذي يوضح فرويد فيه ضرورة وقوف المدنية أمام الاعتداءات البشرية يستنتج أن الجهود والمحاولات المبذولة في هذا السبيل لحد الآن لم تكن مثمرة كما ينبغي ، ولا تزال الاعتداءات موجودة حلف أستار المجتمع «.

« هناك كثير من المتمدنين الذين يستأفون من تصور ارتكاب القتل أو الاتصال الجنسي مع المحارم ولكن هؤلاء أنفسهم لا يعرضون عن إرضاء جشعهم وحرصهم واعتدائهم وأطماعهم الجنسية «.

« إنهم إذا استطاعوا الفرار من العقاب ، فسيلحقون الأذى بالأفراد الآخرين عن طريق الكذب ، والخداع ، والفتراء ، وما شاكل ذلك ... » (2)

« إن الحكومة تعتبر جميع الأمور المخالفة للعدالة والاعتداءات الأخرى التي لا يسمح بها في الأوقات الاعتيادية مباحة في حال الحرب. ولذلك فإن الحكومة لا تكتفي بالاستعانة بالمكر والحيلة لمواجهة العدو فقط ، بل لا تتمانع من الكذب العمد. ولقد لوحظ أن الكذب والتزوير كانا رائجين في الحرب العالمية بصورة غير مألوفة قبلاً » (3).

التمدن الفاقد للإيمان :

إن المدينة المادية وأساليب التعليم والتربية التي لا تستند إلى الإيمان تعجز عن أن تقاوم الغرائز عند طغيانها وتحمي البشرية من السقوط والانهيال.

ص: 335

1- انديشه هاى فرويد ص 117.

2- انديشه هاى فرويد ص 123.

3- انديشه هاى فرويد ص 125.

إن الحرب العالمية كشفت اللثام عن الوجه الحقيقي للمدنية بجرائمها التي تضمنتها والاعتداءات التي ارتكبت في أثنائها وأثبتت أن وراء ستار المدنية الزائفة هيكل موحش سفاك تهتز الانسانية من تصوره ، وتخجل أشد أمم العالم وحشية من سماعه.

إن أقوى وأسلم قوة تستطيع صد هجمات الغرائز والسيطرة عليها ، وتتمكن من تلطيف حدة المشاعر ... هي قوة الايمان بالله. فلايمان قادر على أن يقاوم كل الميول والرغبات اللامشروعة وينتصر عليها ... القوة الايمانية تحفظ الانسان في أخطر لحظات الانحراف والانزلاق في الحياة وتمنع من سقوطه الايمان بالله قوة لا تغلب ولا تدحر ، وملجأ لا يتحطم « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصال لها ».

إن أهم طابع يميز مدرسة التربية الاسلامية عن غيرها من الأساليب التربوية البشرية هو (الايمان بالله). يشترك الاسلام وعلماء الأخلاق في دعوة الناس إلى الصلاح والاستقامة لكن الفارق بينهما هو أن العلماء والقائمين على شؤون التربية يهتمون قبل كل شيء بالسلوك الظاهري للأفراد ، ويحاولون أن يربوا أفراداً مطيعين للقانون ، ولا شأن لهم أو دخل في أسلوب تفكيرهم. أما الهدف من التربية في الاسلام فهو أن يتربى الأفراد ، مضافاً إلى استقامة سلوكهم على التفكير السليم ، وأن لا يحاولوا إلا الصلاح والخير.

النوايا الصالحة :

تهتم الدول المتمدنة والمدارس التربوية في العالم بالسلوك الصحيح للانسان فقط. أما المذهب التربوي للاسلام فهو يهتم بالنوايا الصالحة والطاهرة للأفراد أكثر من أفعالهم الصالحة.

يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « نية المؤمن خير من عمله » (1).

ص: 336

وعن الامام الصادق (عليه السلام) ضمن حديث طويل : « والنية أفضل من العمل , ألا وإن النية هو العمل , ثم تلا قوله عز وجل : «قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ» يعني : على نيته » (1)

إن الفرد المنقاد للقانون والمطبق للتعاليم الأخلاقية يعد في الدول المتمدنة فرداً صالحاً ومواطناً شاعراً بمسؤوليته ولو كان شعوره الباطن منحرفاً وسيئاً ، أما المذهب الاسلامي فيرى أن المسلم الواقعي والشاعر بمسؤوليته هو الذي يعتقد بأساس الاسلام وتعاليمه القانونية والأخلاقية بالدرجة الأولى ، ويعتبر ذلك كله دستوراً إلهياً ، ومنهجاً قوياً لسعادته ونجاته ، ثم يطبق تلك التعاليم وينفذ تلك الأوامر بالدرجة الثانية.

يتحدث المدعي العام للمحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية - الذي يعد من الشخصيات العلمية البارزة هناك - عن هذا الموضوع فيقول :

« للقانون الأمريكي صلة محدودة بتطبيع الواجبات الأخلاقية. ففي الحقيقة يمكن أن يكون المواطن الأمريكي إنساناً منحطاً وفاسداً من الناحية الخلقية. في نفس الوقت يمكن أن يكون فرداً مطيعاً للقانون. ولكن الحال على عكس ذلك في القوانين الاسلامية التي تنبع من إرادة الله ، الارادة التي كشفت لرسوله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، هذا القانون وهذه الارادة الإلهية يعتبران جميع المؤمنين مجتمعاً واحداً حتى لو كانوا من قبائل وعشائر مختلفة وموجودين في بلدان متباعدة ومتفرقة. إن المؤمن ينظر إلى هذا العالم على أنه ممر يوصله إلى عالم أرقى وأفضل وأن القرآن قد نظم القواعد والقوانين وأساليب سلوك الأفراد بالنسبة إلى بعضهم البعض وبالنسبة إلى المجتمع بصورة عامة كي يضمن ذلك التحول السليم من هذا العالم إلى العالم الآخر » (2).

ص: 337

1- وسائل الشيعة للحر العاملي ج 1 6.

2- مقدمة كتاب (حقوق دار إسلام) ص ج.

يستند أساس السعادة الانسانية في الاسلام إلى دعامتين ، الأولى : الإيمان ، والإخرى : العمل الصالح . ولقد ورد التصريح بهذا الموضوع في القرآن الكريم في موارد عديدة بصورة : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» ونظائرها . والنكتة التي تجلب الانتباه هنا هي أن الإيمان مقدم على العمل الصالح دائماً ، ذلك أن الاسلام يرى أن الأعمال الصالحة يجب أن تستند إلى الاعتقاد الحقيقي ، وتتبع من منبع الإيمان وهذا بنفسه هو أجلى صورة للمذهب الاسلامي بهذا الصدد فيما ذكرناه .

إن الأعمال الصالحة التي يكون لها منشأ روحاني وأساس إيماني ثابت في أعماق قلب صاحبها تشبه الشجرة النضرة التي تمتد جذورها في أعماق التربة ، وتستمد حيويتها وطراوتها من الغذاء الذي تتناوله عن طريقها .

الرياء والتظاهر :

أما الأعمال الصالحة التي لا تملك أساساً إيماناً ثابتاً ، بل يكون منشؤها هو الرياء والتظاهر أمام الناس ، أو العادة الاجتماعية ... لا تبقى ثابتة أبداً ، بل هي معرضة للزوال أمام أبسط عامل مخالف .

إن الاحسان إلى الناس وإعانة الضعفاء من الأعمال الصالحة فمن يقوم بهذا العم المقدس امتثالاً لأمر الله واحتراماً للإيمان ، يعمل في كل مكان وبلا أي منة بل يكون رائده الاخلاص وجلب رضى الله دون النظر إلى مدح الناس وإطرائهم أما الذي لا ينبع له إحسانه من رصيد إيماني بل يكون دافعه إلى ذلك ظروف المحيط ، والتظاهر أمام الناس ، وانتشار أمره في الصحف والمجلات ، فبمجرد أن تنتفي ظواهر الاطراء والمدح وتنقطع المجلات عن الحديث عنه ، أو يجهل الناس إحسانه نجد أنه يتقاعس عن الاحسان ، أو يتخلى عنه تماماً :

« يقول بعض الملحدين الذين يتميزون بصبغة أخلاقية : لما كانت المشكلة

الأساسية هي إطاعة القوانين الأخلاقية فاننا لو استطعنا تنفيذ هذه القوانين لأصبحنا في غنى عن الدين. هذا التفكير إنما هو علامة الجهل السيكولوجي. ذلك أن الانسان يشكك دائماً في قيمة القواعد التي لا يعرف منشأها ، مضافاً إلى أن سلوكاً كهذا دليل على عدم فهم المشكلة نفسها. لأن المقصود أن يتكامل الانسان في باطنه أولاً كي يستطيع التفكير بصورة أخلاقية ، ليس الهدف أن نحث الانسان على أن يؤدي حركات أخلاقية. فما لم يكن سلوك كل فرد مرآة تعكس تكامله العميق الداخلي ، فإن عملياته تعد سلسلة من التحديدات المتصنعة والموقنة التي تزول بأبسط مبرر. إن القواعد الأخلاقية إذا فرضت على الانسان فرضاً فمهما كانت قيمتها العملية عالية ، لكنها لا تستطيع أن تكافح الميول الحيوانية بصورة موفقة « (1).

« يرى بعض الكتاب أنهم أجل من أن يحتاجوا إلى المقررات والأنظمة الدينية والأخلاقية ، ولا يعتقدون بقيمتها المطلقة. إن سيطرة هؤلاء الأشخاص وانتشار آثارهم يمكن أن تكون هدامة. ولكن الغالبية منهم يغفلون عن هذه الحقيقة. إنهم يسندون أفكارهم إلى كلمات بعض الفلاسفة الكبار التي قرأوها بصورة سطحية أو لم يقرأوها أصلاً ، فيرون أن (فولتير) و (داروين) كانا ملحدين والحال أن هذا مخالف للحقيقة. ولا ثبات هذا الادعاء ننقل نصاً لفولتير في موسوعته الفلسفية ... ».

« ما الذي نستنتجه مما مر؟ إن الانسان ، الملحد وحش كاسر! ».

« إن بعض المهندسين الجاهلين للفلسفة ينكرون العلل الغائية ، ولكن الفلاسفة الحقيقيين يدعون لها. وكما يقول كاتب معروف : إن كتاب الدعاء هو الذي يعرف الله للأطفال ، بينما يثبت (نيوتن) وجود الله للمثقفين ».

« إن الإلحاد هو العيب المهم في عدة قليلة من الأذكياء والخرافة عيب الحمقى « (2).

ص: 339

1- سرنوشت بشر ص 216.

2- سرنوشت بشر ص 156.

الايمان والقيام بالواجب :

إن المؤمنين بالله العظيم ، والذين يعمر قلوبهم العشق الإلهي ، يسعون في القيام بواجباتهم ، والأعمال الصالحة بشوق ونشاط لا يتطرق الملل والكلل إليهما ... ولا يتسرب إلى نفوسهم الرياء ... إنهم يعملون لله وحده ولا ينتظرون الجزاء إلا من عظمته.

« عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل : «لِيَبْلُوكُمْ أَيَكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا». قال : ليس يعني أكثر عملاً ، ولكن أصوبكم عملاً ، وإنما الإصابة خشية الله ، والنية الصادقة والحسنة ، ثم قال الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل. والعمل الخالص: الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عز وجل»(1).

الايمان وتعديل الغرائز :

إن من أهم نتائج الايمان الواقعي بالله ، السيطرة على زمام الغرائز الثائرة ، وضبط الرغبات اللامشروعة ، فعندما يتحطم سد العقل والعلم والوجدان ، ويفق مقاومته أمام الضربات القاصمة للغرائز ، يثبت الايمان بالله في قوته رصيناً وطيد الأركان ... ويمنع من إسراف الغرائز ، ويحفظ صاحبه من السقوط الحتمي ، وقد اعتبر ذلك من علائم المؤمن في الروايات الاسلامية.

« عن أبي جعفر (عليه السلام) قال : إنما المؤمن ، الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل ، وإذا سخط لم سخطه من قول الحق ، والذي إذا قدر لم يخرج قدرته إلى التعدي إلى ما ليس له بحق » (2).

لقد أشار هذا الحديث إلى ثلاثة ميول غريزية يعد كل منها مهواة سحيقة للانسان. فما أكثر الناس الذين يرتكبون جنایات عظيمة استجابة لإحدى الرغبات النفسية. أما الرجال المؤمنون فانهم يستطيعون في المواقع الحساية بمساندة القوى المعنوية أن يحفظوا أنفسهم من التلوث والدنس.

ص: 340

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 15 94.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 15 94.

يقول الامام أمير المؤمنين (عليه السلام) ضمن حديث طويل في بيان علائم المؤمن : « لا يحيف في حكمه ولا يجور في عمله ، نفسه أصلب من الصلد ، حياؤه يعلو شهوته ، وودعه يعلو حسده ، وعفو يعلو حقه » (1)

الايمان والعزم :

يشير الامام علي (عليه السلام) في هذه الجمل بعد الاشارة إلى الروح الصلبة والعزم الحديدي للمؤمنين إلى أن غريزة الشهوة والحسد والانتقام مكتوبة في نفوس الأشخاص المؤمنين وأن القوة الايمانية تمنع من إسراف الرغبات المضطربة وهيئانها أكثر من الحد المقرر.

« عن أبي عبدالله (عليه السلام) قال : ثلاثة هم أقرب الخلق إلى الله يوم القيامة حتى يفرغ من الحساب : رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه أن يحيف على من تحت يده ، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة. ورجل قال بالحق في ما له وعليه » (2)

في هذا الحديث يبين الامام الصادق عليه السلام غلبة الايمان على الميول النفسانية في ثلاثة أفراد.

وللرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) بيان آخر يتضمن بعض صفات المؤمن فيقول : « ... مشمولاً بحفظ الله ، مؤيداً بتوفيق الله ، لا يحيف على من يبغض ، ولا بأثم في من يحب ، لا يجوز ولا يعتدي ، لا يقبل الباطل من صديقة ، ولا يرد الحق على عدوه » (3)

إن المؤمنين يخالق الكون هم الرجال الأحرار في العالم وليس للميول النفسانية والحقد والبغضاء طريق إلى نفوسهم ، أو مكنة في الانحراف بهم عن السلوك الصحيح والطريق المستقيم.

ص: 341

1- المصدر السابق ج 15 97.

2- وسائل الشيعة للحر العاملي ج 4 38.

3- بحار الانوار للعلامة المجلسي ج 15 82.

إن الأثر الثاني للايماني بالله يظهر في الهدوء النفسي. إن المؤمنين الحقيقيين مضافاً إلى قدرتهم على تعديل غرائزهم وشهواتهم بفضل الايمان يقدرّون على الاحتفاظ بشخصيتهم أمام هجوم الحوادث ، وقبل الضربات الشديدة التي توردها المصائب وآلام الحياة عليهم فلا يصابون بأي اضطراب أو قلق تجاهها.

لقد حاصرت الحوادث والمفاجئات الطبيعية في العالم مثل الموت والمرض والزلازل والفيضانات ، وما شاكل ذلك ، البشر من جهة ، والاخفاقات وحالات الفشل والانهيال في الحياة من جهة أخرى ... بحيث تلاقي جميع الطبقات الاجتماعية الأمرين من تلك المصائب والويلات.

وكما تخطو البشرية في مجالات المدنية ، وتزداد مباحج الحياة يوماً بعد يوم وتفتح العلوم الطبيعية أبواباً جديدة للذة على العالم كلما تتعقد المشاكل الاجتماعية وتتحرك حوافز الحرص والجشع وتثور دوافع حب المال والجاه ويطول الأمل ، ويشتد السعي وراء اللذة ، وتكثر الرغبات النفسانية. ومن الطبيعي في حاله كهذه أن تزداد الاخفاقات والانهيال الروحية ويسود القلق والاضطراب على العام :

مرض القلق :

لقد أدى القلق والاضطراب النفسي إلى تحويل ثلة كبيرة من المتمدنين المعاصرين في العالم إلى مرضى ، وهذا المرض يؤلم قد سلب راحة المصابين به من الرجال والنساء.

فنجده البعض منهم يستعينون للحصول على نوم بضع ساعات والاستراحة بأقراص مخدرة ومنومة ، أما في القفظة فصراع دائم مع الآلام الباطنية والقلق المستمر!

والبعض الآخر يلجأون لنسيان أنفسهم لبعض الوقت ، والتخلص من شر القلق الداخلي إلى استعمال المشروبات الروحية والحشيشة ، وبعملهم هذا يهدمون صرح سعادتهم وسلامتهم.

أما القسم الآخر فانهم قد فقدوا القدرة على المقاومة بالتدرّج على أثر الضغط

الروحي المتواصل والقلق المستمر إلى حيث الإصابة بالأمراض النفسية أو الجنون ، وقضاء ما تبقى من العمر في مستشفيات المجانين بأسوأ حال وأشنع صورة!.

وهناك طائفة تآزمت حالتها تجاه المضايقات الروحية المستمرة إلى درجة أنها أفلتت عنان الاختيار من يدها ، وأقدمت على الانتحار هرباً من القلق والألم ، وبهذا الوضع المزري ينهون تلك السلسلة من الاضطرابات.

لقد اهتم قسم كبير من علماء النفس في الآونة الأخيرة بمعالجة مرض القلق الهدام ، وألفوا في ذلك انكتب المختلفة ، وتوصلوا إلى معالجة المصابين به عن طريق الايحاء ، والتحليل النفسي ، وحل العقد النفسية ... إن ما لا شك فيه أنهم تحملوا جهوداً كبيرة في هذا السبيل وتوصلوا إلى نتائج مفيدة ... ولكن تلك النتائج ضئيلة ، ولا يزال يتضاعف عدد المصابين بالأمراض النفسية يوماً بعد يوم.

إن الغارق في بحر القلق والاضطراب الشديد لا يجد من نفسه حافزاً لقراءة الكتب العلمية النفسية ، ولا يملك القدرة على فهم تلك القواعد المجردة ، كي يستطيع تنفيذ تلك الوصايا ، وتخليص نفسه من القلق والاضطراب.

الايمان وعلاج القلق :

هنا يظهر دور الايمان الكبير في علاج مرض القلق. فإن المؤمنين يستدون إلى الله تعالى في مد الحياة وجزرها ، ويستعينون بالطافه وعناياته باستمرار ، ولذلك فهم يملكون أرواحاً قوية ، ونفوساً تتحدى التحطيم ، ولا يفشلون أمام تقلبات الحياة.

«... إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (1). إن المؤمن لا يشعر بالصغار والذلة أبداً لأنه يجد أنه يستند إلى أعظم قوة في الوجود ، ذلك هو الله تعالى «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (2).

وقد ورد عن الامام الصادق (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى : «فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى» قوله (عليه السلام) : « هي الايمان بالله وحده لا شريك له » (3).

ص: 343

1- سورة الأحقاف 13.

2- سورة الرعد 28.

3- الكافي ج 2 14.

كما أن حديثاً آخر يستند هذا الموضوع ، ذلك أن الراوي يقول : « سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوله عز وجل : (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ) قال : هو الإيمان. قال : قلت (وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ)؟ قال : هو الإيمان. وعن قوله : (وَأَلَزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى)؟ قال : هو الإيمان»(1).

لقد ورد التعبير عن الهدوء النفسي ، والارتياح الباطني عند المؤمنين في القرآن الكريم بعبارات مختلفة ، ولقد قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة (عليه السلام) بتفسير ذلك كله بالإيمان ... فالإيمان هو القوة الرصينة والقدرة التي لا تزلزل والتي إذا حلت في كل قلب ، لم يصب ذلك القلب بقلق أصلاً ، بل يستطيع أن يثبت في أحرع المواقف.

« يقول ويليام جيمس أبو علم النفس الحديث وأستاذ الفلسفة في جامعة (هارفرد) : إن أشد العقاقير تأثيراً في رفع القلق هو الإيمان بالله والاعتقاد الديني » (2)

« إن الإيمان هو أحد القوى البشرية التي يحيا الانسان بمددها ، وإن فقدانها الكامل يعني سقوط الانسانية » (3)

تشكل القيمة المعنوية للإيمان ، وآثاره العجيبة في قلوب المؤمنين ، فصلاً مستقلاً من فصول علم النفس الحديث في العالم ، ذلك أن كثيراً من الأطباء النفسانيين يستفيدون من قوة الإيمان في حل أعقد العقد النفسية عند المصابين!

الاحاد والقلق :

يعترف العلماء المعاصرون بأن قسماً مهماً من الاضطرابات الباطنية والأمراض النفسية والانتحارات منشؤها فقدان الإيمان.

« في الولايات المتحدة الأمريكية يبلغ معدل الانتحار عملية انتحار واحدة كل (35) دقيقة ، ويصاب في كل دقيقتين شخص بالجنون ،

ص: 344

1- الكافي ج 2 ص 15.

2- دع القلق وابدأ الحياة ص 159.

3- نفس المصدر 155.

وإذا كان لهؤلاء نصيب من الهدوء والاطمئنان اللذين يبعثهما الدين والعبادة للإنسان كان من الممكن أن يمنع ذلك من حدوث أكثر هذه الانتحارات والاصابات بالجنون».

« يقول الدكتور (كارل جونك) أشهر الأطباء النفسانيين في أحد كتبه : لقد راجعني في طي الثلاثين عاماً الأخيرة أناس من جميع الدول المتمدنة في العالم. وقد عالجت مئات المرضى ، ولم يوجد بين جميع هؤلاء المرضى الذين كانوا يقضون النصف الثاني من حياتهم أي الذين تزيد أعمارهم على الخمس والثلاثين سنة ، لم يوجد بينهم واحد لم ترتبط مشكلته بوجدان عقيدة دينية في الحياة في نهاية الأمر. ولذا أستطيع القول بكل تأكيد أن كلاً منهم كان قد تمرض لفقدانه ما تهبه الأديان الحية في كل عصر لاتباعها. وإن الذين لم يسترجعوا عقائدهم الدينية لم يوفقوا للعلاج أصلاً » (1).

إيمان الأنبياء :

إن أجلى مثال للإيمان وآثاره العجيبة يمكن مشاهدته في تاريخ الأنبياء إنهم قاموا في ظروف شديدة ومعقدة جداً ، مليئة بالأخطار والمشاكل ، وكانوا يتعرضون للموت في كل لحظة ، ولكنهم استمروا على بث دعوتهم بلا أي اضطراب أو قلق ، ذلك أنهم كانوا مؤمنين بالله وكانوا يرون أنفسهم في حماه وتحت كنفه.

ولقد تعلم اتباع الأنبياء دروس الهدوء النفسي من قادتهم فراحوا في ظل إيمانهم بالله أقوىاء إلى درجة أنهم لم يتزعزعا أمام الحوادث والمصائب التي يلاقونها ، فلا يقعون فريسة القلق والاضطراب ... كان نظرهم متجهاً في الحرب والسلام ، في الفقر والغنى ، في الموت والمرض ... وفي كل الحالات إلى الله تعالى ، متطلعين إلى رحمته وكرمه. وعلى سبيل المثال نذكر قصة هذه المرأة المسلمة : -

« خرجت مع صديق لي بالبادية فأضللنا الطريق ، فإذا رأينا في يمين الطريق

ص: 345

خيمة فقصدناها فسلمنا ، فإذا امرأة ردت علينا السلام ، فقالت : من أنتم؟ قلنا : ضالين قصدناكم لنأس بكم. فقالت : أديروا وجوهكم حتى أعمل من محققكم شيئاً ففعلنا ، فقالت : اجلسوا حتى يجيء ابني وكانت ترفع طرف الخيمة وتنتظر فرفتها مرة ، فقالت : أسأل الله بركة المقبل. وقالت : أما الناقة فناقة ابني ، وأما الراكب فليس هو. فلما ورد الراكب عليها قال : يا أم عقيل عظم الله أجرك بسبب عقيل قالت : ويحك مات عقيل؟ قال : نعم. قالت : بما مات؟ قال : أزدحمته الناقة وألقته في البئر. فقالت له : أنزل وخذ زمام القوم. فقتربت إليه كبشاً فذبحه وصنعت لنا طعاماً ، فشرعنا في أكل الطعام ونتعجب من صبرها فلما فرغنا خرجت إلينا وقالت : أيها القوم أفيكم من يحسن في كتاب الله شيئاً؟ قلت : بلى! قالت : اقرأ علي آيات أتسلى بها من موت الولد. قلت : الله عز وجل يقول : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ ... أَلْمَهُتُونَ » قالت : الله هذه الآية في كتاب الله هكذا؟ قلت : أي والله إن هذه الآية في كتاب الله هكذا فقالت : السلام عليكم فقامت وصلت ركعات ثم قالت : ألهم اني فعلت ما أمرتني به ، فانجز لي ما وعدتني به « (1).

أي قوة غير الايمان بالله قادرة على تهدئة خاطر امرأة ثكلى بهذه السرعة والسلامة؟!

أي قدرة غير الاعتقاد الديني تستطيع إطفاء لهب الحزن والويل من روح أم أصيبت بموت ولدها الشاب ، بهذه الفورية؟!!

إحياء الفطرة الأولى :

نعود فنلخص ما ذكرناه فيما سبق ، وهو أن الايمان بالله إحياء لأولى القوى الفطرية عند الانسان ... إن الايمان بالله كفيل بتنفيذ أوامر الوجدان الأخلاقي ... وهو أعظم ملجأ للانسان ، وأكبر عامل للهدوء النفسي واطمئنان خاطر ... وبصورة موجزة ، فهو أهم أسس السعادة البشرية وأولى المواضيع التي اهتم بها الأنبياء في دعوتهم.

ص: 346

إن المربي الكفاء والقدير هو الذي يلفت نظر الطفل منذ الصغر نحو الله تعالى ، ويلقنه درس الايمان به بلسان ساذج بسيط. إن على المربي القدير أن يتحدث إلى الطفل عن رحمة الله الواسعة اتباعاً لمنهج القرآن الكريم ويبذر في نفسه بذور الأمل ، ويفهمه أن اليأس من روح الله ذنب عظيم.

يجب أن يعرف الطفل منذ الصغر أن لا ييأس أمام حوادث الزمان ، فالله قادر على حل مشاكله وتيسير أموره ، فإن رفعنا يد الحاجة نحوه ساعدنا على مهمتنا.

على المربي أن يفهم الطفل أن أعظم الواجبات الانسانية هو جلب رضى الله ، وإن رضى الله يكمن في إطاعة أوامره التي بعثها إلينا ، عن طريق نبيه العظيم ، إن الصدق والأمانة يسببان رضى الله ، والخيانة تسبب غضبه.

يجب على المربي أن يوقظ الاحساس بالمسؤولية أما الله في الطفل منذ الطفولة ويحثه على الشعور بواجبه ، وإشعاره بالأسلوب البسيط أن الله يراقبك في كل حال ويطلع على أفعالك الصالحة والطالحة ، ولا يخفى شيء على الله ... إنه يجازيك على حسناتك ويعاقبك على سيئاتك.

إن الآباء والأمهات الذين يحيون الفطرة الايمانية عند الطفل ، ويربونه مؤمناً منذ الصغر ، فانهم يصبون ركائز سعادته بذلك من جهة ، ويكونون قد قاموا بأول واجباتهم في التربية من جهة أخرى.

قال الله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » (1).

حب الكمال :

من الأمور الفطرية عند الانسان ، والتي يمكن أن تكون أساساً ثابتاً لتربية الطفل : غريزة التفوق ، وحب الكمال. إن الرغبة في الترقى والتعالي تعتبر من فروع حب الذات المودع في فطرة كل انسان. وعلى المربي القدير أن يستغل هذه الثروة النفسية ، وقيم شطراً من الأساليب التربوية الصحيحة على هذا الأساس ، فيسوق الطفل إلى طريق الترقى والتعالي.

لقد ورد بهذا الصدد حديث عن الامام الحسن (عليه السلام) : ... « أنه دعا بنيه وبني أخيه ، فقال : إنكم صغار قوم ، ويوشك أن تكونوا كبار قوم آخرين ، فتعلموا العلم ... فمن لم يستطع منكم أن يحفظه فليكتبه وليضعه في بيته » (2).

وفي هذا الحديث نجد أن الامام الحسن عليه السلام ، لأجل أن يحث أبناءه وأبناء أخيه على اكتساب العلوم ويشجعهم على ذلك يستفيد من حب الذات والترقى عندهم - وهو أمر فطري - من دون أن يتوسل إلى الزجر والأساليب المخيفة ، ويفهمهم أن تحصيل العلم في اليوم ، سبيل الوصول إلى العزة والعظمة في الغد. إن الأسلوب المستعمل في هذا الحديث يعد من أعظم الأساليب في مجال التعليم

ص: 348

1- سورة آل عمران 157.

2- بحار الأنوار ج 1 110.

والتربية في العصر الحديث ، فكل أسرة تستطيع أن تشجع أبناءها على تحصيل العلوم بهذا الأسلوب ، وتدفعهم منذ البداية إلى التعالي والترقي فان الأطفال يسعون وراء العلم بدافع ذاتي فيما بعد ، ولا يحتاجون إلى التهديد والتعقيب.

التكامل في ظل الحرية :

والنكتة الجديرة بالملاحظة هي أن الارضاء الصحيح لغريزة حب التفوق والوصول إلى الكمال الحقيقي يمكن أن يتحقق في ظل الحرية والعوامل المساعدة فقط ، وبدونها لا يكون نيل الكمال الواقعي ميسراً وبعبارة أوضح : إن الانسان يستطيع السعي وراء الكمال وإرضاء الميول الباطنية بالنسبة إلى بلوغ طريق التعالي في الصورة التي يكون طريق التقدم مفتوحاً أمامه ، ولا تعتاقه العوارض والموانع ، فما أكثر الثروات النفسية التي ظلت عاطلة وفاقة للأثر ، لعدم حصولها على العوامل المساعدة ، وما أكثر الأشخاص الذين يصطدمون في طريق إحياء استعداداتهم الفطرية بالموانع الطبيعية أو الشخصية أو الاجتماعية أو السياسية ويقفون عندها محرومين من السير في مدارج الكمال والرقى!

إن زهرة صغيرة إذا لاقت عوامل مساعدة ، وجواً طليقاً وغذاء كافياً تفتتح أكمامها ويفوح عطرها ... وكذلك تكون الاستعدادات الداخلية عند الانسان فانها تزدهر وتنمو في الظروف المساعدة ، وتعود عليه بالفوائد العديدة.

إن من أهم شروط التعالي والتكامل للأطفال والكبار هو كون الجو الذي يعيشون فيه حراً ، ذلك أنه عندما يكفهر وجه المجتمع بالظلم والتجاوز ويسود الاستبداد والضغط الشديد ... وحين يحل اليأس محل الأمل ، والظلم محل العدل ، والاستهتار والفوضى بدل القانون ، والخوف بدل الهدوء ... فمن المحتم أن ينقطع السبيل إلى التكامل في ذلك المجتمع.

والذين يعيشون في أمثال هذه المجتمعات لا يقدرون على إخراج استعداداتهم الخفية وذخائهم المعنوية من مرحلة القوة إلى حيز الوجود والفعلية بالشكل المناسب. ولا ينالون الترقي والتكامل الذين يصبون إليهما.

الأسرة هي مهد تربية الأطفال ، والوطن الواسع هو البيئة التربوية للكبار. وإن

ما لا شك فيه هو أن الشرط الأول للتربية الصحيحة وإحياء الاستعدادات المختلفة هو الجو المناسب والعوامل المساعدة. فلا تستطيع كل أسرة من تطبيق المنهج التربوي الذي خطه لنا الامام الحسن عليه بالنسبة إلى أولاده. ولا يقدر كل الآباء على أن يتحدثوا مع الأطفال بنفس الحديث الذي تحدث به الامام (عليه السلام) ، ذلك الأسلوب من الحديث إنما يختص بالأسرة التي يقوم أساسها على الفضيلة والحرية.

ولأجل أن يتضح معنى سلامة جو الأسرة وفساده بصورة جيدة ولكي يتبين أهمية الحرية في مجال التربية والتعليم نخصص بحثنا في هذه المحاضرة بهذا الموضوع.

المقارنة بين الأسرة والدولة :

الدولة تشبه أسرة كبيرة واسعة ، وأن جميع أفراد تلك الدولة من رجال ونساء وأطفال ، إنما هم أعضاء في تلك الأسرة الكبيرة ... كما أن كل أسرة تشبه دولة صغيرة قليلة الأفراد. وأن أعضاء الأسرة إنما هم أفراد تلك الدولة ... والأبوان في هذه الدولة الصغيرة يسلكان دور الهيئة الحاكمة فيها.

قد يتسلط على زمام الحكم في الدولة مستبد ، وتدار أموره حسب نظرياته اللامنتطقية لمحض إرادته ، ويساس الشعب بالخوف والاضطهاد ، ويحمل على إطاعة الأنظمة والقوانين بالحديد والنار ... وأحياناً يكون العكس حيث القوانين العادلة القائمة على أساس الحق والفضيلة والحرية والمحبة.

كذلك في الأسرة ، فقد يحكمها أب حاد المزاج فاقد الايمان ، وأم متهاونة سيئة الأخلاق ... ويفرض كل منها إرادته على أعضاء الأسرة عن طريق الشدة والخشونة التي لا- تطاق. ويحملون على القيام بواجباتهم بالتهديد والتخويف ... وقد يكون الأمر على العكس ، ذلك إذ تتعاضد الفضيلة الأخلاقية والايمان للأب مع الحب والحنان العقلانيين للأم في إيجاد جو مقدس وسعيد للأسرة ، مما يحتفظ لأعضاء الأسرة بطراوتهم وحيويتهم ويؤدي كل منهم واجبه برغبة نفسية ووازع ذاتي.

لقد اعتبر الاسلام قبل أربعة عشر قرناً ، والعلماء المحققون في العصر الحاضر إدارة الدولة عن طريق الاستبداد والتعنت والركون إلى وسائل القمع والارهاب ، أسلوباً فاشلاً تماماً وحكموا بأن الحياة في ظل نظام كهذا تصبح جحيماً لا يطاق.

وكذلك إدارة الأسرة عن طريق الظلم والتعدي وبواسطة الخشونة والشدة في الأخلاق تعتبر فاشلة وعاجزة عن أن تصبح أساساً للسعادة مهذاً لتربية الأطفال الشرفاء.

إن لأسلوب حكومة الهيئة الحاكمة دخلاً كبيراً في الشؤون الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية (وجميع الجهات المادية والمعنوية بعبارة موجزة) بصورة مباشرة ... بحيث يمكن معرفة الأوضاع الظاهرية والمعنوية لأمة عن طريق سلوك الهيئة الحاكمة وفي هذا يقول الامام علي عليه السلام : « الناس بأمرائهم أشبه منهم بآبائهم » (1).

يخضع أفراد كل دولة إلى عاملين أساسيين ، ويقعون تحت تأثير قوتين منفصلتين : 1 - محيط الأسرة وقدرة الآباء على تربية أبنائهم. 2 - محيط الدولة وسلوك الهيئة الحاكمة. ولكن الامام أمير المؤمنين عليه السلام يرى أن تأثير الهيئة الحاكم في بناء المجتمع أبلغ من تأثير الهيئة الحاكمة في بناء المجتمع أبلغ من تأثير الأسرة والقدرة التربوية عند الآباء.

الفرق بين الحرية والاستبداد :

تختلف الدولة التي تدار على أساس العدل والقانون وفي ظل الحرية والمحبة عن الدولة التي يحكمها الاستبداد والتعنت ويسودها الارهاب والقمع اختلافاً كبيراً. وسنحاول في هذه المحاضرة أن نتعرض لذكر بعض موارد الاختلاف ونتائجها بين هذين النوعين من الدول ، ثم نقارن ذلك بكيفية إدارة الأسرة. ومن هذه المقارنة نستطيع أن نسلط الضوء إلى حد بعيد على مقياس سلامة جو الأسرة أو فساده ومن

ص: 351

المؤمل أن يدرك الآباء - وهم أبناء الأسرة الكبيرة (الدولة) - أسس هذه المقارنة كي يتفهموا مسؤوليتهم تجاه أبنائهم بصورة أوضح ، وقيموا إدارة الأسرة على أساس أقوى ، ويراعوا واجباتهم الثقيلة في تربية أطفالهم سائرين على منهج الشرع الحنيف.

1 - الحرية والهدوء النفسي :

يعد الهدوء النفسي والأمن من الخوف ، الشرط الأول لسعادة الانسان. ففي المجتمع الذي لا يأمن أفرادهُ على آرائهم وتكون حياتهم مقترنة بالاضطراب والقلق ، لا مجال للسعادة الحقيقية والكمال الواقعي إليه ، فالعدالة الاجتماعية هي القوة الوحيدة التي تستطيع أن تبعث الاطمئنان والهدوء إلى النفوس وتهب الأشخاص الأمن والسكينة.

البيئة الصحيحة للانسانية تكون في الدولة التي يسوسها القانون والعدالة ، الدولة رسمت حدود اختصاصات المسؤولين والشعب فيها بموجب القوانين العادلة ، في الدولة التي يكون المسؤولين أنفسهم مطيعين للقانون ، ويسلكون سبيل العدالة في أحكامهم ولا يسمحون لأنفسهم بأقل انحراف أو تجاوز على حقوق الآخرين ... هناك يحس جميع الأفراد في داخل أنفسهم بالهدوء والأمان ، فلا وحشة ولا قلق ، ولا ظلم يصيب المواطنين من المسؤولين والمسيطرين على زمام الحكم. في دولة كهذه يكون طريق التكامل والتعالي مفتوحاً أمام جميع الناس ، وباستطاعة كل فرد أن يعمل لسعادته بارتياح واطمئنان ، ويستفيد من نتائج المهمة.

أما الدولة التي يسيطر عليها الاستبداد والتعنت ، ولا يحترم فيها القانون والعدالة أصلاً ويفقد الحق والانصاف معناهما فيها ... فلا حرية هناك. بل يسود سماء الأمة قلق واضطراب ويفقد الأفراد هدوءهم ، يقضون ليلهم ونهارهم في الخوف أو يكونون عبيداً لا إرادة لهم قبال أسيادهم ، وفي كل لحظة يمكن أن يسيئ الحاكم إلى شخص أو أشخاص من أفرادهِ ويحمل كالحَيوان المفترس عليهم ويهجم على كرامتهم ووجودهم بلا قيد أو شرط ... فينهى بذلك حياتهم.

الحياة في دولة كهذه لا تعني إلا الشقاء والحرمان ، وهناك يستحيل على الأفراد الوصول إلى الكمال اللائق بهم بهم كبشر ، وينغلق الطريق أمامهم نحو السعادة ... في

مثل هذه الدولة يحترم الأفراد حاكميهم بدافع من الخوف والأمن من الضرر ، ويطيعون أوامرهم صوناً لدمائهم ... ولكنهم في الواقع يصبون سيل اللعنات عليهم.

الانقياد بسبب الخوف :

إن نظرة الاسلام إلى هؤلاء الحكام الظالمين ... إلى هؤلاء الثلة الحقيرة التي تحكم الناس بقوة الحديد والنار ... نظرة ملؤها الريبة والاحتقار ويعرفهم بأنهم أحقر الناس وشرهم في مقام الحكم الإلهي.

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « شر الناس يوم القيامة : الذين يكرمون إتقاء شرهم » (1)

كما ورد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث آخر : « ويل لمن تزكیه الناس مخافة شره ، ويل لمن أطيع مخافة جوره ، ويل لمن أكرم مخافة شره » (2).

وفي حديث ثالث : « الا أن شرار أمتي : الذين يكرمون مخافة شرهم ، الا ومن أكرمه الناس اتقاء شره فليس مني » (3).

الانقياد في ظل الحرية :

في ظل الحرية والعدالة ، تكون إطاعة الناس للقوانين والأنظمة ناشئة من الشعور بالواجب ، والميل للحصول على السعادة ، اما في الحكومة الاستبدادية والتي تساس بالعنف والقسوة ، فإن منشأ إطاعة الناس للأنظمة هو غريزة حفظ الذات ، لأنهم يعلمون أنهم عند ارتكابهم أبسط مخالفة فسيكون عقابهم عليها شديداً جداً :

« يكون أفراد الشعب عبيداً للحاكم في الحكومات الاستبدادية ، ولا يكون لأحد امتياز على الآخرين ، إن الحاكم المستبد لا يلتزم بأية قاعدة أو قانون فارادته وتشهياته فوق القانون والأنظمة ، إنه يحاول أن يمحوا الآخرين من صفحة الوجود » (4).

ص: 353

1- الكافي ج 2 327.

2- مجموعة ورام ج 2 115.

3- سفينة البحار ص 695.

4- روح القوانين لمونتسكيو ص 32.

« تتطلب طبيعة الحكومة في النظام الاستبدادي نوعاً من الاطاعة اللامحدودة. ولا يوجد في هذه الحكومات ما يتعرض للأوامر الصادرة من تغيير ، أو إهمال ، أو موعد أو بدلية ، أو مفاوضات ، أو انتقادات ، أو وساطة ».

« في هذه الحكومات يعد الانسان مخلوقاً خاضعاً لارادة مخلوق آخر. ويجب أن لا يحتمل إظهار القلق أو الاضطراب من وقوع بعض الحوادث الفجائية ».

« يعيش الانسان في ظل الحكومة الاستبدادية كالحيوانات لا نصيب له بغير الغريزة الطبيعية ولا طاعة والعقاب » (1).

« تستند الحكومة الاستبدادية على قاعدة الخوف ، وفي الأمم الجبانة والجاهلة والمندحرة لا ضرورة للقوانين الكثيرة فكل شيء هناك يقوم على فكر شخصين أو ثلاثة. وعليه فلا حاجة للأفكار الجديدة ، ذلك أنكم عندما تقومون بتربية حيوان تلاحظون فقط أن لا يأخذ الحيوان منكم أحد ، وأن يعرف صاحبه ولا يغير سلوكه ».

« عندما كان شارل الثاني عشر في مدينة (بندر) لا حظ أن خلافاً نشب تجاهه في مجلس الشيوخ السويدي ، فكتب إلى المجلس : إنه سيرسل إحدى جزمته لتحكم عليهم » (2).

إن أوطأ الأمم وأشقى الناس ، هم المحرومون من نعمة العدالة والقانون والحرية والفضيلة ... إن الحياة في جو الاضطهاد والاضطراب والتعنت والقسوة ، أوطأ وأحط من حياة حيوان بكثير ، بلا شك ...

العدالة في الأسرة :

يحكم الآباء في الدولة الصغيرة للأسرة أفراد أسرهم بأساليب مختلفة ، فبعض الآباء العقلاء والمؤمنين يطيعون الأوامر الإلهية والأسس العقلية يديرون شؤون

ص: 354

1- روح القوانين ص 33.

2- روح القوانين ص 47.

الأسرة حسب العدالة والانصاف والاحترام للحق والفضيلة فأعضاء هذه الأسرة حسب العدالة والانصاف والاحترام للحق والفضيلة فأعضاء هذه الأسرة يعيشون في ظل الأمن والهدوء الفكري ، وكل منهم يؤدي واجباته بكل سرور وارتياح أملاً في الحصول على السعادة في غد ، وتشع أشعة الحنان والحب في جميع زوايا ذلك البيت وتلك الأسرة.

وعلى العكس من ذلك : فهناك من الآباء الجاهلين والمنحرفين من لا يتقيد بالواجبات الدينية ولا يطيع الأنظمة العلمية والعقلية ، ولأجل أن يكون الحاكم المطلق في جو الأسرة وتنفيذ أوامره بلا استفسار أو إنتقاد ، يتوسل بالاستبداد والتعنت ويثبت قدرته ويفرض إرادته بالفحش والعريضة والكلمات الركيكة ، ويعامل زوجته وأطفاله معاملة أشد من معاملة الحيوانات فيذيقهم الأمرين من السوط والعصا والتعذيب والضرب والتجويع ، محولاً جو الأسرة إلى سجن رهيب لا يطاق!.

... حين ينعكس صوته الغليظ في محيط البيت يفر الأطفال الأبرياء بوجوه شاحبة إلى هنا وهناك ، وترتعد فرائصهم كنعاج هجم عليها الذئب ثم يلجأون إلى الفراش بأرواح ملؤها العقد والتأزمات ، وحين يستيقظون في الصباح ويتذكرون أباهم المجنون وتصرفاته البذيئة يسيطر عليهم الجزع والانكماش حتى كأنهم لا حراك بهم.

نتيجة الاستبداد :

في أسرة كهذه تنعدم السعادة ، ولا يوجد الهدوء الفكري واطمئنان خاطر ، حيث يسيطر الخوف والقلق على جميع أنحاء البيت ، ويرى أعضاء الأسرة أنفسهم معرضين في كل لحظة لخطر التعذيب والقسوة ... في هذه الأسر لا تقف آثار الاستبداد السيئة عند حد إيقاف الرشد المعنوي للأطفال فقط ، بل تمنع أبدانهم عن الرشد الطبيعي من جراء الاضطراب والقسوة .

هؤلاء الآباء يجرون على أنفسهم وعوائلهم والمجتمع الذي يربى الأطفال له نتائج وخيمة لا تنجبر ... هؤلاء مسؤولون - طبق الموازين الاسلامية - أمام كل ضربة أو كلمة بذيئة صادرة منهم تجاه عوائلهم ... وإذا كانت طاعة الزوجة والأولاد

معلولة للخوف من الشدة والقسوة والظلم ، فإن هؤلاء الآباء مشمولون للأحداث السابقة التي ترى أن من يطاع خشية شره لهو شر الناس .

على هؤلاء الآباء أن يحكموا وجدانهم ، وأن يكرهوا لغيرهم ما يكرهونه لأنفسهم ، فكما أنهم - أنفسهم - ينفرون من الحياة في ظل الاستبداد والتعنت ، والظلم والقسوة عليهم أن لا يرضوا ذلك لعوائلهم ، ولا يعاملوا أزواجهم وأطفالهم معاملة الأسرى المحكوم عليهم بالاعدام!.

2 - الخوف من العقاب :

لا شك في ضرورة الأنظمة والقوانين لكل دولة لايجاد النظام والضبط والمنع من الفوضى والمخالفات ... ولا بد من معاقبة الخارجين على تلك الأنظمة لضمان حسن تنفيذها ، فالخوف من العقاب هو الذي يحث الناس على الطاعة. والنكته الجديرة بالملاحظة أنه لا حساب ولا مقياس للعقاب في الحكومة الاستبدادية ، فمن الممكن أن يؤدي استياء بسيط للحاكم إلى إعدام مئات الناس الأبرياء. هناك ليس العقاب على أساس الجرام أو الاحكام القضائية ، بل الموضوع يقوم على طبق هوى النفس والميل الشخصي للحاكم. أما في حكومة العدالة والقانون ، حيث تحدد صلاحيات الحكام وأبناء الشعب حسب الأنظمة العادلة ، فلا مجال للأهواء والميول الشخصية للحكام في الأحكام الصادرة ... هناك لا يخاف أحد من شخص معين ، غاية ما هناك أن الشخص الذي يرتكب جرماً يعاقب على أسس قضائية صحيحة وعادلة متناسبة مع جريمته.

وبعبارة أخرى : إن منشأ الخوف عند الناس في الحكومة الاستبدادية هو الظلم والتعسف والاضطهاد ، أما في حكومة العدالة والقانون فإن منشأ الخوف هو الجرم الذي ارتكبه الانسان واستحق العقاب عليه.

الاسلام والأمن :

إن أحسن وأرقى الحكومات العالمية المعاصرة هي الحكومة التي تسيطر القوانين العادلة على جميع شؤونها ، ويعيش جميع أفراد تلك الدولة - من أي طبقة

أو منزلة كانوا - آمنين في ظل العدالة والقانون بأرواح ملؤها الرفاه والسعادة والهدوء.

ولقد عمل قائد الاسلام العظيم ، قبل أربعة عشر قرناً ، على إرساء قواعد النظام الاجتماعي في حكومته على هذا الأساس ، فقد منح العدل والأمن الروحي والهدوء النفسي لجميع الناس ، وزال الخوف والاضطراب اللذين كانا يحكمان العصر الجاهلي من جراء استبداد الحكام واضطهاداتهم فاصبح الفرد المسلم يخاف من ذنبه فقط. ولأجل أن يتجل هذا الدور الذي يسلكه الاسلام في ضمان الأمن والهدوء للمجتمع نبسط بعض الشيء مسألة الخوف.

هناك حافزان للخوف في تطبيق الواجبات الدينية من قبل كل فرد مسلم : (الأول) : الخوف من الله والجزاء الآخروي. (والآخر) الخوف من الحكومة والعقاب الديني ... وفي كلا الموردين يكون منشأ الخوف هو الذنب الذي ارتكبه الانسان نفسه.

أ - الخوف من الله :

على كل فرد مسلم أن يطمئن إلى رحمة الله الواسعة ، خائفاً من عقابه. ولكن الخوف من الخالق الرحيم والعدل لا يكون كالخوف من حاكم مستبد ظالم. إن الحاكم المستبد يستند في قدرته إلى التعسف وأما في الحريم الإلهي المقدس فلا يتصور الظلم والجور. إن الله يعاقب المذنب على أساس الحق والعدل ، والخوف من الله نعني الخوف من العقاب على الذنب لا أكثر. ولهذا فقد ورد التعبير في القرآن الكريم عن خوف الناس بنسبته إلى المقام الإلهي ، فقال تعالى «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (46)» (1) وقال أيضاً : «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40)» (2) ... ». إن (مقام الله) هو علمه بإجرام المجرمين ، وقدرته على مجازاة المذنب وحماية المظلوم بالانتقام له من الظالم ... وبصورة موجزة فإن (مقام الله) هو إقامة الحق والعدل ، فالذي يخاف من مقام الله لا يحوم حول الذنب.

ص: 357

1- سورة الرحمن 46.

2- سورة النازعات 40.

« عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل : «وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ (46) » قال: من علم أن الله يراه ، ويسمع ما يقول ، ويعلم ما يعلمه من خير وشر ، فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال ، فذلك الذي خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى » (1).

إن مقام المدعي العام في الحكومات القانونية هو مقام عقاب الجاني ومجازاة القاتل ... المدعي العام هو الذي يجر المجرم إلى المحكمة ويلزمه بالادانة. إن مقام المدعي العام هو إقامة العدالة والقانون ، فمن يهرق دمًا باطلاً يخاف من مقام الادعاء العام ولكن هذا الخوف ناشئ من جانيته هو ...

« إن علياً (عليه السلام) قال لرجل - وهو يوصيه - : خذ مني خمساً : لا يرجون أحدكم إلا ربه ، ولا يخاف إلا ذنبه ... » (2).

ب - الخوف من الحكومة :

الخوف من الحكومة في الاسلام يعني : الخوف من العقاب القانوني فقط. إن فرداً مسلماً لا يخاف من رئيس الدولة أو الهيئة الحاكمة أصلاً ، ولا ينبغي أن يخاف منه ، ذلك أنه ليس للحاكم الحق في اضطهاد أحد أو أخذه بالباطل ، فالهيئة الحاكمة في الاسلام لا تمتاز على باقي أفراد الأمة في شيء غير ثقل عبء المسؤولية أمام الله تعالى. فعلى المسؤولين مضافاً إلى تطبيق الحق والعدالة أن يعاملوا الناس بالعطف والمحبة ، واحترام الأسس الأخلاقية. وفي هذا يكتب الامام علي (عليه السلام) إلى مالك الأشر في العهد الشهير :

« فاملك هواك ، وشح بنفسك عما لا- يحل لك ، فإن الشيخ بالنفس : الإنصاف منها فيما أحبت وكرهت. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضارياً تغتنم أكلهم » (3).

إن الحكام المستبدين والمتمتمين هم عبيد أهوائهم ورغباتهم اللامشروعة أما

ص: 358

1- تفسير البرهان 107.

2- بحار الأنوار 17 105.

3- نهج البلاغة ص 475.

الحكام العدول فهم مخالفون لأهوائهم ويتبعون الانصاف والفضيلة ويحبون الخير والصالح للرعية.

النبى العطوف :

كان النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) جاداً تماماً في مقام تنفيذ القوانين وعقاب المجرمين ولهذا فقد كان الناس يخافون من ارتكاب الجرائم. ولكنه في المعاشرات الاجتماعية كان أباً عطوفاً ، لا يخافه أحد وإذا صادف أن أحداً كانت تأخذه الهيبة من محادثته ، فإنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يحطم ذلك الشعور في نفس المخاطب. « ابن مسعود ، قال : أتى النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) رجل يكلمه فأرعد. فقال : هون عليك فلست بملك » (1).

لقد كانت صلات النبى (صلى الله عليه وآله وسلم) مع المسلمين لينة هادئة إلى درجة أن بعض الأشخاص كانوا يتمازحون معه بالمزاح الذي يصعب قبوله من قبل الأفراد العاديين. « نهى عليه السلام أبا هريرة عن مزاح العرب فسرق نعل النبى ورهنه بالتمر ، وجلس بحذاءه يأكل ... فقال (عليه السلام) يا أبا هريرة ما تأكل؟ فقال : نعل رسول الله (2).

أي حاكم يجرأ على مغازلة فرد عادي ، فيرهن حذاءه عند بقال لقاء شيء من التمر؟! لقد عد الله هذه الفضيلة الخلقية للرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) من مراتب رحته وعنايته : « فيما رحمة من الله لنت لهم ... ».

لقد كان شديد التأكيد على صفاء قلبه بالنسبة إلى أصحابه إلى درجة أنه قال : « لا يبلغني أحد منكم عن أصحابي شيئاً. فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » (3).

الحكومة الحرة للإمام علي (عليه السلام) :

أما الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فهو أعظم تلميذ من تلامذة الاسلام ، تعلم درس الحرية والانسانية من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ولذلك فقد

ص: 359

1- بحار الأنوار ج 6 152.

2- بحار الأنوار ج 6 166.

3- بحار الأنوار ج 6 152.

كانت علاقاته مع الناس متصفة بالعطف والرحمة ، أما في مقام إقامة العدالة فكان صريحاً وجدياً. ومن هنا وصفه عدي بن حاتم في مجلس معاوية ضمن أحاديثه عنه (عليه السلام) فقال : « وكان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، ويدنينا إذا أتينا ، ونحن مع تقرّبه لنا وقربه منا ، لا نكلمه لهيبته ، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته ، فإن تبسم فعن اللؤلؤ المنظوم ... يعظم أهل الدين ويتحبب إلى المساكين ... لا يخاف القوي ظلمه ، ولا ييأس الضعيف من عدله » (1)

خوف الطفل من الذنب :

في الدولة الصغيرة للأسرة يكون خوف أفراد الأسرة على قسمين : فبعضهم يخاف من الذنب ، والبعض الآخر يخاف من الأب. عندما يكون الخوف من الذنب موجوداً فإن المخاوف الباطلة الواهية تنعدم ، وهنا يكون المهد الصحيح للتربية. وتتفتح أزهار الشعور بالمسؤولية في نفوس الأطفال واحدة بعد الأخرى ، ويتعود الصغار على الاستقامة منذ البداية. إن أعضاء هذه الأسرة يطمنون إلى أنهم إذا لم يتجاوزوا على حقوق الآخرين ولم يتلوثوا بالذنب والانحراف ، فالينالهم شيء بل يكونون مقربين عند الأبوين تماماً.

في مثل هذه الظروف يكون الأب في محيط الأسرة حائزاً على الشخصية والعطف معاً ، والأطفال يخافون من مؤاخذته الصحيحة والمنصفة فلا يمارسون الذنوب ولا ينحرفون.

« ويجب على الذي يقوم بإجراء العقوبة أن يعتقد ببعض القواعد ويستمع إلى نداء الوجدان ، ولا يحكم بدافع التعصب. وعليه - في نفس الوقت - أن يكون حميداً في سلوكه وعطوفاً ، لا بأن يظهر ضعفه وحقارته ، بل يكون ذا شفقة عامة وإنسانية تظهر في حدود القوانين المحدودة والقبالة للاحترام الاجتماعي والدولي » (2).

ص: 360

1- سفينة البحار مادة (عدا) ص 170.

2- جه ميدانيم؟ تربية أطفال دشوار ص 93.

« إن المربي سيتظاهر بأنه سوف لا- يعاقب ، بل أنه يجري قوانين العدالة كموظف مختص مجبر على ذلك ، وسيفهم الطفل هذه النكته بصورة حسنة. ولما كان التوبيخ ذا جانب عاطفي تماماً هنا فيجب أن لا يخرج عن حدود الانسانية ، وبهذا تكون عقوبة كهذه غير انحيازية »
(1).

خوف الطفل من الأب :

عندما يكون الخوف من الأب ، الأب السيء الخلق والقاسي ، الأب الذي يتحجج ويتعنت ، الأب الذي يفحش في القول ويضرب أبناءه بلا سبب فيجازي أبسط الزلات بأكبر العقوبات ، الأب الذي يثار لأتعبه الخارجية فينتقم من أطفاله الأبرياء ، والذي يحل عقدة الفشل التجاري أو الإداري أو الاجتماعي عنده بإيذائهم ... ففي الأسرة التي يحكمها مثل هذا الأب لا تحترم الأمانة والاستقامة ، ولا تعرف الفضيلة والأخلاق ، إنما المهم في نظر الأطفال إرضاء أبيهم المستبد ، واتقاء شره!

إن العصر الحديث يخطئ من الناحية العلمية والتربوية ، طريقة ضرب الأطفال وإيذائهم بغية التأديب ، ويكاد يمنع الضرب في جميع الدول الحية فيحذر الآباء والأمهات في البيت ، والمعلمون في المدرسة ، عن ضرب الأطفال بصورة أكيدة.

قد يتصور البعض أن هذه النظرية مبتكرة في عصرنا الحاضر ، وأن الانتباه إلى أهمية هذا الموضوع حصل في الحديث فقط. بينما نرى من الضروري أن نرفع هذا الوهم عن أذهان أولئك ونقول بصراحة : إن الاسلام سبقهم إلى ذلك ... فعلاوة على الروايات في المنع من ضرب الأطفال ، أفتى الفقهاء المسلمون في القرون الماضية بحرمة ذلك في رسائلهم العملية التي تعد المناهج اليومية لعمل المسلمين.

« قال بعضهم : شكوت إلى أبي الحسن (عليه السلام) ابناً لي ، فقال : لا تضربه واهجره ... ولا تطل » (2).

ص: 361

1- المصدر السابق ص 95.

2- بحار الأنوار للمجلسي ج 23 114. ومعنى الهجر : إظهار عدم الرضا بأعماله وعدم الاعتناء إليه.

ففي هذا الحديث نجد أن الإمام يمنع من ضرب الطفل بصراحة ، مستفيداً من العقوبة العاطفية بدلاً من العقوبة البدنية. فالأب هو الملجأ الوحيد للطفل ومعقد آماله ، وإن هجره للولد أكبر عوقبة روحية ومعنوية إنه (عليه السلام) يطلب من الوالد أن يهجر الولد ولكنه سرعان ما يوصيه بعدم طول مدة الهجر ، ذلك أنه إذا كان لهجر الوالد أثر عميق في روح الطفل فإن طول مدته يبعث على تحطيم روحيته وإذا كان أثر هذا الهجر ضعيفاً فإن شخصيته الوالد ستصغر في نظر الطفل لطول مدة الهجر وسوف لا يكون لتألم الوالد أثر أصلاً.

« إن للعقوبات التي ترجع فيها الوسائل العاطفية والأخلاقية على الوسائل المادية تأثيراً كبيراً ، ففي مثل هذه العقوبات بدلاً من أن يحرم الطفل من الماديات يجب السعي للتأثير في قلبه ونفسه ووجدانه وعزته وغروره ، فإن لم ترتبط المحروميات المادية مع مشاعره وعواطفه فانها تفقد طابع العقوبة » (1).

وفي هذا الصدد يقول الامام علي (عليه السلام) : « إن العاقل يتعظ بالأدب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب » (2).

دية اللطم والعقوبة البدنية :

وهنا لا بأس بذكر الفتوى المتعلقة بالبحث من الرسالة العلمية (توضيح المسائل) لآية الله الفقيه السيد حسن الطباطبائي البروجردي التي هي في متناول يد الجميع :

« مسائل 2816 - إذا لطم على وجه أحد باليد أو بشيء آخر فاحمر وجهه ، فديته مثقال ونصف من الذهب (كل مثقال 18 حبة) وإن اخضر لونه فثلاثة مثاقيل وإن اسود لونه فستة مثاقيل ، ولئن تغير لون سائر البدن على الضرب ، فاحمر أو اخضر أو اسود ، فديته نصف ما ذكر ».

ص: 362

1- جه ميدانيم؟ تربية أطفال دشوار ص 94.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 108 طبعة النجف الأشرف.

« مسألة 2820 - إذا ارتكب الصبي إحدى المعاصي الكبيرة جاز للولي أو المعلم ضربه بمقدار التأديب ما لم يصل حد الدية ».

« مسألة 2821 - إذا ضرب صبيًا إلى حد وجوب الدية كانت الدية للصبي ، فلو مات الصبي فعلى الضارب أن يدفع ديته إلى ورثته ولو ضرب الوالد ولده حتى مات كانت ديته لسائر الورثة ، وليس له شيء من الدية ».

يستفاد من هذه الأحكام الدينية الثلاثة أنه لا يجوز ضرب الطفل فإذا ضرب أحد الوالدين أو المعلم طفلاً على وجهه وسبب تغير لونه فعليه أن يدفع ديته ، وعند ارتكاب الطفل إحدى المعاصي يجوز ضربه بحيث لا يصل حد وجوب الدية.

إن الآباء والأمهات الذين يضربون أبناءهم إلى حد وجوب الدية مدينون إليهم بقيمة الدية. فاما عليهم أن يرضوهم أو يحصلوا على العفو منهم وكذلك حكم المعلمين الذين يضربون تلامذتهم.

جزاء الوالد السيء الخلق :

على الآباء المسلمين الذين لا يفحشون في المنزل ، ولا يصدر منهم أذى ، ولا يضربون أزواجهم وأطفالهم ... ولكنهم يسيئون الخلق معهم أن يدققوا في هذا الحديث :

كان (سعد بن معاذ) أحد صحابة الرسول الأعظم المحترمين. وعند وفاته مشى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بنفسه في جنازته ، حتى أنه حملها على كتفه عدة مرات ، وحفر القبر بنفسه وشق له اللحد ودفنه فيه ... فلما وجدت أم سعد ذلك غبطته على تلك المنزلة فقالت :

يا سعد هنيئاً لك الجنة. فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا أم سعد ، مه ، لا تجزمي على ربك ، فإن سعداً قد أصابته ضمة ...
(1).

وعندما سئل عن سبب ذلك ، قال : إنه كان في خلقه مع أهله سوء.

ص: 363

1- الضمة : الضغط والعصر ، ويقصد عصرة القبر فقد ورد في الرويات أن سوء الخلق مع العيال يوجب الضيق في القبر.

إن بقاء عمارة مؤسسة من مئات الأطنان من الحديد والجص والصخر مرتبط بالتوازن والتعادل الكائن بين ركانتها ، وعدم خروج أعمدتها وجدرانها عن حدود الهندسة التي أنشئت على أساسها.

فإذا كانت العمارة منشأة منذ البداية على أساس غير موزون وبلا مقياس صحيح ، أو أن العوامل المختلفة أدت إلى اختلال توازنها فلا تكون قابلة للبقاء والاستمرار ، وسيؤول أمرها إلى التهدم والخراب ... فما أكثر العمارات التي لا زالت تحتفظ بمتنانتها وقوتها بالرغم من مرور السنين الطوال على إنشائها ، وذلك لمحافظة على التعادل الهندسي المنشأة على أساسه ، ولكن ما أسرع أن تتهدم العمارة عندما لا تؤسس على الوازن صحيح أو تفقد توازنها فيما بعد.

إن كل دولة تشبه عمارة ضخمة ، متكونة من ملايين الأفراد ويجب أن تقوم على أساس التوازن والتعادل.

فالدول التي تدار بالقانون والعدالة ، وتكون الحدود كلها مرسومة بين الطبقات المختلفة على أساس الحق والانصاف ، يعيش أفرادها في هدوء فكري واطمئنان تام ، فلا يستغل الحكام سلطانهم لاضطهاد الناس ... هذه الدول تستمر ثابتة وقوية محتفظة بحياتها الوطنية على الرغم من مر القرون وفي هذا يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « العدل جنة واقية ، وجنة باقية » (1).

الحكام الجائرون :

أما في الحكومة الجائرة التي يحرم فيها الأفراد من نعمة القانون والعدالة والحق والفضيلة ... فالحكام يفرضون إرادتهم بإراقة الدماء والتجاوز على حقوق الآخرين ، واضطهاد الشعب وإيذائهم. ولذلك فالمواطنون يسكتون خوفاً ، ولا ينطقون بحديث عن السلطة الحاكمة ولكنهم لا يملكون هدوءاً روحياً ، فالقلوب

ص: 364

تمتلىء بالغیظ والحدق ، وینتظرون الفرصة المناسبة التي یثورون فیها وینتقمون من حکامهم.

والحکام أنفسم قلقون دائماً ، خائفون على مناصبهم.

فی مثل هذه الدولة یتماذى الحکام فی الظلم والقسوة ، وكل ظلم یمدر منهم یولد إثارة جدید فی الرأى العام. فإن اعتراض المواطنون على حکامهم لقیامهم باعتداء ، جنحوا لاسکاتهم إلى اعتداء جدید ، وهكذا كلما یتقدمون خطوة یضطهدون أكثر ، حفظاً على مقامهم وشوکتهم وكلما یزداد الاضطهاد نشدت العداوة والفجوة بینهم و بین أبناء الشعب و تتراکم الأحقاد إلى أن یحین الیوم الذي تنفجر العقد وتلتهب نتائجها الوحیمة عن نار لا تبقي للظالمین ولا تذر. وفی ذلك یقول الامام الصادق (علیه السلام) « من زرع العداوة حصد ما بذر » (1).

بنو أمیة واعتداءاتهم :

ان تأریخ بنی أمیة وجرائمهم أصدق شاهد على ما ذکر. فقد قام یزید لتبیت قدرته وتحکیم أساس حکومته بقتل الامام الحسین (علیه السلام) ، وإحداث فاجعة كربلاء بذلك الوضع المزری الذي بعث على الاشمئزاز فی جمیع أرجاء الدولة الاسلامیة ، وقام الناس فی المدینة طالبین عزل (یزید) عن الخلافة بكل صراحة. فكان رد الفعل منه أن أقدم على جريمة جدیدة فولغ فی دماء أهل المدینة وأعراضهم بواسطة الجيش الجرار الذي بعث به من الشام ففعلوا ما فعلوا مما یندی له جبین الانسانیة.

یذكر لنا المؤرخون أن أحد الجنود الشامیین دخل إلى بیت امرأة قریبة عهد بوضع حملها حیث كانت ترقد فی فراش الاستراحة ، فطلب منها مالاً ، فأقسمت المرأة التي كانت قد فقدت كل وجودها فی غارة أهل الشام على المدینة بأنها لا تملك شیئاً ، ثم خاطبت ولیدها قائلة واللّه لو كنت أملك من حطام الدنيا شیئاً لافتدیت به عنك ، وحقنت به دمك ، وهنا وجم الجندي القاسي البعید عن الايمان إذ

ص: 365

يُس من الحصول على المال ثم اختطف الطفل من أمه وهي ترضعه ، ورمى به إلى الجدار بشدة حيث تحطم مخه ... (1).

وانتشعت الغيوم عن انفجار المسلمين ضد بني أمية وحكمهم ، وأثمرت بذور الحقد والعداوة التي زرعوها في قلوب الناس ، فثاروا ينتقمون منهم. وحينئذ لم يرحموا امرأة أو رجلاً ، شيخاً أو شاباً ، حتى أنهم بعد قتلهم لهم كانوا لا يدفنون جثث القتلى بل يتركونها في الخرائب طعمة للكلاب السائبة والطيور الجارحة.

بقاء الأسرة في ظل العدل :

عندما يحكم الآباء والأمهات في الدولة الصغيرة للأسرة بقوة الحق والفضيلة ، وعلى أساس العقل والعدالة فإن تلك الأسرة تبقى قوية ونشطة على مدى الأجيال. ولا تستطيع القرون المتتالية أن تحطم تلك العائلة وتهدم بناءها ، ذلك أن الفضائل الخلقية والعدل والانصاف تضمن دوام تلك الأسرة.

وعلى العكس من ذلك فإن الآباء الذين يديرون الأسرة بالضغط والاضطهاد والتهديد ، وبدلاً من قيامهم بالتربية الصحيحة والعقلانية يعذبونهم ، فانهم يبذرون بذور العداوة في قلوبهم ، ويسقون أشجار البغض والحقد بأعمالهم الفاسدة ، فيهيئون بذلك وسائل الشقاء لأنفسهم ولأطفالهم فعندما يتحطم سد التهديد في يوم ما بموت الأب أو سفره أو عجزه ، تنفجر العقدة النفسية للأطفال وتؤدي إلى سيل من الانتقام والثأر الذي يمكن أن يتضمن نتائج وخيمة.

« هناك آباء وأمهات مستبدون لا يتمالكون على أنفسهم من الاساءة والضرب. وفي هذه الصورة لا تكون بعض العقوبات البدنية مضرّة بمقدار ضرر بعض التشديدات بالنسبة إلى القلب. إن الحبس في غرفة ، أو النظر إلى الجدار من دون أن يجراً على القيام بحركة صغيرة تحطم القابلية على التحمل عند الطفل ».

« هناك بعض الأولياء يصبون طعام الطفل في إناء يشبه إناء طعام

ص: 366

الحيوانات : وحتى في بعض الأحيان يقوم هذا الأب أو الأم غير العاديين بتقديم الطعام إلى الطفل في وعاء القاذورات ، أو يبصق الأب في وجه الطفل او يعريه في الشارع وأمثال ذلك مشاهدة بكثرة!«.

« هؤلاء الأطفال تتحطم أعصابهم ، وتصبح أفعالهم خالية من التروي والتفكير ، وغالباً يؤدي بهم النفور نحو الانحراف وظهور ذلك في مظهر الجريمة ، ذلك أن هؤلاء الأطفال يريدون أن ينتقموا ممن يعذبهم بواسطة نوع من الانتحار الخلقي ، ولذلك فانهم لا يهتمون كثيراً بالترحم الذي يمكن أن يصيبهم ، كما أنهم لا يتأثرون بكل عقوبة » (1).

فمن الضروري أن تكون إدارة الأسرة قائمة على العقل والدراية والانصاف والعدالة ، وفي هذا يقول الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة ، إلا كان خراباً » (2).

4 - تقسيم العمل والكفاءة :

يشبه المجتمع جسد الانسان إلى حج كبير ، فكما أن أعضاء الجسد الواحد تنقسم الوظائف فيما بينها ، كذلك المجتمع ، إذ يجب أن تقسم فيه الواجبات بين الأفراد ، ويختص كل فرد بقسم معين منها.

إذا دققنا النظر وجدنا أن في بناء البدن تتناسب لياقة كل عضو مع الوظيفة المعهودة بها إليه ، فقد خلق الله تعالى أعضاء بدن الانسان حسب الوظائف التي يجب أن تقوم بها ، فمثلاً يقوم القلب بالعمل طيلة العمر وهولاً أنشط عضلات البدن من حيث الفعالية ، وقد خلقه الله تعالى قوياً متيناً يتناسب ذلك مع ثقل العمل المفروض عليه. كذلك المجتمع فإنه يجب أن يفوض كل عمل فيه إلى من توجد

ص: 367

1- جه ميدانيم؟ تربيت أطفال دشوار ص 30.

2- تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي ج 1 382.

عنده الكفاءة والقابلية على القيام بواجبه ... وهذا هو أهم المسائل الاجتماعية في كل دولة وسر ترقى الناس وسعادتهم.

العمل في الدولة الاستبدادية :

إن الأعمال لا تقسم بين الناس في الدول الاستبدادية حسب الكفاءات والقابليات ، وليس الوصول إلى المراكز الحساسة في تلك الدول منوطاً بالصلاحية والقابلية ... فلا قيمة للخبرة والعلم هناك ، بل العامل الوحيد للتقدم هو إرضاء الحاكم والتقرب منه فحسب! إنه يستطيع تفويض أخطر الوظائف الحساسة في الدولة إلى اقل الأفراد كفاءة في ذلك المجال ، وهو الذي يقدر على حرمان أعظم الأفراد كفاءة من أبسط الأعمال الاجتماعية ، وجرهم إلى أحط المنازل والمراتب.

على الناس في مثل هذه الدول أن يتعلموا درس التملق والمرء بدل اكتساب العلم والمعرفة ... فمن كان أمهر في مدح الحكام والتزلف اليهم وكان أشد إخلاصاً لتنفيذ أوامره من غيره فهو الذي ينال الوظيفة المهمة والمقامات العظيمة.

وبيديه أن اسلوباً كهذا يجر وراءه سلسلة من الفساد والـجرام والانحطاط والتأخر. ففي مجتمع كهذا تعطل كفاءات ثلة من العلماء والمحققين والخبراء من جهة ، ويعجز المتربعون على زمام الحكم من الفاقدين للأهلية والقابلية عن إدارة شؤون الدولة بالشكل اللائق ... وتكون النتيجة أن يخطو المجتمع في كل يوم خطوة إلى الوراء!!.

العمل في الحكومة القانونية :

أما في ظل العدل والانصاف ، وتحت سماء الحرية والقانون ... في الدولة التي تقسم فيها الأعمال حسب الكفاءات فيكون الجو الكامل للعلم والعمل ، والمحيط الصالح لتنمية الاستعدادات الانسانية ، يملأ نور الأمل قلوب الكل ، ويكون طريق التقدم والترقي مفتوحاً أمام الجميع. هناك يكون الأفراد أحراراً في الحصول على الكفاءات ، فمن يكون نتاجه أفضل ينال صلاحيات أوسع. هذه الدولة تكون من النظرة المادية والمعنوية مهداً للفضيلة ، ومنشأ للسعادة والراحة.

الأسرة والحرية :

تخضع نفسيات الأفراد في الأسرة إلى وضع حكومة الآباء. فالأب الذي يتحدث إلى أبنائه بلسان التهديد والعقاب فقط وتكون إطااعته له قائمة على أساس الخوف منه ، ينعلم حب التعلالي والترقي من نفوس الأطفال ، ولا تظهر استعداداتهم الخفية ولا يفكرون في تحصيل الكفاءات لأنفسهم. وبصورة أساسية فإن الأطفال في أمثال هذه الأسر لا يدركون أنفسهم ، ولا يلتفتون إلى وجودهم بين ظهرائي المجتمع ، لأنهم لم يسمعوأ كلاماً من رب الأسرة حول إظهار شخصياتهم ، إنه كان يتحدث معهم بلغة السوط والعصا فقط!.

أما في الأسر التي تقوم على أساس التعلالي النفسي وحب الكمان ، الأسر التي تهدف التربية فيها إلى إيجاد الكفاءة والفضيلة والصلاحية في نفوس الأفراد ، تنعدم لغة التهديد والعقوبة ، بل يستند المربي حينئذ إلى شخصية الأطفال ويستفيد من غريزة جبههم للكمال في تشجيعهم على العمل المثمر الحر.

إن الحديث الذي بدأنا به المحاضرة يستند إلى هذا الأساس. فالامام الحسن عليه السلام لم يتحدث عن نفسه مع أطفاله ولم يهددهم بقوته ، بل أشعرهم بأنهم صغار اليوم ، وربما كانوا كبار الغد ، وإن العظمة وذيوخ الصيت في المجتمع يستلزم الكفاءة ، فأخذ يحثهم على التعلم وتحصيل المعرفة.

تجانس الدولة والأسرة :

من هذه النقاط التي تقدمت ندرك مدى التشابه بين جو الأسرة ومحيط الدولة. نتوصل إلى أن الحكومة الإسلامية والنظام الاجتماعي فيها يقوم على الحرية والعدالة.

« إن القوانين التربوية هي أولى القوانين التي تحكم فينا ، ولما كانت هذه القوانين تعدنا لنكون مواطنين صالحين فعلى كل أسرة أن تدار وفق المنهج العام الذي يدار به المجتمع. ولذلك فإن قوانين التربية

تختلف بالنسبة إلى أقسام الحكومات « (1).

« تكون كل أسرة حكومة مستقلة في النظم الاستبدادية وإن التربية (والغرض الأصلي منها الحياة مع الآخرين) تكون محدودة في ظل هذه النظم. فالتربية في الحكومة الاستبدادية عبارة عن تمكين الخوف في القلوب ».

« إذن التربية في هذه الدول بمنزلة الصفر واللاشيء. لأنه إن لم تزل تربية الأفراد تماماً فلا توجد الحكومة الاستبدادية. والأفضل أن أقول : إنه لا بد من وجود رعية منحطة حتى تكون عبداً جيداً ... » (2).

إن التربية في ظل النظام الاسلامي تقوم على العدل والحرية ، وتنمية حب التعالي والتكامل في نفوس الأطفال.

يقول الامام علي (عليه السلام) لولده الحسن : « ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً » (3). بهذه الجملة القصيرة يزرع الأب العظيم أعظم ثروة للشخصية في نفس ولده ، ويعوده على الحرية الفكرية.

وبالنسبة إلى تعلم الأطفال قال (عليه السلام) : « من لم يتعلم في الصغر ، لم يتقدم في الكبر » (4).

إن المربي القدير هو الذي يستفيد من غريزة حب الكمال والتعالي عند الطفل ويقيم قسماً كبيراً من أساليبه التربوية على هذا الأساس.

ص: 370

1- روح القوانين لمونتسكيو ص 38.

2- المصدر السابق ص 42.

3- نهج البلاغة ص 450.

4- غرر الحكم ودرر الكلم ص 697.

الصورة

□

ص: 371

الصورة

□

ص: 372

الصورة

□

ص: 373

الصورة

□

ص: 375

الصورة

□

ص: 376

الصورة

□

ص: 377

الصورة

□

ص: 378

الصورة

□

ص: 379

الصورة

□

ص: 380

الصورة

□

ص: 381

الصورة

□

ص: 383

هوية الكتاب

المؤلف: الشيخ محمد تقي فلسفي

المحقق: فاضل الحسيني الميلاني

الناشر: دار التعارف للمطبوعات

الطبعة: 3

الموضوع : علم النفس والتربية والاجتماع

تاريخ النشر : 1403 هـ.ق

الصفحات: 384

نسخة غير مصححة

الطفل بين الورثة والتربية

تعريب: فاضل الحسيني الميلاني

محمد تقي الفلسفي

ص: 1

الطفل بين الورثة والتربية

محمد تقي الفلسفي

الجزء الثاني

ص: 3

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ص: 4

المحاضرة السادسة عشرة: مسؤولية الوالدين في تربية الطفل - الوفاء بالعهد

إشارة

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) (1) :

الوفاء بالعهد من الصفات الحميدة التي تملك جذوراً فطرية في بناء الانسان. إن الطفل من حين إدراكه معنى العهد والميثاق ، يدرك لزوم الوفاء به أيضاً بفطرته. وعلى المربي القدير أن يستغل هذا الالهام الطبيعي عند الطفل ، وينمّي فيه هذه الموهبة الفطرية بحيث يجد في الوفاء بالعهد - من أولى أدوار طفولته - جزءاً من سلوكه ، ويجد في خلاف ذلك عملاً قبيحاً : لقد اعتبر الوفاء بالعهد من علائم الإيمان في تعاليم الإسلام ، وعليه فإن ركائز ذلك يجب أن تُصبّ من أولى أدوار الطفولة. وسيدور بحثنا في هذه المحاضرة حول هذا الموضوع ، ذاكرين الأحاديث التي تتصل بالبحث في الأثناء ، ولكن لما كانت تنشئة الطفل على الأخلاق الفاضلة والوفاء بالعهد تقع في الدرجة الأولى على عاتق القائمين بتربيته ، فإن من الضروري أن نمهّد للموضوع بمقدمة عن مسؤولية الوالدين في هذا المجال.

ص: 5

كلنا نعلم أن الأطفال تجب نفقتهم على آبائهم ، فعلى الأب القادر أن يضمن لأطفاله ما يحتاجون إليه من غذاء ولباس ومسكن ، وأن يهيئ لهم وسائل العيش المناسب. لقد احتلت إدارة معيشة الأطفال والحفاظ على سمعتهم وشخصيتهم منزلة سامية من اهتمام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى درجة أنه ورد في الحديث. أن رجلاً من الأنصار توفي ، وخلف أطفالاً صغاراً ، وكان قد صرف ما يملكه من أموال قبيل موته بقصد العبادة وجلب رضى الله مما أدى بأطفاله إلى أن يمدّوا يد العوز والحاجة يوم وفاته ، وعندما بلغ هذا النبأ إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ... « قال لقومه : ما صنعتُم به؟ قالوا : دَفَنَاهُ. فقال أما إني لو علمته ما تركتكم تدفنونه مع أهل الإسلام ، تركَ ولده يتكففون الناس » (1).

لا تنحصر مسؤولية الآباء في إدارة المعيشة المادية للأطفال ، بل إن عليهم أن يقوموا بتربيتهم تربية إيمانية صالحة ، فإن تأديب الأطفال وتربيتهم أهم في نظر الإسلام من الإهتمام باحتياجاتهم الجسدية. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « ما نَحَلَ والدٌ ولداً نحلاً أفضل من أدب حسن » (2). وعنه عليه السلام : « لا ميراث كالادب » (3).

وعن الإمام زين العابدين عليه السلام : « وأما حق ولدك فإن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره ، وأنت مسؤول عما وليته به من حسن الأدب والدلالة على ربه عزّ وجل ، والمعونة له على طاعته. فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه ، معاقب على الإساءة إليه » (4).

تربية الطفل فريضة دينية :

ليست تربية الأطفال تربية صحيحة واجباً وطنياً وإنسانياً فحسب ، بل إنها فريضة روحية مقدسة ، وواجب شرعي لا يمكن الإفلات منه. لقد وجدنا في هذا الحديث أن

ص: 6

1- قرب الاسناد ص 31.

2- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص625.

3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 831 - ط. ايران.

4- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 232.

الإمام زين العابدين عليه السلام يصرح بمسؤولية الأبوين في تربية الطفل ، ويعتبر التنشئة الروحية والتنمية الخلقية لمواهب الأطفال واجباً دينياً يستوجب أجراً وثواباً من الله تعالى ، وأن التقصير في ذلك يعرض الأباء إلى العقاب.

يقول الإمام الصادق عليه السلام : « وتجب للولد على والده ثلاث خصال : اختياره لوالدته ، وتحسين اسمه ، والمبالغة في تأديبه » (1).

من هذا يفهم أن تأديب الولد حق واجب في عاتق أبيه.

وموقف رائع يبين فيه الإمام زين العابدين عليه السلام أهمية تأديب الأولاد ، استمداده من الله عز وجل في قيامه بذلك : « وأعني على تربيته وتأديبهم وبرهم » (2).

ما أكثر الأمهات اللاتي يعودن أطفالهن على الصفات البذيئة والسلوك الأهوج منذ الصغر ، فيظل الأطفال مأسورين لتلك الأخلاق والصفات طيلة أيام حياتهم.

وما أكثر الاباء المجرمين الذين يحتقرون التعاليم الدينية والعلمية ، ويصطحبون أطفالهم إلى مجالس اللهو والعبث ، ويرتكبون الأفعال القبيحة أمام عيونهم النافذة ، وبذلك ينشأ الأطفال نشأة فاسدة ... كما أن بعضهم يحملونهم على الإجرام بجساسة شديدة.

الأب الخائن :

قبل حوالي خمسة عشر عاماً ، وفي وقت متأخر من الليل كنت واقفاً في موقف الباص منتظراً مجيء السيارة ، وكان هناك عدة من الأشخاص واقفين في الموقف أيضاً. كان من بين الواقفين رجل أمسك بيده يد طفل لا يتجاوز السادسة

من عمره. كان الطفل في حالة غير اعتيادية ، وأخيراً جلس على جانب الشارع واستفرغ ، فسأل أحد الواقفين أباه ما هو المرض الذي أصيب به ابنك؟ فأجاب : إنه ليس مريضاً لقد اصطحبته الليلة الى جلسة عند بعض الأصدقاء وهناك ناولته خمرأ! أي خيانة أعظم من أن يأخذ أب ابنه الذي لا يتجاوز السادسة من عمره الى مجلس

ص: 7

1- تحف العقول ص 322.

2- الصحيفة السجادية - دعاؤه لولده.

للشراب ، ويناوله خمراً فيجر عليه وسائل الشقاء؟! ألا يجب أن يعاقب هذا الأب؟! ألا يحق لهذا الطفل أن يلعن أباه المجرم؟!

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « يا علي ، لعن الله والدين حملاً ولدهما على عقوقهما » (1).

إن الآباء والأمهات المؤمنين والملتزمين بالتعاليم السماوية قادرون على أن يربّوا أطفالهم تربية لائقة وصحيحة ، وأن يبذروا فيهم بذور الإيمان والإطمئنان إلى رحمة الله الواسعة.

« ليس عمل الأم كالرسم حيث يظهر مظاهر الجمال واللطافة على اللوحة ، ولا يشبه النحت الذي يخرج من قطعة من الرخام تمثالاً. إنها ليست كالكاتب الذي يصب أفكاره المنزهة في قالب من الألفاظ ، بل أنها موظفة على أن تظهر - بمعونة من الله - صورة من القدرة الإلهية في الروح الإنسانية ».

« إن عبارة (بمعونة من الله) في النص المتقدم مهمة جداً، فإن الأم حين تحس بالعجز تشعر في الغالب بأنها في حاجة إلى الاستناد إلى قوة أعلى وأقدر من طاقتها الفردية ».

« لقد جعل - كوموله سو - بحثه في كتابه يدور حول أمٍ تحمل بين جوانحها كثيراً من الواقعية. هذا الأستاذ القدير في التربية عندما كان يعد تقريراً لإلقاءه في المؤتمر الرابع لشؤون الزواج التقى بامرأة استطاعة بعد موت زوجها أن تربي أطفالها العشرة بموقفية تامة ».

تدور بين الأستاذ والمرأة عدة أسئلة وأجوبة. والمرأة تتحدث في أجوبتها عن الله والدعاء والإيمان ، وتجد ان نجاحها في تربية أطفالها بصورة صحيحة يستند إلى ثرواتها الإيمانية والمعنوية وفي الختام يسأل الأستاذ :

« فماذا فعلت لأطفالك ؟ »

« لم أفعل شيئاً آخر ... لقد عملت على اعتقاداتي النفسية ، وعمل الله عليها ... ».

ص: 8

« بهذه الصورة سلكت هذه المرأة طريق تكاملها في ظل قوة الإيمان والعقيدة ، في حين أنه كان يسير هذا الموجود السالك نحو التعالي والتقدم ، شخصية مربٍ فقير ، مزود بالقوى والقابليات اللازمة للقيام بعبء مهمة خطيرة ».

« لقد استطاعت هذه المرأة بسلوكها الممتاز أن ترقى إلى درجة الأشخاص الذين يعملون لإظهار صورة من القدرة الإلهية في الروح الإنسانية بمعونة الله » (1).

في العصر الحديث ... العصر الذي يوجه أكثر الناس اهتمامهم فيه إلى الشؤون المادية ، تعتبر تنمية المواهب الروحية التي هي أساس الفضيلة ورصيد السعادة الحقيقية ذات أهمية بالغة في نظر العلماء والمحققين ، انهم ينظرون إلى مثل هذه الأمور نظرة التكريم والتقدير.

تنمية الإيمان :

يجب على الآباء والأمهات أن ينتبهوا إلى مسؤوليتهم الشرعية ، ويهتموا بتنمية بذور الإيمان والأخلاق في نفوس أطفالهم. في الوقت الذي يضمّنون لهم سلامة الجسم وقوة العقل وطلب العلم ، عليهم أن يجعلوا منهم أفراداً مؤمنين مخلصين ومستقيمين في سلوكهم ... وإن القيام بهذا الواجب المقدس لا يكون إلا في ظل استقامة الوالدين والمربي. إن تربية الطفل من المسائل الدينية والعلمية المهمة ، وعلى الوالدين أن يستوعبا واجباتهما في تربيته ويطبقاها في مقام العمل حتى يصلوا إلى المستوى اللائق الذي يجلب الخير له ولهما.

يجب أن تخضع مسموعات الطفل ومبصراته التي ترد إلى مخه عن طريق العين والأذان لرقابة مضبوطة. إن كلمة بذئية ، أو منظراً شاذاً يكفي لأن ينحرف بالطفل عن الصراط المستقيم ويلوّث أذياه إلى الأبد.

« إن تقنية تعليم الأخلاق والعقائد تختلف كثيراً عن التعليم الفكري ، ذلك إن معرفة الخير والشر ، والقدرة على تملك زمام النفس ،

ص: 9

وحب الجمال ، والإيمان بالله يختلف كثيراً عن تعلّم اللغات أو التأريخ أو الحساب. هذا التعليم التطبيقي لأصول الحياة لا يمكن أن يحصل إلا في محيط تربوي خاص. كيف يمكن أيجاد محيط كهذا؟ إن هذا الأمر عسير جداً بالنسبة إلى الانحطاط الخلقي الذي نعيشه في عصرنا».

« إن انسجام البيئة الاجتماعية مع أساسيات التعليم والتربية يستلزم في المرحلة الأولى القيام بعملية تصفية واسعة النطاق ، بحيث تعد الرقابة على الأفلام والاذاعة ، وغلق كثير من محلات الرقص وشرب الخمر ، والتغيير الجذري في عالم المطبوعات التي توضع تحت متناول الاطفال والشبان جزءاً من تلك العملية ».

« إن المعلمين والآباء والأمهات يحسنون الظن في الغالب ولكنهم - لجهلهم - يخطئون في الغالب. يجب أن يتعرف آباء المستقبل وأمّهاته من جهة ، ومعلمو الغد من جهة أخرى ، من الآن على الأسلوب التربوي الصحي للطفل. إن تربية الأغنام والدواجن أسهل من تربية الأطفال بكثير ، ومع ذلك فإن الذي يريد أن يتخصص في تربية الدواجن لا بد أن يقضي فترة من الزمن في القرية أو المعهد الزراعي ، ولا يوجد فرد عاقل يعد نفسه لهذا العمل بواسطة مطالعة المجلات أو قراءة كتاب في الحساب أو الفلسفة ... ومع هذا فإننا نرى أن هذا العمل الجنوني ترتكبه الفتيات الشابات - أي أمّهات المستقبل - وفي الحين الذي يجهلن كل شيء خارج المنهج الدراسي يقدمن على الحياة الزوجية ».

« إن البناء الجسمي والروحي للمرأة والرجل ليس متماثلاً وإن إتخاذ أسلوب تربوي واحد للأولاد والفتيات نظرية قديمة تافهة ، وهي من مخلفات الفترة غير العلمية التي سبقت تاريخ البشرية»⁽¹⁾.

لقد كان غرضنا من هذه المقدمة الموجزة أن نجلب انتباه الآباء والأمهات الى

ص: 10

1- راه ورسم زندكى ، تأليف : الكسيس كارل ص 164.

مسؤوليتهم الخطيرة في تربية الأطفال. وأملنا وطيد في ان يعمل الآباء بواجباتهم ويستمدوا العون من الله العلي القدير في القيام بتربية أطفالهم تربية صحيحة ، فيجعلوا منهم أفراداً صالحين وأعضاء نافعين للمجتمع.

نقض العهد :

إن جميع أفراد البشر من أي أمة كانوا ، وإلى أي عنصر انتموا يدركون بصورة فطرية ضرورة الوفاء بالعهد وقبح نقض العهد. كل فرد يدرك أنه إذا تعاهد مع شخص آخر فهو ملزم بأن يفي به ، فلو تخلف عنه كان قد ارتكب خطأ ، ويحس في ضميره الباطن بالخجل والندم. وكذلك إذا كان قد تعاهد معه شخص فإنه ينتظر بصورة طبيعية أن يفي له بالوعد ، فلو تخلف عن ذلك فإنه يحس بأن ذلك الشخص قد ارتكب فعلاً قبيحاً.

إن الطفل يدر بفطرته الطبيعية لزوم الوفاء بالعهد في الوقت الذي لا يدرك المائل العلمي والعقلية. وعندما يعده أبوه بأن يجلب له عند عودته إلى البيت شيئاً من وسائل اللعب فإنه يتوقع بصورة طبيعية أن يفي أبوه بوعده ويطمئن الى هذا التوقع الفطري. فما دام الأب لم يعد ، يمني نفسه باللعبة ، وعندما يسمع الجرس يرن ويدخل الأب يتقدم لتناول لعبته ، وينظر إلى يد أبيه ، فإن لم يكن الأب قد وفى بوعده يتأذى الطفل ، ويحس بأن حادثة على خلاف ما كان يتوقع قد وقعت ... إن هذا العمل يعتبر سيئاً عند بقية الأطفال أيضاً.

لقد جاء الأنبياء ورسل السماء يؤكدون طوال القرون المتמادية حسن الوفاء بالعهد وقبح نقض الميثاق ، وأخذوا يربون البشر على هذا الإدراك الفطري ، ويغرسون بذور هذه السجية الفاضلة في نفوس الناس ، فهذا العمل موافق للوجدان الأخلاقي الفطري من ناحية ، ومنسجم مع الوجدان الأخلاقي التربوي من ناحية أخرى.

الوفاء بالعهد واجب :

لقد اعتبر الوفاء بالعهد بالعهد واجباً شرعياً في الإسلام على جميع المسلمين في مختلف الأمور الفردية والاجتماعية ، وقد جاءت نصوص كثيرة تؤكد على هذا الموضوع ، واليك بعضاً منها : -

1 - قال تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) (1).

2 - وقال أيضاً : ((وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8))) (2).

3 - « عن موسى بن جعفر عن آبائه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا دين لمن لا عهد له » (3).

4 - « سمعت أبا عبد الله يقول : « عِدَّةُ الْمُؤْمِنِ أَخَاهُ نَذْرٌ لَا كَفَّارَةَ لَهُ » (4).

5 - قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليوف إذا وعد » (5).

6 - وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أقربكم مني غداً في الموقف أصدقكم في الحديث ، وأدأكم للأمان ، وأوفاكم بالعهد ، وأحسنكم خلقاً ، وأقربكم من الناس » (6).

7 - وفي الحديث : « يجب على المؤمن الوفاء بالمواعيد والصدق فيها » (7).

8 - قال علي عليه السلام : « وفاء بالذمم زينة الكرم » (8).

ولأجل أن لا يلوّث المسلم نفسه بذميمة نقض العهد عليه أن يقيس قدرته على الوفاء عندما يلتزم بشيء ، فإن وجد نفسه عاجزاً عن القيام بعبء ما ، عليه أن لا يتعهد به حتى لا يضطر الى التخلف عنه. وبهذا الصدد يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « لا تعد ما تعجز عن الوفاء. لا تضمن ما لا تقدر على الوفاء به » (9).

ص: 12

1- سورة الأسراء : 34.

2- سورة المؤمنون : 8.

3- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 16 ص 144.

4- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج 2 ص 363.

5- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج 2 ص 364.

6- تاريخ يعقوبي ج 2 ص 60.

7- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج 2 ص 85.

8- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 780.

9- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 801.

توجد في الإسلام مجموعة من القوانين والأنظمة التي تخص الأمة الإسلامية ، فالمسلمون في العالم مكلفون بها وعليهم أن يطبقوها في العلاقات التي تقوم بينهم. لقد روعيت الحدود والحقوق العادلة بالنسبة الى جميع الناس في تلك القوانين ، بحيث يأمن المجتمع بتطبيقها جميع المشاكل والمآسي الناشئة من تجاوز البعض على حقوق الآخرين. هذه القوانين يمكن تسميتها بالحقوق الإسلامية.

في قبال هذه القوانين توجد مجموعة أخرى من الأحكام لا تخص المسلمين بل انها تمتاز بكونها عامة وشاملة ، وعلى المسلمين أن يطبقوها حتى في العلاقات التي تقوم بينهم وبين بقية الأفراد الذين ينتمون الى مذاهب وأديان أخرى. هذه الطائفة من الأحكام يمكن تسميتها بالحقوق البشرية (1) ، ومن جملتها قانون لزوم الوفاء بالعهد. فالمسلمون ليسوا مكلفين باحترام العهود والمواثيق فيما بينهم فقط ، بل عليهم أن يراعوا مواثيقهم تجاه غير المسلمين من أي أمة كانوا ، عليهم أن لا يتسامحوا في ذلك قيد شعرة ولا يتماهلوا في أدائها أبداً.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « ثلاثة ليس لأحد فيهن رخصة : الوفاء لمسلم كان أو كافر ، وبر الوالدين مسلمين كانا أو كافرين ، وأداء الأمانة لمسلم كان أو كافر » (2).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال : « ثلاث لم يجعل الله عز وجل لأحد فيهن رخصة : أداء الأمانة الى البر والفاجر ، والوفاء بالعهد للبر والفاجر ، وبر الوالدين برّين كانا أو فاجرين » (3).

ص: 13

1- يصطلح على الأحكام الإسلامية التي تنظم سلوك المسلمين تجاه غيرهم في المعاملات والمنازعات التي تقوم بينهم ، باسم أحكام الذميين والمستأمنين. ولو نقلنا هذا التعبير الى المصطلح القانوني لوجدنا اصطلاح (القانون الدولي الخاص) منطبقاً على هذه المجموعة من الأحكام. وفي قبال ذلك (القانون الدولي العام) الذي ينظم علاقة الدولة الإسلامية بالدول الأخرى.

2- مجموعة ورام ج2 ص121.

3- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص162.

في العهد الذي بعث به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الى واليه على مصر - مالك الأشتر - : « وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، أو البسته منك ذمة ، فحط عهدك بالوفاء ، وارَعَ ذمتك بالأمانة » ويعلل ذلك بقوله عليه السلام : « فانه ليس من فرائض الله شيء ، الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم ، من تعظيم الوفاء بالعهود » (1).

إن الإنسان يحب نفسه وما يعود عليه بالنفع قبل كل شيء ، وبما أن الوقوف عند العهد والالتزام به قد يتصادم مع المصالح الشخصية والميلول النفسية ، فإنه يرغب في الخروج على ذلك والفرار من عبء الميثاق. وبالرغم من أن الأفراد يدركون بفطرتهم ضرورة الوفاء بالعهد ويتحدثون عن قيمة ذلك وأهميته ، لكنهم في مقام العمل إذا وجدوا منفذاً أو قدرة تذرعوها بها لنقض مواعيقهم. يقول الإمام علي عليه السلام : « الحق أوسع الأشياء في التواصف ، وأضيقها في التناصف » (2).

في عصرنا الحاضر يتحدث القادة والزعماء عن العدالة والحرية ، يملأون الآذاعات والصحف بالألفاظ الخلافة والعبارات الجذابة التي تحكي عن الحق والانصاف ... اما في مقام العمل فغالباً ما يكون النافذ هو القوة والضغط ، في حين أن الإهتمام بالحق والانصاف أقل. يستغل الزعماء الأقوياء سلطاتهم في أيام الحرب أو الأوقات الاعتيادية ويعتدون على حقوق الشعوب الضعيفة ويشبتون عملياً تخلفهم عن عهودهم التي قطعوها على أنفسهم ... أما الشعوب فلضعفها تغضي على الظلم والاضطهاد.

الوفاء بالعهد :

ان من أهم مميزات الرجال الالهيين أنهم لا يسيئون استغلال سلطاتهم ولا يتجاوزون على حقوق الآخرين مهما كانوا ضعفاء. في صدر الإسلام عندما كانت

1- نهج البلاغة ، شرح محمد عبده ج3 ص117.

2- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهانى ص 672.

تزحف جحافل المسلمين لاعلاء راية الحق والحرية ودحض اساس الشرك والالحاد ، وعندما كان الفاتحون يفتحون المدن الكبيرة واحدة بعد الاخرى كان شعارهم الوفاء بالعهود والمواثيق. كان الناس في ذلك العصر يدركون أنهم ملتزمون بهذه الخصلة الحميدة ، وكانوا مطمئنين الى عهود المسلمين تجاههم ، واثقين الى أن من المستحيل أن ينقضوا عهودهم مهما كانا يملكون قوة الخروج عليها.

إذا صدر أمان من قبل المسلمين في ساحة الحرب الى العدو ، كان الجيش الإسلامي مكلفاً برعاية ذلك الأمان والوقوف عنده. والأمر الذي يجلب الانتباه في هذا الصدد أنه لم يكن إصدار الأمان خاصاً بقائد الجيش بل إن النظام العسكري في الإسلام يعطي الأمان الى العدو تحريرياً أو شفويّاً ، وعند ذلك يجب على جميع الضباط والجنود أن يلتزموا بذلك. وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الموضوع.

1 - عن أمير المؤمنين عليه السلام : « إذا أوماً أحدٌ من المسلمين أو أشار إلى أحد من المشركين فنزل على ذلك فهو في أمان » (1).

2 - عن الإمام الصادق عليه السلام : « إذا أومى أحد من المسلمين إلى أحد من أهل الحرب فهو أمان » (2).

3 - عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم » (3).

أمان من جندي :

خرج فضيل بن زيد الرقاشي مع جنوده لمحاصرة قلعة تسمى ب- (سهرياج) في أيام عبد الله بن عامر بن كريز ، وقد سار الى فارس فافتتحها ، وكان الجيش قد صمم على أن يفتح القلعة في يوم واحد ، يقول فضيل في ذلك :

« ... كنا قد ضمّنا أن نفتحها في يومنا ، وقاتلنا أهلها ذات يوم فرجعنا الى

ص: 15

1- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص250.

2- المصدر السابق ج2 ص250.

3- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص250.

معسكرنا ، وتخلّف عبد مملوك منا ، فراطنوه ، فكتب لهم أماناً ورمى به في سهم ، قال : فرحنا الى القتال وقد خرجوا من حصنهم وقالوا : هذا أمانكم .»

لم يكن إعطاء الأمان من مسلم الى الكفار بالأمر المستبعد في نظر الجيش ، ولكنهم شكّوا في كون الأمان الصادر من العبد كالأمان الصادر من الحر...

« فكتبنا بذلك الى عمر ، فكتب إلينا : ان العبد المسلم من المسلمين ذمته كذمتكم ، فلينفذ أمانه ... فأنفذناه » (1).

إن الوفاء بالعهد واجب لا يمكن التخلف عنه في الشريعة الإسلامية المقدسة ، سواء في الحرب والسلام ، كان العهد مع مسلم أو كافر.

للوفاء بالعهد والمواثيق اثر حاسم في جميع الشؤون الداخلية والخارجية لكل دولة ، وكلما روعيت هذه الخصلة الحميدة في الدولة وجرى الناس على الالتزام بعهدهم ، ارتفع مستوى الحياة والتقدم عندهم وارتفعت مكانة الدولة بين الدول الأخرى.

الاتفاقيات الاقتصادية :

تشكل الاتفاقيات الاقتصادية والمواثيق المالية أحد الأركان المهمة للجتمع في جميع دول العالم. ففي الدولة التي يعتبر أفرادها الوفاء بالعهد واجباً من واجباتهم الدينية والاخلاقية ، ويهتمون بمراعاة ذلك اهتماماً بالغاً تجري الأمور المالية في تلك الدولة على أساس الثقة المتبادلة وتنضبط المعاملات على أساس من الصحة والدقة ، يدفع المدين دينه في الموعد المقرر ويسلم البائع البضاعة حسب ما اتفق عليه مع المشتري ... وبصورة موجزة ينال الوفاء بالعهد احتراماً تاماً لدى الجميع وتلتزم جميع الطبقات بذلك. في مثل هذه الحالة يكون التعهد الناشئ من شرف النفس وفضيلة الأخلاق أعلى من أي سند رسمي ، وأعظم من أي متاع نفيس.

سند العشرة آلاف درهم :

لقد حصل أحد موالي الإمام علي بن الحسين عليه السلام الذين أعتقهم على ثروة لا

ص: 16

بأس بها نتيجة لجهوده ونشاطه. وفي بعض الأيام أصيب الإمام عليه السلام بضائقة مالية شديدة ، فطلب من مولاه الذي أعتقه يقرضه مبلغاً قدره عشرة آلاف درهم يدفعه إليه عند الاستطاعة فطلب من الإمام سنداً أو وثيقة. مدّ الإمام يده الى طرف ردائه واستخرج هدبة (خيطاً) منه ، وقال له : خذ فهذه وثيقتي عندك الى أن أردّ إليك مالك. لقد ثقل على المقرض أن يوافق على وثيقة كهذه ولكنه للنظر الى شخصية الإمام عليه السلام سلّم إليه المال وأخذ الهدبة ووضعها في علبة صغيرة. ثم صادف أن الإمام تيسرت أموره بعد فترة قصيرة فردّ المبلغ الى صاحبه ... « ثم قال له : قد أحضرت مالك فهات وثيقتي. فقال له : جعلت فداك ضيّعتها. قال : إذا لا تأخذ مالك مني ، ليس مثلي يُستخف بدمّته.

قال : فأخرج الرجل الحُق فإذا فيه الهدبة ، فأعطاه علي بن الحسين عليه السلام الدراهم ، وأخذ الهدبة فرمى بها وانصرف (1)».

إن خيطاً من رداء لا قيمة له ، ولكن عندما يكون الخيط رمزاً لتعهد صادر من شخص شريف فان قيمته ترتفع الى أن يصبح وثيقة لدين عن عشرات الآلاف من الدراهم والدنانير ، ويتقبله الدائن بكل ثقة واطمئنان.

إن الوفاء بالعهد من صفات الله عز وجل. فالله يصرح بذلك في القرآن الكريم : (إن الله لا يخلف الميعاد) (2). والإنسان الذي لا يخلف وعده يكون متصفاً بأحدى الصفات الالهية ، وهذا هو علامة لمرتبة من مراتب الكمال والفضيلة.

المتهم البريء :

ظهر بعد واقعة صفين حزب جديد باسم الخوارج ، ضمّ رجالاً متهورين وجهلاء بحقيقة العلم والدين ، قاموا بجرائم عظيمة طوال سنين طويلة. ولقد قامت السلطات الزمنية بمكافحة هذا الحزب بصور مختلفة. وفي زمن الحجاج الثقفي اتّهم جماعة بالانتماء الى هذا الحزب فأحضروا الى مجلس الحجاج ليعاقبهم على ذلك ، فتحقق

ص: 17

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 11 ص 42.

2- سورة الرعد ص 31.

عن وضع كل منهم وعين لكل عقوبته ، وعندما وصل إلى آخر رجل منهم قام المؤذن للأذان معلناً دخول وقت الصلاة ، فقام الحجاج وسلم المتهم الى احد الحاضرين واسمه (عنيسة) وقال له : خذ معك الى البيت وأحضره لي غداً حتى أقرر عقوبته فنفذ عنيسة الأمر وخرج معه من قصر الامارة. وفي الطريق قال له المتهم : هل يرجى منك خير؟ فقال له عنيسة : حدثني بما تريد فعلي أوفق لأعمل لك خيراً. فقال المتهم : والله لست خارجياً ، لم أخرج على مسلم ، ولم أشهر سيفي على أحد ، وأنا بريء من هذه التهمة المنسوبة الي وبالرغم من أنهم قبضوا علي وأنا بريء فان أملي برحمة الله العظيم وطيد ، وأعلم أن فضله سيشملني ولا أعذب من دون ذنب ولكن أرجو ان تسمح لي بالذهاب الى اهلي هذه الليلة لأودعهم وأوصيهم بوصاياي وأؤدي حقوق الناس وسأحضر عندك غداً صباحاً. يقول عنيسة : لقد استغربت من هذا الطلب الذي توجه به المتهم فلم أجبه ، فكرر علي السؤال ، حتى أثر كلامه في نفسي ، وخطر ببالي أن أتوكل على الله وأنزل عند رغبته فصممت على ذلك وقلت له : اذهب ولكن يجب أن تعاهدني على الرجوع غداً ، فقال الرجل : عاهدتك على أن أحضر غداً صباحاً وأشهد الله على هذا العهد ، ثم ذهب حتى غاب عن عيني. ولكن ما إن رجعت الى نفسي حتى اضطربت اضطراباً شديداً وندمت على ما فعلت فقد عرّضت نفسي لغضب الحجاج من دون سبب ، ولأزمني الاضطراب حتى ذهابي الى البيت فذكرت ذلك لأهلي فلاموني ... ولكن لات حين لوم.

لم أنم تلك الليلة ، كنت أتململ كالسليم ، وأقلب كالثكلي ، وعند الصباح وفي الرجل بعهدته فتعجبت من مجيئه وقلت له : لماذا حضرت؟ قال : من آمن بالله واعتقد قدرته وعظمته وعاهد على أمر وجعل الله شهيداً على عهده فلا يخلف عهده. فأخذته الى قصر الامارة في الساعة المقررة وذكرت للحجاج ما جرى بيني وبينه الليلة السابقة ، فتعجب من ايمان الرجل ووفاء بعهدته ، ثم قال لعنيسة : أتريد أن أعفو عنه لأجلك فقال : لو تتكرم علي بذلك فلك المنة العظيمة ، فعفا الحجاج عن المتهم وأخرجه عنيسة من دار الامارة وقال له بكل لطف ولين : اذهب فانت حر.

فذهب الرجل دون أن يشكر لعنيسة جميل صنعه ويقابل إحسانه بالإحسان. فتألم عنيسة من هذه البرودة ، وهذا التكرار للحق ، وقال في نفسه : لعله مجنون.

وفي اليوم الثاني حدث ما لم يكن بالحسبان فقد حضر الرجل عند عنبسة وشكره على انقاذه من الورطة التي وقع فيها. ثم قال له : إن المنقذ الحقيقي هو الله تعالى وكنت أنت الواسطة في ذلك. فلو كنت أشكرك بالأمس على إحسانك كنت قد أشكرتك بالله في النعمة التي أنعم بها عليّ وهذا ليس بمستحسن ، فرأيت من اللازم أن أذهب لأداء واجب الشكر والحمد بين يدي الله تعالى أولاً ، ثم أحضر لتوجيه الشكر لك. ثم شكر لعنبرة جميل صنعه وإحسانه واعتذر منه كثيراً وانصرف (1).

أثر الوفاء بالعهد :

الوفاء بالعهد أحد الأركان المهمة للسعادة الإنسانية ، الوفاء بالعهد احد الفضال الخلقية العالية للإنسان ، الوفاء بالعهد قادر على أن يردع شخصاً سفاهاً مثل الحجاج عن إراقة دم شخص بريء.

الحياة على أساس الفضيلة :

في الدولة التي يلتزم الأفراد فيها بعهودهم ويقفون عندها تجري الأمور الاقتصادية والاجتماعية والعائلية على أساس صحيح ... هناك تقوم الحياة على أساس الفضيلة الانسانية ، وعلى العكس فإن المجتمع الذي يتسم بتهرب الأفراد فيه من عهودهم والإفلات عن تعدياتهم من دون شعور بالمسؤولية تجاهها تخرج الأمور عن مجراها الطبيعي وتحيط بهم المآسي والمشاكل بشتى صورها ، وعند ذاك تقوم المحاكم القضائية والسلطات التنفيذية بمراقبة تنفيذ الالتزامات ... الأخلاق والشعور بالمسؤولية تخلي مكانها لقاعات المحاكم ، وتتمثل المخالفات بصورة إضبارات مدنية وجنائية وهكذا تستنزف الطاقات الإنسانية والمالية ويضطر المتنازعون الى الرجوع الى الوسائل التنفيذية من حجز وسجن وما شاكل ذلك.

يذكر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لمالك الاشر في العهد الذي بعث به اليه أن

ص: 19

احذر نقض العهود ويقول في علة ذلك : « والخلف يوجب المقت عند الله والناس » (1).

مما لا شك فيه أن نقض العهد يحطم شخصية الإنسان. ومهما كان الشخص الناقض للعهد عظيماً في المجتمع ويمتاز باحترام الناس له وتقديرهم إياه فإنه ينحط في أعين الناس على أثر نقضه للعهد. كل فرد يدرك بصورة طبيعية أن الشخص الناقض للعهد يرتكب عملاً قبيحاً ... الفقير والغني ، الكبير والصغير ، كل الناس يرون أن لهم أن يلوموا الشخص الذي لا يلتزم بعهوده ، وهذا يدلنا على أن الإنسان يدرك ضرورة الوفاء بالعهد بفطرته ، ويرى أن التخلف عنه تخلف عن قانون الفطرة.

تنمية الوفاء بالعهد عند الطفل :

لأجل أن يحيا الوفاء بالعهد في المجتمع ، وتلتزم جميع الطبقات بهذا الواجب الإنساني ، يجب أن تبذر بذور هذه الخصلة الحميدة في نفوس الأطفال من أولى أدوار الطفولة ، ومن حين إدراكهم لمعنى (العهد). يجب أن يتلقوا هذا الدرس القيم نظرياً وعملياً حتى يستقر في نفوسهم بصورة ملكة ثابتة مستقرة. يجب أن يربى الأطفال بصورة يجدون معها الوفاء بالعهد من واجباتهم القطعية والضرورية ، فلا ينقضون عهودهم وحسب بل لا يسمحون لهذه الفكرة الفاسدة أن تمر بخواطهم ، وهذه التربية لا تحصل إلا في المحيط الطاهر والسليم الذي أعد للطفل. المحيط الذي لا يعرف نقض العهد والخداع. إن الطفل يتخذ من كل كلام يسمعه أو عمل يشاهده ، صالحاً كان أو فاسداً ، قدوة له يجري عليها في حياته ، وفي محيط الأسرة يخضع قبل كل شيء لسلوك الوالدين. ففي الأسرة التي يلتزم الآبوان فيه بعهودهما ، ولا يخلفان مواعيدهما ، ولا يخدعان الطفل ... ينشأ الأطفال على هذه الفضائل الحميدة ، ويلتزمون بعهودهم أيضاً ، أما الآبوان اللذان يرتكبان الأفعال الفاسدة فإن طفلهم يتأثر بأفعالهما وينشأ على تلك الأساليب المنحرفة.

« لأجل أن يكون الإطاعة لقوانين الحياة تامة ، يجب أن تظهر فطرية »

ص: 20

« إن الشخص الذي اعتاد منذ بداية حياته على معرفة الخير والشر ، يسهل عليه اختيار الفضيلة والاجتناب عن الرذيلة في جميع أيام عمره ، وكما يتعدى عن النار يتجنب الأقتراب من الرذائل . فنقض العهد والكذب والخيانة لا تعدّ أعمالاً قبيحة في نظره ، بل تعدّ مستحيلة عنده ولايجاد ردود الفعل هذه في الفرد يجب توفر محيط يعني فيه بالفضائل عناية بالغة. إن الإنسان يميل - كالفرد - الى التقليد بغريزته ولكنه يقلد الشر أسهل من الخير. وهكذا يقتبس الطفل سلوك الأفراد الذين يعرفهم أو يسمع تاريخ حياتهم أو يقرأه ، ولهذا فانه يتخذ من الأصدقاء والاساتذة ، الأب والأم ، وبصورة خاصة نجوم السينما ، والشخصيات الحقيقية أو الخيالية التي يقرأها في المجلات والصحف ... قدوة له في حياته. وكما يقول (فلتون) فإن الأطفال لو سلّموا في منزل تقليدهم للغير الى أفراد بعيدين عن الفضيلة ، نشأت من ذلك نقائص كبيرة في سلوكهم. إن المربي الجيد هو الذي يعتقد بما يقول ويطبقه على نفسه (1) ».

المدرسة الأولى للطفل :

تعتبر الأسرة بمثابة المدرسة الأولى للطفل وعلى الوالدين أن يهيئوا الظروف المناسبة في محيط الأسرة. ولهذا فقد جاءت الروايات الإسلامية تؤكد على المسؤولية العظمى للوالدين في تربية الأطفال ، وتسدي لهما النصائح المفيدة في هذا المجال لقد تحدّث الإسلام عن كل خصلة من الخصال الحميدة والملكات الفاضلة بصورة مستقلة ، ومن ذلك الوفاء بالعهد :

1 - عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « أحبوا الصبيان وارحموهم ، وإذا وعدتموهم فوفوا لهم ، فإنهم لا يرون إلا أنكم ترزقونهم » (2).

2 - عن كليب الصيدأوي قال : قال ابو الحسن عليه السلام : « إذا وعدتم الصبيان فوفوا

ص: 21

1- راه ورسم زندكى ص 162.

2- الوسائل للحر العاملي ج5 ص126.

لهم ، فإنهم يرون أنكم الذين ترزقونهم. إن الله عز وجل ليس يغضب لشيء كغضبه للنساء والصبيان » (1).

3 - عن علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال : قال رسول الله عليه وآله « إذا وعد أحدكم صبيه فلينجز » (2).

4 - عن علي عليه السلام ، قال : « لا يصلح الكذب جد ولا هزل ، ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا يفي له » (3).

تنمية الفطريات عند الطفل :

إن الفطريات الأولية للإنسان تشكل الثروات التي أودعها الخالق العظيم لضمان سعادة الإنسانية في نفس كل طفل وخلقته مع تلك الثروات. فإن جوبهت الفطريات عند الطفل بالتنمية الصحيحة والحماية العلمية وخرجت من عالم القوة الى حيز الفعل كانت الأساس لسعادته ، وبقيت الضمان الحقيقي لرقبه طيلة أيام حياته. وعلى العكس لو أهمل المربي قيمة الفطريات ولم يعتن بها ، بل قام بتربية الطفل طبقاً للأساليب الخاطئة فإنه يتطبع على الانحراف والفساد ويفقد ثرواته الفطرية بالتدريج ، ويكون في النهاية عضواً فاسداً في المجتمع.

ومن الفطريات عند الإنسان إدراك لزوم الوفاء بالعهد. وكما أن حب الذات ، والغريزة الجنسية ، والحاجة الى الغذاء والمأوى ... من المقومات الضرورية للحياة ، خلقها الله تعالى بصورة غرائز في طبيعة الإنسان فان الوفاء بالعهد من المقومات الضرورية لسعادة المجتمع ، وقد جعل الله تعالى إدراك حسنه وضرورته في باطن كل انسان.

الادراك الفطري للوفاء بالعهد بذرة غرسها الله تعالى في تربة قلب الطفل ، والأساليب التربوية الصحيحة التي يستخدمها الوالدان بمنزلة سقي تلك البذرة

ص: 22

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج6 ص50.

2- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج.

3- وسائل الشيعة للحر العاملي ج3 ص232.

لإنباتها. فإن لم يُخدع الطفل في العهود والمواعيد التي تمنح إياه ، فإن هذه البذرة الفطرية تضرب بجذورها في قلبه ، ويلتزم بعهوده فينشأ إنساناً وفاقاً دون أن يفكر في نقض العهد ، أما إذا كان الوالدان ينقضان عهودهما ، ويخدعان الطفل ، يعدانه ثم لا يفيان له ، أو يلتزمان أمامه لشخص آخر بشيء ثم لا ينفذان ما التزما به ، فإن الطفل ينشأ نقاضاً للعهود وخداعاً ، لا يشعر بمسؤولية تجاه وعوده. إن الوالدين الناقضين لعهودهما يلقتان الطفل بسلوكهما المنحرف درس الخروج عن العهد والتخلف عنه ، ويعلمانه أن الإنسان يستطيع أن يكذب ، أن يخدع الناس ، أن ينقض العهد.

« لاحظوا أننا عندما نعجز عن تهدأة الطفل وإسكاته بالطرق الاعتيادية والطبيعية نلجأ الى الخديعة ، نشبت بالوعود الزائفة ، ونركن الى التهديد والتوعيد. ما أكثر الأمهات اللاتي يعجزن عن إسكات أطفالهن عندما يردن الخروج من البيت فيعمدان الى أن يعدنهم بشراء بعض الفواكه أو الدمي عند العودة ، بينما يراهن الأطفال عند عودتهن الى البيت صفرات اليد. ما أكثر الأمهات اللاتي يكذبن على الطفل عندما يردن أن يناولنه دواءً مرأ فيقلن له : إنه حلو. هذه الأمثلة كثيرة الى درجة أننا نتمكن - مع الأسف - أن نملأ الصحائف الطوال عن هذا الموضوع ، كثيراً ما نعد الأطفال المساكين بوعود زائفة بحيث يمكن ذكر آلاف الأمثلة بهذا الصدد ».

« السيارة مستعدة ، والأب يريد أن يرجع من المصيف الى المدينة ، في اللحظة التي يريد الركوب يركض طفله الصغير نحوه ويرجوه أن يصحبه معه الى المدينة يصير كثيراً ، ويلح ، وبما أنه لم يعود أن يرى في (كلا) جواباً قطعياً لا يقبل النقض لا يكف عن الالاحاح ، عندما يحس الأب أن صرف الطفل عن فكرته هذه ليس بالأمر اليسير يلجأ الى الطريقة التالية ».

« يقول له : عزيزي ، لا يمكن أن أصحبك معي الى المدينة بهذه الصورة ، إذهب والبس ملابسك الأنيقة ».

« يذهب الطفل وملؤه اعتماد على أبيه لتبديل ملابسه ، ولكنه عندما يعود لا يجد

في نهاية الشارع غير الغبار المتصاعد وراء سيارة أبيه. ينظر إلى هذه الحيلة ، يستمر في مكانه ، يجزع يصيح : إنك خداع كذاب إنه يصدق فقد كذب عليه أبوه ، وإن فرصة تعوّده على الكذب حتمية « (1).

في جميع الدول الغربية والشرقية في العالم آباء وأمّهات كثيرون غافلون عن التربية الصحيحة لأطفالهم ، يلوثونهم - عن علم أو جهل - بالصفات الذميمة. فالآباء والأمّهات الذين يكذبون وينقضون عهدوهم ، ويخدعون أطفالهم ، ولا يفون بوعدوهم تجاههم يعلمونهم دروس الانحراف ، ويجرمون في حقهم وحق المجتمع الذي يقوم عليهم.

إن قلب الطفل كعدسة تصوير ، يلتقط الصور المختلفة من أفعال والديه وأقوالهما ، وتعتبر مشاهداته ومسموعاته في دور الطفولة منهاجاً لحياته المقبلة ، وهكذا يجب أن نهتم بالتعاليم الصالحة وغير الصالحة التي يتلقاها الطفل من والديه او معلّميه ، فقد يآثر الطفل بمشاهدة عمل ما أو سماع كلام ما إلى درجة أنها تبعث أعماق الجذور في نفسه ، ولا تزول آثار ذلك مدى الحياة ، وربما أدت إلى قلب مجرى الحياة بصورة تامة.

التهم الباطلة :

يركن بعض الزعماء في نشاطاتهم السياسية ، وفي الحرب الباردة التي يشنونها ضد رقبائهم إلى أسلوب الدجل والافتراء وإصاق التهم الباطلة بمعارضيههم. ومما يؤسف له أن هذا الأسلوب المنحرف كان موجوداً في العصور السابقة وعصرنا هذا ، وقد وقعت فيه الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، قليلاً أو كثيراً.

لقد أقدم على هذا الأسلوب المنحرف معاوية بن أبي سفيان ، بغية الحفاظ على كرسي الخلافة الإسلامية لبضعة أيام ، ولغرض الوصول إلى الامارة على الناس ... فأخذ يلصق التهم الباطلة بالمثل الأعلى للإيمان والإنسانية علي بن أبي طالب عليه السلام .

ص: 24

لقد سحق معاوية الأصول الإنسانية والإسلامية ، واتهم علياً بترك الفرائض والانحراف عن الطريق المستقيم ، وصرف في سبيل ذلك قسطاً عظيماً من بيت مال المسلمين. أمر جميع الموظفين والعسكريين أن يشتموا علياً في خطبهم بعد حمد الله والثناء على نبيه ... الخطباء على منابرهم ، والمعلمون في مدارسهم ، وأكثر الناس في أنديتهم ومجالسهم أخذوا يعتبرون سب علي من واجباتهم اليومية ، وكانت هذه الخطة المشؤومة قدوة لجميع الرعية.

كان في أرجاء الدولة رجال شرفاء ومؤمنون يعرفون علياً حق المعرفة وكانوا على علم واسع بمكائد معاوية وأساليبه في الدعاية ، ولكنهم كانوا يفضلون السكوت خوفاً على أرواحهم من أن تزهق ، وعلى دماءهم أن تراق. وإذا صادف أن صرح بعضهم بما يحمله من شعور تجاه ذلك الإمام العظيم في بعض الظروف والمناسبات ، فقد كان يلاقي مصيره الأسود على يد معاوية أو جلاوزته! (1).

هذه البدعة الخائنة كانت قد بعثت بجذورها في قلوب مختلف الطبقات إلى درجة أنها ظلت عالقة بأذيال الناس حتى بعد موت معاوية بسنوات طوال ، فقد كان سب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام متمثلاً بصورة واجب ديني عندهم.

وعندما تولى عمر بن عبد العزيز زمام الأمر ، وجلس على كرسي الخلافة ، قام بكل عزم وقوة لاقتلاع جذور هذه الوصمة التاريخية الكبيرة فبدأ - بأسلوب حكيم - يجلب شعور وزرائه وقواده الكبار الى جانبه وتحمل في سبيل ذلك صعوبة بالغة ، ثم أمر جميع ولايته على الأمثار بأن يقاوموا كل حركة تحاول أن تذكر الإمام علياً عليه السلام بسوء ، وحثهم على معاقبة من يخالف هذا الأمر ... وتوفق بعد جهد طويل الى استئصال جذور هذه الوصمة من أذيال المجتمع الإسلامي : وبهذا استطاع من أن يكسب شعبية منقطعة النظير ، واستمرت الندوات والمجالس تذكره بخير وتمجد فعلته تلك.

ص: 25

1- في التاريخ شواهد ناصعة على الصراحة التي اتبعها ثلة من المؤمنين بحقيقة الإسلام بالنسبة إلى تنفيذ التهم الباطلة التي كان يلصقها أعداؤه إلى أعظم قائد من قادة المسلمين ، وأول إمام من أئمتهم ... إن فات المؤرخين حصرها فلم يفتهم تدوين طرف من أخبار تلك الثلة الخيرة أمثال : ميثم التمار وحجر بن عدي الكندي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، ورشيد الهجري وغيرهم.

هذا الكفاح المقدس الذي غير وجه الأمة الإسلامية ، وحول مجرى السياسة العامة للدولة آنذاك ، كان مستنداً إلى عزم الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهو نفسه يعزو السبب في ذلك الى أيام طفولته ، وإلى كلمة سمعها من أستاذه. والآن إليكم القضية كما يحكيها لنا بنفسه :

« كنت أطلب العلم في المدينة وكنت ملازماً لخدمة عبيد الله بن عبد الله ابن عقبة بن مسعود ، فبلغه أنني أسبّ علياً عليه السلام كسائر الأمويين. فأتيته يوماً وهو يصلي ، فأطال الصلاة. فقعدت انتظر فراغه فلما فرغ من صلاته إلتفت إلي. فقال لي :

- متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضي عنهم؟!

قلت : لم اسمع ذلك.

قال : فما الذي بلغني عنك في علي؟!

فقلت : معذرة إلى الله وإليك ...

وتركت ما كنت عليه « (1).

الحوار الذي جرى بين الاستاذ والتلميذ في المدينة كان قصيراً جداً ، ولم يكن أحد منهما يتصور أن هذه الجمل ستكون منشأ لانقلاب عظيم في الأمة الاسلامية.

ولكن كلام الأستاذ في ذلك اليوم أثر في قلب الطفل تأثيراً بالغاً ... ومرت الأعوام وإذا بالطفل يشب ويصبح في عداد الرجال البارزين في المجتمع. ثم تقع الحوادث المفاجئة وتحدث تحولات عظيمة في الدولة ، ويجلس طفل الأمس على كرسي الخلافة ويأخذ بزمام الملايين من الناس!

كان كلام المعلم بمنزلة البذرة التي بُذرت في قلب الطفل آنذاك ، ثم جاءت عوامل الرئاسة والسلطة فعملت على تنمية تلك البذرة ، وأخيراً فإظهرت بصورة حقل كبير للسعادة ، واستفاد ملايين الناس من ذلك وتخلصوا من البدعة الجائرة المتمثلة في سب علي بن أبي طالب عليه السلام .

ص: 26

يستفاد من هذه القضية وقضايا مماثلة لها أن الواردات الفكرية للأطفال تمثل المنهاج العام لحياتهم الاجتماعية ، وإن الخواطر الصالحة أو الفاسدة التي تستقر في ذهن الطفل لا تمحى ، بل تظهر آثارها الخيرة او الشريرة في دور الشباب.

يجب على الآباء والأمهات أن يتنبهوا الى المسؤولية الخطيرة الملقاة على عواتقهم ويحذروا من الكلام أو السلوك البذيء أمام الأطفال ، ويربوا أفلاد اكبادهم منذ البداية على الطهارة والصدق ، ويؤدوا واجبهم الديني المقدس من هذا الطريق.

يجب على المعلمين والمدرسين أن يلتفتوا في الصف إلى ما يقولون ويفعلون ، وعليهم أن يحذروا من كل ما يشين ، فكما أن الكلمة الفاضلة والمناسبة التي صدرت من معلم لائق استطاعت أن تؤثر في نفس عمر بن عبد العزيز عندما كان طفلاً ، وظهرت ثمار ذلك بعد عدة أعوام في انقاذ ملايين الناس مما كان أصابهم من انحراف ... كذلك الكلمة الشريرة تستطيع أن توجد انحرافاً في فكر الطفل وتؤدي إلى مأس عظيمة لا تجبر ، له وللمجتمع الذي يعيش فيه.

قال الله تعالى في كتابه العظيم : (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) (1).

الصدق :

الصدق من الصفات الحميدة التي تنسجم والطبيعة الإنسانية. كل انسان يميل بفطرته إلى الصدق ، وإلى أن يعتبر الكلام الذي يسمعه من الآخرين صادقاً ، فالكذب إنحراف عن صراط الفطرة المستقيم.

إذا كسر طفل نافذة في أثناء اللعب ولم يصبه خوف شديد وارتابك زائد من جراء ذلك ، فعندما يسأل : من الذي كسر النافذة؟! فإنه سيشرح الحادثة بكل هدوء واتزان ، ويجب على الأسئلة دون أي اضطراب ذكراً كيف كسرت النافذة في أثناء اللعب. أما عندما يخاف الطفل فإنه يحاول أن يستعين لإثبات براءته بالكذب ، حينئذ يكون الوضع الشاذ للطفل واضحاً تماماً ، فالحركات غير المتزنة للعين ، واضطراب الهندام ، وجفاف الفم ، وسرعة النبض ، والكلمات المتقطعة والغامضة ... كل ذلك يدل على كذب الطفل وعمله المنافي للفطرة.

لقد جاء الأنبياء ، والقسم الأهم من واجباتهم يتمثل في إحياء الفطريات عند الإنسان ، يدعون الناس الى الصدق ، ويحذرونهم من الكذب بشدة. إن الإسلام يعتبر الكذب عاملاً هداماً للإيمان ، ويعده أفظع من كثير من المعاصي الكبيرة.

ص: 28

1 - عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : « إن الكذب هو خراب الإيمان » (1).

2 - قال أمير المؤمنين عليه السلام : « لا يجد عبدٌ طعم الإيمان حتى يترك الكذب هزله وجده » (2).

3 - وعن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) : « قال رجلٌ له صلى الله عليه وآله : المؤمن يزني؟ قال : قد يكون ذلك. قال : المؤمن يسرق؟ قال : قد يكون ذلك. قال : يا رسول الله ، المؤمن يكذب؟ قال : لا ، قال الله تعالى : (إِنَّمَا يَقْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (3).

4 - وعن الإمام الرضا عليه السلام : « سئل رسول الله : يكون المؤمن جباناً؟ قال : نعم. قيل : ويكون بخيلاً؟ قال : نعم ، قيل : ويكون كذاباً؟ قال : لا » (4).

أسوأ من كل سوء :

5 - عن الإمام الصادق عليه السلام : « قال أمير المؤمنين : ولا سوء أسوأ من الكذب » (5) يفهم من هذا أنه مهما اشتد قبح الشيء فلا يبلغ قبح الكذب.

مما لا شك فيه أن الكذب مخالف للوجدان الأخلاقي الفطري ، وكذلك مخالف للوجدان الأخلاقي التربوي. فالكذب قبيح في نظر جميع الشعوب والأمم في العالم ، وفي تعاليم رسل السماء كافة.

ومما يبعث على الأسف أن هذا الداء الويل لا يختص بالكبار ، بل إن الأطفال الصغار يقعون في أسر هذا المرض الهدام أيضاً ، فيعتادون على الكذب من الصغر ، وقد يستأنسون بهذه الصفة الذميمة الى درجة أنهم يتلذذون باختلاق كذبة ، ويرتاحون كثيراً عندما يرون أن الغير قد خُذع بأكاذيبهم.

ص: 29

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص339.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص340.

3- سفينة البحار للقمي ص 473. مادة (كذب).

4- وسائل الشيعة للحر العاملي ج3 ص232.

5- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص100.

إن الكذب يقرب الإنسان الى سائر الذنوب فيقدم الكذاب على المعاصي الأخر ، وعندما يُسأل منه فإنه يكذب ذلك بكل وقاحة ويظهر نفسه بمظهر البريء ولكنه في الواقع جعل الكذب والخديعة ملجأ لفراره من الجرائم. « عن أبي محمد العسكري عليه السلام قال : حُطت الخبائث في بيت ، وجُعِل مفتاحه الكذب » (1) :

« الكذب احد النقائص التي لا يخفى قبحها ، فإن الكذب هو الذي يجر وراءه سلسلة من الرذائل الأخر ويفتح باباً على الجرائم الباقية. إن عجزنا عن الوقاية من انتشار هذه الصفة ، وضعفنا عن مقاومتها جريمة لا تغتفر » (2).

شرب الخمر والكذب :

إن شرب الخمر عامل كبير في ارتكاب الجرائم. ما اكثر الناس الذين لا يرتكبون بعض الذنوب في الحالات الاعتيادية ، ولكنهم يفقدون عقولهم في حالة السكر فلا يتورعون عن القيام بأي جريمة خطيرة وأي عمل مناف للعبة (3).

ص: 30

1- المصدر السابق.

2- ما وفرزندان ما ص 59.

3- (3) أحطت - وأنا أعدّ هذه المسودات للمطبعة - بحادثة أليمة رأيت من المناسب ذكرها هنا : توفي أحد الاشراف في النجف الأشرف عن زوجة وولد وبنت ، وكانت الزوجة ثرية قد ورثت مالا عظيما من أبيها ، وبعد عدة سنين توفي ولدها الشاب وهو في مقتبل دراسته الجامعية ، وبقيت الأم المسكينة تندب حظها العاثر ، وخصت ابنتها الوحيدة بكل حبها وحنانها حتى أنها تنازلت عن جميع أملاكها لها . بلغت الفتاة مبلغ الزواج فتقدم لخطبتها الكثيرون ، وأخيراً تم الزواج بينه وبين شاب مدمن على الخمر. وتقرر أن يسافر العروسان إلى البصرة لقضاء شهر العسل هناك. وفي البصرة استأجرا غرفة في فندق فخم ، وجلسا يتسامران ، وقام الزوج ليتناول الخمر كعادته وقدم شيئاً من ذلك لزوجته التي لم تكن قد ذاق طعم الخمر ، فتغيّر حالها واحسّت بحاجة الى القذف ... خرجت إلى المرافق الصحية وهي بكامل زينتها لتقذف ، اظلمت الدنيا في عينها فلم تعد تحس بشيء ، حاولت أن تعود الى الغرفة ، والزوج الغرّ جالس في مكانه ، وفتحت - وهي فاقدة الوعي - باب غرفة فدخلت والقت بنفسها في حضن شاب كان قد استأجر غرفة مجاورة لغرفتهم ... وجد هذا الشاب في العروس لقمة سائغة فنال منها وطره ... ولم تستيقظ إلا عند الصباح حيث الشرف المهدور ونظرات الاتهام والريبة من الزوج وتكره لها ... وعادت الى أمها تندب حظها العاثر وشبابها الزائل وكرامتها المهدورة.

إن أثر الظلمة التي يوجدها الكذب في عقل الإنسان وروحه أشد بكثير من أثر الظلمة التي يوجدها شرب الخمر! فالشخص المعتاد على الكذب أشد استهتاراً من شارب الخمر ولا يتورع من أي جريمة. فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال : « إن الله عز وجل جعل للشرا ألقافاً وجعل مفاتيح تلك الألقاف الشراب ، والكذب شر من الشراب » (1).

وكما أن الكذب يلوث الإنسان بكثير من الذنوب ، فإن التوبة الحقيقية عنه تعصم الإنسان عن كثير من الذنوب أيضاً.

« أتى رسول الله صلى الله عليه وآله رجلٌ ، فقال : إني رجل لا أصلي وأنا أزني واكذب ، فمن أي شيء أتوب؟! قال من الكذب فاستقبله فعهد أن لا يكذب فلما أنصرف وأراد الزنا فقال في نفسه : إن قال لي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : هل زنت بعدما عاهدت؟ فإن قلت : لا ، كذبت. وإن قلت : نعم ، يضربني الحد » (2).

وفي حديث آخر نجد ترك الكذب داعياً إلى ترك بقية المعاصي. « قال رجل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا رسول الله دلني على عمل أتقرب به إلى الله تعالى فقال : لا تكذب. فكان ذلك سبباً لاجتنابه كل معصية لله لأنه لم يقصد وجهاً من وجوه المعاصي إلا وجد فيه كذباً ، أو ما يدعو إلى الكذب ، فزال عنه ذلك من وجوه المعاصي » (3).

تنمية الصدق في الحديث :

إن من أهم واجبات الوالدين في تربية الطفل هو تنمية فطرة الصدق المودعة عنده. على الوالدين أن يسلكا في محيط الأسرة سلوكاً يجعل الأطفال يعتادون على

ص: 31

1- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص232.

2- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج2 ص101.

3- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج2 ص100.

الصدق والإستقامة ، ولا ينحرفون الى طريق الكذب والتزوير والدجل ، وهذا الأمر أصعب من تنمية كثير من الصفات في الأطفال ، وللوصول الى هذه الغاية لا بد من اتباع كثير من الرقابات العلمية والعملية!

« يبدو لي أن الوالدين لا يملكان تلك السلطة التي يملكانها في مكافحة الكسل والخروج على النظام بالنسبة الى الكذب والخلاصة أن من بين العيوب التي نسعى الى اقتلاعها من كيان الأطفال يمتاز الكذب بأنه اكثرها إغضباً وإزعاجاً لنا ، والسبب في ذلك يعود الى أن من الصعب أن يتصور الإنسان تصوراً صحيحاً وواقعياً عن الكذب والكاذب ».

« يجب أن لا- نعتبر الكذب للأطفال عملاً بسيطاً ، لانه في الحالات الاعتيادية وعند الأطفال السالمين - على الأقل - يجب أن ينعدم الكذب. إن فشلنا وعجزنا وخطأنا في مكافحة الكذب ينشأ من أننا نحكم على هذا العمل من زاوية نفسه ، دون أن ننظر الى علة الكذب والغاية منه ، ونوعه ، وحالة الكذاب ، وأوضاعه » (1).

أساس داء الكذب :

ان أول طريق لمكافحة الكذب هو معرفة أساس هذا الداء الويل. مما لا شك فيه أن حالة نفسية خاصة توجد في باطن الشخص الذي يكذب مما يدفعه إلى هذا العمل ، وما لم تقتلع جذور هذه الحالة النفسية العارضة لا يمكن معالجة الكذب.

الخوف ، الضعف ، العجز ، الإحساس بالحقارة ، عقد الحقارة ، أو بعض الحالات النفسية المشابهة لذلك ، تستطيع أن تنحرف بالإنسان عن الطريق المستقيم المتمثل في الصدق ، وتبعثه على الكذب. « عن النبي صلى الله عليه وآله : لا يكذب الكاذب إلا من مهانة نفسه » (2).

ص: 32

1- ما وفرزندان ما ص 59.

2- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص100.

الكذب أحد أنواع الظلم ، والظلم من الناحية النفسية معلول لضعف الظالم. إن الشخص الذي يهرق الدماء البرينة ، والذي يظلم الناس بسببهم وشتيمهم ، والذي يتجاوز على أموال الناس ، وبصورة موجزة كل من يمد يداً للجور والظلم فلا شك في أن ذلك للنقص الذي في باطنه والضعف الذي يحس به. يقول الإمام السجاد عليه السلام في بعض أدعيته : « وقد علمتُ أنه ليس في حكمك ظلم ولا في نعمتك عجلة ، وإنما يعجل من يخاف الفوت ، وإنما يحتاج الى الظلم الضعيف. وقد تعاليت يا إلهي عن ذلك علواً كبيراً » (1).

الحقارة والكذب :

إن المدين العاجز عن وفاء مبلغ الدين يجلس في البيت ويقول لولده - كذباً - أن يقول للدائن : إن أبي ليس في البيت. والجاهل الذي يحس بالحقارة في مجلس العلماء ويجد نفسه عاجزاً عن الدخول في البحث والمناقشة يدّعي كذباً أن حالته الصحية لا تساعد على ذلك. والموظف الذي تغيب عن واجبه بلا عذر مشروع يلتجئ إلى الكذب خوفاً من العقوبة أو الغرامة فيدّعي أن أخاه قد مات وكان مشغولاً بتجهيزه ... والخلاصة أن الكذابين يلجأون الى الكذب بسبب الحقارة والعجز اللذين يحسون بهما ليدرأوا التهم عن أنفسهم.

لقد عظم أمر المسلمين في المدينة ، وبلغ المؤمنون غاية عزهم ومجدهم ... كانت الفتوحات المتتالية تعود لصالحهم يوماً بعد يوم. أما غير المؤمنين فقد كان ينظر إليهم بنظر الاحتقار في المجتمع ، وهذا ما أدى إلى إضعاف روحياتهم ، فأخذوا يحسون بالحقارة والضعفة من جهة ، ومن جهة أخرى كانوا يمتنعون عن الإيمان. فاضطروا إلى أن يظهروا خلاف ما يبطنون ، ويتظاهروا بالإيمان حتى يجبروا حقارتهم بذلك. وجاء القرآن الكريم كاشفاً عن سرائرهم وفاضحاً نواياهم حيث قال : «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ

يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً» (1).

الكذب عبارة عن رد فعل لعقدة الحقد أو الخوف أو الحالات النفسية الاخر. وبعبارة أخرى فان هذه العقد النفسية والإنهيارات الداخلية للناس هي التي تظهر بمظهر الكذب في الصور المختلفة.

كلما كانت عقدة الحقد في حياة الفرد أو الاسرة أو الأمة أشد كان رواج الكذب فيهم أكثر. إن من يصاب بالفشل في القضايا السياسية أو الاقتصادية وتنحط منزلته في أنظار الناس يكون الدافع إليه نحو الكذب أقوى ، والاسرة التي تسوء سمعتها لانحراف خلقي أو لسبب آخر فتصبح مبعوضة في نظر المجتمع ويحس أفرادها بالحقارة والضعة في نفوسهم تلجأ الى الكذب لتدارك النقائص التي أصابها. وفي الدول التي تنعدم فيها العدالة والحرية ويديرها الحكام بنظام استبدادي مطلق ، ويتملك الناس فيها خوف ورعب شديدان تروج سوق الكذب ، وكذلك الأمم التي خضعت لسنين طوال الى الظلم والاضطهاد ولم تذق طعم الاستقلال يكون تلوثها بالكذب أكثر ... وبصورة موجزة فان الكذابين لا يكذبون الا للحقارة التي يحسون بها ، كما صرح بذلك الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حين قال : « لا يكذب الكاذب إلا من مهانة نفسه ».

داء الكذب :

الكذب مرض خطير يمكن أن يصيب الإنسان من أولى أدوار حياته ويظل مصاباً به حتى نهاية العمر. ومما يؤسف له أن بعض الأسر تنظر إلى هذا الداء الخطير نظرة عارية من أي اهتمام. إذا أصيب الطفل بحمى في ليلة من الليالي أو أخذ يعطس أكثر من المعتاد يتألمون لذلك كثيراً ، ولكنهم لا يعيرون أي اهتمام لكذبة الطفل. وهناك أناس آخرون يعرفون - إن قليلاً أو كثيراً - خطورة الكذب ويتألمون إذا وجدوا الطفل يكذب ولكنهم يجهلون طريق معالجة ذلك وتكون النتيجة أن يلوث الكذب أغلب الأسر ، ويظل الجميع يئنون من ويلات هذا الداء الفتاك :

ص: 34

لأجل أن يهتم أولياء الأطفال في سبيل تربيتهم بهذا الموضوع الحساس ويعودوا أفلاذ أكبادهم على الصدق والاستقامة نتكلم في هذه المحاضرة عن عوامل ظهور هذا الداء في الأطفال راجين أن تكون مفيدة للجميع.

أساليب وقائية :

1 - « عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : رحم الله من أعان ولده على بره.

قال : قلت : كيف يعينه على بره؟

قال : « يقبل ميسورة. ويتجاوز عن معسورة ، ولا يرهقه. ولا يخرق به » (1).

إن من علل كذب الأطفال ، ثقل عبء الواجبات التي يكلفون بأداءها ، إن تشديد الأولياء وتوقعاتهم الشاذة التي هي فوق طاقة الأطفال يقودهم إلى الكذب

ويوقف فيهم هذه الصفة الرذيلة.

« يقول ديموند بيچ : أعرف فتاة شابة تأصل الكذب في نفسها بحيث لا يقبل العلاج. إنها عندما كانت في السن السابعة كانت تذهب كل يوم الى المدرسة وكان عدد الطالبات التي يدرسن معها لا يتجاوز الـ 25. كان لها مربية تأخذها الى المدرسة كل يوم ، وتأتي بعدها انتهاء الدرس لأخذها الى البيت. كانت هذه المربية مكلفة بمراقبة الطفلة في واجباتها ودراستها ، وبصورة موجزة كانت مسؤولة عن تربيتها بصورة تامة. في تلك العصور كان الأسلوب المتداول - الذي تعده التربية الحديثة فاشلاً تماماً - يقضي بأن يصنّف الطلاب كل يوم على حسب الدرجات التي حصلوا عليها في الامتحانات التحريرية ، وهكذا كان يعين الطالب الأول والثاني والثالث. كان الطفلة بمجرد أن تخرج من الصف حاملة حقيبتها بيدها تقابل

ص: 35

بالسؤال الرتيب للمربية التي كانت تقول : (ما هي مرتبتك في الصف)؟ فإن قالت : (الأولى) أو (الثانية) كان الأمر يجري على ما يرام. ولكن صادف مرة أن كانت مرتبتها الثالثة لثلاث مرات على التوالي ، وبالرغم من أن الحصول على المرتبة الثالثة بين 25 طالبة أمر مستحسن ، فإن المربية لم تكن تفهم ذلك. لقد حاولت أن تهدىء على نفسها في المرة الأولى والثانية ، ولكنها في المرة الثالثة لم تستطع أن تتمالك على نفسها ، ففي الوقت الذي كانت الطفلة قد تملكته الحيرة والذهول صاحت بوجهها : ألا ينتهي حصولك على المرتبة الثالثة؟ يجب أن تكوني الأولى غداً هل تسمعين؟ الأولى ... يجب أن تصبحي الأولى!

لقد أشغل هذا الأمر الصعب والجاد بال الطفلة طوال اليوم ، وفي اليوم الثاني كانت فريسة العب والتفكير ، بذلت كل عنايتها ودقتها في أداء واجباتها ، كانت العمليات الحسابية التي أجرتها صحيحة ، وأجابت على الأسئلة بنجاح ، وكانت نتائجها مرضية الى قبيل الظهر عندما حان درس الاملاء ، فقد وقعت لها أربع خطأت في امتحان الاملاء ، وأخيراً حازت على المرتبة الثالثة في ذلك اليوم أيضاً ... وكانت هذه هي الطامة الكبرى.

عندما رنّ جرس الدرس الأخير كانت المربية واقفة بباب الصف منتظرة الطفلة ، وما أن وقعت عينها عليها حتى صاحت : ما الخبر؟

كانت الطفلة مذهولة لا تستطيع بيان الحقيقة ، فقالت : (صرت الأولى). وهكذا بدأت تكذب.

كثيرون هم الآباء والأمهات الذين يسلكون مثل هذا السلوك ، وبهذه الصورة يتحملون مسؤولية انحراف الأطفال وإصابتهم بداء الكذب «
(1).

ص: 36

من تعاليم الإسلام الاعتدال في العبادة. إن علماء الحديث يوردون في هذا الصدد روايات كثيرة نذكر هنا بعضها :

1 - « عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق ، ولا تكرهوا عبادة الله الى عباد الله » (1).

2 - وعن الإمام الصادق عليه السلام : « لا تكرهوا إلى أنفسكم العبادة » (2).

3 - عن الإمام الصادق أيضاً : « اجتهدت في العبادة وأنا شاب فقال لي أبي : يا بني دون ما أراك تصنع ، فإن الله إذا أحب عبداً رضي عنه باليسير » (3).

4 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا علي ، هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك » (4).

5 - عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « إن للقلوب إقبالاً وإدباراً. فإذا أقبلت فاحملوها على النوافل ، وإذا أدبرت فاقصروا بها على الفرائض » (5).

يظن بعض الآباء والأمهات الجاهلاء أن عليهم في سبيل تربية أطفالهم تربية دينية أن يحملوهم فوق طاقتهم ، ويكلفوهم بأداء النوافل ، ويوصوهمم باحياء الليل وقراءة القرآن والأدعية الماثورة ، ويتصورون أنهم يحسنون صنعاً بذلك. يقولون له : لا تنس قراءة جزء من القرآن بعد صلاة الصبح! لا تترك دعاء كميل في ليالي الجمعة! اقرأ الذكر الفلاني ألف مرة يومياً... وامثال ذلك. إن هؤلاء غافلون عن أن هذه التكاليف الشديدة ليست مرغوباً فيها في الإسلام فقط ، بل انهم بعملهم هذا يجعلون الولد ينظر الى الدين نظرة ملؤها التشاؤم ، ويؤججون نار البعد عن الإسلام في قلبه ... هذا مضافاً إلى أن الولد سيقع في مأزق حرج ، فإن الإتيان بجميع تلك النوافل والعبادات المستحبة بصورة مستمرة مما لا يتحمل عادة ، ومن جهة أخرى

ص: 37

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2ص86.

2- المصدر السابق ج2ص86.

3- المصدر السابق ج2ص87.

4- المصدر السابق ج2ص87.

5- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 251.

فإنه يخاف من استياء والديه ويحذر من إزعاجهما ، ولذلك فإنه يلجأ الى الكذب ، فبينما ينام الليل الى الصباح يحاول إرضاء والديه فيدعي كذباً أنه أحيي الليلة حتى الصباح ، وصلى كذا ركعات ، وقرأ كذا من القرآن ... الخ.

لو كان الوالدان يعملان بنصيحة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول : « يقبل ميسوره ، ويتجاوز من معسوره » ولم يكونا يحمّلان الولد فوق طاقته من العبادات لم ينشأ على الكذب والشاؤم نحو الدين.

يجب على الآباء والامها - بالإضافة إلى العناية بالنواحي العلمية والدينية - أن يقيسوا القابليات الوسطى للأطفال ، ولا يحملوهم فوق ما يطيقون ، لأن الطفل يخاف من إغضاب والديه ، ويحاول أن لا يعرفه المربي بالكسل وعدم الكفاءة. وعندما يعجز عن أداء العمل الذي يفوق طاقته ومقدرته يلجأ في سبيل الحفاظ على شخصيته الى الكذب ، ويتكرر هذه الحالات ينشأ كذاباً. نستنتج مما تقدم أن أحد العوامل المؤثرة في تعود الطفل على الكذب هو تكليفه بالأعمال التي تفوق مقدرته وإجباره على أداء ما لا يطيق.

تحقير الطفل :

2 - والعامل الآخر من العوامل النفسية التي تؤدي إلى تعود الطفل على الكذب إحساسه بالإهانة والتحقير. يجب على الآباء والأمهات حسب التعاليم الدينية والعلمية أن يحترموا شخصية الأطفال ، وهذا الموضوع أحد المسائل المهمة في البحوث التربوية. إن الأطفال الذين يهملون من قبل أفراد الأسرة ولا- يحترمون من قبل الناس ، يسخرون بهم أو يخذعونهم تارة ، ويؤنبونهم بلا مبرر تارة أخرى ، وبصورة موجزة يسلك معهم بحيث يحس الأطفال بالحقارة ، ويدركون بان أفراد الأسرة يحتقرونهم ولا يحسبون لهم حساباً ... هؤلاء يفكرون في الثأر لكرامتهم ، ولذلك تظهر فيهم صفات ذميمة بالتدريج فيقدمون على أعمال مضرّة.

« توجد الانحرافات المكتسبة عقيب الإخفاقات ، والخدع والأحقاد وفي الغالب عقيب الضربات العاطفية التي تخدر الطفل ، هذا كله دون أن يقف الطفل على حقيقة ما وقع. وأحياناً يكتسب الطفل

سلوكاً جديداً وطبعاً ثانوياً ، قد يقضي على الطبع الأولى له.

« يتحول قلب الطفل على اثر الصدمات التي تؤلمه الى قلب مريض ومنكسر. إن الشخص المنحرف يزي نفسه قبل أي شخص صغيراً وحقيقاً ، علم بذلك أم لم يعلم. وهكذا يكتسب الطفل أو المراهق الذي يتأثر لاحساسه بالحقارة عادات غريبة وسلوكاً جديداً ... يمكن اعتبارها ردود الفعل لتلك الحالة النفسية » (1).

رد الفعل للحقارة :

إن الطفل الذي يقع موقع السخرية والاحتقار وتهتضم شخصيته ، يسعى لإظهار نفسه بأي طريقة كانت ، أن يعمل عملاً يلفت انظار اعضاء الأسرة - والآخرين أحياناً - إلى نفسه ، أن يدخلوه في حسابهم ، ويعترفوا بشخصيته ... وهكذا يستغل الفرص المختلفة للوصول الى هدفه.

عندما يكون الوالدان مشغولين باكرام بعض الضيوف المحترمين ، ويصرفان كل اهتمامهما الى العناية بهم غافلين عن الطفل ... يقدم الطفل على الأعمال غير الاعتيادية ، يطرق الباب بقوة ، يقلب إناء الفواكه ، ويبعث الفواكه على الأرض ، يصيح بأعلى صوته ، يضرب أمه ، وبصورة موجزة يقوم بأعمال تجلب انتباه الوالدين والضيوف إليه. إن الطفل لا يقصد من هذه الأعمال غير جلب انتباه الآخرين ، انه يحتاج الى اظهار نفسه وابرار شخصيته ، يريد أن يقول : أنا أيضاً موجود ، انتبهوا لي ، إحسبوا لي حساباً.

الطفل يريد أن ينفذ الى قلوب الآخرين. وعندما لا يستجيب الوالدان لمتطلباته الطبيعية المتمثلة في احترام شخصيته ، يسلك طريقاً معوجاً ، وينفذ الى قلوب الآخرين بالفوضى والشغب والايذاء.

من الأعمال الخطيرة التي يقدم عليها أمثال هؤلاء الأطفال : الكذب. الطفل الذي لم يلاق احتراماً في الأسرة ولم يُعتن بشخصيته ، الطفل الذي يُهمل ويُحتقر ويعيش حياة ملؤها الحرمان والإخفاق ، تكون لذته العظمى إظهار شخصيته وجلب

ص: 39

انتباه الآخرين. إنه لا يستطيع أن يجلب إهتمام الناس نحوه بالصدق وبيان الحقائق ، فيضطر إلى الكذب ، واختلاق قضايا مدهشة ، وكذبات تحير الأذهان لعدة دقائق ، وتبعث القلق والحيرة في أعضاء الأسرة ... يتصنع الاضطراب والذهول فيصيح : إتهمت النيران دار عمي! سقطت أختي في الساحة القريبة من بيتنا تحت عجلات السيارة!

عندما يركض أعضاء الأسرة - رجالاً ونساءً - نحو الحادث وقد علاهم الإرتباك والإضطراب ، ينتعش الطفل الكذاب ، يتلذذ لأن كلامه أوجد هذا الاضطراب ، والإهتمام ... إنه يفرح لأنه خدع أعضاء الأسرة وشفى قلبه مما كان يلاقيه منهم من احتقار وسخرية.

إن السلوك السيء للوالدين هو الذي يدعو الطفل إلى الكذب ، وإن الأعمال التافهة لهما هي التي تؤدي إلى هذا الانحراف.

يجب على الآباء والامهات الذين يرغبون في تربية أطفالهم على الإستقامة وتدريبهم على الصدق في الحديث أن يحترموا شخصيتهم منذ البداية بصورة معقولة ، ويحذروا من احتقارهم الذي يؤدي إلى إنحرافهم. عليهم أن يتذكروا نصيحة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله : « ولا يرهقه ولا يخرق به ».

إن الأطفال الذين يحسون بالحقارة والصغار على أثر اهمال الآباء لهم قد يلجأون إلى الكذب لتدارك ذلك ويصابون بهذا الداء الخطير ، فيظلون يتجرعون المآسي والمشاكل ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل تتجاوزهم الأضرار إلى الآخرين أيضاً.

الخوف من العقوبة :

3 - والعامل الثالث من عوامل الكذب عند الأطفال هو الخوف من العقوبة. فعندما نسأل الطفل : أنت كسرت النافذة؟ وعلم أن اعترافه يستلزم العقاب الشديد ، فإن غريزة صيانة الذات تدفعه الى أن يقول كذباً : لم أكسرها. إنه يجد نفسه ضعيفاً أمام صفعات الأم والأب ولحفظ نفسه لا يجد مفرّاً إلا بالالتجاء إلى الكذب وإنكار

كل شيء. وبديهي أنه كلما كانت العقوبة أشد ، كان إصرار الطفل على الكذب أكثر.

وكما أن الناس في الحكومات الإستبدادية يكثرون من الكذب خوفاً من العقوبات الشديدة والاعمال غير الإنسانية الصادرة من الحكام ، كذلك الأطفال في الأسر التي يشدد الآباء والأمهات فيها العقوبة فان كذبهم يكثر.

إن علاج هذه الكذبات ينحصر في لين أولياء الأطفال في تربيتهم. فإن كان الآباء والأمهات يربون أولادهم على أساس الحب والحنان ، وإن كانت الأسرة مثلاً للرافة والعطف ، وإن كان الأولياء منصفين وعارفين بواجباتهم الشرعية في تربية الأطفال دون أن يلجأوا إلى العصا والضرب الذي يستوجب الدية ، فإن الأطفال إذا كسروا نافذة أو قاموا بمخالفة النظام لا يدفعهم ذلك إلى الكذب ولا ينشأون كذابين.

يلاحظ الطفل أن أباه أو أمه قد يغفل فيسكنر النافذة ولا يحاسبه أحد على ذلك ، إنه يرى أخاه الأكبر لا يتعرض لعقوبة أو توبيخ عندما يسقط كأس من يده فيتحطم ، بينما يجد أنه إذا كسر النافذة أو سقطت الكأس من يده يُعاقب بشدة ويحاسب حساباً عسيراً ، فيأثر لكرامته ويلجأ الى الكذب للفرار من العقوبة.

اسداء النصيحة للطفل :

عندما يتخلى الأبوان عن التشديد على الطفل ويعتبرانه مثلهم إنساناً يجب أن تصان كرامته ، ويصادف أنه يكسر النافذة في أثناء اللعب في الغرفة ، فسيبادران الى اسداء النصيح له ويقولان له : الغرفة ليست محلاً للعب ، حاول أن لا تتكرر منك أمثال هذه الفعلة. بهذا الأسلوب يكون الطفل قد عوقب بمقدار خجله ، مضافاً إلى أنه لم يكذب ... في حين أن من المحتمل أن لا يتكرر منه هذا العمل بعد ذلك.

هنا قد يتصور السادة المستمعون أننا نريد القول بأن الرقابة التربوية الصحيحة في الأسرة يجب أن تكون على درجة من الدقة بحيث يترى الطفل على أن لا يكذب حتى مرة واحدة طيلة أيام عمره ، ومثل هذا قد يكون مستحيلاً بالنسبة الى الإنسان الاعتيادي. غير أن الغاية من بحثنا هذا هو أن نبه الآباء والأمهات الذين يريدون تدريب الطفل على الصدق والاستقامة إلى ضرورة الإهتمام بواجباتهم الشرعية

والعلمية في إرساء قواعد الأسرة منذ البداية على أساس الفضيلة والاستقامة حتى يكونوا بهذا الطريق قد أدوا ما عليهم تجاه أطفالهم.

وبعبارة أوضح فإن الكذب - سواء كان قليلاً أم كثيراً - يعد معصية عظيمة ، ولكن هناك فرق عظيم بين من تصدر منه كذبة أو عدة كذبات على أثر الغفلة أو بعض الظروف الحرجة في الحياة ، وبين من بين كيانه على أساس الكذب والخديعة ونشأ (كذاباً). إن الخطر العظيم والداء الوبيل يتوجه نحو الصنف الثاني ، إن هدف التربية الصحيحة هو أن لا ينشأ الأطفال وأن لا يضرب هذا الداء الفتاك بجذوره في أرواحهم.

هذا المسألة التربوية والنفسية تعرضت لها الروايات والاحاديث الإسلامية ويهتم لها العلماء المعاصرون أيضاً ، ولمزيد الاطلاع نعرض على المستمعين الكرام نماذج من كلا الصنفين.

1 - « قال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وآله : « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » (1).

2 - عن عبد الرحمن بن الحجاج ، قال : « قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) : الكذاب هو الذي يكذب في الشيء قال : لا ، ما من أحد إلا أن يكون ذلك منه ، ولكن المطبوع على الكذب » (2).

3 - عن أبي بصير ، قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : « إن العبد ليكذب حتى يكتب من الكذابين » (3).

الكاذب والكذاب :

يستفاد من هذه الاحاديث الثلاثة أن هناك فرقاً بين الكاذب والكذاب. الكاذب هو الذي تصدر منه كذبة أو كذبات على أثر الغفلة أو الحوادث المختلفة ، وجميع الناس قد يصدر منهم ذلك. أما الكذاب فهو تركّز الكذب في مخه ، ونفذ هذا الداء الفتاك الى أعماقه.

ص: 42

1- المحجة البيضاء في إحياء الأحياء ، للفيض الكاشاني ج5 ص239.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص340.

3- الوسائل للشيخ الحر العاملي ج2 ص232.

أما العلماء المعاصرون فإنهم يشيرون إلى هذا المعنى أيضاً في كتبهم ، وها أنا ذا أقرأ لكم عبارة مقتبسة من أحدها.

فن الخديعة :

« وهذا أمر بسيط وطبيعي جداً ، ذلك أن الأطفال يكذبون على أثر الضعف الذي يحسون به في مقابل الكبار دون أن يكون هناك انحراف أو تخطيط أو تفكير سابق. إنهم يكذبون ليصونوا أنفسهم من الحملات المباشرة التي يتنبأون لها ، فإن الكذب والخديعة يستلزمان تخطيطاً سابقاً ، وتفكيراً في تورط الآخرين ، ولا يكفي أن يكذب شخص في مورد ما مترسلاً ونحكم عليه بالانحراف ».

« يتكامل علم الكذب (أو فن الكذب على الأرجح) بالممارسة والتدرب على الكذب. إذن نستنتج من ذلك أن جهود الوالدين أو القائمين على شؤون التربية يجب أن تنصرف إلى عدم فسح المجال للأطفال في التعلق بالكذب ، ويجب أن لا يكون سلوكنا على نحو يضطرهم الى الالتجاء إلى الكذب ».

« يجب أن نعرف الكاذب الحقيقي أولاً ، أي يجب أن نميز بين من يكذب على أثر تطبعه على الحيلة والخديعة ، وبين من يكذب عفواً. إن الكاذب العفوي لأجل أن يتخلص من عقوبة العمل الذي عده ذنباً في نفسه يعمد الى أول كذبة تمر بخاطره وتجري على لسانه إنه لا يفكر في عواقب ذلك ، في حين أن صدقه الذاتي والطبيعي غالباً ما يخونه دون علم منه ... الصوت الفاقد للتطامن ، والوجه المحمر ، والنظرات الزائغة ، كل ذلك علائم تفصح أمر مثل هذا الكاذب ».

« الحقيقة تعلن عن نفسها من خلال الكلمات التي يجريها على لسانه ، إنها تحرق شفثيه ، فلا يستطيع أن يلقي حجاباً ساتراً على الحقيقة التي تفصح عن واقعها. إن من السهولة بمكان أن نستكشف من مثل هذا الشخص أنه لم يصبح كذاباً بعد ، بل يستطيع أن يصنع بعض الكذبات المفصوحة ، غاية ما هناك أنه لكي يتقن هذا العمل ،

ولكي يصبح ماهراً في فن الكذب ، يكفي أن يوضع في محيط فاسد أو يقابل مريباً دون مستوى المسؤولية ، لاجل أن نتقذ مثل هذا الطفل من الغرق والوقوع في هذه الهوة السحيقة يجب أن نوجه وجدانه نحو الصدق والشهامة ، وعندئذ لا يستطيع الكذب أن ينشر جذوره في نفسه ولا يصبح دأً مزمناً عنده .»

« أما بالنسبة إلى الكذاب الأصيل فالأمر ليس كذلك. هذا الشخص الذي يمتنن التزوير والاحتيال وإن بدأ عمله بكذبات تافهة ومفضوحة لكنه استمر على ذلك فترة طويلة حتى أصبح الآن يكذب بسهولة ، يصور الباطل في لباس من الحقيقة ، وهنا يجب أن نهتم بالأمر. إنه لا يصدر عن الكذاب بصورة عفوية بل يفكر ويخطط ويصمم لما يريد إطاراً جميلاً ، يغير في الموضوع كيف يشاء ، ويظهره بالمظهر الذي يريده من جمال أو قبح ، لأنه يعلم أنه إذا ألبس الباطل لباساً جميلاً من التبريرات والاحتيالات كان ذلك عاملاً مساعداً على عدم انفضاح سره » (1).

الكذابين الماهرون :

كان إخوة الصديق يوسف كذابين ماهرين. فإنهم عندما رموا به في البئر جاءوا الى ابيهم يبيكون ، يذرفون الدموع الحارة ، وقد حملوا معهم ثوباً ملطخاً بالدم ، وهكذا كانوا قد صمموا للحادثة تصميماً مضبوطاً يخيل للناظر معه أن ذلك هو الحقيقة ، وأن الذئب هو الذي أكل يوسف. هذه الكذبات خطيرة جداً ، ولذلك فإن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يستعمل كلمة (الكذاب) في حقهم :

« لا تلقنوا الكذاب فتكذبوا. فإن بني يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الانسان حتى لقنهم أبوهم » (2).

ان الآباء والأمهات الذين يربون أطفالهم تربية صحيحة ويدربونهم على الصفات

ص: 44

1- ما وفرزندان ما ص 62.

2- سفينة البحار للقمي - مادة كذب - ص 474.

الفاضلة والسجيا الحميدة يستطيعون أن يقفوا أمام الزلات المحتملة لهم بالنصح والارشاد ، وبذلك يمنعونهم من التلوث ببعض الكذبات التي يمكن أن تلوث أذياهم.

« عن أبي جعفر عليه السلام . قال : كان علي بن الحسين يقول لولده : اتقوا الكذب ، الصغير منه والكبير ، في كل جد وهزل ، فإن الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير » (1).

المحيط التربوي :

4 - من أهم العوامل المؤثرة في تنمية فطرة الصدق عند الأطفال المحيط التربوي الذي يعيشون فيه ، فعندما يكون الوالدان ملتزمين بالصدق بعيدين عن الكذب والاحتيال ، فإن الطفل ينساق تلقائياً إلى طريق الصدق والاستقامة ، ومن السهل جداً إزالة العوائق التي تقف في طريقه من الناحية النفسية.

وعلى العكس من ذلك فإن الوالدين اللذين لا يتورعان عن الكذب يعودان الطفل على هذه الصفة الذميمة من حيث لا يشعرون ، في أسرة كهذه يصبح الإهتمام بالظروف والعوامل النفسية للوقاية من الكذب عقيماً. إن المحيط التربوي أهم العوامل الصانعة لكيان الطفل ، ولا يمكن مقايضة أي من العوامل النفسية به ، ذلك أن الطفل ينسجم مع المحيط الذي ينشأ فيه بصورة لا شعورية ، وتنطبع في ذهنه صور الأشياء التي يشاهدها أو يسمعها.

« إن محيط الصدق والشهامة المطلقة أهم عوامل الكفاح ضد الكذب. فإذا كانت الاستقامة مهيمنة على جو الأسرة أو المدرسة لم يقترب الطفل من الكذب ، وإذا صادف أن جرت كذبة على لسانه فإن التجارب تثبت أن هذه الكذبة لا تصل إلى حد الخيانة والاحرام ولا تبعث بجذورها في قلبه ».

« إن الضمائر الحية لهؤلاء الأحداث تشبه الأعشاب الربيعية في

ص: 45

النعمومة واللطفة ، فلأجل أن تلاقي تنمية مناسبة ومتكافئة يجب أن تبقى في مأمن من هبوب الرياح الشديدة والميول التي قد تدحرها الى الأبد ، ومن المؤسف أن نجد أن هذه الفسائل الغضة كثيراً ما تجابه بالرياح الهوجاء ».

« كثيراً ما يصادف وجود أخايد واسعة بين أفعالنا ونصائحننا. هناك بون شاسع بين ما يلاحظه الطفل في أفعالنا ويدركه من سلوكنا ، وبين الأوامر والنصائح التي نصدرها في تقبيح عمل معين وذمه! ».

« قد اعتاد الكثيرون على أن يقولوا للأطفال : (افعل ما أقوله لك! لا تلتفت الى ما أفعل) في حين أنهم بجهلون أن هذه النصيحة تستتبع مأساة عظيمة ، ان الطفل لا يخضع للنصيحة التي لا يعيرها الوالدان أهمية ما وعلى فرض أنه استطاع أن يتوصل من عمل الكبار الى أن السلوك المفضل للأطفال يختلف عن السلوك المفضل للكبار فإنه سيحطم تلك القيود في أول فرصة يدرك فيها الحرية ، ويخرج على تلك التعاليم التي وجهت اليه في صباه » (1).

ان محيط الأسرة هو المدرسة الأولى للطفل ، وإن سلوك الوالدين يمكن أن يصبح مقياساً لازدهار الأسرة أو انحطاطها. ان امرأة أو رجلاً بغض النظر عن عنوان الأمومة أو الأبوة عندما تصدر منه كذبة يكون قد ارتكب معصية كبيرة واستحق بذلك عقوبة. أما عندما يكون هذا الرجل أباً أو عندما تكون المرأة أمّاً فإن الكذبة الصادرة منه أمام عيني الطفل النافذتين ، وأذنيه الواعيتين لا يمكن أن تعد ذنباً واحداً. ففي هذه الصورة يكون ذنب آخر غير ذنب الكذب قد ارتكب ... ذلك هو ذنب التعويد على الكذب وهذا أعظم بكثير من الذنب الأول.

داء الكذب :

ان الأطفال أمانة الله عزّ وجل في أعناق الوالدين ، فهما إن قصرا في أداء واجبهما نحوهم كانا خائنين للأمانة. إن ما لا شك فيه هو أن الكذب احد الأمراض

ص: 46

الإجتماعية الكبيرة ، ومن المؤسف أن أغلب الناس مصابون بهذا الداء الفتاك إن قليلاً أو كثيراً. هذا الخلق الذميم يوجب شقاء الدنيا وعذاب الآخرة. إن جميع الصفات الذميمة تعد أمراضاً نفسية من وجهة نظر العلم والدين ، ولكن الكذب أشدها. ففي وصية أمير المؤمنين عليه السلام لولده الحسن : « وعلة الكذب أقبح علة » (1).

إن الكذب يزلزل الكيان الخلقي والاقتصادي والقانوني في المجتمع. لأن الشخص الكاذب يجعل الناس يسيء بعضهم الظن الى الآخر ، ويسلب الاعتماد منهم. إن الكذب يحرق جذور الفضيلة ويميت الروح الإنسانية، « عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن أبي حدثني عن أبيه عن جده ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أقل الناس مروءة من كان كاذباً » (2).

يتصور البعض أحياناً أن الكذب هو الوسيلة الوحيدة للنجاح ، في حين أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يفتد هذا التصور ويعتبر هذا النوع من النجاح المزعوم فشلاً واخلقاً. فقد قال صلى الله عليه وآله : « إجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة » (3). وفي حديث آخر يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام : « يا هشام ، ان العاقل لا يكذب وإن كان فيه هواه » (4).

الصدق والنجاة :

ما اكثر الأفراد الذين التزموا الصدق في المواقع الحرجة والمآزق الشديدة وكان ذلك سبب خلاصهم.

لا- يجهل أحد مدى الجرائم التي قام بها الحجاج بن يوسف الثقفي والدماء التي أراقها من غير حق. في يوم من الأيام جيء بجماعة من اصحاب عبد الرحمن مأسورين وكان قد صمم على قتلهم جميعاً. فقام أحدهم واستأذن الأمير في الكلام - إن لي عليك حقاً! فأنتقذني وفاء لذلك الحق.

ص: 47

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج2 ص100.

2- المصدر السابق ج2 ص100.

3- المصدر السابق ج2 ص100.

4- تحف العقول ص 391.

قال الحجاج : وما هو

قال : كان عبد الرحمن يسبّك في بعض الأيام ، فقامت ودافعت عنك.

قال الحجاج : ألك شهود؟

فقام أحد الأسرى وأيدّ دعوى ذلك الرجل . فأطلقه الحجاج ، ثم التفت الى الشاهد ، وقال له : ولماذا لم تدافع عني في ذلك المجلس؟!

أجاب الشاهد في أتم الصراحة : لأنني كنت أكرهك.

فقال الحجاج : أطلقوا سراحه لصدقه (1).

« وخطب الحجاج ذات مرة فأطال ، فقال رجل فقال : الصلاة ، فان الوقت لا ينتظرك ، والرب لا يعذرک . فأمر بحبسہ ، فأتاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله فقال :

- إن أقرّ بالجنون خلّيته.

ف قيل له ، فقال : معاذ الله ، لا أزعّم أن الله ابتلاني وقد عافاني ، فبلغ ذلك الحجاج ، فعفا عنه لصدقه « (2).

وكما أن الصدق يجلب العزة والكرامة ، فإن الكذب يسبب الذلة والصغار لصاحبه. يقول الرسول الأعظم : « إياك والكذب ، فإنه يسود الوجه « (3).

بلغ المنصور الدوانيقي أن مبلغاً ضخماً من أموال بني أمية مودعة عند رجل ، فأمر الربيع باحضاره. يقول الربيع : فأحضرت الرجل وأخذته الى مجلس المنصور. فقال له المنصور : بلغني ان أموال بني أمية مودعة عندك ، فيجب أن تسلمني إياها بأجمعها.

فقال له الرجل : هل الخليفة وارث الأمويين؟!

ص: 48

1- قاموس دهخدا الفارسي - حرف الحاء.

2- المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي ج2 ص7.

3- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج2 ص100.

فأجاب : كلا.

فقال : هل الخليفة وصي الأمويين؟!

فأجاب : كلا.

فقال الرجل : فكيف تطالبني بأموال بني أمية؟!

فأطرق المنصور برهة ثم قال : إن الأمويين ظلموا المسلمين وانتهكوا حقوقهم وغصبوا أموالهم ، وأنا الآن خليفة المسلمين ووليهم ، أريد أن استرد أموال المسلمين وأودعها في بيت المال.

فقال الرجل : إن الأمويين امتلكوا أموالاً كثيرة كانت خاصة بهم وعلى الخليفة أن يقيم شاهداً عدلاً على أن الأموال التي في يدي لبني أمية إنما هي من الأموال التي غصبوها وابتزوها من غير حق.

ففكر المنصور ساعة ، ثم قال للربيع ، ان الرجل يصدق ، فابتسم بوجهه وقال له : ألك حاجة؟!

قال الرجل : لي حاجتان. الأولى : أن تامر بإيصال هذه الرسالة إلى أهلي بأسرع وقت ، حتى يهدأ اضطرابهم ويذهب روعهم. والثانية : أن تأمر بإحضار من أبلغك بهذا الخبر ، فوالله لا توجد عندي لبني أمية وديعة أصلاً. وعندما أحضرت بين يدي الخليفة وعلمت بالأمر تصورت أنني لو تكلمت بهذه الصورة كان خلاصي أسهل. فأمر المنصور الربيع بإحضار المخبر ، وعندما حضر نظر إليه الرجل نظرة ثم قال : إنه عبدي سرق مني ثلاثة آلاف دينار وهرب. فأغلظ المنصور في الحديث مع الغلام وأيد الغلام كلام سيده في أتم الخجل وقال : إني اختلقت هذه التهمة لأنجو من القبض علي. هنا رق قلب المنصور لحال العبد وطلب من سيده أن يعفو عنه ، فقال الرجل : عفوت عنه وسأعطيه ثلاثة آلاف أخرى.

فتعجب المنصور من كرامة الرجل وعظمته ، وكلما ذكر اسمه كان يقول : لم أر مثل هذا الرجل « (1).

ص: 49

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (1).

غريزة حب الذات :

حب الذات من الغرائز الفطرية التي أودعها الله تعالى في باطن كل انسان بالقضاء الإلهي الحكيم ، كل فرد يحب نفسه قبل كل شيء وكل شخص ، ولا شيء في نظر الإنسان أغلى وأهم من ذاته.

إن حب الذات أحد الركائز المهمة والأساسية الثابتة في تربية الطفل والمربي الكفء يستطيع أن يستغل هذه الثروة الفطرية استغلالاً طيباً وينمي في الطفل كثيراً من الفضائل والصفات الخيرة في ظل غريزة حب الذات.

هذه الغريزة تشكل قوة عظيمة في مزاج الطفل ، فلو استغلت بصورة معقولة وتبعاً لأساليب صحيحة ، كانت أساس سعادته ، وإن أسيء التصرف فيها عادت عليه بالويل والشقاء.

إن من طرق إرضاء غريزة حب الذات ، تكريم الأطفال والإهتمام بشخصيتهم. ان الطفل الذي يلتقي قدراً كافياً من الاحترام في الأسرة ، وتلبي غريزة حبه للذات بالمقدار المناسب يملك روحاً سليمة ، ولذلك يمكن أن نتوقع من هذا الطفل سلوكاً مفضلاً وأخلاقاً حميدة , وعلى العكس فإن الطفل الذي لا يلاقى احتراماً وتكريماً من والديه ، ولم يلاق استجابة فعلية لهذه الرغبة الطبيعية يحس بالحقارة والذلة في نفسه ، ويملك روحاً مندحرة ونفساً مخفقة ، ومما لا شك فيه أن هذه الحالة النفسية

ص: 50

تكشف عن نفسها خلال أقوال الطفل وأفعاله بصورة غير مرضيه ... وطفل كهذا يكون معرضاً لأخطار كثيرة ان احترام الشخصية ليس ركناً من الأركان الأساسية لتربية الطفل في محيط الأسرة فحسب ، بل ان هذا السلوك المفضل يشكل أساساً من أسس النظام الاجتماعي الصالح ، وهو بعد ذلك واجب ديني مقدس . ولأجل أن يتبين المستمعون الكرام منهج أئمة الإسلام وقادته في احترام شخصية الناس ، نخصص قسماً من بحثنا في هذه المحاضرة لهذا الموضوع.

احترام الناس :

كان احترام الناس في جميع الأحيان جزء من النهج الثابت للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في معاشراته ، ويمكن أن نقول - ولم نكن في ذلك مبالغين - أن هذا السلوك المفضل كان من أهم عوامل تقدمه ونجاحه . كان الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) يهتم بجميع الدقائق النفسية للناس في سبيل احترامهم ، ولم يكن ليتخلى عن أبسط الوظائف ... « كان يكرم من يدخل عليه ، حتى ربما بسط ثوبه ، ويؤثر الداخل بالوسادة التي تحته » (1) وفي هذا مثال فذ للتواضع واحترام الناس .

ومثال آخر نجده في القصة التالية : « دخل رجل المسجد وهو (أي النبي) جالس وحده فتزحزح له . فقال الرجل : في المكان سعة يا رسول الله . فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ان حق المسلم على المسلم إذا رآه يريد الجلوس إليه أن يتزحزح له » (2).

« وكان إذا لقيه واحد من أصحابه قام معه ، فلم ينصرف حتى يكون الرجل ينصرف عنه . وإذا لقيه احد من أصحابه يتناول يده ناولها إياه فلم ينزع عنه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع عنه » (3) أي انه كان لا يسحب يده من المصافحة حتى يسحب الآخر يده ، وفي ذلك معنى سام من معاني الإسلام العظيمة . « وكان رسول الله يقسم لحظاته بين أصحابه ينظر الى ذا وينظر الى ذا بالسوية » (4).

ص: 51

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج6ص151.

2- المصدر السابق ج6ص153.

3- المصدر السابق ج6ص152.

4- روضة الكافي لثقة الإسلام الكليني ص 268.

كما ورد في صفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إن رسول الله لا يدع أحداً يمشي معه إذا كان راكباً حتى يحمله معه ، فإن أبي قال : تقدم أمامي وأدركني في المكان الذي تريد » (1).

غضب الانصار :

كان يصادف في بعض الموارد أن العمل الصادر من النبي صلى الله عليه وآله - وان استند الى المصلحة والواقعية - يوجد رد فعل غير مرغوب فيه في قلوب بعض الناس ، فكانوا يحملون عمله على قصد الاحتقار والإيذاء. ولذلك فان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعتمد إلى رفع تلك الغشاوة عن أبصارهم يتوضيح اعماق الموضوع وأبعاده مظهراً ما يكنه لهم من احترام وتقدير.

لقد وزع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غنائم حنين تبعاً لمصالح معينة على المهاجرين فقط ، ولم يعط الانصار سهماً واحداً .. ولما كان الانصار قد بذلوا جهوداً عظيمة في رفع لواء الإسلام ، وخدمات جليلة في نصرة هذا الدين فقد غضب بعضهم من هذا التصرف وحملوه على التحقير والاهانة. فبلغ الخبر رسول الله صلى الله عليه وآله فأمراً بأن يجمع الانصار في مكان ما وأن لا يشترك معهم غيرهم في ذلك المجلس. ثم حضر هو وعلي عليه السلام وجلسا في وسط الانصار. ثم قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لهم : أريد أن أسألكم عن بعض الأمور فأجيبوني عليها.

قال الانصار : سل يا رسول الله.

قال لهم : ألم تكونوا في ضلال مبين ، وهذاكم الله بواسطتي؟!

قالوا : نعم يا رسول الله.

قال : ألم تكونوا على شفا حفرة من الهلاك والدمار ، والله انقذكم بي؟

قالوا : نعم.

قال : ألم يكن بعضكم عدو بعض ، فألف الله بين قلوبكم على يدي؟

قالوا : نعم.

ص: 52

فسكت لحظة ، ثم قال لهم : لماذا لا تجيبونني بأعمالكم؟

قالوا : ما نقول؟

قال : أما لو شئتم لقلتم : وأنت قد كنت جئتنا طريداً فأويناك ، وجئتنا خائفاً فأمتاك ، وجئتنا مكذباً فصدقناك ...

هذه الكلمات الصادرة من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله أفهمت الأنصار أنه لا ينكر فضلهم ولا ينسى جهودهم ، ولم يكن ما صدر منه تجاههم صادراً عن احتقار أو إهانة ... ولذلك فقد أثر فيهم هذا الكلام تأثيراً بالغاً وارتفعت أصواتهم بالبكاء. ثم قالوا له : هذه اموالنا بين يديك ، فإن شئت فاقسمها على قومك. وبهذا أظهروا ندمهم على غضبهم واستغفروه. فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : اللهم اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار ، ولأبناء أبناء الأنصار (1).

رعاية العواطف :

من هذا الحديث ندرك مدى اهتمام قادة الاسلام برعاية عواطف الناس ، وعدم جرح شعورهم. وفي حديث آخر مشابه : أتى النبي بشيء فقسمه ، فلم يسع أهل الصفة جميعاً ، فخص به أناساً منهم. فخاف رسول الله أن يكون قد دخل قلوب الآخرين شيء. فخرج إليهم فقال : معذرة إلى الله عز وجل واليكم. يا أهل الصفة إنا أوتينا بشيء فأردنا أن نقسمه بينكم فلم يسعكم فخصت به أناساً منكم خشينا جزعهم وهلعهم (2).

لقد كان احترام الناس وتكريمهم مهماً في نظر الرسول الأكرم إلى درجة أنه كان يحاسب كل من يتخلف عن أداء هذا الواجب المقدس. ففي إحدى الغزوات كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي في معسكره فمرّ بالمسكر عدة رجال من المسلمين فتوقفوا لحظة وسألوا بعض الصحابة عن حال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ودعوا له ، ثم اعتذروا من عدم تمكنهم من انتظار النبي حتى يفرغ من الصلاة فیسلموا عليه لأنهم كانوا على أمر

ص: 53

1- الإرشاد للشيخ المفيد ص 67.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج6 ص160.

عاجل ومضوا الى سبيلهم » فانفتل رسول الله صلى الله عليه وآله مغضباً ، ثم قال لهم : يقف عليكم الركب ويسائلونكم عني ويبلغوني السلام ولا تعرضون عليه الغداء ؟ « (1) ثم أخذ يتحدث عن جعفر الطيار وعظمة نفسه وكمال ادبه واحترامه للآخرين ...

آداب الصحبة :

ليست فضيلة احترام الناس وتكريمهم في الشريعة الإسلامية الغراء خاصة بالمسلمين فيما بينهم ، فإن غير المسلمين أيضاً كانوا ينالون هذا الاحترام والتكريم من المسلمين ، فقد تصاحب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مع رجل ذمي خارج الكوفة في أيام حكمته. وكان الذمي لا يعرف الإمام فقال له : أين تريد يا عبدالله؟

قال الإمام علي عليه السلام : أريد الكوفة!

ثم وصلاً إلى مفترق طريقين فتوجه الذمي الى الطريق الذي يريده وانفصل عن الإمام عليه السلام ... ولكنه لم يكن قد خطا اكثر من بضع خطوات حتى شاهد أمراً غريباً ، فقد رأى رفيقه الذي كان قاصداً الكوفة ترك طريقه وأخذ يتبعه.

فسأله : ألسنت تقصد الكوفة؟

قال الإمام : نعم.

قال : ذلك الطريق هو الذي يؤدي الى الكوفة.

قال الإمام : اعلم ذلك.

فسأل الذمي باستغراب : ولماذا تركت طريقك؟

فقال له الإمام عليه السلام : هذا من تمام حسن الصحبة أن يشيع الرجل صاحبه هنيهة إذا فارقه. وكذلك أمرنا نبينا.

فقال : هكذا أمركم نبيكم؟

قال : نعم.

فقال الذمي : لا جرم أنما تبعه من تبعه لأفعاله الكريمة.

ص: 54

ثم ترك طريقه الذي كان يقصده وتوجه مع الإمام عليه السلام إلى الكوفة وأخذا يتحدثان عن الإسلام وتعاليمه العظيمة فأسلم الرجل (1).

سلوك قادة الإسلام :

إن سلوك قادة الإسلام مع الناس واحترامهم لهم ، أحد العوامل المهمة في تقدم هذا الدين العظيم وانتشاره. وعلى المسلمين أيضاً أن يلتزموا بواجب احترام الناس في أحاديثهم وسلوكهم وأن لا يصدر منهم ما يوجب تحقير الآخرين. وفي ذلك يقول القرآن الكريم : (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (2).

عن الإمام عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآية : « قولوا للناس أحسن ما تحبون أن يقال لكم » (3) وكما أن الرجل منا يستاء للكلمات السيئة والمستهجنة الصادرة من الآخرين أيضاً. « كان أبو جعفر عليه السلام يقول : عظموا أصحابكم ووقروهم ، ولا يهجم بعضكم على بعض » (4).

وبهذا الصدد يقول الإمام الصادق عليه السلام : « من أتاه أخوه المسلم فآكرمه فإنما أكرم الله عز وجل » (5).

وفي الحديث الشريف ، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : « من أكرم اخاه المسلم بكلمة يلفظه بها وفرج عنه كربته لم يزل في ظل الله المدود عليه الرحمة ما كان في ذلك » (6).

كما ورد النهي عن تحقير الناس في كثير من الروايات كقوله (عليه السلام) : « لا تحقرن أحداً من المسلمين فإن صغيرهم عند الله كبير » (7).

ص: 55

1- سفينة البحار للقمي - مادة خلق ص 416.

2- سورة الاسراء : 53.

3- الوسائل للحر العاملي ج4 ص93.

4- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص173.

5- الوسائل للحر العاملي ج4 ص97.

6- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج16 : 84.

7- مجموعة ورام 1 ص31.

هذه نبذة يسيرة من تعاليم الإسلام القيمة بشأن احترام شخصية الناس وتكريمهم نكتفي بها ، لنتنقل بعد ذلك الى مسألتنا الأساسية وهي احترام شخصية الطفل.

احياء شخصية الطفل :

إن سلوك جميع أفراد البشر وأساليب معاشرتهم مع الناس إنما هو خلاصة للأساليب التربوية التي اتخذت معهم في دور الطفولة من قبل الآباء أو الأمهات في الأسرة أو من قبل المعلمين في المدرسة. فكل خير أو شر لقنوه إياهم في أيام الطفولة يظهر على سلوكهم عند الكبر وعندما يصبحون أعضاء في هذا المجتمع الانساني الكبير وبعبارة أخرى فإن الوضع الروحي والخلقي والسلوكي للناس في كل عصر إنما هو حصيلة البذور التربوية التي نثرت في أدمغتهم أيام الطفولة.

الشخصية وحرية الإرادة والاعتماد على النفس .. وكذلك الحقارة ، والإعتماد على الغير ، والخسة ، صفات تصب ركائزهم في حجر الأم وحضن الأب. فعلى الآباء والأمهات الذين يرغبون في تنشئة اطفال ذوي شخصية أن يهتموا بذلك منذ الأدوار الأولى من حياتهم وينموا هذا الخصلة الطيبة في نفوسهم منذ البداية. ان الطفل الذي نشأ في الأسرة على الخسة والحقارة ، ولم يعامله أبواه معاملة انسان ، ولم يعترفوا به كعضو محترم من أعضاء الأسرة لا يستطيع في الكبر أن يبدي الاستقلال في تصرفاته والرصانة في شخصيته. انه لا يرى نفسه كفؤاً للاضطلاع بالمسؤوليات التي تلقى على عاتقه ، ولا يرى لنفسه شخصية أصلاً ، أنه موجود شقي نشأ على الخسة منذ البداية ، ومن الصعب جداً أن تستأصل جذور ذلك من كيانه.

إن التربية الصحيحة وتنمية الصفات الفاضلة عند الطفل تتوفر في ظل الأساليب العلمية والتطبيقية الصحيحة فقط ، على الوالدين أن يستوعبا ذلك ، وأن يتابعا حركات الطفل خطوة خطوة ، محاولين تطبيق تلك الأساليب عليه. أما الأسر التي تهمل هذا الجانب فإنها تعجز عن أن تقوم بتربية صالحة لأطفالها.

« ليس التكامل النفسي والعصبي للطفل أمراً يحدث بالصدفة ، بل انه يحصل وفقاً لقواعد معينة ، ويجب أن لا نتهاون في مقاومة اندحار احد القوى النفسية التي تقوم كيانه ، بل يجب أن نعتبر النقص العصبي والنفسي الحادث عنده مرضاً فنخضعه الى رقابة خاصة. ان الطفل يتعلم منذ الصغر كيف يستخدم جهازه العصبي ، وان الرضيع ليس إلا مجموعة من الانعكاسات ، ثم يأخذ في المشي بالتدريج ، يتكلم ، يدرك ، يقفز ، ويحصل على معلومات سمعية وبصرية ، وفي هذه الحالة يمكن أن يقال : انه قد تولد واقعاً ».

« كثير من الآباء والأمهات يتركون أطفالهم لوحدهم بمجرد أن يجدوهم قد أصبحوا قادرين على المشي والتكلم فيكون الطفل في هذه الصورة كساعة مكسوة تسمع دقاتها ولكنها لا تملك عقارب » (1).

ان إيجاد الشخصية والاعتماد على النفس عند الطفل من الواجبات التربوية للآباء والأمهات وظهور هذه الحالة النفسية عند الأطفال يسير وفق منهج منظم ، بحيث لو طُبق بصورة صحيحة أدى إلى نتائج مرضية ، ونشأ الطفل ذا شخصية فذة ، أما اهماله فإنه يؤدي إلى تعود الطفل على الخسة والحقارة.

كما إن احترام الطفل وحسن معايشة الوالدين معه من أهم العوامل الأساسية لبناء الشخصية الرصينة. ان نبي الإسلام العظيم يوضح هذا المنهج الضخم بعبارة قصيرة ويأمر الناس باتباعه فيقول : « اكرموا أولادكم واحسنوا آدابكم » (2).

إن احترام الطفل وتكريمه ، أو إهانته وتحقيره لا يختص بأسلوب معين ، بل ان الوالدين يستطيعان أن يحترما أطفالهما بطرق مختلفة ، كما يقدران على اهانتهم

ص: 57

1- چه ميدانيم؟ تربيه اطفال دشوار ص 65.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج23 ص114.

بصورة متعددة. وهنا لا بأس بالتعرض الى بعض الأساليب والصور التي بها يحترم الطفل أو يهان ، مع بيان النتائج المفيدة أو المضرة التي تترتب على ذلك.

الطفل إنسان واقعي :

إن الشرط الأول للتربية الصحيحة وتنمية الشخصية والاستقلال عند الطفل أن يعرف الوالدان حقيقة طفلهما ولا يتجاهلا قيمته الواقعية ... أن يعتقد أن طفلهما ليس شاة أو دجاجة تحتاج الى الطعام واللعب والنوم ... إنه إنسان صغير ، إنسان واقعي ولكنه ضعيف ، إنسان حقيقي يملك من الذخائر الفطرية ما يجب أن تبرز من يجب أن تبرز من عالم القوة إلى حيز الطفل.

« يحس الطفل طيلة أدوار نموه بالحقارة في قبال والديه وجميع الناس. هذا الاحساس في جميع شؤون الطفل وليد عدم القدرة الأولية للأعضاء وعدم الاطمئنان به وفقدانه للاستقلال ، وكذلك ينتج على أثر الإحتياج الى الغير ، والاعتماد على شيء أقوى منه ، والخضوع لسيطرة المحيط. وهذا الاحساس بالحقارة هو الذي يوجد في الطفل نشاطاً دائماً ، واحتياجاً الى الانشغال ، والإهتمام يلعب دور بارز في الحياة. انه يسير في حالة ضخمة من الآمال والآماني المستقبلية والاستعداد الجسمي والعقلاني لتحقيقها ، وان الرغبة في التفوق على الآخرين هي التي تدفعه إلى أن يثبت لنفسه شخصية ، فيقلل بذلك من حدة الحقارة المستولية عليه » (1).

الرشد المعنوي للطفل :

إن الآباء والأمهات الذين يفسحون المجال في الأسرة للاطفال كي يمارسوا نشاطاتهم الفطرية ، ولا يسخرون منهم في الأفعال التي تصدر منهم ولا- يحاولون تحقيرهم أبداً ، يتوقفون الى الرشد المعنوي بسرعة وينالون شخصية كاملة. وعلى العكس ، فإن الآباء والأمهات المستبدين في الأسرة الذين يسلكون تجاه اطفالهم

ص: 58

بالشدة والحدة ويملأون جو الأسرة رعباً وهلعاً يكتبون القابليات والاستعدادات الباطنية للأطفال ويمنعون من الرشد الطبيعي لهم فينشأون وهم فاقدون للشخصية.

إن أحد اسباب الاحساس بالحقارة عند الأطفال هو المظاهر الشديدة لقدرة (الكبار) وضغطهم. لا شيء يطفئ جذوة الرغبة في التعالي والتكامل والاعتماد على النفس عند الطفل مثل الالهانة والتحقير الذي يلاقه في قبال الضغط والشدة ، خصوصاً عندما يؤكد الوالدان شدتهما بعبارة (انك لا تستطيع القيام بهذا العمل) ... (لا تحاول عبثاً) ، ومما يزيد في الطين بلة أنهما لا يكتفیان بذلك بل يبعثان السأم والملل في نفس الطفل بعبارات من أمثال (لماذا تريد أن تفعل هذا أيها الأحمق ... ألا ترى أنك لا تستطيع ذلك؟!). من النادر جداً أن لا يوجد سلوك كهذا عقدة الاحساس بالحقارة في الأطفال. وقد يكون وجود أب متزمت ومتنفذ كافياً في أن يقف حاجزاً دون ظهور الصفات الفاضلة في نفس الطفل « (1).

وإذا عدنا الى الحديث الذي سبق شرحه في المحاضرة السابقة ، وجدنا أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يقول : « ولا يرهقه ولا يخرق به » ... أي لا يقول له : أنت سفيه ، حقير ، بليد ، أبله ، كذاب لأن كل واحدة من هذه الكلمات تحمل من أمارات الالهانة والتحقير تجاه الطفل ما يكفي للوقوف أمام تكامل قواه المعنوية.

غريزة اللعب عند الطفل :

من الميول التي أودعها الله تعالى في باطن الأطفال : الرغبة في اللعب. إن الطفل يميل الى اللعب بفطرته ، فتارة يجري وقفز ، وأخرى ينظم ويقفز ، وأخرى ينظم لعبه ودُماه. هذه الأعمال التي تبدو للنظرة البسيطة تافهة وعابثة هي أساس تكامل جسد الطفل وروحه. ان اللعب يبعث القوة في عضلاته والمتانة في عظامه ،

ص: 59

كما انه ينمي فيه القدرة على الابتكار ويخرج قابلياته الكامنة الى حيز الفعل. وهكذا فاللعب يشغل شطراً كبيراً من حياة الأطفال ولم يفت الأئمة المعصومين أمر التنبيه على هذه النقطة. فعن الإمام الصادق عليه السلام : « الغلام يلعب سبع سنين ، ويتعلم الكتاب سبع سنين ، ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين (1). وعنه ايضاً : دع ابنك يلعب سبع سنين » (2).

اللعب وحس الابتكار :

من فوائد اللعب تدريب الطفل على الاستقلال في الارادة ، واحياء حس الابتكار فيه. عندما يحفر الطفل على كومة من التراب بئراً ، أو يبني غرفة صغيرة فإن قواه العقلية تعمل كما يعمل المهندس المعمار فيتلذذ لنجاحه وعندما يلاقي بعض الموانع في عمله فتتهدم البئر أو تنهار الغرفة ، يحاول تدارك ذلك بالبحث عن علاج فوري ... هذه النشاطات تساعد على الرشد الفكري وتكامل الشخصية عند الطفل ، فإذا سخر الأب أو الأم منه ، ونسبوا أفعاله الى العبث والسفه كان في ذلك اهانة وتحقير له ، وكبت لمواهبه وقابلياته.

« إذا حاول الأطفال رسم برنامج خاص لهم في أعمالهم فلا تمنعهم من ذلك ، لأن مواصلة تطبيق خطة مرسومة دون وقوف العوائق في طريق ذلك عامل فعال في تكوين الشخصية عندهم ».

« لا- يلتزم الكبار في الأفعال الاعتيادية اليومية التي يؤدونها بنظام معين ، في حين أن الأطفال يميلون - على العكس من الكبار - إلى أن يسيروا حسب خطة معينة ولكن هل اننا ندعهم احراراً في تنفيذ خططهم؟! كلا. إذا كان الأطفال يلعبون فإننا نمنعهم عن اللعب لنصحبهم معنا الى النزهة ، وإذا كان الطفل يملأ سطلا من الرمل ، أو يلبس العروسة بدلة فإننا نأخذ بيده الى ان يأتي ويسلم على الضيف ».

ص: 60

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج6 ص47.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج6 ص47.

« هذه الأمور تدعو الطفل الى أن يعتقد بأن حقارة خاصة تكتنفه مما تجعله دون مستوى الآخرين ، وعندئذ يدرك الطفل أن جميع أفعاله فاقدة للمعنى ، وأنه موجود تافه ، وفي مثل هذه الحالة كيف تستطيعون أن تلقنوا هذا الموجود الصغير معاني المسؤولية والاعتماد على النفس؟! » (1).

لا تغفلوا عن كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول : « اكرموا أولادكم » ولا تنسوا قوله : « ولا يرقه ولا يخرق به ».

ارشاد الطفل :

لا- ريب في أن الطفل يحتاج لمعرفة الخير والشر إلى إرشاد أبويه. فعليهما أن يعلماه موارد الخير ويحثاه على العمل به ، ويبصره بالشر ويحذراه منه. ان مجموعة الأوامر والنواهي الصادرة من الوالدين الى أطفالهما تمثل تنفيذاً لواجب تربوي مقدس ، ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أن هذه الأوامر والنواهي يجب أن لا تتجاوز الحد المعقول ولا تصل الى حد الاهانة وجرح شعور الطفل الذي يؤدي بدوره الى نتيجة عكسية.

هناك بعض الآباء يتدخلون في سلوك أطفالهم بدرجة كبيرة ، ظناً منهم بأنهم يحسنون تربيتهم بذلك ، فيتجاوزون بأوامرهم نواهيهم الحد المعقول ، ويسببون الجزع والملل لهم ولأطفالهم ، في حين أن الطفل يزداد انحرافاً يوماً بعد آخر.

إذا كان للطفل سلوك غير محبذ فعلى الوالدين أن يرشده الى الطريق الصحيح بأسلوب هادىء لا يصيب شخصيته باهانة او تحقير. ذلك أن الاكثار من توبيخ الطفل وتوجيه اللوم والتفريع نحوه والاصرار على هذا العمل المقترن بالاهانة وتحطيم الشخصية ، لا ينتج النتيجة المطلوبة من اصلاح الطفل فحسب ، بل يؤدي الى اصراره وعناده والاستمرار في افعاله الفاسدة رغم أنف والديه وفي هذا يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « الإفراط في الملامة يشبُّ نيران اللجاج » (2).

ص: 61

1- ما وفرزندان ما ص 56.

2- تحف العقول ص 84.

الوالدان يحاولان من وراء اللوم والتقريع المتواصلين أن يمنعا الطفل من ارتكاب العمل الذي قام به ، ويريدان أن يحطما شخصيته وإرادته ، ويحملا إرادتهما عليه. أما الطفل فلا يقف مكتوف اليدين ، ولذلك فلاجل أن لا يكون قد اندحر في الميدان تماماً ، يصمم على مقاومة أبويه فيثبت شخصيته بالاستمرار في العمل الفاسد الذي كان قد ارتكبه.

« إذا كان سلوك الطفل فاسداً وشريراً بصورة خاصة فيجب اتباع المعارضة يقابل بالفشل ، لأن كل حاجز يحث الإنسان لي اجتيازه. إن ألف (لا تفعل) ولا- تفعل الصادرة من الوالدين تفتح أمام الطفل عالماً من (الممكّنات). إن الطفل يفكر في نفسه قائلاً : (يجب أن لا أفعل هذا؟ إذن أستطيع أن أفعله ، والآن أقدر عليه أيضاً) فسلوك كهذا يوجد في الطفل على ما يكون سبباً في قيامه بذلك العمل. علينا أن نرشده الى ما ينبغي أن يؤديه ، أن لا نجرح عواطفه ، ولكن لا يعني هذا ان نتركه وشأنه. يجب في هذا السبيل أن نعين له ميولاً أخرى تحل محل الميول السابقة ، نوجهه نحو اهداف مفيدة ومساعدة على ظهور شخصيته » (1).

الطغيان الناشيء من التحقير :

إن الآباء والأمهات الذين يسيئون الى أطفالهم بسوء إدراكهم ويحطمون شخصيتهم يدفعونهم الى المخالفة والطغيان والفوضى ويبدرون في نفوسهم بذور العناد والخروج على القواعد الإجتماعية ... وهذا ما يجزّ وراءه سلسلة من المآسي والمشاكل ، وبهذا الصدد يقول الإمام الحسن العسكري عليه السلام : « جرأة الولد على والده في صغره ، تدعو الى العقوق في كبره » (2).

ص: 62

1- چه ميدانيم؟ اطفال دشوار ص 77.

2- تحف العقول ص 489.

الآباء والأمهات الذين يحترمون أطفالهم ، ويكبرون فيهم معنوياتهم ، ويسايرونهم بالأخلاق الكريمة والآداب الفاضلة يستطيعون أن يربوهم على صفات الحميدة ، وإذا صادف أن ظهر في سلوكهم ما يؤدي الى الانحراف فإن من السهل عليهم أن يكافحوا ذلك.

الطفل كالكبار في أنه يحب ذاته ، فعندما يفهم أن العمل الفاسد يسيء. ويحطم شخصيته ، ويقلل من منزلته في أنظار الناس ، ويؤدي إلى احتقاره في محيط الأسرة ، يترك ذلك فوراً حفظاً على مقامه ويقوم باصلاح نفسه بصورة تلقائية. يقول الامام أمير المؤمنين عليه السلام : « من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهوته » (1) وعنه عليه السلام أيضاً : « من شرفت نفسه نزهاها عن ذلة المطالب » (2) :

وبهذا المضمون وردت روايات كثيرة ، منها :

« عن علي عليه السلام : من كرمت عليه نفسه لم يهنها بالمعصية » (3).

وعن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام : « من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا » (4).

شرف النفس والاستقامة :

يستفاد من هذه الأحاديث أن شرف النفس لا يتلاءم مع الانحرافات والمعاصي. ان من يحس في نفسه بالكرامة والشرف ، ويرغب في الحفاظ على هذه الجوهرة الثمينة في خزانة روحه بصورة دائمة لا يحوم حول الذنب والانحراف أبداً. إن من يرغب في أن تكون له شخصية لا معه وسمعة طيبة يجب أن يمتنع عن الكذب ، ومن يحب في أن يتلمس آثار الشرف والعدالة والاستقامة في نفسه لا يستطيع أن يرتشي ، ومن عرف في المجتمع بالأمانة ويرغب في الإبقاء على ذلك لا يقوم على الخيانة.

أما من لا يملك شرف النفس وحسن السمعة ، ويعتبر تافهاً في نظر المجتمع ،

ص: 63

1- سفينة البحار للقمي - مادة شها ، ص 726.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 669.

3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 677.

4- تحف العقول ص 278.

ويحس بالحقارة في نفسه أيضاً. ويكون خطراً على المجتمع الذي يعيش فيه فلا يتورع عن الإجرام والتلوث بالذنوب والمعاصي.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: « من هانت عليه نفسه فلا ترجُ خيره » (1).

وعن الإمام علي الهادي عليه السلام: « من هانت عليه نفسه فلا تأمن شره » (2).

وفي حديث عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): « هانت عليه نفسه من أمر عليه لسانه » (3) فالشخص الذي يطلق العنان للسانه بالسب والشتم والغيبة والفحش في القول يكشف عن حقارة نفسه وخسة طبعه.

لكي يؤدي الوالدان الدين التربوي الذي في عاتقهما تجاه الطفل ، ويربّياه على الرغبة في الخير من دون ضغط أو تهديد ، ويوجد فيه شخصية متكاملة ، عليهما أن يحترماه ويسلكا معه بحيث يفهم أنه عضو مستقل في الأسرة وله من الاحترام والتكريم ما للآخرين.

« يكفي للمربين وللأولياء أن يحترموا هذا العالم المعقد والمبهم (أي الطفل) ولا يحكموا على عالمه المعقد بشيء. يجب عليهم أن يدفعوا الطفل الى النشاط والعمل بمحركاته لا بواسطة محركاتهم ، وبهذه الطريقة يستطيعون أن يوجدوا جوا التفاهم ويبدروا فيه بذور الاعتماد على النفس والاستقلال ».

« لا-نعني من هذا أن للطفل أن يمارس ما يشاء من رغبات وميول غير مناسبة. ولكن عندما يدرك الطفل أنهم فهموه وعرفوا حقيقته فلا يسيء التصرف الى قابلياته ، انه يدرك حدوده وحدودنا. انكم قد علمتموه القواعد والآداب والعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية. أنه يحس بأن هذه الآداب والقواعد تسهل ارتباطه بالمحيط الذي يعيش فيه دون الاضرار بحريته إذن فهو ينقاد لها بكل

ص: 64

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 712.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج17 ص214.

3- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 1079.

رغبة وارتياح. ان احترامتموه فهو يستمر على إحترامكم أيضاً».

« إذا وجد أنكم لا- تسخرون منه عندما يصارحكم بأفكاره ويتباحث معكم بشأنها ، ولا تعترضون عليه في كل آن ، فلا يملك دليلاً على تخلفه ومن النادر أن يخرج على تعاليمكم».

« ولأجل هذا النظام فإنه يحترم الآخرين ويجعل نفسه محترماً في نظر الآخرين وتكون له روابط طيبة مع كل أحد. لأنه يعطي كل شخص حقه حتى يستطيع أن يطالب بحقه « (1).

إن الآباء والأمهات الذين يتذكرون كلام- رسول الله دائماً حيث يقول : « اكرموا أولادكم ، واحسنوا آدابكم » ويطبقونه في كل حين ، يستطيعون تربية أطفال شرفاء ذوي شخصية ، وتدريبهم على الصفات الفاضلة والسلوك المحبذ.

تحقير الطفل :

يجب أن نعترف - بكل أسف - بما يجري في بلادنا تجاه الأطفال من التحقير على خلاف تعالي الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله . فإن أكثر الآباء لا يهتمون برعاية احترام أطفالهم ، ويوجدون في نفوسهم عقدة الحقارة من حيث يعلمون أو لا يعلمون. وعلى سبيل المثال أذكر لكم بعض النماذج التي شاهدتها من قريب ، وربما لاحظتها السادة الحاضرون أيضاً.

1 - من المتداول في الحفلات والمجالس أن تبعث بطاقات للكبار فقط. بعض الآباء يصحبون معهم أولادهم الذين في السن الثامنة أو العاشرة - وهؤلاء يملكون نفوساً حساسة - من دون دعوة ، وبهذا العمل فإنهم يلقنونهم الذلة والحقارة ، ويفهمونهم بصورة غير مباشرة أنهم لا يليقون للدعوة. لا بد أنكم لاحظتم ما يحدثه إرسال صاحب البيت بطاقة خاصة للصبي الذي يملك من العمر عشر سنين من أثر عظيم في روح الطفل ، فيحضر الحفلة بعزة وفخار ، شاعراً بالاستقلال والاحترام!

2 - عندما يجلس الكبار على المائدة يوضع أمام كل منهم صحن وملعقة

ص: 65

1- چه میدانیم؟ تربیت اطفال دشوار ص 71.

وشوكة. وقد لاحظت مراراً أن الأطفال لم تخصص لهم صحنون ، فيأخذون بالنظر الى حولهم بانكسار الى أن يرق قلب الأب أو أحد الحاضرين فيفرغ للصبي صحن الخضروات الصغير ويناوله إياه. إن هذا تحقير صريح للطفل أمام ذلك الجمع الكبير ، وهو ضربة قاصمة ترد على شخصيته وربما تلازمه مدى العمر.

3 - يحين وقت النوم ، فيخصص لكل من الضيوف الكبار سرير خاص أو فراش معين ، ويبقى الصبي الصغير حائراً دون أن يفكر في امره أحد ، كأنهم لم يعتبروه إنساناً ولم يخصصوا له سريراً ، وأخيراً يلجأ مع الإحساس بالفشل والإنهيار الى فراش أبيه أو أحد أقربائه!

4 - الأب جالس مع الضيوف في غرفة الاستقبال وهم يتحدثون. يدخل الصبي في العاشرة الى الغرفة يقوم الضيوف احتراماً له ، من المناسب في هذه الحالة ان يسكت الأب حتي يقوم الصبي نفسه بتوجيه الشكر لهم ، أو أنه اذا لم يستطع ذلك يقول له الأب : تشكر من السادة ويقول هو : أشكركم. لقد شاهدت مراراً أنه بمجرد أن يحترم الضيوف الصبي ، يظهر الأب خجله من ذلك فيقول لهم وكأن عملاً سيئاً قد وقع : استريحوا ، تفضلوا ، وبهذا العمل يستغ التحقير لولده ... وهنا يحس الصبي بأن أباه يريد أن يقول للضيوف : إن ابني لا يليق بالاحترام والتكريم ، لا تعتنوا به ولا تقوموا له.

5 - كثيراً ما يشاهد أن الآباء لا يحجزون في بعض السفرات القصيرة مقاعد لأطفالهم لغرض الاقتصاد في الصرف. فيقف الطفل طول الطريق ، وعندما يتعب يجلس في حجر الأب. هنا يحس الطفل بأنه لا يملك من المنزل والاحترام ما يستوجب أن يحجز له مقعد خاص حتى يجلس كالآخرين. خصوصاً إذا كان هناك طفل في سنه قد حجز له أبوه مقعداً ، إن الأب يحاول أن يقتصد بعض الشيء ولكنه يوجه ضربة قاصمة نحو شخصية الطفل ويهينه بعمله هذا.

رد الفعل :

قد يظهر الطفل أمام هذه الالهانات رد فعل فوري ، فيغضب ، أو يتحسر ويتألم ،

أويكي ، وقد يتفاقم ذلك فيظهر بصورة أعمال استفزازية منكرة. ان تكرار الأعمال التي تتضمن التحقير والاهانة يوجد في ضمير عقدة نفسية ، ويجعله إنساناً تافهاً ، ويقتل فيه قابلية الاعتماد على النفس واستقلال الشخصية وتلازمه ويلات ذلك كله مدى العمر.

يستفاد من بحوث علماء الغرب أن بعض الأسر الأوروبية أيضاً لا تهتم باحترام الاطفال وتقوم بتحقيروهم مما يجعل الأطفال المساكين يننون من ذلك ويتألمون من الإهانات التي يلاقونها.

« الإحساس بالحقارة - كلنا نعرف رجالاً ونساءً يعيشون في حالة من عقدة الحقارة. ان عدد هؤلاء ضخمة جداً ، وان 90 بالمائة من عوامل هذه الحالة النفسية يجب أن نبحت عنها في أدوار الطفولة. وعلى هذا الإحساس تظهر حالة من انهيار شخصية الطفل في الوقت الذي تبدأ غرائزه الاجتماعية بالفتح. إن من الممكن أن تعمل عوامل أخرى على تقوية هذه الإحساس لكن نشوء يرجع الى دور الطفولة بلا شك ».

« تصورا أما ترى طفلها يرفع أصيصاً جميلاً من مكانه فتتصور أن الأصيص ربما يكسر بهذا العمل فتتألم لذلك ، ولأجل أن لا يحدث مثل هذا الموضوع الخطير في نظرها في المستقبل تمنع الطفل من لمس ذلك الأصيص ، في حين أن المربية تلمس الأصيص الطريف بكل حرية ، وإذا صادف أن أحد الضيوف كسره عن غير عمد تحاول الأم أن تعلن بكلمات براقة وعبارات ظريفة أن أمراً مهماً لم يقع وأن الأصيص لا يساوي شيئاً , هذا الحادث المخفف يوصل الطفل إلى هذه النتيجة وهي أنه وحده الموجود الخطر الذي يخشى منه على الأصيص وسائر الأثاث ، إذن فهو موجود أحقر وأخط من الآخرين » (1).

ص: 67

تبين لكم مما تقدم معنى إحترام الطفل ونتائجه المفيدة في المنهج التربوي ، والآثار السيئة التي تنشأ من إهانة الطفل وتحقيره. ان احترام الطفل يجعله ينشأ على الاستقلال والاعتماد على النفس ، وزرع فيه بذور الشخصية والتعالي.

لقد عمل أئمة الإسلام بالاضافة الى تفهيم الناس بالأساليب التربوية الصحيحة ، على تطبيق ذلك وتعليمهم إياها بصورة عملية ، فقاموا بتربية أولادهم وفقاً لأحسن الصفات الفاضلة. ولأجل إيضاح الموضوع وإكمال البحث لا بأس باستعراض بعض الأساليب العملية للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام في إحياء شخصية الأطفال. تربى علي بن أبي طالب عليه السلام منذ الصغر في حجر النبي العطوف واستوعب جميع الصفات الفاضلة والسجايا الحميدة من قائد الإسلام العظيم ، وان حياته النيرة وسلوكه العظيم أحسن شاهد على حسن تربيته في دور الطفولة.

تربى علي بن أبي طالب عليه السلام مهذبا الصغر في حجر النبي العطوي واستوعب جميع الصفات الفاضلة السجايا الحميدة من قائد الإسلام العظيم ، وان حياته النيرة وسلوكه العظيم أحسن شاهد على حسن تربيته في دور الطفولة.

ومن الصفات البارزة للإمام علي عليه السلام رصانة شخصيته ، واستقلال ارادته. والرغم من أن علياً عليه السلام لم يكن طفلاً عادياً من حيث الروح والجسد - فقد كانت مواهب وقابليات خاصة أودعت في كيانه الممتاز - لكن الاشراف المباشر من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كان له اكبر الأثر في إبراز تلك المواهب والقابليات.

عندما بعث النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان علي (عليه السلام) صبياً لا يتجاوز العاشرة ولكنه كان يملك شخصية انسان كامل. لقد عرض الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) الإسلام عليه ودعاه الى اعتناق هذا الدين السماوي فأكد على كفاءته وعظمة شخصيته بهذا العمل المهم. وما كان من علي عليه السلام إلا أن يستجيب لدعوة النبي عن بصيرة وإيمان ووعي.

إن الصعوبات والمشاكل التي نوجه الرجال في حياتهم غالباً ما تحطم شخصيتهم ، فيخسرون المعركة ويصابون بعقدة الحقارة ... في حين أن العواصف الشديدة التي هددت كيان الإسلام في الفترة التي سبقت الهجرة وبعثت الذعر.

والقلق في نفوس المسلمين لم تستطع أن تزحزح من عزم الإمام علي بن أبي طالب ذلك القائد العظيم ، ولم تقدر على أن تؤثر فيه قيد شعرة.

هذا الثبات ، وهذه الاستقامة - بغض النظر عن الاستعداد الفطري للإمام عليه السلام - يرجع الى التربية الفذة التي لقيها من مربيه العظيم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، الذي قوى من شخصيته ومنحه الكثير من علمه وحكمته وسيرته.

وكذلك الحسن والحسين عليهما السلام فإنهما تلقيا تربية ناجحة ، ونالا جميع الكمالات في الصغر على يد جدهما العظيم وأبويهما القديرين. حتى لقد قال المأمون العباسي عنهما أمام ملاً من رجاله : « وبائع الحسن والحسين عليهما السلام ، وهما ابنا دون الست سنين ، ولم يبايع صبيّاً غيرهما » (1) فمبايعة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للحسين عليهما السلام وهما لم يبلغا الست سنين دليل على أنهما حازا على مواهب عالية وتربية فذة ، فاستطاعا بذلك أن ينالا هذه المرتبة العظيمة.

ومن خلال الحديث التالي نتبين عظمة شخصية أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله عن أبيه : ان الحسين بن علي عليهما السلام أتى عمر ثم قال : صدقت يا بُني ، منبر أبيك لا منبر أبي. وقام علي (عليه السلام) وقال : ما هو والله عن رأيي. قال : صدقت ، والله ما اتهمتكم يا أبا الحسن « (2) فخذت دليل على أن عمر أيضاً كان يعرف أن الحسين ذو شخصية ممتازة وله إرادة مستقلة وليس كلامه هذا صادراً عن تلقين من أبيه بل هو نتاج فكره.

هذا وان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كان يسأل أولاده بحضور من الناس بعض المسائل العلمية ، وربما كان يحيل الجواب على أسئلة الناس اليهم. ومن النتائج المهمة لهذا العمل ، احترام الأولاد وإحياء الشخصية فيهم.

وفي يوم من الأيام سأل الإمام عليه السلام من الحسن والحسين بعض الأسئلة ، فأجاب كل منهما أجوبة حكمية بعبارات قصيرة ... « ثم التفت الى الحارث الأعور فقال : يا حارث علموا هذه الحكم أولادكم فإنها زيادة في العقل والحزم

ص: 69

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج12 ص119.

2- مجموعة ورام ج2 ص88.

والرأي « (1) ... إن الأب الذي يسلك مع أولاده هذا السلوك الممتاز ويجعل الكلمات الصادرة منهم قدوة لبقية أولاد المجتمع يكون قد احترمهم بأحسن صورة وأحیی فيهم الشخصية الفذة الكاملة.

هناك نموذج فذ للشخصية الرصينة نجده في الحوار التالي بين الإمام محمد الجواد عليه السلام والمأمون العباسي. ذلك أن المأمون قصد بغداد بعد وفاة الإمام الرضا عليه السلام، وخرج يوماً للصيد فمرّ في أثناء الطريق برهط من الأطفال يلعبون، ومحمد بن علي واقف معهم وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة فما حولها... فلما رآه الأطفال فروا، بينما وقف الجواد عليه السلام في مكانه ولم يفر. هذا الأمر اثار تعجب المأمون فسأله :

- لماذا لم تلحق بالأطفال حين هربوا.

فقال له : يا أمير المؤمنين ، لم يكن بالطريق ضيقٌ لأوسّعه عليك بذهابي ، ولم يكن لي جريمة فأخشاها ، وظني بك حسنٌ ، أنك لا تضر من لا ذنب له فوقفت.

لقد تعجب المأمون من هذه الكلمات الحكيمة والمنطق الموزون والنبرات المتزنة للطفل. فسأله : ما أسمك؟
قال محمد.

قال : محمد ابن من؟

قال : ابن علي الرضا... عند ذاك ترحم المأمون على الرضا عليه السلام ثم ذهب لشأنه (2).

لقد تربي الإمام الجواد عليه السلام في حجر والده الرضا (عليه السلام) وتعلّم دروس الشخصية والفضيلة من مربيّة العظيم. وهكذا شأن بنات أهل البيت ونساءهم فقد كانوا على جانب عظيم من التربية الفاضلة والسلوك الممتاز... تلقوا ذلك كله من آبائهم وأمّهاتهم الطاهرين. لقد

ص: 70

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج17 ص144.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج12 ص122.

عملت الحوادث والمآسي التي جرت على أهل البيت عليهم السلام بعد وفاة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، على إظهار عظمتهم ورصانة شخصيتهم ومستواهم المعنوي وتفوقهم الروحي من خلال أفعالهم وأقوالهم. ان خطب الصديقة الزهراء في مسجد رسول الله بحضور الخليفة والحشد الغفير من المهاجرين والانصار ، وكذلك كلمات بضعتها الحوراء زينب ، وخطب السيدة سكينة بنت الحسين عليه السلام أصدق شاهد على ما قلنا ، فهي توضح عظمة منزلة نساء أهل البيت.

ولكي يقوي الوالدان من معنوية الأطفال ويحييا شخصياتهم ، عليهما أن يعوداهم على الاحترام والتكريم ويحذرا من توجيه اللوم والتقريع والاهانة اليهم ويتذكرا قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله : « اكرموا أولادكم وأحسنوا آدابكم ».

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : («قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ» (1)).

لقد توصلنا في المحاضرة السابقة الى النتيجة التالية ، وهي أن الأطفال لوقبلوا بالتكريم والاحترام من الوالدين في محيط الأسرة فلا ينشأون حقراء أذلاء ، ولا يحسون في أنفسهم بالخسة والضعفة. وفي هذه المحاضرة نبدأ من حيث انتهينا أمس لبحث تتمة الموضوع ، وقبل ذلك لا بأس بذكر أمرين :

الأطفال المعقدون :

الأول : أن بحثنا التربوي هذا يدور حول الأطفال العاديين لا المعقدين أو الأطفال المصابين بالجنون والبلادة الموروثة. وبعبارة أوضح فإن بعض الأطفال يتولدون مجانين أو حمقى ويكون لهذه النقيصة الوراثية جذور عميقة في كيانهم ، وهؤلاء يستحيل أن يصبحوا عقلاء أو أذكاء في يوم ما ، وليس في مقدور المربي القدير أن يحولهم إلى أفراد أكفاء.

كما أن هناك أطفالاً ليسوا بالمجانين ولكن سلوكهم ليس عادياً ، انهم مشاغبون وفوضويون ، هؤلاء عليهم اسم الأطفال المعقدين في البحوث التربوية.

« ان عنوان الأطفال المعقدين يشتمل على معان كثيرة في الحقيقة. فهو يطلق بالدرجة الأولى على الأطفال المشاغبين أي الصبيان الذين تنظر اليهم التربية المعاصرة نظرة التحقير والاستغراب. هؤلاء الأطفال يتسببون في كثير من المفاسد والتخريبات بواسطة القوى

ص: 72

التي يستخدمونها للوصول الى مقاصدهم» (1).

هناك عوامل عديدة تفسر بموجبها هذه الحركات الشاذة للأطفال ، فيجب أن تعرف معرفة دقيقة حتى يتسنى العمل على إزالتها. في بعض الأحيان يكون الدافع إلى الأعمال الشاذة والحركات الصارة للطفل المعقد وجود العاهات أو النقائص العضوية أو التشوهات في بدنه ، في هذه الحالة يكون الطفل مريضاً فهو بحاجة الى علاج.

« كما ان الطفل المريض لا يُرسل الى المدرسة ، كذلك يجب أن لا نخضع الطفل الذي ليس سليماً من الناحية الفسيولوجية الى تربية جديدة. كل طفل معقد يجب أن يخضع قبل تربيته ، أو إعادة تربيته ، إلى فحص دقيق. وفائدة هذا العمل أن جهود المربي لا تصرف عندئذ في سبيل تربية طفل يحتاج إلى رعاية صحية أو روحية فقط ».

« فمثلاً تعتبر التربية بوحدها عقيمة في فحص حالات الحقد التي ترتبط ببدء الصرع. والسرقات الحاصلة في دور المراهقة والتي تحصل على أثر الإختلالات لحادثة في الغدة النخاعية ، وأعمال الشغب الناشئة من تخلف النمو العصبي ، وحالات العصاب المتصلة بآثار الالتهابات الدماغية ، والكسل الذي يولد من قلة إفرازات الغدد الثايرويدية ، والإختلالات الحاصلة من ثلة من الأمراض الروحية الموروثة » (2).

هؤلاء الأطفال يجب أن يخضعوا لأساليب تربوية خاصة من قبل المتخصصين في التربية النفسية والعلاج الروحي والعصبي ، وان المناهج التربوية الاعتيادية لا تعود عليهم بالنفع أو الاثر أصلاً.

إن بحثنا يختص بتربية الأطفال الإعتياديين والطبيعيين ، الأطفال المتولدين من آباء وأمّهات أصحّاء في ظروف طبيعية. ذلك أن استعمال الأساليب التربوية في حق هؤلاء يتضمن فوائد عظيمة

ص: 73

1- چه ميدانيم؟ تربيت اطفال دشوار ص 9.

2- چه ميدانيم؟ تربيت اطفال دشوار ص 17.

وآثاراً مهمة. فإذا تنبه الآباء والأمهات في هذه الحالة إلى المسؤولية العظيمة الملقاة على عواتقهم واهتموا بإيجاد جو مناسب للتربية الصالحة في الأسرة والتموا الصدق في الحديث والإستقامة في السلوك مع أطفالهم ، وطبقوا المناهج التربوية في كل خطوة ومرحلة ، فإنهم يستطيعون تربية أطفال مهذبين وأكفاء من كل جهة ، ويكونون بذلك قد نفذوا الأوامر الإلهية وأدوا ما عليهم تجاه أطفالهم تجاه المجتمع الذي يعيشون بين ظهرانيه.

أهمية تربية الطفل :

الثاني : ان مسألة تربية الطفل تشغل مكانة مرموقة من المسائل الإجتماعية في العصر الحديث ، فهي من أهم أركان السعادة البشرية. لقد بحث العلماء كثيراً حول مختلف الجوانب النفسية والتربوية للطفل وألفوا الكتب العديدة في هذا المجال. ولذلك فإن الدول العظمى تنشئ المؤسسات والمنظمات العظيمة لغرض تنشئة الطفل تنشئة سليمة من حيث الروح والجسد فيخضعون الأطفال في سبيل ذلك الى رقابة عملية وتطبيقية مشددة. وبصورة موجزة فإن (الطفل) يشغل مجالاً مهماً من مجالات التفكير الحديث.

أما الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فقد ظهر قبل أربعة عشر قرناً ، وفي عصر يعمه الجهل والضلال ، في المجتمع الحجازي المتأخر ... وأخذ يبدي اهتماماً بالغاً إلى قيمة تربية الطفل ، وبدأ يرشد أتباعه إلى التعاليم اللازمة في هذا الصدد. لقد عالج الإسلام جميع القضايا التي ترتبط بالعلاقة الزوجية ، وشروط الرجل والمرأة من حيث طهارة النسل المنحدر عنهما ، وكذلك شروط الرضاع ، وتنشئة الطفل خطوة خطوة.

هناك حقائق نفسية وتربوية كثيرة حول منهج تربية الطفل يذكرها العلماء المعاصرون في كتبهم وأبحاثهم في حين سبقهم الى التصريح بها أئمة الإسلام وقادة المسلمين عليهم السلام في القرون الماضية. وما أكثر المسائل العلمية التي ذكرها أئمتنا عليهم السلام حول تربية الطفل وسائر الموضوعات ولكنها لم تصل إليها لصعوبة التدوين والكتابة! إن الهدف من تربية الطفل في هذه المحاضرات أمران : الأمر الأول أن يدرك

المستمعون الكرام - والطبقة المثقفة منهم بالخصوص - إلى عظمة التعاليم الإسلامية ومدى شمولها لمختلف جوانب الحياة ، ويطالعوا على القيمة العلمية لهذه الحقائق فيتبعوها بإيمان أعمق واعتقاد أقوى. والأمر الثاني هو أن يتنبه أولياء أمور الأطفال إلى المسؤولية الدينية والوطنية الخطيرة الملقاة على عواتقهم بالنسبة إلى تربية الصبيان المودعين بأيديهم ، ويقوموا بواجبهم هذا خير قيام.

مما لا ريب فيه أن شطراً كبيراً من المأسى والمشاكل الاجتماعية وجانباً مهماً من الانحرافات الخلقية لشبابنا يعود إلى سقم الأساليب التربوية المتبعة بحقهم في أيام الطفولة ، ولسوء التربية في الأسرة جذور مختلفة بحسب المستوى الذي يبلغه الآباء والأمهات من حيث التكامل الروحي أو الانحطاط المعنوي.

مضار التربية الفاسدة :

يتميز بعض الآباء والأمهات بكونهم فاسدين وذوي أخلاق سيئة ، فهؤلاء لا يربون أولادهم إلا على الفساد والانحراف ، لأن الأطفال يتعلمون دروس الانحراف وسوء الخلق من آبائهم وأمهاتهم فينشأون على ذلك السلوك المتطرف ، ومن البديهي أن هذا السلوك لا يعكس في المجتمع إلا آثاراً فاسدة.

كما يتميز بعض الآباء والأمهات بأنهم يصرفون جل اهتمامهم إلى ضمان الغذاء واللباس والمأوى لأطفالهم ، ولعدم توفر النضج العقلي الكافي فيهم فإنهم يهملون الجوانب التربوية والخلقية للطفل ، وحتى لو حاولوا أن يقوموا بهذا الواجب العظيم فإنهم لا يعلمون ماذا يفعلون؟ وماذا يقولون؟ وكيف يرشدون الطفل؟ لأنهم لم يفكروا يوماً ما في أمر استيعاب المناهج التربوية الصالحة ولم يحاولوا أن يفهموا واجبهم في هذا المجال.

تهاون بعض الآباء :

أما طائفة أخرى من الآباء والأمهات فهم يعرفون معنى التربية الخلقية والتنشئة الروحية للطفل إلى درجة ما ، ويعرفون السبل إلى تحقيق ذلك ولكنهم يتهربون عن واجبهم بصورة عملية ، ولا يجدون مسؤولية ما على عواتقهم في هذا المجال. وكأن هؤلاء يتصورون أن النمو النفسي للطفل يخضع للحوادث الفجائية وللصدقة فيتركونه

بيد الأقدار توجهه كيفما تشاء مهملين واجبههم المقدس ... في حين أنه لا- يمضي وقت طويل حتى يجني الآباء الثمار السيئة لذلك الإهمال والتهاون. هؤلاء الأطفال يخضعون لتأثير العوامل الهدامة والمضللة بسرعة لأنهم يفقدون الشخصية الخلقية المستقلة ولا يملكون القوة النفسية التامة ، فينحرفون عن الصراط المستقيم ، ويقدمون على مختلف أنواع الجرائم والمعاصي ، والوزر في ذلك كله يعود على الوالدين.

إن دور الطولة يحتل الأهمية العظمى في تقرير أساس الحياة. وإن السلوك المفضل أو الفاسد للأفراد يعود إلى الأساليب التربوية الصالحة أو الفاسدة المتخذة في حقهم ، إن الفرد يسير طيلة أيام عمره على طبق الخلقيات الخاصة به ، وإن أساس الخلقيات ينشأ في أدوار بالطفولة. وبهذا الصدد يذكر القرآن الكريم : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) وشاكلته : أي خلقه وطبيعته. إذن فالآية الكريمة تصرح بأن أفعال كل فرد وأقواله إنما تسير حسب خلقه وطبيعته التي نشأ عليها.

« إن الحقيقة التي تتضح يوماً بعد يوم هي أن للإدراكات الحاصلة في دور الطفولة والحوادث والتجارب الواقعة في تلك الفترة تأثيراً قاطعاً على حياة الإنسان ، إذ نستطيع القول بصراحة بأن هذه الإدراكات والتجارب تعتبر الأساس لسلامة الأفراد وسقمهم ، وسعادتهم وشقائهم طيلة أيام العمر ».

« إن الطفل يصنع في الأعوام الأولى من حياته سدى حياته ولحمتها ، وبمجرد أنه يترك المهد ويأخذ في المشي يكون قد تقرر ما ينبغي أن يقع وما لا ينبغي ».

« تصب ركائز مشاعر الطفل وأحاسيسه من أولى أيام الرضاع ، أي أن العالم الخارجي إما أن يبدو أمراً منسجماً وباعثاً على الأمل في نظره ، أو أنه يفهم منذ ذلك اليوم أنه عبارة عن مجموعة من اليأس والعذاب. إما أن يفهم منذ البداية أنه يجب التغلب على المحيط الخارجي بالبكاء والعويل ، أو يذعن بأن هناك من يفهم وضعه بصورة جيدة ويهيء له العوامل المساعدة. هذه الحقائق وحقائق

أخرى تترك أثراً كبيراً على تفكير الطفل الرضيع ، بحيث تلازم شخصيته طيلة أيام الطفولة والمراهقة والشيخوخة « (1).

إننا نأمل أن يهتم الآباء والأمهات المسلمون بأداء واجباتهم في سبيل تربية أطفالهم ، ويستمدوا العون من الله العلي القدير في الوصول الى هذا الهدف المقدس. أما بحثنا هذا اليوم : -

احياء شخصية الطفل :

لقد ذكرنا في المحاضرة السابقة أن تكوين شخصية الطفل من الفصول الأساسية في التربية ، ولكي ينشأ الأطفال على الاستقلال ، ويعتادوا الاعتماد على النفس ، ولا يصابوا بالحقارة والضعة ، يجب على الآباء والأمهات أن يهتموا بهذا الأمر اهتماماً بالغاً منذ الطفولة فيحاولوا أن ينموا مقومات الشخصية في أفلاذ اكبادهم بحديثهم وسلوكهم ، يجب عليهم أن يسلوكوا معهم بصورة يعتقد الأطفال معها أنهم ذوو شخصية مستقلة وأنهم أعضاء حقيقيون في الأسرة. إن من أسلم الطرق وأفضلها في احياء شخصية الطفل احترامه والامتناع عن تحقيره وإهانته وقد صرح بهذا الموضوع في الحديث الذي ذكرناه ضمن المحاضرة السابقة حيث يقول النبي صلى الله عليه وآله : « اكرموا أولادكم ». وقد أشار العلماء المعاصرون في الكتب النفسية والتربوية الى هذين الأمرين ، أعني : احترام الطفل ، وعدم تحقيره.

« على الوالدين أن يسعيا للنفوذ إلى أعماق قلب طفلهم حتى يرى المسائل بالشكل الذي يريانه. قد يسمع الأطفال أن حديثاً يدور حولهم ، وأن الحديث يتناول ذمهم وذكر معائبهم ، وتأويل سذاجتهم الى شيء من البلادة والحمق ... عند ذاك يدركون أن الكبار يحتقرونهم ، ويوجهون اللوم والتقريع نحوهم دون أن يفهموا روحياتهم ، في حين أن هؤلاء الأطفال الأبرياء لا يعلمون السبب في توبيخهم وتأنيبهم. أو أنهم يجبرون على سلوك معين في حين يجهلون العلة الصحيحة والمنطقية لذلك ... بهذه الصورة ينفصل

ص: 77

عالمهم عن عالم الكبار في حين أنهم توصلوا تلقائياً الى هذه النتيجة ، وهي أن الكبار موجودات تختلف عنهم ، وان عليهم أن يتسلحوا بالسلاح الكافي للدفاع عن حقوقهم تجاههم».

« يجب عليهم أن يحاولوا أن لا ترتفع اصواتهم مع الأطفال اكثر مما هو الحال عند الحديث مع زميل أو صديق لهم. أما الإرشادات فعندما تصبح ضرورية يجب أن تساق بالهدوء واللين بحيث لا يتوجد حاجزاً بينهم وبين الأطفال ، أو تؤدي إلى نفورة وحقد.

فإذا سار السلوك مع الأطفال على هذا النحو نشأوا ذوي شخصية ممتازة ، واعتادوا على الاعتماد على النفس».

« يجب إفهام الطفل بأنه عضو فعال في الأسرة ، وأن عليه مسؤولية معينة يجب أن يلتزمها ويقوم بأدائها » (1).

مشاعر الطفل الرضيع :

ان النكتة الجديرة بالاهتمام من قبل أولياء الأطفال هي أن ركائز شخصية الطفل تصب في وقت مبكر جداً. فمنذ الأسابيع الأولى ، ومن حين الرضاع ... حيث الطفل يعيش في المهد ، تبدأ مشاعر الطفل بالعمل وفي حين أنه لا يتكلم ، ولا يستطيع المشي ، ولا يقدر على قبض شيء بأصابعه الضعيفة ، وبعبارة موجزة لا يعدو أن يكون قطعة من اللحم المتحرك القابع في زاوية ، لكنه يتأثر بالحدة والغلظة ، أو اللين والحنان ، وتنعكس في روحه النتائج الطبية أو السيئة لأفعال الآخرين.

على الوالدين أن يدركا الطفل منذ ذلك الحين ، ويقوما بواجباتهما التربوية في سبيل تنمية روحه وإحياء شخصيته.

« تنفذ المربي إلى انسجة الطفل وأعصابه وروحه كما ينفذ الماء في الأرض الرملية. يجب على المربي أن يتجنب الإهتمام إلى بعض العوامل فقط ، ذلك أن العوامل الخلقية مثلاً لا تقل أهمية عن العوامل الكيميائية والفسولوجية في ضمان قابلية العضلات على

ص: 78

المقاومة ، وان التكامل النفسي لا يمكن بدون الاستعانة بجميع عوامل النمو الأخرى. إذ المهم أن هذه العوامل يجب أن تستأثر باهتمام المربي بصورة مستمرة ، وفي الواقع فإنه يجب تطبيقها منذ اليوم الثاني من الولادة».

« ولهذا فإن الأم يجب أن تكون أعرف بميكانيكية تربية الطفل وطريقة استعمالها من المعلم. ان الطفل يدرك بسهولة أن بعض الأفعال لا يرتاح لها الأب أو الأم ، وان مدح الآخرين أو تأنيبهم يؤثر فيه تأثيراً كبيراً » (1).

أسلوب النبي في تربية الطفل :

لقد عمل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، مضافاً إلى توصية أتباعه الإهتمام بتربية الأطفال وبذل العناية البالغة بإحياء الشخصية فيهم ، على تطبيق جميع النكات والقائق اللازمة بالنسبة إلى أولاده ، فقد بعث فيهم الشخصية الكاملة منذ الصغر. لقد كان صلى الله عليه وآله يراقب أطفاله منذ الأيام الأولى للولادة ، فالرضاع ، فالأدوار الأخرى خطوة خطوة ، ويرشدهم إلى الفضائل العليا والقيم المثلى ، يحترمهم ويكرمهم حسب ما يليق بهم من درجة تكاملهم الروحي. وأهم من ذلك أنه كان لا يقصر اختتامه على أطفاله فقط ، بل كان يهتم بتربية أطفال الآخرين أيضاً ، فقد كان - في الواقع - مربية عظيماً وأباً عطوفاً لأطفال المسلمين أيضاً ، وكان يسعى لإحياء الشخصية الفاضلة فيهم قدر المستطاع وعلى سبيل الشاهد نذكر نماذج من سلوكه (صلى الله عليه وآله وسلم) في تربية أولاده وأولاد المسلمين أيضاً.

روي عن أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب - مرضعة الحسين عليه السلام - قالت : « أخذ مني رسول الله صلى الله عليه وآله حسيناً أيام رضاعه فحمله ، فأراق ماءً على ثوبه ، فأخذته بعنف حتى بكى. فقال صلى الله عليه وآله : مهلاً يا أم الفضل ، إن هذه الارقة الماء يطهرها ، فأى شيء يزيل هذا الغبار عن قلب الحسين؟ » (2).

ص: 79

1- راه ورسم زندكى ، تأليف : الكسيس كارل ، ترجمة : برونز دييري ص 168.

2- هدية الأحياب ص 176.

إن مرضعة الحسين عليه السلام ترى في البلبل الذي أحدثه على ثوب جده - شأنه في ذلك شأن سائر الأطفال - عملاً منافياً ، ولذلك فهي تأخذه من يد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بعنف في حين أن ذلك يخالف سلوك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الأطفال ، ومع فلذة كبده الحسين بصورة خاصة.

فالطفل الرضيع يدر العطف والحنان ، كما يدرك الحدة والغلظة بالرغم من ضعف روحه وجسده ، ولذلك فهو يرتاح للحنان ويتألم من الغلظة والخشونة. إن الآثار التي تتركها خشونة المربي في قلب الطفل وخيمة جداً بحيث أنها تؤدي إلى تحقيره وتحطيم شخصيته ، وإن إزالة هذه الحالة النفسية من الصعوبة بمكان. ولذلك فإن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول لمرضعة الحسين (عليه السلام) : إن ثوبي يطهره الماء ، ولكن أي شيء يزيل غبار الكدر وعقدة الحقارة من قلب ولدي؟

الرسول الأعظم وأطفال الناس :

هذه الرعاية التربوية نفسها كانت تنال أطفال المسلمين بصورة عامة فقد كان ينبه الآباء إلى واجباتهم في الحالات المناسبة. فقد جاء في الحديث.

« وكان صلى الله عليه وآله يوتى بالصبي الصغير ليدعوله بالبركة أو ليسميّه. فيأخذه فيضعه في حجره تكممة لأهله. فربما بال الصبي عليه فيصيح بعض من رآه حين بال. فيقول (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تزرعوا بالصبي فيدعه حتى يقضي بوله ، ثم يفرغ من دعائه أو تسميته. فيبلغ سرور أهله فيه ، ولا يرون أنه يتأذى ببول صبيهم ، فإذا انصرفوا غسل ثوبه » (1).

في هذا الحديث ثلاث نقاط جديدة بالملاحظة :

الأولى - أن الرسول الأعظم كان يستغل جميع الأساليب والوسائل لاحترام المسلمين وتكريمهم ، ومن ذلك احتضان أطفالهم الرضع بكل حنان وعطف ومعاملتهم بالشفقة ، فأحد أهداف النبي في عمله هذا هو تكريم أولياء الأطفال كما ورد التصريح بذلك في الحديث ... « تكممة لأهله ».

الثانية - إن الطفل يبول طبقاً لحاجته الطبيعية وأداءً لعمل فطري ، ولا يدرك في

ص: 80

عمله هذا استحسان المجتمع أو استيائه. ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وآله يقول : لا تغلظوا معه ولا تمنعوه من التبول ، دعوه حراً. ولا شك في أن إجبار الطفل على إمساك ما تبقى من بوله يخالف القواعد الصحية.

الثالثة - إن خشونة الوالدين وغلظتهما تؤدي الى تحقير الطفل وإيذاؤه وإن الإنهيار النفسي للطفل يؤدي إلى نتائج سيئة طيلة أيام العمر. فعلى الراغبين في تنشئة أطفالهم بصورة صحيحة أن يحذروا من إثارة غبار التألم والإستياء في الضمير الباطن لهم.

الرسول الأعظم والحسن عليه السلام :

يتجلى مدى اهتمام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بتكريم أولاده من الرواية التالية. يقول الراوي : « دعي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى صلاة والحسن متعلق به ، فوضعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مقابل جنبه وصلى. فلما سجد أطل السجود ، فرفعت رأسي من بين القوم فإذا الحسن على كتف رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما سلم قال له القوم : يا رسول الله ، لقد سجدت في صلاتك هذه سجدة ما كنت تسجدها ، كأنما يوحى إليك. فقال : لم يوح إلي ، ولكن ابني كان على كتفي ، فكرهت أن اعجله حتى نزل » (1).

هذا العمل من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تجاه ولد الصغير أمام ملاءم الناس نموذج بارز من سلوكه في تكريم الطفل. ان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عمل أقصى ما يمكن من احترام الطفل.

لقد كان أطفال الناس أيضاً يحوزون احتراماً وتكريماً من قائد الإسلام العظيم ، وكان يبذل لهم من العناية بمشاعرهم الروحية وعواطفهم ما يبذله لأولاده. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : « صَلَّى رسول الله عليه وآله بالناس الظهر فخفف في الركعتين الأخيرتين. فلما انصرف قال له الناس : هل حدث في الصلاة حدثٌ؟ قال : وما ذاك؟ قالوا : خَفَّفْتَ في الركعتين الأخيرتين. فقال لهم : أما سمعتم صراخ الصبي؟! » (2).

ص: 81

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج10 ص82.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج6 ص48.

وهكذا نجد النبي العظيم يطيل في سجدته تكريماً للطفل تارة ، ويخفف في صلاته تكريماً للطفل أيضاً تارة أخرى ، وهو في كلتا الصورتين يريد التأكيد في احترام شخصية الصبي وتعليم المسلمين طريق ذلك.

ومثل هذا نجده في الحديث الآتي : « عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان جالساً ، فأقبل الحسن والحسين . فلما رآهما النبي قام لهما ، واستبطأ بلوغهما إليه فاستقبلهما وحملهما على كتفيه ، وقال : نعم المطي مطيكما ، ونعم الراكبان انتما » (1).

في هذا الحديث نجد أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يكرم سبطيه بشتى الصور : يقوم لهما ، وينتظرهما ، ويستقبلهما ، ويجلسهما على كتفيه ، هذا من الناحية العملية ، وأما قولاً فهو يقول في حقهما : نعم الراكبان أنتما . إن ما يجلب الانتباه هو أن المسلمين في الغالب ، ولهذا الأمر فائدتان : الأولى أن جذور شخصية السبطين كانت تقوى وتستحكم بفضل احترام النبي لهما أمام الناس ، والثانية أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعلم الناس طريق تربية الأطفال بصورة تطبيقية . لقد كان أطفال المسلمين أيضاً متمتعين بهذا الاحترام والعطف من النبي أيضاً.

« كان صلى الله عليه وآله يقدم من السفر ، فيتلقاه الصبيان فيقف لهم ، ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم . فربما يتفاخر الصبيان بعد ذلك ، فيقول بعضهم لبعض : حملني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بين يديه ، وحملك أنت وراءه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم » (2).

مما سبق يظهر حالياً أن الأطفال كانوا يتمتعون بهذه المناظرة السارة ، وكانوا يفرحون كثيراً لهذا السلوك الممتاز فلا ينسون تلك الخواطر الطيبة ، بل كانوا يتحدثون عنها فيما بعد ويتفاخرون بتقديم رتبة بعضهم على بعض بمقدار تكريم النبي لهم.

ص: 82

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ح10 ص80.

2- المحجة البيضاء في إحياء الإحياء للفيض الكاشاني ج3 ص366.

يقولون : ان الأطفال يستأثرون باهتمام العصر الحاضر ، وان تربيتهم تشغل مجالاً واسعاً من تفكير الحكومة والشعب. أفهل يمكن أن يبلغ اهتمامهم بالأطفال ، الدرجة التي بلغها اهتمام الرسول الأعظم بهم وتكريمه لهم؟!

يقولون : ان الزعماء والقادة في الدولة المتدنة يزورون رياض الأطفال ودور الأيتام ويقضون ساعة أو ساعتين مع الأطفال ، فيحتضنونهم ويلتقطون صور معهم ثم ينشرونها في الصحف ويكتبون المقالات المطولة حول ذلك ومن هذا الطريق يفهمون الرأي العام بمدى عطفهم واحترامهم تجاه الأطفال من استقبالهم على أتم البساطة والعطف في الطرق والشوارع وحملهم على كتفه؟!

وبصورة أساسية فإن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعامل جميع الأطفال سواء كانوا أبناء أو أبناء غيره بالشفقة والعطف والحنان. وقد جاء في الحديث : « والتلطف بالصبيان من عادة الرسول » (1).

إرضاء حب الذات عند الأطفال :

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يهدف معاملة الأطفال بالعطف والحنان بغض النظر عن إرشاد الناس بصورة تطبيقية إلى كيفية تربية الأطفال ، إلى غرضين لامين :

الأول : تنشئة الأطفال على الإستقلال والإعتماد على النفس ، فإن أعظم ثروة لقائد حكومة قانونية وحررة وجود شعب حر وقوي الشخصية.

الثاني : إن عطف النبي صلى الله عليه وآله كان يؤدي إلى تشديد أواصر الحب والاخلاص بينه وبين الأطفال فيرسخ حبه في قلوبهم وينشأون منذ البداية محبين لقائدهم العظيم. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : « جُبِلَت القلوب على حب من نفعها وبغض من ضرها » (2). وعنه أيضاً : « طبعَت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها » (3).

ندرك من هذا أن احترام الناس أحسن الوسائل لإرضاء غريزة حب الذات فيهم.

ص: 83

1- المصدر السابق.

2- وسائل الشيعة للحر العامل ج4 ص74.

3- وسائل الشيعة للحر العامل ج4 ص74.

الصغار والكبار. الرجال والنساء ، كلهم يتلذذون من احترامهم ويحبون من يحترمهم. كما أن القادة يستطيعون النفوذ الى قلوب الشعب عن طريق احترامهم ، وفي ذلك أعظم الأثر في حملهم على الطاعة والانقياد وإذا كان الطفل يقابل بالاحترام في محيط الأسرة فإن خروجه على أوامر الوالدين سيكون أقل. كما أن تحقير الناس من أهم أسباب إثارة الفتنة والعداوة. يقول الإمام الرضا عليه السلام : « وأجمل معاشرتك مع الصغير والكبير » (1).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « أجملوا في الخطاب تسمعوا جميل الجواب » (2).

« لا يوجد في العالم غير وسيلة واحدة يمكن بواسطتها إجبار شخص على القيام بعمل. هل فكرتم في هذه الوسيلة قط؟ وسيلة واحدة فقط وهي عبارة عن إيجاد الرغبة فيه للقيام بالعمل ».

« إنك تستطيع أن تعترض عابراً في طريقه وتشهر عليه المسدس قائلاً له : انزع ساعتك وأعطني إياها! كما تستطيع أن تدفع العامل الى العمل بواسطة إنذاره بالطرد ... ولكن هذا كله ما لم تول ظهرك عنه. تستطيع أن تجبر طفلاً على الانقياد لأوامرك بالسوط ، ولكن هذه الأساليب المؤلمة تتضمن نتائج وخيمة ».

« يرى الفيلسوف الحاذق (جون ديوي) أن أهم الحوافز في النفس الإنسانية (حب الحياة على الأهمية) ... تذكروا هذا دائماً : (حب أن يكون مهماً) فهناك عالم عظيم منطوف في هذه اللفظة ».

« ان التاريخ ملئ بالشواهد والأمثلة عن أوال رجال عظماء كانوا يسعون لإظهار أهميتهم. لقد كان جورج واشنطن يرغب في أن يدعي باسم (سيادة جمهورية الولايات المتحدة). وكان كريستوف كلمبس يرغب في تسميته باسم (بطل المحيطات ووصي

ص: 84

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ح2 ص67.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 139.

الهند). لقد لوحظ أن بعض الأشخاص يمارضون لكي يكسبوا عطف من حولهم أكثر وبهذا الأسلوب يدركون ما لهم من الأهمية بصورة واضحة « (1).

بذر الفضائل في نفس الطفل :

إن المربي القدير هو الذي يوجه غريزة حب الذات عند الطفل بصورة صحيحة ، ويرضي هذا الميل النفسي بالطرق المناسبة ، ويبذر الفضائل والملكات الحميدة في ظل هذه الغريزة في نفسه فينقذه من الأخطار التي ربما تعترض طريقه.

من طرق الاحترام وتكريم شخصية الطفل : السلام. فهناك عبارات وأساليب مختلفة في جميع نقاط العالم خاصة بالتحية حيث يؤديها الناس في أول لقاء بينهم. والسلام أحد السنن المؤكدة في تعاليم الإسلام الخلقية فعندما يلتقي مسلمان يجب عليهما قبل كل شيء أن يسلم أحدهما على الآخر.

« عن الحسين بن علي عليهما السلام أنه قال له رجل : كيف أنت عافاك الله؟ فقال له : السلام قبل الكلام ، عافاك الله. ثم قال : لا تأذنوا لأحد حتى يسلم » (2).

إن الطفل يدرك في محيط الأسرة هذا الواجب الأدبي عن طريقين : الأول عن طريق تقليد الوالدين والكبار ، والثاني عن طريق تعليم المربي إياه وتأكيد على ضرورة أداء السلام للكبار. وكلما أحترم الطفل في الأسرة واهتم الوالدان بشخصيته ، كانت اطاعته لأوامرهما وانقياده لإرشاداتهما أكثر ولذلك فهو يقابل الآخرين بالاحترام والأدب دائماً.

« إن الطفل الذي أحسنت تربيته وعومل باللين والعطف يستحقه ينذر أن يخرج على السلوك الذي يتوقع منه » (3).

ص: 85

1- آئين دوست يابی تأليف ديل كارنجي ص 30 - 34.

2- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ح2 ص68.

3- ما وفرزندان ما ص 30.

إذا سلم الطفل على الكبار فعليهم أن يردّوا تحيته بمنتهى اللين ويحترموا شخصيته بهذه الصورة. أما إذا لم يعتنوا به ولم يردّوا سلامه فإنّهم يكونون قد أهانوه واحتقروه ، وسيتألم لهذه الإهانة ، ويستاء كثيراً.

بدء الأطفال بالسلام :

لقد تجاوز الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في سبيل تكريم الأطفال حد رد السلام فكان هو يبدأ السلام معهم على ما هو عليه من عظم الشخصية ، وبذلك كان يحترم شخصيتهم. هذا العمل الفريد من نوعه دعاء علماء الحديث إلى أن يوردوا احاديث (استحباب التسليم على الصبيان) في باب خاص. وهذه نبذة من تلك الروايات :-

1 - عن أنس بن مالك قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ على صبيان فسلم عليهم وهو مغدّ » (1).

2 - وذكر بعضهم في تعداد صفات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : « إنه كان يسلم على الصغير والكبير » (2).

3 - وعن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « خمس لست بتاركهن حتى الممات ... وتسليمي على الصبيان لتكون سنة من بعدي » (3).

لبدء الطفل بالسلام أثران نفسيان : فهو يقوي في نفس المسلم صفة التواضع وخصلة الخلق الفاضل ، ويحيي في الطفل الشخصية الرصينة والإرادة المستقلة. ان الطفل الذي يجد الكبار يسلمون عليه ويحترمونه بهذا الأسلوب بصدق بكفائه وأهليته للاحترام ، ويطمئن منذ الصغر إلى أن المجتمع يعتبره إنساناً ويعيره الناس اهتماماً لا بأس به.

على الراغبين في اتباع سنة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يبدأوا الأطفال بالسلام ،

ص: 86

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج2 ص69. ومغذّ : أي مسرّع في السير.

2- المصدر السابق.

3- وسائل الشيعة للحر العاملي ج3 ص209.

كي يركّزوا في نفوسهم خصلة التواضع ، ويحيوا شخصيات الأطفال ويدفعوهم الى طريق التربية السليمة.

المساواة بين الأطفال :

من الوجبات المهمة التي لا بد أن يلتزم بها أولياء الأطفال في سبيل تربيتهم تربية صالحة مراعاة التوازن والمساواة بينهم ، على الآباء والأمهات الذين يملكون عدة أطفال أن يسلوكوا مع كل منهم سلوكاً لا يُغفل شأن الباقيين ... عليهم أن ينظروا إليهم جميعاً بعين واحدة ويعاملوهم بالعدالة والمساواة.

« عن النبي صلى الله عليه وآله ، نظر إلى رجل له ابنان ، فقبل أحدهما وترك الآخر. فقال النبي صلى الله عليه وآله : فهلا ساويت بينهما؟ » (1).

وفي حديث آخر : « إعدلوا بين أولادكم كما تحبون أن يعدلوا بينكم » (2).

أمل الطفل :

إن الأمل الوحيد للطفل ومبعث فرحه ونشاطه هو عطف الوالدين وحنانهما. ولا يوجد عامل يهديء خاطر الطفل ويبعث فيه الإطمئنان والسكينة مثل عطف الوالدين ، كما لا يوجد عامل يبعث فيه القلق والإضطراب مثل فقدان جزء من حنان الوالدين أو جميعه.

« إن حسد الولد تجاة اخيه الصغير الذي تولد حديثاً لا غرابة فيه ، لأنه يحس بأن قسماً من العناية التي كانت مخصصة له قد سلبت منه ، والآن لا يستأثر باهتمام الوالدين ، بل ان الحب والحنان يجب أن يتوزع عليه وعلى أخيه الأصغر » (3).

ان الآباء والأمهات الذين لا يراعون العدالة والمساواة في التظاهر بالحب والحنان بالنسبة إلى أطفالهم ، ويرجحون واحداً منهم على الآخرين ، يحطمون

ص: 87

1- مكارم الاخلاق للطبرسي ص 113.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج23 ص113.

3- چه ميدانيم؟ تربيت اطفال دشوار ص27.

شخصياتهم ويفهمونهم بصورة عملية أن أخاهم (فلان) هو الجدير بالاحترام والتوقير فقط أما هم فلا توجد فيهم الكفاءة والجدارة لكل ذلك ومما لا شك فيه أن هذا السلوك غير العادل يتضمن نتائج غير مرغوب فيها.

من الآثار السيئة لهذا الاختلاف في معاملة الأطفال بالحب والحنان ، ظهور عقدة الحقارة في نفوسهم. ان الأطفال الذين يشاهدون أحد إخوتهم يعامل في الأسرة بحب وحنان يفوقان ما يعاملون به يتأملون كثيراً ويحسون بالحقارة والضعة في نفوسهم ، وان تكرار هذا العمل يقوي الإحساس بالحقارة في ضمائرهم. ويضرب بجذوره في أرواحهم ، مما يؤدي إلى ظهور آثاره الوخيمة من خلال تصرفاتهم يوماً بعد يوم.

« تشمل عقدة الحقارة جميع مظاهر عدم الثقة بالنفس والاحساس بالفشل ، وعدم الجدارة ، وفقدان الارادة ... وهناك آلاف العوامل التي تسبب في ظهورها. قد يصاب الطفل بهذه العقدة فلا تتركه الى دور البلوغ فقط بل تلازمه الى نهاية عمره. وعندما يكبر هذا الطفل يتخذ سلوكاً إنزوائياً ، أو يحس على الأقل بالغرابة والبعد تجاه قرنائه ».

« ان الذي ينزوي عن أقاربه وأقرانه يعبر عن العذاب الذي يعيشه من حس الحقارة التي درج عليها منذ الصغر ولهذا فإن كل خاطرة أو حادثة تضعف عزة النفس والغرور الذاتي عند الشخص تعتبر - حسب الأسس النفسية - عاملاً لتساع عقدة الحقارة ، عاملاً لجعله في عداد الأفراد القلقين وضعاف النفوس في المجتمع » (1)

ص: 88

والأثر الآخر من الآثار السيئة للاختلاف في معاملة الأطفال بالحب والحنان ، إثارة الحسد وحب الانتقام في نفوس الأطفال المهملين تجاه الطفل المستأثر بحنان الوالدين دونهم. هؤلاء الأطفال الذين نالوا حظاً أدنى من عواطف الوالدين يتأملون ، ويجدون أن العامل الوحيد لحرمانهم هو وجود أخيهام المدلل ، فيحسدونه على ذلك الحب ، وينظرون اليه بنظر العداوة والحقد ... ولأجل أن يشاروا لكرامتهم وينتقموا منه فيجبروا بذلك حرمانهم يحاولون إيذاءه والانتقام منه في كل فرصة يحصلون عليها. في بعض الأحيان يكون تأثير اختصاص الوالدين أحد أولادهما بالعطف والمحبة في زرع بذور الحقد والحسد في نفوس الآخرين شديداً إلى درجة تحملهم على التفكير في انتقام مخطط ومدبر ، والقيام بأعمال خطيرة لا تجبر ، ولا شك أن المنشأ النفسي لهذه الجرائم يمكن معرفته في تفريق الوالدين بين أطفالها في نسبة الحب والحنان.

وقد يمتاز أحد الأطفال في الأسرة بجمال مفرط وخصائص فطرية ومنح إلهية أكثر من الباقين ... في هذه الحالة مهما حاول الوالدان مراعاة العدالة والمساواة بينهم ، فإن ذلك الطفل لا يسلم من حسد الآخرين ، لأنهم بمشاهدتهم للامتيازات الظاهرية والنفسية التي يختص بها أخوهم يحسون بالحقارة والنقص في أنفسهم ... يشعرون بأنهم دونه في المستوى والمنزلة ... ولذلك فهم يحاولون إيذاءه والانتقام منه.

هذه الظاهرة نلمسها بوضوح في (يوسف الصديق) وإخوته الأحد عشر. ولا ريب في أن النبي يعقوب لم يكن شخصاً يخص بعض أولاده بالعطف والمحبة أكثر من الآخرين ، مضافاً إلى أنه كان يوصي ولده (يوسف) بالنصائح اللازمة لعدم إثارة حوافز الحسد والحقد في نفوس إخوته ، فمثلاً- عندما رأى الرؤيا التي تبشر بعظمته ورقبه أوصاه بأن لا يقص رؤياه على إخوته فيكيّدوا له كيداً ... مع هذا كله فإن الأخوة تذرّعوا بحب أبيهم ليوسف أكثر من حبه لهم ، وزجوا بأخيهم الصغير في خضم من المشاكل والمصائب المؤلمة.

ينبغي للآباء والأمهات الذين يملكون طفلاً ممتازاً من بين أطفالهم ويحذرون أن يثير ذلك فيهم الشعور بالانتقام أن يتخذوا بعض التدابير الخاصة في مناهجهم التربوي فيحاولوا تدارك ما ينشأ في نفوسهم من الاحساس بالحقارة بالوسائل المناسبة. من تلك التدابير ما ورد في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام :

« قال جعفر بن محمد عليهما السلام : قال والدي : والله لأصانع بعض ولدي وأجلسه على فخذي ، وأكثر له المحبة ، وأكثر له الشكر ، وإن الحق لغيره من ولدي ولكن محفظة عليه منه ومن غيره لئلا يصنعوا به ما فعل بيوسف إخوته. وما أنزلت سورة يوسف إلا أمثالاً لكيلا يحسد بعضنا بعضاً كما حسد يوسف إخوته ويغوا عليه (1).

يستفاد من هذا الحديث بصورة جيدة أن أحد أولاد الإمام الباقر عليه السلام كان يمتاز على الآخرين ببعض الصفات ، فكان الوالد يخاف عليه من حسدهم ، وفي نفس الوقت كان يرغب في أن لا- يخدش عواطفهم ، فكان يحترم غيره احتراماً بالغاً ليمنع بذلك من احساسهم بالحقارة ومحاولة الانتقام.

مشاركة الطفل في لعبه :

من وسائل إحياء شخصية الطفل مشاركة الكبير إياه في اللعب. إن الطفل يميل الى تقليد الكبار في كل خطوة يخطونها وذلك بسبب من شعوره بالضعف الذي فيه والقوة التي في الكبار من جهة ، ولرغبته في التعالي والتكامل بصورة فطرية من جهة أخرى. إن التقليد والإقتباس من الثروات العظيمة لتكامل الإنسان وتقدمه ، وقد اودع الله تعالى هذا الأمر الغريزي فيه منذ الطفولة.

عندما يتنازل الوالد الوالدة إلى مشاركة الطفل في لعبه ، ومساعدته في أعماله ، يطفح قلب الصغير بالفرح والبشر ، ويحس في بطنه بأن أفعاله الصببانية مهمة الى

درجة أنها تدعو الوالدين الى المساهمة معه وجعل أنفسهما في مستواه. هذا الإحساس يحيي شخصية الطفل ويركز فيه الشعور بالاستقلال والثقة بالنفس.

ان المناهج التربوية الحديثة تهتم بمشاركة الكبار مع الأطفال في ألعابهم اهتماماً بالغاً ، فإن علماء النفس يرون في ذلك واجباً من الواجبات التربوية للوالدين ، ويؤكدون على هذا الأمر في كتبهم.

« من الضروري أن يشترك الأب في ألعاب أولاده ونزهاتهم. ان هذا يعبر عن تفاهم وطيد. يشترك الأب في ألعاب الأطفال حسب أعمارهم ، وحسب المكان ، والفصل. لا شك في أن الوقت الذي يستطيع أن يخصصه لهذا العمل ضيق جداً ، لكن بالنظر إلى المزايا التي يتضمنها من أن نزول الأب الى مستوى أولاده يؤدي الى ارتفاعهم الى مستواه بدرجة كبيرة ... هذه المزايا تدعو الآباء الى تخصيص مجال - ولو ضيق - لهذا الأمر » (1).

« يقول موريس تى يش في كتابه (دروس للوالدين) : يجب أن تسلكوا مع أولادكم كأصدقاء ، أن تعملوا معهم ، أن تشاركوهم في اللعب ، أن تقرأوا لهم القصص أن تتحدثوا معهم بعبارات الود والصدقة. وبصورة خاصة فإن الفرد يجب أن يعرف كيف يجعل نفسه بمستوى الأطفال ويتكلم بلغة يفهمونها ».

« إنكم إذا كلفتم أنفسكم هذا العناء ... فحدثم أطفالكم حول شؤونهم الخاصة ، وأفكارهم وآمالهم ، وما ينوون القيام به ، فطالما حصلتم على معلومات نافعة وقيمة ».

« هذا الاستئناس بروح الطفل ، مضافاً إلى أنه يمنعكم من اتخاذ قرارات عاجلة وأحكام غير مدروسة في حقهم ، يسمح لكن أن تحلوا كثيراً من المسائل المهمة في حياة الأحداث » (2).

ص: 91

1- ما وفرزندان ما ص 22.

2- ما وفرزندان ما ص 45.

لقد اهتم أئمة الإسلام بهذا الأمر التربوي العظيم وأوصوا المسلمين بإرشادات مهمة في هذا الصدد. إن اللعب مع الأطفال من الأمور المستحبة في الشريعة الإسلامية ، وقد أورد علماء الحديث نصوصاً كثيراً في كتبهم تحت عنوان (استحباب التصابي مع الولد وملاعبته) نذكر هنا نبذة منها : -

1 - قال النبي صلى الله عليه وآله : « من كان عنده صبي فليتصاب له » (1).

2 - عن الأصمغ بن نباته قال : « قال أمير المؤمنين عليه السلام : من كان له ولد صبا » (2).

3 - قال النبي صلى الله عليه وآله : « رحم الله عبداً أعان ولده على بره ، بالإحسان إليه ، والتألف له ، وتعليمه ، وتأديبه » (3).

وإذا نظرنا الى طائفة أخرى من الروايات وجدنا أنها تؤكد على استحباب إدخال السرور على قلب الطفل بشتى الوسائل : باللعب معه ، جلب الملابس الجديدة له ، وأخذه للنزهة وما شاكل ذلك.

4 - عن ابن عباس قال : « قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : من فرّح ابنته فكأنما أعتق رقبة من وُلد إسماعيل ، ومن أقرّ عين ابنٍ فكأنما بكى من خشية الله » (4).

5 - عن يعلى العامري أنه خرج من عند رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى طعام دعي إليه ، فإذا هو بحسين (عليه السلام) يلعب مع الصبيان ، فاستقبل النبي صلى الله عليه وآله أمام القوم ، ثم بسط يديه ، فطفر الصبي ها هنا مرة وها هنا مرة ، وجعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يضاحكه حتى أخذه ، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه والأخرى تحت قفاه ، ووضع فاه على فيه وقبّله » (5).

ص: 92

1- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص126.

2- المصدر السابق.

3- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص626.

4- مكارم الاخلاق للطبرسي ص 114.

5- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص626.

إن قائد الإسلام العظيم يعامل سبطه بهذه المعاملة أمام الناس لكي يرشد الناس الى ضرورة إدخال السرور على قلوب الأطفال وأهمية اللعب معهم في سبيل تربيتهم ، مضافاً إلى قيامه هو بواجب تربوي عظيم.

إدراك نفسية الطفل :

إن أفعال الصبيان حين اللعب وكذلك أقوالهم التي يتكلمون بها تحكي عن أسلوب تفكيرهم وتكشف عن نفسياتهم ومستوى شخصيتهم الروحية. إن الكبار يستطيعون الوصول في أثناء اللعب إلى درجة ذكاء الطفل ومقدار كفاءته وثقافته.

عن أبي رافع قال : « كنت ألاعب الحسن بن علي عليهما السلام - وهو صبي - بالمداحي. فإذا أصابت مدحاتي مدحاته قلت : أحملني. فيقول : ويحك! أتركب ظهراً حملة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاتركه. فإذا أصابت مدحاته مدحاتي قلت : لا أحملك كما لا تحملني فيقول : أو ما ترضى أن تحمل بدنأ حملة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأحملة » (1).

من هذا الحديث يظهر جلياً إباء هذا الطفل وعزة نفسه وعظم شخصيته.

إن الطفل الذي يربيّه نبي الإسلام في حجره ويحيي شخصيته النفسية ، يعتقد بسموّ مقامه ولا يرضى التكلم بذلة وحقارة.

استغلال الفرص :

نستخلص من مجموع الأحاديث المتقدمة أنّ على الآباء والأمهات من الناحية الدينية والعلمية أن يستغلوا جميع الفرص في سبيل احترام الأطفال وإحياء شخصياتهم ، ويحذروا القيام بما من شأنه تحقيرهم وتحطيم شخصياتهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة. لأن احتقار الأطفال يؤدي إلى إصابتهم بعقدة الحقارة التي قد تلازمهم مدى العمر ، وتنحرف بهم عن الصراط المستقيم فيقدمون على الأعمال الاجرامية المختلفة.

ص: 93

واليوم هو التاسع عشر من شهر رمضان ، وهو يوم علي بن أبي طالب عليه السلام . ولا بأس بأن نختم حديثنا هذا بذكر مثلٍ من سلوك ذلك الإمام العظيم تجاه اليتامى وكسب قلوبهم.

لقد رأى الإمام علي عليه السلام امرأة في بعض الطرقات تحمل قربة من الماء ، فتقدم لمساعدتها وأخذ القربة وأوصلها ال حيث تريد. وفي الطريق سألها عن حالها. فقالت : إن علياً أرسل زوجي إلى إحدى النواحي فقتل. وقد خلف لي عدة أطفال لا أقدر على إعالتهم ، فاضطرت للخدمة في بعض البيوت. فرجع علي عليه السلام وأمضى تلك الليلة من منتهى الإنكسار والإضطراب. وعند الصباح حمل جراباً مملوء بالطعام واتجه إلى دار المرأة. في الطريق كان بعض الأشخاص يطلبون منه أن يحملوا الجراب عنه فيقول لهم : من يحمل عني أوزاري يوم القيامة؟ وصل الى الدار وطرق الباب. فقالت المرأة : من الطارق؟

قال الرجل : الذي أعانك على حمل القربة البارحة. لقد جئت ببعض الطعام لأطفالك.

فتحت الباب وقالت : رضي الله عنك ، وحكم بيني وبين علي بن أبي طالب.

فقال لها : أتخبزين أم تُسكتين الأطفال فأخبز؟

قالت : أنا أقدر على الخبز ، فقم أنت باسكات الأطفال.

فأخذت تعجن الدقيق ، وأخذ علي عليه السلام يخلط اللحم بالتمر ويطعم الأطفال منه ، وكلما ألقم طفلاً لقمة قال له بمنتهى اللين والرفق : يا بني ، اجعل علي بن أبي طالب في حلّ.

استوى العجين ، فأوقد علي (عليه السلام) التنور. وفي الأثناء دخلت امرأة تعرفه ، وما أن رآته حتى صاحت بوجه صاحبة الدار : ويحك! هذا أمير المؤمنين.

فبادرت المرأة وهي تقول : واحيائي منك يا أمير المؤمنين!

فقال : بل واحيائي منك يا أمة الله في ما قصرت في أمرك (1).

ص: 94

قال الله تعالى في كتابه العظيم : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)(1)

العواطف :

تمثل العواطف والمشاعر أهم الفطريات الإنسانية التي رُشت بذورها الأولى في طبائع جميع الناس بالقدرة الالهية. والميول العاطفية تبدأ بالظهور منذ الأسابيع الأولى بصور متفاوتة وتستمر كذلك حتى نهاية العمر. ان العواطف والمشاعر تسيطر على جميع شؤون الإنسان مدى عمره. وبالإمكان معرفة درجة رقي الأمة وتقدمها أو انحطاطها وتخلفها عن طريق مشاعر تلك الأمة. فهناك إلى جانب العقل طاقة جبارة أخرى هي العواطف والمشاعر ، والتي بإمكانها أن تطفئ جذوة العقل وتدحره بالرغم مما هو عليه من قوة وسطه.

« ان النشاط العقلي ظاهر وغير ظاهر في وقت واحد. في الكومة المتفككة لحالاتنا الشعورية الاخرى ... انه وسيلة من كياناتنا ، وهو متغير مثلنا أيضاً ويمكننا أن نقارنه بشريط سينمائي يسجل المراحل المتعاقبة لقصة على سطح يختلف في درجة حساسيته من نقطة لأخرى ... بل انه اكثر ترادفاً للوديان والتلال التي تحدثها موجات المحيط العاتية والتي تعكس بطريقة مختلفة السحب التي تعبر السماء. فالعقل يبرز مرئياته فوق الشاشة الدائمة التغير لحالاتنا المتأثرة لآلامنا ومباهجنا ، لحبنا وبغضنا ، ولكي ندرس هذه الناحية من أنفسنا فإننا نفصلها صناعياً عن الكل غير المنظور. وفي الحقيقة

ص: 95

أن الشخص الذي يفكر ويلاحظ ويتعقل يكون في وقت واحد ، سعيداً أو تعساً ، مضطرباً أو مطمئناً ، منتعشاً أو منقبض الصدر ، بوساطة شهواته وبغضائه ورغباته. ومن ثم تتخذ الدنيا مظهراً مختلفاً في نظره تبعاً للحالات المؤثرة والفسولوجية التي تتحرك في مؤخرة الشعور في اثناء النشاط العقلي ... ان كل انسان يعرف أن الحب والكراهية والغضب والخوف تستطيع أن تشيع الاضطراب حتى في المنطق ... ولكي تظهر هذه الحالات الشعورية نفسها فإنها تحتاج الى إحداث تعديلات معينة في المبادلات الكيميائية , وكلما ازدادت شدة الاضطرابات العاطفية أصبحت هذه المبادلات أكثر نشاطاً. ونحن نعرف ان المبادلات الكيميائية على العكس من ذلك ، أي لا ينتابها أي تعديل بسبب العمل العقلي ، والوظائف المؤثرة ليست شديدة القرب من الوظائف الفسيولوجية ، انها تمنح كل مخلوق حي مزاجه ... ويتغير المزاج من شخص لآخر ... انه مزيج من الخصائص العقلية والفسيولوجية والتكوينية ... انه الإنسان ذاته.

وهو مسؤول عن ضعفه أو اعتداله أو قوته « (1).

الفرق بين العقل والعاطفة :

يختلف العقل عن العاطفة في جوانب عديدة ، ويقع على عاتق كل منهما دور معين في ضمان سعادة الإنسان. ها نحن نتعرض في هذه المحاضرة الى بعض جوانب الاختلاف بينهما بصورة موجزة.

يعتبر العقل بمثابة قاضي عادل وعالم ، جالس في غرفة مغلقة ، ومحيط هادئ ، يطالع الأضابير بدقة ويفهم محتوياتها بصورة متقنة ، و يقيس جميع جوانب القضية ثم يصدر الحكم. أما العواطف فهي تمثل الجهاز التنفيذي للسلطة القضائية. ليس واجب الجهاز التنفيذي تمحيص الأدلة والبيّنات ، بل على العواطف أن تنفذ الأحكام العقلية عندما تكون منقادة للعقل.

ص: 96

إن أحكام العقل قائمة على أساس الاستدلال والبرهنة. وإن موافقته أو مخالفته ، ونقصه أو أبرامه ... كل ذلك يعتمد على المحاسبة الدقيقة والاستدلال المنطقي. أما العواطف فلا شأن لها بالمحاسبة ، ولا تفهم المنطق ولا تركز إلى الاستدلال. العواطف عبارة عن العشق فقط ، الاندفاع والثورة وحسب ... إن قلب الأم يطفح بحب الولد ، فحبه نافذ إلى أعماق روحها ، وترى ولدها قطعة من كبدها ، وتعتبر حياته حياتها ، وأبسط حادثة مؤلمة له تعدّ مصيبة عظيمة لها ، ولكن الأم لا تملك في حبها هذا وحنانها ذاك دليلاً عقلياً أو عملياً ، إن حنانها لا يستند إلى المنطق والتفكير ، إنها أمّ وحسب ، وتحب ولدها بعاطفة الأمومة. كذلك حب العاشق ووليه لا يستند إلى الاستدلال العلمي والمحاسبة المنطقية ، إنه لم يعشق على طبق معادلات رياضية أو استنتاجات عقلية ، إن الحديث معه في طريق الحب عن العلم والمنطق والدليل خطأ فظيع. إذا أن العاشق لا يفهم دليلاً ، ولا يدرك عقلاً ولا منطقاً ، إنه عاشق ... إنه ولهان ... إن روحه تحترق بنار الحب ... يأوي إلى الفراش على أمل الحبيب ، وينهض من فراشه على رجاء لقائه.

إن العقل على ما هو عليه من الأهمية والقيمة في طريق التقدم والرفق يشبه العلم والعدالة في أنه باهت وقاسٍ ، أما العواطف فهي ينبوع الاندفاعات والخوافز ، وبركان الحرات والاشعاعات ، وأساس الصداقات والعداوات. يستطيع الإنسان بعقله وفكره أن يسيطر على العالم ويسخر الكون ، ويستخدم البحر والصحراء والجو ، والمعدن والنبات والحيوان لصالحه وتسهيل سبل العيش لنفسه. إن أعظم الطاقات التي تفصل بين الإنسان وجميع الحيوانات وتمنحه هذه المنزلة من العظمة والشموخ هو العقل فالعقل هو المشعل الوضاء والمرشد القدير الذي يميز للإنسان الخير من الشر ، والطريق الصحيح عن المتاهة ... لكن الطاقة التي تحرك الإنسان في الطريق الصحيح أو المتاهة ، والقوة التي تحفز في نفس الإنسان دوافع الخير أو الشر هي العواطف ، وإن التحركات الاجتماعية تنبع من المشاعر الداخلية للناس ... فجميع مظاهر الشدة واللين ، والحروب والجرائم ، التضحية والإيثار تنشأ من العواطف أو المشاعر.

« يستخدم العقل المعلومات الواصلة إليه عن العالم الخارجي بواسطة الحواس ويهيء لنا وسائل عملنا في هذه الدنيا. إنه يزيد في

قوة إدراكنا وشدة سيطرتنا بصورة عجيبة بفضل ما يمنحنا من اكتشافات جديدة. إنه يصنع لنا التلسكوبات العظيمة في كاليفورنيا وجبل ولسن ، التي تطلعننا على عوالم تبعد عنا ملايين السنين الضوئية ، ومن جهة أخرى يمدنا بالميكروسكوبات الالكترونية التي يمكننا بواسطتها البحث عن عالم اللامرئيات ، هذا مضافاً الى الآلات التي يمدّنا بها في العمل على أشياء متناهية في الكبر ، وأشياء متناهية في الصغر ، وفي تهديم العمارات الصخمة التي تمثل عظمة التقدم الفني والمعماري خلال بضع دقائق ، وفي اجراء العمليات الجراحية على الخلايا المعزولة ، وتحطيم الذرة ».

« العقل صانع العلم والفلسفة فعندما يكون متزناً يصبح مرشداً جيداً ، ولكنه لا يمنحنا الشعور بالحياة والقدرة على العيش فهو لا يعدو أن يكون مظهرًا من مظاهر النشاطات النفسية فإذا نما لوحده ، بعيداً عن العواطف أدى الى تفريق الأفراد وإخراجهم من حيز الإنسانية » « إن المشاعر والأحاسيس غالباً ما تنشأ من الغدد الداخلية واعصاب السمباثيك والقلب ، وقلماً تستمد رصيدها من المخ - إن الشوق والشجاعة والحب والحقد عوامل تدعونا الى تنفيذ الخطة التي رسمها العقل . وكذا الخوف والجبن والغضب فإنها تكشف عن مدى الجرأة على الإقدام عند الشخص ، وأي تؤثر بواسطة أعصاب السمباثيك على الغدد وهذه بدورها تقوم بافرازات توجد فينا الحوافز المختلفة للدفاع أو الفرار أو الهجوم . وهكذا تعمل الهيبوفيزوثيرويد والغدد الجنسية وفوق الكلوية لتحقيق الحب ، أو الحقد ، أو الإيمان ، أو الجحود في نفس الشخص ، وهذا الأعضاء هي التي تضمن بقاء الجماعات البشرية بواسطة النشاطات التي تصدرها . ان المنطق وحده لا يكفي لاتحاد الأفراد ولا يستطيع دفع الإنسان نحو الحب أو إثارة نائرة الحقد فيه ».

« ان العقل ينظر الى الحياة الظاهرية ، أما الأحاسيس فإنها على العكس من ذلك تهتم بالحياة الباطنية . وكما يقول (باسكال) فإن

للقلب دلائل وبراهين لا يفهمهما المنطق. ان النشاط غير العقلاني للروح المتمثل في العواطف هو الذي يمنحنا الطاقة والفرح ، ويهب بعض الأفراد القابلية على الخروج من أطارهم المحدود للاتصال بالآخرين ، وتوثيق العلاقات معهم ، والتضحية في سبيلهم « (1).

العدل والاحسان :

لا شك في أن كلا من هاتين الطائفتين العظيمتين : العقل والعاطفة يلعب دوراً فعالاً ومستقلاً في ضمان سعادة الإنسان ورفاهه. إن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال للاتق به متى ما استفاد من هاتين الطائفتين العظيمتين معاً بصورة صحيحة وحسب مقياس سليم : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ».

في هذه الآية الكريمة قارن الله تعالى بين إقامة العدل ، والإحسان في جملة واحدة وأمر الناس بها بصيغة واحدة. العدل وليد العقل ، والإحسان وليد العواطف.

إذا كان مجتمع ما يحكمه العدل فقط ولا يوجد فيه أثر للحب والعطف فإن الحياة تصبح باهتة وهامدة ... لا أثر هناك للصدقة والمحبة ، والسخاء والعفو ، والرفقة والرحمة ، ولا تشم من ذلك المجتمع رائحة للتعالي الروحي والتكامل النفسي ، ولا حسنات الأخلاق والعواطف ... الحياة في مثل هذا المجتمع تصبح جحيماً لا يطاق. يستحيل في هذه الظروف أن ينال الأفراد الكمال اللائق بهم ، لأن العواطف تشكل جانباً مهماً من الفطريات الانسانية ، ويجب أن تنال حصتها من التنمية والعناية كسائر الذخائر الطبيعية وذلك حسب شروط وعوامل معينة.

وإذا كان مجتمع ما تحكمه العواطف فقط ، ولا أثر فيه للعدالة والقانون فإن الحياة تتحول إلى فوضى وشغب ... وتصبح جحيماً لا يطاق أيضاً. في مثل هذا المحيط تصبح ميول الأقوياء وشهواتهم هي الحاكمة المطلقة ، وتكون حياة الأفراد أشبه بحياة الوحوش والبهائم ... الأقوياء يتجاوزون على حقوق الضعفاء ، وعلى الناس أن يتوطنوا لكل ذلة وهوان في سبيل تحقيق أهواء المالكين بزمam الأمر.

ص: 99

على المجتمع أن يستفيد من العقل والعواطف ، والعدل والاحسان جنباً الى جنب فيستخدم كلام في محله. وعلى سبيل الشاهد نذكر المثال التالي : -

العدالة وجزاء المعتدي :

العقل يستنكر التصرف العدواني لشخص على حقوق الآخرين. ولضمان الاستقرار المالي للدولة تضع الحكومة قوانين خاصة تعاقب المعتدين بموجبها. والقاضي الشريف والعاقل هو الذي يراقب القانون في مقام القضاء فلا تؤثر فيه الرقة والرحمة ، ولا تدفعه العواطف والوساطات نحو الإنحراف عن الصراط المستقيم الذي خطته العدالة.

يتساوى الرجل الثري والقوي الذي يتصرف في أملاك الناس بصورة عدوانية ، والأرملة التي تدخل دار غيرها في فصل الشتاء فراراً من سياط البرد اللاذعة بغية الحفاظ على أطفالها الأيتام ، في نظر القانون وأمام محكمة القضاء. فالقاضي يعتبرهما معتدين وغاصبين ويخرجهما من الدار المغصوبة. عندما يخرج القانون هذه الأرملة وأطفالها الصغار من الدار ويُسلمهم الى البرد القارس تظهر صورة مؤلمة لعيان فتشور عواطف المارة ، ويتألمون لهم ، وربما أخذوهم الى بيوتهم واعتنوا بهم. ان العدالة هي التي أخرجت المرأة المسكينة وأطفالها من الدار ، والعاطفة هي التي آوتهم واعتنت بهم. العدالة جافة وباهتة ، لا تملك عاطفة ولا تفهم معنى للرقة والرحمة ، تفقد الدموع والآهات ، والانيين والاستغاثة أثرها في حريم القضاء. ان القاضي الناجح هو الذي يراقب تطبيق القانون وحسب. ولكن العواطف هي التي تمنحنا الدفء والحنان ، وتقضي بالرقة والرحمة ، هي التي تحتضن الأطفال ، وتقبلهم ، وتشمهم ، وتناغيهم ، وتذرف الدموع ، وتشعر باللذة في السهر عليهم.

عندما تنعدم العدالة والقانون في المجتمع ، ويفقد القاضي عنصر الصراحة والجد في تطبيق القانون ، تمدّ أيدي الظالمين نحو حقوق الناس ، ويتزلزل اساس العدالة والأمن. وعندما تنعدم العاطفة والرأفة في المجتمع ، ويتجاهل الناس معنى الرقة والرحمة ، يحرم المساكين من الحنان وينهزم الضعفاء أمام حوادث الدهر. والمجتمع السعيد هو الذي ينال حظه الوافر من كلتا الطاقتين ويستفيد من العقل والعاطفة معاً حسب المقياس الصحيح والمقدار الملائم.

العلم كالعدل في أنه وليد العقل .. العلم يشبه الماء العذب الذي ينبع من ينبوع العقل ليسقي الحياة الروحية بالرواء. العلم أساس تكامل الإنسان ورفقه وهو من أهم أركان سعادته. وبالإمكان قياس رقي كل أمة بمستوى التقدم العلمي فيها ، وكلما كثر العلم والعلماء في دولة عظم أمرها من الناحية المعنوية وكانت في عداد الدولة الراقية ، ولكن يجب أن لا ننسى أن العلم كالعدل في كونه جافاً وباهتاً ، لأنه يستند إلى المنطق والاستدلال ، ولا أثر للعاطفة والرأفة في حريم المنطق والاستدلال.

العلم وحده لا يقنع الإنسان ، ولا يمكن ضمان سعادته بواسطة العلم فقط. إن جانباً مهماً من الميول الفطرية للناس تتمثل في حوافزهم العاطفية التي يجب أن تخضع لرقابة مضبوطة منذ البداية ، يجب أن يساير التقدم العلمي والتنمية العقلية استجابة لنداء المشاعر والميول العاطفية بصورة صحيحة ومفيدة ، وعلى سبيل الشاهد نأتي بمثال على ذلك :

يتمرض شخص فيؤخذ إلى المستشفى ... يعمل جميع الأفراد المتخصصين في تربيته ومعالجته - كل حسب اختصاصه - تستخدم جميع الأدوات والوسائل الموجودة في المستشفى لعلاج ، تؤخذ له أشعة متعددة ، يُحلّل دمه ويؤله من جهات عديدة ، ويشخص الداء أخيراً ويقرر القيام بعملية جراحية معينة. يبدأ العمل ، تعقم الأدوات والوسائل اللازمة في العملية حسب الأساليب العلمية ، ويكون بعد ذلك التخدير ، وضخ الدم والقطع ، والخياطة ، والتعقيم ، والتضميد ، والتمريض الصحيح ، والعقاقير اللازمة ، والأطعمة المناسبة وبصورة موجزة جميع الشروط والحاجات التي يقررها آخر ما توصل إليه العلم ... وبانتهاء ذلك كله يكون شفاء المريض وبرءه.

إرضاء عواطف المريض :

عندما يكون المريض خاضعاً للعناية الطبية والعلمية من كل ناحية ولا يوجد أي اضطراب في أسلوب معالجته ، يحس في ضميره الباطن ، وفي زوايا روحه بأنه يفتقد شيئاً. إنه يثبت عينيه نحو باب الغرفة عسى ينال ما يريد. إن ما يريد ليس مما

يتعلق بالدواء أو الغذاء أو ضبط الأساليب العلمية المتبعة معه ، بل إنه يفكر في إرضاء عواطفه إنه ظمآن إلى العطف والحنان ، إنه يتوقع أن يعود شخص ، أن يجلب له باقة زهور ، أن يضافحه على جانب سرير المستشفى ويتسم له ، ويذهب عنه ما به من انكماش.

عندما يحفّ به عدة أشخاص من أصدقائه الخالص ، ويسألون عن حاله ، يستأنس بهم ويرتاح كثيراً ، تفتح أساريره ، ويستعيد نشاطه ، ويحس بالحياة تدبّ في عروقه من جديد ... هذا الارتياح ، والفرح ، والاستيناس يساعد في أمر شفائه كثيراً.

إن علم الجراحة قاسٍ وشديد في حين أن العيادة تطفح بالمحبة والدفع. إن العلم الباهت والقاسي للجراح ومباضعه وأدويته ، أساس علاج المريض ، ولكن يجب أن يساير كل ذلك حنان ومحبة ورعاية حتى يستطيع العلم والمشاعر أن يسيرا جنباً إلى جنب لإرضاء عواطف المريض.

قيمة الطبيب :

لم تهمل تعاليم الإسلام القيمة أهمية علم الطب واستشارة الطبيب التي هي الأساس في شفاء المريض ، كما لم تغفل شأن عيادة المرضى التي هي العامل الأهم لإرضاء عواطفهم. وقد وردت نصوص كثيرة بشأن كل من الموضوعين. أما بالنسبة إلى أهمية الطبيب ودوره في بناء الكيان الاجتماعي فقد قال الإمام الصادق عليه السلام : « لا يستغني أهل كل بلد عن ثلاثة يفزع إليه في أمر دنياهم وآخرتهم ، فإن عدموا ذلك كانوا همجاً : فقيه عالم ورع ، وأمير خير مطاع ، وطبيب بصير ثقة » (1).

في هذا الحديث نجد أن الإمام عليه السلام يعتبر الطبيب الحاذق أحد أركان المدنية ، وثالثة الأثافي بالنسبة إلى الحياة الإنسانية.

وأما في موضوع استشارة الطبيب فقد قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « من كتم الاطباء مرضه خان بدنه » (2) وبهذين الحديثين نكتفي كشاهد على ما قلناه.

ص: 102

1- تحف العقول عن آل الرسول ص 321.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 663.

لقد وردت نصوص كثيرة في شأن عيادة المرضى ، وقد اكد الأئمة عليهم السلام على هذا الأمر وبيان استحبابه كثيراً.

1 - عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « من أحسن الحسنات عيادة المريض » (1).

2 - وأما النبي صلى الله عليه وآله فلم يكن ليكتفي بارضاء عواطف المرضى من المسلمين بعيادتهم ، بل كان غير المسلمين ينالون هذا الحظ العظيم منه أيضاً. فعن الإمام علي عليه السلام : « إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عاد يهودياً في مرضه » (2).

لا شك في أن العائدين للمريض كلما أكثروا من ملاطفته وإرضاء عواطفه كان ذلك أكثر أثراً في نفسه. لقد وصفت الروايات العيادة الكاملة بوضع اليد على جبهة المريض برفق ، أو مصافحته ، وبأخذ بعض الهدايا له.

3 - قال علي عليه السلام : « من تمام العيادة أن يضع العائد إحدى يديه على يدي المريض أو على جبهته » (3).

4 - قال النبي صلى الله عليه وآله : « تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده عليه ويسأله : كيف أنت؟ كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وتماّم تحيتكم المصافحة » (4).

5 - وعن (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً : « من تمام عيادة المريض إذا دخلت عليه أن تضع يدك على رأسه وتقول له : كيف أصبحت؟ أو كيف أمسيت؟ » (5).

6 - عن الإمام الصادق عليه السلام : « تمام العيادة للمريض أن تضع يدك على

ص: 103

1- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ح 1 ص 83.

2- المصدر السابق.

3- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 197.

4- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 196.

5- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 18 ص 145.

ذراعاه ، وتعجل القيام من عنده. فإن عيادة النوكى أشد على المريض من وجعه « (1).

7 - كان يريد بعض الشيعة الذهاب الى عيادة مريض ، فصادفهم الإمام الصادق عليه السلام في بعض الطريق وقال لهم : أين تريدون؟ قالوا : نريد فلاناً نعوده.

قال : هل معكم فاكهة أو طيب تأخذونه له؟

قالوا : ليس معنا شيء.

فقال : أما تعلمون أن المريض يستريح إلى كل ما أدخل عليه (2).

إن من يذهب لعيادة المريض فيقف في جانب ويسأل حاله ليس مؤدياً حق العيادة. فالعيادة الكاملة والمفرحة تكون عندما يقترب من المريض ويضع يده برفق على يد المريض ، أو رأسه ، أو جبهته ، أو يصطحب معه هدية فيكشف بذلك عن حبه للمريض ، وفي نفس الوقت يرضي عواطفه.

قيمة الأخلاق :

لا تقل السجاياء الخلقية والملكات الفاضلة أهمية عن العلم في ضمان سعادة الإنسان. إن إرضاء العواطف بصورة صحيحة يساوق تنمية العقل واتباعه أهمية ، وإن خطأ المدنية الحديثة يكمن في أنها وجهت جميع الطاقات والامكانيات لتحقيق التقدم العلمي واكتشاف اسرار الطبيعة ، وتركت الإهتمام بالفضائل والمثل التي هي من الأركان الأساسية للسعادة. إن مشاعر الغالبية من الناس تصرف في سبيل الشهوات الدنيئة والأعمال اللاخلقية ، ولهذا السبب ذاته فإن الجرائم تتسع بصورة موحشة يوماً بعد يوم ، وينجرف الشباب في الدولة المتمدنة نحو الفساد والهاوية.

إن منهاج الحياة الإنسانية يجب أن يتمشى مع الفطرة. فهناك قوتان مهمتان في فطرة الإنسان : إحداهما العقل ، والأخرى العواطف. هاتان القوتان اللتان هما أساس سعادة الإنسان يجب أن تسيرا جنباً إلى جنباً في ظل رقابة ورعاية لازمتين لضمان العيش الأفضل للإنسانية جمعاء.

ص: 104

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج3 ص118.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج3 ص118.

« الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها عليه المجتمع العصري ... ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره ... وعرفنا انه لا يستطيع تكيف نفسه للبيئة التي خلقتها التكنولوجيا ، وان مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله ، وأن العالم والميكانيكا ليسا مؤولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن وحدنا المسؤولون. لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع ... لقد نقصنا القوانين الطبيعية فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً .. » (1).

« ألم تهبط الحياة العصرية بمستوى ذكاء الشعب كله وأخلاقه؟ لماذا يجب أن ندفع ملايين الدولارات كل عام لنطارذ المجرمين؟ لماذا يستمر رجال العصابات في مهاجمة المصارف بنجاح ، وقتل رجال الشرطة ، واختطاف الناس وارتهانهم ، أو قتل الأطفال على الرغم من المبالغ الضخمة التي تنفق في مقاومتهم؟ لماذا يوجد مثل هذا العدد الكبير من المجانين وضعاف العقول بين القوم المتحضرين؟ ألا تتوقف الأزمة العالمية على الفرد والعوامل الاجتماعية التي هي أكثر أهمية من العوامل الاقتصادية؟ من المأمول أن يضطرنا منظر الحضارة في بداية تداعيتها إلى أن نتحقق : هل أسباب الكارثة غير كامنة في أنفسنا ومعاهدنا؟ وأن ندرك إدراكاً تاماً أن لا مناص من تجديد أنفسنا » (2). « يجب أن لا ينشر العلم لذاته فقط ، ولا لرشاقة وسائله ولا لتألق جماله. وإنما يجب أن يكون هدفه فائدة الإنسان المادية والروحية. كما يجب أن نعطي الإحساسات أهمية تعادل أهمية علم الحركة .. ولا مفر من أن يضم تفكيرنا جميع جوانب الحقيقة » (3).

ص: 105

1- الإنسان ذلك المجهول ، تأليف الكسيس كارل ص 210.

2- المصدر السابق ص 212.

3- المصدر السابق ص 215.

إن رعاية عواطف الناس أحد الفصول المهمة في التربية الإسلامية. فهناك مئات الآيات والاحاديث في موضوع الأخلاق الفاضلة والبذنية في الإسلام ، ورعاية عواطف الناس وحب بعضهم لبعض من المسائل التي أكد الأئمة عليهم السلام عليها كثيراً. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : « يحق على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف ، والمواساة لأهل الحاجة ، وتعاطف بعضهم على بعض » (1).

وفي حديث آخر عن عبدالله بن يحيى الكاهلي قال : « سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : تواصلوا ، وتباؤوا ، وتراحموا ، وتعاطفوا » (2).

هناك ميول مختلفة مودعة في قوام الإنسان : روحه وجسده ، ولكل منها دور فعال في ضمان سعادته. ومن الضروري أن تلبي جميع الميول بالصورة الصحيحة حتى يصل الإنسان إلى الكمال للائق به. إنه لا ينبغي حصر الإنسان في واحد أو طائفة من الميول الخاصة ، وتجاهل سائر الإحتياجات الفطرية. الإنسان بميل طبيعياً إلى الغذاء ويجب إشباع هذا الميل ولكن سعادة الإنسان لا تنحصر في الغذاء ، والإنسان يميل بفطرته إلى الجنس ويجب إشباع هذه الغريزة ولكن قوام الإنسان لا يقوم على الجنس فقط ، والإنسان يملك ثروة العقل العظيمة ويجب تنميتها وصيانتها عن طريق التفكير والتعلم ولكن الإنسان ليس عقلاً فقط ، وكذلك العواطف والمشاعر فإنها من الثروات الفطرية للإنسان ، ورعايتها بالصورة الصحيحة من أهم أسس سعادته ، ولكن ليس الإنسان مكوناً من العواطف والمشاعر فقط.

« إن هدف الحياة هو أن يصنع من كل فرد نموذجاً صالحاً للإنسانية ، ويجب أن تنمي جميع إمكانات الجسدية والفكرية والمعنوية في سبيل القيام بالواجبات الإنسانية. إن قمة تكامل الفرد والأمة تكون عند التعالي النفسي الحاصل ، إذن فنحن مدعوون الى تنمية جميع نشاطاتنا الجسدية والروحية وهذا واجب مفروض على الجميع ،

ص: 106

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص175.

2- نفس المصدر.

وعلى الفقير والغني ، المريض والسالم ، الرجل والمرأة ، الكبير والصغير اتباع ذلك. لكل فرد - مهما كان جنسه وعمره ومنزلته الاجتماعية - حاجات عاطفية وفكرية وجسدية يعتبر ارضاؤها ضرورياً لأداء واجبه « (1).

بالرغم من أن كلا- من الثروات الفطرية والميول الطبيعية المودعة في باطن كل انسان ، يلعب دوراً خاصاً في التخطيط لسعادة الانسان وشقائه فإن مالا مجال لشك فيه هو أنها ليست متساوية الأثر في تحقيق لسعادة أو الشقاء ، إذ قد تختلف الآثار الطبية أو الشريرة لكل منها.

ان العواطف والمشاعر من الأمور الفطرية التي تتسع دائرة تأثيرها في حياة الانسان وتكون لنتائجها الخيرة أو الشريرة أهمية فائقة ، ذلك أن اعظم القوى المحركة في عالم الإنسان ، وأقوى العوامل المحفزة للفرد والمجتمع عبارة عن العواطف والمشاعر. ان اكثر الحوادث العظيمة التي وقعت في العالم على مر القرون تعود في جذورها الى مشاعر الناس ، فالحروب الدامية والمطاحنات المتواصلة ، والجرائم المذهلة ، والأعمال الإنسانية تنبع من المشاعر في الغالب. وكذلك تضحيات الأبطال والمخلصين في سبيل أهدافهم ومظاهر الإحسان والكرم ، ومساعدة الفقراء ، ورعاية الأيتام تملك جذوراً عاطفية أيضاً.

توجيه المشاعر :

لو توجه مشاعر الناس وعواطفهم في بلد ما توجيهها صحيحاً ، فإن ذلك البلد يصبح كالنعيم الخالد مهذاً للسعادة والرخاء ، فيكون بلد العطف والمحبة ، وبؤرة الوفاء والود وعلى العكس فإن عدم توجيه مشاعر الناس في بلد آخر نحو الأهداف الخيرة والغايات الانسانية يؤدي الى نشوء بركان من النعمة والفوضى وانتشار العداوة والفساد بين الجميع ، حيث الشقاء في أبشع صوره ، وحيث الجحيم الذي لا يطاق.

إن من أهم الواجبات الدينية والعلمية والوطنية للوالدين ، الاهتمام الشديد

ص: 107

بتوجيه مشاعر الأطفال ومراقبة تنمية عواطفهم يستيقظ الشعور العاطفي عند الأطفال في وقت مبكر ... ففي الوقت الذي يكون سراج العقل غير مشتعل بعد عند الطفل ، وفي الحين الذي لا يدرك شيئاً عن الإستدلال والمنطق ، ولا يملك طاقة بدنية كاملة ، نجد أن الشعور العاطفي يستيقظ فيه ويكون قابلاً للتوجيه والضبط وإن غفلة الوالدين في هذا الوقت الحاسم تؤدي إلى أثر سيئة في روح الطفل.

اختلاف عواطف الناس :

والنكتة الجديرة بالملاحظة هنا أن العوامل الوراثية المختلفة تؤدي إلى اختلاف في البناء العقلي والعاطفي للأطفال. وكما أن الناس يختلفون في الهندام ولون الشعر وبصمات الأصابع كذلك يختلفون في العواطف والأفكار والحالات النفسية والعصبية. هذه الاختلافات الوراثية إنما هي إحدى آيات الله الحكيمة في الخلق ، وتعود الى قانون الوراثة المضبوط. وقد ورد بهذا الصدد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : « الناس معادن كمعادن الذهب والفضة. فمن كان له في الجاهلية أصلٌ فله في الإسلام أصل » (1) وبعبارة أخرى فإن قانون الوراثة ينقل صفات الآباء في الجاهلية إلى الأبناء في الإسلام.

قد يعمل قانون الوراثة في ظروف خاصة وأوضاع مجهولة على إحداث اختلافات شديدة من الناحية العقلية والنفسية والعصبية بين أطفال أسرة واحدة ، وبعبارة أخرى فإن أباً وأماً ينجبان على طول الفترة الزوجية عدة أطفال يختلفون فيما بينهم اختلافات بيّنة في ذكائه وعقلهم وحالاتهم النفسية والعصبية.

« إن الأطفال الذين يولدون لآبوين واحدتين وينشأون معاً وبطريقة واحدة يختلفون اختلافاً ظاهراً من حيث الشكل والقوام والتكوين العصبي والاستعداد العقلي والصفات الأدبية. ومن الواضح ان هذه الاختلافات لا يرجع أصلها إلى الأسلاف ... وتتصرف الحيوانات بطريقة مماثلة ، ولنضرب لذلك مثلاً بكلاب صغيرة جداً من فصيلة حراس الاغنام ... ان كلا من الكلاب التسعة أو العشرة يبيدي

ص: 108

صفات واضحة فبعضها يفرع من الضوضاء المفاجئة ، أو طلقة مسدس ، ويكون رد فعله لذلك أن ينكمش على الأرض ، في حين يكون رد الفعل مغايراً في فريق آخر منها فيقف على مؤخره أو يتقدم نحو مصدر الصوت. وقد ينتهز فريق ثالث الفرصة فينصرف الى الرضاعة من ثدي امه ، وقد يستسلم بعضها لدفع إخوتها إياها بعيداً عن أمها. وثم فريق آخر يتعد عن أمه ليستكشف المنطقة المجاورة لبيته في حين يبقى معها آخرون. وقد يزجر بعض هذه الكلاب الصغيرة إذا لمسها أحد. وفي حين يظل البعض صامتاً... فحينما تنشأ الكلاب معاً في أحوال متماثلة إلى أن تكبر ، فإن صفاتها لا تتغير بالنمو ، إذ تظل الكلاب الخجولة والجبانة خجولة وجبانة طوال حياتها. أما الشجاعة النشيطة فقد تفقد هذه الصفات أحياناً حينما تتقدم في السن ولكنها تكون عادة أكثر جرأة ونشاطاً « (1).

إختلاف طبائع الأطفال :

والمشاعر والعواطف من الصفات التي تخضع للعوامل الوراثية بصورة فائقة. ولهذا فإن الأطفال يختلفون فيما بينهم في الصفات العاطفية اختلافاً بيناً. فهناك بعض الأطفال ينشأون منذ البداية شجعاناً ومتهورين ، والبعض ينشأ جباناً وضعيفاً. قسم منهم ينشأ محباً للاستقلال والقيادة ، والقسم الآخر يميل الى أن يكون عالية على غيره ومنقاداً. طائفة منهم تميل إلى الإيذاء والإفساد ، وأخرى تمتاز بسلامة النفس وصفاء الضمير. ثلة منهم تتسم بالسخاء والكرم ، وثلة أخرى تتميز بالبخل والتقشف ... والخلاصة ان البناء الطبيعي لمشاعر أطفال المجتمع وعواطفهم - وأحياناً الأطفال المنحدرين من أب واحد وأم واحدة أيضاً - يختلف اختلافاً كبيراً وكما قال الإمام الصادق عليه السلام يشبه اختلاف المعادن فيما بينها.

« من الواضح الإحساس الأدبي مثل النشاط العقلي يعتمد على

ص: 109

حالات تركيبية ووظيفية معينة للجسم ، وهذه الحالات تنتج من التركيب الداخلي لأنسجتنا وعقولنا ، وكذلك من عوامل أثرت فينا إبان نمونا. ولقد أعرب (شوبنهاور) عن رأيه ، في المحاضرة التي ألقاها عن أصل الأخلاق بالجمعية الملكية للعلوم بكونهاجن ، من أن أساس المبدأ الأدبي موجود في طبيعتنا. وبعبارة أخرى ، ان الجنس البشري يولد وبه ميل فطري نحو الأنانية والضعة أو العطف. وهذا الميل يظهر في مرحلة مبكرة جداً من الحياة ، ويراه الملاحظ المدقق بوضوح. وقد ذكر (جالافاردبن) أن هناك أنانيين لا يأبهون مطلقاً بسعادة أترابهم من بني الإنسان أو تعاستهم. وهناك الحقودون الذين يشعرون باللذة وهم يشاهدون نكبات الآخرين وآلامهم ، بل حتى حينما يتسببون في إحداث هذه النكبات والآلام ، وهناك قوم يستشعرون الألم حينما يستشعره أترابهم ، وتولد قوة العطف هذه ، الرحمة وفعل الخير والأعمال التي توحى بها هاتان الفضيلتان والقدرة على الإحساس بآلام الآخرين صفة لازمة للإنسان الذي يحاول تخفيف أعباء الحياة وآلامها عن إخوته في الإنسانية ... » (1).

المشاعر الشاذة :

لمعرفة الطباع الفطرية للطفل ، وتمييز مشاعره الطيبة عن الفاسدة يجب على الوالدين أن يراقبوا منذ الصغر مراقبة مضبوطة ويتتبعوا حركاته بدقة. فإذا كان الطف يملك مشاعر شاذة فلا شك في أنها تظهر من خلال أفعاله وأقواله. إن الوالدين الفطنين يستطيعان إدراك الحوافز النفسية والدوافع العاطفية للطفل من وضع حركاته وسكناته. فإذا وجدا في ذلك انحرافاً واعواجاجاً حاولا إصلاحه ، وتوجيه تلك الحوافز والدوافع نحو الطريق الصحيح والصفات الفاضلة.

« قبل أن يستطيع الطفل الوقوف على قدميه والأخذ في المشي يجب أن يدير رأسه عندما يناديه أحد. فإذا رأيت أنه يتخلف عن ذلك

ص: 110

فاعلموا أنه يطمح في الاستقلال ، وان عمله هذا يدل دلالة واضحة على خُلُق يجب أن يعدّل. فليس هذا الطموح في الاستقلال ولا ذلك الخلق بالأمر المستحسن. إذ الطفل يجب أن يدير رأسه ، ولكنه إذا كان يطمح في الاستقلال فإنه سيكشف عن ذلك فيما بعد .».

« يضرب الأرض برجله ، يثور. فإذا لم يكن في حاجة إلى شيء أي أنه شبّعان وقد نال حصة كافية من النوم فاعلموا أن ذلك كله يدل على حالة عصبية يجب أن تقتلع جذورها. في مثل هذه الحالات يكفي إهماله وعدم الاعتناء به لبضع دقائق. انكم تقولون : أن هذه الحالة العصبية نموذج لشخصيته البارزة. ولكن الأمر ليس كذلك. يجب إزالة هذه الحالة وإذا كان يملك شخصية بارزة فاعتقدوا بأنها ستظهر إن قريباً أو بعد فترة » (1).

الحب حجاب العقل :

لا يخفى أن هناك سداً كبيراً وحاجزاً مهماً في سبيل معرفة العيوب العاطفية للأطفال من قبل الوالدين وحنانهما. إن أكثر الرجال والنساء يعرفون الصفات السيئة لأطفال الناس بصورة جيدة ، ولكنهم يغفلون عن رؤية الصفات السيئة في أطفالهم. والسبب في ذلك يعود إلى أن منظارهم الذي ينظرون به إلى سلوك أطفال الآخرين ناصع ومتقن ، بينما يقف الحب حاجزاً بين منظار عقلهم ورؤية عيوب أطفالهم.

إن أفضل الآباء والأمهات هم الذين يبعدون حب أطفالهم عن حساب التربية ، يحبونهم حباً خالصاً ، ولكنهم في الوقت نفسه ينظرون بعين البصيرة والدقة إلى عيوبهم ويحاولون بصورة جدية اقتلاعها وإزالتها وإحلال الفضائل والمثل محلها. فإذا كان الأطفال يملكون صفات وراثية وفطرية فاضلة وتوجد في أعماقهم مشاعر وأحاسيس طيبة فإن تربيتهم سهلة وبلا مكان أن يستوعبوا الفضائل والكمالات والمثل بسرعة فينشأوا أفراداً بارزين. أما إذا كانوا متطبعين على صفات وراثية بذئية وكان بناؤهم العاطفي مشوباً بالردائل والأحاسيس الممقوتة فإنهم بحاجة إلى رعاية

ص: 111

أدق وعناية أكثر. يجب على الوالدين حينئذ أن يتخذا الأساليب التربوية المفضلة في حقهم. فيعملان على دحر المشاعر الشاذة والصفات البذيئة في الطفل من جهة، ويعودانه على الفضائل والملكات الحميدة من جهة أخرى حتى تنشأ فيه من التكرار والاستمرارية طبيعة ثانوية تستقر في روحه وضميره، وتخفف عواطفه الفطرية غير المحبذة بالتدريج.

لا شك في أن التنمية السليمة لعواطف الطفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة تشكل أحد الفصول التربوية الأساسية، وتعتبر من الواجبات المهمة للوالدين. فالطفل الذي ليس مجنوناً بالولادة ولا توجد اختلالات أساسية في مخه يكون قابلاً للتربية وبالإمكان توجيه عواطفه إلى طريق الفضيلة وجعله يتمتع بالملكات الحميدة والسجايا الطيبة.

مناغة الطفل :

من أفضل وسائل تنمية عواطف الطفل مناغاته ومعاملته بالرفق والحنان. فكما أن الطفل يحتاج إلى الطعام والماء والهواء والنوم بفطرته، كذلك يحتاج إلى العطف والحنان. فالعطف أطيب الأطعمة النفسية للطفل إنه يتلذذ من تقبيله وشمه ومناغاته واحتضانه ورعاية عواطفه ويُسّر لذلك كثيراً.

الحب أساس البناء الخلقي والفضائل. إن حب الله للناس، وحب الناس لله، حب النبي والإمام للأمة، وحب الأمة للنبي والإمام، حب المسلمين تجاه بعضهم البعض أساس الدين الإسلامي. وقد ورد التأكيد على الحب في القرآن الكريم والروايات بدرجة كبيرة، حتى أن الإمام الصادق عليه السلام يقول: « هل الدين إلا الحب »؟⁽¹⁾.

إن جميع الجهود التي بذلها الأنبياء في تبليغ رسالاتهم إلى الناس، وجميع التضحيات التي تحملها المجاهدون في ميادين الحرب، وجميع العبادات

ص: 112

والمساعدات التي يقوم بها المحسنون تنبع من ينبوع واحد ألا هو الحب ... حب الله ... حب دين الله.

والحب هو الذي يحيل المرارة الى حلاوة.

والحب هو الذي يهدى الآلام.

والحب هو الذي يحول الأشواك إلى أزهار.

والحب هو الذي يجعل من السجن روضة.

والحب هو الذي يحول النار نوراً.

والحب هو الذي يزيل المآسي.

والحب هو الذي يجعل من الصفعة دغدغة.

والحب هو الذي يحيي الموتى.

والحب هو الذي يجعل الملك عبداً (1).

العطف على الصغير :

إن الطفل الذي يتلقى مقداراً كافياً من العطف والحنان من أبويه ، ويروى من ينبوع الحب يملك روحاً غضة ونشطة. انه لا يحس بالحرمان في باطنه ولا- يصاب بالعقد النفسية ، تتفتح أزاهير الفضائل في قلبه بسهولة وإذا لم تعتوره العراقيل في أثناء طريقه فإنه ينشأ إنساناً عطوفاً وفاضلاً يكنّ الخير والصلاح للجميع لقد ورد التأكيد على العطف على الصغار في الأحاديث بصورة كثيرة وها نحن نقرأ بعضاً منها :

1 - عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، في خطبة له حول واجبات المسلمين في شهر رمضان : « وقرّوا كباركم وارحموا صغاركم » (2).

2 - وقال صلى الله عليه وآله : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقّر كبيرنا » (3).

ص: 113

1- وردت في الأصل الفارسي تسعة أبيات من العشر ترجمتها نثراً ولكن أبقيت كلا منها في سطر مستقل حفاظاً على المعنى الاستقلالي لكل بيت.

2- عيون أخبار الرضا : 163.

3- مجموعة ورام ج 1 ص 134.

3 - في ما أوصى به أمير المؤمنين عليه السلام عند وفاته : « وارحم من أهلك الصغير ووقر الكبير » (1).

4 - عن علي عليه السلام : « لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ ، وَلِيَرَأْفَ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا كَجَفَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ » (2).

5 - وعن الإمام الصادق عليه السلام : « إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيَرْحُمَ الرَّجُلَ لَشِدَّةِ حَبِّهِ لَوْلَدِهِ » (3).

6 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « أَحَبُّوا الصِّبْيَانَ وَارْحَمُوهُمْ » (4).

7 - وجاء بيان صفاته (صلى الله عليه وآله وسلم) : « وَكَانَ النَّبِيُّ إِذَا أَصْبَحَ مَسَحَ عَلَى رُؤُوسِ وَلَدِهِ » (5).

تقيل الطفل :

1 - عن الإمام الصادق عليه السلام قال : « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) : مَنْ قَبَلَ وَلَدَهُ كَتَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ حَسَنَةً ، وَمَنْ فَرَّحَهُ فَرَّحَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (6).

2 - وقال عليه السلام : « أَكْثَرُوا مِنْ قُبْلَةِ أَوْلَادِكُمْ فَإِنَّ لَكُمْ بِكُلِّ قُبْلَةٍ دَرَجَةٌ » (7).

3 - وفي الحديث : « قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ . فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ : إِنَّ لِي عَشْرَةَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا قَبَّلْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ . فَقَالَ : مَا عَلَيَّ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْكَ » (8).

ص: 114

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ح16 ص154.

2- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص531.

3- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 113.

4- وسائل الشيعة للحر العاملي ح5 ص126.

5- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج23 ص114.

6- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج6 ص49.

7- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص126.

8- مكارم الأخلاق للطبرسي : 113.

4 - قال أمير المؤمنين عليه السلام : « قُبلة الولد رحمة ، وقُبلة المرأة شهوة ، وقُبلة الوالدين عبادة ، وقُبلة الرجل أخاه دين » (1).

العطف في ظل الإيمان :

ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله كان يصلي يوماً في فئة ، والحسين صغير بالقرب منه. فكان النبي إذا سجد جاء الحسين (عليه السلام) فركب ظهره ثم حرّك رجله فقال : حَلْ ، حَلْ !

فإذا أراد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يرفع رأسه أخذه فوضعه إلى جانبه. فإذا سجد عاد على ظهره ، وقال : حَلْ ، حَلْ ! فلم يزل يفعل ذلك حتى فرغ النبي من صلاته.

فقال يهودي : يا محمد إنكم لتفعلون بالصبيان شيئاً ما نفعله نحن.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أما لو كنتم تؤمنون بالله ورسوله لرحمتم الصبيان.

قال : فإني أؤمن بالله وبرسوله. فأسلم لما رأى كرمه مع عظم قدره (2).

يستفاد من هذا الحديث والأحاديث المتقدمة عليه مدى أهمية الحب والعطف في أسلوب تربية الطفل. فعلى المسلمين جميعاً أن يترحموا على جميع الأطفال بصورة عامة ، وعلى أطفالهم بصورة خاصة. فالحياة السليمة والطبيعية عبارة عن الاتباع الصحيح لقوانين الفطرة. ومن يتخلف عن القوانين الفطرية التي هي سنة الله عز وجل في هذا الكون يلاق جزاءه الصارم بلا شك. إن الحاجة إلى الطعام أمر فطري للإنسان والامتناع عن تلبية هذه الحاجة الفطرية يؤدي إلى الضعف والعجز وفي صورة الاستمرار على ذلك يؤدي إلى الموت. والحاجة إلى النوم فطرية للإنسان أيضاً ، وإن كل محاولة للاستغناء عنها تتضمن خطر الإنهيار الصحيح وإذا استمر ذلك كان الموت بالمرصاد. الميل الجنسي أمر طبيعي بالنسبة إلى الإنسان السليم وكبت هذا الميل يستتبع مشاكل نفسية متعددة وربما أدى إلى الجنون.

ص: 115

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ح23 ص113.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ح10 ص83.

الحاجة الى العطف فطرية :

من الميول الفطرية للإنسان ، والتي تظهر في فترة الطفولة الحاجة إلى العطف والحنان. إن الاستجابة لهذا الميل الطبيعي وإشباع هذه الحاجة جزء من المنهاج الفطري. إذا نال الطفل حظاً وافراً من العطف والحنان في أيام طفولته كان ذا روح مطمئنة ونفس وديعة وكان سلوكه طبيعياً طيلة أدوار حياته. أما الأطفال المحرومون من الحب العائلي وعطف الوالدين فإنهم يملكون أرواحاً ملؤها اليأس والتشاؤم ويكونون على شفا جرف من الانحراف.

« الأسرة التي لا- يشع فيها نور العطف ، والبيت الذي يُحرم من روح التفاهم والتسامح يساعدنا على البحث عن كثير من الآلام الروحية والاضرار الاجتماعية. عندئذ يجب أن يبذل الإهتمام الكافي لحماية القلوب المندحرة ومعالجة الحرمان الذي أصاب اصحابها بصورة معقولة ».

« هؤلاء ينشأون على خواطر مرة عقلت بأذهانهم من سلوك الوالدين تجاههم منذ الطفولة ، وفي الغالب يكونون معرضين للوقوع في شرك اليأس ، والتشاؤم ، وعدم الإنسجام ، والنفور ، والإنتحار ، والإجرام ، والأمراض الروحية والعصبية » (1).

حرمان اليتيم من العطف :

إن الأطفال الأيتام الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم مصابون بمشكلتين : الأولى هي العوز المادي ، والثانية هي الحرمان من العطف. إن الاحتياجات المادية لليتم تشبع في جميع البلدان بنسب مختلفة ، ولكن قلما يصادف أن يعيش اليتيم في أسرة ينعم فيها - بالإضافة إلى إشباع الحاجات المادية - بالعطف والحنان ، بحيث يجد رب الأسرة نفسه بمنزلة الأب لذلك الطفل فيراعي عواطفه ويحن عليه كما يحن على أولاده.

ص: 116

تهتم المؤسسات الخيرية في الدول المتقدمة بضمان حياة الأيتام ، وتقوم بأعداد وسائل الثقافة والتعليم لهم بالإضافة إلى ضمان الطعام والكساء والمأوى .. لكن يبقى هؤلاء محرومين من حنان الوالدين ، هذا الحرمان يجر وراءه سلسلة من الآثار والنتائج السيئة التي تظهر تدريجياً في أقوال اليتيم وأفعاله عندما يشب.

« يضمن اليتيم نتائج وخيمة للفرد والمجتمع ، سواء كان حاصلاً بفقد الأب أو موت الأم. لقد لاحظ علماء النفس والتربية بصورة عامة في التحقيقات التي أجروها في هذا المجال أن اليتيم أحد العوامل المهمة للتشرد والتخلف العلمي والاجتماعي ، والاحرام والفوضى ».

« يذكر أحد علماء النفس الألمان ضمن بحوثه التي أجراها على أثر اليتيم في التحصيل العلمي أن من بين التلاميذ الراسبين في المدارس 44% محرومين من الآباء ، و 33% محرومين من الامهات ، أي 77% من الراسبين كانوا ايتاماً. وهكذا فإن تحقيقاً مشابهاً أجري أمريكا حول مشاكل التربية فوجد أن 25% من الأطفال المعقدين في إحدى مدارس نيويورك كانوا أيتاماً. كما أن تحقيقاً آخر حول الأطفال والراشدين المجرمين أجري في ألمانيا فكانت النتيجة أن من بين 2704 شاباً مجرمًا كان 1171 شاب منهم ، وهذه النسبة تعني أكثر من 43% من المجموع. لقد أجري تحقيق آخر في أمريكا حول المساجين فوجد أن 60% من الذين أجري التحقيق معهم كانوا يرجعون إلى أسر منهارة بموت الأب أو الأم كما توصل عالم الماني إلى نتيجة خطيرة وهي أن من بين الفتيات اللاتي ارتكبن السرقة 38% يتييمات ، ومن بين الفتيات اللاتي أنشأن علاقات جنسية غير مشروعة أو خضعن للاعتداء الجنسي 40% منهم يتييمات. وفي إحدى التحقيقات الاجتماعية والنفسية التي أجريت في الولايات المتحدة نجد أن 70% من الفتيات التي يقضين حياتهن في مدارس التأديب التابعة لمحكمة الأحداث كن يتييمات إما يتيماً

منفرداً أو مزدوجاً ، أي فاقدات للأب أو الأم فقط ، أو فاقدات لهما معاً « (1).

أمانة الإنسانية :

إن حب الناس والعطف عليهم أبرز سمات العاطفة الإنسانية. من الضروري أن يتربى كل فرد من أي أمة كان والى أعني عنصر انتمى على حب الخير للجميع. فحب الناس أحد الأركان الأساسية للسلام العالمي والسعادة البشرية ، وهو بعد رمز للتكامل الروحي الذي يحزره الفرد.

« عن أبي الحسن عليه السلام قال : إن أهل الأرض لمرحومون ما تحابوا ، وأدوا الأمانة ، وعملوا الحق » (2).

يجب أن يتلقى الفرد درس حب الخير للجميع منذ الصغر. إن الوالدين اللذين يبذلان العطف والحنان لطفلهما يستطيعان أن يفهما كيف يحب الآخرين. أما الطفل الذي لم ير عطفاً من أحد أبداً ولم يذق طعم الحنان فإنه لا يفهم معنى للحب ولا يدرك هذه الحقيقة الروحية الطيبة أصلاً. إنه وجد في الحياة برودة وجفاء ، وتزمتاً وعقاباً... ولذلك فهو يسلك مع الناس بتلك الصورة أيضاً ، ولذلك فلا يجب أن نتظر من فرد كهذا أن يكون محباً للناس.

إن العطف والحنان في الأسرة أساس التنمية الصحيحة لعواطف الطفل. وفي ظل المشاعر والعواطف فقط يمكن هدايته الى الطريق المستقيم والحياة السعيدة ، أما الطفل الذي حُرِم من العطف والحنان فإن مشاعره تسير نحو طريق منحرف فيصاب بالقسوة والشدة ، ويشعر بالتشاؤم والإشياء ، وتشب في نفسه نيران الحقد والبغضاء ، وعشرات من الصفات الذميمة الأخرى.

ص: 118

1- روح بشر : 93.

2- مجموعة ورام ج 1 ص 12.

قال الله تعالى في كتابه العظيم : (... الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) (1).

اليوم هو الحادي والعشرون من شهر رمضان ، ويصادف استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، نعزي المسلمين كافة بهذه الفاجعة العظمى والمصيبة الفادحة.

لقد ذكرنا في المحاضرة السابقة العقل والعواطف طاقتان إلهيتان عظيمتان ، وثروتان فطريتان. ويجب الإستفادة من هاتين الطاقتين معاً في سبيل تحقيق السعادة. وكما أن العلم والعدالة ، والمنطق والاستدلال ، والتفكير والتعقل ، ضروري للتكامل البشري ، كذلك الاخلاق والفضيلة ، الحب والعطف ، فإنه لا يستغنى عنها. وهكذا انتهينا الى أن الوالدين مسؤولان عن رعاية عواطف الطفل وعقله في سبيل تربته ، وعليهما أن يهتمتا بتنمية كل منهما بأسلوب دقيق.

تنمية الإيمان :

من واجبات الوالدين في القيام بالمهمة التربوية تنمية المشاعر الايمانية والخلقية في نفس الطفل. يجب على الآباء والأمهات المسلمين - حسبما تصرّح به الأحاديث - أن يربّوا اطفالهم على الإيمان ، ويوقظوا فيهم فطرة عبادة الله بواسطة العبادات التمرينية ، فيشجعوهم على إتباع الأوامر الإلهية ، والإرتباط بالخالق العظيم.

ص: 119

ينبغي أن نقدم أمام البحث تمهيداً ييسر لنا الدخول إلى صلب الموضوع. إن الحقائق التي توجد في العالم يمكن تقسيمها تقسيماً علمياً إلى طائفتين : الطائفة الأولى - وتشمل الموجودات التي استطاع العلماء من قياسها بالوسائل والآلات الدقيقة والقوية في ظل التقدم العلمي الذي يحرزه الإنسان يوماً بعد يوم ، وإخراج نتائج تلك الموازنات بصورة أرقام مضبوطة أو تقريبية. والطائفة الثانية - تشمل الحقائق الموجودة الأخرى التي لا يملك العلم البشري مقدرة علمية تجريبية عليها ، فهي لا تخضع للقياس ، ولا يستطيع العلماء من مقايستها بواسطة مقاييس مضبوطة. أن عدد الحقائق التي لا تقبل القياس العلمي في جميع الموجودات بصورة عامة وفي تكوين الإنسان بصورة خاصة كبيرة جداً ويرى العلماء والباحثون ان تلك الحقائق أهم بكثير من الحقائق القابلة للقياس.

« ... ولقد جلب الكم ، المعبر عنه باللغة الحسائية ، العلم للانسانية في حين أهمل النوع .. ولقد كان تجريد الأشياء من صفاتها الأولية أمراً مشروعاً ، ولكن التغاضي عن الصفات الثانوية لم يكن كذلك .. فالأشياء غير القابلة للقياس في الإنسان أكثر أهمية من تلك التي يمكن قياسها .. فوجود التفكير هام جداً مثل التعادل الطبيعي - الكيميائي لمصل الدم » (1).

فالسل والسرطان مثلاً مرضان خطيران ، وداءان وبيلان للإنسان. كل واحد منهما يكفي لاضعاف المصاب به ، ونحول جسده ، وتدمير حياته. لقد اكتشف الأطباء جميع الأعراض المميزة لهذين المرضين بالأدوات والوسائل العلمية ، وتوصلوا الى طرق الوقاية منهما في المختبرات بفضل الأجهزة الدقيقة ، فاستطاعوا من معرفة انتشار المرض ، والظروف المساعدة لذلك ، والخسائر التي يتضمنها ، وكل ما يرتبط به بصورة مضبوطة.

ص: 120

والحسد أيضاً داء خطير كالسل والسرطان ، وربما كان الضرر الناشئ منه أشد من الأضرار الناشئة من ذنوبك المرضين بكثير ، إذ أنه يترك آثاراً سيئة على جسد المصاب به وروحه. إنه يفسد العقل ، ويقتل الإنسانية ، ويبعث الإنسان على الاجرام والخيانة ، يذهب بالصفاء والنشاط ، ويسلب الراحة والنوم ، ويؤدي الى تسمم الجسم في نهاية المطاف فيدمر حياة صاحبه. هذا المرض ليس قابلاً للفحص والقياس في المختبرات ، إنه لا يملك ميكروباً خاصاً ، ولا يمكن مشاهدته تحت المجاهر القوية. الحسد عبارة عن حالة نفسية ، وإحساس باطني ... إنه حقيقة لا تقبل الإنكار ، تتضمن عشرات العوارض على جسد المصاب به وروحه ... ومع ذلك فلا يمكن قياس ذلك بواسطة الآلات والأجهزة العلمية.

إن حوادث الاخفاق والفشل ، والانهايار الروحي ، والعقد النفسية ، ومظاهر القلق والإضطراب تضعف الجسم كمرض الملاريا ، وتتضمن عشرات العوارض المختلفة. إن مرض الملاريا يمكن فحصه ومعرفته بواسطة الاجهزة العلمية ، أما الإخفاقات والعقد النفسية فإنها ليست قابلة للفحص بالوسائل العلمية المادية.

الجماليات :

تصوروا غصناً جميلاً من الورد يتباهى في زاوية الحديقة ، ويُعجب الناظرين ، ويبعث اللذة والسرور في نفوسهم من مشاهدته ، ويبهروهم جماله ولطافته. للوردة حساب خاص ولجمالها حساب آخر. الوردة من الموضوعات العلمية وجمالها من المسائل العاطفية. يستطيع العلماء المتخصصون من قياس الوردة ، ومعرفة مكوناتها وعناصرها الطبيعية ، وإعطاء أرقام صحيحة ومضبوطة عنها. أما جمال الوردة فلا يخضع للقياس. تلك الحقيقة المدهشة ، والجاذبية الخاصة التي تجمع الناس حول الوردة وتبعثهم على استلطفها والتلذذ برؤيتها لا يمكن أن تخضع لفحوص العلماء في المختبرات. الجمال تفهمه عواطف الإنسان ، وتحسّه مشاعر بني البشر ، فلا يدركه العقل أو العلم ، ولا الفحص والاختبار. إن المسائل العلمية هي التي تكون قابلة للفحص والقياس ، وعواطف الإنسان ومشاعره تخرج من ميدان العلوم التجريبية ، ولا يمكن للأجهزة والوسائل العلمية ضبطها.

ومقال آخر نلاحظه في لوحة رسام ماهر أجادت يد الفن صنعها ورسمها ... إنها تُقدّر بآلاف الدنانير ، وربما تصرف آلاف الساعات من العمر الثمين للأشخاص في مشاهدة تلك اللوحة والاستمتاع بجمالها. إن ما يخضع للقياس والنظر العلمي من هذه اللوحة لا يزيد على 10 غرامات من اللون الأحمر ، و 100 غرام من اللون الأخضر ، و 50 غرام من اللون الأزرق ممزوجة حسب مقادير معينة ، وشيء من القماش والخشب ... وكلّ ذلك لا يساوي أكثر من بضعة دراهم ، غير أن في هذه اللوحة الثمينة عنصراً آخر يجعل ثمنها يرتفع إلى آلاف الدنانير ، هذا العنصر ليس علمياً أو عقلياً وليس عنصراً كيميائياً أو مختبرياً ، انه لا يقاس بالأجهزة والأدوات العلمية ... إنه عنصر الجمال واللطافة ، وهذا يجب أن يعرض في سوق الذوق ، والطلب عليه يتمثل في العواطف والمشاعر. إن العناصر الكيميائية والمواد الطبيعية للوحة قابلة للقياس والحساب العلمي ، أما جمالها فلا يقاس في المختبرات.

إن حقيقة الإيمان الساطعة ، والأخلاق الفاضلة كالإيثار ، والشجاعة ، والكرم ، والعفة ، والرأفة ، والمحبة وأمثالها ، وكذلك السيئات الخلقية كالحسد ، والتكبر ، والحق ، والجشع ونظائرها من المسائل النفسية ، وترتبط بمشاعر الناس وعواطفهم. إن السجيا الفاضلة والبديئة حقائق تترك آثارها الطبيعية أو الخبيثة على روح الإنسان وجسده ومع ذلك فهي غير قابلة للقياس بالوسائل المادية والاجهزة العلمية. إن وجود حقيقة ما يختلف عن إمكان قياسها ، يجب أن ننظر إلى هذه الحقائق بعين البصيرة ونعترف بوجودها وإن عجزت الوسائل العلمية عن قياسها وضبطها.

« تبدو الوسيلة العلمية للنظرة الأولى غير قابلة للتطبيق على تحليل جميع وجوه نشاطنا ، ومن الواضح أننا نحن المراقبين غير قادرين على تتبع الشخصية البشرية في كل منطقة تمتد إليها ، لأن فنوننا لا تفهم الأشياء التي لا أبعاد لها ولا وزن ، وإنما هي تصل فقط للمناطق التي تقع في الاتساع والزمن ... إنها غير قادرة على قياس الغرور والحق والحب والجمال أو احلام العالم وإلهام الشاعر ، ولكنها تسجل بسهولة النواحي الفسيولوجية النتائج المادية لهذه الحالات النفسانية .. ان النشاط العقلي والروحي يعبران عن

نفسيهما بتصرف معين ، أو عمل معين ، أو موقف معين ، نحو إخواننا في البشرية حينما يلعبان دوراً هاماً في حياتنا ... ولكن من المحقق أن إتسام الأشياء بالمراوغة ليس معناه عدم وجودها « (1).

« ليس من الضروري أن تكون الحقيقة واضحة بسيطة. بل انه ليس من المحقق أن نكون دائماً غير قادرين على فهمها. وعلاوة على ذلك فإنها تقترض آراء مختلفة لا حدود لها .. إن حالة الشعور ، وعظمة الكتف ، والجرح ، هي أيضاً أشياء حقيقية. كما أن الظاهرة لا تدين بأهميتها إلى سهولة تطبيق الفنون العملية حين دراستها. وإنما يجب أن ترى وهي تؤدي وظيفتها ، لا بالنسبة للمراقب ووسائله وإنما بالنسبة للكائن الحي. فحزن الأم التي فقدت طفلها ، وجزع النفس الحائرة في (الليل البهيم) وعذاب مريض السرطان ، كل أولئك حقائق واضحة على الرغم من أنها غير قابلة للقياس « (2).

الانتصارات العلمية :

يتميز عصرنا هذا بالإكتشافات العلمية الدقيقة ، والتوصل الى رفع الستار عن الأسرار الكونية المودعة في الطبيعة. فقد فحص العلماء الذرات الصغيرة الأرضية ، والاجرام السماوية العظيمة ، ووقفوا على حلّ كثير من الرموز التي كانت مجهولة لدى السابقين. في المدنية العصرية خرج العلم من مرحلة التصور والتخيل إلى مرحلة التجربة والحسن ، وأخذت المختبرات العلمية تجيب عن مواليد الطبيعة بلغة الأرقام المضبوطة.

لقد أحدث العلم الحديث انقلاباً عظيماً في جميع شؤون الحياة وأرسى أسس المدنية المعاصرة. فاستطاع الإنسان أن يتغلب بسلاح العلم على الطبيعة ويكشف النقاب عن المجهولات واحدة تلو الأخرى ، ويطلع على زوايا الطبيعة المظلمة وأسرارها تدريجياً. لقد عرف الانسان بسائط هذا العالم ومركباته وعن طريق معرفة

ص: 123

1- الإنسان ذلك المجهول : 41.

2- الإنسان ذلك المجهول : 39.

العلل والمعلومات استكشف دور كل منها في العالم الحي والميت ... لقد عبر الحدود المحرمة للذرة ، وفجر نواتها ، واستغل طاقتها الهائلة ... وتغلب على مدار جاذبية الأرض وقذد بصواريخه الى خارج ذلك المدار. انه يفكر في تسخير الأجرام السماوية ، ويأمل في أن يأتي اليوم الذي يجد نفسه فيه مسيطراً عليالكرات الفلكية بقوة العلم.

هذه الانتصارات جميعها ، استطاع الإنسان من إحرازها عن طريق العلم ، العلم المستند الى التجربة ، العلم المحسوس ، العلم المختبري ، العلم الذي يستند الى المحاسبة والقياس. لقد سيطرت العلوم التجريبية - بفضل التقدم الذي أحرزته - على أفكار الناس وعقولهم ، ودعتهم الى إنشاء الجامعات على أساس هذه العلوم ... وشيئاً فشيئاً قصرت عقول الناس على الحقائق القابلة للقياس ، وتركزت الحقائق غير القابلة للقياس بيد النسيان والاهمال. لقد سيطرت العلوم التجريبية على عقول بعض البسطاء وغرّتهم الى درجة أنهم أنكروا جميع الحقائق التي لا تخضع للحس ، فأنكروا وجود الله ، وسخروا من الإيمان به وبالأنبياء ، وزهدوا بأمر التكامل الروحي والتعالوي المعنوي ، وهذا هو نقص كبير في المدينة المعاصرة.

قصور العلم :

لقد اعترف مؤسسو المدينة الحديثة بصورة صريحة بأن المعلومات البشرية في هذا العالم الفسيخ ضئيلة ومحدودة جداً. وإن العلماء المعاصرين يذعنون الى قصور العلم عن معرفة ملايين الحقائق الخفية والمودعة في وجود الإنسان والكون.

« يقول أديسون : إن من بين 1% من مجموع الحقائق لا تعرف سوى جزء من المليون جزء منها. وأما نيوتن فقد قال : ان العلم العام يشبه خليجاً لم ألتقط أنا وزملائي سوى بعض الحصى الظرفية من ساحله المترامي » (1).

ولو فرضنا - جديلاً - أن الإنسان استطاع في يوم ما أن يدرك بفضل التقدم

ص: 124

العلمي الهائل جميع الحقائق العقلانية التي تتصل به وبالكون الفسيح ، وتمكن من إخضاعها لمقاييس ثابتة ، فيجب أن نقول أنه أدرك جانباً واحداً من حقائق الكون والإنسان ولا يزال يجهل كل شيء عن الجانب الآخر ، لأن الحقائق لا تنحصر في المسائل العقلانية ، ولا يمكن معرفة جميع الأشياء بالاستدلال العقلي ، والمنطق العلمي. إن المسائل العاطفية والحقائق غير العقلانية تشكل ركيزة مهمة من كيان الإنسان ، ولا طريق للعقل والمحاسبات العلمية إليها. وعلى الرجال المثقفين والواعين أن يخلصوا أنفسهم من أسر الغرور العلمي إذا أرادوا أن يدركوا الحقيقة كما هي ، وأن يعيروا أهمية تذكر للحقائق الاشرافية والواقعيات النفسية غير القابلة للقياس إلى جانب اهتمامهم بالحقائق العلمية والقياسية حتى يستفيدوا الفائدة القصوى من هاتين الطائفتين العظيمتين في سبيل تحقيق التكامل الفردي والإجتماعي.

« في حياة العلماء والأبطال والعظماء صورة لا تقبل النفاذ من الطاقة المعنوية. هؤلاء الأفراد يشبهون القمم العالية وسط الوديان ، وهم يرشدوننا إلى المستوى الذي نستطيع بلوغه من التكامل ، ويشيرون إلى عظمة الهدف الذي يرغب الشعور الإنساني في تحقيقه. هؤلاء فقط يستطيعون أن يعدّوا لنا الغداء المعنوي الذي نحتاجه لحياتنا الباطنية »

« توجد في النفس الانسانية عوامل لا يمكن وصفها بعبارات وألفاظ ، وهي عبارة عن الاشراف والميول الغريزية ، والإحساس المتمايز يقي. إن المقدرة الفردية والوطنية قد تنبع من هذه الثروات المعنوية. هذه الطاقات المعنوية التي لا توصف تنعدم في الأمم التي تريد أن تصف كل شيء بمعادلات واضحة ، وهي منعدمة في فرنسا في الوقت الحاضر ، لأنّ الفرنسيين يرفضون كل ما هو خارج عن الحدود العقلانية ، ويجهلون حقيقة الأشياء التي تعجز الكلمات عن بيانها ».

« إن الذين يرغبون في إحراز الكمال المحدّد للإنسان يجب عليهم أن يتخلوا عن الغرور الفكري ، ويهتموا بتنمية الشعور الجمالي والحسن الديني في نفوسهم ، إن حب الجمال وحب الخالق لا

يمكن الوصول اليه عن طريق معادلة رياضية ، ذلك أن الشعور الجمالي لا يحصل إلا بالجمال نفسه. إن حب الجمال يرفع صاحبه الى مستوى عال جداً ، لأنه يجذب قلوبنا نحو الشجاعة والإستقامة والجمال المطلق والله تعالى. وعلى أجنحة المعرفة فقط تستطيع النفس الإنسانية أن تصل إلى التكامل المنشود « (1).

الإيمان بالله :

لقد اهتم الإسلام في تعاليمه القيمة الى جميع الجوانب العقلانية والعاطفية للبشر. فدعا الناس من جهة الى التعقل والفتكير ، وحثهم على العلم والمنطق ... ومن جهة أخرى تحدّث عن تزكية النفس والتكامل الروحي. إن الدين الإسلامي يطّيح بالقوانين والنظم العقلية القائمة على الاستدلال والبرهان ، ولكن ليس الإسلام يطّيح بالقوانين والنظم العقلية القائمة على الاستدلال والبرهان ، ولكن ليس الإسلام كله عبارة عن المسائل العقلانية والحقائق الخاضعة للقياس ، إن روح الإسلام أسمى من العقل ، وأعلى من المحاسبات العلمية.

إن الإيمان بالله الذي هو الركيزة الأولى لدين الله يحصل بسلوك مرحلتين : الأولى عقلية وهي إثبات وجود الله ، والثانية أسمى من الأولى وهي الإيمان بالله. في المرحلة الأولى يستفيد القرآن الكريم من قوة العقل ويدعو الناس الى التفكير في خلق الله وفي النظام الدقيق الذي يسود الكون كي يصلوا من هذا الطريف الى وجود الخالق الحكيم العالم ، مستخدمين في ذلك الأدلة والبراهين العقلية والعلمية. أما الإيمان بالله فإنه لا يحصل بمجرد النظر في قانون العلّية بمنظار العقل فحسب ، بل يجب أن يسمو هذا الحساب العلمي إلى درجة أرقى ، وينفذ من العقل الى الروح ويستقر في القلب ... عند ذاك تخرج هذه الحقيقة من صورة الأستدلال العقلي الجاف الى حالة من الشوق والاندفاع ... الى الحب الإلهي الذي ينفذ في جميع ذرات وجود الإنسان. يجب أن يتكامل ذلك المنطق العقلي في الضمير الباطن ويتحول الى إيمان حقيقي وإذعان لا يوصف.

ص: 126

الصلاة والاستقرار النفسي :

الصلاة من الفرائض الإسلامية المهمة ، وتشتمل على الجانبين العقلي والاشراقي. أما الجانب العقلي المنظم فيتمثل في : الغسل ، الوضوء ، السواك ، المضمضة ، الاستنشاق (من حيث النظافة) ، إباحة ماء الوضوء واللباس ، ومكان الصلاة (من حيث النظام المالي في المجتمع) ، الترتيب بين أجزاء الصلاة (من حيث التعود على النظام) ، عقد الجماعة (من حيث تشديد أواصر الصفاء بين أفراد المجتمع) ، القيام ، القعود ، الركوع السجود (من حيث الحركات الرياضية المتزنة) ، قراءة الفاتحة والسورة وسائر الأذكار (من حيث الحركات الرياضية المتزنة) ، قراءة الفاتحة والسورة وسائر الأذكار (من حيث الإيحاءات النفسية) ... وأمور أخرى مشابهة لها بجمعها كونها أمور محسوسة وظاهرة للعيان وقابلة للحساب العلمي أما روح الصلاة وحقيقتها فلا تدرك بالمحاسبة العلمية. إن روح الصلاة تتمثل في القرب من الله والارتباط الروحي بالخالق. الصلاة معراج المؤمن ومدعاة الصفاء الباطن ، تبعث الاستقرار والهدوء النفسي في نفس المصلي ، إنها أفضل الملاجيء المعنوية للمصلين الخاضعين الخاشعين ، وإن الحالة الوجدانية والسمو النفسي الذي يحصل للمصلي لا يوصف بلسان العقل ، ولا يخضع للمحاسبة العلمية. وحقيقة الصلاة التي لا توصف هي التي تظهر الضمير الباطن من كل انحراف أو إجرام ، «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (1).

إن طاقة الإيمان الجبارة ، والقدرة التي توجد في نفس المصلي المؤمن عظيمة إلى درجة أنها تستطيع أن تسيطر على الغرائز الثائرة ، وأن تقف أمام الإفراط في الميول ، وتطهر الإنسان من الرجز والدنس ، وتمنعه من الانحراف حتى في الحالات التي لا يوجد أحد يراقبه.

ص: 127

إن الحالة الروحية للرجال الأصفياء ، والثورة الباطنية للعارفين ، ومناجاتهم بين يدي الله تعالى في ظلمة الليل البهيم حقائق لا توصف ولا تقاس ولكنها أساس أعظم التحولات الروحية والكمالات النفسية. فالشجاعة وضبط النفس ، وصفاء القلب ، وحب الخير ، والتضحية ... كل ذلك يحصل في ظل الإيمان وبواسطة الاشعاع النفسي : «الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَائِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» (1).

« تظهر الحاجة الى الله تعالى في صورة الدعاء والمناجاة فالدعاء عبارة عن استغاثة ملهوفٍ ، واستعانة متأزٍم ، ونشيد للحب ، وليس عبارة عن عبارات لا نفهم معانيها إن أثر الدعاء إيجابي في الغالب. وكأن الله يستمع لنداء الإنسان ويجيبه بصورة مباشرة ... تقع حوادث فجائية ، يعود التعادل الروحي الى توازنه ، تفقد الحياة وجهها الخشن الظالم وتلين ، تنبع قدرة عجيبة من أعماقنا وتتصاعد. إن الدعاء يمنح الإنسان مقدرة لتحمل الآلام والمصائب وعندما تنعدم الكلمات المنطقية لتهدة الانسان ، فإنه هو الذي يبرز ليعث النظام في نفسه ، ويمنحه القوة للوقوف أمام الحوادث ».

« تختلف دنيا العلم عن دنيا الدعاء ولكنهما لا تتباينان ، كما أن الأمور العقلانية لا تتباين مع الأمور غير العقلانية ، هذه المظاهر منهما خفيت عن الادراك فإننا يجب أننعترف بوجودها « (2).

لقد ورد التعبير في القرآن الكريم عن الحقائق الدينية غير المشهودة والتي لا تقبل القياس بكلمة (الغيب) ويجب على المؤمنين أن ينصاعوا لها : (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) (3).

لا شك في أن الشطر الأكبر من الأنظمة الدينية من عبادات ومعاملات

ص: 128

1- سورة آل عمران ، الآية: 17.

2- رواه ورسم زندكى ص 137.

3- سورة البقرة : 3.

وعقوبات قابل للإدراك العقلي والمحاسبة العلمية ، أما القسم الأصغر من الحقائق الدينية فهو فوق مستوى العقل ... في حين أن قيمة جميع الأمور القياسية في الدين تركز على أساس الجانب غير القياسي. إن الأساس الأول والأهم للدين يتمثل في الإيمان بالله ، وبديهي أن ذات اك تعالى ، والحالة النفسية التي تظهر في الإيمان به كالتأهما من (الغيب) .. وهما تسموان عن القياس ، وترتفعان عن مستوى العقل. وكذلك أساس النبوة فإنه يركز على الوحي ، والوحي أيضاً حقيقة غير قياسية. كذلك المعاد يوم القيامة فإنه من أركان الإيمان في حين أن أعماقه وأبعاده لا تقاس.

إن من يحاول أن ينظر الى الدين من زاوية العقل فقط ، ويرغب في أن يقيس جميع العقائد والأحكام الإسلامية بالمعايير العلمية البحث لم يدرك حقيقة الدين ولم يفهم شيئاً عن الروحانية الإلهية والهدف الإسلامي المقدس. فكما أن الجمال الحقيقي للوحة زيتية فاخرة لا يمكن أن يقاس بالأصباغ المكونة لها ، أو التحليل الكيميائي لمكوناتها ، كذلك الجمال الروحي للدين ونور الإيمان الباهر لا يمكن أن يخضع للتحليل العلمي ، أما بحثنا اليوم :

مشعل الإيمان الوضاء :

تبرز الفطرة التوحيدية والمشاعر الخلفية في ضمير الطفل قبل أن يكمل عقله ويتضح لاستيعاب المسائل العلمية ، ويكون مستعداً لتقبل الأساليب التربوية. على الوالدين أن يهتموا بقيمة هذه الفرصة المناسبة ويستغلوا تفتح مشاعر الطفل ويقظة فطرته الإيمانية فيعملاً منذ الطفولة على تنمية الإيمان بالله في نفسه ، هذا الأمر يجعل الطفل متجهاً في طريق الطهارة والإيمان قبل أن يتفتح عقله وينضج لاستيعاب الحقائق العقلانية وإدراك المسائل العلمية.

إن الإنسان يتجه الى خالق الكون بفطرته قبل أن يستخدم الأدلة العقلية لإثبات وجود الله. إنه لا حاجة للأدلة العقلية المحكمة في إيجاد الحسّ الإيماني في الطفل ، فالمعرفة الفطرية الموعدة فيه تكفي لتوجيهه نحو الإيمان بالخالق العظيم. ومن السهولة بمكان جعله انساناً مؤمناً بالاستناد الى طبيعته الفطرية. وما يقال عن عدم حاجة تنمية الإيمان في نفس الطفل الى الأدلة العقلية ، يقال عن عدم حاجة

تنمية الصفات الفاضلة فيه ... كالصدق ، والاستقامة ، والحنان ، وأداء الواجب ، والإنصاف ، ومساعدة الآخرين. فبالا مكان تعويده على تلك السجايا الحميدة بمجرد توجيهه في طريقها.

إن التنمية الصحيحة للمشاعر أساس التكامل النفسي. والوصول الى السعادة والكمال المحدد للإنسان لا يكون بدون تنمية الإيمان والفضائل. علماً بأن ركائز ذلك يجب أن تصب في أيام الطفولة.

« يجب أن يتنبه الآباء والمربون الى أن الدين أعظم العوامل المساعدة في سبيل تربية الطفل ، وأن الإيمان مشعل وضاء ينير أحلك الطرق ، ويوقظ الصمائر ويعدل الإنحرافات » (1).

« ان ما يدفع الإنسان الى مصيره النهائي يكمن في المشاعر لا العقل.

فالنفس تقبل التكامل بواسطة الألم والشوق اكثر من مساعدة العقل.

وفي هذا السير العنيف عندما يصبح العقل حملاً ثقيلاً تلجأ النفس الى الجوهرة الثمينة التي تنطوي عليها وهي عبارة عن الحب ».

« إن كثيراً من الأشخاص المعاصرين يقتربون الى الحياة الحيوانية الى درجة أنهم يحصرّون اهتمامهم بالقيم المادية ولذلك فإن حياتهم أخس من حياة الحيوانات ، لأن القيم المعنوية فقط هي التي تستطيع أن تمنحنا النور والسرور » (2).

« ليس المبدأ الأول عبارة عن تنمية القوى العقلانية ، بل البناء العاطفي الذي تستند اليه جميع العوامل النفسية. ليست ضرورة الشعور الخلقي بأقل من ضرورة السمع والبصر. يجب أن نتعوّد على أن نميز بين الخير والشر بنفس الدقة التي نميز بها بين النور والظلمة ، والصوت عن السكوت ... ومن ثم يجب علينا أن نعمل الخير ونحذر الشر ».

ص: 130

1- ما وفرزندان ما ص 76.

2- راه ورسم زندگي ص 64.

« إن النمو القياسي للروح والجسد لا يحصل بغير تزكية النفس. هذا الوضع الفسيولوجي والنفسي وإن بدا غريباً في نظر علماء التربية والاجتماع المعاصرين لكنه يصنع الركن الضروري للشخصية ، وفي نفس الوقت فهو المطار الذي تحلق منه النفس » (1).

دين تجاه الأطفال :

إن تنمية الإيمان والفضائل في نفس الطفل حق له على عاتق أبيه ، وقد وردت روايات كثيرة في هذا الصدد : -

1 - يقول الإمام السجاد عليه السلام : « وإنك مسؤول عما وليته به من حسن الأدب والدلالة على ربه » (2).

2 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « حق الولد على والده - إذا كان ذكراً - أن يستفره أمه ، ويستحسن اسمه ، ويعلمه كتاب الله ويطهره » (3).

3 - وعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً : « إن المعلم إذا قال للصبي بسم الله كتب الله له وللصبي ولوالديه براءة من النار » (4).

4 - وفي الحديث عن الإمام العسكري عليه السلام : أن الله تعالى يجزي الوالدين ثواباً عظيماً.

فيقولان : يا ربنا أنى لنا هذه ولم تبلغها أعمالنا؟

فيقال : « هذه بتعليمكما ولدكما القرآن وبتبصيركما إياه بدين الإسلام » (5).

حق المعلم :

5 - كان عبد الرحمن السلمي يعلم ولداً للإمام الحسين عليه السلام سورة الحمد ،

ص: 131

1- راه ورسم زندگي ص 99.

2- تحف العقول ص 263.

3- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج 6 ص 49.

4- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج 2 ص 625.

5- نفس المصدر ج 1 ص 290.

فعندما قرأ الطفل السورة كاملة أمام والده ، ملأ الإمام عليه السلام فم معلمه درأ بعد أن أعطاه نقوداً وهدايا آخر : فقليل له في ذلك. فقال عليه السلام : « وأين يقع هذا من عطائه » (1) يعني تعليمه.

لقد استأثر موضوع التربية الدينية للأطفال بقسط وافر من اهتمام الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، إلى درجة أنه كان يتبرأ من الآباء الذين يهملون القيام بذلك الواجب ، ولا يرضى بانتسابهم له. وهذا ما يظهر من الحديث الآتي : -

6 - « روى عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه نظر الى بعض الأطفال فقال : ويلٌ لأولاد آخر الزمان من آبائهم! فقليل : يا رسول الله من آبائهم المشركين؟ فقال : لا ، من آبائهم المؤمنين لا يعلمونهم شيئاً من الفرائض وإذا تعلموا أولادهم منعوهم ورضوا عنهم بعرضٍ يسيرٍ من الدنيا ، فانا منهم بريء وهم مني بُراء » (2).

ضرورة التربية الإيمانية :

لقد اكد علماء الغرب على أهمية التربية الدينية ، وضرورة ذلك لضمان سعادة الأطفال وحسن تربيتهم.

« يقول ريموند بيج : لا شك في أن المهمة الأخلاقية والدينية تقع على عاتق الأسرة قبل سائر المسائل ، ذلك أن التربية الفاقدة للأخلاق لا تعطينا سوى مجرمين حاذقين. ومن جهة أخرى فإن قلب الإنسان لا يمكن أن يعتنق الأخلاق من دون وجود دافع ديني ، ولو حاول شخص أن يتفهم الأصول الخلقية بمعزل عن الدين فكأنه يقصد تكوين موجود حي لكنه لا يتنفس ».

« إن أول صورة يرسمها الطفل في ذهنه عن الله تنبع من علاقاته مع والديه. وكذلك أول فكرة ترتسم في مخيلته عن الطاعة والسماح والاستقامة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسلوك الأسرة ... كل هذه المسائل

ص: 132

1- المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

2- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ح2 ص625.

يجب أن تتم في الأعوام فقط بيدي استعداداً لضبط ما يدركه أكثر من أي وقت آخر.

« لا يملك الوالدان الفرصة المناسبة لتربية نفس الطفل وتنقية أفكاره فحسب ، بل عليهما أن يعرفا الله لأطفالهما بأحسن صورة وقوة ، وبكل إرادة ومتابعة. وهما في هذا السبيل يستطيعان أن يستعينا بمصدرين فياضين ، أولهما الدين والثاني الطبيعة » (1).

أثر الإيمان في الطفل :

إن الطفل الذي يتربى على أساس الإيمان منذ البداية يمتاز بارادة قوية وروح متطامنة ، تظهر عليه أمارات الشهامة والنبيل منذ الصغر ، وتطفح كلماته وعباراته بحقائق ناصعة وصريحة.

وكمثل على ذلك نأخذ الصديق يوسف ، فقد كان ابن النبي يعقوب. هذا الطفل المحبوب تلقى درس الإيمان بالله من أبيه العظيم ، ونشأ طفلاً مؤمناً في حجر يعقوب ... لقد نغم إخوته الكبار منه وصمموا على إيذائه ، فأخذوا الطفل معهم الى الصحراء وبعد أساليب مؤلمة ووحشية فكروا في قتله ، ثم انصرفوا عن هذه الفكرة الى القائه في البئر ... وكانت النتيجة أن بيع الطفل الى قافلة مصرية ، وبصدد معرفة عمره عندما ألقى في البئر يقول أبو حمزة : « قلت لعلي بن الحسين عليهما السلام : ابن كم كان يوسف يوم ألقوه في الجب » فقال : ابن تسع سنين » (2).

ماذا يتوقع من طفل لا يتجاوز عمره التسع سنوات في مثل هذه الظروف الحرجة والمؤلمة؟ أليس الجواب هو الجزع والاضطراب؟! في حين أن قوة الإيمان كانت قد منحت يوسف حينذاك مقدرة عجيبة وتطامناً فائقاً ، ففي الحديث : « لما أخرج يوسف من الجب واشتري قال لهم قائل : استوصوا بهذا الغريب خيراً. فقال لهم يوسف : من كان مع الله فليس في غربة » (3).

ص: 133

1- ما وفرزندان ما ص 8.

2- تفسير البرهان ص 495.

3- مجموعة ورام ج 1 ص 33.

ونظير هذا نجده في قصة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مع مرضعته حليلة السعدية. تقول حليلة : لما بلغ محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الثالثة من عمره قال لي :

- أماء ، أين يذهب إخوتي نهار كل يوم؟

فأجبتة : يخرجون الى الصحراء لرعي الأغنام.

قال : لماذا لا يصحبوني معهم؟

فقلت له : هل ترغب في الذهاب معهم؟

قال : نعم.

فلما أصبح دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جَزَع يمانية ، فنزعها ثم قال لي : « مهلاً يا أماء ، فإن معي من يحفظني » (1).

الإيمان بالله هو الذي يجعل الطفل في الثالثة حراً وقوي الإرادة بهذه الصورة.

المبادرة الى تنمية الإيمان :

تشبه روح الطفل في تقبلها للتعاليم الدينية والاخلاقية الأرض الخصبة القابلة لاحتواء البذرة في بطنها. وعلى الوالدين أن يبادرا إلى زرع بذور الإيمان والفضائل في نفس الطفل وأن لا يفرطاً بشيء من الفرصة السانحة لهما. من الضروري أن يبكر المربي في تنشئة الطفل نشأة دينية صالحة.

« عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال : بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم اليهم المرجئة » (2).

إن تركية النفس والاهتمام بالجوانب المعنوية من الواجبات اليومية لجميع الأفراد. ومن اللازم - في سبيل الوصول الى الكمال الانساني اللاتق به - أن يهتم كل

ص: 134

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج6ص92.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج6ص47. والمرجئة طائفة ضالة تخالف الرأي الإسلامي الصحيح في القضاء والقدر القائم على : (لا جبر ولا تفويض). وكأن الحديث يشير الى ضرورة ملء افكار الطفل بالعقائد الصحيحة ليتحصن بها ضد التيارات المضلة التي تستغل الفراغ العقائدي في أذهان الناشئة.

فرد منا بالجوانب الروحية الى جانب النشاطات المادية واشباع الغرائز ، ويفكر كل يوم في احراز التقدم المعنوي والكمال الروحي.

وقد جاء عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الصدد : « للمؤمن ثلاث ساعات : فساعةٌ يَنَاجِي فيها ربه ، وساعةٌ يَرُمُّ معاشه ، وساعةٌ يَخْلِي بين نفسه وبين لذتها فيما يحلّ ويجمل » (1).

أساس تقدم الإنسان :

إن السعي وراء الطعام وجلب اللذائذ خاصة مشتركة بين الانسان والبهائم ، أما ما يكون مائزاً للانسان ، وأساساً لتقدمه فهو الجوانب الروحية التي يمكنه إحرازها ، والكمالات العقلية والعاطفية التي يستطيع بلوغها.

قال أبو عبد الله عليه السلام : « إقصر نفسك عما يضرها من قبل أن تفارقك ، واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك ، فإن نفسك رهينة بعملك » (2).

محاسبة النفس :

كما أن حفظ الصحة يحتاج الى النشاط الإقتصادي المستمر والرقابة الصحية ، كذلك الحفظ على سلامة الروح يحتاج الى الجهد المتواصل. فمن يرغب في تكامل نفسه ويهتم بصفاء باطنه ، عليه أن يراقب أقواله وأفعاله مراقبة دقيقة ، ولا يحوم حول الذنب والاجرام ، ولا يعود لسانه على الكلمات البذيئة. عليه أن يحاسب نفسه كل يوم على ما صدر منه من حسنات وسيئات فيستمد العون من الله تعالى في المزيد من الحسنات ، والإقلال من السيئات.

« عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : ليس منا من لم يحاسب نفسه في يوم » (3).

إن المقر الأصيل للإيمان عبارة عن أعماق قلوب الناس وزوايا أرواحهم.

ص: 135

1- نهج البلاغة شرح الفيض الاصفهاني ص 1261.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص455.

3- المصدر السابق ج2 ص453.

والشخص المؤمن هو الذي يؤمن في بطنه بخالق الكون ، ويعتقد بتعاليم الأنبياء ، ولكن بالنظر إلى التماثل الموجود بين الروح والجسد ، وتأثير كل منهما في الآخر فمن الضروري أن تظهر آثار ذلك الإيمان على جوارحه. ومن هنا نجد الروايات الإسلامية تعرف الإيمان كمجموعة من الإعتقادات القلبية ، والإقرار باللسان ، وظهور أثر ذلك على الجوارح أيضاً.

وكما أن قيام أستاذ بعلمية التدريس ، ومزاولة جراح للعمليات الجراحية يقوّي الجذور العلمية في باطن كل منهما ، كذلك العبادات الجسدية والأذكار فإنها مدعاة لتركز الإيمان واستحكامه (1).

وبهذا الصدد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « إنَّ الإيمان ليبدو لمعة بيضاء ، فإذا عمل العبد الصالحات نما وزاد حتى يبيض القلب كله » (2).

إن ما لا شك فيه هو أن الاستمرار في العبادة والحصول على حالات من الخضوع والخشوع والاستغفار بين يدي الله تعالى أعظم العوامل لترسيخ أسس الإيمان وإضاءة القلب وبعث النور فيه.

المناجاة في السحر :

يتلخص جانب من تعاليم الإسلام في منهج التكامل النفسي في العبادات والمناجاة مع الله. هناك بعض العبادات والأذكار في صورة صلوات واجبة ومندوبة مشرّعة بكيفيات خاصة ، وهناك عبادات غير مقيدة بكيفيات معينة بل تندرج ضمن إطار واسع هو ذكر الله والدعاء. لا بدن الجهر في بعض العبادات تحقيقاً لبعض المصالح ، وفي قبال ذلك يرد التأكيد على التخفي في عبادات أخرى. قال الإمام

ص: 136

1- وجد علماء النفس من التجارب العديدة التي أجريت على عملية التعلم أن هذه العملية تسير وفقاً لقوانين معينة. وأول من وضع هذه القوانين في صيغة شاملة هو العالم الشهير (ثورنديك). وأهم تلك القوانين ثلاثة : أحدها قانون التدريب. ويعني منه أن كلّ تجربة تمر بذهن الإنسان أو مسألة علمية تطرق باله تزداد قوة باستعمالها ، وتضعف باهمالها. ومن هنا قيل : (الدرس حرف والتكرار الف).

2- المحجة البيضاء في أحياء الأحياء للفيض الكاشاني ج 1 ص 277.

الصادق عليه السلام : « قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : أعظم العبادات أجراً أخفاها (1) ».

فعندما يسدل الليل أستاره ويغط الناس في النوم ، ويسود الكون ظلام وسكون ، يقوم المؤمنون للتضرع بين يدي الله تعالى ... «تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ» (2). العشق الإلهي يلتهب في أعماقهم ويضاء سراج الإيمان في قلوبهم ، فينهضون بشوق ورغبة شديدين ، ويتوضأون ويتجهون نحو الله تعالى بكل خضوع وخشوع ، يستغفرون ربهم ، وينيبون اليه ، يذرفون الدموع ، ويفقدون الوعي ، يتذكرون زلاتهم ، ويعتذرون إلى الله تعالى ، ويعاهدونه على عدم العود إليها ، ويستمدون العون منه في جميع أمورهم.

الآثار النفسية للمناجاة :

هذه الحالة النفسية التي طرأ على الرجال الإلهيين في اعماق الليل حقيقة يعجز العلم عن وصفها ، ولا يستطيع العقل إدراكها ... أما آثارها العظيمة فتبدو من جميع ذرات وجود الرجل ... فتقيم ثورة في روحه وجسده ، وتسيطر على جميع قواه ، وتبعث الطمأنينة الى قلبه ، وتمنحه الشهامة والشجاعة ، تكبح غرائزه الثائرة ، وتمنعه عن الاجرام والتلوث بالذنب تمنحه روح التضحية والإيثار .. وبصورة موجزة تجعله إنساناً كاملاً وتوقظ فيه جميع الفضائل الحميدة والسجايا الخلقية ... هذه الحالة المعنوية اللامعة ، وهي حقيقة التقوى التي تهدف إليها تعاليم الإسلام القيمة.

« عن أبي بصير قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : (اتقوا الله حق تقاته) قال : يُطَاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر » (3) فالنتقى الحقيقي هو الذي يطيع أوامر الله تعالى دائماً ولا يعصيه ، ويذكر خالقه على كل حال.

« لقد اشربت الإنسانية بالوحي الديني اكثر مما اشربت بالتفكير الفلسفي ... فقد كان الدين هو أساس الأسرة والحياة الاجتماعية في المدينة القديمة. فما زالت الكتدرائيات وبقايا المعابد التي

ص: 137

1- قرب الاسناد ص 64.

2- سورة السجدة : 16.

3- معاني الأخبار ص 240.

أنشأها أسلافنا تغطي ارض أوروبا .. بالطبع ، ان معناها قلما يكون مفهوماً في الوقت الحاضر .. ومهما يكن من أمر فإن الاحساس الديني لا يزال حتى اليوم نشاطاً لا مفر منه بالنسبة لشعور عدد من الأفراد ، كما أنه يظهر نفسه بين الأشخاص المثقفين ثقافة عالية.

« وللنشاط الديني جوانب مختلفة مثل النشاط الأدبي .. وهو يتكون في أبسط حالاته من تطلع مبهم نحو قوة تفوق الأشكال المادية والعقلية لعالمنا .. إنه نوع من الصلاة غير المنطوقة ، إنه بحث عن جمال أكثر نقاء من الجمال الفني أو العلمي ، وهو مماثل لنشاط الجمال ».

« ما زال الجمال الذي ينشده المتصوفون أكثر غني واتساعاً من المثل الأعلى الذي ينشده الفنان .. إنه لا شكل له ، ولا يمكن التعبير عنه بأية لغة ، ويختفي بداخل اشياء العالم المنظور ، وقلما يظهر نفسه. ويتطلب السمو بالعقل نحو الذات العلية التي هي مصدر جميع الأشياء ، نحو قوة ، بل مركز القوى ، نحو الله - جل جلاله - ففي كل حقبة من حقب التاريخ وفي كل شعب من الشعوب ، أشخاص يتمتعون بهذا الأحساس العجيب في درجة عالية .. » (1).

العبادات التمرينية :

لضمان التربية الدينية للأطفال يجب أن يكون هناك تماثل بين أرواحهم وأجسامهم من الناحية الإيمانية. ولهذا فإن الإسلام أوجب على الوالدين من جهة أن يعرفوا الطفل بخالقه ويعلماه الدروس الدينية المتقنة ، ومن جهة أخرى أمرهما بتدريب الطفل على العبادات والصلاة بالخصوص.

1 - عن معاوية بن وهب قال : « سألت أبا عبد الله عليه السلام : في كم يؤخذ الصبي بالصلاة » فقال : بين سبع سنين وست سنين « (2).

ص: 138

1- الإنسان ذلك المجهول ، تعريب : عادل شفيق ص 120.

2- وسائل الشيعة للحر العاملي ج2 ص3.

2 - عن النبي صلى الله عليه وآله قال : « مُرُوا صبيانكم بالصلاة إذا بلغوا سبعا » (1).

3 - يذكر الإمام الباقر عليه السلام في حديث طويل واجبات الوالدين في إلهام أطفالهما بالقضايا الدينية حسب التدرج في السن ، فيجب عليهما أن يعلما الطفل كلمة التوحيد لثلاث سنين ، وفي الرابعة يعلماه الشهادة بالرسالة ، وفي الخامسة بوجهاء الى القبلة ويأمرهما بالسجود ... « فإذا تم له ست سنين علّم الركوع والسجود حتى يتم له سبع سنين. فإذا تم له سبع سنين قيل له : اغسل وجهك وكفيك ، فإذا غسلهما قيل له : صل » (2).

دعاء الطفل :

إن العبادات التمرينية للطفل ، ودعائه ووقوفه بين يدي الله تعالى ، يترك أثراً عظيماً في نفسه. قد لا يفهم الطفل العبارات التي يؤديها في اثناء الصلاة ، ولكنه يفهم معنى التوجه نحو الله ، ومناجاته ، والإستمداد منه ، بكل جلاء. إنه ينشأ مطمئن البال مستنداً الى رحمة آگ الواسعة وقدرته العظيمة. هذا الإطمئنان والاستناد ، والإلتجاء نحو القدرة اللامتناهية اعظم ثروة للسعادة في جميع أدوار الحياة ، فهو يستطيع في الظروف الحرجة ان يستفيد من تلك القدرة العظيمة ويطمئن إليها ، ويبقى محتفظاً على توازنه واعتداله في خضم المصاعب والمشاكل ... « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » (3).

« لتحصيل الكمال النفسي لا يلزم أن لا يكون الإنسان عالماً أو ذكياً ، بل يكفي أن يكون مختاراً لذلك ... يكفي أن يختلي كل فرد منا كل يوم صباحاً ومساءً لبضع دقائق ، بعيداً عن الضوضاء ويجعل ضميره حكماً في تصرفاته فيعرف أخطائه ويخطط لسلوكه. وفي هذه الفرصة يجب أن يتوجه الى الدعاء إن كان يعرف ذلك فللدعاء أثره حتى ولو لم يكن هذا الأثر ذلك الذي نريده. ولهذا يجب تعويد

ص: 139

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج.

2- مكارم الاخلاق للطبرسي ص 115.

3- سورة الرعد : 28.

الأطفال منذ البداية على أن يقضوا فترات قصيرة في سكوت وهدوء خاص للدعاء ومن توفق لذلك مرة واحدة يستطيع أن يصل الى العالم الهادئ الذي يفوق الصور والكلمات المألوفة متى شاء .. عند ذاك يزول الظلام تدريجياً ، ويظهر إشعاع خلاق يهدي صاحبه إلى الطريق الأمثل « (1).

مثال الإنسان الكامل :

إن أعلى مثال للإنسان الكامل ، والفرد المؤمن من نجده في مولى الموحدين علي بن ابي طالب عليه السلام ، ذلك الرجل العظيم الذي يصادف اليوم ذكرى استشهاده ، تلك الشخصية الفذة التي عجز الدهر أن يلد مثله ، ذلك الإنسان الذي لم يستطع تعاقب الأعوام والقرون أن يمحو حرفاً واحداً من اسمه الكبير ، أو يسلمه الى عالم النسيان.

علي بن أبي طالب مع ألمع النجوم الساطعة في سماء الإنسانية. إن حياته تكشف لنا عن جانب عظيم من التقوى والفضيلة ، والعدالة والشجاعة والتضحية والجد ، والثابت والاستقامة ، وبصورة موجزة جميع الفضائل والسجايا الحميدة. لقد سلك علي عليه السلام جميع مدارج الكمال ونال الشرف العظيم في هذا المجال.

لقد تربى علي عليه السلام في حجر الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله . وخضع منذ الصغر للرقابة التربوية الدقيقة المليئة بالدفء والحنان والعف من قبل النبي العظيم. وقد منحه جميع ما يحتاجه طفل لائق في تربيته وتنمية روحه وجسمه ... فنشأ عليه السلام عظيماً من كل جانب.

كان عمر علي عليه السلام عشر سنوات عندما بعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بالدعوة الإسلامية. فعرض الرسول الإسلام على الصبي الفطن العاقل ودعاه لاعتناق ذلك الدين السماوي. فأمن علي عليه السلام وصار هو وخديجة زوجة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أول مسلمين اتبعا محمدا واعتنقا دينه وقبلوا دعوته ... وتكونت نواة الدعوة الإسلامية من هذا الثلاث المقدس.

ص: 140

في المراحل الأولى من الدعوة لم يكن ليطرق الأسماع نبأ الدين الجديد فكان الجميع يجلهون عن دين الله الذي أتى به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كل شيء .. إلا- أنهم كانوا يرون شاباً يقف للصلاة بين يدي الله ، ويقف الى يمينه صبي ، ومن خلفهما امرأة فإذا ركع الشاب ركعا معه ، وإذا سجد سجدوا وفي بعض المرات رأى أحد كبار العرب هذا المنظر وتعجب منه فقال للعباس بن عبد المطلب الذي كان حاضراً هناك : أمر عظيم!

فقال العباس : أمر عظيم! أتدري من هذا الشاب* هذا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب - ابن أخي - أتدري من هذا الغلام؟ هذا علي بن أبي طالب - ابن أخي - أتدري من هذا المرأة* هذا خديجة بنت خويلد. إن ابن أخي هذا حدثني أن ربه رب السماوات والأرض ، أمره بهذا الدين الذي هو عليه. ولا والله ما على ظهر الأرض على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة (1).

إن دافع علي عليه السلام لهذه المؤاساة هو الإيمان بالله. لقد سيطر الحب الإلهي على جميع جوانحه وجوارحه ، فيؤمن بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ويعتق الدين الذي بشر به ، ويدافع عن ذلك الدين دفاعاً مستميتاً... في ذلك الظرف الحاسم والجو الخطر تتجه الأخطار والمشاكل المتوالية نحو النبي وتهده فينبري علي للدفاع عنه مستخدماً جميع قواه وطاقاته. وكلما كثر المسلمون وزاد عددهم ، وأقبلوا على اعتناق دين الله زرافات ووحداناً ، ازداد حق المشركين وعداءهم ، ومضوا في التصميم لدحر الدين الجديد وقتل النبي المبشر به أكثر. فيضطر الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) للهجرة الى المدينة ، فيهاجر علي أيضاً ، يلازم النبي في مشاكله قبل الهجرة وفي غزواته بعدها ، مدافعاً عن دين الله ، ومنافحاً عن رسوله العظيم... ثم هو يقول : « والله ما زلت أضرب بسيفي صبيلاً حتى صرت شيخاً » (2).

ص: 141

1- الإرشاد للشيخ المفيد ص 13.

2- المصدر السابق ص 136.

لقد كانت توضيحات الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تسير جنباً إلى جنب مع شجاعته وشهامته ، وتبرهن على ثباته واستقامته حتى قال : « ما ضعفت ولا جئتُ » (1).

إن من ينشأ على الإيمان والاستقامة ، ويستند في جميع أموره إلى القدرة الإلهية اللامتناهية لا يخاف أبداً ولا يجبن في موقف مهما كان حرجاً.

لقد شهدت أيام خلافة الإمام عليه السلام في الكوفة موجة من الاضطرابات والفتن ، وفي بعض الأحيان كان يصمم الحزب المجرم المتمثل في (الخوارج) في وضع خطة لاغتيال الإمام ، ومع ذلك فقد كان يخرج في أواخر الليل إلى نقطة هادئة من المدينة ويناجي ربه. وكان يخرج (قنبر) الخادم الوفي وراءه حاملاً سيفه مخفياً عن أنظار الإمام. وفي إحدى الليالي نظر علي عليه السلام إلى خلفه فرأى قنبر ...

فقال له : يا قنبر ما لك؟

قال : جئت لأمشي خلفك ، فإن الناس كما تراهم يا أمير المؤمنين فخفت عليك.

فقال له الإمام : إن أهل الأرض لا يستطيعون بي شيئاً إلا بإذن الله عز وجل ، فارجع . فرجع (2).

الإيمان والنفس مطمئنة :

إن علياً عليه السلام رجل الله ، ومعتمد على ذات الله عز وجل . ومن كان معتمداً على الله كان ذا نفس مطمئنة وروح هادئة ، لا طريق للاضطراب والقلق إلى ضميره. إنه يختلي بربه كل ليلة ، في مكة والمدينة ، في الكوفة والبصرة ، في المدينة والصحراء ... الأمر سواء عنده. إنه يخصص - أينما كان - ساعة من أواخر الليل

ص: 142

1- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 102.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج9 ص510.

لمناجاة ربه ، والتكلم معه بخشية وتضرع ، وبكاء وخشوع ... يتكلم بكلمات منبعثة من أعماق القلب ، ويسأل الله العون والمدد لجعل قلبه النير أكثر إشعاعاً ، وضميره الطاهر أكثر صفاءً.

لقد كانت الصورة الباطنية والتحولات الروحية التي تطرأ على الإمام علي عليه السلام في مناجاته مع ربه على درجة من الدقة والعمق بحيث يعجز العقل عن إدراكها ، ويقصر اللسان عن وصفها. وكان يصادف أن يطلع عليه أحد فيرى ما هو فيه من الفناء في ذات الله والتوجه نحوه فيصف بعض ذلك بعبارات تقصر عن بيان الحقيقة ، فيقول أحدهم :

« إذ نحن بأمير المؤمنين في بقية الليل واضعاً يده على الحائط شبّهه الواله » (1).

ويقول آخر : « ... فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة فحركته فلم يتحرك. فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، مات والله علي بن أبي طالب » (2).

الحكومة وإقامة الحق :

إن الطاقة العظيمة التي دفعت علياً عليه السلام منذ الصغر نحو أعلى مدارج الكمال الانساني هي إيمانه بالله ، فقد كان تحقيق مرضاة الله والإنقياد لأوامره الهدف المائل نصب عينيه ، وكان يوجه حركاته وسكناته طبقاً لذلك الهدف المقدس. لقد خضعت جميع مشاعر الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لإطار الإيمان ... وعليه فقد كان يقيم وزناً للمال والجاه ، والعاطفة ، والحياة ، ولكل شيء في حدود مرضاة الله.

وعندما جلس على كرسي الخلافة وأصبح الحاكم الأعلى للأمة لم يكن يهدف الى المقام والجاه أو ضمان الغذاء واللباس والمسكين والمركب الفاخر لنفسه ، بل كان هدفه الأول والأخير تحقيق مرضاة الله وإحقاق الحق وإقامة العدالة بين الناس.

« قال عبد الله بن عباس : دخلت على أمير المؤمنين عليه السلام بذى قار وهو يخصف نعله. فقال لي : ما قيمة هذا النعل؟ فقلت : لا قيمة له : فقال عليه السلام : والله لهي أحب

ص: 143

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج.

2- نفس المصدر ج9 ص510.

إلَيَّ من إمرتكم إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً» (1).

التألم من الظلم :

لقد كان علي عليه السلام يبدي ثباتاً منقطع النظير أمام الحوادث والمشاكل الجمة التي كانت تواجهه ، وكان يظهر من الجلد والصبر تجاه الآلام ما يفوق الوصف ، لكنه كان يتألم من تجاوز الغاصبين واعتداء المعتدين ، ويتأثر كثيراً لأنين المظلومين. فعندما بلغه نبأ غارة جنود معاوية على الأنبار ، وقتل والي الإمام عليها (حسان بن حسان البكري) ، ونهب حلي النساء ، هتكت أعراضهن سواء منهن المسلمات والمعاهدات ... تألم لذلك كثيراً وخطب في قومه خطبة عظيمة ابتدأها بذكر وجوب الجهاد وفوائده ، وذم التقاعس والتماهل إلى أن قال : « فلو أن امراءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً » (2).

وصية على فراش الموت :

لقد اضعفت ضربة السيف المسموم الإمام عليه السلام وطرحته على فراش الموت ، وأفقدت عينيه بريقهما ، وخفت صوت بينما كانت روحه الطاهرة وضميره النير في أتم الأشعاع .. يتكلم ، يوصي أولاده ، كل جملة من وصاياه درس عظيم للمجتمع البشري. ومن جملة ما أوصى به أن أكد على حماية الضعيف ومقاومة الظالم فقال : « وكونوا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً » (3).

ومن هنا نفذ حب علي عليه السلام إلى قلوب الأصدقاء والأعداء. وها هي حياته صفحة مشرقة في غرة الدهر وجبين الإنسانية ... تحتذي به في كل صغيرة وكبيرة أملاً في النجاح والتقدم.

ص: 144

1- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 102.

2- نفس المصدر ص 86.

3- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 968.

قال الله تعالى في كتابه العظيم : (... وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ) (1).

تهدف المناهج الدينية والعلمية في تربية الطفل الى الإهتمام بجسده وروحه اهتماماً بالغاً. وكما أن جسد الطفل وروحه مرتبطان ارتباطاً وثيقاً فإن الصلة وثيقة أيضاً بين تربيته البدنية والروحية. وكما أن الحالات النفسية تؤثر في الجسم ، والجسد يؤثر في الروح ، فإن العناية بصحة الجسم أو إهمالها تترك أثراً مماثلاً على الوضع الروحي والعكس بالعكس. وكما أن جسد الصبي يصاب بالإنحراف نتيجة النقصان في المواد الغذائية أو الإفراط فيها كذلك روحه فإنها تصاب بالإنحراف نتيجة النقصان في الحنان والعناية أو الإفراط في ذلك.

يجب عن الآباء والامهات الذين يأخذون على عاتقهم تربية أطفالهم أن يهتموا في جميع مراحل حياة الطفل الى المصالح الجسمية والروحية جنباً الى جنب ، ويحاولوا إرضاء الغرائز التي تتعلق بها حسب منهج مستقيم.

الإحساس بالحقارة :

الإحساس بالحقارة أحد الحالات النفسية الشاذة التي قد تصيب الإنسان منذ الأدوار الأولى من حياته. فإن اشتدت هذه الحالة الروحية وأوغلت في الضمير الباطن ظهرت بصورة عقدة نفسية ربما جرت وراءها سلسلة من الآثار الوخيمة والنتائج المؤلمة والمآسي الكثيرة.

« عندما يستمر الصراع الروحي بين شخص ما وعقدة معينة فإن

ص: 145

الاعصاب تفقد قدرتها بالتدريج ويصاب الإنسان بمرض خاص. من الواضح أن هذا الضعف الحاصل في الاعصاب نتيجة للالتهابات والإثارات الروحية ، وليس وليد الضعف الصحي. أي أنه رد فعل روحي قبل أن يكون رد فعل جسمي. ولذلك فإنه لا يعالج بالتنزه واستعمال الأدوية والعقاقير ... فكل علاج لا يعدو أن يكون مؤقتاً ، إلا أن يحدث تغيير جذري في أسلوب تفكير الشخص ».

« في خضم هذا الوضع ، يبلغ الصراع الروحي في الإنسان درجة لا تستطيع الأعصاب معها أن تقاوم ، فهي قد استنفدت قدرتها على المقاومة ، وتكون النتيجة أن يصاب الإنسان بالصرع والرعدة العصبية ».

« إن العوارض الظاهرية لهذه الحالة المضطربة عبارة عن انقباض العضلات والأرق والضعف المفرط ... وإذا حاولنا البحث عن رابطة العلية والمعلولية لهذه الظواهر فإن جذورها توجد في حوادث دور الطفولة أو الحوادث القريبة الوقوع. لا شك في أن اكتشاف علة ذلك أمر عسير جداً لأنه يقع بواسطة تمحيص القوى الباطنية للمريض فقط. وأحياناً نجد جذوره في الإستياء من تحقير سابق أو محالة مجابة ذلك. وفي أحيان أخرى توجد جذوره في الخوف من انهيار الشخصية وفقدان السمعة » (1)

إنهيار الشخصية :

إن الحوادث المؤلمة والخواطر المرة التي تحطم شخصية الفرد ، وتوجه ضربة قاصمة إلى أنانيته وغروره الذاتي تؤدي إلى إحساسه بالحقارة. قد يولد الاحساس بالحقارة على أثر الاهانة أو الضرب المبرح ولكنه يزول بعد عدة ساعات أو بضعة أيام ... في حين توجد عوامل ثابتة وورصينة تتسبب أحياناً في إيجاد الشعور بالحقارة فينفذ هذا الشعور الى الأعماق ، ثم يتحول إلى عقدة الحقارة ويلزم المريض بصورة

ص: 146

مرض مزمن : هناك عوامل وأسباب كثيرة تتسبب في إيجاد هذه العقدة النفسية. من ذلك العاهات العضوية ، والنقص التربوية.

« يرى (أدلر) أن عقدة الحقارة توجد في الغالب عند ثلاث طوائف من الأشخاص :

1 - ذوالعاهات العضوية ، أي الأفراد المصابون بنقص عضوي منذ الطفولة. هذا النقص يتسبب في أن يرى الطفل نفسه دون مستوى الآخرين دائماً ، وهذا ما يلاحظ بوضوح عند الطفل المصاب بشلل ، فإنه يحرم من اللعب مع مجموعة الأطفال .».

« 2 - الأفراد الذين يخضعون منذ الصغر الى رقابة مشددة من قبل الوالدين ، ويمكن تقسيم هذه الطائفة بدورها الى صنفين :

أ - الأطفال المدللون - وهم الذين يقابلون بالحنان المفرط والعناية البالغة لأنفرادهم واستثثارهم بمحبة الوالدين.

ب - الأطفال المكبوتون. وهم الذين يلاقون ضغطاً شديداً ، وكلما حاولوا إثبات وجودهم وجدوا الكبح والقمع من الكبار الذين يضطرونهم للسكوت والتزام الصمت .».

« 3 - الأطفال المهملون ، فالأطفال الذين كان نصيبهم من العناية قليلاً منذ الصغر يشعرون بأنهم أفراد تافهون في المجتمع ، عديمو الفائدة » (1).

العاهات العضوية :

إن من أعظم النعم الإلهية سلامة ولادة الطفل. فالطفل الذي يتولد سالماً طبيعياً ، ذا روح مستوية وهندام منسجم يكون قد نال 50% من سعادته حين ولادته. وإنسان كهذا يملك من ناحية البناء الطبيعي ، واعتدال اخلة ، روحاً هادئة وفكراً مطمئناً. أما الطفل الذي يتولد أعمى ، أو أصم ، أو أشل ، وبصورة عامة يكون ذا عاهة عضوية عند ولادته ، أو تصادفه حوادث تفقد بعض أعضائه أو تقف في سبيل

ص: 147

نموه الطبيعي ، فإنه يكون شقيماً ومتدمراً ، يحس بالحقارة والضعفة في نفسه ، وأخيراً يصاب بعقدة الحقارة. وبعبارة أخرى فإنه كما تتسبب العيوب والعاهات العضوية حين الولادة في نشوء عقدة الحقارة عند الإنسان ، كذلك العمى والصمم والبكم الحاصل للإنسان بعد أعوام من البصر والسمع والتكلم.

قال علي عليه السلام : « اللهم اجعل نفسي أول كريمة تنتزعها من كرائمي ، وأول وديعة ترجعها من ودائع نعمك عندي » (1) ويعني هذا أن يبقى سالماً عن العوارض والعاهات حتى الموت.

وللإمام الحسين عليه السلام من دعائه في عرفات : « ومتعني بجوارحي واجعل سمعي وبصري الوارثين مني » (2) أي تحفظني من العمى والصمم والعاهات العضوية الى آخر يوم من عمري.

« هناك أطفال يعيشون في ألم مستمر لضعف أو نقص في أجسامهم. هذا النقص يشمل مختلف الحالات كظهور خال أو بقعة صغيرة في وجه فتاة حسنة ، أو تقوس الساقين ، أو انحناء العمود الفقري وغير ذلك ».

« كل هذه النواقص وما يشبهها يمكن أن تؤذي الإنسان طيلة عمره وتجعله تحت ضغط (عقدة الحقارة) وقد تؤدي به الى الجنون والانتحار .»

« لا مناص للطفل الضعيف أو المصاب بنقص في بدنه من تحمل سخرية أقرانه وتحقيرهم إياه ، فهو لا يستطيع الدفاع عن نفسه للنقص الموجود فيه إلا بعدم الاعتناء بسخريتهم. ولكن هذا بحد ذاته مدعاة للذلة له ، وكبت لغرائزه وجرح لمشاعره ، ويسبب الشقاء والقلق له فيما بعد. لأن مشاعره المتألمة التي لم تجبر بشيء وغرائزه المكبوتة لا بد أن تؤدي في النتيجة الى القلق واضطراب الفكر ».

ص: 148

1- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 670.

2- بلاغة الحسين - دعاؤه في عرفات.

« يشير التحليل الذي أجري على استاذ جامعي الى أن عقدة الحقد التي كان يكابدها قد نشأت منذ دراسته الابتدائية ، وذلك أنه كان أطول التلاميذ قامته في الصف وكان يلوح دائماً - عند اللعب والاستراحة - لأعين المعلمين قبل غيره ، ولذلك فإنه كان يخرج من الصف عند وقوع حادثة ليعتبر به الآخرون. وبالرغم من أن ذلك كان يحدث في احيان قليلة جداً فإنه ظل يحس بأنه قد ظلم كثيراً ، وليس إلا لطول قامته فحسب » (1).

التحقير والسخرية :

يتألم الأطفال او الكهول الذين يكابدون من نقص عضو أو عيب في بناء أجسامهم من جهتين : الأولى - النقص والحرمان الذي يلاحظونه في أنفسهم والثانية - استهزاء الآخرين بهم وسخريتهم منهم.

فمثلاً يرى الابكم أن الآخرين يتكلمون ويلتذون من محاوراتهم فيما بينهم لكنه بسبب العيب الموجود في لسانه عاجز عن النطق ، فشعوره بهذا العجز يجعله تحت ضغط روحي فيحس بالضعة والحقارة ، ويتألم من حرمانه هذا وتألمه الآخر ناتج من تحقير الأفراد السالمين إياه واستهزاءهم منه ... ذاكرين عجزه ذاك بصورة إهانة وتحقير. ولعل هذا الألم الناشيء من استهزاء الناس منه اكثر من أمله الناج من شعوره بالنقص والحرمان.

عاش الجاحظ (2) في القرن الثالث الهجري ، وله كتب وآثار كثيرة. ولقد كان قبيح المنظر جداً ، مقرباً عند الخلفاء العباسيين لعدواته لعللي بن أبي طالب عليه السلام . وقد قال يوماً لتلاميذه : إنه لم يخجلني طيلة عمري أحد كما فعلت امرأة ثرية ، فقد لقيت امرأة في بعض الطرق وسألني في أن أصحابها ففعلت. حتى أتت بي الى محل صائغ للتماثيل ، وقالت له مشيرة إلي : كهذا الشيطان ... فبقيت حائراً من أمرها ، ولما انصرفت سألت الصائغ عن القصة ، فقال : لقد استعملتني هذه المرأة

ص: 149

1- عقدة حقارت ص 12.

2- سمي بذلك لجحظ في عينيه.

لأصوغ لها تمثال شيطان. فقلت لها : إنني لم أر الشيطان كي أصوغ تمثاله ، فطلبت مني أن انتظر حتى تجيء لي بتمثاله ... واليوم جاءت بك إليّ وأمرتني أن أصوغه طبق منظرك « (1).

القاضي الدميم :

ونموذج آخري السخرية بالاشخاص المصايين ببعض العيوب الظاهرية نجده في قصة القاضي المصري رشيد بن الزبير. فقد كان من القضاة الماهرين والكتّاب العظام في عصره ، وكان ذا خبرة كافية في علوم الفقه والمنطق والنحو والتأريخ ... عاش في القرن السادس الهجري. لقد كان ذاقامة قصيرة ، أسود اللون ، ذا شفتين غليظتين ، وأنف كبير ، ومنظر قبيح جداً. كان يعيش في شبابه في القاهرة ، ويسكن مع عبد العزيز الأديسي وسليمان الديلمي في بيت واحد.

فخرج يوماً وتأخر في العودة الى منزله ، وعندما عاد سأله زملاؤه عن سبب تأخره فأبى يجيبهم حتى الحوا عليه فقال : كنت أعبر من المحل الفلاني فصادفت امرأة ذكية جميلة ، كانت تنظر إلي بعين الرأفة والعطف ، فذهلت من شدة الفرح ، وبت أقرب سيرها فأشارب إليّ بطرف عينها فتبعتها في السكك الواحدة بعد الأخرى ، حتى انتهينا الى دار ، ففتحت الباب ودخلت ، وأشارت إلي بالدخول دخلت ، فكشفت النقاب عن وجهها وإذا به قطعة من القمر ... لم تمض فترة طويلة حتى صفقت بيدها ونادت باسم فتاة ، فإذا بطفلة في غاية الجمال نزلت من الطابق العلوي ، فخاطبتها المرأة قائلة : لو تبولت في فراشك هذه المرة فسأعطيك الى هذا القاضي ليأكلك ، فبلغ الخوف والهلع من الطفلة مبلغة وبلغ الارتباك والاضطراب مني مبلغه أيضاً. ثم إلتفتت إلي قائلة : لا أعدمني الله إحسانه بفضل سيدنا القاضي أدام الله عزه ... فخرجت من الدار مطأطأً برأسي خجلاً ، ولفرط ما أصابني من خجل وذهول ، ولشدة تأثري تهت الطريق الى البيت ، وبقيت أجوب الأزقة ... ولهذا تأخرت في العودة « (2).

ص: 150

1- تنمة المنتهى ص 370.

2- قاموس دهخدا الفارسي ص 1224.

لقد تمكن العلم الحديث في تقدمه وإزدهاره من اصلاح بعض العاهات العضوية كإرجاع العيون التي بها حول الى وضعها الطبيعي ، وردّ الأنوف القبيحة جميلة ، وتقويم السيقان المتقوسة ، وترميم شقوق الشفاه. والخلاصة : ان الجراحين يجرون عمليات جراحية على بعض الأعضاء بحيث تأخذ شكلاً طبيعياً جميلاً ، ويرتاح المصاب ببعض العيوب الظاهرية من الشعور بالحقارة والتعاسة. في حين توجد عيوب ونقائص لم يتوصل العلم الحديث الى علاجها وإصلاحها.

ندارك النقص :

على الأفراد الذين يكابدون نقصاً لا يقبل العلاج ويبعث فيهم الشعور بالألم والإحساس بالحقارة أن يستفيدوا من سائر أعضائهم السليمة اكبر حد ممكن ، ويسعوا وراء تحصيل علم من العلوم المهمة أو فنٍ يحتاجه المجتمع بحيث يتمكنون من إحرازه ونيل مقام شامخ فيه ، وعندئذ لا شك في أن الكمال الذي يحصلون عليه بواسطة العلم يكون سبباً لجمالهم الاجتماعي ، ويخفي نقصهم العضوي ، ويمنع من انتباه الناس الى عيوبهم.

فكم من أفراد حرموا نعمة البصر أو السمع أو النطق ، أو كانت فيهم نقائص أخرى لم يلتفتوا الى ذلك وراحوا يجدّون بكل رغبة وشوق وراء الثقافة حتى أحرزوا مكانة سامية في المجتمع وعاشوا حياتهم بكل عز وفخر. فلقد تمكن هؤلاء بفضل مثابرتهم من إنقاذ أرواحهم من الشعور بالحقارة ، أو الحد من هذا الشعور نسبياً.

إن المصيبة العظمى لذي النقائص والعاهات إنما هي تحقير الناس واستهزاءهم ، فان السخرية والاهانة والتقريع والكلمات البذيئة تعتبر سهماً مسمومة تصيب قلوب هؤلاء من الإحساس بالحقارة فيهم ، وبالتالي تجعل العيش عليهم مرأً وجحيماً لا يطاق.

... والحل الوحيد للتخلص من ذلك كله تهذيب اخلاق المجتمع وإيجاد السجايا الفاضلة فيه.

في البلاد التي يتحلى شعبها بالصفات الفاضلة ، والشعوب التي يقوم الأفراد فيها بواجباتهم الخلقية خير قيام لا يحتقر الأعمى أو الابل أو الأشل أو غيرهم من

أصحاب الأمراض والآفات ، ولا يصدر من الأفراد ما يزيد من آلامهم ، فالرجال المحسنون هم الذين إن لم يتمكنوا من وضع مرهم على قلوب المصابين الجريحة فإنهم لا يشمتون بهم ولا يزيدون مصيبتهم عليهم أكثر. بواجباتهم الخلقية خير قيام لا يحتقر الأعمى أو الأبله أو الأشل أو غيرهم من أصحاب الأمراض والآفات ، ولا يصدر من الأفراد ما يزيد من آلامهم ، فالرجال المحسنون هم الذين إن لم يتمكنوا من وضع مرهم على قلوب المصابين الجريحة فإنهم لا يشمتون بهم ولا يزيدون مصيبتهم عليهم أكثر.

النظرة المؤلمة :

لقد منعت التعاليم الخلقية في الإسلام الاستهزاء والاهانة واللوم والشماتة مطلقاً وحذّر علماء المسلمين الناس من هذه الصفات الذميمة. ولقد وردت أخبار في خصوص المصابين وذوي العيوب والنقائص الجسمية ، وفي أسلوب المعاشرة معهم ، بحيث لو طبقت وروعت لما تأثر المصابون في المجتمع ، ولما شعروا بالحقارة.

1 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا تُديموا النظر الى أهل البلاء والمجذومين ، فإن ذلك يحزنهم » (1).

2 - عن الإمام الصادق عليه السلام : « لا تنظروا إلى أهل البلاء فإن ذلك يحزنهم » (2).

3 - وعنه عليه السلام : « إسماع الأصم من غير تضجر صدقة هنيئة » (3).

4 - وعنه (عليه السلام) أيضاً : « من نظر الى ذي عاهة ، أو من قد مثّل به ، أو صاحب بلاء فليقل سرّاً في نفسه من غير أن يسمعه : الحمد لله الذي عافاني » (4).

إن الأعور أو المجذوم يتألم في باطنه ويحس بالحقارة ، فلو أن أحداً أطل

ص: 152

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج16 ص122.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج16 ص123.

3- المصدر السابق ج16 ص111.

4- وسائل الشيعة للحر العاملي ج3 ص209.

النظر إلى عضوه الناقص كان ذلك سبباً في زيادة حزنه وشعوره بالضعة. وكذا الأصم أو ضعيف السمع فإنه يتألم في نفسه ويحس بنقص كبير، فلو كلمه المتكلم بلهجة شديدة زاد تألمه أما لو كلمه بطلاقة وجه وابتسام، رافعاً صوته لإسماعه من غير أن يزجره، فذلك يترك أثراً طيباً في نفسه، أو يقلل من تأثره الشديد.

... وقد عرّف الإمام الصادق عليه السلام هذا الفعل بالصدقة الهنيئة.

5 - عن أبي جعفر عليه السلام، قال: « كفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من نفسه، أو يعير الناس بما لا يستطيع تركه، أو يؤذي خليله بما لا يعنيه » (1).

إن النظر الدقيق المؤذي إلى نقائص الناس لا نفع فيه، لكنه يسبب في ذي البلاء تضجراً وضغطاً روحياً وألماً. ومن عامل جليسه بهذه الصورة أظهر له بذلك سوء خلقه.

لقد ظهرت بقع بيضاء في وجه (يونس بن عمار) أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وآلمه ذلك، إلا أنه كان يضيق ذرعاً بالكلمات المسمومة الصادبة من الناس تجاهه، فقد كانوا يقولون له: لو كنت أهلاً لفضل الله وكان الدين الحق بحاجة اليك لما ابتليت بهذا الداء. فتألم يونس من ابتلائه بالمرض وكذلك من تحقير الناس وإهانتهم إياه تألماً شديداً وجاء إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال: ان هذا الذي ظهر بوجهي يزعم الناس أن الله لم يبتل به عبداً له فيه حاجة، قال: فقال لي: لقد كان مؤمن آل فرعون مكّع الأصابع فكان يقول هكذا ويمدّ يديه ويقول: يا قوم اتبعوا المرسلين » (2).

في هذا الحديث نجد الإمام الصادق عليه السلام يردّ على كلام الناس الركيك بجملة قصيرة، ويفهم يونس بن عمار ضمناً أنه يتمكن - كمؤمن آل فرعون - أن يخدم شريعة الله، وأن يكون داعية خير وصلاح بين الناس على ما هو عليه من النقص... وطبيعي أن يخفف هذا الكلام من ألم الشعور بالحقارة فيه من جهة، ويبعث فيه رجاء خدمة دين الله من جهة أخرى.

ص: 153

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص459.

2- المصدر السابق ج2 ص259.

والنتيجة : ان العاهات والنقائص التي لا تقبل العلاج عامل كبير للشعور بالحقارة في الأطفال والكبار. فلو كان المجتمع الذي يعيش فيه أفراد مصابون منحطاً خلقياً ، وفاقداً للتربية السليمة بحيث يحتقر أولئك الأفراد فإن شعورهم بالحقارة سيتحول الى عقدة نفسية موهلة في التعقد ، ويقعون فريسة لمشاكل كثيرة.

البحث عن عيوب الناس :

لقد حذر الإسلام في تعاليمه الاخلاقية الناس من اللمز. وقد ورد ذلك بصورة صريحة في القرآن الكريم : (ولا تلمزوا أنفسكم) .

وعلاوة على ذلك فإنه أكد على مراعاة الآداب العامة والاخلاق الفاضلة مع ذوي العاهات والنقائص. فالمسلم الواقعي لا يحتقر ولا يهين بلسانه وحركاته أحداً ، ولا يؤلم قلب شخص أصلاً. فعن الإمام الصادق عليه السلام : « إن المؤمن ليسكن الى المؤمن كما يسكن الظمآن الى الماء البارد » (1).

الاسم القبيح :

والعلة الأخرى من علل الشعور بالحقارة التي تبدأ من دور الطفولة ومن الممكن أن تكون سبباً لنشوء عقدة الحقارة والتعاسة : الاسم القبيح ، واللقب الكريه. إن الاسم الذي يضعه الوالدان للطفل يبقى معه إلى آخر لحظة من حياته ، فلو كان قبيحاً ومنكراً كان سبباً لإيذائه في كل آن ، ومعرضاً إياه لسخرية الأطفال والكبار واستهزائهم به.

يحب كل فرد أن يكون جميل الوجه ، حسن الهندام ، متزن الملامح ، نظيف الملابس ، حتى لو التقط مصور صورة جميلة له طبع منها مائة نسخة أو تزيد ، ووزعها على جميع أصدقائه للتذكّار ... وبالعكس لو أخذت له صورة مشوشة لم يسمح بطبعها وليس ذلك فحسب ، بل انه يسعى لتحطيم الزجاجة السوداء ، كي يمحو هذا الأثر السيء تماماً ... وكذلك عندما يريد أن يطبع بطاقة شخصية فإنه يصرف مبلغاً من النقود في سبيل

ص: 154

أن يكون الخط جميلاً ، والكليشة واضحة ، والورق صقيلاً الى غير ذلك من المحسنات ... ثم يطبع على ذلك آلاف النسخ.

كل هذا يدلنا على أن الجمال من أهم عوامل المحبة ، وهو رمز السعادة والنجاح.

الإسم الجميل :

من المظاهر المهمة لدى كل انسان اسمه واسم عشيرته. فكما أن صورة كل شخص سبب لاستحضاره في اذهان الناس ، كذلك اسمه فإنه يحكي عن صاحبه ويعطي صورة عنه. وكما أن الإنسان يلتذ من صورته الجميلة ، ويتألم ن كانت قبيحة ، كذلك يستر من الاسم الجميل ويتأذى من الأسم القبيح له أو لعشيرته. في حين أن الصورة القبيحة يمكن تمزيقها ومحوها بكل سهولة أما تغيير الأسم واللقب فهو صعب جداً.

إن الذين يمتازون بأسماء جميلة أو ينتمون الى عشيرة ذات اسم جميل يفتخرون بذلك ويذكرونه بكل ارتياح وطلاقة دون شعور بالحقارة ، ولربما تقال السامع وذكر بالمناسبة كلاماً يليق ويتلاءم مع جمال الأسم. ومثل ذلك نجده في القصة التالية :

فقد النبي محمد صلى الله عليه وآله أمه في ايام رضاعه ، ولم يقبل ثدي مرضعة قط ، وكان هذا مبعث حزن وألم في البيت الهاشمي ... إلى أن جاءت حليلة السعدية فعرضت ثديها عليه فقبله وتكفلت برضاعه ، عندئذ عم البيت السرور والفرح الى اقصى حد فقال عبد المطلب مخاطباً إياها.

- من أين أنتِ؟

قالت : امرأة من بني سعد.

قال : ما اسمك؟

قالت : حليلة.

ص: 155

قال : بخ بخ ، خُلِقَانِ حَسَنَتَانِ ... سَعْدٌ وَحَلَمٌ (1).

أما الذين يحملون أسماء مستهجنة أو ينتمون الى عشيرة ذات نسبة قبيحة فطالما يأتون عن ذكر ذلك ، وإن التجأوا الى ذكره في مناسبة ما شعروا بالخجل والضعة. إنهم يسرّون كثيراً عندما يبدل اسمهم الى اسم حسن.

عندما نلقي نظره عابرة على الأسماء المتداولة في المجتمع بين المتجددين والمتحضرين ممن يعيش في القرى والمدن نجد فيها أسماء وألقاب قبيحة قد يؤدي ذكرها والتصريح بها في هذا المجلس المزدحم الي السأم والضجر بالنسبة الى البعض ، ولكنني أذكر على سبيل التمثيل نموذجاً من أهل القرى والأرياف.

هناك بعض العوائل في الأرياف تسمى المولود الجديد باسم اليوم الذي ولد فيه كالجمعة والسبت. فإن بقي هذا الطفل الى آخر عمره في القرية يشتغل بالرعي فلا شيء عليه ، أما لو دخل المدرسة وهاجر الى المدينة ، ثم مارس الحياة الجامعية وحصل على شهادة علمية ونال مقاماً فإن ذلك الاسم القبيح يلازمه ويولد فيه عقدة الحقارة ، وكلما نادوه باسم (جمعة) او (سبت) تألم لذلك بلا شك.

اختيار الاسم :

من الحقوق الدينية للأولاد على الآباء أن يختاروا لهم أسماء جميلة غير مستهجنة. وقد ورد الحث على هذا في الروايات كثيراً :

1 - قال النبي صلى الله عليه وآله : « من حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه » (2).

2 - قال رجلٌ : يا رسول الله ما حق ابني هذا؟ قال : « تحسن اسمه وأدبه ، وتضعه موضعاً حسناً » (3).

ص: 156

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج6 ص91.

2- مستدرک الوسائل للمحدث النوري.

3- مكارم الاخلاق للطبرسي ص 114.

3 - في حديث آخر عن النبي صلى الله عليه وآله : « من حق الولد على والده ثلاثة : يحسن اسمه ، ويعلمه الكتابة ، ويزوجه إذا بلغ » (1).

4 - عن أبي الحسن عليه السلام ، قال : « أول ما يبرّ الرجل ولده ، أن يسميه باسم حسن . فليحسن أحدكم اسم ولده » (2).

5 - في وصية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي عليه السلام : « يا علي ، حق الولد على والده أن يحسن اسمه وأدبه » (3).

6 - وفي حديث آخر : « إن أول ما ينجل أحدكم ولده : الاسم الحسن » (4).

تبديل الأسماء القبيحة :

إن الشقاء المتسبب من عقدة الحقد لا يزول إلا بانحلال تلك العقدة حتى يتحرر الضمير الباطن من الضغط الذي يلاقه . فالذي يحمل اسماً قبيحاً يشعر بالضيق بلا شك ، والعلاج الوحيد له تغيير ذلك الاسم . فإذا وفق لذلك زال الضغط النفسي لوحده .

لقد كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يغير الأسماء المستهجنة للأفراد ، وكذا الاسم القبيح للبلد الذي طالما تألم المنتسب له ، وبهذه الطريقة كان يتحرر الأشخاص من العقدة التي يكابدون منها الأمرين ، ويعيشون حياة ملؤها الارتياح والسكينة .

1 - عن الإمام الصادق عن أبيه عليهما السلام : « إن رسول الله كان يغير الأسماء القبيحة في الرجال والبلدان » (5).

2 - عن ابن عمر : « أن ابنة لعمر كان يقال لها عاصية ، فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله : جميلة » (6).

ص: 157

1- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص115.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج6 ص18.

3- بحار الأنوار للعلامة المجلسي.

4- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص115.

5- قرب الاسناد 45.

6- صحيح مسلم ج6 ص173.

3 - عن أبي رافع : « إن زينب بنت أم سلمة كان اسمها برة ، فقيل : تزكي نفسها فسمّاها رسول الله صلى الله عليه وآله : زينب » (1).

ولقد كانت العادة جارية في القبائل العربية قبل ظهور الإسلام بتسمية أولادهم بأسماء الوحوش والجوارح ، وقد كانت هذه العادة البذيئة باقية بعد الإسلام أيضاً عند بعض القبائل . وفي حديث يسأل أحمد بن هيثم من الإمام الرضا عليه السلام عن سبب ذلك قائلاً : « قلت له : لم تسمى العرب أولادهم بكلب وفهد ونمر وما أشبه ! ذلك ؟ قال : كانت العرب أصحاب حرب وكانت تهول على العدو بأسماء أولادهم » (2).

وبالرغم من أن تلك الأسماء المستهجنة كانت شائعة ومتداولة بينهم ، فإنها كانت في بعض الأحيان ذريعة قوية للطعن والتحقيق في أصحابها ، فكان الواحد يلوم الآخر بسببها . من ذلك القضيتان الآتيتان : -

بين معاوية وجارية :

كان أحد رؤساء عشائر الشام يسمى ب- (جارية) (3) وكان رجلاً قوياً صريح اللّهجة ، وكان يبطن لمعاوية حقداً وعداءً ، وسمع معاوية بذلك فأراد أن يحتقره أمام ملاء من الناس ويتخذ اسمه وسيلة للاستهزاء به والسخرية منه ، وصادف أن التقيا في بعض المجالس فقال له معاوية :

- ما كان أهونك على قومك أن سموك جارية؟

فقل له جارية : وما كان أهونك على قومك إذ سموك معاوية ، وهي الانثى من الكلاب.

قال : اسكت لا ام لك!

قال : لي أم ولدتي . أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا ، وإنك لم تهلكنا قسوة ، ولم تملكنا عنوة ...

ص: 158

1- نفس المصدر.

2- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص115.

3- من معاني (جارية) : الحية من جنس الأفعى كما في (اقرب الموارد).

ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً ، وأعطيناك سمعاً وطاعة ، فإن وفيت لنا وفينا لك ، وإن نزعنا إلى غير ذلك فإننا تركنا وراءنا رجالاً شداداً وأسنة حداداً.

فقال معاوية : لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية (1).

قبح الاسم والمنظر :

وكان شريك بن الأعور سيداً في قومه وكبيراً عليهم ، عاصر معاوية ... وفي أحد الأيام دخل مجلس معاوية فأراد هذا أن يحتقره ويسخر به لقبج اسمه واسم أبيه وللتقص الذي فيه فقال له :

- والله إنك لشريك وليس لله من شريك ، وأنت ابن الأعور والصحيح خير من الأعور ، وإنك لدميم والوسيم خير من الدميم ، فيم سؤدك قومك؟!

فقال له شريك : والله إنك لمعاوية وليست معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت فسميت معاوية ، وإنك ابن حرب السلم خير من الحرب ، وإنك ابن صخر والسهل خير من الصخر ، وإنك ابن أمية وما أمية إلا أمة صغرت فسميت أمية ، فكيف صرت أمير المؤمنين؟

فقال له معاوية : أقسمت عليك إلا ما خرجت عني (2).

ولهايتين القضيتين نظائر وقعت في الماضي والحاضر. فكما أن الهندام غير المتزن ، والاعضاء الناقصة ، والمنظر الكريه سبب للشعور بالحقارة ، ويؤدي ذلك غالباً إلى نشوء عقدة نفسية ، كذلك الاسم القبيح واللقب الكريه ، والنسبة المستهجنة فإن ذلك كله يدعو إلى نشوء عقدة الحقارة. ولو فرضنا أن 99% من أفراد المجتمع كانوا خليقين متزينين لا يجرحون عواطف هؤلاء ولا يحتقرونهم ، فإن الـ 1% الباقية لم تربّ تربية حسنة تكفي في إيدائهم بالاستهزاء والاهانة.

ص: 159

1- المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي ج1 ص58.

2- ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ج1 ص59.

عندما يتولد الطفل على أساس قوانين الخلقة ذا عاهة غير قابلة للعلاج فإن مصيبة الحقارة قطعية بالنسبة اليه ولا يمكن التخلص منها. هذا الطفل لا بدّ له من تحمل الألم الداخلي مدى العمر ، وليس للأباء والأمهات في هذه الحالات الصبر والتحمل. إذ أن رفع هذه العاهات والنقائص الطبيعية ليس بيدهم ، في حين أن انتخاب الاسم الحسن في مقدورهم ، وهو من حقوق الأولاد الواجبة على الأباء. إنهم يتمكنون من القيام بواجبهم على خير وجه في تسمية أطفالهم ، وباستطاعتهم إجتباء إء لأطفالهم لا تصير سبباً للحقارة والضععة مدى العمر.

إن الطفل الذي يستهزأ به من قبل سائر الأطفال لاسمه المستهجن أو لانتسابه الى عشيرة ذات اسم قبيح يخسر نشاطه ويسير دوماً الى اضمحلال وانهايار ، فيتجنب من الألعاب الجماعية للأطفال ، ويخاف من معاشرتهم ، ويخفي نفسه قدر المستطاع في ساحة المدرسة ، ويقف في صف التلاميذ وقفة لا يراه معها مدير المدرسة أو المشرف حذراً من أن ينادى باسمه من بين الأطفال وتتجدد عليه الكارثة.

« تشمل عقدة الحقارة جميع المظاهر التي ظهر بها عدم الاعتماد على النفس ، والشعور بضعف الشخصية ، وعدم الكفاءة ، وفقدان الارادة. إن الطفل الذي يبتلى بالشعور بالحقارة عندما يشب يلزم سيرة الوحدة والانزواء أو لا أقل من أن يوجد عنده الشعور بالغرابة والابتعاد عن أقرانه ، لأن الوقائع والحوادث في دور الطفولة أفهمته أن الألفة والاجتماع مع الغير هو الذي جلب له السخرية والانتقاد. إن الذي يتجنب أقاربه وأترابه يقودنا الى أنه معذب من الشعور بحقارة وجدت فيه من تجاربه في الطفولة. ولهذا - وبناء على قواعد علم النفس - فإن كل حادثة تضعف أو تعدم عزة النفس عند الإنسان ، وتقلل من طموحه عامل مهم لتوسعة (عقدة الحقارة) وتقويتها ووسيلة لجعله بين الأعضاء المختلين وضعاف النفوس في المجتمع » (1).

ص: 160

من الأسماء المحبذة والمرغوبة في الشرق أسماء وألقاب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام . إن أذواق الملايين من المسلمين وطباعهم تستلطف الأسماء التالية : محمد ، أحمد ، محمود ، مصطفى ، علي ، مرتضى ، حسن ، حسين ، كاظم ، رضا ... وأمثالها ، ومن كان قد سمي باسم من هذه الأسماء لم يشعر في نفسه بالحقارة والتعاسة ، ولم يأب من أن يعرف نفسه به.

لقد أوصى أئمة الإسلام أتباعهم بتسمية أولادهم بأسماء القادة الإلهيين العظماء ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام : « إن النبي صلى الله عليه وآله قال : من ولد له أربعة أولاد ولم يسم أحدهم باسمي فقد جفاني » (1).

إن إحياء أسماء الرجال العظماء أمر يهتم به الشرق والغرب ، وتحاول الحكومات استخدام جميع الوسائل لذلك ، فتسمى الاكتشافات والاختراعات العلمية والفنية باسم المكتشف والمخترع كي يبقى هذا الاسم خالداً على مر الأجيال ، يتلفظ الأساتذة والطلبة والمهندسون والعمال الفنيون آلاف المرات يومياً بأسمائهم في الجامعات والمختبرات والمؤسسات الصناعية في العالم.

لقد سميت بعض المدن الكبيرة باسم الرجال العظماء في قسم من الدول كما سميت الساحات والشوارع باسم الشخصيات البارزة في تلك البلدة. وفي إيران سميت ساحات وشوارع عديدة باسم : حافظ ، سعدي ، خيام ، فردوسي ، أبو علي ، أبو ريحان ، وغيرهم ، وبهذه الطريقة خلّدوا أسماءهم.

ومن وسائل تخليد اسم النبي العظيم والأئمة عليهم السلام تسمية المسلمين أولادهم بأسمائهم. فالآباء والأمهات الذين يهتمون بهذا الأمر ويسمّون أطلالهم بأسماء القادة الإلهيين قد أدوا حق أولادهم في انتخاب الاسم الحسن لهم ، وحفظهم بذلك من الاحساس بالحقارة ... هذا من جانب ومن الجانب الآخر يكونون قد أظهروا بذلك ولاءهم لقادتهم ، ويستحقون الأجر بذلك من الله بلا ريب.

ص: 161

وقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يسأل الراوي فيه : « إنا نسمي بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فينفعنا ذلك؟ فقال : إي والله «(1).

الكنية :

لم تكن قيمة الكنية الجميلة فيما مضى - والاسم الجميل للعشيرة في عصرنا - أقل من قيمة الاسم الجميل ، فكم من أفراد يحملون أسماء حسنة ولكنهم انتخبوا اللقب العائلي غريباً ، نراهم غير مرتاحين. فقد اتخذ بعض الأشخاص لقباً سيئاً لنفسه من دون روية ، فجاء أولاده بعد سنين طويلة متأثرين لسوء اختيار والدهم ، شاعرين الحقارة عند ذكر تلك الكلمة. لقد أردف في بعض الروايات ضرورة تحسين اسم الطفل. بضرورة تحسين كنيته أيضاً. فعن فقه الرضا عليه السلام : « سمّه بأحسن الأسماء ، وكنّه بأحسن الكنى » (2).

وعند استعراضنا لبعض النصوص نجد قادة الإسلام يتأثرون من سماع الكنى القبيحة التي يتخذها بعض الأشخاص لأنفسهم ، وينبهون في بعض الأحيان على ذلك حفظاً لكافة أصحابها.

« عن زرارة قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : إن رجلاً كان يغشى علي بن الحسين عليه السلام وكان يكنى : أبا مرة. فكان إذا جئت إلى بابنا فلا تقولن أبا مرة (3). لأن (أبا مرة) كنية الشيطان ، فمن اختار لنفسه هذه الكنية عرف نفسه بأنه متصف بصفة الشيطان ، ونيتته كنيته ، ولسوء اختياره هذا جعل نفسه معرضاً لتحقير الآخرين وإهانتهم.

الأثر النفسي للاسم واللقب :

واللقب أيضاً مثل الاسم والعائلي ، يعرّف صاحبه. وهو ذو أثر نفسي فعال ، فإن كان قبيحاً صار سبباً للشعور بالحقارة وطالما حمل صاحبه - كالاسم واسم العائلة القبيحين - على الضجر والسأم.

ص: 162

1- بحار الانوار للعلامة المجلسي ج23ص122.

2- مستدرک المسائل للمحدث النوري ج2ص618.

3- الكافي لثقة الاسلام الكليني ج6ص21.

لقد كان المواطنون فيما سبق يهتمون باللقب. وكانت الألقاب عندهم معروفة للمكانة والمنزلة الاجتماعية للأفراد ، فكان لكل من الرجال العظماء في العلم أو السياسة ، والشخصيات العسكرية أو المدنية لقب مخصوص يتناسب ومنصبه ومنزلته.

وعلى رغم الاختلاف الكبير بين مجتمعنا الحالي والأوضاع السابقة في موضوع الألقاب وفقدان كثير منها قيمتها السابقة ، فإنه توجد القاب في مجتمعنا يسبب بعضها الفخر والعظمة لصاحبه ، ويورث بعضها الألم الروحي والشعور بالحقارة له. ثم إن لبعض الألقاب جهة عمومية فإنه يتبع الشغل أو الرتبة أو المقام ، ومن كان حائزاً على الشروط المطلوبة نودي بذلك اللقب ... كما أن بعض الألقاب يختارها الشخص لنفسه ولأولاده كما يختار الاسم ، ثم بشهرته شيئاً فشيئاً في المجتمع.

وربما تقع قضايا وحوادث طبية أو سيئة للأشخاص في أيام عمرهم فتترك أثراً حسناً أو قبيحاً في الأذهان ، ثم يلخص الناس ذلك الأثر في كلمة أو جملة ويجعلونها لقباً لصاحبه. ومن هذا القبيل ما نلاحظه في قصة عبيد الله بن الزبير ، حيث كان والياً على المدينة من قبل أخيه عبدالله ، وقد شغل المنصب المعهود به اليه بكل سيطرة وكفاءة ... وفي يوم من الأيام اخطأ في كلامه أمام جمع غفير من الناس وهو على المنبر ، فبينما كان يعظ الناس تطرق لقصة ناقة صالح وظلم قومه لها ، فقال لهم : قد ترون ما صنع الله بقوم في ناقة قيمتها خمسة دراهم ، فسمي (مقوم الناقة) (1).

لقد كانت الموعظة بذاتها صحيحة إلا أن تقويمه للناقة كان خطأ ، فلقبه الناس ب- (مقوم الناقة) ، وشاع هذا اللقب ، ولهج به الناس ، وأورد نقصاً عظيماً في شخصيته ، فخلعه عبدالله بن الزبير ، وولي مكانه مصعباً.

في هذا المثال نجد أن والي المدينة يسقط عن أنظار الناس على أثر سبق لسان بسيط ، ولقبه الناس بمقوم الناقة مستهزئين به وذاكرين ذلك في كل منتدى ومجلس.

إن الوالي الذي يتعرض لتحقير الناس وإهانتهم ، ويشعر في نفسه بالحقارة لا يتمكن من ممارسة السلطة والحكم مهما كان ذا سطوة وقوة.

ص: 163

في المجتمعات المختلفة أناس كثيرون اتخذوا لأنفسهم القاباً قبيحة بسوء اختيارهم ، أو أن سلوكهم المنحرف طيلة الحياة هو الذي أوحى للناس بتلقيبهم بلقب قبيح ... وتكون النتيجة أن يعيش هؤلاء حياة ملؤها التعاسة والشقاء والحقارة.

وفي مجتمعنا الحاضر توجد بين الطبقات المختلفة القاب كثيرة من هذا القبيل. وها أنذا أتكلم اليكم وبيالي أمثله منها بحيث لو نطقت بكلمة واحدة انتقلت أذهان المستمعين فوراً الى شخص معين ، لكن القوانين الإسلامية لا تسمح لي بذكر شيء منها وإن كان ذلك على سبيل الشاهد ...

الحد عن تحقير الناس :

لقد نهى الإسلام عن ذكر الناس باسم أو لقب يشينهم ويكون سبباً لاهانتهم وتحقيرهم وقد حذرت التعاليم الإسلامية الناس عن هذا العمل المنكر الذي يبعث البغضاء والحقد في المجتمع. قال الله تعالى : «وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ».

لقد ذكر في مجلس الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام شاعر ، فذكره أحد الحاضرين بكنيته ، فقال له الإمام عليه السلام : « هات اسمه ودع عنك هذا. إن الله عز وجل يقول : لا تنابروا بالألقاب ، ولعل الرجل يكره هذا » (1).

وفي الحديث : « حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب اسمائه » (2).

يجب على عامة المسلمين أن يجتنبوا عن ذكر اسماء وألقاب تسبب انزعاجاً وإيلاماً لأصحابها ، وألا يدعوهم بتلك الأسماء والألقاب كيلا يوجب ذلك التأثر والتألم فيهم. ولكن كثيراً من الناس لا يراعون هذا الواجب المقدس. فبعضهم لسوء خلقه وعدم العناية بواجباته ، وبعضهم لعدم فهمه وقصور إدراكه يذكر الناس بأسماء والألقاب قبيحة ، فيحتقرهم بعمله السيء هذا.

ص: 164

1- وسائل الشيعة الحر العاملي ج5 ص116.

2- مجمع البحرين - مادة نبز.

كان في أوائل القرن الثالث الهجري رجل في العراق يكنى ب- (أبي حفص) ، ولبعض أعماله لقبه الناس ب- (اللوطي) فكانا يحقرونه بهذا اللقب في غيابه. ولقد أدت شهرته هذه بين الناس الى تأثره الشديد ، وأوردت على شخصيته نقصاً غير قابل للتدارك فتمرض جار له ، فعاده أبو حفص والمريض في غاية الضعف. فسأله أبو حفص عن صحته ، وقال له : أعرفني؟ فأجاب المريض بصوت خافت جداً : ولم لا أعرفك؟ أنت أبو حفص اللوطي ، فدهش أبو حفص من هذا اللقب ومصارحة المريض به ، فقال له : لقد جاوزت حد المعرفة ، أرجو أن لا تقوم من مرضك هذا أبداً ... ثم قام من عنده وخرج (1).

السمعة السيئة والحرمان :

ما أكثر الرجال العلماء والمثقفين الذين كانت لهم الكفاءة لتسّم مناصب عالية في الدولة ، والحصول على مقامات شامخة في المجتمع لكنهم فقدوا جميع قيمهم الاجتماعية على أثر لقب قبيح أو شهرة سيئة ، وأخذ الناس ينظرون اليهم بنظر الانتقاص والاحتقار ... وبالتالي لم يستفيدوا من المواهب التي كانت تميزهم ، بل لم يستطيعوا الاستمرار في الحياة كأفراد اعتياديين فهؤلاء يكابدون الضغط الروحي دائماً ويقضون حياتهم في حرمان وشعور بالحقارة والدناءة.

وكمثل على ذلك نذكر ما جرى لابن النديم بهذا الصدد. فقد كان اسحاق بن ابراهيم المعروف بابن النديم من العلماء الذين قلّ نظراؤهم في عصره ، وكان قد اجهد نفسه في علوم كثيرة كالكلام والفقه والنحو والتاريخ واللغة والشعر ، وبرع في جميع ذلك براعة تامة. وكان عملاقاً عظيماً في المناظرات العلمية ، وكثيراً ما كان يتغلب على فضلاء عصره. وله في مختلف العلوم ما يقرب من أربعين مجلداً ، وآثاره المهمة باقية حتى اليوم.

كان ابن النديم ذا صوت جميل ، ورغبة شديدة في الغناء. وكثيراً ما كان يشترك في مجالس طرب الخلفاء ورجال الدولة ، ويؤنس الحاضرين بغنائه المطرب ،

ص: 165

ويجذب قلوبهم نحوه ... ولا استمراره في هذا العمل ضوّلت قيمة ثقافته العلمية شيئاً فشيئاً بالنسبة الى غناؤه حتى عرف في المجتمع بهذه الصفة ولقبه الناس ب- (المغنّي) و(المطرب).

لقد أوردت هذه الشهرة ضربة قاصمة على شخصيته ، ولم يتمكن فيما بعد أن يعدّ نفسه في المجمع كرجل عالم مطلع ، وأن يظهر كفاءته العلمية ... وبالرغم من قربته لدى الخلفاء والشخصيات فإنهم لم يعهدوا اليه بمهمة أو عمل خطير في الدولة ، وذلك حذراً من اضطراب الرأي العام ..

وبهذا الصدد كان المأمون العباسي يقول : لو لم يكن يشتهر ابن النديم بالطرب والغناء لولّيته القضاء ، لأنه يفوق جميع قضاة الدولة الموجودين من حيث الفضل والعلم ، وأكثرهم استحقاقاً لهذا المنصب (1).

نستنتج مما تقدم أن الاسم المستهجن ، أو اسم العائلة القبيح أو اللقب الشنيع ، أو الشهرة السيئة تسبب الشعور بالحقارة ، وتؤزم عقدة الحقارة ، مما يؤدي الى تنغص الحياة على الانسان.

إن الشعور بالحقارة المنبعث من الاسم القبيح يلزم الطفل من أولى أدوار حياته. ومن الحقوق الدينية للأولاد على أوليائهم انتخاب الاسم واللقب الحسنين للطفل. على الآباء والأمهات المسلمين الإهتمام بهذا الواجب بأن يؤدوا حقوق الأولاد على أحسن ما يرام ، ويختاروا لأولادهم الأسماء والألقاب المناسبة الجميلة ، والا يكونوا سبباً - من غير ضرورة - لشعورهم بالحقارة والخسة والضعفة طيلة ايام عمرهم.

ص: 166

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : (لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (1).

من عوام نشوء عقدة الحقارة ، الإفراط في إبداء مظاهر الحب والحنان بالنسبة الى الطفل. إن الأطفال الذين يبذل لهم من العناية والحب اكثر مما ينبغي ينشأون في النتيجة معجبين بأنفسهم ، فيلاقون طيلة أيام حياتهم ، وخاصة عند مواجهة مشاكل الحياة ، والشعور بالحقارة والضعة بشدة ، فيقدمون على أعمال غير مرضية ... وقد يؤدي بهم الشقاء والضغط الروحي الى الجنون والانتحار.

لقد ذكرنا في محاضرة سابقة أن المحبة ضرورية لنمو روح الطفل كالغذاء الضروري لنمو جسمه. وإن أهمية التوازن الصحيح في كم المحبة وكيفها وأسلوب إظهارها لا تقل عن أهمية المحبة ذاتها. وكما أن لكل من التقليل من الغذاء ، والإكثار منه ، وتسممه ، أثراً في بدن الطفل ، كذلك لكل من التقليل من المحبة ، والإكثار منه ، والإكثار منها ، والمحبة في موضعها والتي ينحرف بها الطفل آثاراً مشومة في روح الطفل وتسبب له مشاكل كثيرة.

الإعتدال في المحبة :

الهدف من التربية الصحيحة هو أن تقرن حياة الطفل بالسعادة ، وتكفل جهوده بالنجاح. إذ الحياة على طولها تتضمن صراعاً مع المشاكل وهكذا يواجه الفرد كثيراً من المنخفضات والمرتفعات والمعطفات والمصائب في مختلف أدوار حياته.

ص: 167

والمربي القدير هو الذي يعمل على تنشئة جسم الطفل وروحه على أحسن الأساليب بحيث يعدّه للمقاومة والثبات أمام صعوبات الحياة.

وكما أن جسم الطفل يقوي نتيجة للمراقبة الصحية ، والتواز في أكله ونومه وحركته ورياضته ، ويستطيع من مقاومة البرد والحر ، والجوع والعطش ، والمرض على أحسن وجه ، فكذلك روحه فإنها تنمو قوية في ظل الصحة الروحية والتعاليم الخلقية ، والتوازن بين أساليب العطف والحنان والشدّة والخشونة ... وبذلك يتمكن من الصمود أمام المصائب والمشاكل والإنذارات الروحية.

وبالعكس فإن الأطفال الذين يواجهون المحبة والرأفة الزائدتين ، ويستسلم لهم آباؤهم وأمّهاتهم بدون أي قيد أو شرط ، ويستجيبون لجميع مطالبهم من صالح أو طالح ، وبالتالي ينشأون على الاستبداد والاعجاب بالنفس ... فإنهم يحملون أرواحاً ضعيفة ونفوساً سريعة الانهزام من ساحة المعركة ، ويتأثرون من دور الطفولة حتى آخر لحظة من العمر من مواجهة أبسط الأشياء ، وأخف المصائب ، وينكسرون أمام مشاكل الحياة بسرعة.

إن الأفراد الذين نشأوا في ظل الحنان المفرط ، هم أتعس الأفراد ، لأنهم يعجزون عن حل مشاكل الحياة الاعتيادية ، فيلجأون في الشدائد الى الانتحار متصورين أن النهاية الحتمية لفشلهم يجب أن تبرّر بالإنهزام من معركة الحياة.

خطأ تربوية :

بالرغم من أن كل أسلوب أهوج يتبعه الوالدان في تربية الأولاد يكون له الأثر السيء ، ويولد نوعاً من الانحراف ، فإن الإكثار الضار من المحبة للأطفال يعد من أعظم الأخطاء التربوية. إن العواقب السيئة التي يلاقيها الأطفال بهذه المناسبة مهمة وخطرة. ولقد اهتم جميع علماء النفس بهذا الموضوع في بحوثهم التربوية ، ولكل منهم حوله كلام فصل.

ولأنقل لكم - على سبيل الشاهد - بعض النصوص لعدد من علماء الغرب :

1 - يقول (جلبرت روين) : « إن تعويد الطفل على الاعجاب بنفسه يورث الغضب الشديد فيه لأبسط الأشياء ، والإستبداد في الرأي.

وفي الغالب يدفعه إلى الرغبة في طلب الجاه ، وفي النتيجة يحصل الطفل على القدرة التي تساعد على التقدم ، ومع كونه ذا أعصاب هزيلة فإنه ينجح بواسطة الحيلة والشدة. إن جعل الأطفال معجبين بأنفسهم يكون منهم أفراداً تعساء ، ضعفاء ، عديمي الإرادة ».

« لقد كان أولئك الذين يقولون للأم العابثة بلحن مصحوب بالسخرية : ليس طفلك معجباً بنفسه ، بل هو غير صالح ... لم يكن كلامهم خالياً عن المبالغة فحسب ، بل كان تنبؤهم صحيحاً أيضاً. هناك حالات تتقزز النفوس من مشاهدتها لعدم الالتزام في التربية ، لأننا نشاهد في الحقيقة مقتولين أبرياء كان بالإمكان أنقاذهم » (1).

الاطفال المدللون :

2 - يقول (مك برايد) : « الشعور بالذل والغنج أماراة أخرى من أمارات عقدة الحقارة ، ويجب البحث عن أساسه في أسلوب التربية الخاطيء المتخذ في دور الطفولة. إن الطفل الذي كان يرى نفسه قرة عين والديه ، عندما يكبر ويصبح رجلاً كاملاً يجب أن يكون في جميع نواحي الحياة محبوباً من غير علة ومحترماً لدى الجميع. فعندما يرى أنه لم يُعتن به ، يفقد الهدوء والاستقرار ، ويختل ما صفا من فكره ، فإما أن يلتجئ إلى الانتحار ، وإما أن يبغض الآخرين. إن عقدة الحقارة التي تنشأ في الناس بهذه الظاهرة مصيبة عظيمة للمجتمع » (2).

3 - يقول (ريموند بيج) : « يجب أن ننبه على بعض الأخطاء في السنين الأولى من حياة الطفل. واكثرها شيوعاً هو الأسلوب الذي يؤدي إلى غرور الطفل وأنانيته إن المحبة بدون سبب في الأيام الأولى هي التي تسبب غرور الطفل وأنانيته ».

« إن الآباء والأمهات يأملون في الطفل النجاح والسعادة طبعاً ،

ص: 169

1- چه ميدانيم؟ تريت اطفال دشوار ص 23.

2- عقده حقارت ص 27.

ولهذا فهم يرافون به أشد الرأفة ، ويتملقون له ويبعدون كل عقبة أو مشكلة حتى لو كانت تافهة عن طريقه ... وكلما كبر الطفل حاولوا تهيئة وسائل اللعب المناسبة له. إن هذه الأعمال تستوجب الاستحسان في الظاهر. أما في الباطن فإن الخطر الكامن وراءها موحش جداً».

« إن الفرد الناشيء في ظل الرأفة الزائدة لا يطبق المقاومة أمام تقلبات الحياة ، ولا يستطيع الصراع معها » (1).

4 - يستشهد (الفرد أدلر) العالم النفسي الشهير ، وزعيم المدرسة الفردية في علم النفس بامرأة « انتحرت لسبب تافه هو أن جاراها كان يُعلي صوت المذياع ، ولم يهتم باستنكارها المستمر. وأخيراً أقدمت على الإنتحار وتدل التحقيقات التي أجراها (أدلر) بهذا الصدد على أن هذه المرأة نشأت منذ طفولتها على الغرور والرضا بالنفس ، وكان يُحضر إليها في المنزل ما تشاء من دون قيد أو شرط. ولهذا السبب فإنها لم تطق العيش في دنيا تسمع الجواب السالب على ما تطلب فيه » (2).

الإفراط في المحبة :

لقد حذرت الشريعة الإسلامية الغراء أولياء الأطفال في أسلوب تربيتهم من الإفراط في المحبة. إن الذين يفرطون في الرأفة بأطفالهم ، ويدفعونهم بسلوكهم الأهوج هذا إلى الإعجاب بأنفسهم ، ملومون من قبل الأئمة عليهم السلام . فعن الإمام الباقر عليه السلام انه قال : « شرّ الآباء من دَعاه البرّ الى الإفراط ، وشرّ الأبناء من دَعاه التقصيرُ إلى العُقوق » (3).

إن العواقب السيئة التي يلاقيها الأطفال نتيجة الإفراط في المحبة تجاههم مهمة

ص: 170

1- ما وفرزندان ما ص 39.

2- روح بشر ص 131.

3- تاريخ يعقوبي ج3 ص53.

جداً وخطرة. ولهذا السبب يعرف الإمام عليه السلام الآباء الذين يفرطون في التظاهر بالحب والحنان لأطفالهم بأنهم شر الآباء.

إن الطفل مفطور على حب الحرية ... إنه يرغب في أن يعمل ما يريد ، ويمدّ يده الى ما يشاء ، ألا يمتنع أحد من تنفيذ ما يطلب ، ولكن ذلك غير صالح للطفل ، لأنه لا يميز الحسن من القبيح ، ولا يفهم الخير من الشر (1). إن المربي الصالح هو الذي يسير وفق مقتضيات العقل في الإستجابة لمطالب الطفل ، فيعمل على تحقيق مصلحة الطفل مع العطف والحنان عليه ، ويمنعه متى كان طلبه يخالف صالحه ، بكل صرامة ، متبعاً في ذلك مختلف الوسائل ، من النظرة الشراء ، والإهمال الموقت وما شاكل ذلك.

العواطف النافعة :

هناك بعض الآباء والامهات الجهلاء ليس لهم أدنى اهتمام بخير الطفل وصلاحه. هؤلاء الوالهون المفرطون في الحب والحنان ، الذين أعمى الحب عيونهم ، وأصم آذانهم ... هدفهم الوحيد هو إرضاء الطفل وتنفيذ رغباته ، فيعطون المجال له بدون حساب ، ويجعلون أنفسهم طائعين فعلاً وممثلين لأوامر الطفل الصغير ، منقادين له تماماً.

كل يوم يزداد من عمر الطفل يزداد إعجابه نفسه ، وتتحكم في نفسه جذور الاستبداد والتعنت بالرأي ، ويعود عالة على المجتمع.

هؤلاء الآباء والامهات ، وإن تظاهر بمظهر الحب والحنان فإنهم في الواقع

ص: 171

1- وبصورة عامة يجب أن نفهم الطفل بأن الحرية المطلقة ليست إلا الهمجية ، والفوضى ، والحيوانية. ولا يتسنى ذلك في الأدوار الأولى التي لا يفهم فيها الطفل كثيراً من الفكر العلمية والآراء التي يجب أن يتبناها الفرد الصالح في حياته ... وعليه فيجب إفهامه بأن هناك حواجز وموانع تقف في سبيل تنفيذ الفرد رغباته بصورة مطلقة ، وذلك بالوقوف أمام الأعمال العابثة والضارة التي تصدر منه. عندئذ يفهم الطفل جيداً أنه يجب أن يتقيّد بالأوامر والأعراف والتقاليد النافعة ، وأن لا يتعدها. أما إذا فسح له المجال في أن يعمل ما يريد ، ويذهب أين شاء ، فلذلك يؤسس ركيزة الأيديولوجية الفردية الاستبدادية التي ترى أن الفرد يستطيع أن يحقق لنفسه ما يريد وإن أضر ذلك بمصالح الجماعة ، وأخلّ بالمثل التي يتبناها بنو جنسه.

يحملون معاول لهدم اساس سعادة أطفالهم ، ويقودونهم بعواطفهم التافهة ومحبتهم غير المرضية الى طريق التعاسة ، والمستقبل المؤلم.

إن الأطفال الذين يتربون على هذا الأسلوب المذموم ، ينشأون معجبين بأنفسهم. وهذا الخلق السيئ من الآفات الروحية الخطيرة ، بحيث يترك آثاراً وخيمة على الجسم والروح ، وتظهر نتائج السيئة من خلال أقوال المصاب وأفعاله بكل وضوح.

وبهذا الصدد يقول الإمام علي عليه السلام : « شرُّ الأمور الرضا عن النفس » (1).

الطفل المتعنت :

إن الطفل الذي كان يحكم لسنين طوال في محيط أسرته باستبداد ، وكان أبواه مطيعين له بلا قيد أو شرط ، ينشأ - بالطبع - معجباً بنفسه ، ويتوقع من جميع الرجال والنساء أن يطيعوه كما يطيعه أبواه ، وينفذوا أوامره بدون تردد. وبديهي أن شخصاً كهذا يتنفر منه الناس ويتعدون عنه. وينظرون إليه يعين السخط والاحتقار. وهذا من الآثار السيئة للرضا عن النفس.

1 - قال الإمام الهادي عليه السلام : « من رضي عن نفسه كثر الساخطون عليه » (2).

2 - وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « إياك أن ترضى عن نفسك فيكثر الساخط عليك » (3).

3 - وعنه عليه السلام أيضاً : « من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه » (4).

العجب بالنفس :

إن صاحب العقل السليم والنظر الثاقب يعرف حدوده ولا يتجاوزها وإعجاب الرجل بنفسه دليل على عدم نضوج عقله. إنه لو كان يملك عقلاً حراً لم يكن مصاباً

ص: 172

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 446.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 17 ص 215.

3- غرر الحكم ودرر الكلم ص 147.

4- نفس المصدر ص 424.

بهذا الداء ، وجاعلاً نفسه في منزلة أرقى مما هي عليه ، فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال : « رضاء العبد عن نفسه بُرهان سخافة عقله » (1).

إن الأطفال الذين نشأوا راضين عن أنفسهم على أثر الإفراط في المحبة تجاههم لا يتمكنون من السير مع قوانين الحياة ، والتغلب على مشاكلها هؤلاء مصابون حتى نهاية عمرهم بهذا الداء ويتجرعون عوارضه الوبيلة.

« لا شك أن الطفل يحتاج حاجة ماسة الى المحبة ، ولكن لا تلك المحبة المفرطة التي تحرك رغباته ومشتهياته فإن هناك قوانين لا تقبل التغيير تؤثر دائماً - في كل عصر من العصور - في حياة المجتمعات. ومن تلك القوانين : أن يقرر كل فرد مستقبله بيده في ظل صبره وتحمله واستقامته. والطفل المعجب بنفسه والفساد أعجز من أن يقوم بهذا الواجب. إنه يعيش في عالم خيالي غير متوافق ، ويظن أبداً أن الإبتسامة البسيطة أو الانكماش الضئيلة ستحرك عواطف الجميع وشفقتهم ».

« وبناء على ما يقول الدكتور أدلر في كتابه (تربية الأطفال) فإن الأطفال الذين نشأوا هذه النشأة يريدون أن يحبهم الجميع من طبيعتهم. ولوقلنا : ان هؤلاء الأطفال سيظلون مدى العمر مؤمنين بهذه الفكرة لم نقل جزافاً. والحقيقة أننا نجد أن هؤلاء الأطفال يبقون على إعجابهم بأنفسهم حتى عندما يبلغون سن الشيخوخة ... هؤلاء رجال قد يصلون بفضل مواهبهم وطاقاتهم إلى النجاح والموفقية ، وإذا بهم حينئذ يفقدون كل إنجازاتهم بسبب أفعالهم الركيكة ».

« ألا- تصدقون أن الإنسان قد يواجه مراراً نساء في الستين من أعمارهن لا يزلن يعتقدن بأن خير أسلوب للحصول على ما يرغبن إنما هو التظاهر بالاستياء ، والتزمت ، والإعراض؟! » (2).

ص: 173

1- نهج البلاغة ، شرح الفيض الأصفهاني ص 1081.

2- ما وفرزندان ما ص 40.

لعل كثير من الآباء والأمهات لا يدركون بعد خطر الإفراط في المحبة بالنسبة الى الطفل إدراكاً تاماً ، ولا يفهمون أنهم كيف يرتكبون ظلماً كبيراً بأعمال ظاهرها الرأفة والحنان. إنهم يدفعون الطفل إلى الإعجاب بنفسه فينشأ تعساً في جميع أدوار حياته ومستقبله من جهة ، ومن جهة أخرى يجعلون أنفسهم في عداد (شر الآباء) على حد تعبير الإمام الباقر عليه السلام .

ولمزيد اتضاح هذا الموضوع التربوي الحساس للمستمعين الكرام ، ووقوف اولياء الأطفال على تكاليفهم الشرعية والعلمية ، فسنبههم بحثنا في هذه المحاضرة بهذا الموضوع ، وبيان النتائج الوخيمة للإفراط في المحبة ، والأمل وطيد بأن يستمع السادة المحترمون الى هذه المحاضرة بدقة ، وأن يضعوها نصب اعينهم في التطبيق ، فيحفظوا الأطفال من التربية السيئة.

إن أول نقطة يجب أن نشيرها في بحثنا هذا هو الجواب على السؤال التالي : متى يجب أن يأخذ الوالدان بالحد الوسط من المحبة تجاه الطفل كيلا ينشأ معجباً بنفسه وأنانياً؟

الكل يعلم أن الغذاء المادي للطفل يبدأ من يوم ولادته. الطفل إنسان حي ، وكل موجود حي يحتاج إلى الغذاء للمحافظة على حياته. ولكن كثيراً من الآباء والأمهات لا يعلمون متى يبدأ التطبيع على العادات الحسنة أو القبيحة ، التي تؤدي الى السلوك المفضل أو المستهجن ، ومتى يؤثر الإفراط في المحبة الباعث الى نشأة الطفل أنانياً.

إقتباس العادات :

يتصور البعض أن المولود الجديد قطعة من اللحم الحي ، يحتاج الى الغذاء والنوم فقط. ويجب أن يمر عام كامل على حياته - على أقل تقدير - حتى تستيقظ المشاعر عنده تدريجياً ، وعند ذاك يتمكن الآباء والأمهات من الابتداء بتنمية العادات الحسنة في الطفل. وبعبارة أخرى : يظن هؤلاء أن الغذاء المادي للطفل يبدأ من يومه الأول ، أما حاجته الى الغذاء الروحي فإنها تبدأ بعدم عام من ولادته على الأقل.

إن هذا التصور خطأ فاحش. فإن الطفل يستجيب في الأسابيع الأولى من حياته

بفضل غرائزه واستعداداته للعادات والمؤثرات ، بحيث لو كانت سيئة فإنها تمنع من الانطباع على العادات الحسنة.

« يملك الطفل المتولد حديثاً غرائز وانطباعات ، ولكنه يفقد العادات. ان جميع العادات التي حصل عليها في الرحم لا أثر لها في أحواله بعد الولادة. ففي بعض الأحيان يجب تعليم المولود كيفية التنفس. إن الغريزة الوحيدة التي يحملها حينذاك ، والتي تكون قد نمت نمواً حسناً هي غريزة مص الثدي والارتضاع. وعندما يشتغل بالارتضاع يأنس بالمحيط الجديد ، وتمرّ عليه سائر أوقات يقظته في حالة عدم شعور مبهم ، وإنما يتخلص من هذه الحالة في ساعات النوم التي تستغرق أكثر ساعات اليوم... ثم تتغير جميع هذه الأوضاع من بعد أسبوعين ، فيحصل الطفل من تجاربه التي تتكرر عليه خلال هذه المدة بصورة منتظمة على انطباعات يتذكرها حينذاك. ولعل تذكره ذاك يكون أكمل وأكثر من كل الأزمنة اللاحقة ، ويتنفر من تغيير كل ما اعتاد عليه وأنس به ».

« ان السرعة التي يسير بها الطفل في اكتساب العادات عجيبة. وسيكون حصوله على كل عادة سيئة في أولى أدوار الطفولة سداً أمام اكتسابه العادات الحسنة. ولهذا يعتبر التعود على العادات في أوائل أيامه مهماً للغاية. إذ لو كانت العادات الأولية حسنة فسوف نتخلص في المستقبل من الترغيبات وبواعث التشجيع والإطراء التي لا تنتهي ، هذا مضافاً الى أنه يبقى في جميع أدوار حياته المقبلة متطبعاً على الغرائز المكتسبة في أوائلها وستظل مهيمنة عليه. ولا يمكن للعادات التي اكتسبها فيما بعد المنافسة لها الوصول الى تلك الدرجة من الهيمنة والقوة. ولهذا يجب أن يُراعى موضوع العادات الأولية رعاية تامة. إن الأطفال الرضع محتالون أكثر مما يتصوره الأشخاص البالغون والكبار ، لأنهم عندما يرون أن نتائج البكاء أنفع لهم فإنهم بلا شك يستعملون هذه الطريقة ، وعندما يرون بعد ذلك أن البكاء والعبوس يسبب النفور والاستياء منهم بدلاً من

الحنان عليهم يتعجبون وتكون الدنيا في أنظارهم تافهة لا فائدة فيها».

« إذن فالوقت المناسب والصحيح الذي يجب فيه البدء بالتربية إنما هو لحظة الولادة. لأنه هذا الوقت هو الذي يمكن البدء فيه من دون وجود احتمال لليأس والفشل. أما لو شرع في التربية بعد هذا الحين فإننا سوف نضطر الى مقاومة العادات المنحرفة التي اكتسبها. وفي النتيجة فإن من يحاول القيام بالمهمة التربوية بعد هذه الفترة ، يقع مورداً للانتقاد ويلاقيه الفشل حتماً » (1).

أساس السلوك :

إن العادات المرضية أو غير المرضية تمت جذورها في نفس الطفل منذ الأسابيع الأولى. فالصفات التي يعتاد عليها في دور الطفولة تنفذ الى اعماق روحه ويصعب تغييرها بعد ذلك.

وكما أن الآباء والأمهات الواعين يراقبون غذاء الطفل منذ الأسابيع الأولى. فالصفات التي يعتاد عليها في دور الطفولة تنفذ الى اعماق روحه ويصعب تغييرها بعد ذلك.

والآن أتصور أنه قد اتضح ما أردنا الإجابة عليه من السؤال الذي أثارناه في بداية البحث ، وثبت لزوم القيام بتحديد المحبة تجاه الطفل ، والمنع من نشأته أنانياً ومعجباً بنفسه منذ الأسابيع الأولى من حياته.

إن الطفل الذي مرّ عام كامل على حياته ، يكون قد ترك وراء ظهره مراحل تربوية عديدة. فإذا نشأ الطفل عامّة ذاك نتيجة لمحبة والديه المفرطة وغير المناسبة ، ومعجباً بنفسه ، فإن اصلاحه صعب جداً.

« والخلاصة : ان الاسس والركائز الخلقية للطفل تصب في الأشهر المبكرة من عمره. وبعد مضي سنة واحدة - حسب كيفية تربية الوالدين - فإما أن يكون قد أوجداً إنساناً له الكفاءة والاستعداد

ص: 176

لتقبل النظام والإنضباط ، أو يكون فاقداً لهذا الإحساس بالمرّة».

« لا شك أنه سيأتي زمان لا نقدر فيه على القيام بأي عمل من شأنه إصلاح تربية الطفل وتعديل سلوكه لأننا نسينا واجبنا تجاه التربية الأولية للطفل ... التربية التي فكرنا فيها أقل من تفكيرنا في سائر الأعمال الاعتيادية » (1).

كيف نوازن في المحبة؟

الموضوع الثاني الذي يلزم أن يتضح من هذا البحث هو كيفية التوازن والتعديل في المحبة والحنان ، ولا ريب أن الأطفال كما لهم الرغبة في الغذاء والهواء وسائر الحاجات الطبيعية كذلك لهم رغبة فطرية نحو الحنان والمحبة ، فيلزم الاستجابة لهذه الرغبة الطبيعية بدورها حسب أسلوب صحيح تشبع تلك الرغبة ، وترضي الطفل ، فيربي حسب السنة الخلقية والفطرية.

إن الواجب الدقيق والثقيل على الأبوين في تحسين تربية الطفل هو أن يعلما متى معاملته بالحنان والمحبة ، ومعرفة المقدار الذي يجب القيام به حينئذ ، لأن نشوء الطفل أنانياً ومعجباً بنفسه حصيلة أحد أمرين : المحبة حيث لا داعي لها ، أو الإكثار منها مع وجود المقتضي إليها.

ولبيان الأخطاء التربوية ، يمكن التمثيل بعشرات الأمثلة للعواطف التي يبرزها بعض الآباء والأمهات الجاهلين من غير داع لها ، نذكر ثلاثة نماذج منها عسى أن ينتبه المستمعون الكرام الى غيرها بفضل ذكائهم الفطري.

العناية بالطفل في مرضه :

1 - من الموارد التي يتجنب الآباء والأمهات الغافلون الى الأطفال بصورة مفرطة ، وربما يكون ذلك في غير محله ، إذ قد ينشأ الطفل نتيجة لذلك معجباً بنفسه ... هو عندما يمرض الطفل ويكون مستلقياً على فراش الألم.

إن الوالدين العاقلين يستعدان في هذه المناسبة للعناية به وعلاجه ، فيأتیان

ص: 177

1- ما وفرزندان ما ص 39.

بالطبيب ويحضران له ما يناسبه من غذاء ودواء ، ويسجلان درجة حرارة الطفل في ساعات الليل والنهار. يكون الأب والأم أمام عيني الطفل الفاحصتين كمرضين يقومان بواجبهما ، ويوحيان الى الطفل ان حالتنا وحالتك طبيعية إلا أنه حدث أن تمرضت وحرمت لذلك من الركض واللعب وأكل الطعام العادي. إننا ننفذ أوامر الطبيب تجاهك ، ويجب أن نطيعه في استعمال الدواء وزرق الابرة ، وستبرأ طبعاً بعد أيام قليلة. وعلى فرض أن الأبوين متأثران في الواقع لمرض الطفل ، فإنهما يظهران أمامه الوضع الاعتيادي ، ولا يسببان إحساس الطفل بتشوشهما واضطرابهما.

أما بعض الآباء والأمهات فإنهم يضطرون ويرتكبون ... ويظهرون اضطرابهم الشديد هذا للطفل ، ويجلسون عنده ناظرين إليه وآثار التألم بادية عليهم ، يكون ، يمسحون بأيديهم على رأسه ويتكلمون معه بتوجع واضطراب ، وربما يقبلون وجهه المحموم ، ويحنون عليه قدر المستطاع ، ويعتبرون مرضه حادثاً جليلاً ، ويفهمونه - عملياً - أنهم جميعاً فاقدون راحتهم واطمئنانهم ، فيترك الأب عمله ، وتنسى الأم كل شيء ، وتضطرب الأسرة كلها لمرضه.

هذه الأعمال الفارغة التافهة ليس لها أقل تأثير في معالجة المريض ، لكنها من الجانب الآخر تفسد أخلاق الطفل وتمنحه الكثير من الأنانية ، فيعتقد الطفل بذلك أن له قيمة كبيرة ويقول في نفسه : أنا صاحب هذه الأهمية والمكانة ، أنا الذي يسبب مرضي اضطراب العائلة وارتباكها ، ويجلب الأنظار نحوي.

إن مرض الطفل يزول ، ولكن تبقى هذه النظرة الخاطئة في أعماق فكره ، فيتوقع دائماً من أبويه وسائر الناس أن يحترموه لدرجة كبيرة ، ويعجبه حين أبتلي بصداق أن يضطرب له جميع الناس فضلاً عن أفراد أسرته.

تمارض الطفل :

وقد يتمارض كي يلتذ من حنان أبويه ويسكن الى محبتهم له. وحين يكبر هذا الطفل على هذا التصور الخاطيء ويرى عدم اعتناء الناس به ، وعدم اضطراب أحد لمرضه. فمن الواضح أنه يستصغر نفسه ويحس بالحقارة في ضميره الباطن.

وبهذا الصدد أنقل لكم نصاً من كتاب لعالم نفسي شهير هو (ديل كارنيجي) :

« ذكرت لي القصاصة الشهيرة (ماري روبرتس راين هارت) قصة سيدة شابة سليمة تمارضت حتى تجلب اهتمام العائلة نحوها ، وثبتت مكائنها ، وكلما ازداد عمرها علمت بضعف احتمال تزوجها ، فاضلمت الدنيا في عينيها ، ولم يكن لها ما يسعدها في الحياة ».

« كانت السيدة الكاتبة تقول : تمرضت هذه السيدة فكانت أمها العجوز تداريها طيلة عشرة أعوام ، وتحمل أواني طعامها كل يوم مراراً من السلام إليها. إلى أن توفيت أمها فأخذت المريضة بالنياحة مدة أسابيع ، وبما أنه لم يستجب لندائها أحد ، نهضت وارتدت ملابسها ، وجعلت تستمر في الحياة بصورة اعتيادية » (1).

إن الإعجاب بالنفس أحد العوامل المهمة للشقاء والشعور بالحقارة في جميع ادوار الحياة. والعطف الفارغ لأولياء الأطفال - الذي هو ظلم عظيم لهم - هو سبب نشوء هذه الصفة الذميمة.

أذكركم جميعاً - أيها المستمعون الكرام - أن تكفوا من المحبة الزائدة التي لا داعي لها نحو أطفالكم ، ولا تكونوا سبباً لشقائهم ، وتذكروا دائماً كلمة الإمام الباقر عليه السلام : « شرّ الآباء من دعاه البر الى الإفراط ».

اللمحات الحاسمة :

2 - طفل حديث عهد بالحركة ، يلعب بمحضر والديه في الغرفة ، ويده كرة صغيرة ، يرميها كذلك ، ويكرر هذا العمل .. في إحدى المرات تصل الكرة الى جانب الجدار ويأتي الطفل منحنياً ليرفعها فترتطم جبهته بالجدار ... إن هذه الصدفة تعتبر للطفل جديدة ولا يعلم ما ينبغي أن يكون موقفه منها. هل يبكي أو يضحك أو يسكت؟! فهو متحير ... ينظر إلى أبيه كي يطلع على مدى تأثير هذه الصدفة فيهم ، وعند ذاك يظهر ردّ الفعل المناسب تجاهها. ليس للطفل رأي في الموضوع ، بل إنه

ص: 179

1- اثن دوست ي. وقد ترجم الكتاب الى العربية تحت عنوان : (كيف نكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس).

يفعل ما فعله والداه ، فإن ضحكاً يضحك ، وإن تألماً يبكي ، وإن سكناً يسكت ويستمر في لعبه.

إن هذه اللحظة ولحظات آخر مثلها شديدة التأثير في الطفل من الوجهة التربوية ، فإن سلوك الوالدين السيء تجاه مواقف كهذا يترك أثراً سيئاً في نفسية الطفل.

إن الآباء والأمهات الواعين لا ينظرون في هذه الأحيان الطفل أصلاً ، ولا يعتنون بتوقعه العطف والحنان منهما ، ولا يعتبرون هذه الصدفة شيئاً ، وبذلك كله يفهمون الطفل عملياً أن الارتطام بالجدار ، والسقوط على الأرض ، وما يشبه ذلك حوادث اعتيادية في حياة الإنسان.

أما الآباء والأمهات الواعين لا يظهرون أي رد فعل للحادثة ، ولكنهم يستفيدون من تلك الفرصة فينصحون الطفل قائلين له : عندما تقترب من الجدار أو العمود ، تأخر قليلاً حتى لا ترتطم جبهتك بالحائط عندما تنحني.

أما الآباء والأمهات الغافلون فإنهم يظهرون في مثل هذه الحوادث حناناً مفرطاً ، فيضمون الطفل الى صدورهم ويقبلونه ، ويمسحون بأيديهم على جبهته أو ما تألم من أعضائه ، ويظهرون التأثر والتألم لما حدث للطفل وربما يضربون الأرض أو الجدار ترضيه للطفل ، فيبدي رد الفعل أمام كثرة ما يلاقيه من حب وحنان ، ويرفع صوته بالبكاء والعويل ، ويسكب الدموع ، ويرى نفسه أهلاً للحنان بالنسبة لما حدث له ... وعندما تتكرر محبة الوالدين الفارغة في حوادث آخر مشابهة لهذه الحادثة ، تتولد جذور الصفة الرذيلة (الإعجاب بالنفس) في ضمير الطفل تدريجياً ، ويكبر الطفل على الدلّ ، ويتوقع الحنان والمحبة لكل حدث حقير يقابله.

ينشأ الطفل مع هذا التوقع الخاطيء ، ويترك مرحلة الطفولة منتفلاً الى المراحل الأخرى من حياته ، ويقابل في المجتمع آلاماً كبيرة فلا يتحجب اليه أحد خلافاً لما كن يتوقعه ... حينذاك يتألم ، ويحس في نفسه بالدناءة ويصاب بعقدة الحقارة ، فيقضي حياته كلها بالتعاسة والشقاء.

إن محبة الوالدين التافهة هي التي أدت الى هذا المصير ... فشرّ الآباء من دعاه البر الى الإفراط.

الميل المضرة :

3 - هناك تضاد طبيعي بين متطلبات نفس كل انسان من جهة ، ومصالحه الفردية والإجتماعية من جهة اخرى. ويجب كل فرد - بدافع من رغباته الفردية وأهوائه الشخصية - أن يتحرر من كل قيد ، وألّا يقف مانع في طريق آماله ، فيقول ما يشاء ، ويأكل ما يرغب ، ويحاول إرضاء شهواته كيفما كان. ولكن مصلحته الخاصة ومصلحة المجتمع الذي سيعيش فيه تستوجب أن يتخلى كل فرد عن آماله الضارة وغير المشروعة وينصرف عن إرضائها ... وهذا أهم شرط في الحياة الإجتماعية لجميع شعوب العالم.

يمكن المجتمع البشري الوصول الى هذا الهدف المقدس والحياة السعيدة باتباع أصليين مهمين : -

الأول : أن يتعرف كل فرد على حسنات الحياة وسيئاتها.

والثاني : أن يسيطر كل فرد على نفسه ويبعدها عن المساوىء.

وهذا هو هدف القادة الإلهيين والغرض المهم الذي يتبناه رجال التربية العظماء. فإن الآلام والجرائم تقل بنسبة تقدم التربية الصحيحة في المجتمع وحكومة الأدب على الناس. وبالعكس من ذلك كلما أهمل الناس القيام بالتربية ازداد حجم المساوىء فيه.

وهذا هو هدف القادة الإلهيين والغرض المهم الذي يتبناه رجال التربية العظماء. فإن الآلام والجرائم تقل بنسبة تقدم التربية الصحيحة في المجتمع وحكومة الأدب على الناس. وبالعكس من ذلك كلما أهمل الناس القيام بالتربية ازداد حجم المساوىء فيه.

عن علي عليه السلام : « من كُلف بالأدب قلت مساويه » (1).

وفي حديث آخر : « من قلّ أدبه كثرت مساويه » (2).

ص: 181

1- غرر الحكم ودرر الكلم للامدي ص 645.

2- المصدر السابق 635.

وبالرغم من أن البشر في جميع أدوار حياته يتقبل التربية ، ولكن استعداداه في دور الطفولة لذلك أكثر. إن جسم الطفل وروحه مستعدان لكل تربية صالحة أو فاسدة ، وكل ما يتعلمه في دور الطفولة ينفذ إلى أعماق روحه ، ومن السهولة بمكان ضمان استمرار ذلك مدى العمر :

« تتوقف قيمة الإنسان على قدرته على مواجهة المواقف المعاكسة بسرعة ومن غير بذل جهد. ويمكن بلوغ مثل هذه اليقظة بإنشاء أكثر ما يستطيع من أنواع الانعكاسات وردود الفعل الغريزية ..

وكلما كان الفرد صغيراً ، سهل توطيد الانعكاسات. ففي استطاعة الطفل أن يكسب كنوزاً ضخمة من المعلومات غير الواعية .. كما أنه أسهل تدريباً ، بل أنه لا يقارن في ذلك حتى بكلب الحراسة الذكي .. كما أنه أسهل تدريباً ، بل أنه لا يقارن في ذلك حتى بكلب الحراسة الذكي .. كما أنه يستطيع أن يتعلم كيف يركض من غير أن يتعب ، وكيف يسقط كالقط ، وكيف يتسلق ويسبح ويقف ويمشي بانسجام ، ويلاحظ الأشياء بدقة ، ويستيقظ بسرعة ، ويتكلم عدة لغات ، ويطبع ويهاجم ويدافع عن نفسه ، ويستعمل يديه بتناسق في تأدية مختلف أنواع العمل .. الخ.

وتخلق العادات الأدبية فيه بطريقة مماثلة .. والكلاب نفسها تتعلم ألا تسرق .. فالأمانة والإخلاص والشجاعة تنمو بوساطة العمليات نفسها التي تستخدم في تكوين الانعكاسات ، أي بغير ما حاجة إلى مناقشة أو شرح ... وصفوة القول : يحب أن يكون الأطفال « (1).

إن المدرسة الأولى لتربية الطفل هي حجر الوالدين. فالوالدين مكلفان بتعليم الطفل حسب مقتضيات فهمه واستعداداه بالمحاسن وترغيبه في العمل بها ، وإرشاده إلى المساوىء ثم تحذيره من ارتكابها. وبلوغ هذا الهدف لا يتيسر مع المحبة

ص: 182

المفرطة التافهة. إن الطفل الذي يجد نفسه حراً من جميع الجهات ، ويرتكب كل قبيح وحسن ، ثم لا يرى من أبويه في قبال سلوكه إلا المحبة والحنان ينشأ مدلاً معجبا بنفسه. إنه لا يكتفي بعدم الاجتناب عن القبيح ، بل يتوقع استحسان الناس وتقديرهم لأعماله السيئة ، وذلك لأن والديه عاملاه بهذه المعاملة.

بين الخوف والرجاء :

يجب أن يعامل الطفل في البيت بين الخوف والرجاء دائماً ، يرجو من أبويه المحبة ويخاف منهما الغضب والشدة. يجب أن يعتقد الطفل أنه ليس حراً في ارتكاب الأعمال القبيحة وسيؤاخذ عليها. يجب أن تتوفر في الأسرة : المحبة والشدة والتغافل والمحاسبة ، والترغيب والإهمال ... كل في محله ، وعلى الآباء والأمهات الاتصاف بهذه الصفات في كل مورد مناسب حتى ينشأ الطفل وفق تربية صحيحة .. في محيط كهذا يحس الطفل بالمسؤولية ولا ينشأ معجباً بنفسه أبداً.

« يلزم القيام بكل ما هو ضروري لصحة الطفل وحفظ سلامته. فحينما يشكو الطفل من الزكام فلا بد من مراقبة مزاجه وحفظه في مكان دافئ بعيداً عن البرد والرطوبة .. لكنه لو بكى بدون علة محسوسة يلزم تركه على حاله يصيح أنى يشاء. فلو عومل بغير ذلك نشأ بصورة حاكم مستبد ، اما عندما يكون الإهتمام به ضرورياً فلا بد أن يكون ذلك بدون إفراط ، بل يجب الاقتصار على قدر الضرورة. وهكذا لا يفرط في العطف تجاهه ، ولا يصح مطلقاً أن يؤخذ الطفل في مرحلة من مراحل حياته كآلة لهو ، بل لا بد أن ننظر إليه من أول أمره نظرة اهتمام وجدّ ، ونظرة داعية الى أن هذا الطفل سيبلغ في غد ويصبح عضواً بارزاً في المجتمع ».

« لا-ريب أنه لا-يمكن للطفل أن يستوعب جميع عادات الأفراد البالغين ولكن علينا الابتعاد عما يقف حاجزاً في طريق اكتسابه هذه العادات ، وبصرف النظر عن ذلك يجب أن لا نوجد في الطفل الإحساس بأهمية نفسه ، الإحساس الذي ستؤلمه التجارب المستقبلية ، ولا يطابق الواقع في حال من الأحوال ... إن الطفل لو

لم يراقب بدقة فإنه سيشعر بذلك ويحكم بأهمية نفسه الى درجة إحساس أبويه بذلك ، وسوف لا ينظر إليه المجتمع في الحياة المقبلة نظرة الإستحسان والتقدير ، وستؤدي عاداته التي سببت أنانيته بحيث يرى نفسه ذا مكانة عظيمة في الأوساط إلى اليأس والحرمان « (1).

لقد أدت محبة الآباء والأمهات الجاهلين حيث لا داعي لها ، وتغافلهم حيث لا مبرر له إلى نشأة بعض الأطفال مضافاً الى كونهم عديمي الحياء ، مسيئين ، معجبين بأنفسهم ، أنانيين بحيث يبعث ذكر أعمالهم على التأثر الشديد والخجل. إننا نرى أطفالاً يبلغ بهم الإعجاب بالنفس وسوء التربية الى حدّ الفحش في القول وإيذاء خادم البيت ، وتمزيق ملابسه ، ورميه بالعصا والحجارة ، وقد يؤدي ذلك الى كسر الرأس والأضرار البدنية. إن الآباء والأمهات الغافلين يلتذون من الأفعال السيئة لأطفالهم ، ويضحكون في وجوههم بدلاً من مؤاخذاتهم وتوبيخهم ، ويضحكتهم الجنونية يشجعون أطفالهم على تلك الأعمال البذيئة ويسوقونهم نحو الشقاء.

قال الإمام الباقر عليه السلام : « شرّ الآباء من عداه البرّ الى الإفراط ».

توقع المدح :

إن الأطفال الذين نشأوا معجبين بأنفسهم نتيجة المحبة المفرطة تجاههم يتوقعون من والديهم وسائر الناس توقعات فارغة. إنهم يحبون أن تقع أفعالهم وأقوالهم دائماً موقع الاستحسان والاحترام في الأسرة والمجتمع لأنهم نشأوا على ذلك منذ الطفولة. إنهم يريدون أن يمجدهم الناس ويقدرهم لأعمال حسنة لم يفعلوها ، أو أفعال سيئة قاموا بها. ان المجتمع لا يعتني لهذه الأمانى التي لا مبرر لها ، ولا يرى هذه التوقعات الجنونية قابلة للتنفيذ.

قال علي عليه السلام : « طلبُ الثناء لغير استحقاقٍ حُرْقٌ » (2).

إن الانكسار الذي يصاب به المعجبون بأنفسهم عندما يجدون عدم اعتناء الناس

ص: 184

1- درر تربيت ص 56.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 470.

ونظرتهم السيئة اليهم مرهق جداً... إنه يؤدي بهم إلى الدناءة والإحساس بالحقارة ، ويتألمون في باطنهم من تحقير الناس بشدة ، وبالتالي إما أن يصابوا بداء روحي - والذي قد ينتهي الى الجنون - وإما أن يقدموا على الجرائم والأعمال الشنيعة.

لقد توعّد القرآن الكريم هؤلاء المعجبين بأنفسهم بالعذاب بصراحة ، حيث قال : «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُجِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (1).

وقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الصدد : « رضاء العبد عن نفسه مقرون بسخط ربه » (2).

الحذر من العجب بالنفس :

لقد كان أولياء الإسلام عليهم السلام يجتنبون من كل عمل تشم منه رائحة الإعجاب بالنفس ، وينفرون من أولئك الأشخاص الذين كانوا يقومون بها. وبالمناسبة أذكر لكم حديثاً من سيرة الإمام السجاد عليه السلام .

« عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما حضر محمد بن أسامة الموت دخلت عليه بنو هاشم فقال لهم : قد عرفتم قرابتي ومنزلتي منكم وعليّ دين فأحب أن تضمنوه عني. فقال علي بن الحسين عليه السلام : أما والله ثلث دينك عليّ ، ثم سكت وسكتوا. فقال علي بن الحسين عليه السلام عليّ دينك كله. ثم قال علي بن الحسين : أما إنه لم يمنعني أن أضمنه أولاً إلا كراهية أن يقولوا : سبقنا » (3).

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام قال : « نظر أبي الى رجل ومعه

أبنة يمشي والإبن متكئ على ذراع الأب. قال : فما كلمه أبي مقتاً له حتى فارق الدنيا » (4).

ص: 185

1- سورة آل عمران ، الآية: 188.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 424.

3- روضة الكافي لثقة الإسلام الكليني ص 332.

4- مجموعة ورام ج2 ص 208.

تظهر سيرة الأطفال الذين نشأوا معجبين بأنفسهم في أوقات مختلفة وبأشكال متنوعة. هؤلاء الأطفال يؤذون آباءهم وأمهاتهم بأعمالهم الهوجاء ، ويخلقون لهم مشاكل كبيرة.

« في الأسرة التي يكون فيها طفل مدلل ، عندما يولد الطفل الثاني تتوجه ضربة قاصمة نحو الطفل الأول الذي كان مستأثراً بحنان والديه ، لأن أسلوب تربيته كان خاطئاً ، لأنهم كانوا قد عودوه حتى اليوم الماضي على أن يكون المتنفذ الفعّال في البيت وقرّة عين والديه ، وعلى أن يتحملوا غنجه ودلّه بكل رحابة صدر ، ولكنه بتولد الطفل الثاني يجد أمامه رقيباً خطراً ليس مزاحماً له في كل شيء فحسب ، بل انه يحاول عزله عن منصبه وتنحيته عن السلطة التي كان يمتاز بها طيلة الأعوام السابقة. ولذلك فإن الطفل الأول لا يملك أي ردّ فعل لهذه الحالة ، ولا يعرف ماذا ينبغي له أن يقوم به ... فنراه يبدأ بإظهار مشاعر الفوضى والشغب ، وقد يعتمد التبول في فراشه ليلاً بغية جلب أنظار والديه نحوه ، أو يأخذ بالصياح والعويل من دون سبب ، أو يتكلم بلكنة وتمتمة ... وما شاكل ذلك من الأفعال المثيرة » (1).

« ينشأ الطفل الأكبر في بعض الأسر مدللاً ، تبعث حركاته وسكناته ، ابتسامته وكلماته ، السرور والارتياح في قلب والديه الشابين ويتلقيان كل ذلك على أنها وقائع غير مترقبة ، ذات تأثير خاص ، ويجب أن تعتبر نموذجاً وقدوة للأسرة. إن الطفل الذي يراقب هذه القضايا يعتقد تدريجياً بأن هذا الإهتمام كله يجب أن يختص به وحسب. فإذا ولد طفل ثان في الأسرة عند ذاك تبدأ المشكلة الكبيرة. لأن الطفل الأكبر يجب أن لا يوافق على توزيع الحب والحنان بينه وبين أخيه فقط ، بل يجب أن يوطن نفسه أيضاً لتطرق شيء من الإهمال والغفلة ونحوه ... وهذا بلا ريب امر

ص: 186

لا- يطاق بالنسبة له. إذا أصيب هؤلاء الأطفال المنكسرون بمرض فإنهم يحاولون أن يستأثروا بعناية الوالدين وعطفهما وحنانهما ، وقد يتذرعون لذلك برسم خطط وتدابير حيل من شأنها أن تؤدي الى المطلوب ... وبهذه الصورة نجد أن الطفل الذي كان عاقلاً واعتيادياً لذلك الحين ينقلب مشاغباً وفوضوياً بمجرد تولّد الطفل الثاني ، وتظهر منه آلاف الأعمال التي ظاهرها الحماسة والبلادة الى درجة أنها تبعث الوالدين على الاستغراب والحيرة « (1).

الإنهيار الخلقي :

تصل المآسي والمشاكل الاجتماعية التي يلاقيها الأطفال المدللون والمعجبون بأنفسهم قمّتها عندما يتركون دور الطفولة ويدخلون في المجتمع حقيقة ... إنهم يكشفون بأعمالهم البذيئة وسلوكهم الأهوج عن مستوى إنهيارهم الخلقي ، ويظهر عدم كفاءتهم وجدارتهم لتحمل أعباء الحياة من خلال التجارب التي يمرّون بها.

إن الشخص الذي نشأ على الدّل يواجه مشكلتين عظيمتين :

الأولى : إنه يتوقع من أفراد المجتمع رجالاً- ونساءً أن يحترموه كما كان يفعل ذلك أبواه ، وينفذوا أوامره دون تردّد فعندما يجد أنهم لا يحترمونه بل يسخرون منه لتوقعاته الفارغة هذه يتأذى كثيراً ويحس بالحقارة والضعفة في نفسه.

الثاني : إن حوادث الاخفاق والفشل التي يلاقيها - والتي كانت منشأ ظهور عقدة الحقارة فيه - جعلت منه فرداً عصائياً وسيء الأخلاق ، وأدت الى أن يفقد الصبر والثبات أمام أبسط مشكلة ، وينظر إلى الناس جميعاً نظرة ملؤها التشاؤم والاستياء ، فيبدأ بالتعرض لهم بالكلمات البذيئة والعبارات المشينة. ويظل يئن من هاتين المشكلتين طيلة عمره!

« إن الحياة في القرن العشرين تتطلب الشجاعة والصلابة قبل كل شيء ، وبغير ذلك لا يمكن مواجهة مشاكلها. إن الطفل الذي لم ينل حصة وافرة من التربية الصالحة فاقد لهاتين الصفتين ، بمعنى أن كان قد ترك حراً في طفولته ، وعُوّد على أن يُحضر له جميع ما يريد ،

ص: 187

وبصورة عامة كان ديكاتورا مطلقاً في عالم الطفولة ، وفي جو الأسرة بالخصوص ، وتكون النتيجة أن تكون الحواجز والموانع والصعوبات والمشاكل والغربة كلمات فاقدة للمعنى عند طفل كهذا ».

إن الطفل الذي أسيئت تربيته عندما يكبر ويرث ثروة ضخمة فإنه يضطر إلى الاتصال بالناس والإحتكاك بهم ، ولكنه إذ لا يرى أصحابه ومن حوله كأصحابه الذين كانوا يتساهلون معه ويحنون عليه في أيام الطفولة ، يضطر إلى أن يعتبر الجميع منحطين لا يستحقون الصداقة والمعاشرة ... وهكذا ينكد العيش على نفسه. أما إذا لم يرث ثروة ما من أبويه واضطر إلى أن يذهب وراء عمل ليسد به رمقه ، عند ذاك تبدأ المأساة بالنسبة له ويحصر بين صخرتي اليأس والشقاء ، ويدرك بسرعة أنه لفقدانه الشعور بالشجاعة والإعتماد على النفس لا يستطيع الإستمرار في حياة يكون التنازع فيها على البقاء ، ولا يقدر على الوقوف على قدميه ... حينئذ ينخرط في سلك الافراد الذي ليسو عالة على المجتمع فقط ، بل يشكلون خطراً كبيراً على الآخرين كالسرّاق والمشعوذين ، والمقامرين ، والخمارين ... الخ « (1).

إن صفة الإعجاب بالنفس أساس جميع العيوب والنقائص. فالمصابون بهذا الداء الخُلقي يتميزون بانحراف ظاهر في سلوكهم وأحاديثهم ، والذي يكشف عن ومخالفتهم ... هذا الإنحراف المثل في الأثرة والانانية وتقديم الصالح الفردي على الصالح الجماعي. لكن هؤلاء يفضحون أنفسهم بسلوكهم ويكشفون عما خفي من عيوبهم.

وفي هذا يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « بالرّضاء عن النفس تظهر السوءات والعيوب » (2).

ص: 188

1- عقده حقارت ص 14.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للأمدى ص 338.

وعنه عليه السلام أيضاً : « من رضي عن نفسه ظهرت عليه المعاييب » (1).

ضعف النفس :

من الآثار الوخيمة للإعجاب بالنفس ضعف النفس. فالأطفال المدللون الذين يجدون الإنقياد الكامل لهم من قبل آبائهم وأمهاتهم ، وينالون ما يريدون دون جهد أو تعب يتميزون بضعف كبير في نفوسهم. إنهم لا يملكون القدرة على المقاومة في قبال مشاكل الحياة ، والعقبات الكأداء التي تعترض سبيلهم ، إنهم يسخرون المعركة في الصراع القائم ، عندما يصطدمون بالحواجز والآلام ... عند ذاك يضطرون إلى الانسحاب وأمارات الفشل بادية عليهم. إن أولى مظاهر هذا الانسحاب تتمثل في التملق للآخرين ، والإنزواء ، والانتحار ، والرضوخ للذلة وأفعال تشابه ذلك.

وصمة المحكومية لا يوجد أي أثر للشجاعة والبطولة في « ما هو الدافع إلى الانتحار؟ وما هي العوامل التي تجعل الفرد يقدم على ذلك؟ إذا تجاوزنا الأشخاص المجانين ، والبلداء ، أو المدمنين على الخمرة فإن الأفراد الإعتياديين يقدمون على الانتحار على أثر الفشل والحرمان أو للخلاص من المشاكل ، والفرار من الانتحار ، بل يمكن اعتباره عملاً ناتجاً من العجز ، لأنه بواسطة هذا العمل يثبت الفرد أنه لا يستطيع مواجهة مشاكل الحياة ، ويعجز عن إيجاد مفرّ من الآلام التي تعتريه ، ولا يريد أن يتحمل عبء المسؤولية ... وهكذا نخلص إلى أن الانتحار كالأجرام مظهر من مظاهر الشعور بالانانية وعبادة الذات » (2).

درس الجلد والثبات :

يجب أن يلحق الطفل منذ اليوم الأول درس الجلد والثبات ويعود على كيفية مجابهة مشاكل الحياة برحابة صدر. يجب أن يتربى شجاعاً وصلباً ، وعلى الوالدين أن يهتموا بذلك أيما اهتمام ، فإن الإعجاب بالنفس لا ينسجم وقوة الإرادة بحال من الأحوال.

ص: 189

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 685.

2- چه ميدانيم؟ جنايت ص 24.

إن غريزة حب الأولاد حجاب يُسدل على العقل فيمنعه عن مشاهدة الحقائق ، فإذا انضم إلى ذلك الجهل والإهمال من قبل الوالدين في تطبيق الأساليب التربوية الصالحة ، أدى ذلك الى انحرافهما عن الصراط المستقيم الذي يجب عليهما أن يسلكاه في التربية ، فتجدهما يهملان الجوانب الدينية والعلمية المهمة ، ويفرطان في معاملة الطفل بالحب والحنان ، الأمر الذي يتضمن بين طياته آلاف المشاكل والصعوبات. وفي الحقيقة فإن هذا الإفراط في المحبة لا يعدو أن يكون عداءً في مظهر الحب.

إن تربية كهذه لا يرضى بها الدين ولا يوافق عليها العلم. إن الآباء والأمهات الذين يظلمون اولادهم بالافراط في المحبة تجاههم يتسببون في نشأتهم على الإعجاب بالنفس ، ولذلك فهم مسؤولون أمام الله في تعريض أطفالهم الى الانحراف والشفاء.

تذكروا دائماً حديث الإمام الباقر عليه السلام ، يحث يقول : « شرّ الآباء من دعاه البر إلى الإفراط ».

إشارة

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) (1).

يتضمن الإفراط في الحب من قبل الوالدين تجاه الطفل عوارض وخيمة له ، فإنه يؤدي الى شقائه وتعاسته طيلة أيام عمره. من هذه العوارض الوخيمة أن الطفل ينشأ معجباً بنفسه ومدللاً. وقد بحثنا عن مساوئ ذلك بالتفصيل في المحاضرة السابقة.

ومن عوارض الإفراط في المحبة تجاه الطفل أيضاً أنه ينشأ طفلياً وعالة على غيره ، ولا- يشعر بالاعتماد على النفس ، ولا- ينزع الى الاستقلال. إن خطر هذه الصفة البدئية للأطفال إن لم يكن أكبر من خطر الإعجاب بالنفس ، فليس أقل منه.

الشعور بالمسؤولية :

إن الشعور بالمسؤولية والاعتماد على النفس أحد الأركان المهمة لسعادة الفرد والمجتمع. إن الانتصارات العظيمة التي أحرزها الرجال الأفاضل في العالم ، والترقيات العلمية والاجتماعية والاقتصادية التي حصلوا عليها ، مدينة الى وعي المسؤولية الفردية من قبلهم وما يستتبع ذلك من نشاط دائم وجهد متواصل.

إن الانتصارات العلمية إنما تنال الأشخاص الذين يطمنون الى أنفسهم بالمواصلة والسهر والجد والجهد. والطالب الذي لم يدرس جيداً ، ولم يجهد نفسه بالمقدار الكافي ، ثم يدخل قاعة الإمتحان معتمداً على الآخرين ، ومستنداً على مساعدة المصحح ، وتسامح المراقب لا ينال المدارج العلمية الراقية.

ص: 191

وهكذا فالتقدم الإقتصادي يكون من حصة أولئك الذين يعتمدون على جهودهم فقط ، ولا يتوقعون المساعدة من أحد. إن من يفقد الإعتماد على النفس ويكون عالة على غيره ، ويرتزق من حصيلة غيره لا يستطيع أن ينال التقدم الإقتصادي مطلقاً.

« الاعتماد على النفس أساس كل تقدم وترقي. فإن اتصف أكثر أفراد الشعب بهذه الفضيلة كان ذلك الشعب قوياً وعظيماً ، وكان السرّ في إرتقائه وتقدمه وقدرته هو تلك الخصلة فقط. لأنه في هذه الصورة يكون عزم الإنسان قوياً ، وفي صورة الإعتماد على الآخرين ضعيفاً. إن المساعدات التي تصل الفرد من الخارج تضعف فيه روح المثابرة والعمل غالباً ، لأن الإنسان في هذه الالة لا يرى داعياً للجد والعمل خصوصاً عندما تتجاوز المساعدات الخارجية عن الحد الضروري ... حينئذ تفقد الأعصاب قوتها ، وتموت روح العزيمة والمثابرة في نفسه. إن أحسن الشرائع والقوانين ، هي تلك التي تجعل الانسان مختاراً في حياته ، وتمنحه الحرية في الاعتماد على نفسه وإدارة حياته » (1).

الإعتماد على النفس :

إن المراد من الإعتماد على النفس ، الذي شاع في الآونة الأخيرة بين الناس ، ويلوح للعين في الكتب النفسية والتربوية دائماً ، هو أن يعتمد كل فرد في ضمان سعادته المادية والمعنوية على نفسه ، ويستند الى إرادته وعمله ، فيقطع الأمل عن الجار والصديق وجميع الناس ، ولا يلتجئ الى أحد في ذلك.

الإعتماد على النفس عبارة عن أن يرى كل فرد نفسه مسؤولاً عن أعماله ، فيقوم بواجباته خير قيام ، ويعلم أن مثابرته وجهده ، ومواصلته واستمراريته ... كل ذلك أساس نجاحه وتقدمه ، وعلى العكس فإن تسامحه وكسله ، ويأسه وتهاونه أساس شقائه وتعاسته.

ليس هذا الأمر بالجديد تماماً ، حتى يتصور البعض أن عالم الغرب هو الذي

ص: 192

توصل إليه وأكد عليه أمام سكان العالم ... بل إن الشريعة الإسلامية الغراء علّمت معتنقيها هذه الحقيقة الناصعة التي هي أساس سعادة الفرد والمجتمع بكل صراحة ، وذلك قبل أربعة عشر قرناً ... وإن الانتصارات الباهرة التي أحرزها المسلمون في ذلك العصر المظلم مدينة الى هذه الثروة العظيمة - وهي الإعتماد على النفس والشعور بالمسؤولية الفردية.

المسؤولية الفردية :

إن التعليم والتربية في الإسلام يرتكزان على المسؤولية الفردية ، وأداء الواجب ، والاعتماد على النفس. لكل مسلم تكاليف معينة في شؤونه الدينية والدنيوية ، ويجب عليه لضمان سعادته أن يعتمد على نفسه ، وعلى نيته ، ويقتصر على عمله في مراعاة تطبيق تلك الوظائف.

ترتبط سعادة كل فرد في الإسلام بعقائده وأعماله ، وإن المآسي التي يلاقها الانسان تستند الى نواياه الفاسدة وأعماله المنحرفة ... كذلك المكافآت والعقوبات الدنيوية والأخروية التي يحصل عليها الأفراد تعود إلى الأعمال الصالحة أو الفاسدة التي ارتكبوها. هذا الموضوع من أوضح المسائل الدينية وأشدّها بدهاه ، وقد وردت في ذلك آيات وأحاديث كثيرة ، نذكر بعضها على سبيل الشاهد.

1 - قال تعالى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) (1).

2 - وقال تعالى : (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ) (38) (2).

3 - وقال تعالى : (وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (39) ، (وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى) (40) (3).

من هذه الآيات الثلاث ندرك بوضوح المسؤولية الشخصية ، وقيمة أفعال كل شخص بالنسبة إليه. إن الله تعالى يصرح في هذه الآيات بأن تبعة الأفعال الصالحة

ص: 193

1- سورة البقرة : 286.

2- سورة المدثر : 38.

3- سورة النجم : 39.

أو الطالحة لكل فرد إنما تعود عليه نفسه ، وأن سعادة كل فرد رهينة بعمله ، وهو هو المعنى الكامل والجامع للإعتماد على النفس ، والشعور بالمسؤولية الفردية.

4 - يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « قَدَّرُ الرجل على قد همته » (1).

أي أن قيمة شخصية كل فرد يجب أن يُبحث عنها في مستوى اعتماده على نفسه ، ودرجة علو همته ، وكلما كانت حصة الإنسان من هذه الفضيلة الخلقية اكبر كانت قيمته اكثر. وبهذا الصدد يقول الشاعر :

كن كالشمس في استنادك إلى نفسك *** فإن نور الشمس يشع من نفسه

يعتبر الإسلام كل فرد مسؤولاً عن سعادته وشقائه ... فهو الذي يستطيع أن يقوم بواجباته خير قيام في ظل جده وسعيه فيقود نفسه الى شاطئ السعادة والنجاح ، وهو الذي يستطيع أن يحطم شخصيته بالأعمال السيئة والنوايا الفاسدة وينتهي بنفسه الى الشقاء واستحقاق العذاب الإلهي.

النهى عن الإعتماد على الناس :

لم يكتف الإسلام في سبيل إيجاد الإعتماد على النفس ، ببيان المسؤولية الفردية وضرورة إحياء كل فرد شخصيته ، بل نهى كثيراً عن النقطة المقابلة لذلك وهي عبارة عن الإعتماد على الناس ، وحذر الجميع عن هذه الصفة الذميمة. وبهذا الصدد يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام : « رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عما في ايدي الناس » (2).

إن الاعتماد على النفس ، والإستناد الى الجهد الشخصي ، والسعي وراء تحقيق السعادة المادية والمعنوية اسس استقلال الشخصية ، والمحبوية عند الله والناس. وعلى العكس فإن الإعتماد على الناس ، والطفيلية ، وانتظر العون والمساعدة من الآخرين أساس الحرمان المادي والمعنوي للشخص ، ويسبب الذل والهوان عند الله ، وفي أنظار الناس.

ص: 194

1- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 1100.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص148.

عن أبي عبد الله عليه السلام : « اليأس ممّا في أيدي الناس عز للمؤمن » (1).

القدرة على المقاومة :

إن الأفراد الحقراء والمتقاعسين لا يملكون القدرة على المقاومة في خضم الحياة وصراعتها ... إنهم يندحرون بسرعة ، وينسحبون من المعركة بأتم الخذلان والفشل. أما ذوو الهمم العالية ، الذين يعتمدون على أنفسهم فإنهم يقاومون صاعب الحياة ومشاكلها ببسالة وبطولة ، يتحملون الآلام بكل جلد ، وينجحون في نهاية الجولة.

1 - عن علي عليه السلام : « الحلم والأناة توأمان ، ينتجهما علو الهمة » (2). أي أنه إذا كانت همة الإنسان عالية ظهرت عنده خصلتان الحلم والأناة.

2 - وعن الإمام الصادق عليه السلام : « ينبغي للمؤمن أن يكون فيه ثماني خصال : وقورا عند الهزاهز ، صبوراً عند البلاء ... » (3).

3 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » (4).

الفرار من المسؤولية :

إن الأفراد الذين يتميزون بضعف النفس ، والفاقرين للاعتماد على النفس ، المصابين بالحقارة يتهربون من المسؤولية بالإنزواء وبالتطرف ويعيشون حياة ملؤها الحرمان. أما الأفراد ذوو الشخصية ، والمعتدون على أنفسهم المتميزون بالبسالة والبطولة فإنهم يتحملهم المسؤولية وإلتزامهم الصبر والأناة في مواجهة مصائب الحياة ، ينالون النجاح الباهر في ما يرغبون من الأمور الدنيوية من جانب ، ويستحقون الأجر والثواب الكبير عند الله تعالى على حد تعبير الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله .

ص: 195

1- المصدر السابق.

2- نهج البلاغة شرح الفيض الاصفهاني ص 1287.

3- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج 1 ص 47.

4- مجموعة ورام ج 1 ص 9.

إن ركائز الاستقلال والاعتماد على النفس تصب منذ أولى أدوار الطفولة في روح الطفل ... وكذلك الطفيلية والاعتماد على الناس فإنهما ينبعان من التربية الخاطئة التي تعود إلى أيام الطفولة. على الآباء والأمهات الذين يرغبون في تحقيق السعادة الحقيقية لأولادهم أن يكونوا واعين في جميع تصرفاتهم ، ويحذروا من القيام بما من شأنه تعويدهم على الطفيلية وانعدام الشخصية.

الأولاد الصالحون :

لقد ورد التعبير في القرآن الكريم والأحاديث الإسلامية عن الطفل الذي أحسنت تربيته ب- (الولد الصالح). على الآباء والأمهات أن يربوا أولاداً صالحين. ومعنى الصلاح أن يكون واجداً لجميع الصفات الخيرة الجسمية والروحية.

إن الآباء والأمهات الذين يكونون صالحين من الناحية النظرية والعملية يستطيعون تربية أطفال صالحين ، لأن مجموعة اقوالهم وأفعالهم هي التي تعتبر قدوة للطفل بحيث تبني صفاته وعاداته وسلوكه. فإن كانت صالحة وطيبة نشأ صالحاً ، وإن كانت فاسدة وبذيئة نشأ - بموجبها - فاسداً.

عن أبي جعفر عليه السلام : « يُحَفِّظُ الْأَطْفَالَ بِصَالِحِ آبَائِهِمْ » (1).

وفي حديث آخر عن إسحاق بن عمار قال : « سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن الله لِيُفْلِحَ لِيَفْلَحَ بِفَلَاحِ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ وَلَدَهُ وَوَلَدَهُ » (2).

من صفات الأولاد الصالحين إحساسهم بالمسؤولية واعتمادهم على أنفسهم. إن الآباء والأمهات الذين يتميزون بشخصية رصينة يستطيعون أن يلقنوا أولادهم هذا الدرس التربوي القيم ، ويجعلوهم ينشأون على الاعتماد على النفس. نسأل الله عز اسمه أن تكونوا جميعاً واجدين لهذه السجية الخلقية الحميدة ، وأن توفقوا في ظل تعاليم الإسلام القيمة الى تربية أبنائكم تربية صحيحة.

ص: 196

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج15 ص178.

2- نفس المصدر.

إن الطفل في رحم أمه ، موجود طفيلي وقائم بوجود أمه ، ولا يملك استقلالاً وإرادة من نفسه. إن حياته ترتبط بحياة أمه ، يتغذى من الغذاء الذي تناوله ، ويتبعها في القوة والضعف. أما بعد الولادة فإنه وان انفصل عن أمه وحصل على استقلال عضوي ، لكنه لا يزال ضعيفاً ، ولضعفه فهو مضطر إلى أن يعيش طفلياً على أمه لمدة ، لا يدرك فيها الخير أو الشر ، ولا يستطيع دفع الضرر عن نفسه أو جلب النفع إليها .. إنه يحتاج أمه في غذاءه ، ونظافته ، وطرد العدو عنه ، وبصورة موجزة في جميع الحاجات الحياتية ، في حين يوجد في باطن الطفل استعداد للتكامل ونيل الاستقلال ، وبالتدريج يحصل على استقلاله.

هناك تضاد لا مفر منه في وجود الطفل ، فمن جهة يفقد الإطمئنان إلى نفسه لما يشعر به من الضعف والذلة ، ولذلك فهو يحتاج دائماً إلى من يملك القدرة على تحقيق ما يريد ، ويحب أن يكون في حمايته وكنفه ، وهذا الأمر يضطره إلى التسليم لأوامر صاحب القدرة دائماً .. ومن جهة أخرى فإنه يميل بفطرته إلى التفوق والحصول على القدرة ، يجب أن يصبح مستقلاً ، وأن يعتمد على نفسه ، ويتخلص من الذلة والحقارة ، وهذا لا يتحقق إلا في ظل القوة والقدرة.

التكامل التدريجي :

إن التكامل الطبيعي للطفل ورشده يمنحانه القوة بصورة تدريجية. ذلك أن الميل نحو الإستقلال يدفع الطفل إلى استغلال القوى المكتسبة ، وبالتدريج يصبح الميل الفطري نحو الإستقلال والتفوق فعلياً فيخلص الطفل من كونه عالة على غيره وطفلياً ، وينجوه بهذه الصورة من الشعور بالحقارة وكلما ازدادت قوة الطفل كان قد خطأ خطوة في طريق الاستقلال ، وفُتت قيود الاعتماد على الغير.

لا توجد للطفل لذة أعلى من لذة الإحساس بالقوة والحصول على الإستقلال ، فكلما حصل على قوة ووجد أنه استطاع القيام بعمل ما لوحده كان ذلك مبعث سرور وارتياح في نفسه. عندما تتفتح أصابعه ويستطيع أن يمسك شيئاً بيده يفرح كثيراً ...

وعندما يحرك يده الصغيرتين (خرخاشته) فينبعث الصوت منها يضحك من دون اختيار ، وتظهر أمارات الفرح والسرور على عينيه ووجهه :

يقول برتراند رسل : « عندما يستطيع الطفل أن يثبت عينيه نحو الأشياء فإنه يلتذ كثيراً من مشاهدة الأشياء المتحركة ، والذرات المتقلبة عند هبوب الرياح. في هذه المرحلة بالذات يفرح الطفل للأصوات الرتيبة والجديدة ».

« تعتبر حركة الأصابع في بداية الأمر من الأفعال الإنعكاسية فقط. لكن الطفل يكتشف فيما بعد أنه يستطيع أن يحركها متى شاء. أنها يبعث الفرح والسرور في نفس الطفل بقدر ما يبعث استيلاء امبراطور مستعمر على دولة من الدول الإرتياح في نفسه. في هذه الحالة تخرج الأصابع عن حالتها المغترية وتصبح جزء من الوجود. لقد لاحظت هذه الحالة في ولدي بصورة قطعية في السن الخامسة الأول مرة ، وذلك عندما استطاع بعد محاولات عديدة أن يرفع الجرس الذي كان ثقيلاً نوعاً ما من فوق المنضدة ويضعه على نحو ينبعث منه الصوت ... وإذا توصل الى هذه النتيجة السارة أخذ ينظر الى من حوله بابتسامة ذات مغزى » (1).

يعتبر كل من خروج الأسنان ، والقدرة على مضغ الطعام ، والتكلم والمشي ، والشروع في الجري.

يعتبر كل من خروج الأسنان ، والقدرة على مضغ الطعام ، والتكلم والمشي ، والشروع في الجري ، واللعب نجاحاً مستقلاً سحصل عليه الطفل بالتدريج ، ويبعث فيه السرور واللذة كل على حدة.

يجب على الآباء والأمهات الذين يرغبون في تنشئة أطفالهم على الاستقلال بالإعتماد بالنفس أن يستفيدوا من هذا القانون الفطري المودع في الطفل بالأمر الإلهي ، وأن يؤسسوا منهجهم التربوي على أساس الميل الفطري له ومن الضروري أن يربياه على الاستقلال التربوي جنباً الى جنب مع الإستقلال الطبيعي ليقف ذلك أمام أي اضطراب أو فوضى.

ص: 198

إحياء فطريات الطفل :

على الوالدين أن يمنحا الطفل شيئاً من الحرية مراعيين في ذلك درجة وعيه وتكامله ينبغي أن يسمحا له بإحياء حس الابتكار والميل نحو الإستقلال الفطري في أثناء اللعب والجري ... وفي نفس الوقت ينبغي أن يراقباه مراقبة جدية ، بحيث لا تخرج الحرية عن الحد المسموح به ، ولا يسيء التصرف في ذلك.

إن الآباء والأمهات الواعين يتركون الطفل حراً في مثل هذه المناسبات حتى تخرج استعداداته الكامنة الى حيز الفعلية ، وتفتح أكمال الشعور بالابتكار في باطنه ، وينشأ إنساناً مستقلاً ومعتمداً على نفسه. أما الآباء والأمهات الجاهلون فإنهم بتشددهم أو إهمالهم يتسببون في شقاء الطفل وتعاسته ... إنهم يفسحون المجال له كثيراً أحياناً ، ويضيقون عليه كثيراً أحياناً أخرى ، وبذلك يوردون نقصاً كبيراً على استقلاله واعتماده بنفسه.

الإفراط في فسح المجال :

هناك بعض الآباء يفرطون في فسح المجال لأطفالهم فراراً من عبء المسؤولية أو رغبة في التظاهر بالحب الفارغ ، فيتركونهم وشأنهم في جميع أفعالهم وأقوالهم ... ولكن لا يمضي زمن طويل حتى يترعرع الطفل وهو جاهل لأبسط واجبات الحياة. عند ذاك يقوم الوالدان بتبنيه على واجباته واحدة بعد الأخرى ، ومن دون أن يؤدي ذلك الى نتيجة مرضية ، لأن أوان التربية قد فات.

« هناك أطفال يجب تكرار كل موضوع عدة مرات معهم : قم ، انظر ، لا- تقتل نفسك ، نظف أظفارك وأذنيك ، إعتن بنظافة أنفك ، سر مستقيماً ، لا- تمزق كتبك ، لا توسخ دفاترك ، كن مؤدباً في حديثك مع القراش ، لا تتلکم كثيراً .. وغير ذلك. هؤلاء - وحتى أولياؤهم - يتعبوننا ، إننا لا نعلم من هو الذي يستحق اللوم. لكنه لا ريب في ضرورة توجيه اللوم للوالدين لأنهما لم يبدءا في تربية طفلتهما في الوقت المناسب ، ولم يعيرا أهمية تذكر لأفعاله. وبهذه الصورة فإن الأطفال الذين كان بالإمكان أن يصبحوا أعضاء نافعين في

المجتمع ، ويصبحون عالة على الغير ، ومما يؤسف له أنهم ليسوا قابلين للإصلاح « (1).

هؤلاء الأطفال لا يملكون اعتماداً على أنفسهم ، ويفقدون الشعور بالاستقلال ، بل هم يعيشون عالة على غيرهم في حياتهم دائماً على أثر سوء التربية التي اتخذها الوالدان بحقهم ... إنهم مصابون بعقدة الحقارة ، ويظلون يننون من ويلات ذلك مدى العمر.

الوالدان المتزمتان :

في النقطة المقابلة للآباء الذين ذكرنا فسحهم المجال للطفل ، يوجد آباء وأمّهات متزمتون لا يسمحون للطفل بالحرية بالمقدار الكافي ، ويسدّون طرق طرق الابتكار والنشاط الفردي عليه ... يتدخلون في جميع شؤون الطفل - صغیرها وكبیرها - فيقتلون بذلك الشعور بالاستقلال والاعتماد على النفس عنده ... وهذا بدوره يؤدي الى أن يقف الطفل في مستوى محدود من التكامل ، وهو بلا شك عدا في لباس الحب. هؤلاء الآباء والأمّهات يقودون أطفالهم نحو الحضيض بتزمتهم وسلوكهم ذاك.

وبالمناسبة يقول (جلبرت رويين) : « لا-ريب في أن الطفل زينة حياتنا ، ولكن يجب أن لا-ننظر إليه كنظرنا الى فاكهة أو ورودة على الشجرة ، لأنه وإن كان يأخذ عصارته النباتية وغذائه منا ، لكنه ليس جزء من شجرة ، لأنه وإن كان يأخذ عصارته النباتية وغذائه منا ، لكنه ليس جزء من شجرة وجدونا ، بل انه نبتة مستقلة ، يجب أن نقطع الجذور والأغصان الصغيرة التي تربطنا به حتى لا نقف أمام نموه ، ونمنع - بدورنا - من وصول العصاره النباتية إليه .

« إن الأم الشابة تقول بكل غرور : (انه من دمي ولحمي) ولكن ما يؤسف له أنه لا يمضي وقت طويل حتى تتحسر بأهه من أعماق قلبها لأن هذا الارتباط قد قطع. إننا نسمع هذه الجملة غالباً : (إنني أحبه كثيراً لأنني لا أملك في الدنيا أحداً غيره) في حين أنه يجب

ص: 200

إبعاد الطفل عن مثل هذه العواطف. يجب أن لا نكون أنانيين ولكن ينبغي أن نعلم بأن طفلنا يملك حياة مستقلة تماماً ... حتى أدركنا أنه ليس لنا، بل هو متعلق بشخصه، وله حياة مستقلة تدعوه الى نفسها. وبصورة موجزة فإنه يجب أن يتربى لنفسه لا للآخرين ... هلموا إذن للتخلي عن اعتبار الطفل ملكاً لنا، لَمَّا لم نكن أكثر من حلقة وصل في هذه الحياة « (1).

المساعدة المعقولة :

إن المساعدة المعقولة التي يبذلها الوالدان للتلميذ الذي لم يستوعب الدرس من معلمه في المدرسة هي أن يدرسه في البيت مرة ثانية ويحاولا إفهامه الدرس تماماً. أما عندما يعمد الأب أو الأم بقصد مساعدة الطفل الى حلّ التمارين الرياضية التي كلف بحلها من قبل المعلم، أو كتابة القطعة الإنشائية بدلاً منه وإعطاؤها له لينقلها في دفتره، فإنه يستحيل أن يصبح هذا التلميذ في عداد العلماء فيما بعد ... ولا شك أن هذه المساعدة ظلم لا يُتدارك بالنسبة الى الطفل.

إن المساعدات غير المعقولة للوالدين تجاه الطفل تعود على الطفل بالضرر وتمنع من نمو شخصيته. فالحب التافه والمساعدة غير المتزنة يطفئان جذوة الإستقلال والإعتماد على النفس في ضمير الطفل، وبالتالي ينشأ إنساناً طفلياً وتافهاً.

« إحدروا من أن تحرموا الطفل من الفرص المناسبة التي يستطيع من خلالها أن يتعلم بعض التجارب بنفسه، بمعنى أن لا تساعدوه في أداء كل عمل. هذه المساعدات التي تتجاوز الحد المقرر لها أحساناً تعودّه على مساعدة الآخرين دائماً، ونشوءه عالية على الغير، فيفقد قدرته الشخصية في النهاية، ويعجز عن إنقاذ موقفه المتأزم لوحده بسبب من هذا الضعف والتعود على مساعدة الآخرين له « (2).

ص: 201

1- چه ميدانيم؟ تربيت اطفال دشوار ص 61.

2- ما وفرزندان ما ص 41.

إن أفضل الفرص لحياء الشعور بالمسؤولية الفردية ، وإيجاد الاستقلال والاعتماد على النفس هو دور الطفولة. يجب على الوالدين أن يعلما أن طفلهما إنسان واقعي ومستقل ، وعليهما أن يعاملوه معاملة إنسان حقيقي ... ويؤسسوا قواعد التربية على هذا المنهج المستقيم ، حتى ينشأ الطفل مستقلاً وشاعراً بالمسؤولية منذ البداية.

التشجيع والتوبيخ :

على الوالدين أن يقوموا بنصيحة الطفل في الأعوام الأولى من عمره حسب رشده وإدراكه ويفهماه بأنه هو المسؤول عن أفعاله الصالحة أو الفاسدة ... عليهما أن يشجعه على الأفعال الحسنة بالمقدار الذي يستحقه ، ويوبخه على الأفعال السيئة بالمقدار المناسب ... كما عليهما أن يحذرا من الإفراط في المحبة ، والإكثار من الشدة. عليهما أن يكررا هذا الأسلوب التربوي بكل صراحة حتى يطمئن الطفل الى استقلاله ويقف على مسؤوليته. إن طفلاً يتلقى تربية كهذه ، عندما يبلغ العاشرة من عمره يصبح إنساناً معتمداً على نفسه ، ويدرك معنى الشخصية بصورة واضحة.

« إن المربي يعدّ الطفل للحياة ، إذن يجب ترجيح الطفل على تصوراتهِ الخاصة. إن المربي سوف يصغي الى اوامر قلبه وعقله ، وسيسلك مع الطفل سلوكاً إنسانياً ، ذلك أنه يجب ألا تترك الجانب الإنساني مطلقاً ... يجب أن نسلك سلوكاً إنسانياً من دون أي إثرة أو أنانية ، يجب أن نكون إنسانيين ومحايدين في آن واحد » .

« إن الوالدين والمربي العادل هم القادرون على أن يهبوا الطفل نصائح محايدة ، وأن يجعلوا منه إنساناً كاملاً لا إتكالياً ، إنهم يحبون الأطفال لا حباً أعمى بل حباً معقولاً يقودهم نحو الطريق الصحيح في الحياة ».

« إن محبة كهذه لا تغفل عن أسس عملها أبداً ، بل تحافظ على الاعتدال دائماً ، ذلك أن العدل والإنصاف هما بمنزلة الملجأ للطفل ».

« إذا كان الأب عادلاً فإن جدّه وتشدّده لا يخلفان أثراً سيئاً في الحياة. إن طريق الطفل يمكن أن يكون مليئاً بالعقبات والعراقيل ، لكن لما كان أساسه التربوي متيناً فإنه لن يتضرر من ذلك » (1).

التأديب في الصغر :

لقد أكد الأئمة عليهم السلام ضمن بيان المناهج التربوية للأطفال على أهمية احياء المسؤولية الشخصية ، والتنشئة على الاستقلال ، وأوصوا أتباعهم بجميع التعاليم اللازمة في هذا الصدد.

يقول الإمام الصادق عليه السلام : « قال لقمان : يا بُنَيَّ ، إن تأدبت صغيراً انتفعت به كبيراً. ومن عني بالأدب اهتم به. ومن اهتم به. ومن اهتم به تكلف علمه. ومن تكلف علمه اشتد له طلبه. ومن اشتد له طلبه أدرك به منفعة » (2).

ثم يستمر في نصائحه فيقول : « يا بُنَيَّ ، ألزم نفسك التوعدة في أمورك. وصبر على مؤنات الاخوان نفسك. فإن أردت أن تجمع عزّ الدنيا فاقطع طمعك مما في أيد الناس فإنما بلغ الأنبياء والصدّيقون ما بلغوا بقطع طمعهم » (3).

وفيما يتعلق بالقيام بالواجبات والحرص على أدائها يقول : « يا بُنَيَّ ، إنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ، ووعدت عليه اجراً. فأوف عملك واستوف أجرك » (4).

هذه الجمل القصار للإمام عليه السلام تتضمن بيان قيمة التربية في دور الطفولة ، والسعي في تلقي التربية ، وإسداء الأب النصائح للولد ، وإيجاد الشعور بالمسؤولية الشخصية ، وإحياء روح الاستقلال عند الطفل ، وتنمية الاعتماد على النفس والإنقطاع عن الناس ، والجدّ في أداء الواجبات ، وأجر القيام بالواجب ... وجميع الدقائق التربوية التي تتعلق بالشخصية والاعتماد على النفس.

ص: 203

1- جه ميدانيم؟ تربيته أطفال دشوار ص 60.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج5 ص323.

3- نفس المصدر والصفحة.

4- المصدر نفسه ج5 ص324.

يعتبر الاستقلال في الإرادة والاعتماد على النفس منشأ لظهور الإستعدادات الداخلية. هذا الخلق الفاضل يجب صاحبه الى الناس ويمنحه جمالاً اجتماعياً خاصاً. وعلى العكس من ذلك فان الطفيلية تكبح المواهب والقابليات الباطنية ونسبب الكراهية للفرد من قبل الاخرين. إن الوالدين الواعين مؤولان عن تربية طفلهما على الإستقلال والإرادة بحيث يستطيع من العيش بكل فخر وعز ... وهذه التربية إنما هي من الحقوق الدينية للأولاد على آبائهم.

قال الإمام السجاد عليه السلام : « ... فاعمل في أمره عمل المتزيّن بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا » (1) أي عليك أن تسلك مع الطفل سلوكاً يسبب الإفتخار والمباهاة له في المجتمع.

النشاط الفردي :

يستند ضمان السعادة الروحية والوصول الى الكمال المعنوي الى المسؤولية الفردية شأنه في ذلك شأنه في ذلك شأن السعادة الدنيوية. فكما أن النجاح المادي لكل انسان يرتبط بنشاطه الفردي ومقدار الجهد الذي يبذله ، كذلك نجاحه المعنوي وتكامله الروحي فإنه يرتبط بمستواه من الإيمان والجهد الذي يبذله في ذلك المجال.

والى هذا المعنى يشير القرآن الكريم : (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) (95) (2).

كما أننا نلاحظ في الدنيا أخوين ، يحصل أحدهما على الدرجات العالية بفضل اعتماده على نفسه وبذله الجهود المتواصلة ويعيش في النهاية حياة ملؤها العز والفخر ، ويسقط الآخر عن أنظار الناس على أثر تسامحه وكسله فيعيش فقيراً محتقراً ... كذلك في الآخرة. فمن الممكن أن يصل أحدهما الى أعلى عليين في ظل الإيمان بالله وأداء الواجب ، وينحط الاخر الى أسفل سافلين نتيجة لانحرافه وتلوّثه بالجرام والذنوب.

ص: 204

1- تحف العقول عن آل الرسول ص 263.

2- سورة مريم 95.

إن الأب الذي قام بواجباته المادية معتمداً بنفسه ومستنداً الى شخصيته ، وحصل على أثر ذلك على سمعة طيبة ‘ ودرجة رفيعة ، ومنزلة سامية ... لو قام بتربية طفله على ما هو عليه من الاستقلال والإعتماد على النفس والجِدِّ في أداء الواجب ، فإن الطفل سيسعد في حياته أيضاً.

إن السعادة المعنوية للأب والابن والقيام بالواجبات الروحية تتطابق مع السعادة المادية والقيام بالواجبات الدنيوية من حيث المسؤولية الفردية. فلو قام الوالدان المؤمنان بتربية أولادهما على الإيمان بالله والاستقامة في العمل ، وقام الأولاد مع النظر الى مسؤوليتهم الشخصية بين يدي الله تعالى بأداء واجباتهم فلا شك في أنهم سيكونون كأبويهم مشمولين لرحمة الله عز وجل ، وعنايته التي تفوق كل عناية وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم حيث قال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) (1).

ركيزة السعادة :

نستنتج مما تقدم أنه حسب المقاييس الدينية والعلمية فإن الشعور بالمسؤولية الشخصية ، والإعتماد على النفس ، الجِدِّ في أداء الواجب ... تشكل ركائز السعادة المادية والمعنوية للإنسان. إن كل فرد يحصل على نتيجة عمله ، وكل شخص رهين بأعماله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر. إن الوالدين اللذين يدركان هذا الأمر بنفسهما ويربيان الطفل على الشعور بالمسؤولية الشخصية منذ الطفولة يكونان قد أديا خدمة جبارة له ، وأخذوا بيده نحو طريق السعادة والتكامل والفلاح.

التفاخر بالآباء :

لقد كان الناس في الجاهلية (2) يتفاخرون بآبائهم وأجدادهم ، بدلاً من التفاخر بالعلم والفضل ، وكانوا يستندون إلى أمجادهم أسلافهم والانتصارات التي أحرزوها

ص: 205

1- سورة الطور، الآية : 21.

2- (1) هناك تفسيرات عديدة للجاهلية : -

بدلاً من التفاخر بالجهود والنشاطات الخاصة بكل منهم. وعندما جاء نبي الإسلام العظيم بتعاليمه القيمة كفاح ضد هذه الفكرة الخاطئة التي كانت العامل الأكبر لانحطاط المجتمع حينذاك ، وبذلك الجهود المضنية في سبيل تحويل الأفكار العامة عن الاعتماد على الغير والتفاخر بالآباء الى الاعتماد على النفس. لقد أكد الإسلام للجميع بأن الكمال الإنساني والتفاخر بالشرف إنما يستند الى ما يبذله كل فرد من جهد في طريق التكامل والتعالي.

قال علي عليه السلام : « الشرف بالهمم العالية لا بالرّمم البالية » (1).

الإتكال على الأمل :

من المناسب أن أتبه المستمعين الكرام ، والشباب منهم بالخصوص إلى مسألة ضرورية ، وهي أن المراد من الاعتماد على النفس أن يستند كل فرد في طريق الوصول الى سعادته على علمه وأخلاقه الفاضلة وجهوده ، لا على آماله الفارغة ، وأمنيّاته غير الناضجة. وبعبارة أوضح فإن آمال كل شخص ناشئة من حالاته النفسية الخاصة به ، ولكن ليس المراد من الإعتماد على النفس ، الإتكال على هذه

ب - ويذهب البعض الآخر إلى أن المراد منها الجهل الذي هو في مقابل الحلم ، فيكون بمعنى السفه أيضاً.

ج - ويذهب آخرون إلى أنها اصطلاح خاص بالعرب قبل الإسلام.

ولكن هذه التفسيرات الثلاثة بعيدة عن الواقع والصحيح أن يعتبر مصطلح (الجاهلية) خاصاً خاصاً بكل ما يخالف الإسلام في نظره الى الكون والنفس والوجود ، سواء كان ذلك متداولاً بين العرب أم غيرهم من الأقبام ، وسواء كان ذلك قبل ظهور الإسلام أم بعده. ويدل على ذلك قوله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً ». الآمال النفسية الواهية. إن الذين يعمرّون قلوبهم بالآمال فقط ، ويتعهدون ضمائرهم بالأمانى الطوال بدلاً من أن يعمرّوها بالعلم والفضائل ، ويتعهدوها بالجد والعمل ... افراد حقراء تافهون ، ويستحيل عليهم أن يحصلوا على السعادة والكمال.

عن علي عليه السلام : « إِيَّاكَ والإتكال على المنى ، فإنّها بضائع النوكى » (2).

وعنه عليه السلام أيضاً : « العاقل يعتمد على عمله ، والجاهل يعتمد على أمله » (3).

عندما نتصفح التاريخ الإسلامي نجد أن الأسر التي طبقت تعاليم الإسلام في أسلوب تربية الطفل ، والتزمت بأفضل النصائح الواردة من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في

ص: 206

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 87.

2- نهج البلاغة ، شرح الفيض الإصفهاني ص 922.

3- غرر الحكم ودرر الكلام للآمدي ص 43.

هذا الصدد ، توصلت الى نتائج لا معة حيث أثبت الأولاد من الجدارة ما يؤيد ذلك. وعلى سبيل المثال نستعرض قضيتين تاريخيتين لطيفتين : -

1 - الطفلة الجريئة :

غضب عبد الملك بن مروان على عباد بن أسلم البكري يوماً ، فكتب إلى واليه على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي بأن يقتله ويبعث برأسه الى الشام. فأرسل الحجاج الى عباد يطلب حضوره لتنفيذ أمر عبد الملك بشأنه. لقد تألم عباد من معرفة الخبر. واضطرب كثيراً وأقسم على الحجاج في أن يتخلى عن قتله لأنه يعيل أربعاً وعشرين امرأة وطفلاً ، وبقتله سوف تختل شؤونهم وتضطرب حياتهم. فرق الحجاج لكلامه وأمر باحضار عائلته الى دار الامارة. وعندما حضر أولئك الى دار الامارة واطلعوا على ما صمم عليه الحجاج ، وشاهدوا الحالة المزرية التي كان عليها وليهم ، بدأوا بالبكاء والعيول ... وفجأة قامت طفلة صغيرة من بينهم ، كانت في غاية الجمال وأرادت أن تتكلم ، فقال لها الحجاج : ما هي صلتك بعباد؟

قالت : أنا أبنته.

ثم قالت له بكل صراحة : يا أمير ، اسمع ما أقول ... وأنشأت تقول :

أحجاج ، إما أن تمن بتركه *** علينا وإما أن تقتلن -- مع --

أحجاج ، لا تفجع به إن قتلته *** ثماناً وعشراً واثنين وأربع --

أحجاج ، لا تترك عليه بناته *** وخالاته يندبنه الدهر أجمع --

هذه الكلمات الصريحة والقوية من هذه الطفلة الجريئة أبكت حجاجاً القاسي ، وجعلته ينصرف عن قتل عباد ، ويكاتب عبد الملك بشأنه حتى حصل على عفو الخليفة عنه (1).

ص: 207

2 - الصبي الخطيب :

لما آلت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز ، أخذت الوفود تتقاطر عليه من أنحاء الدولة لتهنئته ... وكان من تلك الوفود وفد الحجاز. كان في ذلك الوفد صبي صغير ، قام في مجلس الخليفة ليتكلم ، فقال الخليفة : ليتكلم من هو اكبر منك سناً. فقال الطفل : أيها الخليفة ، إن كان المقياس للكفاءة كبر السن ففي مجلسك من هو أحق بالخلافة منك. فتعجب عمر بن عبد العزيز من هذا الكلام وأيده على ذلك ، ثم أذن له في التكلم. فقال:

لقد قصدناك من بلد بعيد. وليس مجيئاً لطمع فيك أو خوف منك ... لا نطمع فيك لأننا متعمون بعدلك ومستقرون في بيوتنا بكل أمن واطمئنان ... ولا نخاف منك لأننا نجد أنفسنا في أمن من ظلمك ، وإن مجيئنا الى هنا إنما هو لغرض التقدير والشكر.

فقال له عمر بن عبد العزيز : عظمي.

قال الصبي : لقد أصيب بعض بالغرور لحم الله عليهم ، أصيب آخرون بذلك لمدح الناس إياهم ، فاحذر من أن يبعث هذان الأمران الغرور فيك ، فتتحرف في تدبير شؤون الدولة.

لقد سُرَّ عمر بن عبد العزيز لهذا الكلام كثيراً ، وسأل عن عمر الصبي فقيل له : هو ابن اثنتي عشر سنة (1).

الشعور بالاستقلال :

إن التربية العائلية الصحيحة هي التي تستطيع أن تربي الطفل على الاستقلال والإعتماد على النفس ، وتقوده نحو التكامل المادي والمعنوي. إن الأطفال الذين نشأوا طفيليين على أثر الأسلوب الفاسد للتربية المتخذ بحقهم ، والذين لا يشعرون بالاستقلال الاعتماد على النفس ، يزرحون تحت كابوس الحقارة والذلة مدى العمر ... إنهم لا يطمئنون الى أنفسهم ، ولذلك فهم ينتظرون العون والمساعدة من

ص: 208

هذا وذاك دائماً ، وهذا يكشف لنا عن إصابتهم بعقدة الحقارة وتجرعهم نتائجها الوخيمة.

« إن المأساة العظمى هي أنه من بين جميع الأحياء فإن وليد الإنسان يتميز بطول فترة الطفولة. فوليد الحيوانات الأخرى يصل الى مرحلة البلوغ في خلال بضعة أسابيع أو اشهر ، أي أنه يستطيع أن يستغني عن مساعدة الآخرين فيعيش لوحده. فمثلاً على ذلك نجد صغار الكلب أو القط ما إن تمر بضعة أشهر على تولدها تبلغ ، ولا تعود محتاجة الى أبويها والآخرين في إعداد الطعام والمأوى والدفاع عن أنفسها ، وفي حين أن هذه المرحلة عند صغار الإنسان تستغرق عدة سنين ، وقد يبقى البعض منهم طفلياً على غيره حتى آخر يوم من حياته ».

« يعتقد كثير من المفكرين أن النصف الأ-كثر من الأ-مراض العصرية يعود إلى أن البشر لم يبلغ حد الرشد ، ولا- يملك القدرة على الاستقلال في العمل ، أي أنه لا يزال يشعر بالحاجة الى القيم. إن السبب المباشر لوجود الديكتاتوريات في بعض نقاط العالم هو هذا الأمر. إن نتائج الرشد الناقص تظهر في أن صاحبه ينظر الى الحياة ومسائلها نظرة طفولية ، وينكر أية مسؤولية اجتماعية. هذا الأسلوب من التفكير الطفولي يمكن قراءته بوضوح من بين أسطر الجرائد وأخبارها. إن عبادة نجوم السينما والممثلين ، والحب الجنوني تجاه أبطال الرياضة ، وحوادث الطلاق المستمرة ... وما شاكل ذلك ، أمارات تدل على هذا التسبب الخلفي » (1)

التكامل الفردي والاجتماعي :

لقد توصلنا في بحثنا هذا الى أن من الشروط الأساسية للتكامل الفردي الاجتماعي ، الشعور بالمسؤولية الشخصية والاعتماد على النفس. على كل فرد أن

ص: 209

يستند الى علمه وأخلاقه ، وجدّه وجهده ، ويسعى في طريق ضمان سعادته نظريا وتطبيقاً ، وأن يحذر من الاعتماد على الآخرين وكونه عالة على غيره. إن الوالدين مسؤولان عن تنمية هذه السجّة الخلقية في أطفالهما منذ الصغر.

وكما سبق ، فإن هذا الموضوع من أهم المسائل الأساسية في الإسلام حسب ما تؤكد عليه الآيات والأحاديث من جانب ، ومن جانب آخر فإنه من المواضيع العلمية المهمة في نظر علماء النفس المعاصرين ، واساتذة التعليم والتربية.

إن قادة الإسلام العظماء علّموا المسلمين قبل أربعة عشر قرناً بأن كل فرد مسؤول عن أعماله ، وأنه مرهون بعمله ، وهو الذي يتحمل تبعه ما صدر منه من خير أو شر ، وأن الجزاء الذي ناله أو يصيبه إنما هو النتيجة الطبيعية لما اكتسبت يداه.

كذلك العلماء المعاصرون فإنهم يعتقدون بأن النجاح الفردي والإجماعي مستند الى الاعتماد على النفس ، والى الجهود التي يبذلها الأفراد بهذا الصدد. وكلما كان الاستقلال الروحي والنشاط المبذول أكثر ، كانت دائرة النجاح والتقدم أوسع.

الإتكال على الله :

تمتاز المدرسة الإسلامية بميزة فريدة في هذا الصدد ، لا توجد في سائر المدارس الفلسفية والنفسية ... وتلك هي مسألة الإتكال على الله. لقد اكد القرآن الكريم والأحاديث المستفيضة على موضوع الإتكال على الله والاستمداد من قدرته اللامتناهية. إن الشجاعة الفائقة وصلابة النفس التي امتاز بها الأنبياء ، وكذلك الانتصارات المذهلة التي أحرزوها مدينة الى طاقة الإيمان العظيمة ، وقوة الإتكال على الله.

وهنا أجد من المناسب أن أتطرق في ختام البحث ، الى الإتكال على الله وأثر ذلك في السعادة المادية والمعنوية للبشر. عسى أن تتضح للمستمعين الكرام أهمية المدرسة الإسلامية في التربية ورجحانها على سائر المدارس العالمية.

الإتكال على الناس ، والإتكال على النفس ، والإتكال على الله ... ثلاث

مراحل مستقلة ومتتابعة في مضمار التقدم البشري ، ولكل منها نتائج وآثار نفسية وعملية خاصة.

الإتكال على الناس عبارة عن أن يستند الفرد الى الآخرين في سبيل تحقيق سعادته ، ويتخلى عن الواجبات المفروضة عليه اعتماداً على هذا وذاك. هذه الحالة النفسية تعتبر من الصفات المذمومة من وجهة نظر الدين والعلم ، وان الأفراد الإتكاليين هم أحقر الناس.

إن ضرورات الحياة توجب على كل فرد أن يحتك بالآخرين ويعاشرهم ، لكن الإحتكاك بالناس يختلف عن الاتكال عليهم. إن الإنسان العاقل يتصف بالأدب واللين في العلاقات الإجتماعية التي ينشئها مع الآخرين ، فهو يحترم شخصية الآخرين ، ويقابلهم بالبشر والحنان ، ويراعي حقوقه وحدوده تجاه غيره ... لكنه لا يرضى بالذلة ، ولا يستسلم للهوان ، ولا ينتظر من الآخرين أن يقوموا بالعمل الذي يجب عليه القيام به ...

« وكان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول : ليجمع في قلبك الافتقار الى الناس والأستغناء عنهم. فيكون افتقارك إليهم اليهم في لين كلامك وحسن بشرك. ويكون استغناؤك عنهم في نزاهة عرضك وبقاء عزك » (1).

الإتكال على النفس :

أما الإتكال على النفس فهو عبارة عن أن يستند كل فرد الى نفسه ، ويعتمد على عقله وعلمه ، وسلوكه وأخلاقه ، وعزمه وتصميمه ، وجده وجهده ، وأن يقف على قدميه في الحياة فيعلم أنه مسؤول بنفسه عن أفعاله الصالحة أو الفاسدة. لقد اعتبر هذا الموضوع في القرآن الكريم والاحاديث الاسلامية من أشد المسائل الدينية بداهة. وكذلك العلماء المعاصرون فإنهم يرون في الإعتماد على النفس أساساً لجميع النجاحات الفردية الإجتماعية ، ويؤكدون على أن سعادة كل فرد تبتني على استقلال شخصيته واعتماده على نفسه. إن الأفراد الذين يعتمد على أنفسهم يشعرون

ص: 211

بالاستقرار والهدوء ، الأفراد الذين يعتمدون على أنفسهم رجال نشاط وعمل ، الأفراد الذين يعتمدون على أنفسهم يملكون شخصية رصينة واستقلالاً في الإرادة وطموحاً كبيراً يجعلهم يغضون النظر عما في أيدي الآخرين ، ولا يستسلمون للذل والهوان أبداً.

هناك توافق وانسجام في هاتين المرحلتين بين المناهج الإسلامية القيمة والأساليب العلمية المعاصرة. أي أن علماء التربية والنفس المعاصرين يؤكدون في كتبهم العلمية ما علّمه الإسلام قبل أربعة عشر قرناً لأتباعه في مناهجه التربوية ، والتي تتمثل في القرآن الكريم والأخبار المستفيضة.

لقد اعتبر قادة الإسلام الإعتماد على الناس أمراً مذموماً ، ورأوا الخير بالسعادة في قطع الطمع عما في أيدي الآخرين. وكذلك العلماء المعاصرين فإنهم يذمون الاعتماد على الناس ، والطفيلية بشدة.

كما عمل قادة الإسلام على إحياء المسؤولية الشخصية ، والشعور بالاستقلال والإعتماد على النفس في الأفراد ، وأكدوا على أن كل فرد مسؤول عن أفعاله ، ورهين بما كسبت يده. وكذلك فعل العلماء المعاصرون فإنهم اعتبروا الاعتماد على النفس من أهم أركان السعادة الفردية والاجتماعية.

الإتكال على الله :

الإتكال على الله عبارة عن أن يستند كل فرد مؤمن ، بالإضافة الى استغلال جميع طاقاته النفسية والجسمية والطبيعية ، الى القدرة اللامتناهية لله تعالى ، وان يستمد العون منه عز وجل في جميع المناسبات والظروف وبعبارة اوضح فإن الرجال المؤمنين يستغلون في سبيل الوصول الى السعادة المادية والمعنوية ، جميع طاقات العقل. والعلم ، والذكاء والأخلاق ، والقوى الجسمية ، والطاقات الطبيعية ويستخدمون جميع الوسائل التي خلقها الله تعالى لذلك ... ولكنهم لا يقصرون آمالهم على هذه الطاقات والقوى أبداً ، ولا يحصرّون أرواحهم في سجنها الضيق ، بل يعتقدون بأن وراء جميع العلل والعوامل الإعتيادية وفوق كل الطاقات الجسمية

والروحانية ، قدرة لا تتناهى ، وطاقة لا تقبل التحديد هي قدرة الله تعالى ، المسيطرة على الكون كله ... إنهم يعتقدون بأن جميع العلل إنما اتصفت بالعلية بإرادته ومشيئته ، فهو علة العلل ... وإن جميع الأسباب إنما اتصفت بالسببية بقدرته وأمره ، فهو مسبب الأسباب. إن أصحاب هذه العقيدة لا يخسرون المعركة أمام مشاكل الحياة أبداً ، ولا يعرف اليأس طريقاً الى ارواحهم. هؤلاء يملكون بالاستناد الى القدرة الإلهية العظيمة أرواحاً مطمئنة ، وعزماً ثابتاً ، وإرادة حديدية.

طاقة الإنسان المحدودة :

يهد علماء النفس المعاصرون الى أن ينشئوا أفراداً مستقلين ومعتمدين على أنفسهم ، ويمنعوا من نشوئهم طفيليين. لا شك في أن تربية كهذه قيمة جداً ، وتستحق الاكبار والتقدير ، كما تظهر آثارها النيرة طيلة أيام الحياة بصورة تدريجية ، ولكن يجب أن لا ننسى أن الطاقة الجسدية والروحانية للإنسان محدودة ، ولذلك فإن درجة اطمئنانه ونشاطه ستكون محدودة أيضاً.

إن من كان محروماً من الإيمان بالله ، وكانت تربيته مطابقة للأساليب العلمية المحضنة ، فنشأ معتمداً على نفسه ... فهو رجل العمل والنشاط ما لم يصل في حياته الى مأزق حرج ... أما عندما يصطدم بمشاكل تستعصي على الحل ، وتغلق جميع الأبواب والرق الطبيعية بوجهه ، يشعر باليأس والفشل ، ويشلّ نشاطه ، عندئذ يعجز الاعتماد على النفس من تهدئة خاطره والتخفيف من اضطرابه ، وبعث الأمل في نفسه.

أما المؤمنون بخالق الكون ، والذين يستندون الى قدرة العظيمة بالإضافة الى الاستقلال الروحي الذي يملكونه ، والاعتماد على النفس الذي يتميزون به ، فإنهم لا يصابون باليأس والقنوط أبداً ... إنهم يذكرون الله تعالى في الأحوال الاعتيادية ، ويستغلون جميع الوسائل والعوامل التي أوجدها خالق الكون في هذا العالم لتحقيق غاياتهم النبيلة وأهدافهم السامية. إنهم لا يتركون أبسط الفرص المؤدية الى السعادة تذهب عبثاً ، وعندما يقعون في مأزق حرج لا يفقدون الأمل والتطامن ، لأنهم لم يحصروا أرواحهم في دائرة العلل الطبيعية فقط ، ولم يغفلوا عن القدرة الإلهية

العظيمة التي هي فوق جميع القوى والطاقات لحظة واحدة. إنهم يستمدون العون من عناية الله في أشد الظروف وأحرج المواقف ، ولا يطفأ له الأمل في أرواحهم أبداً ... إن أعظم عامل لاستقرار النفس وقوة الإرادة هو الإتكال على الله ... (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (1).

.... وهذه سمة فريدة يمتاز بها المنهج التربوي لرسول السماء. إن المناهج العلمية والتطبيقية تستطيع أن تربي الناس على الإعتماد بالنفس ... أما المنهج التربوي في الإسلام فإنه بالإضافة الى تأكيده على قيمة الاعتماد بالنفس ، يربي الأفراد على الإيمان بالله والإتكال عليه ، وهذا هو من أعظم مميزات المدرسة الإسلامية في التربية.

التشاور والعزم والتوكل :

لا شك في أن الأنبياء كانوا رجالا ذوي إرادة قوية ، ومعتمدين على أنفسهم ، ولكن أساس الطاقات المذهلة التي كانوا يملكونها هو الإتكال على الله. لقد كان يستحيل على موسى بن عمران أن يقارع فرعون بفضل اعتماده على نفسه فقط ، وأن يقوم بوحده بهدم تلك الحكومة الظالمة القوية لكن إتكاله على قدرة الله وعظمته هو الذي منحه القدرة على ذلك كله.

وكذلك نبينا محمد صلى الله عليه وآله فإنه كان ذا شخصية روحية صلبة ، واستقلال في الإرادة لا يضاهي ... ولكن الطاقة التي منحتها القوة في ذلك الظرف الأهوج ، والدور العصيب ، وأعطته الأستقرار والهدوء في أشد المواقف ، ومكنته من خوض المعارك العقيدية والسياسية والاجتماعية بكل نجاح ... إنما هي الإيمان بالله والإستناد الى عظمته.

لقد ذكر القرآن الكريم منهج الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، الذي سرّ نجاحه وتقدمه في عبارة موجزة حيث قال : «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» (2).

ص: 214

1- سورة الرعد ، الآية: 28.

2- سورة آل عمران ، الآية: 159.

لقد ذكرت هذه الآية الكريمة واجب النبي تجاه الناس ، وواجبه تجاه نفسه ، وواجبه تجاه الله تعالى :

أما واجبه تجاه الناس - فقد كان عبارة عن استشارتهم في الأمور الاجتماعية ، ورسم الخطط العسكرية ، وغير ذلك من الأمور التي لم يرد بشأنها نصّ ... وعن طريق التشاور وتبادل الآراء يعين للمسلمين طرق انتصارهم وتقدمهم. إن الإعتماد على الناس ، والفرار من عبء المسؤولية استناداً الى جهود الآخرين مذموم في الإسلام. أما احترام شخصية الأفراد ومعاشرتهم بالجميل ، واستشارة العقلاء وذوي الرأي منهم فهو محبذ ومرغوب فيه.

وأما واجبه تجاه نفسه فهو عبارة عن عزمه وتصميمه في الأمور وقيامه بأدائها بنفسه. يجب عليه أن يكون صلباً أمام الحوادث ، لا ترعزعه المشاكل المختلفة ، بل يقابلها بإرادة حديدية وثبات لا يغلب عليه.

وأما واجبه تجاه الله - فهو أن يتوكل عليه بعد استشارته المسلمين ، والوقوف على رأي قاطع ... يجب عليه أن يستمد العون منه عز وجل ، ويعزز مكانته بالإستناد إلى قدرته اللامتناهية.

إن تبادل الآراء والتشاور مع الناس لتنظيم شؤون العمل ، وكذلك الإعتماد على النفس ، والعزم والتصميم في تنفيذ خطة العمل عاملان كبيران لنجاح البشرية وتقدمها ، وقد تكفل صدر الآية الكريمة ببيان ذلك وإن العلم الحديث يهتم بهذين الأمرين اهتماماً بالغاً ايضاً. لكن الطاقة التي لا تقبل الاندحار ، والشعلة التي لا تنطفئ ، والثروة التي تنبع منها جميع الطاقات الروحية ويستند إليها الاستقرار والتطامن إنما هي النقطة التي تكفل ختام الآية ببيانها ، وهو الإتكال على الله ... إن الإتكال على الله اعظم من الاعتماد على النفس بكثير.

إن أعظم المراتب في المدارس التربوية العالمية هي تنمية الإعتماد على النفس وحسب. أما المدرسة الإسلامية في التربية فإنها ترقى إلى ما هو أهم من ذلك ، حيث تغذي النفوس من نمير الإيمان بالله والاعتماد عليه ، وهذه هي سمة فريدة يمتاز بها المنهج القرآني ، دون غيره.

قال الله تعالى في كتابه العظيم : (يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) (1).

الخجل المفرط :

من الصفات الذميمة التي قد تصيب الإنسان منذ طفولته ، وتلازمه حتى نهاية عمره بصورة مرض مزمن يؤلم صاحبه ، الخجل المفرط والحياء في غير محله. هذه الحالة النفسية تنبع من الشعور بالخسة وعقدة الحقارة في الغالب.

ما أكثر التلاميذ الذين درسوا بكل جد وتتبع ، واستوعبوا المناهج الدراسية بإتقان ، ولكنهم أصيبوا في الإمتحان - وفي القسم الشفوي منه بالخصوص - بالخجل والحياء الشديدين بسبب من ضعف النفس ، فخسروا المعركة ... وكأنهم لم يقرأوا شيئاً ، أو نسوا ما قرأوه تماماً ، وبالتالي عجزوا عن الجواب وحصلوا على درجات واطئة ، وبالنتيجة حرموا من التقدم المعتاد في السنوات الدراسية.

وما أكثر الأطفال الذين لا- يملكون الجرأة على الإتصال بالناس على أثر الخجل المفرط ، فيشعرون بالحقارة والدونية ، ويتخفون من المشاركة في المجالس العامة والإتصال بالأشخاص ، حتى أنهم يمتنعون أحياناً عن الذهاب على بيوت أقاربهم والتحدث معهم نظراً لما يحسون به من خجل وحياء. وقد يستأصل داء الخجل وضعف الشخصية في أعماق قلوب البعض الى درجة أنه يحطم شخصيتهم ، ويجعلهم مصابين به حتى بعد البلوغ ، فالشيخوخة.

ص: 216

هناك عوامل عديدة تتسبب في ظهور صفة الحياء المفرط والخجل الشديد عند الأطفال ... ولكن الجامع بينها هو السلوك المصحوب بالتحقير والاهانة تجاة الطفل.

إن الطفل الذي يقع موقع السخرية والتحقير من الآخرين منذ الصغر وتألمت روحه على أثر الضربات المتتالية ، يرى نفسه حقيراً وتافهاً ويشعر بالضعفة والدونية. إن طفلاً كهذا يصاب بالانفعال والخجل ، ومن البديهي أن يتخوف من الاتصال بالناس.

« إن الخلود والفرار من المجتمع ، والمظاهر الأخرى والمشابهة لذلك كالخجل وحب الانزواء ... وليدة كون الشخص معرضاً للاهمال والتحقير في دور الطفولة أو البلوغ في الغالب. ولا يمكن أن نجد علة لذلك غير ما ذكر ، بمعنى أن الشخص عندما يتعرض للتحقير من قبل الآخرين ، ويبقى أثر ذلك في مخيلته ، فلا شك في أنه يشعر بالحقارة والتفاهة في نفسه تجاه المجتمع » (1).

الحياء المعقول وغير المعقول :

الحياء عبارة عن الشعور بالانفعال والانكسار النفسي نتيجة للخوف من اللوم والتوبيخ من الآخرين. هذا الحالة النفسية تكون صحيحة ومناسبة في بعض الحالات وتعتبر من الصفات الطيبة ، وتكون تافهة وغير مناسبة في حالات آخر وتعتبر من الصفات الذميمة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحياء حياءان : حياء عقل وحياء حمق. فحياء العقل هو العلم ، وحياء الحمق هو الجهل » (2).

« عن الامام الصادق عن آبائه عليهم السلام ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الحياء على

ص: 217

1- عقده حقارت ص 21.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج 2 ص 106.

وجيهين ، فمنه الضعف ومنه قوة واحلام وايمان « (1).

يجب على الوالدين في المنهج التربوي الذي يتخذانه تجاه طفلهما أن ينميا فيه الشعور بالحياء المعقول من جهة ، بحيث لا ينشأ مستهتراً وعابثاً وعليهما من جهة اخرى أن يراقبا عدم إصابته بضعف الشخصية والحياء غير المعقول لأن ذلك يبعث فيه الشعور بالخجل المفرط لأبسط حادثة.

ولكي يهتم المستمعون الكرام في أسلوب تربية أطفالهم بهذا الواجب الخطير ، فينشؤا أولادهم على الحياء ومراعاة القيم الاجتماعية ، بجانب حفظهم من الإصابة بالخجل المفرط وضعف الشخصية ، أرى من اللازم التطرق الى مسألة الحياء ، وفوائده الاجتماعية ، ثم التوصل الى الحياء المحبذ والحياء غير المحبذ.

هناك صفات نفسانية مشتركة بين الإنسان وسائر الحيوانات ، كحب الولد أو الخلود وما شاكل ذلك. أما الحياء فإنه من الحالات النفسية التي تختص بالإنسان فقط ، ولا يتمتع بها شيء من الحيوانات مطلقاً. لقد ذكر الإمام الصادق عليه السلام ذلك لتلميذه المفضل الجعفي في الحديث القيم الذي أملاه عليه حول التوحيد ، فقال :

« أنظر الآن يا مفضل إلى ما خص به الإنسان دون جميع الحيوان من هذا الخلق الجليل قدره ، العظيم غناؤه ، أعني الحياء » (2).

لقد صرح الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث بأن الحياء إنما يختص بالإنسان وهو مفقود في الحيوانات. وكذلك العلماء المعاصرون فإنهم يعتبرون الحياء من الصفات الخاصة بالإنسان :

« يعتقد مارك توين أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يستحي أو يشعر بأنه في حاجة الى الحياء. يقول الدكتور فلاسن أستاذ جامعة روجستر في تأييد هذه النظرية : إن الحياء علامة السلامة ، وهو

ص: 218

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج15 ص197.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج2 ص25.

متداول ومألوف عند جميع أفراد البشر حتى أولئك الحفاة العراة. ولذلك فإنه يعتقد بأن ما يبعث على تصاعد الدم في وجه الإنسان هو الشعور الناشيء من إخفاء حقيقة ما « (1).

الأثر الاجتماعي للحياء :

إن الفائدة الاجتماعية لخصلة الحياء عبارة عن منع الإنسان عن ارتكاب الجرائم ، وحفظه من التلوث بالذنوب والاعمال المنافية للآداب. إن كل فرد يرغب في أن يكون حراً في إشباع ميوله وأهوائه ، حتى يستطيع ممارستها مطلقاً من كل قيد أو شرط ... لكن هذه الحرية المطلقة لا تتلاءم مع مصلحته وسعادته. ولهذا فإن الأمور المضرة بالمصالح الفردية والاجتماعية ممنوعة على الفرد في التعاليم السماوية ، والقوانين الوضعية في العالم أيضاً ... وعلى الجميع أن يتجنبوها ، ويمتنعوا عن ممارستها.

لا بد من وجود قوة تحمي القانون حتى يستطيع من فرض إرادته على الأفراد فيضبطوا ميولهم غير المشروعة ، وتتفاد الأساليب المحققة للمصالح المادية والمعنوية ... ولا بد من وجود سلطة تضمن إتباع الأفراد وانصياعهم لنصوص القانون وإن كانت مخالفة لمشتبهات أنفسهم ، فإن القانون يحتاج الى من يتعهد بتطبيقه وتنفيذه ، ولا يكفي تشريعه لإصلاحه المجتمع ... إذ ما لم توجد الضمانات التنفيذية له فلا سبيل الى التغلب على ميول الأفراد ورغباتهم ومنعهم من متابعة شهواتهم اللامشروعة.

يختلف الضمان التنفيذي للقانون باختلاف المستوى العلمي والتربوي لشعوب العالم ، لأنهم متفاوتون في درجة تكاملهم المعنوي ورشدتهم الروحي بالنسبة الى بعضهم البعض.

إن أفضل الوسائل التنفيذية للأمم الوحشية أو شبه الوحشية ، التي لم تحصل على المقدار الكافي من التكامل الروحي والتعالوي النفسي ، والتي لم تتلق تربية

ص: 219

صحيحة ، وهو السجن ، والجلد ، الاعدام وسائر الوسائل الجزائية المشددة. في مثل هذه المجتمعات تستند الحكومة الى العنف والقسوة ، وتحمل الناس على اطاعة القوانين الموضوعية من قبلها بالتعذيب والضغط والتهديد ، الحديد والنار.

أما في الأمم المتعدنة والراقية .. في المجتمع الذي يكون الأفراد قد نالوا - قليلاً أو كثيراً - بعض الكمالات الروحية ، فإن التضامن لتنفيذ القوانين وحسن تطبيقها ليس المواد الجزائية والتعذيب فقط ، بل أن العوامل التربوية والذخائر الروحية للأفراد تساعد كثيراً على رعاية القوانين وتطبيقها وإن لمعنويات الأفراد أثراً كبيراً في استيلاء النظام وسيادة القانون على ذلك المجتمع.

إن التربية الصحيحة منذ الطفولة ، وارتفاع مستوى العلم والمعرفة ، والاستفادة من قوة العقل والتفكير ، وإحياء وجدان الأخلاقي ، واستخدام ذلك ... عوامل مساعدة في تطبيق القوانين ، ويلعب كل منها دوراً مستقلاً في حسن رعايتها.

القيام بالواجب :

إن الأفراد الذين تلقوا تربية صالحة منذ الصغر ، ونشأوا على الشعور بالمسؤولية ومعرفة الواجب الملقى على عاتق كل منهم ، يسلكون في الحياة باستقامة من دون تكلف ، ويلزمون رعاية الحق والعدل دائماً ... إنهم لا يحومون حول الذنب أصلاً ، ولا يفكرون في الخروج على القانون والاعتداء على حقوق الآخرين أبداً. من هنا نستنتج أن التربية الصالحة المتبعة في دور الطفولة من أهم العوامل المساعدة لتنفيذ القوانين وحسن رعايتها.

كذلك الأشخاص الذين حصلوا على ثقافة علمية ، ونالوا بعض مدارج الكمال فإنهم يدركون الخير والشر أفضل من غيرهم ، ويعرفون الأضرار الفردية والاجتماعية للجرام قبل الآخرين هناك بعض الانحرافات والجرائم التي يرتكبها الأفراد المحرومون من العلم والثقافة ولا يحوم حولها الأفراد المثقفون والواعون. إن العلم والثقافة يمكن أن يمنع من الخروج على القانون بدوره ، ويكون أداة لحسن تطبيق الأنظمة والقوانين.

بالرغم من جميع الدول الحية والمتقدمة في العالم تملك أنظمة جزائية لمعاقبة

الأفراد الخارجين على القانون ، فإن الملجأ الأول لرعاية تطبيق القوانين في تلك الدول هو القوى الثقافية والخلقية والتربوية للأفراد وبعبارة أخرى فإن تأثير الشعور بالمسؤولية ، والمستوى التربوي في حسن تطبيق القوانين من قبل أفراد الشعب المتقدم والمتقف ، أقوى من تأثير الجزاءات المادية المفروضة في نصوص القانون.

الجزاء :

توجد في الشريعة الإسلامية المقدسة سلسلة من القوانين الجزائية لغرض المحافظة على أرواح الأفراد وأموالهم وأعراضهم ، وعلى المحاكم والقضاة التصدي للجرائم والمخالفات ضمن الحدود المقررة ، ومعاقبة كل مجرم بحسب ما ارتكبه.

لا شك في أن النظام الجزائي في الإسلام عامل فعال في حسن تطبيق القوانين ، وحاجز دون انتهاك الأفراد لحرمتها والخروج عليها. ولكن الضمان التنفيذي للقوانين في الإسلام لا يتمثل في النظام الجزائي فقط. لقد استخدم المشرع الإسلامي قبل أربعة عشر قرناً جميع ما يستفاد منه في تطبيق القوانين الدول المتمدنة اليوم.

يرى العلماء المعاصرون أن التربية الصحيحة للطفل ، وتنمية الشعور بالمسؤولية فيه ، وإحياء وجدانه الخلقي ، واستغلال الطاقات العلمية والعقلية المودعة عنده ... عوامل مساعدة لتطبيق القوانين وإحقاق الحق.

لقد أولى قائد الإسلام العظيم كل هذه الوسائل المعنوية عناية كاملة وكما ذكرنا في المحاضرات السابقة فإن التعاليم الإسلامية القيمة تهدف الى التكامل الروحي والتعالوي النفسي والوصول إلى أعلى قمم الرقي الإنساني. إن قتل النفس البريئة جرم عظيم وعمل غير قانوني ، وجزاءه إعدام القاتل. هذا الجزاء هو الذي يضمن عدم انتشار حوادث القتل ... في حين أن الشخص الذي تربي على الفضيلة والطهارة منذ البداية ونشأ على الاستقامة والتزام المثل العليا ، لا يفكر في الاجرام أبداً ، ولا يحدث نفسه بالتجاوز على حياة الآخرين. إن شخصاً كهذا يحترم حق الآخرين في الحياة قبل أن يخاف الجزاء ، ولذلك فلا يقدم على قتل النفس المحرمة. وهكذا تجري اطاعة القانون والحذر من الاجرام على هذا المنوال. فالخوف من الجزاء يمنع

الفرد من الاعتداء على حقوق الآخرين حيناً ، والشعور بالمسؤولية والرغبة في التكامل الروحي هو الدافع لاحترام الفرد حقوق غيره حيناً آخر.

لا فخر للإنسان إن كان الدافع إلى إنقياده للقوانين العادلة واحترامه حقوق الآخرين هو الخوف من العقوبة ، لأن كثيراً من الحيوانات تنقاد لأصحابها خوفاً من حدة السوط. إن الانقياد المنبعث من أعماق وجود الإنسان الناشيء من حب الكمال ، هو الذي يعتبر محبذاً وقابلاً للتقدير والاستحسان وهو أمانة الإنسانية. والهدف من التعاليم الإسلامية القيمة هو تربية هؤلاء الأفراد.

الإيمان والإنقياد للقانون :

بالرغم من أن هناك عقوبات وقرارات جزائية في الإسلام بشأن رعاية تطبيق القوانين ، لكن الأساس الذي استند إليه مشروع الإسلام العظيم في تطبيق القوانين هو المبادئ المعنوية والتعاليم الروحية التي لقنها لأصحابه. وبعبارة أخرى فإن دور العقوبات في الإسلام بالنسبة الى تنفيذ القرارات العامة ضئيل جداً... على العكس من الطاقات الإيمانية العظيمة المستقرة في باطن الرجال المؤمنين فإنها العامل الفعال في تنفيذ القوانين وحسن رعايتها.

إن جميع النصوص والأسس الإسلامية الواصلة إلينا حول التنظيم الجزائي لا تتجاوز البضع مائة آية وحديث ... في حين أن هناك ألوف الآيات والأحاديث في الإيمان بالله واليوم الآخر ، وفي بيان الفضائل والرذائل وحول الشعور بالمسؤولية والقيام بالواجب ، والحث على التقوى والتكامل الروحي ... وغير ذلك من المعنويات والقيم والمثل. وهذا يدلنا على أن أساس اهتمام قائد الإسلام العظيم في تنفيذ القوانين كان منصبا على استغلال القوى المعنوية والإيمانية. إن العقوبات إنما هي لغرض تأديب أفراد معدودين لم يستفيدوا شيئاً من ثروة الإيمان والفضائل.

وهذا سمة فريدة يمتاز بها النظام التربوي في الإسلام على سائر النظم التربوية والنفسية في العالم المتحضر .. وهي عبارة عن أن الإسلام يرسى قواعده على الايمان بالله ، أما النظم الأخرى فإنها فاقدة لهذا الأثر الكبير. يستفيد العلماء المعاصرون في مناهجهم العلمية من قوة التربية والاخلاق ، ومستوى الثقافة

والوجدان ونحو ذلك ، فينشئون الأفراد على الشعور بالواجب والإسلام يستفيد من هذه الأسس أيضاً في أساليبه التربوية ، إلا أنه يتضمن منهجاً فريداً من نوعه في ضمان سعادة الإنسان وإحياء الشعور بالواجب في نفسه وهو الإيمان بالله.

إن تأثير الإيمان في ضمان تنفيذ القوانين واداء الواجبات يفوق تأثير أي قدرة أخرى ولهو أنشط من أي عامل آخر. ذلك أن جميع الوسائل التي تضمن تطبيق القوانين يقل تأثيرها أو ينعدم في الظروف الصعبة وعند مواجهة العقبات ... أما القدرة التي تستطيع أن تقف حاجزاً أمام انحراف الأفراد في مختلف الظروف وشتى المواقع فهي الإيمان بالله. إن المؤمنين الواقعين مستقيمون في سلوكهم دائماً ويقومون بواجباتهم خير قيام ... إنهم يسرون في الصراط القويم في الفقر والغنى ، والصحة والمرض ، والأمن والفوضى ، والسلم والحرب ، وفي كل الحالات ، لا ينحرفون عنه قيده شعرة.

يعترف علماء النفس في كتبهم العلمية بقيمة الإيمان وتأثيره العميق في المناهج التربوية. ان الطفل الذي تربي في حجر الوالدين المؤمنين ، وتلقى درس الإيمان بالله منذ الطفولة يمتاز على الطفل الفاقد للإيمان بميزات كثيرة. إنه يملك طيلة أيام الحياة روحاً أقوى ، واستقامة أكثر ، وأملاً أوطد ... فهو يرى الله في جميع حالاته مشرفاً عليه ، ولذلك فإنه لا يتخلى عن واجباته ولا يفر من مسؤولياته ولا يقدم على الاجرام والاعتداء.

الخوف من اللوم :

بعد هذه المقدمة الوافية عن الحياء وأثره الاجتماعي نتقل الى صلب البحث فنقول :

إن الحياء من العوامل النفسية المهمة التي تستطيع ضمان تنفيذ القوانين ومنع الناس من الإقدام على الإ-جرام والتجاوز. هناك أفراد مستهترون ومتسيبون في كل مجتمع ، مأسورون لأهوائهم وشهواتهم ولا يفهمون معنى للشعور بالمسؤولية واحترام القانون ورعاية الآداب ، ولذلك لا يتورعون عن ارتكاب مختلف الذنوب والجرائم ، لكن الحاجز الوحيد الذي يقف امام تنفيذ رغباتهم هو الحياء من الناس ،

ويخافون استياء الرأي العام واستنكاره فيمتنعون عن القيام بذلك. لأنهم يعلمون أنه إذا أقدموا على تلك الجرائم تعرضوا لسخط الجميع واستنكارهم ، وعند ذاك تكون الحياة بالنسبة لهم جحيماً لا يطاق.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديثه للمفضل الجعفي ، حول الحياء واثره النفسي : « فوله لم يُقر ضيف ، ولم يوفَ بالعدة ، ولم تُقضِ الحوائج ، ولم ينحر الجميل ، ولم يتنكب القبيح في شيء من الأشياء. حتى أن كثيراً من الأمور المقترضة أيضاً إنما يفعل للحياء. فإن من الناس من لولا الحياء لم يرع حق والديه ، ولم يصل ذا رحم ، ولم يؤد امانة ، ولم يعفّ عن فاحشة » (1).

إن خشية استنكار الرأي العام ، وخوف اللوم من الناس من أعظم العوامل الباعثة على رعاية القوانين للعالم المتحضر. ما أكثر القادة المتنفذين والأثرياء الماديين ، والشبان والفتيات المستهترين ، الذين يرغبون في تنفيذ رغباتهم وأهوائهم اللامشروعة ، ولكنهم يخافون اعتراض الناس ، ويخشون استنكار الرأي العام يضطرون للتراجع عن تحقيق ميولهم ، وكبح أهوائهم والإنقياد ليكونوا بمنجى عن اللوم والتفريع.

وقع الاستنكار :

لا شك في أن وقع استنكار الرأي العام في بعض الأحيان يكون أشد من عفوية السجن والسوط بكثير. ومن البديهي أنه عندئذ يكون تأثير الحياء في ضمان تطبيق القوانين أقوى من تأثير القرارات الجزائية.

إن الرجل الذي سجن بسبب ارتكابه جريمة السرقة يتألم من محاكمته ولكن إذا افتضح أمره وعرف في المجتمع بالخيانة والسرقة فإن تألمه فإن تألمه يكون أكثر. والمرأة التي ترتكب عملاً منافياً للعفة والشرف تتوطن لأن تسجن لمدة ستة أشهر ، ولا ترضى بأن تعرف بين الناس بالاستهتار والزنا ستة أيام. وطبيعي أنه كلما كان المستوى التربوي والثقافي للأمة عالياً كان نفورها واستياؤها من الأعمال المنكرة أشد.

ص: 224

هذا النوع من الحياء الذي يضمن تطبيق القوانين ، ويمنع الأفراد من الانحراف الاعتداء ، من الصفات المحبذة والفاضلة بلا شك. وهو ممدوح في الإسلام وقد ورت أحاديث كثيرة تؤكد عليه.

وها أقرأ عليكم نموذجاً منا : -

1 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا لم تستح فافعل ما شئت » (1) أي أن الأفراد الفاقدين للحياء لا يتورعون عن الاجرام والاعتداء على حقوق الآخرين.

2 - عن علي عليه السلام : « من قلّ حياؤه قلّ ورعه » (2).

3 - وعنه عليه السلام : الحياء يصد عن فعل القبيح » (3).

4 - عن الإمام الصادق عليه السلام : « لا إيمان لمن لا حياء له » (4).

5 - قال أبو محمد العسكري عليه السلام : « من لم يتق وجوه الناس لم يتق الله » (5).

6 - عن أمير المؤمنين عليه السلام : « من كساه الحياء ثوبه لم ير الناس عيبه » (6).

إنحراف المجتمع :

لا يخفى أن الحياء من الناس والخوف من استنكار الرأي العام بالنسبة إلى كل من الجرائم ، يكون عندما يعتبر المجتمع تلك الأعمال مذمومة ومستهجنة. أما المجتمع المصاب بالإنحراف والضلال ، الذي تفقد فيه بعض الجرائم والمعاصي قبحها ، ويعتبرها الجميع أموراً اعتيادية ، فإنه لا يقف الإنحراف في ذلك المجتمع عند فقدان الحياء من قبل المجرمين ، بل قد يتفاخرون بأعمالهم الهدامة وجرائمهم الشنيعة.

ص: 225

1- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص86.

2- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 1239.

3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 51.

4- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص106.

5- بحار الانوار للعلامة المجلسي ج17 ص318.

6- وسائل الشيعة للحر العاملي ح3 ص221.

هذه النصوص تهدف الى بيان أهمية الحياء من الناس في تطبيق القوانين والوقاية من الجرائم. ولكن يوجد في زوايا المجتمع أفراد لا يخافون من استنكار الرأي العام ومع ذلك لا يحومون حول الذنب ... بل إنهم لا يقدمون على المخالفة حتى في الخلوة ، لأنهم أفراد شرفاء يستحون من أنفسهم ، ويراعون شرف طباعهم وفضائلهم التي يمتازون بها ... هؤلاء هم أفضل طبقات المجتمع.

قال علي عليه السلام : « أحسن الحياء استحياءك من نفسك » (1).

التظاهر بالذنب :

من العوامل التي تؤدي الى الخروج على القيم الاجتماعية ، وتبعث الجرأة والجسارة في نفوس الأفراد على الا-جرام ، تظاهر المجرمين بخروجهم على القانون. ولهذا السبب فإن الإسلام يمنع من ارتكاب الذنوب والجرائم من جهة ، ويحذر الناس من التظاهر بالذنوب المؤدي الى فقدان الحياء من جهة أخرى.

« عن الصادق عليه السلام عن أبيه : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن المعصية إذا عمل بها العبد سرّاً لم تضرّ إلا عاملها ، وإذا عمل بها علانية ولم يعير عليه أضرتّ بالعامّة » (2).

إنحراف المجتمع :

لا يخفى أن الحياء من الناس والخوف من استنكار الرأي العام بالنسبة إلى كل من الجرائم ، يكون عندما يعتبر المجتمع تلك الأعمال مذمومة ومستهجنة. أما المجتمع المصاب بالإنحراف والضلال ، الذي تفقد فيه بعض الجرائم والمعاصي قبحها ، ويعتبرها الجميع أموراً اعتيادية ، فإنه لا يقف الإنحراف في ذلك المجتمع عند فقدان الحياء من قبل المجرمين ، بل قد يتفاخرون بأعمالهم الهدامة وجرائمهم الشنيعة.

المجتمع الذي في العفة والإمتناع عن العلاقات الجنسيه غير المشروعة خرافة

ص: 226

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 191.

2- قرب الإسناد ص 26.

وجموداً، ويعتبر الحرية في العلاقات غير المشروعة مثلاً للتقدم والوعي!!!

المجتمع الذي يعتبر الأمانة والصدق علامة البلادة والحمافة، ويرى في الإرتشاء والكذب والتزوير سنداً للكفاءة والنجاح!!!

المجتمع الذي لا يرى قبحاً في شرب الخمر والقمار!!!

في هذا المجتمع لا يوجد معنى للحياء ومراقبة الأفكار العامة، ولا يجد المجرم نفسه خوفاً من اللوم والتقريع ولا خشية من الاستنكار والإستهجان.

إن كل ذنب في المجتمع، يشبه داء خطيراً يتضمن بين طياته مشاكل كبيرة لأفراده. ولكن المصيبة العظمى تتمثل في عدم اعتبار المجتمع ذلك العمل قبيحاً، وعدم اعتبار المرتكب له مستحقاً للعقوبة واللعوم. فمن البديهي أنه في هذه الحالة يسير المجتمع نحو الهاوية، ولا يمر زمن طويل حتى تظهر الآثار الوخيمة لتلك النظرة الخاطئة.

لقد اعتبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هذه الظاهرة من أخطر المشاكل الاجتماعية حيث قال :

« كيف بكم إذا فسدت نساؤكم ، وفسق شبابكم ، ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر »؟!

ف قيل له : ويكون ذلك يا رسول الله؟!

قال : نعم ، وشر من ذلك. كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟! « (1).

لقد شرح الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله مظاهر الانحراف الاجتماعي في ثلاث مراحل : - الأولى إرتكاب الأفراد للذنوب والجرائم. والثانية دعوة بعضهم البعض إلى الفساد والإجرام والتناهي فيما بينهم عن عمل الخير والصلاح. والمرحلة الثالثة - وهي أخطر المراحل - أن يحصل تغيير أساسي في أفكار الناس فيروا الفساد والانحراف خيراً، وينظروا الى الصلاح والخير شراً.

ص: 227

إن مما يؤسف له أن كثيراً من البلاد الإسلامية مصابة بهذه البلية العظمى ، فقد فقدت غالبية الذنوب والجرائم قبحها في أنظار المسلمين وتعتبر أفعالاً اعتيادية ومألوفة. هذه الصفة الذميمة مزقت حجب الحياء الإسلامي ، والخوف من استنكار الناس ، في أنظار المجرمين فيقدمون على الجرائم من دون خوف أو رادع ويصابون بالمآسي والمشاكل من جراء ذلك.

وفي الغرب فقدت بعض المسائل - وخصوصاً الأمور المرتبطة بالمسائل الجنسية - القبح الذي كان في أنظار الناس تجاهها .. وعلى أثر ذلك نجد الشباب والفتيات يقدمون على أعمال فاسدة دون أي شعور بالخوف أو الإستنكار ، وتكون النتيجة أن يتزلزل أساس طهارة النسل ، والعفة الحلقية في تلك البلدان ... وهذا ما تدل عليه الإحصاءات الجنائية في تلك الدولة وبعض الإحصاءات الاجتماعية الأخرى.

وعلى سبيل الشاهد نكتفي بمنوذج بسيط من ذلك : -

« يوناتيد برس - لقد أعلن (الدكتور رونالد جبسون) قبل أيام في مؤتمر جمعية الأطباء البريطانية ، عند قراءة تقرير يتعلق بالقضايا الجنسية ، بأنه في إحدى المدارس الإنكليزية للبنات كانت الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن بين ال- 14 وال- 15 سنة يضعن شارات خاصة على صدورهن ، تشير الى أنهن قد فقدن بكارتهن! لقد أدى هذا التقرير إلى اضطراب شديد في الأوساط الدينية ومن قبل أولياء أمور الفتيات ».

« لقد صرح الدكتور جبسون في مؤتمر كانتربوري أن البرامج التلفزيونية تقتل الذوق السليم عند الشباب ، وتؤدي إلى إثارات فاسدة فيهم ... ولقد أدت التعاليم الجنسية - التي لا يقصد منها غير معرفة شؤون الحياة - الى نتائج مؤلمة جداً » .

« أكد الدكتور جبسون في مؤتمر جمعية الأطباء البريطانية أن إنعدام الضبط الخلقي يسيطر على جميع نقاط البلاد ، واعتبر الطب الروحي الجديد مقراً كل التقصير ».

« لقد أعلن (الدكتور امبروس لينك) - وهو من المعنيين الاختصاصيين

في الأمراض الجنسية - بعد أيام من ذلك بأنه منذ عام 1957 وحتى الآن فقد ظهر مرض جنسي جديد بين الشبان الأحداث. وقد شاع بين الفتيان الذي تتراوح أعمارهم بين ال-15 وال-19 عاماً بنسبة 3, 67% ، أما بين الفتيات اللاتي في نفس السن فقد ازداد المرض بنسبة 4 , 65% « (1).

والخلاصة أن الحياء الذي يمنع الفرد من ارتكاب الذنوب ، ويلعب دوراً مهماً في ضمان رعاية القوانين وتطبيقها من الصفات الفاضلة عند الإنسان. وكما ذكر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله فإن هذا النوع من الحياء يدل على قوة العقل ومثانة الشخصية ، وهو رمز الضمير الحر والإرادة الرصينة.

تنمية الحياء عند الطفل :

على الوالدين أن يعوّدوا طفلهم على الحياء منذ الصغر ، وأن يفهماه قبح الذنب واستياء الناس من المذنب ، وبهذا يستطيعان أن يقفا أمام انحرافه وخروجه على القانون.

إن الحياء المذموم أي الخجل المفرط من الصفات الذميمة. وأساس هذا النوع من الحياء هو ضعف الشخصية وعقدة الحقارة. وقد عبر الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله عن ذلك بحياء الحمق والجهل.

إن عقدة الحقارة قد تنشأ من سوء التربية ، وقد تستند إلى العيوب الطبيعية أو النقائص الاجتماعية. والخلاصة أن هناك عوامل وعللاً كثيرة يمكن أن تؤدي إلى نشوء عقدة الحقارة ، فتبعث الإنسان على الخجل المفرط والحياء التافه.

« إن جميع المظاهر الحقيقية أو المجازية للتحقير الذي يحسّ به الطفل في اتصاله بالبيئة التي يعيش فيها يمكن أن تؤدي إلى نشوء هذه العقدة النفسية. يقول الدكتور آلاندي في كتابه (الطفل المجهول) : إن قلة ذات اليد واشتغال الملابس الرثة ، ووجود العاهات العضوية ، والمرض ، أو الشعور بالنقص في الأسرة ...

ص: 229

كل ذلك من الأمور التي تلعب دوراً كبيراً في نشوء هذه العقدة وعلى هذا فمن الضروري أن تعار أهمية بالغة الى جميع هذه العوامل حتى لا تنشأ الشخصية المنحرفة عند الأطفال ، لأن تغيير هذا الوضع الروحي في الفترات التالية يفتقر الى كفاح عنيف ، وجهد متواصل « (1).

إن الجانب الكبير من الأمراض النفسية والشعور بالحقارة ناشئ من سوء التربية في دور الطفولة ، فقد يترك السلوك الأهوج للوالدين في نفوس الأطفال أثراً سيئاً الى درجة أنه يصيبهم بالضعة والدونية ، ويظلون يتجرعون النتائج الوخيمة لذلك مدى العمر!

إن أفضل الأساليب المقترحة لوقاية نشوء هذا المرض هو التربية الصحيحة. على الوالدين أن يعدّوا الأطفال منذ الأشهر الأولى لتربية سليمة ورعاية دقيقة حتى لا يصابوا بعقدة الحقارة أصلاً.

« بالرغم من أن جميع حركات الطفل إنعكاسه في بداية الأمر ... (الضحك ، البكاء ، الأكل ، المشي ، التكلم) فإنه يجب تنظيم هذه الإنعكاسات. إن كيفية رعاية الوالدين وتغذيتهم لأطفالهما توضح لنا هل أنهما مربيان أم لا. أما أنه هل يجب تطوير الحركات الإنعكاسية واخضاعها» نعم ، ومنذ الأيام الأولى يجب أن تبدأ هذه التربية. ان البكاء والعيول والتزمت كل ذلك يتصل اتصالاً وثيقاً بالرقابات الأولية ، فإن كانت منحرفة أدت الى نشوء الطفل على الأخلاق الذميمة والصفات الشريرة « (2).

المدح والثناء :

من الميول الفطرية عند الإنسان ، والتي تظهر منذ أولى أدوار الطفولة وتظل تلازمه مدى العمر ، الرغبة في المدح والثناء من قبل الآخرين. إن كل صغير وكبير

ص: 230

1- ما وفرزندان ما ص 58.

2- جه ميدانيم؟ تربيت اطفال دشوار ص 65.

يتوقع أن يلاقي استحساناً ومديحاً من قبل الأصدقاء والزملاء في الانتصارات التي أحرزها في الحياة ، والتقدم الذي يناله في كل مرحلة.

إن الإستعدادات الباطنية للأفراد تصل إلى مرحلة الفعلية ، وتخرج إلى حيز الوجود في ظل التشجيع والإستحسان. وكأن الإستحسان والثناء يمنحان الأفراد طاقة جديدة ، ويفتحان لهم طريق التعالي والتكامل.

« يقول أحد علماء النفس العظماء المعاصرين ، وهو (ماك دوكل) : ان جميع الأطفال - دون استثناء - في حاجة الى التشجيع وتحفيز الشعور بالاعتماد على النفس اكثر من حاجتهم الى الخشونة والعقوبة. ما أكثر الأطفال الذين ظلوا جاهلين بالطاقات والمواهب المودعة فيهم على اثر فقدان المحفزات والمشجعات لهم ، في حين أن تذكيراً بسيطاً أصبح قادراً على إظهارها. إن الجانب الأعظم من الإضطرابات الفكرية والعصبية للأطفال ناشيء من السلوك المصحوب بالشدة والغلظة تجاههم ، هذه الأمراض العصبية تظل ملازمة للإنسان مدى العمر » (1).

« إن الحاجة لاسترضاء خاطر الآخرين من ضرورات الحياة الإجتماعية. تذكروا اللذة التي حصلتم عليها عندما أحرزتم نجاحاً لأول مرة ولا قيمتم تشجيعاً وإستحساناً من والديكم ، أو عندما سمعتم مديحاً من المعلمين في المدرسة ».

« إن إستحسان الآخرين ومديحهم هو الأجر الذي يهون الصعوبات وينسي المتاعب. إننا - صغاراً وكباراً ، وفي أي سن ومقام كنا - إذا كان ما فعلناه قد قوبل بالإستحسان فقد توصلنا إلى الأجر الذي نستحقه ، ولا ريب في أن ذلك يبعث على اللذة والسرور ، ويحثنا على الاستمرار حتى نهاية الطريق. إن الترغيب والتشجيع ضروريان من أي شخص كانا ، وأينما حصلنا .. خصوصاً إذا كانا صادرين من الاصدقاء والزملاء والأقارب.

ص: 231

وطبيعي أن يكون اهتمام البعض بالتشجيع أكثر من الآخرين ، لكن من المستحيل أن يستغني أحد من تشجيع الآخرين تماماً « (1).

سلوك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الثناء :

لقد كان قادة الإسلام وأئمة يهتمون بالأفعال الصالحة التي تصدر من الناس في أمورهم الدينية والدنيوية ، وكانوا يشجعونهم على المزيد منها وعلى سبيل المثال أذكر لكم نموذجين بهذا الصدد :

1 - لقد رأى النبي صلى الله عليه وآله أعرابياً يدعو في صلاته ، ويتزلف الى الله تعالى بعبارات عميقة ومضامين عالية. لقد أثرت كلماته المتينة وعباراته المشيرة الى وعي صاحبها والكاشفة عن درجة الإيمان والكمال التي هو عليها في النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) . فعين شخصاً ينتظار الإعرابي حتى يفرغ من صلاته. فيأتي به إليه. وما إن فرغ الإعرابي حتى مثل بين يديه فأهداه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قطعة من الذهب. ثم سأله : من أين أنت؟

قال : من بني عامر بن صعصعة.

قال له النبي : هل عرفت لماذا أعطيتك الذهب؟!

قال : لما بيننا من القرابة والرحم.

فقال له النبي : « إن للرحم حقاً ، ولكن وهبته لك لحسن ثنائك على الله عز وجل » (2).

لقد بعث استحسان النبي وتشجيعه الرغبة في عمل الخير في نفس الأعرابي أكثر من السابق ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أدى الى أن يقتدي الآخرون به.

2 - يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في العهد الذي بعثه إلى مالك الأشتر ، حول سلوكه تجاه ولاته : « وأوصل في حسن الثناء عليهم ، وتعدد ما أبلي ذوو البلاء

ص: 232

1- رشد شخصيت ص 42.

2- حياة الحيوان للدميمي ج2 ص63.

منهم فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهزّ الشجاع ، وتحرض الناكل إن شاء الله تعالى « (1).

وكما أن التملق والمدح الذي في غير محله أمر مذموم من الناحية الخلقية وقد يتضمن مفسد كثيرة ... كذلك الإمتناع عن التشجيع والإستحسان فإنه من الصفات الذميمة ، ويتضمن نتائج سيئة.

وفي هذا المعنى يقول أمير المؤمنين عليه السلام : « الشاء بأكثر من الإستحقاق ملق والتقصير عن الاستحقاق عي أو حسد » (2)

المديح بالإستحقاق :

قد يؤدي المديح الناشيء عن استحقاق ، إلى تغيير حياة إنسان تغييراً تاماً ، فيقوده نحو طريق السعادة والفلاح ، ويحيي شخصيته ، ويبعث نور الأمل في أعماق روحه ، ويمنحه الطمأنينة والهدوء ... فيسلك طريق التكامل من دون تردد أو حيرة شخص يستحق الشاء والتقدير الى قتل شخصيته وإصابته بالحقارة والدونية فيفقد الإعتماد على النفس ، ويستولي عليه اليأس والقنوط ، ويقول في نفسه : إنني غير ويحصل على نجاح باهر في النهاية. وعلى العكس فقد يؤدي الإمتناع عن مدح جدير بأي تقدير أو شكر حتى أن أصدقائي لا يهتمون بشأني عندما أقوم بعمل كبير يسترعي الإنتباه ، عند ذاك تبدأ تعاسته ، ويدب اليأس إلى روحه ، ويستأصل داء الحقارة في نفسه ويصاب بالعوارض الوخيمة.

ومن عوارض هذا الإنهيار الروحي ، الخجل المفرط والحياء الشديد فقد يصاب الإنسان بالحقارة الى درجة أنه لا يجراً على الإحتكاك بالناس ومعاشرتهم ... وكأنه يرى نفسه أقل من أن يتكلم معه الآخرون ويعتبروه إنساناً واقعياً فيحترمو شخصيته.

« عندما يجد الفرد أنه لم يسترع انتباه الآخرين كما يتصور فإنه يفر من الناس مرة واحدة ، ويفضل الإنزواء على الإتصال بالناس خوفاً

ص: 233

1- نهج البلاغة شرح الفيض الاصفهاني ص 997.

2- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 1239.

من أن يُحتقر من قبلهم ، أو يختار زاوية من المجلس فيستقر فيها بكل اضطراب وقلق دون أن يتكلم بشيء « (1)

إن المدح المناسب المستند الى الإستحقاق والجدارة شرط ضروري لتربية الطفل. ذلك أن من وسائل وقاية ظهور مرض الخجل المفرط وشدة الحياء عند الأطفال ، الثناء عليهم وتوجيه الشكر والمدح على أفعالهم الطيبة إن الأطفال الذين نشأوا على يد أبوين شديدين أنانيين لا يحسّون طعم الإستحسان والمدح أبداً ، ولذلك فإنهم يملكون أرواحاً محطمة وقلقة ، ويعيشون في حقارة مستمرة.

وكما أن الوالدين مدعّوان الى توجيه اللوم لأطفالهما على أفعالهم السيئة وتعويدهم على الإستقامة والأدب عن هذا الطريق ، كذلك يجب أن يشجعاهم في الأفعال الصالحة التي يقومون بها كي يستمروا على ذلك ، ويعرفوا بأنهم يجب أن يلتزموا السلوك المفضل في حياتهم. ولكن يجب التنبيه الى أن التشجيع والتوبيخ دواءان تربويان مؤثران ، ومن الضروري الإستفادة منهما في المواقع المناسبة حسب مقدار صحيح. إن التشجيع والتوبيخ التافهين اللذين لا يستندان الى استحقاق ، أو الإفراط فيهما قد يكون عديم الفائدة في تربية الطفل ، وقد يؤدي الى نتائج وخيمة.

عن علي عليه السلام : « أكبر الحمق : الأغراق في المدح والذم » (2).

« يتعلم الطفل في الأشهر الثلاثة الأولى من ولادته كيفية الإبتسام ، ويختلف انطباعه تجاه الأشخاص ، عن انطباعه تجاه الأشياء. في هذه السن يوجد الإرتباط بين الطفل وأمه ، ويستطيع الطفل وأمه ، ويستطيع الطفل حينئذ أن يظهر سروره وارتياحه بمشاهدة أمه ، وإن الإستجابات التي تصدر منه لا تتصف بالصورة الحيوانية البحتة ... بل يؤثر فيه الميل للمدح والتشجيع بسرعة. ومنذ هذه اللحظة يحصل المربي على سلاح جديد هو المدح والذم ».

ص: 234

1- رشد شخصيت ص 77.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي 182.

« هذه الأسلحة تملك قدرة فعالة خلال دور الطفولة ، ولكن يجب استعمالها بحيطه وحذر شديدين. يجب أن لا يستعمل اللوم والتفريع في العام الأول ، وبعد ذلك يجب التريث في استعماله. أما المديح والثناء فإن ضررها أقل ، ولكن يجب أن لا يُصرفا بسهولة كي يفقدا قيمتهما كذلك لا ينبغي اللجوء إليهما في التحفيز الزائد على المعتاد لطاقت الطفل. لا يوجد أب مهمل يرى طفله يمشي أو يتكلم لأول مرة ، ويستطيع أن يجري بعض الكلمات على لسانه بصورة صحيحة ، ومع ذلك يتمالك على نفسه من التشجيع والإستحسان. وبصورة عامة فإنه عندما يسيطر الطفل على أمر صعب بعد ثبات وجهه شديدين فإن الإستحسان والثناء عليه أحسن مكافأة له. مضافاً إلى أن من الأفضل أن نجعل الطفل يشعر بموافقتنا لميله نحو التعلم واكتشاف المجهولات » (1).

طريق التقدم :

يبدل الطفل نشاطاً بصورة طبيعية في طريق الوصول إلى الكمال المنشود ، يستغل طاقاته الطفولية في هذا السبيل. إن تشجيع الوالدين والأصدقاء يفسح المجال أمامه للتقدم أكثر ، ويمد سراج الأمل والتظامن في نفسه بالوقود باستمرار ... وفي النتيجة تفتح مواهبه واحدة بعد الأخرى وعلى العكس من ذلك فإن إهمال الوالدين أو تزمتهما يضعف النشاط الفردي عند الطفل ويبعث فيه الفتور والملل في سلوك طريق الجهد والعمل. إن تكرار هذا السلوك المذموم يهدم روح الطفل ويتضمن نتائج وخيمة. ولأجل أن يتضح الأمر بصورة أجلي للمستمعين الكرام نستشهد بالمثل التالي :

صبي صغير السن لم يمض على دخوله المدرسة أكثر من عدة أشهر وقد تعلم بعض الدروس من كتاب الصف الأول. والآن قد كتب صفحة كاملة لأبول مرة ، وأظهر نتائج جهوده على صفحة من القرطاس. إن هذه الكتابة تعتبر الإنتصار العلمي

ص: 235

العظيم لهذا الصبي ... فهي خلاصة الأتعاب التي بذلت معه طيلة عدة أشهر ، وهي - بعد - مرآة تعكس شخصيته يثبت عينيه نحو باب الدار ويعدّ الدقيقة بعد الأخرى لقدوم والده وإراءة هذا الأثر اللامع له ... إنه يأمل في التشجيع والإستحسان من أبيه ، وهذه الساعة هي أسعد ساعات حياته.

يدخل الأب الى البيت ، فيركض الصبي لكي يريه ما كتبه ثم يظل ينظر إلى أبيه بعينين نافذتين. إن الأب العاقل الأب العاقل الأب الواعي .. يقرأ كتابة الصبي يامعان ، نافذتين. إن الأب العاقل الأب الواعي .. يقرأ كتابة الصبي يامعان ، فيبتسم ... ثم يحمله بين ذراعيه ، ويعامله بالطف والمحبة ويكرر الإستحسان والثناء عليه وبهذا يكافئه بأحسن صورة. إن سلوك الأب يمنح الصبي روحا طرية ، فيزداد نشاطه وجدّه ، ويستمر في التقدم العلمي بكل شوق ورغبة.

أما الأب الجاهل ، الأب المهمل ... فإنه يفاجئ الصبي بعكس ما كان يتوقع. لا يقرأ كتابته ، وإذا قرأها فلا يستحسن ولا يثني عليه. وأشدّ من ذلك أن بعض الآباء يجبرون الاخفاق والفشل الذي يلاقونه خارج المنزل بالسدة والخشونة مع الزوجة والأطفال فيرزمون بالصبي الذي كله أمل ورجاء ، وبهذا يقتلون روح التقدم فيه ، ويحطمون شخصيته ، ويطفئون سراج أمله واطمئنانه.

يبتعد الطفل عن أبيه بروح منكسرة ، وقلب متحطم ، وينام ليلته مع خاطرة مرة. قد لا يتنبه الأب الى سلوكه الأهوج أبداً ، ولكن الطفل لا ينسى هذا الموقف المؤلم. إن القسم الأكبر من مآسي الأفراد وتعاستهم ينبع من خاطرة مرة ، أو نقطة طفيفة ... ثم تتسع حتى تعود عليه بالدمار والإنهيار.

إن الأطفال الذين لا يلاقون تشجيعاً واستحساناً على أفعالهم الطيبة التي يقومون بها ، بل يقابلون بالتحقير والاهانة من قبل الوالدين ، تندحر شخصياتهم ويصابون بعقدة الحقارة ، ويقعون في شرك المشاكل والمآسي الكثيرة. ومن هذه العوارض الخجل المفرط في مواجهة الناس.

« إن الأشخاص الذين تلمسون الخجل وسرعة الإنفعال منهم ، أو تجدونهم مستهترين ومشاكسين ، أو يلاحظ عليهم الخمول والهدوء ، أو الثرثرة والفضول ، أو البرودة وضعف الإرادة ، أو التهور والسطحية ... هم رجال لا يملكون اطمئناناً بأنفسهم

ويفقدون الإعتماد على النفس أي أنهم يتصورون أن المجتمع لا يعترف بهم كما ينبغي ولا يحلّهم المحل الذي يستحقونه « (1).

إذن يجب على الوالدين ، ضمن القيام بواجباتهما التربوية ، الإنتباه إلى هذه النقطة المهمة ، فيستحسننا الأفعال الصالحة التي تصدر من أطفالهما ويفرّحاهم بالمدح والثناء ... وهذا هو أحسن الوسائل للوقاية من نشوء الخجل المفرط وضعف النفس فيهم.

لقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال : « إذا نظر الوالد الى ولده فسره ، كان للوالد عتق نسمة » (2).

ومن البديهي أن المدح والثناء عن استحقاق أفضل الوسائل بعث السرور في نفس الطفل ، وهذا يشتمل على أجر أخروي ومكافأة إلهية في نظر الإسلام ، بغض النظر عن فوائده التربوية. لقد اهتم الأئمة عليهم السلام بهذا الموضوع كثيراً ، وطبقوه في أسلوبهم التربوي الأمثل بالنسبة الى أطفالهم ... إذ كانا يشجعونهم على الأفعال المفيدة التي تصدر منهم ويرغبونهم في الإستزادة منها.

والقصة التالية نموذج طريف لما تقدم.

نموذج عن الإستحسان :

كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام جالساً يوماً في بيته ، وقد جلس على جانبيه طفلاه الصغيران : العباس ، وزينب.

« قال علي عليه السلام للعباس : - قل : واحد.

فقال : واحد.

فقال : - قل : اثنان.

قال : استحي أن أقول باللسان الذي قلت ، واحد : اثنان!

ص: 237

1- رشد شخصيت ص 79.

2- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج2 ص626.

فقبل علي عليه السلام عينيه ... ثم التفت الى زينب - وكانت على يساره - فقالت : يا أبتا ، أتحتبنا؟

قال : نعم يا بنيتي ، أولادنا بأكبادنا!

فقالت : يا أبتاه ، حبان لا يجتمعان في قلب المؤمن ، حب الله ، وحب الأولاد. وإن كان لا بد فالشفقة لنا والحب لله خالصاً.

قال : نعم يا بنيتي ، أولادنا أكبادنا!

فقالت : يا أبتاه ، حبان لا يجتمعان في قلب المؤمن ، حب الله ، وحب الأولاد. وإن كان لا بد فالشفقة لنا والحب لله خالصاً.

فإزداد علي عليه السلام بهما حباً « (1).

إن تقبيل الإمام عليه السلام عيني طفله الصغير على صراحته واستقامته وإزدياد حبه له ولأخته الصغيرة مكافأة جميلة لهما على ما صدر منهما. وفي الواقع فإن بيت علي عليه السلام كان طافحاً بالتوحيد والإيمان ، مليئاً بالحب الإلهي والفناء في ذاته ... ولذلك فإن الأطفال قد تلقوا تربية سليمة وطفحت قلوبهم - كأبيهم - بحب الله وتوحيده.

عاملان لسرعة الإنفعال :

ليس منشأ الخجل المفرط سوء التربية فحسب. بل هناك طائفة من النقائص العضوية والعوامل الاجتماعية التي تؤدي الى ظهور هذا المرض. لقد استخدم الإسلام جميع الوسائل والطرق لمعالجة هذه الحالة النفسية وأوصى المسلمين بالتعليمات اللازمة.

وفي ختام بحثنا هذا نشير الى عاملين فقط لذلك : أحدهما الفقر ، والآخر الانحطاط العائلي.

يعتبر الفقر من أعظم المصائب في حياة البشر. فالشخص الفقير مصاب الحرمان من جانب ، ومعرض لتحقير الناس والسخرية منهم من جانب آخر.

« قال علي عليه السلام لابنه محمد ابن الحنفية : يا بني إني أخاف عليك الفقر ، فاستعد بالله منه ، فإن الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت « (2).

ص: 238

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج2 ص635.

2- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 1228.

وقال لقمان لابنه : « أعلم أي بني ، إنني قد ذقت الصبر وأنواع المر ، فلم أر أمر من الفقر . فإن افتقرت يوماً فاجعل فقرك بينك وبين الله ، ولا تحدث الناس بفقرك فتهون عليهم » (1).

فالفقراء إذن ، يشعرون بالحقارة والضعف في انفسهم بسبب الفقر والحاجة ، ولذلك فهم شديداً الخجل في علاقتهم مع الناس (2).

حماية الفقراء :

لقد شرع الإسلام قوانين خاصة لحماية الفقراء الذين يستحقون المساعدة حقيقة ، ولغرض مكافحة المرض النفسي الذي هم في أسره . وهكذا نجد أن الدولة الإسلامية تتكفل بضمان الحد الأدنى لحاجاتهم من الموارد العامة لبيت المال ، بحيث تسمح لهم بأن يعيشوا أعزاء ... ومن جهة أخرى نجد أنه يحترم شخصيتهم في مناهجه القانونية والخلقية ، ويراعي عواطفهم تماماً .

لا يحرم الفقير بسبب قلة ذات اليد من العزة الاجتماعية والاحترام القانوني . إذ لا يحق لمسلم أن ينظر إليه بعين التحقير والاهانة . إن الفقر الإيماني والخلقي هو منشأ الحقارة والتعاسة للإنسان في نظر المؤمنين الواقعيين وإنهم يرون في الثروات المعنوية والروحية سبباً لرفعة الشأن وسمو المنزلة ، لا الثروة المادية .

إن المؤمنين الواقعيين قد يواجهون حرماناً من بعض الأشياء بسبب من فقرهم ، ولكنهم لا يشعرون بالحقارة والضعف في انفسهم . إن الإيمان بالله يمنحهم قوة وشخصية روحية متينة بحيث لا يستطيع الفقر أن يسيطر عليهم وبعدهم عن الحساب ... هؤلاء الأفراد كانوا موجودين في العصور الماضية ، ولا يزالون موجودين في عصرنا الحاضر .

ص: 239

1- سفينة البحار للقمي ص 379.

2- تتبادر الأذهان غالباً عند ذكر الفقراء الى الأشخاص الذين امتهنوا الكدية والاستعطاء ومن الواضح أن هؤلاء يبلغ بهم الجشع والحرص أعلى درجاته وهم فاقدون للحياء لبيعهم ماء وجوههم . لكننا نقصد من الفقير الرجل العفيف الذي لا يملك ما يكفي لمؤناته ومؤونة عياله فيضطر إلى القناعة بالبسيط والاكتفاء باليسير الذي يدفع به غائلة الموت .

لقد أكد الإسلام في تعاليمه القانونية والخلقية على أهمية رعاية عواطف أطفال الفقراء حتى لا يصابوا بعقدة الحقارة ، ولا يتجرعوا عوارضه الوخيمة فبغض النظر عن المساعدات المالية التي أوجبها القانون لصالحهم ، فضمن بذلك حياتهم ومعيشتهم ، أكد الإسلام على الوصايا الخلقية المهمة حول عدم جرح عواطف الأيتام بالخصوص والأطفال الفقراء على وجه العموم. وعلى سبيل الشاهد أذكر لكم رواية واحدة.

يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ، ضمن بيان واجبات الجيران وحقوقهم : « وإذا اشترت فاكهة فأهدها له ، وإن لم تفعل فأدخلها سترًا ولا يخرج بها ولدك يغيب بها ولده » (1).

الإنحطاط العائلي :

والإنحطاط العائلي عامل آخر من عوامل نشوء عقدة الحقارة والإصابة بالخجل المفرط في الاتصال بالناس. إن المصابين بهذه المشكلة يحسون بعدم الارتياح في ضمائرهم ويخافون تغيير الناس لهم.

لقد حذر الإسلام أتباعه في تعاليمه الخلقية والاجتماعية من التنازع والسخرية. إن المجرم يجب أن يعاقب حسب التعاليم الإسلامية ، ولا يجوز تغييره على ذنبه.

« قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا زنت خادم أحدكم فليجلدها الحد ولا يعيرها » (2) فإذا كان المسلم لا يحق له أن يعير الزانية على عملها ، كيف يحق له أن يعير أحداً بذنب صدر من أبيه أو أمه؟

لقد أنقذ الإسلام كثيراً من المسلمين الذين كانوا ينتمون الى عوائل منحطة من ضغط الحقارة بمنعه من ذم بعضهم البعض ، وهكذا نجد أن هؤلاء يتصلون بالناس

ص: 240

1- بحار الأنوار العلامة المجلسي ج18 ص212.

2- مجموعة ورام ج1 ص57.

ويعاشر ونهم دون شعور بالخجل والإنحطاط ، وإذا كان أحذب من المسلمين يوجه الذم نحوهم فإن الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمنعه من ذلك بصراحة.

كلنا نعلم ما كان يقوم به أبو جهل في صدر الإسلام من معارضة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في نشر دعوته. وقد اشتهر بسبب من سوء ما أضمر ، وفظاعة الجرائم التي قام بها بالخيانة والدنس بين المسلمين. لقد حضر ابنه عكرمة بعد موت أبيه بين يدي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) واعتنق الإسلام ، فقبل النبي اسلامه ، واحتضنه وأثنى عليه. لكن لما كان عكرمة ينتمي الى أسرة أضرت على الكفر واشتهرت بسوء السمعة بين المسلمين فإن ذلك كان إلى دعائياً إحتقاره من قبل المسلمين. وفي رواية أن المسلمين كانوا يقولون : « هذا ابن عدو الله أبي جهل ، فكشى ذلك إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فمنعهم من ذلك. ثم استعمله على صدقات هوازن » (1).

نستنتج مما تقدم أن الإسلام يرى أن الحياء المعقول الذي يضمن تنفيذ القوانين ويمنع من إرتكاب الذنوب ، من الصفات الفاضلة. أما الحياء المفرط غير المعقول ، والخجل المفرط الناشيء من ضعف النفس والضعفة فهو مذموم عنده.

لقد أوصى الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين بوصايا كثيرة منعاً من نشوء عقدة الحقارة فيهم. ورسم لهم الخطوط العريضة للحياة الصالحة السعيدة بفضل تعاليمه القانونية والخلقية. وفي ذلك كله وقاية عن ظهور هذا الداء الإجتماعي.

في نهاية المحاضرة أذكر لكم بعض الموارد التي لا يستحسن فيها الحياء حيث صرح الإسلام بالمنع منه فيها.

من ذلك قوله تعالى : (وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) (2) والرجال المؤمنون يتبعون أوامر الله عز وجل ويقولون الحق بكل صراحة وصراحة ويصرون عليه دون حياء أو خوف.

ص: 241

1- سفينة البحار للقمي ، مادة (عكرم) ص 216.

2- سورة الأحزاب ، الآية: 53.

إن الرجال المؤمنين لا يخافون لومة لائم في طريق الحق والواقع ... ولذلك فقد وصفهم الله تعالى في كتابه المجيد حيث قال : «يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لُومَةَ لَائِمٍ» (1).

والرجال المؤمنون لا يستحون أن يتعلموا ويتزودوا بالمعرفة في أي سن كانوا ، ففي الحديث : « ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه » (2).

والرجال المؤمنون لا يستحون أن يعترفوا بجهلهم إذا بجهلهم إذا سئلوا عن شيء وكان يجلهونه ، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام : « ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم ، أن يقول : لا أعلم » (3).

لقد حذر الأئمة عليهم السلام المسلمين من الخجل والحياء في كثير من الموارد ، حيث لا داعي لذلك.

وما أكثر الأشخاص المصابين بعقدة الحقارة بسبب من فقدان الإيمان أو الجهل ، أو ضعف الشخصية .. فيرتطمون في هوة الخجل المفرط في موارد لا تستحق ذلك. أما الأفراد المؤمنون فإنهم بمنجى عن هذه المشاكل بفضل اتباعهم التعاليم الإسلامية القيمة ، وإقتدائهم بسيرة أئمتهم عليهم السلام .

ص: 242

1- سورة المائدة ، الآية: 54.

2- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 113.

3- نفس المصدر.

قال الله تعالى في كتابه العظيم : (... وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ) (1).

العفة :

من الصفات الفاضلة والملكات الإنسانية القيمة : العفة. إنها تدعو الفرد إلى الإتزان في الإستجابة لميوله الجنسية ، وتحفظه من التلوث الانحرافات المختلفة. على الوالدين أن بنميا هذه الفضيلة الخلقية في الطفل ، يوهتما بنشونه على ذلك في كل مرحلة من مراحل حياته.

في قبال ذلك نجد أن الغريزة الجنسية تعتبر من أقوى الغرائز عند الإنسان. إن المآسي والمشاكل التي تصيب الفرد من هذا الطريق والميول المكبوتة والرغبات التي تصيب الفرد من هذا الطريق والميول المكبوتة والرغبات التي لم تلاق استجابة صحيحة تستطيع أن تولد في النفس الإنسانية عقداً عظيمة ، وتؤدي الى مفسد وانحرافات ، وجرائم وخيانات وحوادث قتل وغارت ... وفي بعض الأحيان تتسبب في ظهور مرض روحي أو تنتهي الى الجنون.

إن مسألة الإستجابة للغريزة الجنسية وكيفية إرضاء الميول المتعلقة بها من أهم المسائل العلمية والدينية. لقد أدلى علماء البشرية على مر القرون الطويلة ، نظريات مختلفة حول هذا الموضوع ، وقد ارتطم بعضهم بمشكلة الافراط أو التفريط في أفكاره. تتميز الأمم والشعوب في اعالم بأساليب خاصة في الاستجابة للغريزة الجنسية ، وتختص بعدات مختلفة في ذلك. أما في العصر الحديث فقد اتخذ الميل الجنسي لوناً جديداً ، وحصل على أهمية أكبر من السابق. إن الطبقة الواعية تعتبر هذه

ص: 243

المسألة من مسائل العلوم الحياتية ، والاجتماعية ، والنفسية ، والطب النفسي ، والتربية والتعليم وتجري البحوث العميقة حولها.

... وللإسلام نظرتة الخاصة في هذه الغريزة القوية ، منهجه الفريد في الإستجابة لها ، وقد استوعب ذلك عشرات التعليمات والوصايا المهمة في كيفية الإلتزان في إرضاء الميل الجنسي ، والوصول الى الأسلوب الأمثل الذي يجنب صاحبه الإنحراف.

إن البحث التفصيلي الكامل في هذا الموضوع يحتاج الى وقت طويل ويستغرق عدة محاضرات ، ولما كان يحتل مكانة سامية في تربية الطفل من الناحيتين : الدينية والعلمية ، فسنبصص محاضرتنا هذه بذلك ، متطرقين الى أمهات القضايا بصورة مضغوطة.

الغرائز والحرية المطلقة :

يعترف جميع العلماء من مختلف الأمم والشعوب بضرورة تعديل الميول والغرائز لضمان النظام الاجتماعي واستمراره على أسس من التعاون والإنسجام ويؤمنون بأن استجابة كل فرد لميوله ورغباته يجب أن تكون محدودة وتابعة لمقياس صحيح.

هناك تضاد حتمي بين الميول النفسانية والمصالح الاجتماعية في كثير من الأحيان ، ولا طريق لاستمرار المدنية وحفظ النظام الاجتماعي بغير التخلي عن الميول اللامشروعة. إن الإنسان مضطر الى التخلي عن فكرة الحرية المطلقة. تجاه رغباته وأهوائه في الحياة الاجتماعية ، ويرى نفسه مندفعاً بصورة تلقائية - الى جعل استجابته لغرائزه محدودة بإطار المصلحة العامة للأفراد الذين يعيشون معه في المجتمع.

« هناك كثير من الأفراد يعارضون التمدن بسبب من أن ذلك يؤدي الى تقييد حرياتهم في الإستجابة لغرائزهم يجب أن نتنبه في خصوص هذه المعارضة بأنها غير منطقية ابدأً. إذ يمكن القول بضرورة تحديد الغرائز من الناحية الفنية في سبيل تحقيق التمدن لمقاصده واهدافه».

« إن الحصول على الأمن والهدوء الناشئين من المدنية، من دون الإنصراف عن فكرة الحرية المطلقة، نوع من الأنانية والاثرة فعلى الإنسان أن يتخلى عن حريته الطبيعية التي كان يمتاز بها قبل نشوء المدنية - من الناحية النظرية - حتى يستطيع الدخول في الحياة الاجتماعية ».

« إن هذه الرغبة في الحرية ناشئة في الحقيقة من أن كل فرد يريد إرضاء رغباته النفسية بطريق خفي، من دون الاعتناء برغبات الآخرين، على الرغم من أنه يستفيد من القوي والوسائل الاجتماعية في سبيل الوصول الى غاياته ».

« إن الرغبة في الرجوع الى الحالة الطبيعية للحصول على مقدرة إرضاء الغرائز بصورة حرة خطأ فاحش. ولكن الرغبة في العيش في المجتمع المتمدن الى جانب امتلاك الحرية الكاملة، نفاق ممقوت، وأنانية مذمومة ... لأنها تؤدي الى الإضرار بحريات الآخرين » (1).

تزكية النفس :

تري المدينة الإسلامية أن الناس مقيدون في إرضاء غرائزهم والاستجابة لميولهم، كما ترى المدنيات المادية ذلك، مع فارق كبير هو أن المدنيات المادية تهدف الى ضمان الاستقرار المعيشي للإنسان، ولذلك فإن ترك الحرية في الاستجابة للغرائز إنما يتحدد بإطار المصالح المادية، والحفاظ على النظام الاجتماعي ... في حين أن المدينة الإسلامية تهدف الى امرين: أحدهما الحفاظ على النظام في الحياة المادية، والآخر الوصول الى الكمالات الروحية وإحراز الصفات الإنسانية العليا.

إن إحراز المقام الشامخ في الإنسانية لا يتيسر بضبط النظام المادي في المجتمع. فمن يرغب في الوصول الى هذا الهدف العظيم عليه أن يهتم بتزكية نفسه وتطهيرها من الجرائم والآثام، ويعمل على بلوغ الدرجة التي يستحق معها إعتباره إنساناً واقعياً في ظل الإيمان بالله وإلتزام المثل العليا. وكما إن استقرار النظام

ص: 245

الإجتماعي وضمان حقوق الآخرين يتطلب من الإنسان أن يقيد غرائزه ، كذلك الوصول الى الكمال الإنساني وبلوغ مرحلة القيم والفضائل فإنه لا يتيسر إلا بتقييد هوى النفس والتخلي عن الرغبات اللامشروعة.

الدين والمدنية :

إن التضاد الذي قد يلحظ أحياناً بين التعاليم الدينية والمدنية المعاصرة ناشيء من هذا الاختلاف في الهدف. فالتعاليم الدينية ترى أن كل عمل يخالف المصلحة الإجتماعية أو يتنافى والسعادة الفردية فهو محرّم ، وبعبارة أخرى لا يجوز لأي فرد أن يقوم بعمل من شأنه الإضرار بمصلحة المجتمع أو يتصادم مع سعادته الفردية. أما في المدنية المعاصرة فإن كل فرد يعتبر حراً في الأفعال التي لا تتصادم مع النظام الإجتماعي ولا تتضمن الإضرار بالآخرين والتجاوز على حقوقهم ، حتى لو كان ذلك العمل مضراً بسعادته كشرب الخمر ، والقمار ، والزنا ، والإنتحار. هذه الحرية هي التي سببت المآسي والمشاكل في عالم الغرب.

وبهذه المناسبة يقول الدكتور (الكسيس كارل) :

« يجري كل فرد في حياته حسب ذوقه الخاص. إن هذا الميل فطري في الإنسان ، ولكنه في الدول الديمقراطية قد بلغ أشد ما يمكن حتى أدى إلى نشوء أضرار كثيرة. إن فلاسفة عصر النور هم الذين وضعوا أساس هذه الحرية المطلقة في أوروبا وأمريكا ، وسخروا من المنطق وأصوله بإسم المنطق وأعتبروا كل إلزام أو تقييد أمر غير معقول. ومن هنا بدأت المرحلة الأخيرة من الحرب ضد القواعد والأسس التي كان يجري عليها أسلافنا في حياتهم ، والتي كان يلزم بها الأفراد جميعاً طيلة آلاف الأعوام حسبما توصلوا إليه من تجاربهم وعلى ضوء الأخلاق والآداب الدينية » (1).

« تلك الحرية التي يتمتع بها أكثر الأفراد ليست اقتصادية أو فكرية أو أخلاقية. إن الأشخاص الذين لا يوجد ما ينغص عليهم حياتهم هم

ص: 246

المتمتعون بهذه الحرية ولذلك نجدهم يتنقلون من كوخ إلى آخر ، ومن محل كَوَاز إلى محل كواز غيره ، ويقرأون الأكاذيب التي ملئت بها المجلات والصحف ، ويستمعون إلى الدعايات المنتقضة التي تنقلها لهم الإذاعة « (1).

الحرية المضرة :

إن موضوع إرضاء الغريزة الجنسية من الموارد التي فسخ للأفراد في دنيا الغرب الحرية المطلقة في ممارستها. وهكذا نجد أن كثيراً من الشبان والفتيات في تلك الدوله يصابون بالإفراط على أثر الحرية المطلقة الممنوحة لهم ، فينزلون الى هوة الانحراف والفساد عند إشباعهم للغريزة الجنسية .. وهذا ما يتضمن بين طياته المفاصد الكثيرة للامة والدولة.

« يوناتيد برس ص دلت الإحصاءات التي أجريت على حقائب طالبات المدارس المتوسطة في بريطانيا أن 80% منهم كن يحملن الأقراص المانعة من الحمل. لقد كتب أحد المحققين الاجتماعيين في الرسالة التي بعث بها الى صحيفة (تايمز) اللندنية أن الإحصاءات التي حصل عليها مضبوطة تماماً. إنه يقول : إن بعض الطالبات كن قد سألن مدرساتهن عن النوع المفضل لأقراص منع الحمل ».

« يقول هذا المحقق الاجتماعي في نهاية رسالته : ان هذه الحقيقة المرة والمأساة المخيفة ناتجة من الحرية المفرطة الممنوحة للفتيات الإنكليزيات « (2).

« آسوشيتد برس ص يقول الدكتور مولنز : إن من بين كل خمس فتيات انكليزيات يذهبن لعقد الزواج فتاة واحدة حامل. يقول هذا الدكتور وهو يشتغل بالطب في المنطقة الجنوبية من مدينة لندن ، في مقال خاص بهذا الموضوع : يحدث في لندن كل عام خمسون الف حادثة

ص: 247

1- المصدر السابق ص 9.

2- جريدة (اطالعات) الإيرانية - العدد ص 10623.

إجهاض جنائية. ويوجد من بين كل عشرين طفلاً متولداً ، طفل واحد غير شرعي ، وبالرغم من أن الظروف المعيشية تتحسن كل عام ، فإن عدد هؤلاء الأطفال يزداد باطراد. يعتقد الدكتور مولنز أن الأطفال غير الشرعيين غالباً ما يولدون في الأسر الموسرة وإن الفتيات اللاتي نشأن في الأسر الثرية يلدن أولاداً غير قانونيين أكثر من غيرهن « (1).

لا تقف أضرار الحرية المفرطة للناس في اتباع غرائزهم الجنسية عند حد انهيار اساس الأسرة ، وتلوث النسل ، والانحرافات الجنسية المختلفة والانتحارات الناشئة من الأخفاق في الحب والغرم ، واضطراب الأسس الخلقية ... بل إن هذا الأمر يتعارض مع الشرف الإنساني والميول البشرية العالية. إن الإنسان أعظم من أن يكون عبداً مطيعاً لشهواته ، وأسيراً منقاداً لغرائزه.

الأحرار :

لا شك أن الغريزة الجنسية تتطلب الإستجابة لها وإرضاءها كسائر الغرائز ، وعلى كل فرد أن يشبع هذه الغريزة وفقاً لقانون الخلقة. ولكن النقطة الجديرة بالاهتمام هي أن الشهوة يجب أن تكون مسخرة للإنسان ، لا أن يكون الإنسان مسخراً لشهوته.

إن الذي نقاد لرغباته وأهوائه ليس حراً ، بل هو عبد ذليل لشهوته. إن الأحرار هم الذين يستطيعون السيطرة على حب المال والجاه والشهوة بقوة الإيمان والعقل ، وفي ظل الأخلاق والفضائل.

وفي هذا يقول أمير المؤمنين عليه السلام : -

1 - « من ترك الشهوات كان حراً » (2).

2 - « عبد الشهوة أقل من عبد الرق » (3).

ص: 248

1- جريدة (كيهان) الإيرانية - العدد ص 5356.

2- تحف العقول عن آل الرسول ص 89.

3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 498.

3 - « أعدى عدو للمرء غضبه وشهوته. فمن ملكهما عظمت درجته وبلغ غايته » (1).

الميول الحيوانية والميول الإنسانية :

يحتوي الإنسان على طائفتين من الميول : - الطائفة الأولى عبارة عن ميول مشتركة بين الإنسان وسائر الحيوانات كحب الذات ، وحب الأولاد والشهوة والغضب والأكل والشرب وما شاكل ذلك. والطائفة الثانية عبارة عن الميول الخاصة بالإنسان ، كأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، والتضحية والعفة ، والحياء وعزة النفس ... وما شابه ذلك.

أما الميول المشتركة بين الإنسان وسائر الحيوانات ، فهي وإن كانت ضرورية لإدامة الحياة ، وذات أهمية خاصة ، ولكنها لا تكون ملاكاً للشرف ومقياساً للفضيلة الإنسانية مطلقاً. إنها لا يمكن أن تكون أساساً لتقدم الإنسان وتكامله. ذلك أن الميول التي تشكل الأساس للتكامل البشري هي الميول التي تضع الحد الفاضل بين الإنسان والبهائم ، وفي ظلها يستطيع الفرد بلوغ قمة الإنسانية والكمال. وكلما كانت هذه الميول المعنوية التي هي أساس الفضائل قوية في أمة من الأمم كانت قيمة تلك الأمة في الحياة الاجتماعية أكثر ، وكانت إلى السعادة الحقيقية أقرب.

إن قسماً من الميول الخاصة بالإنسان يملك جذوراً فطرية في نفس الفرد. وعلى المربي القدير إحياء تلك الميول بالتنمية الصحيحة ، وإخراجها إلى حيم الفعلية ، وذلك كالوفاء بالعهد وأداء الأمانة.

ولكن القسم الآخر من تلك الميول لا يملك جذوراً فطرية في نفس الفرد ... عندئذ يجب على المربي القدير استغلال جميع الوسائل العلمية والعملية في التربية لرسوخ أسس هذه الميول في نفوس الأطفال الذين عهدت اليه تربيتهم ... ومثال هذه الميول : العفة والحياء.

ص: 249

إن الميول الإنسانية العليا هي مكارم الأخلاق التي بعث نبي الإسلام العظيم لإتمامها والتي شكلت جانباً مهماً من برنامج دعوته ، وقد وردت في ذلك مئات الآيات والأحاديث.

يظهر أثر الميول الإنسانية في حفظ الشرف والرفعة للفرد ، والرقابة على الميول الحيوانية. فعندما تحاول الميول الحيوانية الخروج من حدود المصلحة وتلويث شرف الإنسان ، تعمل الميول الإنسانية على التلطيف من حداثها ، والتخفيف من ضراوتها ، وبالتالي منعها عن الانحراف.

وفي هذا يقول القرآن الكريم : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) (1).

إن الميل الحيواني للإنسان الجائع عبارة عن الحصول على الغذاء وسدّ حاجة الجوع. وهو لا يكثرث بأي عمل في سبيل الوصول الى ما يريد ، في حين أن الرجال الشرفاء وأصحاب الفضيلة الذين يتمتعون بالميول الإنسانية العليا لا يقدمون على أعمال مخلفة بالشرف في سبيل إرضاء غريزة الجوع ، ولا يستسلمون لذلّ السؤال والاستعطاء. إن عزّة النفس تسيطر على الميل الحيواني عندهم ، وتمنعهم من التجاوز عن الحد المعقول.

العفة الجنسية :

والعفة الجنسية من الميول الإنسانية العليا ، التي يتعهد المربي بتنميتها في نفس الإنسان حسب الأساليب التربوية الصحيحة. إن أثر هذه الفضيلة الحقيقية هو الرقابة على الغريزة الجنسية فعندما تطغى الشهوة وتحاول أن تدفع الفرد إلى الإعتداء والانحراف ، تقف العفة كسد محكم في قبالها وتمنعه عن الانزلاق في المهواة السحيقة ، فينجو عن الإنهيار الحتمي والانحراف الخلقي أما الأفراد المحرومون من هذه الفضيلة السامية فإنهم معرضون للسقوط والإنهيار في كل لحظة ، وإذا دفعتهم

ص: 250

حوادث الدهر إلى شفا جرف من الفساد والضلال فقلما يستطيعون إنقاذ موافقهم ، وتدارك الأخطار المحتملة التي ستصيبهم.

إن أساس العفة يجب أن يصب - كسائر الميول الفطرية عند الإنسان - منذ دور الطفولة. على الوالدين أن يستفيدا من هذا الدور ، ويوجدا هذه الفضيلة في ضمير الطفل قبل أيام البلوغ.

إن السلوك الممتاز للوالدين العفيفين ، وكذلك العوامل المساعدة التي يقومان بتهيئتها في جو الأسرة للأطفال لغرض تنشئهم على العفة ، أحسن السبل لترسيخ هذه الفضيلة في نفوسهم.

لقد اهتم الإسلام بهذه القاعدة الخلقية في منهاجه التربوي اهتماماً بالغاً. ولأجل أن ينشأ الأطفال المسلمون على العفة والطهارة أوصى الوالدين بتعليمات قيمة. وسنتعرض في هذه المحاضرة الى طائفة منها إن شاء الله ، ولكن من المناسب أن نوجه أذهان السامعين الكرام إلى نموذج من البحوث العلمية للعلماء حول أص الميل الجنسي.

ينبوع الحب :

لا شك في أن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز البشرية. ليس المراد من الغريزة الجنسية في الاصطلاح العلمي الحديث هو الميل للاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة فقط ، بل المقصود من ذلك معنى أوسع لا يعتبر الميل للاتصال الجنسي إلا مظهراً من مظاهره.

يرى العلماء أن الغريزة الجنسية بمنزلة ينبوع للحب والحرارة ، خُلق في باطن الإنسان منذ البداية. ففي أيام الطفولة والأعوام التي قبل البلوغ يجري هذا الينبوع في بعض المجاري الدقيقة ، ويبدى شيئاً من الحرارة الكامنة فيه. أما في أيام البلوغ فإنه يظهر باندفاع أشد ، وحرارة أقوى فتضطرم نيران الغريزة الجنسية في مزاج الشاب ، وتؤدي الى تحول عظيم في روحه وجسمه.

لقد اعترف جميع العلماء بأن بعض أفعال الطفل تنبع من الغريزة الجنسية في حين أن فرويد أصيب في هذه المسألة ككثير من المسائل بالإفراط والمبالغة ، وعشت

عيناه عن رؤية الحقيقة. لقد استند (فرويد) في نظرياته الى الغريزة الجنسية أكثر من الحد الواقعي ، إلى درجة أنه نسب حنان الأم وعطفها لطفلها الى هذه الغريزة ... ولسنا الآن في صدد ذلك. بل نقول : إن فرويد يعتقد بأن في الإنسان غريزتين أصليتين فقط : إحداهما حب الذابت والأخرى الغريزة الجنسية. ولكنه يعزو القسم الأكبر من اللذائذ البشرية منذ الطفولة حتى نهاية العمر إلى الغريزة الجنسية ... إن فرويد وأتباعه يرون أن إلتذاذ الطفل بامتصاص ثدي أمه ، أو مصّ إصبعه يعود إلى جذور جنسية!

« إن الميل الجنسي عند الأطفال يشترك مع الميل الجنسي عند البالغين ، وفي أن هناك طاقة محرّكة واحدة تغذي الميلين ، ويكفي مع اشتراك الطاقة المحركة هذا لأن نفس بعض حركات الطفل وأفعاله بتفسير جنسي بحث .»

« يميز فرويد في التطور بين مراحل مختلفة ، بمعنى أن الميل الجنسي يظهر في البداية على الفم ويتمثل في الإمتصاص ثم ينتقل إلى الأسنان ويظهر في صورة المضغ » (1).

لقد تعرضت نظريات فرويد إلى نقد شديد من قبل العلماء والباحثين فقد اعتبروا قسماً من تلك النظريات بعيدة عن الواقع تماماً ، وكتبوا في الردّ عليها بحوثاً مطولة ، ولكنهم يؤمنون بأن شطراً من أفعال الأطفال يعود الى طبيعة جنسية.

« يقول موريس وبز أستاذ جامعة استراسبورغ : إذا حاولنا الإيمان بجميع النظريات التي أوردها فرويد حول القضايا الجنسية فقد ارتكبنا شططاً ما بعده شطط. إنها بحاجة الى تصفية ضرورية ، وقد بدىء بها في الآونة الأخيرة ، ولكن يشترط في صحتها أن لا نخلط بين المسائل الجنسية ومسائل التناسل ، إن ما لا يقبل الإنكار هو أن الطفل - خصوصاً في المرحلة الثانية من حياته - أي ما بين 3 الى 6 سنوات يشتمل على بعض المبادئ الجنسية وليس هذا خاصاً

ص: 252

بالإنسان ، فالجميع يعلمون أن القرد أيضاً يملك في الأعوام السابقة على بلوغه بعض التطلعات الجنسية « (1).

تنمية مواهب الطفل :

يتولد الطفل من أمه وهو يملك موهبة التكلم ، والتفكير . ولأجل التنمية الصحيحة لهاتين الموهبتين يجب إلزام منهجين كاملين : أحدهما المنهج الطبيعي ، والآخر المنهج التربوي.

أما في النهج الطبيعي فلا بد من كون جميع عوامل نمو الطفل سالمة حتى يستطيع اللسان والمخ من مواصلة سيرهما التكاملي في ظل نشاطات تلك العوامل ، وبذلك تفتح المواهب الكامنة وتخرج الى حيز الوجود. فإن توقف اللسان أو المخ عن النمو على أثر مرض أو علة أخرى فإن الطفل يبقى أبكم وغير قادر على التفكير.

كذلك الاستعداد للنشاط الجنسي موجود في الطفل منذ البداية. ولا بد من وجود عوامل طبيعية تنمي هذه الغريزة طبقاً لسنن الخلقة ، وتخرجها الى حيز الوجود بالتدريج. كما انه لا بد من عوامل تربوية تقود تلك الغريزة نحو الطريق الصحيح وتحفظها بمنجى عن الانحراف والفساد.

إن الأبوين الفاقدين للعفة ، واللذين لا يتورعان عن التكلم بالعبارات البذيئة أمام طفلهما ، أو يرتكبان الأفعال المنافية للعفة أمامه بوقاحة ، يقودانه نحو الانحراف والفساد ، ويعودانه على الاستهتار واللامبالاة منذ الصغر.

الإنسجام بين التربية والطبيعة :

إن القاعدة الأساسية في التربية الصحيحة عبارة عن الإنسجام التام بين المناهج التربوية والقوانين الطبيعية. على الآباء والأمهات أن يسيروا حسب قوانين الفطرة في تربية اطفالهم خطوة خطوة ، ويربوا الطفل على الأسس الفطرية. فمثلاً يختلف الغذاء المناسب للطفل قبل ظهور الأسنان في فمه عنه بعد ظهورها. وعلى المربي أن يسير في أسلوب تغذية الطفل ونوع الطعام الذي يلائمه وفقاً لقانون الخلقة ، ويثبت منهاجه

ص: 253

الغذائي على الموازين الطبيعية والتكامل التدريجي للطفل. إن الرغبة في اللعب من الأمور الفطرية عند الطفل. وعلى المربي أن يجعل منهاجته التربوي منسجماً وهذا الميل الفطري فيعوده على الألعاب السليمة والبعيدة عن الأخطار.

والغريزة الجنسية من أهم الأمور الفطرية عند الطفل. هذه الغريزة تسلك طريق تكاملها ونموها في ظل سلسلة من القوانين والقواعد الطبيعية الدقيقة، وتمر بمراحل عديدة وفقاً لمنهاج الفطرة حتى مرحلة البلوغ.

ولكيلا يصاب الأطفال بالإنحراف الجنسي، بل ينشأوا على العفة والنزاهة، يجب على الآباء والأمهات أن يخضعوا أطفالهم الى رقابة واعية بواسطة منهاج تربوي سليم يتمشى والمنهاج الفطري... وبذلك يستطيعون أن يقودوهم نحو الطريق المستقيم المؤدي الى السعادة والفلاح.

« لقد بات من الأمور المتسالم عليها في الآونة الأخيرة أن النشاط الجنسي عند الأطفال يظل جامداً بين السادسة والثانية عشرة من أعمارهم ، وكما يقول علماء التحليل النفسي فإن هذه الفترة هي فترة ضمور. في هذه الفترة تحصل علاقات بين الأولاد والبنات أو بين الأطفال من جنس واحد ، قائمة على الحب ولكنها بعيدة كل البعد عن الشهوة. أما القوة الجنسية المحركة فإنها تستيقظ في مرحلة البلوغ بأقوى ما يمكن. وقيل هذه المرحلة فإن هذه النار بالرغم من وجودها ، مخفية تحت الرماد ، لكنها منذ هذه المرحلة تأخذ بالاندلاع وإبداء مظاهرها المختلفة » (1).

نلاحظ في هذه الفقرة المقتبسة ثلاث نقاط جديرة بالانتباه :-

الأولى - أن الفترة الواقعة بين السادسة والثانية عشرة عند الأطفال فترة خاصة من الناحية الجنسية.

الثانية - أن الغريزة الجنسية في هذه الفترة كالنار المستورة بالرماد ، أما في دور البلوغ فإن الرماد يتنحى وتتدلع ألسنة النار.

ص: 254

الثالثة - إن قانون الخلقة يقضي بأن يكون النشاط الجنسي جامداً ومضمراً في الأعوام الواقعة بين السادسة والثانية عشرة.

هذه النقاط الثلاث مما تعترف بها المدرسة الفرويدية ، ويدعن لها سائر العلماء والباحثين. وإذا عدنا الى ما ذكرناه آنفاً من ضرورة انسجام الأساليب التربوية مع القوانين الطبيعية ، فإن أفضل المناهج التربوية في كيفية توجيه الغريزة الجنسية في الفترة الواقعة بين السادسة والثانية عشرة هو المنهج الذي ينسجم وضمور النشاط الجنسي ، حيث تكون علاقات الحب بين الأطفال منزهة من شائبة الميل الجنسي.

وبعبارة أوضح : فإن المنهج الطبيعي في الأعوام السابقة على البلوغ يقضي باختفاء الميل الجنسي وجموده ... إذن يجب أن يكون المنهج التربوي منسجماً مع قانون الطبيعة ، ويساعد على هذا الجمود والضمور في سبيل تربية الطفل تربية صحيحة.

المنهج الإسلامي :

لقد أولى الإسلام في منهجه التربوي عناية فائقة للفترة الواقعة بين السادسة والعاشر من عمر الأطفال ، فقد أورد جميع التعاليم الضرورية في مراقبة الميل الجنسي والإيجاد ملكة العفة ، في خصوص هذه الفترة.

لقد راعى الإسلام في منهجه التربوي الإنسجام الكامل بين قوانينه التشريعية والقوانين التكوينية ، وحقق بذلك الوسائل الممهدة لجمود الميل الجنسي عند الأطفال في الفترة المذكورة. فقد جنّبهم عن كل عمر مثير يؤدي الى نضج النشاط الجنسي قبل أوانه ، وأوجب على الآباء والأمهات اهتمامهم بإيجاد الجو المناسب لبقاء هذا النشاط مجمداً حتى يحين موعد نضجه.

وفي هذا المعنى روايات كثيرة ، نكتفي بذكر نبذة منها : -

1 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصبي والصبي ، والصبي والصبي ، يُفَرَّق بينهم في المضاجع لعشر سنين » (1).

ص: 255

1- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص28.

- 2 - وعن الباقر عليه السلام : « يُفرّق بين الصبيان في المضاجع لِسِتّ سنين » (1).
- 3 - عن ابن عمر ، قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : « فرّقوا بين أولادكم في المضاجع إذا بلغوا سبع سنين » (2).
- 4 - وفي حديث آخر : « روي أنه يفرّق بين الصبيان في المضاجع لست سنين » (3).
- 5 - وعن الإمام موسى بن جعفر قال : « قال علي عليه السلام : مرّوا صبيانكم بالصلاة إذا كانوا أبناء سبع سنين ، وفرّقوا بينهم في المضاجع إذا كانوا أبناء عشر سنين » (4).
- في هذه الأحاديث نجد أن الإسلام يساير قانون الفطرة والخلقة فيأمر بالتفريق بين مضاجع الأطفال الذين يتجاوزون الست سنوات حتى يمنع من اتصال أجسامهم بشكل مثير للغريزة الجنسية في حين أن قانون الخلقة يقضي بجمود هذه الغريزة في الفترة التي هم فيها.
- 6 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا بلغت الجارية ستّ سنين فلا يقبلها الغلام ، والغلام لا تقبله المرأة إذا جاوز سبع سنين » (5).
- 7 - وعن أبي الحسن عليه السلام : « إذا أتت على الجارية ستّ سنين لم يجز أن يقبلها رجل ليست هي بمحرم له ، ولا يضمّها إليه » (6).
- 8 - وعن الإمام الصادق عليه السلام : « إذا بلغت الجارية ستّ سنين فلا ينبغي لك أن تقبلها » (7).
- 9 - وعنه عليه السلام ، سأله أحمد بن النعمان ، فقال : عندي جُويرية ليس بيني وبينها رحم ولها ست سنين . قال : « فلا تضعها في حبرك ولا تقبلها » (8).

ص: 256

-
- 1- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 115.
 - 2- بجار الأنوار للعلامة المجلسي ج 23 ص 114.
 - 3- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 116.
 - 4- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج 2 ص 558.
 - 5- مكارم الأخلاق للطبرسي ص 115.
 - 6- وسائل الشيعة لحر العاملي ج 5 ص 28.
 - 7- وسائل الشيعة لحر العاملي ج 5 ص 28.
 - 8- بجار الأنوار للعلامة المجلسي ج 23 ص 114.

10 - قال علي عليه السلام : « مباشرة المرأة ابنتها إذا بلغت ست سنين شعبة من الزنا » (1) والمقصود من المباشرة هنا مسّ عضوها الخاص.

إن التقبيل ، والمعانقة ، والتضاجع ، ومسّ العضو الخاص للطفل كل ذلك من الأمور المثيرة للميل الجنسي ، ولكي يبقى النشاط الجنسي عند الأطفال من السادسة فما فوق مجمداً ، أوصى الإسلام بالحذر عن القيام بتلك الأمور.

المناظرة المثيرة :

لقد اهتم الإسلام كثيراً بمنع الكبار من القيام بما من شأنه إثارة الميل الجنسي عند الأطفال وفي هذا يقول القرآن الكريم :

1 - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَصَدُّعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ) (2).

إن الله تعالى يأمر المسلمين في هذه الآية الكريمة بضرورة استئذان عبيدهم وأطفالهم غير البالغين عليهم قبل دخول الغرفة في ثلاث أوقات هي : قبل النهوض لصلاة الصبح ، وعند الظهر حيث يتخفف الإنسان من ملابسه ، وبعد صلاة العشاء حيث يستعد للنوم. فهذه الأوقات الثلاثة عورة للمسلمين ، ولا يجوز للأطفال الدخول على أبويهم فيها لأنهم في الغالب متخففون عن ملابسه ، وقد يكونون عراة.

2 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « والذي نفسي بيده لو أن رجلاً غشي امرأته وفي البيت صبي مستيقظ يراهما ويسمع كلامه ونفسهما ما فلع أبدا ، إن كان علماً كان زانياً أو جاريةً كانت زانية » (3).

3 - وعن الإمام الصادق عليه السلام : « لا يجامع الرجل امرأته ولا جاريته وفي

ص: 257

1- مكارم الاخلاق للطبرسي ص 115.

2- سورة 24 : 58.

3- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص16.

البيت صبي ، فإنه ذلك مما يورث الزنا « (1).

4 - وعن الإمام الباقر عليه السلام : « إِيَّاكَ والجماع حيث يراك صبي بان يحسن أن يصف حالك » (2).

لقد أوصى الإسلام في منهجه التربوي الآباء والامهات بالامتناع عن إثارة الغريزة الجنسية عند الأطفال بالمناظر المهيجة والعبارات المشينة ، ويهدف من وراء ذلك كله الى مسايرة قانون الفطرة وضمور الميل الجنسي عند الأطفال حتى يحين وقت نصوجه. وقد عرفنا أن المنهج التربوي الصحيح هو الذي يساير الفطرة في قوانينها ، ويساعد على ابقاء الميل الجنسي عند الأطفال محمداً ومستوراً. وقد روعي هذا الأمر في الروايات المتقدمة مراعاة تامة. فقد أمر الأئمة عليهم السلام المسلمين ببذل مزيد من الدقة في مراقبة أوضاع أطفالهم ، وإيجاد العوامل المساعدة لبقاء الميل الجنسي مضمراً عندهم والحذر عما من شأنه إثارة الشهوة فيهم.

هذا الدور لا يستطيع القيام به إلا الآباء والأمهات العفيفون الذين يحذرون من القيام بالأعمال المنافية للنزاهة في أقوالهم وأفعالهم ، في حضور الأطفال أو غيابهم.

جزاء التخلف :

إن جميع السنن الكونية والقوانين الطبيعية في العالم قائمة على أساس الحكمة والمصلحة ، وإن التخلف عن كل منها والخروج عليها يتضمن نتائج وخيمة ، ويستتبع جزاءً معيناً.

وضمور الميل الجنسي عند الأطفال في الأعوام السابقة على البلوغ ، من القوانين الإلهية الحكيمة المودعة في نظام الخلقة. إن قوى الطفل تستغل الفرصة في أيام ضمور الميل الجنسي ، فتعمل على تنمية جميع الأنسجة والأعضاء بصورة جيدة ، وتبلغ بالطفل الى النمو المناسب ، والكمال اللائق له. وبذلك تعدّه لتقبل البلوغ. وعند تظهر الغريزة الجنسية من خلف الستار ، وتندلع نيران الشهوة من

ص: 258

1- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص16.

2- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص16.

تحت الرماد يكون جسد الطفل قد استكمل بناءه ، واستعد لتقبل هذا التحول مع توفر جميع الشروط المناسبة. عندئذ يطوي مرحلة الطفولة دون أي خطر ومع أسلم وضع طبيعي ، ويصل الى المرحلة الثانية من حياته وهي مرحلة البلوغ.

النضج الجنسي السابق لأوانه :

لو لم ينفذ قانون تجميد الميل الجنسي عند الأطفال بدقة ، ونشطت عوامل البلوغ - على أثر ذلك - قبل موعدها المقرر ، فأدت الى النضج الجنسي السابق لأوانه ، كان ذلك داعياً لنشوء العوارض الوخيمة والآثار السيئة على روح الطفل وجسمه.

إن البلوغ المبكر والعوارض الناشئة من ذلك من أولى الآثار السيئة لهذه الحالة. ولكي يتضح هذا الموضوع الى درجة ما ، ويحصل المستمعون الكرام على معلومات أوسع في هذا الصدد استعرض لكم بعض الأمور المبسطة من كتب العلماء حول نمو الطفل واستعداد أنسجته وأعضائه للبلوغ.

إن الطفل المتولد حديثاً عبارة عن مجموعة من الأعضاء والجوارح المختلفة. وإن أعضاء الجسم المختلفة عبارة عن مجموعة من الأنسجة المتميزة المتكونة من ذرات صغار. يتميز كل نسيج بصفات خاصة ، اجتمعت فيما بينها تحت ظروف معينة وكونت عضواً من الأعضاء. إذن فالطفل المتولد حديثاً أو أي موجود حي في العالم عبارة عن مجموعة من الأنسجة والذرات الحية. إن العلم الحديث يسمي تلك الذرات الصغار بإسم (الخلايا) ، وإن نمو الجسم يعود الى تكاثر الخلايا.

« في كل لحظة من حياة الإنسان تتكون خلايا جديدة في جسمه وتندثر الخلايا المتهقنة ، ولما كان هذان العملان يحدثان معاً فإن إزدیاد الخلايا الجديدة على الخلايا المندثرة يعني نمو الجسم. ينمو الجسم منذ بداية حياته حتى بداية العقد الثالث بسبب من إزدیاد الخلايا ، ولكن منذ العقد الثاني تبدأ الخلايا الحادثة بالتساوي مع الخلايا المندثرة ولهذا فإن النمو يتوقف تقريباً. أما عندما يبدأ دور الشيخوخة فإن عدد الخلايا الحادثة يأخذ بالهبوط ، في حين يبقى عدد الخلايا المندثرة ثابتاً ، ولذلك فإن الخلايا تأخذ بالتناقص في

أجسام الشيوخ أي أن أجسامهم تأخذ بالتقهقر والانحطاط. إن الجسم يحتاج الى المواد الأولية في بناء الخلايا ، والمواد الأولية عبارة عن السكر ، والدهن ، والبروتين الذي يدخل الجسم بصورة غذاء ويصبح بعد تغييرات كثيرة بشكل ذرات صغيرة تُمتص وتقع في متناول الخلايا « (1).

النمو في الأعوام المختلفة :

إن من أدق آيات الله في بناء الإنسان ، النظام العجيب الذي ينطوي عليه صنع الخلايا. فمنذ دخول الغذاء الى المعدة وشروع الجهاز الهضمي في العمل الى حين تحول الى موجود حي باسم الخلية ، يطوي مراحل عديدة ، ويتدرج في تفاعلات متلاحقة حتى يأخذ الصورة النهائية.

« عندما تتوفر جميع الوسائل اللازمة ، فإن كل خلية تصنع المقدار الكافي من المواد الضرورية في داخلها ، وعندما تصبح هذه المواد كافية لإنعاش خليتين تنقسم الخلية الواحدة الى شطرين ، وبهذا تتولد خلية جديدة ».

« إن الجهاز الوحيد الذي يستثنى من هذا القانون ، هو الجهاز العصبي. ذلك لأن الطفل يتولد مع المجموعة الكاملة للخلايا العصبية ولا يصنع في جميع أدوار حياته حتى خلية عصبية أو مخية واحدة ... ولذلك فإن اندثار هذه الخلايا على أثر مرض أو صدمة لا يمكن أن يتدارك. بالرغم من ذلك كله فإن دماغ الطفل ينمو من دون إزدياد في عدد الخلايا ، وإن هذا العمل يحدث بسرعة فائقة جداً في الأعوام الثلاثة الأولى من حياته بحيث يمكن القول بأن 95/ من النمو الدماغي للإنسان يحصل في السنة الثالثة من عمره » (2).

يختلف الرشد الطبيعي للأقسام المختلفة من بدن الطفل في الأعوام الأولى من

ص: 260

1- هورمونها ص 8.

2- هورمونها ص 11.

ولادته ، والأعوام السابقة على البلوغ ، والأعوام اللاحقة له .. وكذلك عدد دقات القلب وسرعة التنفس فإن ذلك كله يختلف بحسب عمر الفرد.

« ينمو الطفل في البداية بسرعة كبيرة. فإن طوله في الفترة بين ولادته وبلوغه الخمس سنين يزداد بمقدار الضعف. وبعد ذلك تأخذ سرعة النمو بالتناقص حسب الخطوط البيانية التي توضح ذلك حيث تبلغ الحد الأدنى في السنة العاشرة تقريباً. ثم يبدأ النمو من جديد حيث يبدأ الأولاد في السنة الثانية عشرة والبنات قبل ذلك بعام واحد. إن طول الشخص يزداد في مرحلة البلوغ من عشرين الى خمس وعشرين سنتمتراً ، وهذا المقدار ليس كثيراً بالنسبة الى مجموع نمو الإنسان ، لكنه لما كان يحدث بسرعة وربما كان ذلك فجأة فإنه يبعث على الاستغراب والتعجب » (1).

« إن الأعضاء الداخلية للجسم تنمو بهذه الصورة أيضاً ، ويبلغ اكترها الحد الأعلى من الزيادة في الوزن في مرحلة البلوغ. إن حصة القلب من هذا النمو كبيرة نسبياً ، إذ أن حجمه يزداد بنسبة الضعف بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ، هذا الازدياد في الحجم يتناسب طردياً ومرونة الأوردة والشرايين ».

« تتغير المظاهر المهمة الأخرى للحياة أيضاً ، ولكن التغير الحاصل فيها يكون أبطأ ، فمثلاً تكون دقات القلب في مرحلة الطفولة 135 في الدقيقة الواحدة ، وفي دور المراهقة تتناقص إلى 90 في الدقيقة ، ثم تتناقص إلى 75 عند الذكور و80 عند الإناث. ولهذا فإن تنفس البالغين أهدأ من تنفس الأطفال ، في حين أن حجم التنفس الذي يقاس بواسطة جهاز خاص لذلك والذي يعدّ من العلائم المهمة للنشاط الحيوي ، يزداد بنسبة كبيرة فيما بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة » (2).

ص: 261

1- جه ميدانيم؟ بلوغ ص 23.

2- جه ميدانيم؟ بلوغ 25.

الغدد الداخلية والهورمونات :

تشكل الغدد الداخلية والهورمونات التي تفرز في الدم فصلاً مهماً من فصول علم الأحياء في نظر العلماء المعاصرين. ذلك أن نشاط الهورمونات معقد ومهم للغاية من الناحية العلمية. فهي تلعب دوراً كبيراً في أساس نمو جسم الطفل ، وفي موضوع البلوغ أيضاً.

« لقد أثبتت البحوث الجديدة لعلماء الأحياء أن الغدد الداخلية تلعب دوراً مهماً في نمو أعضاء الجسم بواسطة الهورومونات التي تفرزها ، وإن تأثيرها كبير الى درجة أن (باند) قد صنف الأشخاص في دور البلوغ حسب علم معرفة الغدد. وأهم هذه الغدد هي غدة الهيبوفيز والثايروئيد والغدد التناسلية ، والغدد فوق الكلوية ».

« تؤثر بعض الهورمونات في نمو الجسم ، ويؤثر البعض الآخر في نمو الجهاز التناسلي. وإذا صح لنا تسمية المواد الكيميائية المختلفة التي توجد في الجسم بمقادير ضئيلة بإسم التيار ، فيجب أن نقول أن هذه الهورمونات تعمل في تيارين مختلفين ولكنهما يلتقيان في النهاية ، خصوصاً بالنسبة إلى مسألة إزدياد طول الجسم فإنها حصيل تأثير غدد الثايروئيد والهيبوفيز ، عند ذاك تأخذ عملية النمو في الجسم بالتباطؤ بالتدريج ، وتبدأ مرحلة البلوغ على أثر نشاط هورمون جديد يفرز الهيبوفيز ، ويفضل الهورمونات التناسلية من قبيل التستوسترون التي تفرز من الخصيتين ، والفوليكلين التي تفرز من المبيض » (1).

هورمونات البلوغ :

تؤدي هورمونات البلوغ الى تحول عظيم في هيكل الطفل ، فينمو بصورة طفرة وفي أشد السرعة ، ويخرج من الصورة الطفولية في فترة وجيزة فيكتسب جميع ميزات الإنسان الراشد. إن النقطة الجديدة بالإنتباه هي جسم الطفل يجب أن يكون قد تلقى قدرأ كافياً

ص: 262

من النمو قبل ذلك حتى لا يحصل اضطراب على أثر إفراز هورمونات البلوغ.

« مهما كان عمل الهورمونات مهماً فإنها لا تستطيع أن توضح بوحدها جميع جوانب الطفرة البدنية ، فعندما تندثر الهورمونات أو تفرز أكثر من المقدار الإعتيادي يحصل اضطراب في عمل النمو. فوجودها إذن ضروري ولكن العمل المحرك لها يحتاج الى ظروف مساعدة ، وأهمها استكمال الأعضاء والأنسجة نحوها بالمقدار اللازم حتى تستطيع أعضاء الجسم مواصلة نموها بصورة مطردة وبعبارة أخرى فإنه لا بد من انسجام خاص بين عمل الهورمونات والظروف التي تستفيد فيها الأعضاء والأنسجة من تلك الهورمونات » (1).

أما البلوغ المبكر فإنه عبارة عن إفراز الغدد الجنسية هورمونها في جسد الطفل قبل أن يستكمل نموه الطبيعي ويستعد لتقبيل البلوغ ... وهذا يؤدي الى النضج الجنسي قبل أوانه.

« يتقدم سن البلوغ في النضج الجنسي السابق لأوانه عن العمر الاعتيادي (وهو الذي يتراوح بين 12 و 17 سنة) أي أن الغدد الجنسية تبدأ بالعمل قبل السنة العاشرة ، وبذلك يتقدم النمو الطولي ... هؤلاء المرضى يتقدمون على أقرانهم من حيث النمو لمدة وجيزة ، ولكن لما كانت الطبقة الغضروفية تزول بعد فترة النمو الطولي السريع مباشرة فإن فترة نمو هؤلاء المرضى قصيرة ، إذ لا يلبثون أن يتأخروا عن أقرانهم فيما بعد » (2).

اختلاف الظروف الطبيعية :

إن أفراد البشر - كسائر الموجودات الحية في العالم - خاضعون لتأثير الظروف الطبيعية المحيطة بهم. وبالنظر الى اختلاف المناخ ، وتغير درجة الحرارة وسائر

ص: 263

1- چه ميدانيم؟ بلوغ ص 33.

2- هورمونها ص 165.

العوامل الطبيعية في متلف نقطاط الكرة الأرضية ، يختلف النمو عند الأطفال أيضاً. ولهذا فإن السن التي تظهر فيها بوادر البلوغ الجنسي عند الذكور والإناث تختلف باختلاف المناطق.

« تختلف سن اليأس عند النساء بحسب الظروف المختلفة. والدورة الشهرية تبدأ في المناطق الحارة أسرع منها في المناطق الباردة. فمثلاً نجد في (لابوني) أنها تبدأ في الثامنة عشرة ، في حين أنها تبدأ في (الحبشة) في التاسعة أو العاشرة. لقد أثبتت التجارب الجديدة أنه كلما كان المناخ متغيراً كان هذا العمل أسرع وقوعاً » (1).

من هذا نجد أنه بينما تستطيع الفتاة الحبشية أن تلد طفلين أو أكثر ، فإن الفتاة للابونية في نفس السن لم تر الدورة الشهرية بعد. هذا الاختلاف بينهما يستند الى ظروف البيئة والمحيط ، فليس بلوغ الحبشيات مبكراً ، ولا بلوغ اللابونيات متخلفاً. إن المقصود بالبلوغ المبكر هو أن الولد أو البنت تبلغ قبل الموعد الطبيعي المقرر لهما ، وتبدأ الهورمونات الجنسية بالافراز قبل أن يحين الوقت الاعتيادي لذلك. وهذا نفسه نوع من أنواع المرض.

الاختلافات الهورمونية :

« بما أن البلوغ المبكر ناشيء من الاختلال الشديد في افراز الهورمونات ، فبالإمكان تقديم يد العون الى أكثر هؤلاء المرضى ، خصوصاً وأن قصر القامة ليس العارضة الوحيدة للبلوغ المبكر ، بل إن الاختلالات التي تؤدي الى النضج الجنسي السابق لأوانه خطيرة جداً » (2).

وقد يظهر الميل الجنسي عند الإنسان قبل مواعده المقرر ولا يكون مستنداً الى مرض ، بل يعود الى الاثرات التافهة والمناظر المهيجة التي نفذت الى روح الطفل وسببت النضج الجنسي المبكر.

ص: 264

1- چه ميدانيم؟ بلوغ ص 30.

2- هورمونها ص 15.

« يقول موريس دبس : إن العوامل الروحية من قبيل مطالعة القضايا المثيرة أو مشاهدة المناظر المهيجة تبكر في ظهور بوادر اليأس عند النساء » (1).

هناك عوامل كثيرة قد تؤدي الى الإثارات الروحية عند المراهقين ، وتسبب النضج الجنسي المبكر عندهم. إن قراءة القصص المثيرة للشهوة ، ومشاهدة المناظر المهيجة ، والتعاطف مع الآخرين وتقبلهم ، والاضطجاع على فراش واحد بحيث يحصل الاحتكاك والاتصال ... والأعمال المشابهة لذلك ، تؤدي الى الإثارات الجنسية والبلوغ المبكر.

إن الآباء والأمهات الذين يرغبون في أن يكون نمو أطفالهم مسائراً لقانون الفطرة والأشخاص الذين يريدون أن يطوي أولادهم مرحلة الطفولة بسلام ويبلغوا بصورة طبيعية ، عليهم أن ينفذوا تعاليم الإسلام بصدد إبقاء الميل الجنسي عند الأطفال مجمداً ، ويبعدوهم عن القضايا المثيرة للشهوة.

الإنحراف الجنسي :

الإنحراف الجنسي من الصفات الذميمة عند الإنسان ، والتي لا تتسجم والمقاييس الفطرية ، ولا تتلاءم مع الفضائل والآداب. إن الطريق الصحيح لإضفاء الميل الجنسي في قانون الطبيعة والشرعية عبارة عن اكتفاء الرجال البالغين ، واكتفاء البالغات بالبالغين ، ويشيع كل غريزته الجنسية بواسطة الطرف الآخر. قد ينحرف بعض الأفراد في طريق إشباع رغباتهم الجنسية عن صراط الفطرة المستقيم ، ويستجيبون لميولهم الجنسية بطرق غير طبيعية ... هؤلاء هم الذين سماهم القرآن الكريم بالعادين (أي المتجاوزين).

(... وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرَجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (2)).

ص: 265

1- چه ميدانيم؟ بلوغ ص 30.

2- سورة المؤمنون ص 5 - 6 - 7.

من العوامل التي تؤدي الى انحراف الميل الجنسي عن الصراط المستقيم للفطرة ، الخواطر المستهجنة الحادثة في دور المراهقة ، ومشاهدة المناظر المنافية للعفة. إن الغريزة الجنسية للشباب غير البالغ مجمدة بصورة طبيعية. فإن انسجمت التربية العائلية التي يتلقاها وهذاب الجمود ، ولم يواجه الطفل المناظر المثيرة ، فما بصورة طبيعية بعيداً عن الاضطرابات الجنسية.

وعندما يبلغ ويظهر فيه الميل الجنسي فإنه يوجّه نحو الطريق الطبيعي المعدّ له ، أي أن الفتاة تتجه نحو الشاب ، والشاب يتجه نحو الفتاة ، ولا يبقى مجال للشذوذ الجنسي بعد ذلك.

« عندما تستيقظ غريزة الالتذاذ في مرحلة البلوغ بعد أن كانت راقدة ، وتتجه الى العالم الخارجي تحاول أن تثبت بشيء حتى تجد به منفذاً لقدرتها الباطنية. في هذه اللحظة الحاسمة تعمل الإرادة الواعية الطبيعية على إرشاد هذه الغريزة الى طريق سليم هو التكاثر والتناسل. ومن علائم إرشاد الطبيعة أن الرجل والمرأة يشعران بتغير محسوس في أعظائهما التناسلية. إن الطبيعة تريد بهذه العلائم أن تفهم الطرفين بضرورة سلوك الطريق الفطري السليم الذي هو عبارة عن التناسل ».

« فإذا أدرك الشخص هذا القنون وانقاد إليه ، أي أن الرجل اقترب من المرأة ، والمرأة اتجهت نحو الرجل حتى يبادر الى عملهما الفطري والمنتج ، فإنه يمكن القول بأن النمو الشهواني قد سار في طريق مستقيم ومنظم ، وصرفت القدرة الغريزية في طريق طبيعي واعتيادي ، إن ملايين الأشخاص يسلكون هذا الخط المنظم والطبيعي ، والذي يسميه فرويد بالانسجام المزدوج » (1).

ص: 266

إن الرغبات والاستيلاءات التي تؤثر في روح الطفل ، والكلمات الطيبة أو البذيئة التي تطرق سمعه ، والمناظر القبيحة أو الجميلة التي يشاهدها ...

تؤثر في باطنه ، ثم تظهر نتائجها من خلال سلوكه وأفعاله عندما يصبح عضواً بارزاً في المجتمع.

الأسر التي لا تلتزم بالعفة الجنسية ولا تتورع من القيام بالأعمال المنافية للأخلاق والآداب أمام الأطفال غير البالغين ...

الآباء والأمهات الذين لا ينقادون للقوانين الفطرية في تجميد الميل الجنسي عند الأطفال ، بل يثيرون الغريزة الكامنة في أولادهم بسلوكهم الاهوج ، ويحملونهم على التفتيش والبحث عن الأعمال والنشاطات الجنسية المختلفة ...

وبصورة موجزة : الأشخاص الذين يعدّون وسائل الإثارة الروحية في أطفالهم تجاه القضايا الجنسية ، ويوجدون في اذهانهم صوراً للخواطر القبيحة ...

هؤلاء جميعاً يتسببون في الانحراف الجنسي لأطفالهم عندما يكبرون ، فزاهم - بعد أن أصبحوا رجالاً يحتاج اليهم المجتمع في القاء قسط من عبء المسؤولية على عواتقهم - غير جديرين بذلك.

يرى علماء النفس أن منشأ الانحراف الجنسي نوع من أنواع الحقارة ، يوجد في نفس الشخص المنحرف ، وإن كان لا يعترف بهذه الحقارة في الظاهر.

« إن الإنحراف ، والفشل في الزواج الطبيعي بالنتيجة ، وليد نوع من أنواع الشعور بالحقارة. ومهما كان هؤلاء الأفراد ذوي افكار وروحيات عالية في الظاهر ، فإنهم يتألمون من الشعور بالحقارة. ولو كان الأمر غير هذا لكانوا يقومون باحتياجاتهم الطبيعية بأنفسهم ، ويجدون بكل شجاعة وبسالة لبقاء النسل واستمرار التكاثر » (1).

ص: 267

والمظهر الآخر من عوارض الإثارة الجنسية عند الأطفال قبل بلوغهم ، العقد التي تنشأ عند الكبار بسبب من كبت الميل في أيام الطفولة.

إن الطفل حر في أقواله وأفعاله قبل البلوغ ، لا يحاسبه القانون ولا المجتمع على سلوكه. فإن كان أبواه عفيفين وكان المحيط التربوي طاهراً تربى على أحسن ما يرام ، وعبر مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ بإستقامة وسلام. أما إذا كان المحيط التربوي فاسداً وكان أبواه غير عفيفين فإنه يتعرض للأخطار والمشاكل العديدة.

إنه يتأثر بمشاهدة الأعمال الفاسدة والحركات المنافية للعفة الصادرة من أبويه ، فينشأ على الرذيلة والانحراف ، وسيكون إصلاحه بعد البلوغ صعباً جداً ... عند ذاك يكون معرضاً للتلوث بالذنوب والجرائم والسيئات الخلقية.

ثم إن الأعمال المثيرة الصادرة من أبويه ، وكذلك المحيط الفاسد الذي يعيش فيه تؤدي إلى إثارة الميل الجنسي عنده وهو بعد لم يبلغ ... وطفل كهذا عندما يبلغ ويصبح عضواً مستقلاً في المجتمع يلاقي مشاكل وصعوبات كثيرة ، ويواجه عقداً نفسية عديدة ...

فمن حيث أنه نشأ على التربية الفاسدة في طفولته يرغب في أن يكون حراً في الإستجابة لميوله وأهوائه ، لكن القيود الإجتماعية التي تلزمه بمراعاة المصالح العامة وإتباع المقررات العقلية تجبره على التخلي عن ميوله المنحرفة ، ولا شك أن هذا الفشل في تحقيق حريته يؤدي إلى نشوء عقدة جنسية في روحه.

ومن جهة أخرى فإن إنساناً كهذا يتألم من الأعمال القبيحة التي أرتكبها قبل بلوغه ، ولذلك يصاب بعقدة الحقارة ... إنه يشعر بالضعة والدونية عندما يتذكر ما جرى عليه ، ولذلك فهو يحاول التخلص من تلك الخواطر قدر المستطاع.

نستنتج من محاضراتنا هذه أن الميل الجنسي للأطفال في الاعوام السابقة على البلوغ تعيش في حالة من الجمود والضمور بصورة طبيعية. وعلى الوالدين أن ينقادا في منهجهما التربوي لقانون الفطرة ، ويوجدوا الظروف الصالحة لتربية الطفل بصورة تساعد على إبقاء الغريزة الجنسية جامدة ومضمرة.

إن الأطفال الذين لاقوا إثارات فاسدة لغرائزهم الجنسية قبل دور البلوغ على أثر انحراف البيئة التي عاشوا فيها يصابون بالعقد النفسية ،
والمشاكل الروحية ، والإنحرافات الخلقية العديدة بعد البلوغ.

ص: 269

إشارة

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) (1).

إن التربية السليمة للطفل أولى وأهم أسس السعادة الفردية والإجتماعية وهذه المسؤولية الخطيرة تقع على عاتق الأبوين قبل كل شيء. تتحقق التربية السليمة في ظل قاعدتين مهمتين :

الأولى - أن يكون المربي بصيراً بالواجبات التربوية الدقيقة من الناحية النظرية.

الثانية - أن يطبق معلوماته بكل جد وإخلاص في تربية الطفل ، ويقوم بواجباته خير قيام.

إن الآباء والأمهات الجاهلين بالأساليب التربوية ، والبعدين عن خيرها وشرها ... أو العالمين بها لكنهم لا يطبقونها على أولادهم بصورة صحيحة ، يعجزون عن تربيتهم بصورة سليمة ، وجعلهم أفراداً صالحين.

التربية الفاسدة :

إن القواعد التي ذكرناه في محاضرتنا السابقة عن التربية الفاسدة للطفل تعود إلى إحدى هاتين الجهتين. فالإفراط في المحبة ، والتزمت التافه والدل والغنج ، والإهمال الذي لا يستند إلى مبرر ، والإفراط في التشجيع والإستحسان أو اللوم والتفريع ... كل ذلك يعود إلى جهل المربي ، أو تغافله عن تطبيق واجبه بصورة

ص: 270

صحيحة بالرغم من علمه بوظائفه. والنتيجة هي نشوء الطفل على التربية الفاسدة.

« تعني التربية الفاسدة ترك الطفل لوحده دون تخطيط منهج لسلوكه وتقسيم لأوقاته. في هذه الحالة يستطيع من الطفل أن يصل إلى ما يريد دون جهد أو صعوبة ، خصوصاً إذا كان معتقداً بأنه لا يجازي على أفعاله. إن طفلاً كهذا تكون تربيته فاسدة إذا تلقى تشجيعاً زائداً على المعتاد ، أو قوبل بالدلال لغير سبب ، أو تربى في أسرة من دون وجود مشرف عليها ، أو كان المشرف متسامحاً على الأقل ، أو سمح له بإيذاء من حوله أو الإستهزاء من الآخرين من دون مبرر ، أو لا يطرق سمعه حديث عن النشاط والعمل ، أو ينشأ في أسرة خاملة وحقية ، أو تسير حياته على عدم الإيمان وحب الكمال ، أو يسير من دون هدف ومرشد » (1).

تترك التربية الفاسدة آثاراً سيئة في جسم الطفل وروحه ، وقد تستمر تلك الآثار حتى نهاية العمر تؤلم صاحبها وتقص عليه مضجعه. وكما سبق شرحه في المحاضرات السابقة فإن من الآثار السيئة للتربية الفاسدة ظهور عقدة الحقارة. إن المصابين بهذه الحالة النفسية ، والذين يشعرون بنوع من الحقارة والضعف في أنفسهم قلقون ومضطربون دائماً ، وتلاقي ضمائرهم الأمرين من العذاب والتأنيب الداخلي.

« إن شخصية رجل كهذا مركبة من عدم الثبات ، وفقدان الاعتماد على النفس ، والحيرة والتردد ، ثم الفرار من الواقع والالتجاء إلى الأحلام والخيالات ، والمخدرات ».

« ومن جهة أخرى فإن هذا الفرد يصبح فوضوياً وعابثاً ولكي يستر الشعور بالحقارة في نفسه ، يمتن قول الزور ويشعر بالاستعلاء ، ويتخذ المبالغة والإفراط في كل شيء قدوة له في سلوكه » (2).

قد يصاب الأطفال ، الشباب ، الشيوخ ، الرجال ، والنساء ... وبصورة موجزة

ص: 271

1- چه میدانیم؟ تربیت اطفال دشوار ص22.

2- عقده حقارت ص7.

كل الطبقات في الأعوام المختلفة من حياتهم بعقدة الحقارة من جهة أو عدة جهات. فإن لم تُحلّ تلك العقدة الروحية ، واستأصلت تلك الحالة النفسية في روح الفرد بصورة مرض مزمن ، أدى ذلك إلى عوارض وخيمة قد تنهي الى الجنون.

وكما أن الخجل يؤدي الى احمرار الوجه ، والخوف يبعث الصفرة في البشرة ، وبصورة عامة تؤثر الحالات الروحية في الجسم ، كذلك عقدة الحقارة فإنها ضغط روحي مؤلم ، وتتضمن ردود فعل مختلفة على جسم الإنسان.

رد فعل الحقارة :

إن كثيراً من مظاهر الضحك والبكاء ، والتواضع والتكبر ، والانتقام والتسامح ، والإنزواء والتظاهر ، والإكرام والتحقير ، والتقدم والتقهقر ، والنصح والموعظة ينبع من عقدة الحقارة. وقد تصدر هذه الأفعال بصورة طبيعية تماماً بحيث لا يغفل الناس عن أساسها النفسي فقط ، بل لا يعلم صاحبها عن أساس سلوكه المستند الى عقدة الحقارة أيضاً!

ولما كان الإنتباه إلى الأفعال المؤدية إلى نشوء عقدة الحقارة مهماً جداً في تربية الطفل ، فيلزم على الآباء والأمهات معرفة هذا الأمر النفسي الدقيق ... هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن شرح هذا الموضوع يفيد في تهذيب الأخلاق العامة ، وتطهير أعمال الأفراد عن هوى النفس. فمن الضروري إذن أن نبحث هذا الموضوع بصورة مفصلة ، ونبين الأخلاق والأعمال السيئة للأطفال والكبار ، التي تنبع من عقدة الحقارة ... آمليين أن يكون هذا البحث مفيداً من جوانب عديدة.

إن غريزة حب الذات من الميول الأساسية والفطرية للإنسان. فكل فرد يحب ذاته وجميع الكمالات المتعلقة به بصورة فطرية. والشعور بالحقارة يقع في النقطة المقابلة لحب الذات. تشبه عقدة الحقارة عدواً قوياً يقف بوجه حب الذات ويحاول تحطيم شخصية الفرد والتقليل من مكانته. إن المصاب بهذه العقيدة وإن كان يعاني صراعاً شديداً في باطنه إلا أنه يسعى في أن لا يفشي هذا السر المكنون بين الناس ، ويحاول أن لا تجرح غريزة حبه لذاته ... إنه يصرف قسماً من جهوده في سبيل إخفاء هذه الحالة النفسية ، ولذلك فإنه سرعان ما يفقد مقاومته.

« عندما يشعر فرد سالم وقوي تماماً بالضعف والكسل في نفسه من دون سبب فمعنى ذلك أن روحه غير سليمة إنه يعاني صراعاً وروحياً في باطنه ، بحيث تثير أعصابه بصورة خطيرة وتتعبه كثيراً. إن أفضل مقال حي لإنسان كهذا أن نتصور سيارة ضغط السائق فيها على جهاز الإيقاف (البريك) ولكنه يحاول في نفس الوقت أن يدفعها للسير بأقصى سرعة ، إن العمل مضافاً الى انه يورد ضغطاً لا مبرر له على الاطارات ، يتسبب في فساد المحرك وعطبه بسرعة. فالسيارة التي كان بالإمكان أن تعمل لعدة سنوات بصورة طبيعية.

نجدها قد عطبت وسقطت عن الاستفادة في فترة وجيزة كذلك الدماغ الذي يلاقي إرهاقاً من أثر القلق الروحي فإنه يشبه كابوساً على روح الإنسان ومخه ، ويتلف الأعصاب قبل موعد تلفها « (1).

تدارك النقص :

إن الشخص المصاب بعقدة الحقارة ، أو الذي يشعر بالحقارة يحاول أن يسد نقصه الداخلي ، أو لأجل إقناع نفسه على الأقل ، يقدم على أفعال يتصورها صحيحة ومناسبة ، ولكنه يحرص أشد الحرص على أن لا ينتبه الأفراد الى العلة الواقعية لتلك الأفعال ، التي هي الشعور بالضعف والدونية. لهذا فإنه يحاول أن يبرر كل عمل من أعماله بأسلوب معقول صحيح حتى يقنع الناس بذلك باستقامته وصحة أفعاله.

لتوضيح هذا الموضوع أذكر لكم نموذجين :

1 - لنتصور طالباً لم يتلقَ مقداراً كافياً من الثقافة والتعلم إما بسبب من قصوره وضعف إدراكه ، أو لتهاونه وكسله. إنه يحس بالحقارة في باطنه ، ويرى نفسه في مستوى أقل وأوطأ من مستوى بقية الطلاب ، إنه يعرف جيداً أنه لو اشترك في الإمتحانات فنتيجته الرسوب المحتم وإفتضاح أمره لدى زملائه. ولكي يخفي حقارته الباطنية يتمارض أو يترك الدراسة تماماً ويقول في تبرير عمله هذا : ما هي فائدة

ص: 273

الدراسة؟! إن الثقافة في هذه البلاد تؤدي إلى الحرمان والتعاسة! ما أكثر الأشخاص المثقفين الذين بقوا عاطلين عاجزين عن تحصيل ما يسد رمقهم... وبالمناسبة يذكر أسماء بعضهم. إنه يحاول بحديثه هذا أن يشرك الطلاب الآخرين معه في عقيدته ويحثهم على ترك الدراسة أيضاً.

2- يقول شاختر :

« أتذكر فتاة دعيت إلى حفلة كبيرة ، فظلت تستعد لملابسها عدة أيام ، ولكنه تنبهت قبل ذهابها الى الحفلة بساعتين أو ثلاث إلى أن أمها مصابة بمرض ولذلك يجب عليها أن تتخلى عن الذهاب .».

« مهما أحلوا عليها وأصرّت الأم نفسها عليها بالذهاب لم يجد ذلك نفعاً وأخيراً أجهشت بالبكاء. كانت تقول كيف أستطيع أن أترك أمي على هذه الحالة وحيدة وأذهب للترفيه عن نفسي؟ في حين أن مرض أمها لم يكن جديداً ولم تكن هناك حاجة لبقائها. لقد ذكرت الأم فيما بعد أن هذه الفتاة كانت مضطربة منذ ليالٍ وكانت لا تنام باستقرار ، ولقد أدركت جيداً أنها كانت تخشى من الذهاب الى تلك الحفلة كثيراً ، لأنها كانت تتصور أنها لا تستطيع مضاهاة الفتيات هناك بملابسها. ولكنها ما أن تذرعت بمرضي وشكرتها على حنانها هدأت واعتقدت أنها تملك مبرراً معقولاً لعدم الذهاب الى الحفلة. ولذلك فقد نامت تلك الليلة - على عكس الليالي السابقة - على أتم الراحة والاستقرار. ولكن كان يظهر من خلال كلماتها في الأيام للاحقة أنها كانت متألّمة في باطنها من عدم الذهاب الى الحفلة « (1).

إن كلاً من الطالب والفتاة كان يحس بالحقارة في نفسه. الأول لجهله وقلة حظه من الثقافة ، والثانية لعدم أناقة ملابسها ، هذا الشعور دفع الطالب الى ترك المدرسة والفتاة على عدم الحضور في الحفلة. لقد برر الطالب عمله ذاك بحرمان الرجال

ص: 274

1- رشد شخصيت ص 81.

المثقفين وبطالتهم ، وبررت الفتاة عملها بمراقبة أمها في مرضها ، ولم يوافق أيّ منهما على التصريح بالحقارة التي يشكو منها والتي كانت الدافع الحقيقي لسلوكهما.

تختلف ردود الفعل التي يبدونها الأفراد على أثر إصابتهم بعقدة الحقارة. لانه بغض النظر عن اختلاف الشعور بالحقارة عند الأفراد من حيث الشدة والضعف ، فإن الظروف البيئية والعوامل الاجتماعية المؤثرة في أفعال الفرد وأقواله تختلف أيضاً من فرد إلى آخر. إن البناء الروحي والتربية العائلية والخواص الفطرية والمكتسبة للأشخاص تختلف اختلافاً كبيراً ، وعندئذ فمن البديهي أن تكون أفعال الناس المتولدة من أفكارهم متنافرة ومتضادة أحياناً.

وهكذا فإن البعض يظهرون ردود الفعل لعقدة الحقارة بالسكوت والهدوء ، والبعض الآخر بالثرثرة والإطالة في الحديث ... قسم منهم يتذرع بالتملق ، والقسم الآخر يلتزم التكبر والإستعلاء. طائفة تتصف بالعطف والحنان ، وأخرى تتسم بالفحش والتسيب.

الإنتقام :

الرغبة في الإنتقام من أهم ردود الفعل العقدة الحقارة وأخطرها على الإطلاق. ذلك أن هذه الرغبة الموجودة عند بعض الأطفال والكبار تؤدي الى الطغيان والفوضى ، وبذلك تتضمن سلسلة من المشاكل والمآسي التي لا تجبر.

« إن العلة الأخرى لظهور عقدة الحقارة هي السلوك المتزمت والشديد الذي يلاحظ تجاه بعض الأطفال ، أي الذين يُنظر إليهم نظرة السخرية والتحقير. وأشد من ذلك موضوع العقوبات البدنية التي تؤلم جسد الطفل وروحه معاً. إن الأطفال الأبرياء الذين يواجهون هذا المشاكل يصبحون بلا شك أخطر أعداء المجتمع. وكما أن الحب والحنان أساس التنظيم الإجتماعي ويؤدي إلى تجمع الأفراد وتمركزهم فإن الحقد والبغضاء عامل أساسي في التفرقة والتشتيت. وهكذا فالطفل الذي شعر بأن جو الأسرة وحجر الوالدين ليسا إلا مقرأً للكراهية والحقد ، ولا يستطيع أن يتصور بأن

جميع الناس ينظرون إليه بغير نظرة الكراهية والإحتقار ... ولذلك فإنه يثار ، وينتقم ، ولا يوجد في قلبه محل للحب واللين ، عند ذاك يصبح في عداد الناقمين على المجتمع ساخطين على جميع الأفراد. إن كل ما يصيب الفرد من شر أو انحراف في صغره يسبب رد فعل مشابه له من جانبه « (1).

إن الطفل الذي يتجرع الضغط والتحقير والسخرية من أبيه أو أمه أو زوجة أبيه أو مربيه ، يحمل حقداً خاصاً في قلبه ، ويحاول تدارك الفشل الذي لاقاه في حياته فيقدم على كل عمل خطير وحقير ولا يتورع من ارتكاب أي جريمة أو ذنب.

إن أبسط نموذج لطغيان الأطفال والشبان هو الفرار من أسرهم وترك والديهم ... وذلك ما نقرأه في الصحف كل يوم ، ونسمع استغاثة الآباء في سبيل العصور على أولادهم ، وقد تنتهي هذه الحوادث بقضايا مؤلمة ومشاكل لا تجبر كالانحراف الجنسي ، السرقة ، أو الإنتحار. وأخيراً فإن كلاً من الولد أو الفتاة الهاربين ينتهي إلى مصير تعس ومؤلم ، ويكون بعمله هذا قد انتقم لكرامته من أبيه بتلويث سمعتهما والحط من منزلتهما في المجتمع.

وبهذا الصدد يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « وَلَدُ السَّوِّءِ يَهْدِمُ الشَّرْفَ ، وَيَشِينُ السَّلَفَ » (2).

نماذج للإنتقام :

تخطر ببالي عدة نماذج للإنتقام من قبل الأطفال والشبان والمحتقرين ، لا أرى من الصالح ذكرها في هذا الإجتماع العام ، لأن ذلك قد يؤدي إلى إثارة ثائرة الإنتقام في نفوس بعض الشبان الذين يلاقون الأمرين من التحقير والاهانة من قبل آبائهم ، وفي ذلك مفسد كبيرة. لكنني سأكتفي ببعض النماذج المقيدة في حسن تربية الأطفال ليطلع الآباء على واجباتهم في هذا الصدد.

ص: 276

1- عقده حقارت ص 16.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 780.

من عوامل نشوء عقدة الحقارة عند الطفل ، الإفراط في الحب والحنان من قبل الوالدين تجاه طفلهما. إن الطفل الذي عومل بمقدار اعتيادي من الحب واللين لا- يتألم لولادة الطفل الثاني في الأسرة لأن المقدار الذي كان يعامل به لا يزال موجوداً الآن. لكن الطفل الذي عومل بحب وحنان زائدين ونشأ على الدلّ والغنج يتألم كثيراً لولادة الطفل الثاني ، لأنه يرى أن قسماً من الحب الذي كان يستأثر به إلى ذلك الحين قد صار من حصة أخيه أو أخته ، ولذلك فإنه يحقد عليه ، ويتحين الفرص للانتقام منه. فيضربه ، أو يدخل إصبعه في عينه ، أو يقرصه. كذلك يحاول الانتقام من أبويه فيسيء إليهما ، ويعاملهما بالقسوة والإهمال ، لا يعتني بكلامهما ، وقد يسمعهما لما لا يرضيان.

الأطفال المحرومون :

والعامل الآخر من عوامل إيجاد عقدة الحقارة عند الطفل ، الحرمان من اللباس المناسب والغذاء الطيب ووسائل اللعب أو أدوات المدرسة. إن الطفل الذي يلبس حذاءً بالياً أو ثوباً رثاً بين الأطفال الأنيقين في ملابسهم أو الذي يرى مختلف وسائل اللعب بأيدي الأطفال الآخرين ويجد نفسه فاقداً لها ... أو الذي يذهب الى المدرسة وهو لا يملك حقيبة أو أدوات مدرسية ، يشعر بالحقارة في نفسه ، ويرى أنه في مستوى دون مستوى الآخرين.

إن الآباء الموسرين الذين يستطيعون الإستجابة لحاجات أطفالهم بصورة معتدلة ، ولكنهم يقترون عليهم بسبب من لؤمهم وبخلهم يرتكبون جرماً عظيماً. فقد قال رسول صلى الله عليه وآله : « ليس منا من وسع عليه ثم قتر على عياله » (1).

وعن علي بن الحسين عليه السلام قال : « أرضاكم عند الله أوسعكم على عياله » (2).

ص: 277

1- مستدرك الوسائل للمحدث النوري ج2 ص643.

2- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص132.

وفي حديث عن ابن عباس ، قال : قال النبي صلى الله عليه وآله « من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها الى عياله كان كحامل صداقة إلى قوم محاوِج ، وليبدأ بالاناث قبل الذكور. فإنه من فرّح ابنته فكأنما أعتق رقبة من ولد إسماعيل ، ومن أقرّ عين ابن فكأنما بكى من خشية الله ، ومن بكى من خشية الله أدخله جنّات النعيم » (1).

إن الأطفال الذين يصابون بعقدة الحقارة الحقارة في مثل هذه الظروف يحاولون تدارك حرمانهم بصور مختلفة من الإنتقام. وقد ينتهي ذلك بثمان حياة الأب المتزمت أو تمني موته على الأقل.

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام : « ينبغي للرجل أن يوسع على عياله لئلا يتمنوا موته » (2).

هؤلاء ينتقمون بواسطة الحرق أو الكسر أو التهديم وبصورة موجزة تفتيت ثروة آبائهم وتدميرها ، وقد يقدمون على سرقة أموالهم ، وبذلك ينتقمون من سلوكهم الظالم تجاههم ، ويجبرون ما تجرعوه من التحقير والحرمان.

يقول الدكتور آلاندي : « يجب أن نمتنع عن كل ظلم تجاه الطفل حتى لا ينشأ على السرقة. إن كل طفل يصبح سارقاً لا بد وأنه قد غُبن حقه في يوم من الأيام وقوبل بالتجاوز والظلم. ليس من الضروري أن يكون هذا التجاوز حقيقياً ، بل من الممكن أيضاً أن يتخذ صورة مجازية وتصورية ... وقد يكون تصوراً طفولياً إلى درجة أن الكبار لا ينتبهون لذلك أبداً ، ولكن هذا كله لا يمنع من أن يترك آثاره العميقة والمؤلمة على روح الطفل ».

« إذا حاولنا أن نعمل على اقتلاع جذور السرقة ، فيجب أن نحیی في الطفل منذ البداية ذلك الشعور بالحق والإنتقام الناشيء من حرمان سابق ، ثم نعمل على تدارك الحرمان وعلاجه ».

ص: 278

1- مكارم الاخلاق للطبرسي ص 114.

2- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص132.

« هناك بعض الأطفال يصرفون النقود التي سرقوها على أصدقائهم بكل سخاء ، وهذا يدلنا على أنهم يرغبون في الانتقام من التحقير الذي كانوا يقابلون به ، فيشعرون عند ذاك بأنهم ذوي مكنة مادية عالية ، يستطيعون جلب قلوب الناس نحوهم بها ».

« لقد وجدت بنفسى طفلاً في الثانية عشرة من عمره يسرق نقود الآخرين ولكنه يشتري لأطفالهم الذين كانوا أصغر منه سناً بعض اللعب والدُمى. وتبين بعد ذلك أن أبوي هذا الطفل كان لا يشتريان له وسائل اللعب في الصغر ، وهو الآن يريد تدارك الحرمان الذي كان يلاقيه والظلم الذي كان يتجرعه بهذا الصورة » (1).

يجب على المومنين أن يوسعوا على أطفالهم إتباعاً منهم لتعاليم الإسلام ، ويعملوا على تلبية رغباتهم وحاجاتهم الطبيعية فيحفظوا بذلك شخصيتهم من الإصابة بعقدة الحقارة ، ويجنبوا أنفسهم من ويلات الانتقام الناشيء من الشعور بالحرمان في الأمور المعيشية.

السخرية والإستهزاء :

ان الوسيلة الاخرى من وسائل الانتقام والثأر لتدارك الانهيار الداخلي بالنسبة الى المصابين بعقدة الحقارة هو السخرية والإستهزاء والنقد اللاذع واللولم الشديد تجاه الآخرين.

« إن التلميذ المتخلف في دروسه بسبب من إهماله أو قلة ذكائه ، ينتقم من الآخرين بالإستهزاء منهم ورميهم بالنكات المشوبة بالسخرية. الكل يضحكون ويلتفون حوله ، وهو يزداد مهارة وشهرة في المزاح ويتلذذ بالانتقام اكثر ، فيتصور - خطأ - أن هذا اللذة التافهة تستطيع أن تحل محل أبسط نجاح ».

« من البديهي أن هذا الفرد لا يلتفت الى الدافع الى سلوكه هذا ، أي أنه لما كان يعجز عن إحراز النجاح في أي فرع أو مهنة فهو يسخر من زملائه من حيث لا يشعر ،

ص: 279

ويرضى ضميره بذلك ، ولكنه لا- يحصل على نتيجة سوى تحقير نفسه والخط من منزلته في أنظار الآخرين. إن مما يؤسف له أن هذه النماذج ليست مقتصرة على الأطفال بل توجد في الأشخاص الكبار أيضاً « (1).

النفاق :

جاء الاسلام بمبادئه القيمة ، وتعاليمه القائمة على المنطق والاستدلال وأخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤثر بسلوكه الممتاز في الناس ويجلب قلوبهم نحو دين الله وهذا ما لا- يروق للمعاندین ، فأدى التقدم السريع للإسلام واعتناقه من قبل العرب وغيرهم إلى شعورهم بالحقارة والضعف. إنهم كانوا لا يرغبون في الخضوع للنبي والإنقياد لحكمه من جهة ، ومن جهة أخرى فإنهم كانوا لا يستطيعون الإستمرار على الحياة في قبال قدرة المسلمين المتعاضمة ... فاضطروا إلى اعتناق الإسلام في الظاهر ، لكنهم كانوا في الباطن يضمرون أشدّ الحقد والعداء له :

لقد عبر القرآن الكريم عن هؤلاء ب- (المنافقين). إن النفاق بصورة عامة دليل على الضعف والحقارة الموجودة في باطن الشخص.

قال علي عليه السلام : « نفاق المرء من ذلّ يجده في نفسه » (2).

إن المنافقين الذين كانوا يحترقون في نار الحقارة كان عليهم أن ينتقموا لتدارك الإنهيارات الباطنية. فعندما يسوا من قتل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتحطيم قوة المسلمين لجأوا إلى الوسائل الأخرى. إن الإستهزاء والسخرية والطعن والإهانة أحد وسائل الإنتقام. فأخذ المنافقون بالإستهزاء من المسلمين بصورة علنية كلما قدروا على ذلك. أما عندما كانوا لا يجراؤن على الإستهزاء علناً فإنهم كانوا يجتمعون فيما بينهم ويحاولون تبرير مواقفهم بأنهم يسخرون من المسلمين ... (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ) (3).

ص: 280

1- رشد شخصيت ص 97.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للأمدى ص 777.

3- سورة البقرة : 14.

يحاول الطفل الذي وقع موقع السخرية والإهمال أن يتدارك الفشل الذي لاقاه ، فيظهر شخصيته مستغلاً فرصة وجود الضيوف فيثار لكرامته. عندما تكون الأم خائضة في حديث مع الضيوف دون اعتناء الى الطفل ، فإنه يشاغب ، يحطم الأبواب ، يكسر النوافذ ، يصبح ويبكي ، يتكلم بعبارات تافهة لا معنى لها ... كل ذلك لكي يحول دون سماع الضيوف لكلام أمه ، ويقطع حديثهم. إنه يريد جلب إنتباه الآخرين إلى نفسه بهه الأعمال ، إنه مسرور لقدرته على كشف شخصيته ، ويتلذذ كثيراً على نجاحه.

كذلك الكبار فإنهم يقدمون على هذه الأفعال الصبانية في بعض الأحيان لغرض الإنتقام. كثيراً ما يصادف أن شاباً يتعلق قلبه بحب فتاة ويخطبها من أهلها ، لكن الفتاة لا تراه كفواً لها لجهات عديدة فتحتقره برّد خطبته. يفكر الشاب الفاشل في تدارك الحقارة ، ويعمد الى الإنتقام والثأر لكرامته. قد يقوم بعضهم ليلة زفاف الفتاة بإحداث ضجيج وصخب ، أو يحطم المصابيح ويكسر النوافذ ، أو يقوم بأعمال تخريبية أخرى بغية تبرير فشله وإرضاء ضميره المندحر.

هذا السلوك يشابه تماماً سلوك الكفار المندحرين في صدر الإسلام ، إذ قاموا بأعمال صبانية تافهة بغية الإنتقام من الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ليتداركوا بذلك حقارتهم الباطنية ، فكانوا يثيرون الشغب واللغط عند قراءة النبي القرآن الكريم.

(وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تغلبون) لقد كانت قراءه القرآن من أعظم الوسائل لنشر الدعوة الإسلامية. فندما كان ينتشر اللحن البديع للنبي صلى الله عليه وآله عند قراءة القرآن في الفضاء ، كان الناس يستمعون بكل رغبة وشوق إلى ذلك الصوت العذب ، وكانت تبهرهم ألفاظ ذلك الكتاب السماوي ومعانيه. أما الكفار الذين كان يتألمون من تقدم الإسلام وكان ذلك يبعث الحقارة والذلة في نفوسهم فإنهم كانوا يوصون أصحابهم بأحداث اللغط والصخب عند قراءة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للقرآن ، وكانوا يأمر ونهم باللغو والشغب ... حتى تختلط اصواتهم بصوت النبي فيستطيعوا بذلك من الغلبة على دين الله.

إن توجيه النقد اللاذع الى الآخرين وسيلة اخرى من الوسائل التي يستخدمها المندحرون والمصابون بعقدة الحقارة لغرض الإنتقام وتدارك الحقارة التي هم عليها :

ولنعترف سلفاً بأن النقد « (1) يعتبر من أفضل وأهم وسائل التكامل الفردي والاجتماعي. أذ لا شك في أن الأمة التي يستطيع الأفراد فيها توجيه النقد المفيد الى الآخرين وتذكيرهم على نواقصهم وعيوبهم ، سالكة طريق التقدم والتكامل.

قال الإمام الصادق عليه السلام : « أحب إخواني إليّ من أهدى إليّ عيوبي » (2).

وللإمام موسى بن جعفر عليه السلام حديث حول تقسيم ساعات الليل والنهار ، يقول فيه : « وساعة لمعاضرة الإخوان والثقات الذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن » (3).

يعتبر موضوع النقد من المسائل الاجتماعية المهمة التي لسنا بصددّها الآن. إلا أننا نريد القول بأن الأفراد يتخذون من هذا العامل الكبير المؤدي الى السعادة ، حربة للإنتقام وسلاحاً لحل عقدة الحقارة من ضمائرهم وهذا أمر شائع بين الأفراد ، أطفالاً وشباباً ، وشيوخاً ...

لننتصور طفلاً ضعيفاً يلعب مع عدة أطفال أقوىاء ونشطين. إنه يفشل في اللعب بسبب من ضعفه أو نقصه العضوي أو تكاسله ، وبذلك يشعر بالحقارة في نفسه فينزوي عنهم ويترك اللعب. ولكن حين يسأله أبوه أو باقي أفراد الأسرة عن سبب

ص: 282

1- لا بد من الإشارة هنا الى أن النقد نوعان : بناء وهدام. أ - النقد البناء : هو الذي يهدف الى تدارك النواقص الموجودة في سلوك الآخرين ، حتى تتأزر القوى الاجتماعية في بناء الشخصيات المتكاملة. وهذا هو الممدوح ، والمقصود من أنه أحد وسائل التكامل الفردي والاجتماعي. ب - النقد الهدام : وهو الذي يهدف الى تتبع نقائص الآخرين لغرض السخرية منهم ، أو التندر بأفعالهم. وهذا مذموم بلا شك وهو المقصود بكونه أحد وسائل الإنتقام لتدارك الحقارة.

2- تحف العقول عن ال الرسول ص 409.

3- تحف العقول عن آل الرسول ص 366.

تركه اللعب معهم فإنه يجيب بأنهم سيئو الأخلاق ... يتكلمون بكلمات بذئية ... يغمطون حقي ... وبصورة موجزة فإنه ينتقدهم ويجبر بذلك فشله وإنهياره.

كذلك التلميذ الذي لم يجهد نفسه في الدراسة ، والذي يعجز على أثر ذلك من الإجابة على الأسئلة التحريرية أو الشفوية للمعلم ، يحصل على درجة واطئة فيندحر أمام زملائه ويشعر بالحقارة والدونية ، يأتي الى البيت باكياً ويقول لأمه : سوف لن أذهب الى هذه المدرسة. وعندما يُسأل عن السبب يقول : أن المعلم يتصعب كثيراً ، ويتعمد إيذائي ... له عدااء شخصي معي. إن التلميذ يستر فشله بهذه الكلمات المشوبة بالنقد اللاذع الباطل.

شاب متفرغ من الدراسة الإعدادية يقدم على الجامعة ، ويشترك في امتحان القبول ولكنه بالنظر الى انخفاض مستواه العلمي يجيب على بعض أمام زملائه وأصدقائه وأقاربه فيشعر بالحقارة ولكنه لا يرضى بالإعتراف بانخفاض مستواه العلمي ، فيبدأ بالانتقاد لتدارك الإنهيار النفسي. يقول : لا توجد مقاييس في بلادنا ، إن التقدم منوط بالوسائط ، والرشوة ... الخ وأنا لا أملك صديقاً ولا واسطة فمن البديهي أن أرسب. وبهذه الكلمات التافهة يخفي حقارته وينتقم من الأشخاص الذين تسببوا في منعه من الدخول في الجامعة.

كذلك الرجل الكاسب الذي كان توقيعه معتبراً في البنوك ، وكان يشتري البضائع والأجناس من المتاجر بأجل ، عندما تضطرب أحواله المادية وتسقط كمبيالاته عن الاعتبار يمتنع التجار من بيعه البضاعة الى أجل. وهذا يؤدي الى تحطيم شخصيته ، فيشعر بالحقارة ويحاول الانتقام. فيبحث عن عيوب التاجر الذي سلب الثقة عنه. إنه يقول عنه : إنه متجاوز ، إنه يأكل الربا أضعافاً مضاعفة ، إن متجره مقر للمنحرفين والعاطلين وما شاكل ذلك من العبارات التي يحاول بها أن يتدارك الحقارة التي هو عليها.

الرقابة العامة :

النهى عن المنكر من الفرائض الإسلامية المهمة ...

النهى عن المنكر عبارة عن رقابة عامة على جميع شؤون المجتمع ...

النهى عن المنكر فقد بناء ونزاهة يستطيع حفظ المجتمع من الإنهيار والسقوط. لكن من الشروط الأساسية للنهي عن المنكر : صفاء النفس والإستقامة عند الشخص الناهي.

لقد ورد بهذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال : « مَنْ لَمْ يَتَسَلَّخْ مِنْ هَوَاجِسِهِ وَلَمْ يَتَخَلَّصْ مِنْ آفَاتِ نَفْسِهِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَلَمْ يَهْزَمْ الشَّيْطَانُ وَلَمْ يَدْخُلْ كَنَفَ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَأَمَانِ عَصَمَتِهِ ... لَا يَصْلُحُ لَهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ » (1).

قد يتشبث بعض الأفراد الذين يظهر منهم الصلاح عندما يقعون في عقدة الحقدرة بالنهي عن المنكر للإنتقام وتدارك الإنهيار الداخلي. إنهم يحاولون البحث عن عيوب الأشخاص الذين سببوا لهم هذا التحقير ، فيذكرون ذنوبهم ، وقد يوجهون اللوم والتقريع إليهم أمام ملاء من الناس ، ظانين أنهم يطيعون الله بعباراتهم المسمومة التي تنبع من الحقدرة التي يتنون من ويلاتها ... غالفين عن أن أساس عملهم ذاك يستند إلى الشعور بالحقدرة ، وأن النهي عن المنكر ليس إلا درعاً لإخفاء الرغبة في الانتقام وراءه.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « مَنْ أَخْطَأَ وَجْهَ الْمَطَالِبِ خَذَلَتْهُ الْحِيلُ » (2).

إن تطهير القلب من تلويث الذنوب وتنزيه الضمير الباطن من السيئات الخلقية والنوايا الفاسدة ، وإتيان العمل بكل جد وإخلاص لله تعالى إنما هو أعظم الذخائر للإنسان عندما يفد على خالقه ... في حين أن الوصول إلى هذا الأمر المقدس أمر صعب.

قال علي عليه السلام : « تَصْفِيَةُ الْعَمَلِ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ » (3).

ص: 284

1- المحجة البيضاء في إحياء الأحياء للفيض الكاشاني ج 4 ص 109.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 17 ص 138.

3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 347.

إن الرجال العظماء ذوي الشخصية الرصينة لا يخسرون المعركة إذا وقعوا موقع السخرية والتحقير من قبل الآخرين ، ولا يؤدي ذلك إلى شعورهم بالحقارة والضعفة ... إن قلوبهم كالمحيط العظيم الذي لا تستطيع الأوساخ والقذارات أن تؤثر فيه وتكدر صفو مائه. إنهم لا ينتقمون من المحقرين لهم أبداً.

لقد كان أبو هريرة من المعارضين لحكومة الإمام علي عليه السلام . لقد كان في الأسابيع الأولى من خلافة الإمام يجلس على مقربة من أمير المؤمنين عليه السلام ، ويتكلم بكلمات مشوبة بالتحقير في حديثه مع أصحابه. وكان يصصر على أن يتكلم بصوت عالٍ جداً بحيث يسمع الإمام تلك الكلمات. لقد تألم أصحاب الإمام الذين شهدوا المنظر. وفي اليوم الثاني جاء أبو هريرة طالباً بعض الحوائج من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فلبى جميع حوائجه.

عند ذاك عاتبه أصحابه على ذلك. فقال :

« إنني لاستحيي أن يغلب جهله علمي ، وذنبه عفوي ، ومسألته جودي » (1).

إن علياً (عليه السلام) اعظم من أن يتغلب عليه أمثال أبي هريرة بالكلمات المشوبة بالسخرية والتحقير ...

إنه أجل من أن تؤثر فيه أحاديث الحقراء والجبنة ، وتولد في نفسه الشعور بالحقارة والضعفة حتى يفكر في الانتقام.

إنه يغض النظر عن زلة أبي هريرة ، ويقوم بقضاء حوائجه دون تردد. ولقد قال عليه السلام : « قلّة العفو أقبح العيوب. والتسرّع إلى الانتقام أعظم الذنوب » (2).

إن أسوأ رد فعل يظهره الفاشلون والمصابون بعقدة الحقارة هو الرغبة في الانتقام ، إذ أن من الممكن أن يقوموا بذنوب عظيمة عن هذا الطريق نكتفي بما ذكرنا في توضيح هذا الموضوع ، لننتقل في ختام المحاضرة الى ردود الفعل الأخرى.

ص: 285

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ص9 519.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 537.

يعتبر الشعور بالعجز والحاجة عاملاً فعالاً في الأمم النشيطة والواعية نحو التقدم والتكامل والإستمرار في النشاط. إذ لو لم ير الإنسان نفسه ضعيفاً أمام قوى الطبيعة لم يكن بمقدوره أن ينهض للكفاح ويتسبب في هذا التحول الهائل في حياة الإنسانية جمعاء!

إن عجز الإنسان تجاه الأمراض والآلام الشديدة هو الذي دفعه لاختراع علم الطب واكتشاف العقاقير المفيدة لأنواع الأمراض ، وبالتدريج وصل هذا العلم الى الدرجة التي يحتلها من الأهمية. وكذلك عجزه أمام أمواج البحر العاتية هو الذي دعاه الى صنع البواخر الضخمة القاطعة للمحيطات. إن عجزه في قبال شدة البرد أو الحر هو الذي حفز فيه عوامل الإهتمام ببناء القصور الضخمة المجهزة بوسائل التبريد أو التدفئة المركزية. كذلك اختراعه القوة الكهربائية واستخدام ذلك في الإضاءة وسائر الأغراض وليد الحاجة الملحة التي كان يحس بها عند فقدان النور ليلاً ... وبصورة موجزة فإن شعور الإنسان بالضعف والعجز الحقارة والحاجة أدى إلى أعظم حركة ، وسبب اكبر التحولات العلمية والصناعية في العالم.

التغافل عن النقص :

هناك كثير من الأفراد الواعين يشعرون بالحقارة في أنفسهم بسبب من العيوب والعاهات العضوية التي تميزهم عن غيرهم ، لكن هذا الشعور لم يقدر على تحطيم شخصياتهم الحديدية ، ومنعهم عن النشاط والعمل ... فظلوا دائبين في سيرهم نحو الكمال حتى وردوا ما كانوا يقصدون إليه وتغافلوا عن النقص الذي هم فيه ، وبذلك كشفوا عن جدارتهم وكفاءتهم لأنهم أصبحوا أعضاء نافعين في المجتمع.

يقول أمير المؤمنين : « عظموا أقداركم بالتغافل عن الدني من الأمور » (1).

« إن النكتة الأخرى التي تعتبر مفيدة للجميع لمقاومة الشعور بالحقارة ، وإحراز النجاح في الإتصال بالنس هي أن ننسى أنفسنا

ص: 286

في احتكاكنا بالآخرين ، وأن نتغافل عما يعتقده الآخرون فينا والزاوية التي ينظرون منها إلينا ، فيجب أن لا نتوقع أن يجري الحديث عنا ، وعن صفاتنا وأذواقنا. بل يجب علينا أن نتحدث عن الآخرين وعما يرغبون فيه ».

« إذا تناسينا أنفسنا لحظة واحدة فقد استطعنا رفع حجاب معتم عن أعيننا ، ونرى الحياة بعد ذلك مضيئة مشرقة ، فنكتشف فضائل الآخرين ونبدأ بمدحهم عليها وتشجيعهم بالإستحسان والترغيب » (1).

إذا أصيب شاب بشعور الحقارة لعدم استواء هندامه ، فإن أفضل أسلوب لمقاومة ذلك أن يحاول الوالدان قدر المستطاع صرفه عن التفكير في ذلك النقص ، وحثه على القيام بالأعمال المفيدة ، وحمايته بالتشجيع والتقدير. وبهذه الطريقة يمكن احتمال النجاح في هذه المهمة الى درجة كبيرة.

الإنزواء عن المجتمع :

إن بعض الأفراد الذين يقعون في هوة الشعور بالحقارة ويتجرعون المآسي والويلات من ذلك باستمرار ، يخسرون أنفسهم ويفقدون شخصيتهم فيقرون من المجتمع كيلا بقعوا موقع السخرية والإستهزاء ... يختارون الإنزواء ، ويتهربون من عبء المسؤوليات الإجتماعية ، وبهذا الأسلوب يتداركون فشلهم الروحي ، ويقللون من الضغط الداخلي.

« إذا أصيب شخص على أثر زلّة أو خاطرة مؤلمة بحالة مرعبة فإن نبذه حياته يمكن أن تلخص في أفكاره السلبية. وبعبارة أخرى فإن هذا بدلا من أن يتقدم نحو الكمال والإعتماد على النفس بواسطة الثبات والعزم يحاول الرجوع الى دور الفراغ والإهمال الطفولي. هذا الأسلوب يسمى في إصطلاح علماء النفس بالسير القهقرائي. لقد كان هذا الفرد في طفولته فاقداً لكل اختيار في القيام بأعماله ،

ص: 287

وفارغاً من كل مسؤولية تلقى على عاتقه ولذلك فإنه كان يعيش بفكر هادىء ، والآن حيث أصيب بالخوف والشعور بالضعة والدونية فإنه يرغب في الرجوع الى حالته الأولى .»

« هذا بعينه هو التفسير المعقول للسلوك الطفولي عند كثير من الكبار ، وهو السبب في عدم بلوغ الجيل الجديد. إن فرداً كهذا لا يرغب في الرجوع الى دور الطفولة فحسب ، بل يبقى قلقاً وحائراً في مواجهة صعوبات الحياة ومشاكلها » (1).

الطفليون :

إن الأفراد الذين يظهر ردّ الفعل لعقدة الحقارة عندهم في الإنزواء والهروب من المجتمع ، يكونون تعساء وتافهين في الغالب ... إنهم طفليون يعتمدون على غيرهم في تسيير شؤونهم المادية. في حين أن الإسلام ينقم أشد النقمة على هذه الطبقة.

ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ملعون ملعون من ألقى كله على اناس » (2).

« يرغب كل فرد في الإتصال بالآخرين ، ويأمل في أن يكون محبوباً وناجحاً في المجتمع. أما عندما لا يتحقق هذا الأمل فإن الفرار من الناس يبدو أسهل من التوافق مع الناس ، في حين أن الحقيقة غير هذا. لأن الفرار من الناس والعجز عن الإنسجام معهم يهدىء الألم الموقت ، ولكنه لا يلبي الحاجة الغريزية والرغبة الفطرية المستقرة في أعماقنا » (3).

ألم الإنزواء :

قد يكون الألم الروحي الناشيء من الإنزواء والحرمان من معاشرة الناس أشد بكثير من ألم الشعور بالحقارة. لأن الشخص الذي ينزوي عن الآخرين لجعله وضعف

ص: 288

1- عقدة حقارت ص 6.

2- وسائل الشيعة للحر العاملي ج5 ص133.

3- رشد شخصيت ص 115.

نفسه يتصور أنه سيصون بذلك نفسه من التحقير ، في حين أنه وقع في سجن أضيق من سجن التحقير والسخرية.

قال الإمام الصادق عليه السلام : « الرجل يجزع من الذل الصغير فيدخله ذلك في الذل الكبير » (1) أي أن شدة جزعه تنقلب ذلاً كبيراً.

من ردود الفعل السيئة لعقدة الحقارة عند الأشخاص حب الإنزواء عن المجتمع ، إنهم يحرمون بهذا السلوك الأهوج من النشاطات المثمرة ، ويجعلون أنفسهم طفيلين في المجتمع.

ليس الهروب من الناس بسبب من خوف التحقير والسخرية مختصاً بالكبار. إن الأطفال المصابين بالشعور بالحقارة قد يفضلون الإنزواء نتيجة الخوف من التحقير والسخرية. حينئذ يجب على الآباء والأمهات بذل مزيد من العناية لهؤلاء الأطفال والعمل على مقاومة الضعف الروحي الذي هم عليه. لأن الطفل في البداية يشعر بالحقارة من جانب واحد ولكي لا يحتقر من ذلك الجانب يفضل الإنزواء. ولكن هذه الحالة النفسية تترك أثرها الفعال في سائر شؤون الطفل ، وينشأ على حب الإنزواء ويفرّ من الاختلاط بالناس ... وهذا بنفسه يتضمن نتائج وخيمة في مستقبله.

يقول شاختر : « ولدّ من أقاربي كان يفضل الإنزواء دائماً ... كان يمشي وحده في فرص المدرسة ، ويجول في غيوم الخيال وسمائه. كان يبادر بالذهاب إلى البيت فور خروجه من المدرسة ، وكان يفر من اللعب مع زملائه ... لم يشترك في أية جمعية خيرية ، ولم يكن يدعو أحداً إلى داره كما كان لا يذهب ضيقاً لأحد. كان يقول : أحب مكتبتي وغرفة عملي أكثر من أي شخص آخر. ولكن الحقيقة هي أن ذلك الشاب لم يكن ذا مزاج سليم ، ولكي يستر ضعفه ولا يقع موقع السخرية والتحقير كان يحذر من اللعب ... وبالتدريج فإن هذه العادة جعلت منه إنساناً منزواً في جميع المناسبات الأخرى ».

ص: 289

« لو كان ذلك الولد يفهم مرضه أو أنه كان يستشير الطبيب النفسي في ذلك كان يعلم أن من الممكن أن يقوي عضلاته النفسي في ذلك كان يعلم أن من الممكن أن يقوي عضلاته وجسمه ، ولو كان فاقداً للإستعداد في بعض الألعاب الجسمية بصورة مطلقة فإنه لا بد وأن يكون على استعداد تام للنجاح في فرع آخر بفضل سعيه وإجتهاده » (1).

إشاعة عيوب الناس :

المظهر الآخر من ردود الفعل لعقدة الحقارة ، الرغبة في نشر عيوب الآخرين وإشاعتها. إن الأشخاص الذين يشعرون بالضعف والحقارة من جانب ويتألمون في باطنهم من هذا الشعور ، يبحثون عن عيوب الآخرين دائماً ويتحدثون عن نقائص غيرهم ، وإذا ذكر تلك العيوب غيرهم فإنهم يفرحون لذلك كثيراً.

قال علي عليه السلام : « ذُؤوا العيوب إشاعة معائب الناس ، ليتسع لهم العذر في معائبهم » (2).

إن الطالب الذي رسب في الإمتحان على أثر التكاثر والتماهل في الدراسة لا يرضى بذكر أسماء الناجحين ، ومدحهم على نشاطهم العلمي. إنه يسعى للحصول على أسماء الراسبين ، ويحاول الإكثار من الحديث عنهم. حتى يخفف من شدة الشعور بالحقارة من جانب ، ويقلل من سيل اللوم والعقاب المتوجه نحوه من والديه وأقاربه من جانب آخر.

كذلك التاجر الذي أصيب بعجز مالي ، ولم يستطع الوفاء بالتزاماته يشعر بالحقارة. ولكي يقلل من تأمله الروحي الى درجة ما ، يعتمد الى إبعاد التهمة عن مجالها الضيق فيشارك أسماء التجار الآخرين الذين هم على شرف الإنهيار أيضاً ، ويرغب في أنتشار أخبارهم حتى لا ينحصر سيل النقد والعتاب عليه وحده.

ص: 290

1- رشد شخصيت ص 116.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 407.

هناك مظهر آخر لردّ الفعل تجاه عقدة الحقارة ، هو إقدام البعض على الخمرة والمواد المخدرة. ومن المؤسف أن كثيراً من سكان العالم المصابون بهذا الداء الويل .

إن الشخص الذي يشكو من أحد أعضائه ويتألم لذلك كثيراً ، يمكن إنقاذه من ذلك بأحد طريقتين : علاج المرض ، وتهدئة الألم بواسطة العقاقير المسكنة والمخدرة. إن المريض يرتاح في كلتا الصورتين مع فارق كبير هو أنه في الصورة الأولى يكون قد تخلص من المرض تماماً ، أما في الصورة الثانية فإن المرض لا يزال على حاله ، غاية ما هناك أن المريض لا يشعر به.

وعقدة الحقارة مرض روحي يؤلم صاحبه ويقض عليه مضجعه. وبالإمكان إنقاذ المصاب بذلك بأحد طريقتين : -

أحدهما - حل العقدة النفسية.

والثانية - تخدير الأحاسيس.

إن المصاب بعقدة الحقارة يتخلص من الإضطراب والألم في كلتا الصورتين ، مع فارق عظيم هو أنه في الصورة الأولى يكون قد تخلص من هذه العقدة تماماً ، بينما لا تزال العقدة موجودة في الصورة الثانية لكن المصاب لا يشعر بها.

قد يلجأ العاجزون عن علاج عقدهم النفسية الى الخمرة والمواد المخدرة الأخرى لكي يستريحوا من عناء الألم لبضع ساعات ويتخلصوا من وطأة الإضطراب والقلق ... ولكن ما ان يزول أثر السكر يعود الألم والشعور بالحقارة الى صاحبه ، مخيماً ، ومضيقاً الخناق عليه.

« لما كان كل ألم معلولاً لإدراك معين فيجب العمل على إزالة العلل الروحية والجسمية التي توجب ذلك الإدراك أو إضعافها. ولذلك فإن أولى الوسائل التي تستخدم في هذا السبيل عبارة عن المواد

« يجب أن نعلم بأن الإستمرار في تناول المخدرات يقلل من تأثيرها بالتدريج ، بحيث لا تنتج الحساسية المطلوبة بعد ذلك ، بل قد تؤدي هي الى الآلام والاضطرابات المختلفة ، وتشعر من السير العادي نحو الفناء » (1).

« عندما نتعمق في هذه القضايا من وجهة نظر علم النفس نجد أن هؤلاء الأفراد فاقدون للإعتماد على النفس. ومن البديهي أن الشخص الذي عرف نفسه واطلع على الاستعدادات الباطنية المودعة عنده لا يرضى بأن يكون في عداد هؤلاء. إن هؤلاء التعساء اصطدموا بموانع في حياتهم الإجتماعية وأصيبوا باليأس. وبدلاً من أن يلتمسوا الطريق الصحيح في حل المشاكل ومقاومتها نجدهم يلجأون الى المواد الكحولية والخدرة ، والقمار ونحو ذلك ... وهم يريدون أن ينسبوا عقدهم الروحية وبعبارة أخرى فإن هؤلاء غير مستعدين للكفاح في ساحة الحياة فيفرون بكل جبن » (2).

وهكذا نجد أن الإنتقام ، والنقد اللاذع ، والإنزواء ، والبحث عن عيوب الآخرين لاشاعتها ، وتناول الخمر ... والأعمال المشابهة لذلك ، ردود فعل يظهرها المصابون بعقدة الحقارة بغية تدارك ما هم عليه من النقص والضعف وإقناع أنفسهم بتبرير فشلهم. ولكن شيئاً من ذلك لا يحل العقدة النفسية ، ولا يعالج الداء علاجاً قطعياً ، مضافاً إلى أنه يتضمن أضراراً مادية ومعنوية للإنسان.

أفضل طرق المقاومة :

إن أفضل الطرق لمعالجة الشعور بالحقارة أن لا يندحر الإنسان أمامه ولا يخسر شخصيته ، بل يحاول التغافل عنه قدر الإمكان وأن يفكر بهدوء ويجدّ لتنمية

ص: 292

1- انديشه هاي فرويد ص 108.

2- عقده حقارت ص 33.

مواهبه واستغلالها حتى يبرز في جانب معين مفيد للمجتمع ، ويعيش حياة ملؤها العز والفخار.

هناك أفراد ذوو عاهات عضوية كثيرون ، تناسوا النقص الذي فيهم وعملوا في سبيل تحقيق غاياتهم بكل جد وإخلاص ، وذلك في ظل العلم والثقافة ، والجهد والنشاط وتوصلوا الى منازل رفيعة ودرجات سامية.

قال علي عليه السلام : « بالتعب الشديد تدرك الدرجات الرفيعة والراحة الدائمة » [\(1\)](#).

ص: 293

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 338.

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ) (1).

التكبر :

مر ردود الفعل التي تظهر عند المصابين بعقدة الحقدرة لغرض إخفاء الفشل والإخفاق : التكبر. هذه الصفة الذميمة في نظر العلم والدين تعتبر من السيئات الخلقية الكبيرة ، وتعدّ من الأمراض النفسية الخطيرة. إن الرجال المتكبرين محتقرون في أنظار الناس ، معذبون عند الله تعالى.

قال الإمام الصادق عليه السلام : « الكبر رداء الله. فمن نازع الله عز وجل رداء لم يزد الله إلا سفلا » (2).

إن أساس هذه الصفة الذميمة هو نوع من الحقدرة التي يشعر بها المتكبر في ضميره ، والذي يؤلمه ويقلقه دائماً. إنه يحاول أن يخفي حقدرة الباطنية بالتظاهر بالكبر ، وبهذه الطريقة يقنع نفسه ، ويخفف من فشله.

عن الإمام الصادق عليه السلام : « ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه » (3).

وعنه عليه السلام : « ما من أحد يتيه إلا من ذلة يجدها في نفسه » (4).

ص: 294

1- سورة لقمان، الآية: 18.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص309.

3- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص312.

4- نفس المصدر.

قد يبدو لأول وهلة بأن أساس التكبر هو الشعور بالعظمة. أي أن الإنسان عندما يرى نفسه عظيماً ، ويحس بالكبر والعلو في نفسه يتكبر ويستعلي على غيره. لكن هاتين الروايتين تذكران عكس ذلك تماماً. فقد وجدنا أن الإمام عليه السلام يذكر الأساس الوحيد للتكبر - بهيئة الاستئناف المتعقب للنفي - عبارة عن الشعور بالدلة في نفس الشخص. وكذلك يعترف العلماء المعاصرون بأن التكبر من الوجهة النفسية ناشيء من عقدة الحقدرة. ولتوضيح معنى الحديثين ، وتحليل الحالة النفسية للمصابين بالتكبر لا بد من إمامه مبسطة بذلك.

التوقعات المعقولة :

لكل فرد من أي طبقة كان وفي أي مقام حلّ قيمة معينة ومنزلة محدودة ، يعرفه المجتمع بذلك المقدار ولا يوافق على احترامه أكثر من استحقاقه. أما الأشخاص الذين عرفوا حدود أنفسهم وينتظرون الإحترام من المجتمع بمقدار كفاءتهم وجدارتهم فإن الناس يقيمون وزناً لتوقعهم ذاك بكل رحابة صدر ، ويقدرّون شعورهم فيحترمونهاهم بذلك المقدار.

قال علي عليه السلام : « من وقف عند قدره اكرمه الناس » (1).

أما الأفراد المتواضعون ، الذين يحملون المجتمع أقل من القيمة الواقعية التي هم عليها فإن موقف الناس تجاه تواضعهم ذاك يكون بإحترامهم أكثر مما يستحقون.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة. فتواضعوا رحمكم الله » (2).

التجاوز عن الحد :

أما الأفراد الذين يرغبون بدافع من الإثارة والأنانية أن يحملوا المجتمع أضعاف ما هن عليه من القيمة الحقيقية ، والذين لم يعرفوا حدودهم الواقعية فيدفعهم ذلك إلى أن يروا أنفسهم فوق الجميع ، ويتوقعوا المزيد من الشكر والتقدير والإحترام من

ص: 295

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 668.

2- مجموعه ورام ج 1 ص 201.

الناس ... فإنهم غافلون عن أن الناس ليسوا يهملون توقعاتهم الفارغة هذه فحسب ، بل يستهزؤون بهم ويحتقرونهم بسبب من نكيرهم وأنانيتهم.

قال علي عليه السلام : « من تعدّى حدّه أهانه الناس » (1).

إن الأناني الذي يرى المجتمع أن قيمته الحقيقية خمس درجات ، ويعتقد هو خطأ بأن قيمته خمسون درجة يستطيع للإستمرار في علاقته مع الناس أن يسلك أحد طريقين : -

الأول - أن يعترف بقيمته الواقعية التي هي عبارة عن خمس درجات ، ويغض النظر عن توقعاته الفارغة ، وينصرف عنها تماماً.

الثاني - أن يستمر في غيّه ، ويصرّ على خطئه فيتصور أن قيمته الحقيقية عبارة عن خمسين درجة.

في الصورة الأولى سيتغير موقف الناس تجاهه ويصبح اعتيادياً تماماً ، وتعود العلاقات بينه وبين الآخرين على أساس الاحترام المتبادل ، لأن مرضه النفسي قد عولج ، وانصرف الأناني المتكبر عن غيّه ، وأخذ يعترف بقيمته الواقعية فلا ينتظر من المجتمع توقعات فارغة. والناس أيضاً سيسلكون معه حسب الواجبات الإنسانية ، ويحترمونه بالمقدار الذي يستحقه.

أما الصورة الثانية فإنها تؤدي الى نشوء عقدة الحقد ، وظهور صفة التكبر فيه. إن الأناني المخدوع ينتظر من الناس أن يستسلموا لأوهامه التافهة ويحترموا بمقدار خمسين درجة. أما الناس فإنهم لما كانوا يرون أن قيمته الحقيقية التسامح معه في هذا المجال. إن إهمال الأفراد تجاة توقعاته الفارغة يؤدي الى إهائته وتحقيره ، وعلى أثر ذلك فإنه يواجه أولى الضربات الروحية القاصمة. إنه يشعر بالاضطراب وعدم الارتياح في نفسه من هذا التحقير ، ويظن أن الناس لم يعرفوا قدره وغمطوا حقوقه فيأخذ بالتصريح بتوقعاته ويطالب الناس بتنفيذها له ... في حين أنهم يضحكون لهذه الأمانى والأوهام الفارغة ويسخرون منه فينال جزاء أنانيته وإثرته بذلك.

ص: 296

إن الإهانات وسيل السخرية والإستهزاء التي تواجه هذا الفرد تشدد من - تأمله ، فيتراكم فشله وإنهياره في ضميره ، ويصاب بعقدة الحقارة في النتيجة. إنه يسيء الظن بالمجتمع ويحمل في نفسه حقداً تجاه الأفراد ، ويصبح عدواً لمحتقره. ولكي يتلافى ذلك يقوم بأعمال مماثلة فيحتقر المجتمع ، ويقول في نفسه : هؤلاء الأشخاص الجهلاء ، الفاشلون ، الغافلون ، المغرضون ، لا- يسوون شيئاً ... هؤلاء الأفراد الحقراء ، الأراذل ، التافهون ليسوا بشيء ولا يستحقون احتراماً.

إحتقار الناس :

إنه يؤمن بهذه الكلمات الباطلة والخيالية على أثر تكرار الإيحاءات الداخلية ، وتتركز هذه القضايا في ضميره فيحتقر الناس دائماً. ثم يصبح إحتقاره هذا في عداد صفاته الذميمة الأخرى خُلُقاً ثابتاً في نفسه ، فيكون جزءاً من شخصيته وكيانه ...

هذا الخلق المذموم يسمى ب- (التكبر) في علم النفس والأخلاق.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تعريفه : « الكبرُ أن يغمص الناس ويسفه الحق » (1) أي أن التكبر عبارة عن غمط حقوق الناس باحتقارهم ، وترك الحق لتعارضه مع أهوائه وغاياته الشخصية.

في هذا الحديث نجد أن الإمام الصادق عليه السلام يعرف المتكبر بصفتين : إحداهما تحقير الناس ، والثانية عدم رؤية الحق والواقع وبالإمكان أن نقول إن عدم رؤية الحق والواقع هو الذي يدفع الشخص المتكبر الى تحقير الناس لأن الذي ينظر الى نفسه والآخرين بعين الحقيقة ويحترمها بالإنقياد لها ، ولا يتجاوز عن حده الواقعي ، لا يحتقر الناس على خلاف الحقيقة.

نستنتج مما تقدم أن التكبر ناشيء من الحقارة في نفس المتكبر. إن الشخص الذي لا يشعر بالحقارة والضعفة لا يصاب بالتكبر. وبهذا يتضح معنى الحديثين اللذين بدأنا بهما البحث فقد قال الإمام عليه السلام أنه لا يصاب بداء التكبر أحد إلا إذا كان يشعر بالذلة والحقارة في باطنه.

ص: 297

لا يخفى أن الحديث الاول جعل (التجبر) مثل (التكبر) ناشئاً من الشعور بالحقارة. فقد قال عليه السلام : « ما من رجل تكبر أو تجبر ، إلا لذّة وجدها في نفسه » وهذا من المسائل القطعية في علم النفس ويعترف به جميع العلماء في العالم. إن كل من يستند إلى الظلم ، والتجاوز واستغلال السلطة ، والجبروت ، والطغيان ، والإعتداد فلا بد وأنه يشعر في باطنه بالخوف أو الضعف أو القلق ... وبصورة موجزة لا بد وأن يكشف نوعاً من الحقارة.

« إن كل مظهر من مظاهر حب التغلب والتسلط على الآخرين أماره على الشعور بعدم الإستقرار الروحي. إن رب العمل الذي بجور على عماله كثيراً فإن ذلك لا يفسر الا بخوف خفي من فقدان القدرة عليهم ، وخروجهم على أوامره. إنه يعلم جيداً أن الأثر السلبي لشخصيته وترتمته أكثر من الأثر الإيجابي ... هذا القانون ينطبق على الزوج الذي يجوز على زوجته ، والوالد الذي يعامل أولاده بخشونة أيضاً ».

« عندما يكون الإستبداد ، والظلم ، والتجاوز رائجاً فإنه أماره الشعور بعدم الكفاءة وفقدان الإعتماد على النفس وبالإمكان اكتشاف جذور هذه المفاصد بمعونة عالم نفساني أو بواسطة التأمل الباطني والحياد في كشف زوايا اللاشعور » (1).

« كنت أعرف مهندساً قديراً ممتازاً في فنه. كان يعامل أصدقاءه وأفراد أسرته بالبشر واللين ، ولكنه كان يبذل المزيد من الخشونة والشدّة تجاه العمال الذين يشتغلون تحت إشرافه ... كان يتناول الطعام لوحده ، ولا يشارك الآخرين في أحاديثهم ونزهاتهم ، كان لا يضحك أبداً ولم تظهر الإبتسامة على فمه ، وكان لا يسمح لأحد بالاعتراض والانتقاد ، ولكننا كنا نعلم أنه يتألم كثيراً في بطنه من هذا السلوك ، ويتمنى أن يستطيع التكلم والضحك مع الجميع ، وأن

ص: 298

يشارك الآخرين في تناول الطعام. وعندما سأله المحلل النفسي عن ذلك وتحري جميع جوانب شخصيته ، تبين أنه يشك في انقياد العمال والموظفين الذين يعملون تحت إشرافه له من دون أن يشعر بذلك ... وأنه يتصور أنهم لا يرونه جديراً بالإشراف عليهم وإدارة شؤونهم وتوجيه الأوامر نحوهم ، لذلك كان يثبت شخصيته بالضغط والشدة والخشونة « (1).

في جميع الطبقات :

إن المقياس الأساسي والعلمي لشوء ظاهرتي التكبر والتجبر ، هو الإحساس بنوع من الضعف والحقارة. ولذلك فإن من الممكن أن يظهر هذا الداء في جميع الطبقات والأمم ، فلا يختص بطبقة دون أخرى ... إنه يظهر في الأغنياء والفقراء ، في البيض والسود ، في القادة والمنقادين.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال : « الكبر قد يكون في شرار الناس من كل جنس ، إن رسول الله صلى الله عليه وآله مر ، في بعض طرق المدينة ، وسوداء تلتقط السرقة. فقبل لها : تنحي عن طريق رسول الله. فقالت إن الطريق لمعرض. فهم بها بعض القوم أن يتناولوها. فقال رسول الله : دعوها فإنها جبارة » (2).

إن السود كانوا يتعرضون للتحقير والإهانة من البيض دائماً ولذلك فإنهم كانوا يحترقون في نار الحقارة ، ويشعرون بالذلة والهوان ، وهذا ما كان يؤلمهم كثيراً ... فلا عجب إذن أن تصاب امرأة سوداء بسبب من الحقارة العنصرية بالتجبر وتكلم الناس بهذا الأسلوب من التكبر.

العرب قبل الإسلام :

لقد كان العرب قبل مجيء الإسلام يعيشون في أتعس الظروف المادية والمعنوية ، وكانوا مرتطمين في هوة من الفساد والانحراف ، يقدمون على الجرائم

ص: 299

1- رشد شخصيت ص 117.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص309.

المختلفة ... محرومين من كل رصيد علمي أو ثقافي ، بعيدين كل البعد عن القيم الاخلاقية والأسس الإيمانية ، منحطين من الناحية الاقتصادية ومع ذلك فقد كانوا مصابين بأشد درجات التكبر وأعلى مراتب الجبروت ، إنهم كانوا يحتقرون جميع الناس من الأمم الأخرى لتكبرهم ، والسبب في ذلك شعورهم بالحقارة والذلة في أنفسهم من جميع الجهات.

لقد شرح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حالة العرب قبل الإسلام بجمل قصيرة ، فقال :

« إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله نذيراً للعالمين ، وأميناً على التنزيل . وأنتم - معشر العرب - على شر دين وفي شر دار منيخون بين حجارة خشن وحيات صم ، تشربون الكدر وتأكلون الجشب ، وتسفكون دماءكم ، وتقطعون أرحامكم . الأصنام فيكم منصوبة ، والآثام بكم معصوبة » (1).

نموذج للتكبر :

بالرغم من أن النبي صلى الله عليه وآله بذل جهداً كبيراً في سبيل إنقاذ تلك الأمة المتخلفة والمتكبرة ، واستطاع من حلّ كثير من العقد النفسية بفضل تعاليمه القيمة ، ولكن التكبر كان ضارياً بجذوره في قلوبهم طيلة قرون عديدة الى درجة أنه ظل بعض الأفراد مصابين بهذه الصفة الذميمة ، بحيث كانوا لا يقيمون وزناً لغيرهم أصلاً كانهم ليسوا بشراً ، ولا يجمعهم أب واحد.

وعلى سبيل الشاهد أذكر لكم نموذجاً تاريخياً طريفاً :

توجه علقمة بن وائل الى المدينة المنورة للقاء النبي صلى الله عليه وآله فتشرف بحضرته وعرض عليه حاجته . ثم قصد الذهاب الى دار أحد كبار الأنصار في المدينة ولكنه لم يكن يعرف الدار . كان معاوية بن أبي سفيان حاضراً في المجلس فأمره النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بإرشاد علقمة الى دار الانصاري . يقول معاوية :

خرجت بصحبة علقمة من عند النبي ، فركب ناقته وأخذت أسير على قدمي الحافيتين في شدة الحر .

فقلت له في أثناء الطريق : لقد احترقت قدماي من شدة الحر فأردني خلفك .

ص: 300

فقال علقمة : إنك لا تليق بأن تركب ردف السلاطين والعظماء.

فقال له معاوية : أنا ابن أبي سفيان.

فقال له معاوية : إذا كنت لا تسمح لي بالركوب خلفك ، فانزع خفيك لألبسهما وأتقي وهج الأرض.

قال علقمة : إن خفي أكبر من قدميك ... ولكن أسمح لك بالسير في ظل ناقتي ، وإن في هذا تسامحاً كبيراً مني تجاهك ، وهو في نفس الوقت مدعاة للفخر والإعتزاز لك ، أي أنك تستطيع أن تتباهى أمام الناس بأنك سرت في ظل ناقتي (1).

إن هؤلاء المتكبرين والأنانيين الذين لا يريدون الخضوع للواقع ، والذين يحلمون بالعظمة دائماً ، ويعيشون في عالم من الخيال والوهم ... يعملون على تعاسة أنفسهم وغيرهم ، وربما يدفعهم ذلك إلى القيام بأعمال خطيرة ، وتحمل مصائب وخيمة.

الأحلام التي لا تتحقق :

« العلامة الأخرى من علامات عقدة الحقارة أن الفرد يعيش في عالم من الأحلام والخيال ، والذي يسمى في الإصطلاح العلمي بـ- (الفانتزي). ويعني ذلك الفرار من الواقعيات ، والتهرب من المشاكل والمسؤوليات ، واللجوء إلى دنيا الأحلام والآمال التي لا تتحقق ».

« إن خطر هذه الحالة النفسية يكون عندما يصبح الشخص مأسوراً لها بحيث يفقد القدرة على العمل والنشاط في قبال حقائق الحياة. فعندما يستولي الشعور بالهرب من الحياة على شخص ما ، خصوصاً إذا كان متمتعاً بقدرة ومنزلة سامية ، فإن المآسي التي تنتج من ذلك عظيمة جداً إلى درجة أن تصورها يبعث على الألم والاستيحاش ».

« إن الشعور بالحقارة الذي أصاب الألمان بعد إندحار عام 1918 ،

ص: 301

أدى إلى أن يعيش هؤلاء في حالة من الفانتازي الروحية والإجتماعية فقد أخذوا منذ ذلك الحين يؤلفون الكتب ، وينظمون الأناشيد (التي أشهرها نشيد المانيا فوق الجميع) ، أملا في اليوم الذي يتغلبون فيه على الأمم الأخرى ويأخذون زمان الحكم في العالم .»

« هذه الحالة النفسية هي التي مثلت مأساة الحرب العالمية الثانية التي أدت إلى انكسار الألمان أيضا » (1).

مما تقدم نستطيع أن نخلص الى أن التكبر والإستعلاء ناتج من عقدة الحقارة. إن الأشخاص المأسورين للأنانية والإثرة وعبادة الذات عندما يشعرون بالحقارة فإنهم يلجأون الى التكبر لإرضاء أنانيتهم ، ويتداركون الحقارة بتحقير الآخرين ، أو ارتكاب الجرائم العظيمة إذا تمتعوا بقدرة على ذلك.

الأنانية :

هنا يثور سؤال :

لماذا يصاب البعض بمرض الأنانية؟ وكيف تتأصل هذه الصفة الذميمة في نفوسهم؟ إلى درجة أنهم تعشى عيونهم عن رؤية الحق والواقع ويشعرون بالإستعلاء على الجميع ، ناسين انفسهم قيمة أعلى مما يستحقون؟

للإجابة على هذا السؤال نقول :

هناك علل وعوامل كثيرة تسبب في إيجاد هذه الحالة النفسية ، وإصابة الفرد بمرض الانانية. ولما كان الموضوع الاساسي لبحثنا عبارة عن تربية الطفل ، فستحدث في هذه المحاضرة عن عاملين يتعلقان بدور الطفولة فقط ، مرجئين البحث عن العوامل المؤدية الى نشوء الأنانية عند الكبار الى مجالات خاصة بذلك.

إن العامل الأول لنشوء هذه الحالة النفسية عبارة عن الوضع الطبيعي للطفل. فكما أن بعض الأطفال يتولدون مع نقائص عضوية أحيانا ، بعضها قابل للإصلاح والبعض الآخر لا طريق لمعالجته ... كذلك البناء الروحي لبعض الأطفال فإنه قد

ص: 302

يكون غير طبيعي منذ اليوم الأول من الولادة ، وهذا بدوره قد يكون قابلاً للتعديل ، وقد تعقم جميع الوسائل المستخدمة لعلاج.

إن العلماء المعاصرين يسمون الأطفال غير الاعتياديين ب- (الأطفال المعقدين). وقد أجروا تجارب وتحقيقات كثيرة حولهم ، وصنفوهم إلى طبقات مختلفة.

الأناية عند الأطفال المعقدين :

هناك طبقة من الأطفال المعقدين ، يعتبر الغرور والانانية جزءاً من فطرتهم. هؤلاء كأنهم تولدوا متكبرين وأنانيين مع بنائهم الروحي الخاص ، وإنهم يمتازون بشذوذ روحي منذ البداية.

« إن الطفل المعقد يمتاز بسلوك خاص منذ اللحظة الأولى لولادته ، وذلك كالغرور الفطري الذي يؤدي إلى سيطرة أنانيته على جميع ميوله الأخرى ».

« إن اللهجة الناتجة من المنطق الخاطيء واضحة عند الطفل المعقد. وإن خطر هذه الحالة يكمن في أنه يستند إلى هذا المنطق الخاطيء دائماً ولا يرضى بالتنازل عنه ، ولذلك توجد في ذهنه صور مغلوبة تماماً عن الأشياء والموجودات ، كأنها قد نُظر إليها من خلال أشعة منكسرة.

« يتميز الطفل المعقد بتركيب خاص واضح. إن وجهه منقبض في الغالب ، ويكون في حالة عصبية دائماً ... شفتاه دقيقتان ونظرتة ثابتة وباهتة ، وعندما يبهت لشيء فلا يمكن إخراجه عن هذه الحالة من الجمود الروحي خاصة به ، لأن وضعه الروحي يشبه عضلات وجه في الجمود الخمول. في هذه الحالة ينطوي الطفل على نفسه ، ثم يسلك سلوكاً يوهم كونه في حالة من الهجوم ، لأنه يهمل كل شيء وقد يؤدي ذلك إلى عدم إحترام الآخرين ».

« هذه هي علائم للشخصية التي قد تتحطم ولكنها لا تتغير ولا تبدي تغيراً من نفسها. إنه سريع في حركاته ، ويرغب في الإستقلال منذ الطفولة ويحاول أن يجد طريق حياته لوحده. أحياناً يعلن هؤلاء

الأطفال الحرب على المجتمعات التي لم ترض شعورهم بالأنانية والإثرة ، ولما كانوا أشخاصاً خطرين فإنهم يتسببون في إحداث مشاكل عظيمة « (1).

هؤلاء الأطفال الذين يعبدون ذواتهم ، وكأنهم جُبلوا على الغرور تكون حركاتهم وسكناتهم ، أقوالهم وأفعالهم ، تجاه الأطفال والكبار ، عند اللعب وفي الحالات الإعتيادية قينة بالتكبر والإستعلاء. إنهم إن وجود في ادوار الطفولة الظروف المساعدة لإرضاء غرورهم قرينة ورة حرة ولم يواجهوا مانعاً أو عقبة في محيطهم التربوي أو الحياتي ، فإنهم ينشأون على الأخلاق البذيئة ، ويعتادون على التكبر والجبروت. هؤلاء يندحرون في حياتهم بسرعة. ويطردهم المجتمع الذي ينفر من الاحتكاك بهم والتعاون معهم ، وهذا يسبب الحرمان والفشل لهم مدى العمر.

تربية الأطفال المعقدين :

إن التربية الصحيحة لهؤلاء الأطفال الذين جُبلوا على التكبر والغرور تحتاج الى أسلوب خاص ، يختلف عن أسلوب تربية الأطفال الإعتياديين ، لا بد من وجود مربٍ قدير يشرف عليهم ، ويعمل على قمع تلك الصفات الذميمة فيهم بالأساليب العلمية والتطبيقية ، ويزرع بذور الصفات الطيبة بدلاً منها.

يقول (شاويني) بالنسبة الى معالجة العناد والتناقضات في الأطفال المتكبرين : « إن العنصر الأصيل للتناقضات هو التكبر. إن مشاهدات الشخص المتكبر خاطئة غالباً ، ومن الخطورة بمكان أن نفاجئه بالحقيقة رأساً ومن دون مقدمات ، وربما كان ذلك سبباً لتركيز عاداته البذيئة لأنه سوف لا يعترف بأنه يتحدث بالتناقضات ، ويسند كلامه بأدلة وتبريرات. لا تصرّوا على إثبات كلام آخر في قبال كلامه أبداً لأنكم بعملكم هذا تكونون قد ساعدتموه على الإستمرار في سلوكه لأنه سيزداد إصراراً على كلامه » .

ص: 304

« لا- تناقشوا معه مطلقاً ، واحذروا عن كل شيء يؤدي إلى إثارتة ، ولكن بالرغم من أنكم تعلمون أنه لا شيء وراء هذه المظاهر فمن المناسب أن تستشيروه في قضاياهم وتسألوه عن رأيهم فيها. ستعجبون - إذا لم تكونوا قد جربتم ذلك - عندما تجدون أن هذا الشخص المغرور والمتكبر ينقلب إلى شخص حائر ومتردد لا يعلم ما يقول ، لأنه كان قد أعد نفسه لمعاندتكم فقط ... دعوه على هذه الحالة لفترة وإذا بكم تجدونه يطلب المعونة منكم بكل خضوع وسيقبل آراءكم جميعها! ».

« هذا الأسلوب الذي يمنع من معارضة الطفل ، من محاسنه أنه يمنع من نمو هذه الميول الروحية المتطرفة فيه ، مضافاً إلى أنه يحفزه نحو الابتكار والإبداع وهذا بنفسه يمكن أن يكون علاجاً قطعياً فيعتاد أخيراً على أن يعمل برأيه على نحو الاستقلال في كل قضية تواجهه » (1).

لو لم يتلق هؤلاء الأطفال غير الإعتياديين تربية سليمة ، ونشأوا تبعاً لذلك على الغرور وعبادة الذات أصبحوا أفراداً خطرين وفوضيين ، وقد يجرون على انفسهم وعلى سائر الناس سلسلة من المشاكل والمآسي لأن تحقير الناس وإهمالهم مضافاً إلى أنه يزيد في غرورهم و يبلغ بتكبرهم إلى درجة الجنون ، يزرع في نفوسهم بذور الحقد والبغضاء تجاه المجتمع الذي لم يستجب لمطالبهم ولم يرض شعورهم بالإنانية ، ولذلك نجدهم يقدمون على مختلف الأعمال الخطيرة.

الغرور في صورة إجرام

يقول (جلبرت رويين) : « كمثال على هؤلاء الأطفال أذكر لكم قصة شاب جميل في الخامسة عشرة من عمره إنه كان يقضي جميع أوقاته في تحليل وقياس المواد المتفجرة التي كان يحوزها ، وفي إحدى الأيام تفجر شيء من المساحيق وسبب حريقاً عظيماً. هل تستطيعون

ص: 305

أن تعرفوا الدافع له الى ذلك العمل؟ أجل ، إنه كان يريد أن يحرق الدنيا بأسرها ، وهذه هي عبارته ، والهدف العظيم الذي كان يسير حثيثاً نحو تحقيقه « (1).

نستنتج مما تقدم أن البناء الروحي لبعض الأطفال ليس اعتيادياً ، بل إنهم يملكون غوراً ذاتياً وشعوراً بالإنانية منذ البداية. وهذا هو العامل الأول الذي يؤدي الى نشوء صفة التكبر الذميمة عند بعض الأطفال وعن طريق الأساليب التربوية الدقيقة فقط يمكن هداية نفوسهم المريضة وطبائعهم المنحرفة الى الطريق المستقيم. ولحسن الحظ فإن عدد هؤلاء الأطفال المعقدين قليل جداً.

المدح من غير استحقاق :

والعامل الثاني الذي قد يؤدي الى نشوء الشعور بالإنانية وعبادة الذات عند الانسان ، ويوقع الإنسان في هوة التعاسة والشقاء هو الأساليب التربوية الفاسدة التي يتلقاها في طفولته. إن الأبوين الجاهلين اللذين يمدحان الطفل من غير استحقاق ، ويبدلان له من العطف والحنان ما يزيد على الحد المعقول يحطمان شخصيته بذلك ، ويزرعان بذور الأنانية في نفسه منذ البداية.

إن هؤلاء الآباء والأمهات يقومون بأعمال ظاهرها الحب ولكنها تحمل في أعماقها العدا. لأنهم يتسببون في انحراف الطفل الذي لا يعرف حدوده واقعية. إنهم يقولون له : أنت الروح ، أنت القلب ، أنت قرة العين ، أنت نور البيت ، أنت الدرة الفريدة ، أنت أغلى من جميع الأطفال والخلاصة أنهم يتحدثون معه بالكاذب والخدع الكثيرة ، ويفهمونه تدريجياً بأنه يتمتع بمنزلة سامية ودرجة رفيعة.

هذا المدح ، وهذا الحنان يثبت جذوره في روح الطفل ... وإذا بسلوكه في الكبر ينبع من تلك الأسس التي نشأ عليها والأفكار التي أعتنقها بصورة نهائية.

« إن دور الطفولة يستند إلى أسس قديمة بحيث يرتبط الإتساع في المشاعر في الفترات اللاحقة الى ذلك الدور وذخيرة الحب التي

ص: 306

يحصل عليها الطفل تعتبر من هذه الأسس. إن الحب ، مضافاً الى جانب جلبه للذة الشخصية التي تؤدي الى نشوء عبادة الذات في الطفل ، يشتمل على مجموعة من المشاعر التي يحصل عليها في جو الأسرة ، والمدرسة .».

« تترك مظاهر الحب التي تلقاها الدور في الدور الأول من حياته ، أي قبل بلوغه الخمس أو الست سنين ، وكذلك التجارب الطيبة أو المرة الناتجة من ذلك ، آثارها في الجانب اللاشعوري من ضمير الطفل. هذه الآثار تكون النقاط البارزة من وضعه الروحي » (1).

إن الضمير الباطن للطفل المدلل مليء بالآثورة والأناية. هذا الطفل لا يجد في الحياة أحداً غيره ، لأن أبويه لم يعلماه غير هذا الأمر. إن الذخيرة الوحيدة التي تركزت في روحه منذ الصغر هي عبادة الذات. إنه يتذكر إنطباعاته عن دور الطفولة ، فهو القلب ، وهو الروح ، وهو أغلى من الجميع. إنه يدخل المجتمع بتلك الروح ويتوقع من جميع النساء أن يدللنه كأمه ، وينتظر من جميع الرجال أن يحترموه كأبيه.

الفشل :

هذا الطفل عندما يشب ويتزعزع لا يجد من الناس الإحترام الذي كان يتصوره ، لذلك يتألم من البرودة التي يعامله المجتمع بها ، الى أن يتولد عنده الشعور بالحقارة. إن تكرار الإهمال والبرودة يؤدي إلى إزديار التوتر النفسي ، والفشل المتواصل يؤلم ضميره حتى يتحول الشعور بالحقارة الى عقدة الحقارة وتحدث فوضى عظيمة في روحه.

« إن الشعور بالحقارة عبارة عن ألم شديد ناشيء من الانحراف الروحي الذي يسيطر على جميع جوانب شخصية الانسان. أما عقدة الحقارة فهي عبارة عن مجموعة من الخواطر الروحية المتراكمة التي لم تصبح جزء من شخصية جزء من شخصية الإنسان بعد ، ولا تستطيع أن تصبح جزء من شخصيته بواسطة إجراء تحويل شكلي أو ظاهري ... لأن

ص: 307

العقد مؤلمة جداً ، والصراع دائب بينها وبين روح الفرد. هذه الخواطر الروحية المتراكمة قد تنشأ في الإنسان نتيجة لتجارب مختلفة ، فبدلاً من أن يطردها من دماغه أو ينسى شعوره الخاص نحوها يودعها في ضميره الباطن وفي زاوية اللاشعور ثم يتذكرها بالتدريج. في حين أن تجددتها يبعث الألم والقلق في صاحبها « (1).

أمانة النقص :

إن الأنانية التي يتسم بها الأفراد المغرورون والمتكبرون ، فهي أمانة على النقص المعنوي وانخفاض المستوى الأخلاقي عندهم. إن هؤلاء الأفراد يصابون بعقد الحقارة عندما يجدون أن المجتمع لا يعير اهتماماً لتوقعاتهم الفارغة ، وعندما يرون نتائج فشلهم صريحة في تحقير الأفراد إياهم.

لقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك : « كفى بالمرء منقصةً أن يعظم نفسه » (2).

وعنه عليه السلام : « كفى بالمرء غروراً أن يثق بكل ما تسول له نفسه » (3).

وعنه أيضاً : « من سأل فوق قدره ، استحق الحرمان » (4).

حل العقد النفسية :

إن مرض هذا الإنسان ناشئ من نفسه ، وعلاجه بيده. إنه لو استعان بالعقل والمنطق ، وتنبه الى فساد التربية التي درج عليها ، وزكى نفسه وطهرها ، وترك الإستعلاء والتكبر ، ونسي عبادته لذاته ، وأعطى نفسه ما تستحق ... فإن الأستار المظلمة سترفع ، والغيوم الكثيفة ستنتشع ، وتنتهي المآسي.

أما لو ثبت على خطأه ، وأصرّ على عبادة ذاته ، وأغفل نداء عقله ، ولم يعرف

ص: 308

1- عقده حقارت ص 29.

2- غرر الحكم ودرر الكلم لللامدي ص 558.

3- نفس المصدر ص 558.

4- المصدر السابق ص 665.

قدر نفسه ، وظل يظن نفسه عزيزاً ومدللاً ، يتوقع الإحترام والتكريم من الجميع ... فإن الإنهيارات المتتالية ستحطم شخصيته ، وتضيق العقد المؤلمة الخناق عليه. فيبدأ بالتخطيط للإنتقام لتدارك حقارته ... يحتقر الآخرين ويتكبر عليهم ، ويقابل إهمال الناس وتحقيرهم بالإهمال والتحقير أيضاً.

عندئذ تشدّد المصيبة ويتسع الخرق على الراقع لأن الإنحراف الخلقي يزداد في المجتمع. ذلك أنه عندما يبتلي المصابون بالغرور بداء التكبر ، وتستأصل فيهم النخوة المستندة الى الجهل فإنهم يواجهون مشاكل جديدة ويصطدمون بآلام شديدة.

إن الذي يصاب بالتكبر وينظر الى المجتمع بعين الحقارة والذلة ، يواجه بلا ريب رد فعل مشابه من الناس ، فيأخذ المجتمع باحتقاره وعدم الإعتناء اليه. وهذا هو أفضل جزاء للمتكبر.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « مَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ » (1).

التكبر وظلمة العقل :

لا تقف آلام هذه الطائفة من المصابين بداء التكبر عند حد احتقار الناس إياهم ، بل إن عقدة الحقارة والآلام الروحية الناشئة منها تؤدي في بعض الأحيان الى أمراض روحية وعصبية شديدة.

« لقد أكد (آدلر) في التحقيقات التي أجراها بصدد الآلام الناشئة من عقدة الحقارة على دور الوضع الروحي للتعليم والتربية ، والاعتناء بالشخصية ، في نشوء كثير من الأمراض الروحية والعصبية » (2).

إن التكبر من أعظم الحجب الذي تُسدل على العقل فتؤدي إلى ظلمته وكلما كان نفوذ هذه الصفة الذميمة في روح الفرد أقوى كان حرمان العقل من إدراك الحقائق ورؤية الواقع أشدّ.

ص: 309

1- تحف العقول عن آل الرسول ص 88.

2- جه ميدانيم؟ بيماريهای روحی وعصبی ص 42.

إن المتكبرين يقدمون في سلوكهم على أعمال غير عقلانية ، وربما أدى الأمر الى الجنون. لقد صرّحت الأحاديث بذلك واعتبرت التكبر آفة عظيمة من آفات العقل ، تؤدي الى نقصه وضعفه.

فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام : « شر آفات العقل الكبر » (1).

وعن الإمام الباقر عليه السلام : « ما دخل قلب امريء شيء من الكبر إلا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك ، قل أو كثر » (2).

في العلم الحديث :

يرى العلم الحديث أيضاً أن التكبر من الأمراض الروحية ، وأن المتكبرين مصابون بنوع من الجنون في نظر العلم ، حتى أن بعض العلماء يعدّونهم في عداد سائر المجانين.

« في بعض الموارد يأخذ الهذيان - أي أسلوب التفسير الباطل - طبيعة أخرى ، ويرتبط باختلال الاخلاق والإدراك. في هذه الحالة يصبح الشخص متكبراً ومحباً للشر ، فيسيء الظن بمن حوله وبالتدريج يتأصل هذا الاتجاه في دماغه. عندما تقف الأمور عند هذا الحد فإننا نجابه إنساناً شديد الحساسية. أما إذا ظهرت بصورة ملموسة فقد تنتهي الى الهذيان الحقيقي وردود الفعل المعاكسة للمجتمع ».

« لقد بحث العالمان (سريو) و (كاب غرا) هذه الأمور بصورة مفصلة تحت عنوان (الهذيان في التفسير). هؤلاء المصابون لا يبدو عليهم الجنون لأول وهلة ، لأنهم لم يفقدوا قدرتهم على الاستدلال ، وإن الذي يتحدث معهم يتصور أنهم مفكرون ومتعمقون في القضايا ولهذا السبب بعينه فقد كانت هذه الحالات تسمى في السابق ب- (الجنون المعقول). إن إصلاح (الجنون الجزئي) يشير الى هذه المظاهر. إن الاختلال الأساسي الذي يوجه هذا الميل الروحي

ص: 310

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 448.

2- سفينة البحار للقمي ص 460 - مادة (كبر).

عبارة عن حالة نفسية ناشئة من التكبر ، بحيث تمنع المصاب من أن يكون حيادياً في تحكيمه ، فيتهم البعض بدون دليل ما يكونهم عقبة في سبيل تحقيق أهدافه هذا الاختلال الذي يختص بمميزات معينة يشاهد في الحياة الإعتيادية خصوصاً في الحياة السياسية ، الذي تجد فيها الأحقاد والأهواء والأغراض الشخصية الميدان الواسع لنشاطها. يكون الميل للسيطرة والتكبر أوضح عند البعض ، لأن ضمائهم هؤلاء تكون مصابة بنوع من التخدير والشلل ، ولذلك فإن كل ما يرغبون في تحقيقه يبدو لهم أنه عين الصواب ، ولكنهم ينتقدون سلوك الآخرين بشدة. كل من يخالفهم أو لا يخضع لأعمالهم الطائشة يعتبرونه عدواً يوتصرون أنه يؤلمهم كثيراً ، في حين أنهم هم الذي يؤلمون الآخرين « (1).

المجنون حق الجنون :

روي جابر بن عبد الله الأنصاري أنه : « مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله برجل مصروع وقد اجتمع عليه الناس ينظرون إليه. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : على ما اجتمع هؤلاء :

فقل له : على مجنون يصرع.

فنظر إليه فقال : ما هذا بمجنون. ألا أخبركم بالمجنون حق الجنون؟!!

قالوا : بلى يا رسول الله.

قال : إن المجنون حق الجنون : المُتَبَخَّرُ في مشيه ، الناظر في عطفه ، المحرّك جنبيه بمنكبيه. فذاك المجنون وهذا المبتلى « (2).

التكبر وضعف العقل :

إن المصابين بداء التكبر يرون إلى جميع أعمالهم نظرة الإستحسان ويتوقعون

ص: 311

1- چه میدانیم بیماریهای روحی وعصبی ص 33.

2- معنی الأخبار ص 237.

من الجميع أن يتقادوا إليهم ويقتدوا بسلوكهم ، ويصدقوا جميع أقوالهم. ومن يخالفهم في ذلك فهو مجنون في عرفهم ، حاقدا لا يستطيع رؤية ما هم عليه من الفضيلة والكمال! وهذا بنفسه أعظم علائم ضعف العقل.

ففي الحديث : « العُجب درجات. منها أن يُزَيَّن للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيُعجبه ويجب أن يحسن صنعاً » (1).

وعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : إعجاب المرء بنفسه يدل على ضعف عقله « (2).

فقر الإنسان وحاجته :

إن الكبرياء والعظمة لله فقط ، لأنه هو الغني بذاته ، لا طريق للفقر والاحتياج الى ذاته المقدسة فهو الكمال المطلق ... وجميع الموجودات محتاجة اليه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (3)

الانسان الذي يفقد القدرة على المقاومة في قبال الجوع أو العطش ، أو الحر أو البرد ... الشخص الذي يهرب من وجه الوحوش المفترسه ، والحشرات المؤذية ...

الموجود الذي كله ضعف وعجز ... لا يمل : العظمة الحقيقية والكبرياء الواقعية حتى يدعوه ذلك : الى التجبر والتبخر.

فاذا عرف الانسان حدّه ، وأدرك : حقيقته ، ولم يتجاوزها ... فانه لا يصاب بداء التكبر والغرور أبداً ، ولا ينظر الى عباد الله نظرة الاستخفاف والاحتقار!

وعلى العكس فإن الانسان الذي جهل حدّه ، لا يرى في الوجود أحداً غير نفسه. ولا يفكر في شيء غير ارضاء ميوله وتحقيق مصالحه الشخصية ... انه لا يقيم

ص: 312

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص313.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج17 ص79.

3- سورة فاطر، الآية: 15.

وزناً لسعادة المجتمع. ولذل : فلا يتورع من الاقدام على الجرائم العظيمة.

« ان موضوع الميول الشخصية التي نعبر عنها بالغرور والأنانية عبارة عن وجودنا بكلا شطريه : الجسمي والنفسي وإذا كانت الميول الإجتماعية تدعونا الى نشاطات لصالح المجتمع وتحقق الخير والنفع للجميع ، فإن الميول الفردية تهمل شأن المجتمع تماماً. إنها لا تنظر في نشاطاتها إلا إلى وجود الفرد ومنافع (الأنا) فقط ، فيتذكر حقوقه جيداً لكنه ينسى واجباته. عندئذ يظهر الإجرام بصورة مختلفة من الميول الفردية كالتكبر ، والإهتمام بالذات ، والرغبة في الحصول على الثروة ، وغير ذلك. إن المتيقن هو أن جميع هذه الميول تنبع من حب الذات وعبادة الشخصية ، وهي التي تدفع الفرد الى التضحية بالآخرين في سبيل نفسه » (1).

النصائح المناسبة :

من الخدمات العظيمة التي يقوم بها الرجال العظماء والساھرون على مصلحة المجتمع ، قيامهم باسداء النصائح اللازمة في الأوقات المناسبة الى المتكبرين والمغرورين ... حيث أنهم بنصائحهم الثمينة ينزلونهم من صهوة غرورهم ولو لبضع ساعات. وهناك شواهد تاريخية كثيرة على ما نقول.

لقد كان (المنصور الدوانيقي) من الخلفاء المتجبرين في السلسلة العباسية. لقد جعلت ذبابة يوماً وجهه مسرحاً لنشاطها وتنقلها ، فقد أخذت تطير من شفته الى عينيه ، ومن عينيه الى أنفه ، ومن أنفه الى جبهته حتى ضاق بها ذرعاً وتألّم كثيراً. فقال لخدمه : انظروا من ينتظرونا بالباب ، فقالوا له : مقاتل بن سلمان.

كان مقاتل - هذا - من كبار المحدثين والمفسرين في ذلك العصر فأمر المنصور بالسماح له في الدخول. وما أن دخل حتى وجه له المنصور السؤال التالي :

« هل تعلم لماذا خلق الله الذباب؟! »

ص: 313

قال : نعم. ليذلّ الجبابرة!

... فسكت المنصور « (1) من هذا يظهر أن كلام مقاتل أثر فيه ، فقد وجده مطابقاً للحقيقة ، ومنسجماً مع الحالة السابقة التي كان عليها. ونموذج كخر نجده في قصة المهلب بن أبي صفرة والي عبد الملك بن مروان على خراسان. فقد كان في بعض الأيام مرتدياً ثوباً من خز ، ويسير في الطرقات بكبرياء وتبختر ، فقابله رجل من عامة الناس وقال له : يا عبدالله ، إن هذا المشية مبغوضة من قبل الله ورسوله.

فقال له المهلب : أما تعرفني؟

قال : بلى أعرفك ... أولك نطفة مذرة ، وآخرتك جيفة قذرة ، وانت بين ذلك تحمل عذرة.

فمضى المهلب وترك مسيته تلك ، دون أن يتعرض للرجل بسوء (2).

درجة من الإلحاد :

إن التكبر من أعظم الصفات الذميمة في الإسلام. وقد وردت في ذلك كيات وأحاديث كثيرة يحتاج نقلها جميعاً الى وقت طويل ، لكنني سأكتفي بحديث واحد في نهاية المحاضرة فقد سأل الراوي الإمام الصادق عليه السلام عن أدنى الإلحاد ، فقال : « إن الكبر أدناه » (3).

في هذا الحديث نجد أن الإمام الصادق لم يعتبر التكبر صفة ذميمة فحسب ، بل اعتبره مرتبة من مراتب الكفر والإلحاد. وكأنه يريد أن يقول : أن المتكبر يكون قد خطأ الخطوة الأولى في طريق الإلحاد والمروق عن الدين.

ص: 314

1- حياة الحيوان للدميري ج1 ص255.

2- مجموعة ورام ج1 ص199.

3- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص309.

يجب على الوالدين أن يبذلا الدقة الكاملة في تربية أطفالهما ، ويراعيا الاعتدال في معاملتهم بالحب والحنان ، والتشجيع والمدح. لأن الإفراط في ذلك يؤدي الى نشوء الأطفال على الغرور والتكبر ، ولا يخفى ما في ذلك من مشاكل وآلام.

لقد نصح لقمان الحكيم ابنه قائلا له : «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» (1).

ص: 315

قال الله تعالى في كتابه الحكيم : (... وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (1).

الإفراط في التواضع ، والركون الى الذلة والتملق ، مظهر آخر من ردود الفعل التي تحصل عند المصابين بعقدة الحقارة. وهو مذموم ومستتهجن في نظر العلم والدين ، وستتحدث في هذه المحاضرة حول هذا الموضوع النفسي الاجتماعي المهم آملين أن يقع موقع الفائدة لدى الجميع.

التواضع :

وقبل أن ندخل الى صلب الموضوع نمهد له بذكر نكتة مهمة ، وهي التواضع من الصفات الحميدة والسجايا المفضلة في نظر الإسلام. يجب على كل مسلم في أسلوب معاشرته مع الآخرين أن لا يحذر من التكبر والإستعلاء بل عليه أن يكون متواضعاً بالنسبة الى غيره ويحترم شخصيات الاكخرين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم.

لقد وردت أحاديث كثيرة في التواضع وبيان القيمة الاخلاقية الاجتماعية له. لقد كان الأئمة عليهم السلام ملتزمين بهذه الخصلة الحميدة ذلك كانوا يؤكدون على المسلمين أيضاً الإلتزام بها.

وعلى سبيل المثال نستعرض حديثين من ذلك : -

1 - « رُوي عن موسى بن جعفر عليه السلام أنه مرّ برجل من أهل السواد دميم المنظر ، فسَلَّم عليه ونزل عنده وحادثه طويلاً ، ثم عرض عليه نفسه في القيام بحاجةٍ

ص: 316

إن عرضت له. فقل له : يا بن رسول الله أتتزل إلى هذا ثم تسأله عن حوائجه وهو اليك أحوج؟ فقال عليه السلام : عبد من عبيد الله ، وأخ في كتاب الله وجار في بلاد الله ، يجمعنا وإياه خير الآباء آدم ، وأفضل الأديان الإسلام « (1).

2 - « عن رجل من أهل بلخ ، قال : كنت مع الرضا عليه السلام في سفره الى خراسان ، فدعا يوما بمائدة له ، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم : فقلت : جعلت فداك ، لو عزلت لهؤلاء مائدة!! فقال : مه إن الرب تبارك وتعالى واحد ، والأم واحدة ، والأب واحد ، والجزاء بالأعمال « (2).

وهناك أحاديث كثيرة مشابهة لهذين الحديثين تحكي عن تواضع الرسول الأعظم والأئمة الطاهرين عليهم الصلاة والسلام تجاه جميع الطبقات.

نكتان مهمتان :

يلاحظ في التواضع الممدوح نكتتان مهمتان :

الأولى - أن لا يزيد التواضع عن الحد المعقول ولا يبلغ حد الإفراط لأن ذلك يعني التملق والتزلف وهما من الصفات الذميمة.

الثانية - أن يكون الدافع للتواضع هو الشرف والفضيلة واحترام الآخرين لا ضعف النفس والذلة. وبعبارة أوضح فإن المتواضع هو الشخص الذي يطمئن الى شخصيته ، ولا يشعر في نفسه بحقارة أو ذلة. إنما يقوم بواجبه بدافع من الشعور الإنساني وعلو النفس.

يقول الإمام أمير المؤمنين في بيان صفات الرجال المؤمنين : « سهل الخليفة ، لين العريكة ، نفسه أصلب من الصلد ، وهو أذل من العبد » (3).

إن المقصود من صلابة النفس هو بيان التظامن والاستقرار الذي يمتاز به هؤلاء ، وأن القيمة الخلقية للتواضع ترتبط بهذه الحالة الروحية.

ص: 317

1- تحف العقول ص 413.

2- سفينة البحار القمي - مادة (وضع) ص 667.

3- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصبهاني ص 1234.

إن التواضع الذي يستند إلى الحقارة والذلة ، والذي ينبع من الخوف أو الطمع ، ليس أنه لا يؤدي إلى التكامل النفسي والصفاء الروحي فحسب بل إنه يتسبب في نشوئه على الحقارة والذلة وتعوّده على الخسّة والهون.

لقد اهتم الإسلام بالحفاظ على شرف المسلمين وعزّتهم ، وجعل ذلك في سياق الحديث عن عزة الله ورسوله. وبذلك حذرهم من الإستسلام للذل والهوان حيث قال : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

لقد وردت روايات كثيرة تؤكد على هذا الأمر ، نذكر قسما منها : -

- 1 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا يحل لمؤمن أن يُذل نفسه » (1).
- 2 - وعنه صلى الله عليه وآله : « لا يحل لمؤمن أن يُذل نفسه » (2).
- 3 - وعن الإمام الصادق عليه السلام : « إن الله فوض الى المؤمن كلّ شيء إلاّ إذلال نفسه » (3).
- 4 - وعن الإمام العسكري عليه السلام : « ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذلّه » (4).
- 5 - وعن الإمام الصادق عليه السلام : « إن الله فوض إلى المؤمن أموره كلّها ، ولم يفوض إليه أن يُذل نفسه العزيزة » (5).

أساس الحكومة الإسلامية :

تستند الحكومة الإسلامية على أساس العزة والشرف. ويتمتع جميع الأفراد في ظلها بالاحترام والتقدير ، فإن كل عمل يؤدي الى ابسط تحقير أو إهانة للمسلم

ص: 318

-
- 1- تاريخ يعقوبي ص 67.
 - 2- مستدرک الوسائل للمحدث النوري ج2 ص364.
 - 3- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج5 ص63.
 - 4- تحف العقول عن آل الرسول ص 489.
 - 5- المحجة البيضاء في إحياء الأحياء للفيض للكاشاني ج4 ص108.

يعتبر ممنوعاً. لا مجال للتملق والذلة والحقارة في ظل الحكومة الإسلامية ، لأن الإسلام يهتم بتربية الأفراد الأحرار ... والحرية وعلو الهمة لا يستقيمان مع الذلة والهوان.

إن موضوع الحفاظ على الشرف والعزة مهم في نظر الشريعة إلى درجة أن الفقهاء اشترطوا ذلك في كثير من الأحكام. فمثلاً يقول العلامة السيد اليزدي عند تعرضه للموارد التي يجوز فيها التيمم بإعتبار فقدان الماء : « لو وهبه غيره بلا مئة وذلة وجب القبول » (1).

يتضح من هذه الفتوى أن الحصول على الماء لو كان متوقفاً على هبة الغير له ، وكان الواهب لا يمنحه الماء إلا بمئة أو ذلة فإن الإسلام لا يرضى بالوضوء حينذاك ، بل يتبدل التكليف الى التيمم.

لقد كان الأئمة عليهم السلام ، بالإضافة الى امتناعهم عن كل عمل يؤدي الى الذلة والهوان ، يمنعون المسلمين عن الاستسلام لذلك والإفراط في التواضع بصراحة. وهناك شواهد كثيرة على ذلك.

1 - « عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج على نفر من أصحابه. فقالوا : مرحباً بربنا ومولانا. فغضب رسول الله غضباً شديداً ، ثم قال : لا تقولوا هكذا ، ولكن قولوا : مرحباً بنبينا ورسول ربنا. قولوا السداد من القول ولا تغلوا في القول فتمرقوا » (2).

2 - وفي حديث آخر نجد أن الامام أمير المؤمنين عليه السلام ينهى عن مشي البعض معه وهو راكب ... « ركب علي عليه السلام يوماً فمشى معه قوم ، فقال عليه السلام لهم : أما علمتم أن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي؟! إنصرفوا » (3).

ص: 319

1- العروة الوثقى للسيد محمد كاظم اليزدي - مسوغات التيمم - المسألة ص 17.

2- الجعفریات ص 184.

3- تحف العقول عن آل الرسول ص 109.

3 - مرّ أمير المؤمنين عليه السلام في طريقه الى الشام بمدينة (الأنبار). فاستقبله جمع غفير من الملا-كين والشخصيات البارزة على مراكبهم ، وعندما اقترب الإمام منهم نزلوا عن مراكبهم وأخذوا يسيرون بصورة مجتمعة في ركابه. لقد بدا هذا الأمر منهم نزلوا عن مراكبهم وأخذوا يسيرون بصورة مجتمعة في ركابه. لقد بدا هذا الأمر غريباً في نظر الإمام عليه السلام فسألهم : لماذا نزلتم عن مراكبكم وتسابقتم في السير معي؟ قالوا : هذا دأبنا تجاه أمرائنا وزعمائنا. فأخذ الإمام عليه السلام ينصحهم بترك ذلك مبيناً لهم أنه لا يجدي نفعاً للأمرء والزعماء كما أنه يؤدي الى الاشعار بالذلة والحقارة لكم. ثم قال :

« ما أخسر المشقة وراءها العقاب ، وأريح الدّعة معها الأمان من النار » (1).

4 - قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « من كانت له إليّ حاجةٌ فليرفعها إليّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة » (2).

يستفاد من الأحاديث المتقدمة مدى اهتمام الإسلام بالحفاظ على شرف المسلمين وعزهم. إنه لا يسمح لأحد باتباع السلوك الذي يؤدي إلى الإحتقار والذلة. على الشعب والحكومة معاً السعي للحفاظ على العزة الفردية والوطنية ، والحذر عن كل ما من شأنه الحط من كرامة الحكومة الإسلامية أو النيل من شخصية الأفراد فيها.

غريزة حب الذات :

سبق وأن ذكرنا في محاضرات سابقة أن حب الذات من الغرائز الطبيعية عند الإنسان. هذه الغريزة تدفعه إلى أن يسعى في سبيل الحفاظ على شخصيته ، وأن يصون روحه وجسمه من أي إعتداء أو تعذيب.

كل فرد يجب بفطرته أن يبقى حياً ، فعندما يعطش أو يجوع أو يمرض ويرى حياته مهددة بالخطر ، فإن غريزة حبه لذاته تدفعه للسعي وراء الماء والخبز والطبيب والعلاج.

ص: 320

1- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 1094.

2- ثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ج2 ص244.

كذلك يميل الإنسان بفطرته إلى العزّ والشرف ، ويسعى في سبيل الحفاظ على ذلك بشدة ، فعندما يجد شرفه معرضاً للخطر ، فإنه يحاول بكل ما يملك من طاقة دفع كل ما يسيء إلى سمعته.

المشاعر المتناقضة :

لغريزة حب الذات مظاهر مختلفة من الناحيتين : الروحية والجسمية ، فعندما لا يوجد تعارض أو تراحم بين تلك المظاهر فإن كلاً منها يتلقى استجابة ملائمة. ولكن الطامة الكبرى تقع عندما تظهر هذه الغريزة في مظاهر متعارضة فيما بينها ، وتجعل الإنسان تحت كابوس المشاعر المتناقضة. في مثل هذه الحالة ينحرف بعض الأفراد عن الطريق الصحيح والمعقول ويقدمون على أعمال إجرامية عظيمة.

إن كل فرد يرغب بدافع من حبه لذاته أن يكون كاملاً من جميع الجهات منزهاً عن كل نقص أو ضعف. إن الأشخاص الذين يشعرون بالحقارة والصغار من بعض هذه الجوانب يعيشون في قلق وإضطراب دائمين ، ويشكون من ضغط روحي مستمر. إن الطريق المعقول لهؤلاء في تدارك حقارتهم هو أن يوجهوا قابلياتهم في مجارٍ مناسبة ، ويبرهنوا على جدارتهم وكفاءتهم عن طريق إظهار مواهبهم في المجالات التي يتقنونها وبذلك يستطيعون الحصول على شخصية مستقيمة في المجتمع ويتناسبون ضعفهم الداخلي. لكن بعض المصابين بالحقارة ينحرفون عن الطريق المعقول بسبب من اليأس أو الكسل وغير ذلك. ولإخفاء ما هم عليه من الضعف ، وبغية تدارك النقص يقدمون على الانتحار المعنوي ، فيحطمون شخصياتهم ويتخلّون عن عزّتهم واستقلالهم ... إنهم يستسلمون للذل والهوان بالحركات التزلّفية التي يغلب عليها طابع التصنع في التواضع ، وهذا ما يؤدي إلى إذكاء نار المشاعر المتناقضة في ضمائرهم.

عوامل التناقض :

توجد في المجتمع طوائف عديدة وقعت في ورطة المشاعر المتناقضة ، ودعاهم ذلك الى الإفراط في التواضع بحيث يصل إلى درجة التملق والتنازل عن شرف النفس والكرامة. وسنتحدث في هذه المحاضرة عن العوامل المؤدية الى ذلك.

من العوامل المهمة لإيجاد عقدة الحقدرة في ضمير الإنسان ، مظاهر التزمت والشدة التي يستعملها بعض الآباء والأمهات تجاه أطفالهم. إن الطفل الذي ينمو في جو مشحون بالخوف والإضطراب ، والتوتر والقلق ولا يحسب له الأبوان حساب الآدميين ، والذي لم يذق طعم الرأفة والحنان أبداً ... لا بد وأن ينشأ ضعيفاً ، حقيراً ، يشعر بالحرمان دائماً. إنه لا يجد نفسه كفواً لتحمل أعباء الحياة ، لأن التجارب أثبتت له ذلك.

هذا الطفل عندما يشب ويتزعزع ويصبح عضواً بارزاً في المجتمع ، يظل يشعر بالنقص في قبال الآخرين ، لأنه مصاب بالقلق والإضطراب ، فاقد للاستقلال وقوة الشخصية.

« إن النشاطات الدالة على القلق والإضطراب تشير إلى أن الشخص يشكو من نقص عظيم ، ويتصور أنه لكي يتدارك ذلك النقص عليه أن يقوم بجهد أكبر مما يقوم به الآخرون.

إن جميع النشاطات اللاغرضية تشير الى هذه الحقدرة ».

« هذا القلق ينشأ من خوف كامن. والسبب هو أن الشخص يتصور أنه سيندحر في عمله أو منزلته أو أموره المعاشية. ومهما كان السبب فإن ذلك يجعل صاحبه كالفأرة الواقعة في الفخ ، حيث تحاول الفرار فقط ».

« وليس من الضروري أن يكون هذا الخوف من حادث قريب ، بل يكون في الغالب وليد خاطرة سابقة نسيت من صفحة شعور الإنسان. لقد كان الخوف مصاحباً لهذه الخاطرة ولم يطرد من خزانة الفكر تماماً ، وفي النتيجة يظهر بصورة الخوف ، العصاب ، القلق ، والإضطراب « (1).

« بصورة عامة فإن كل حادثة مؤلمة تقع للطفل سواء في البيت ، أو

ص: 322

المدرسة ، أو المجتمع ، تسبب تحطيم شخصيته لأن عواطفه ومشاعره قد قمعت ، ولا تستطيع الطهور من دون جهد « (1).

إن هؤلاء الأفراد إذا استطاعوا أن يتناسوا خواطرهم المرة التي مرت عليهم في أيام الطفولة ، وتغافلوا عما لا قوة من التزمت والشدة من أبيهم استطاعوا العيش بعزة وكرامة. أما إذا ظلت تلك الخواطر المؤلمة عالقة بأذهانهم فإنهم لا يستطيعون الخلاص من ضغط الحقارة والذلة ولذلك نجدهم يقدمون على أعمال مختلفة ، منها الرضوخ للذل والإستسلام للهوان.

إن التواضع في هذه الصورة يفسّر بالخوف من معاملة الناس للفرد نفس المعاملة التي كان يعامله بها أبواه من التحقير والشدة والخشونة. ولكي يتدارك ذلك يتواضع لكل أحد ويتزلف إلى كل من يتصور أنه قادر على الأخذ بيده في متاهات الحياة ، ومساعدته في حل مشاكله.

إذن ليس هذا النوع من التواضع فضيلة خلقية ، بل يستند إلى الخوف من التحقير. وهو مذموم بلا ريب.

2 - الحرمان المادي :

إن فقر الأبوين وضعف حالتهما المالية من العوامل التي تسبب الحقارة والخجل للطفل. إن الأفراد الذين نشأوا في ظروف مالية صعبة يشعرون بتخلف عن ركب الكمال والرقى. هذه الخاطرة لا تمحي من أذهانهم بل تظل عالقة بها مدى العمر. أما الأفراد الذين بلغوا مدارج الكمال والرقى على أثر كفاءتهم وفي ظل الجهود التي بذلوها لذلك فإنهم يتناسون الماضي التعس ويعملون ليومهم ... في حين أن الأفراد الذين لم يسلكوا طريق العمل والجد ، ويعملون ليومهم ... في حين أن الأفراد الذين لم يسلكوا طريق العمل والجد ، لا يستطيعون نسيان تلك الخواطر المرة بل يظلون يئنون من عوارض الحقارة وضعف النفس. إنهم يحتقرون انفسهم في قبال الأثرياء وهذا يدفعهم إلى أن يخضعوا لهم ويفرطوا في التواضع نحوهم.

ص: 323

« هناك أطفال وُلدوا في أسر فقيرة ، وبالرغم من أن بالإمكان أن ينالهم عطف الوالدين وحنانهما وتربيتهما وتعليمهما الصحيحان ، فإنهم قد يصابون بالحقارة والخبجل الشديد عندما يبلغون ويتذكرون الحالة التي كانوا عليها. هؤلاء يشعرون بالخسة والضعفة في مواجهة الأفراد الذين هم فوق مستواهم » (1).

لقد نظر الإسلام نظرة سخط إلى الحقراء الذين يحترمون الأثرياء لثروتهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لعن الله من اكرم الغني لغناه » (2).

الفقراء المتعففون :

لقد كان أكثر أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقراء في صدر الإسلام. لكن القرآن الكريم تعهد بتربيتهم على عزة النفس وقوة الشخصية ، بحيث لم يكونوا يخسرون أنفسهم في قبال التجارب المادية بالرغم مما كانوا عليه من الفقر.

وكشاهد صريح على ما أقول أذكر لكم القصة التالية : فقد روي أن رجلاً موسراً دخل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ثم دخل رجل فقير وجلس إلى جنبه ، فجمع الموسر ملابسه ...

كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منتبهاً إلى ذلك ، فسأل الموسر : أخشيت من اتصال فقره بك؟ فقال : كلا.

فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أحسيت من انتقال شيء من ثروتك إليه؟ قال : كلا.

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : أخشيت من تلوث ملابسك؟ قال : كلا.

قال (صلى الله عليه وآله وسلم) : فلماذا جمعت ملابسك؟ قال : إن الثروة التي تلازمي في كل حين منعني من رؤية الحق ، وحببت إلى

ص: 324

1- عقدت حقارت ص 18.

2- لنال الأخبار ص 128.

عيوبي ، ولكي أtdارك هذا السلوك المستهجن ، فقد وهبت له نصف ما أملك.

فقال رسول الله للمعسر : أتعبل؟

قال : لا.

فقال له الرجل : ولم؟

قال : أخاف أن يدخلني ما دخلك!! (1).

3 - التأخر العلمي :

إن الشخص الذي يريد أن يجعل نفسه في عداد العلماء ، لكنه معدم من الناحية العلمية يشعر بالحقارة. ولكي يخفى هذا النقص ويتدارك ما عليه من الحقارة يتوسل بطرق مختلفة ، فقد يستند إلى أقوال العلماء ، وينقل كلمات الآخرين ... وقد يتذرع بالتملق والتزلف فيخضع في قبال الآخرين إلى درجة يخجلون معها من التصريح بجهله وانخفاض مستواه العلمي.

إن الطامة الكبرى هي عندما يجلس إنسان جاهل كهذا على كرسي التدريس ويتصدى لتعليم غيره. فلكي يحافظ على شخصيته في قبال تلاميذه ولا يُحتقر من قبلهم ، فإنه إما أن يلتزم التكبر والشدة إلى درجة لا يجرأ معها التلاميذ على مصارحته بجهله ونقصه ، أو يتواضع إلى درجة يتغافلون معها عن عدم جدارته وكفاءته.

إن هذا النوع من التواضع لا يمكن أن يعدّ من الفضائل. بل إنه نوع من الذلة منشأ حقارة الشخص وخوفه من انفضاح أمره .. إنه كان يحاول أن يظهر بمظهر العلماء مع فقدانه للثروة العلمية ، وبالرغم من عدم كفاءته فقد أشغل كرسي التدريس ، لذلك فقد رضي بهذا الذل.

عن الإمام الصادق عليه السلام : « لا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه. قلت : بما يُذلّ نفسه؟ قال : يدخل في ما يتعذّر منه » (2).

ص: 325

1- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج2 ص262.

2- الكافي لثقة الإسلام الكليني ج5 ص64.

وعنه عليه السلام : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قيل له : وكيف يُذل نفسه؟ قال : يتعرض لما لا يطيق » (1).

وعن الإمام الباقر عليه السلام : « بس العبد عبد له رغبة تذلّه » (2).

إن شخصاً كهذا لو يعرف قيمته الواقعية ويقف عندها ، لا يساوم عزته وشرفه ولا يستسلم للذل والهوان بالتملق والتواضع الشديد.

4 - الإجماع :

الإجماع عامل آخر من عوامل الحقارة والضعفة. إن الشخص الخارج على القانون يشكو من ضغط الوجدان وتأنيب الضمير دوماً ويرى نفسه حقيراً. إنه يدفن جرائمه في ضميره المستتر ويتناسى الصور المخجلة لأعماله البشعة ، لكن الوجدان الأخلاقي لا يتركه لوحده بل يظل يكيل له اللوم والتأنيب باستمرار ...

إن الحقارة التي تصيب الفرد على أثر الإجرام تفقده شخصيته ، ومهما كان قوياً في إرادته فإنه يضعف وينهار ... ثم يسعى لإخفاء ضعفه النفسي والتظاهر بالقوة والثبات ، في حين أن فشله وتأثره الباطني لا بد وأن يظهر من خلال أفعاله وأقواله.

« إننا نخفي خواطرننا المؤلمة والمخجلة في ضمائرنا حتى نكون بمنجى عن تعذيبها ، ولكنها تملك نفوذاً تاماً في أفكارنا وسلوكنا على الرغم من جميع محاولتنا ، إننا نجهل ذلك وقد لا نعي شيئاً عن علل سلوكنا ، لذلك فإننا نتقدم من عملنا ونتحير : لماذا صدر العمل الفلاني منا ، أو لماذا جرت الكلمة الكذائية على لساننا. إن الخواطر المدفونة لا تموت ولا تفقد قدرتها مطلقاً ، بل تقود سلوكنا نحو ما تريد » (3).

إن الذلة والحقارة عند بعض المجرمين واضحة تماماً من خلال تواضعهم الشديد. إنهم يبدون تواضعاً مفرطاً تجاه الناس بغية إخفاء جرائمهم. كذلك الموظفون

ص: 326

1- المحجة البيضاء في إحياء الإحياء ج4 ص108.

2- سفينة البحار للقمي ، مادة (طمع) ص 93.

3- رشد شخصيت ص 17.

الذين يرتشون ولا ينفذون المعاملات التي ترد عليهم إلا إذا كان صاحبها قد أسدى خدمة مهمة إليهم ، فهؤلاء يتميزون بالتواضع وحسن الأخلاق مع المراجعين فيحدثونهم بكلمات من قبيل : في خدمتكم ، طوع أوامرکم ، كما تأمرون ، سمعاً وطاعة ... وما شاكل ذلك.

لا ريب في أن هذا النوع من التواضع الذي يستند إلى الإجرام والخوف من الفضيحة ليس فاقداً للقيمة فحسب ، بل إنه يدل على حقارة الشخص واستسلامه للذل والهوان.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من أحب أن يكون أعز الناس فليتق الله عز وجل » (1).

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « من سره الغنى بلا مال ، والعز بلا سلطان ، والكثرة بلا عشيرة ، فليخرج من ذل مصعية الله سبحانه إلى عز طاعته » (2).

وعن الإمام الصادق عليه السلام : « أوصيكم بتقوى الله ، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتذللوا » (3).

5 - طلب الجاه بلا كفاءة :

يصل بعض الأشخاص الفاقدين للكفاءة والجدارة إلى مناصب كبيرة ليسوا أهلاً لها. إن الأفراد الواعين يمتنعون عن إطاعة مثل هؤلاء والإتياد لهم.

قال الإمام الصادق عليه السلام : « من طلب الرئاسة بغير حق ، حرم الطاعة له بحق » (4).

هؤلاء الحكام غير الجديرين بإشغال مناصبهم يسلكون سلوكاً استبدادياً عنيفاً مع جميع الناس بصورة عامة ، ومع المنقادين لهم بصورة خاصة ، وربما أساءوا في الحديث معهم ولجأوا إلى أساليب العنف والإضطهاد لإسكات روح الاعتراض

ص: 327

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج17 ص48.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 692.

3- وسائل الشيعة للحر العاملي ج3 ص202.

4- تحف العقول عن آل الرسول ص 321.

والإنتقاد فيهم. ولكنهم قد يتذرعون بالتواضع واللين تجاه من هو أرفع منزلة منهم وبذلك يحفظون أنفسهم عن الاعتراضات والتشكيكات. إن الذين يستسلمون للذل والهوان ، ويساومون بعزهم وشرفهم لقاء رئاسة لا يطول أمدّها لهم أفراد حقراء خاسرون.

قال علي عليه السلام : « ساعة ذلّ لا تقي بعزّ الدهر » (1).

إن هؤلاء ليسوا يظلمون أنفسهم فقط بإهدار كرامتهم ، بل يظلمون الناس أيضاً ويسوقونهم نحو الشقاء والدمار : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إذا ساد القوم فاسقهم ، وكان زعيم القوم أذلهم ، واکرم الرجل الفاسق فليُنتظر البلاء » (2).

وفي حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « إذا ساد السفّل خاب الأمل » (3).

وعنه عليه السلام : « زوال الدول باصطناع السّفّل » (4).

الشرفاء والمناصب :

إن الرجال الشرفاء ذوي الشخصية الرصينة عندما يصلون الى منصب كبير بفضل جدارتهم وكفاءتهم ، يقومون بواجباتهم معتمدين على قوة الشخصية وشرف النفس ... ولذلك فلا طريق للتملق والتزلف ، والحقارة والذلة الى أرواحهم الطاهرة ونفوسهم النزيهة.

قال علي عليه السلام : « ذو الشرف لا تُبطره منزلة نالها وإن عظمت ، كالجبل الذي لا ترعزه الرياح » (5).

وكشاهد على ذلك أنقل لكم القصة الآتية : -

ص: 328

1- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 443.

2- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج 17 ص 41.

3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 312.

4- نفس المصدر ص 427.

5- المصدر السابق ص 407.

لقد كان أبو منصور وزير السلطان طغرل بك رجلاً عالمًا، قوي الشخصية، شديد الإيمان، مستقيماً في سلوكه. لقد كان ملتزماً بأداء واجباته الدينية بحيث كان يجلس للدعاء بعد أداء فريضة الفجر من كل يوم حتى طلوع الشمس. عند ذاك كان يستعد للذهاب إلى البلاط الملكي.

وفي بعض الأيام بعث السلطان وراءه قبل طلوع الشمس. فجاء الخدم إلى داره ووجوده مشتغلاً بقراءة الأذعية فأبلغوه الإرادة الملكية، ولكن الوزير لم يلتفت إلى كلامهم بل استمر في قراءة الأعية. لقد تذرع الخدم بذلك وأخبروا الملك بأنه أهان أوامره، فغضب غضباً شديداً...

فرغ الوزير من عباداته، فركب جواده وذهب إلى البلاط. وما أن دخل حتى واجهه الملك بأشد الخشونة قائلاً له: لماذا تأخرت؟!

عند ذاك قال الوزير المنبعث من قلب صلب وإرادة رصينة في الملك إلى درجة أن عينيه اغروقتا بالدموع، ثم استحسن من الوزير ذلك وأوصاه بالإستمرار على ذلك الأسلوب بتقديم واجب العبودية على واجب الخدمة كي ينتفع البلد بسداد آرائه (1).

إن متانة الشخصية تبرز من خلال المنطق الصريح والبيان القاطع للفرد. كما أن الحقايرة والخسة تتضح من خلال أحاديث الفرد أيضاً.

قال علي عليه السلام: « بيانُ الرجل يُنبئ عن قوّة جنانه » (2).

الشرط الأساسي للتواضع :

لقد اعتبر الإسلام التواضع من الصفات الحميدة والسجايا الطيبة، واحترام الشخص المتواضع أيما احترام... لكنه يشدد في النكير على الشخص الذي يستسلم للذل والهوان بصورة التواضع وبإسم التأدب.

إن الشرط الأساسي للتواضع هو الإطمئنان الروحي والإستقلال النفسي للفرد. وقد صرح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث الذي بدأنا به المحاضرة

ص: 329

1- جوامع الحكايات ص 173.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للأمدي ص 343.

بذلك حيث قال في وصف المؤمن : « نفسه أصلب من الصلد ، وهو أذل من العبد » (1).

إن التواضع هو الذي يقوم بواجبه الإنساني دون خوف أو طمع .. وهو الذي يستند تواضعه إلى التعالي النفسي والتكامل الروحي. أما الأفراد الذين يتواضعون بسبب من الشعور بالحقارة ، أو الشعور بالنقص ، أو طلب الجاه ، أو الطمع فإنهم لا يكتسبون فضيلة بذلك ، بل يؤدي الإستمرار في هذه الحالة الى تأصل جذور الذل والحقارة في نفوسهم.

تجنب الذلة :

إن الحفاظ على العزة والشرف والفرار من الذلة والخسة من أهم الواجبات القطعية على المسلمين حسب الأحاديث التي قرأناها لكم في هذه المحاضرة ، وأحاديث أخرى كثيرة واردة في كتب الحديث. إذ لا يجوز لمسلم قط أن يستسلم للذل والهوان ، ويتنازل للتملق والتزلف تحقيقاً لبعض الغايات.

إن أعظم مراتب العبودية والذلة يجب أن يلتزمها الفرد بين يدي الله تعالى الذي خلق الكون وزود كل شيء بالوسائل والأدوات اللازمة لحياته ... إنه لا يليق الإنكسار والتواضع ، والخضوع إلا بين يديه عز وجل.

التواضع في التعلم :

لقد سمح الإسلام للفرد بالتواضع والخضوع في مورد آخر هو التعلم. على الجاهل أن يتواضع للعلماء حتى يستطيع استيعاب العلوم والمعارف منهم.

إن الأفراد الذين لم يتلقوا ثقافة ممتازة ويحاولون الإتصال بالعلماء ومعاشرتهم ، يشعرون بالحقارة والذلة ، ويرون أنفسهم دون مستوى الآخرين ويتألمون كثيراً من عجزهم عن المشاركة في الأحاديث العلمية.

هناك طائفة من الأفراد لا يرضون بالإعتراف بجهلهم ، ويحاولون إخفاء النقص الذي فيهم قدر الإمكان. ولكي يتظاهروا بالعلم والإدراك يقدمون على أفعال طفولية

ص: 330

مخجلة. والعلاج القطعي لهذه الحالة هو التفرغ للدراسة والاجتهاد في التعلم. وهذا يحتاج إلى شجاعة وصراحة يجب على الفرد أن يعترف بنقصه ولا- يجعل نفسه في عداد العلماء ... إنه يجب أن يعرف حدة الواقعي ولا- يتجاوزة ... أن يتواضع لأستاذه ، ويحتمل ذلّ السؤال.

إن الإسلام يوافق على هذا التواضع ويرضى بهذا الذل ، لأنه يؤدي الى أن يكتسب الإنسان علماً ويحصل على مكانة سامية. وهذا السلوك ليس خالياً من الضرر فقط ، بل إنه يتضمن فوائد عظيمة.

1 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً » (1).

2 - وعن الإمام الرضا عليه السلام : « العلم خزائن ، ومفاتيحه السؤال » (2).

3 - وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « ليس من أخلاق المؤمن الملق ولا الحسد إلا في طلب العلم » (3).

نستنتج من هذا مدى اهتمام الإسلام في تعاليمه القيمة بالحث على التعلم والتزود بالثقافة والمعرفة إلى درجة بسمح للفرد بالتواضع والذل في طريق التعلم ، في حين أنه يشدد النكير على التملق والإفراط في التواضع في غير ذلك من الحالات.

ص: 331

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج17 ص46.

2- عيون أخبار الرضا - باب ص 30.

3- تحف العقول عن آل الرسول ص 207.

إشارة

قال الله تعالى في كتابه العظيم : (اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ) (1).

إن القلق والاضطراب الفكري من اعظم عوامل التعاسة والشقاء في حياة الإنسان.

وإن الشخص الذي يشكو قلقاً على أثر خوف ، أو حقارة ، أو فشل ، أو ضعف ، أو عجز ، أو جهل ويتألم لذلك ، لو لم يفكر في علاج نفسه فإن الحياة تصبح بالنسبة له جحيماً لا يطاق ، وبالتالي يصاب بعوارض مختلفة.

لقد تعرضنا في المحاضرات الأخيرة الى طائفة من العوامل المؤدبة لنشوء عقدة الحقارة وذكرنا ردود الفعل الناتجة من ذلك ، أما حديثنا في هذه المحاضرة فسيصور حول موضوعين : -

1 - الأعراض والمخاطر الناتجة من الشعور بالقلق.

2 - اسلوب معالجة ذلك من الناحيتين الدينية والعلمية.

إتحاد النفس والبدن :

أما فيما يخص الجانب الأول فلا بد من القول بأن الارتباط والإتحاد بين النفس والبدن متين إلى درجة أن الآثار الطيبة أو السيئة لكل منهما تؤثر في الآخر. ولعمري فإن هذا من الأمور المتسالم عليها لدى العلماء السابقين والمعاصرين. إن

ص: 332

الجسد يخضع لتأثير الحالات الروحية ، وكذلك الروح تخضع لحالات الجسد. والشخص الذي يشكو من القلق والاضطراب ويحس بالألم وعدم الاستقرار في ضميره لا بد وأن يتأثر جسمه بتلك الحالة الروحية فتتحرف صحته.

لقد أثبتت البحوث العلمية للعلماء المعاصرين أن جانباً كبيراً من الأمراض المختلفة يرجع في نشأته الى الاضطرابات الروحية. ولا بد لعلاج هذه الأمراض من معرفة الأسس النفسية التي تعتمد عليها.

عوارض القلق :

يستشهد العالم النفسي الشهير (ديل كارنيجي) بنصوص لعلماء متخصصين حول طائفة من الأمراض الجسمية التي يمكن أن تنبع من القلق والاضطراب وها أنا أنقل لكم نموذجاً من ذلك : -

« لقد أمضيت إجازتي قبل بضعة أعوام في ولاية تكساس بصحبة الدكتور (آ. كوبر) رئيس مصحات السكك الحديدية في (سانتافيا). وفي يوم من الأيام كنا نتحدث عن القلق فقال صديقي : إن 70% من المرضى الذين يراجعون الأطباء لو استطاعوا أن ينقذوا أنفسهم من قبضة الخوف والقلق فإنهم يستطيعون معالجة أنفسهم بأنفسهم. فمثلاً على ذلك يمكن علاج بعض أنواع القرحة المعدية ، وعسر الهضم العصبي ، والاضطرابات القلبية ، والأرق ، وبعض أنواع الصداع بتهذئة الوضع الروحي للمريض ».

« يقول الدكتور (جوزيف مونتاكو) مؤلف كتاب (الاختلالات العصبية للمعدة) : ليس ما تأكلونه سبباً في ظهور قرحة المعدة ، بل إن ما يأكلكم - وهو القلق - هو الذي يؤدي إلى نشوء هذه القرحة ».

« يقول الدكتور (د. ألفاريز) : إن شدة أو ضعف القرحات المعدية تتصل اتصالاً مباشراً في الغالب بشدة أو ضعف الاضطرابات الداخلية. إن هذا الكلام يستند إلى تجربة أجريت على خمسة عشر ألف مريض راجعوا المستشفى الذي أشرف عليه فوجدت أن أربعة أخماس أولئك المرضى كانوا لا يملكون أساساً طبياً لعلاج معدهم

إن الخوف والقلق والحسد والأنانية وعدم القدرة على الانسجام مع البيئة عوامل مؤثرة في أمراض المعدة والقرحة فيها. إن قرحة المعدة تؤدي إلى الموت ، وكما ذكرت مجلة لايف فإنها تقع في الدرجة العاشرة بين الأمراض المهمة والخطيرة».

« لقد ذكر المشرفون على (مستشفى مايو) الذائع الصيت في الولايات المتحدة أن النصف الأكبر من الأسرة في المستشفى يشغلها المصابون بالأمراض العصبية إنهم لا يشكون من فساد أو اختلال الجهاز العصبي ... بل يؤلمهم الحرمان ، والقلق ، والخوف ، والفشل ، واليأس».

خسائر الأمراض الروحية :

« إن الخسائر الناشئة من الأمراض تتزايد يوماً بعد يوم إن التقارير الطبية تحكي عن أن كل عشرين مواطناً في أمريكا يوجد بينهم مواطن واحد سيقضي شطراً كبيراً من عمره في مستشفيات الأمراض الروحية. وأن سدس الشبان الذين دُعوا للخدمة العلم في الحرب العالمية الثانية كانوا قد أعفوا من ذلك بسبب النقائص الفكرية والروحية.

« ما هي علة الجنون؟

« لا يوجد أحد يعرف ذلك تماماً. ولكن ما لا ريب فيه أن القلق والخوف عاملان كبيران في جنون صاحبهما».

« ذكر الدكتور (ويليام ماك كوليك) في مؤتمر أطباء الأسنان الامريكان : إن القلق يؤدي إلى تسوس الأسنان ... ثم يستمر فيقول : إن الإضطرابات التي تؤدي إلى القلق تسبب اختلال مقادير الكالسيوم في الجسم ، وهذا بدوره يعمل على تسوس الأسنان وفسادها».

« لا أعلم هل رأيتم في حياتكم شخصاً أنتفخت غدته الدرقية أكثر من المعتاد ، لقد رأيت شخصاً كهذا ... إن المصاب بذلك يرتعد دائماً وكأنه ميت خارج من قبره. تتناسب شدة المرض وضعفه مع

كثرة الإفراز وقلته ، تزداد سرعة نبضه ، وربما انتهى به الأمر إلى الموت ».

« لقد ذهبنا قبل أيام بصحبة صديق كان مصاباً بهذا المرض إلى (فلادلفيا) لإستشاره طبيب معروف بمعالجة هذه الأمراض. وما أن دخلنا عليه حتى وجه إلى المريض هذا السؤال : ما هو الإضطراب الفكري الذي تشكو منه وتبته صديقي إلى ضرورة إبعاد القلق عن نفسه وإلا أصيب بأمراض خطيرة أخرى كمرض السكر ، والنوبة القلبية ، وقرحة المعدة » (1).

القلق ومرض الجسم :

إن النصوص والاحاديث الواردة بهذا الصدد توضح أن الأئمة عليهم السلام كانوا على علم تام بهذا الأمر. وقد كانوا يذكرون لأتباعهم أن الخوف ، والقلق ، والحسد ، والههم ... وبصورة موجزة : جميع الإضطرابات الداخلية والآلام الروحية تؤدي إلى إنحراف المزاج.

1 - قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « الههم يذيبُ الجسد » (2).

2 - وقال عليه السلام : « الههم نصف الهرم » (3).

3 - وقال عليه السلام : « الحسد يُفني ، والحقْدُ يذري » (4).

4 - وعنه عليه السلام : « الخائف لا عيش له » (5).

5 - وقال عليه السلام : « الحزن يهدم الجسد » (6).

ص: 335

1- آئين زندگي ص 25.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 35.

3- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 1143.

4- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص.

5- نفس المصدر ص 34.

6- المصدر السابق ص 23.

6 - وقال أيضاً : « المريب أبداً عليل » (1).

والخلاصة أن العقد والآلام والاضطرابات وسائر الأمراض الروحية تترك آثاراً سيئة في جسد الإنسان بالإضافة إلى تأثيرها في اضطراب الفكر.

هذا فيما يخص الجانب الأول من بحثنا في هذه المحاضرة.

مكافحة القلق :

أما فيما يتعلق بالجانب الثاني وهو أسلوب علاج القلق فنقول : أن العلاج الاساسي لهذه الأمراض لا يتيسر بالأساليب الطبية ولا يتم عن طريق الأدوية والعقاقير. ان المصاب بالحقْد والحسد ، أو الذي يشكو من القلق والحقارة ، وأو الذي يئن من الهم والغم لا يمكن إنقاذه إلا باقتلاع جذور المرض ... هؤلاء يجب أن يطهروا قلوبهم من الانحراف والأفكار الفاسدة وأن يتناسوا الخواطر المرة التي جابهتهم في حياتهم ، ويحاولوا أن يتحلوا بالفضائل والسجايا الحميدة حتى يستطيعوا إنقاذ أنفسهم من الدمار والهلاك.

إن التعاليم الإسلامية تؤكد على أهمية هذا الأمر.

1 - فقد ورد عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « إن الله سبحانه يُحبُّ أن تكون نية الإنسان للناس جميلة » (2).

2 - وعنه عليه السلام : « أبلغ ما تستدر به الرحمة أن تضمر لجميع الناس الرحمة » (3).

3 - قال أمير المؤمنين عليه السلام : « الكاظم من أمات أضغانه » (4).

ص: 336

1- المصدر السابق ص 29.

2- نفس المصدر ص 271.

3- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 212.

4- المصدر السابق ص 37.

المنهج العلمي والمنهج الإسلامي :

لقد وجدنا أن البرنامج الذي يقرره العلماء المعاصرون لحل العقد النفسية وإنقاذ الأفراد من الإضطراب والقلق يستند إلى تحليل الحالات الروحية للمريض. وبعبارة أوضح فإن العالم النفسي يستطيع لتهدئة الإنسان المضطرب والقلق أن يستند إلى القواعد العلمية ويستفيد من طرق الطب النفسي فقط. فمثلاً يحلل عامل القلق ، أو يوقظ الإستعدادات والمواهب الكامنة ، أو يقوي الروح بالإحياءات المفيدة ، أو يؤكد على مسألة الإعتماد بالنفس فيحيي شخصيته وينقذه من المشاكل والمآسي الكثيرة.

في حين أن المنهج الإسلامي الذي أكد عليه الأئمة عليهم السلام لعلاج الأمراض الروحية وحل العقد النفسية يستند إلى قوتين : قوة العلم وقوة الإيمان وبعبارة أخرى فإن قادة الإسلام كانوا يستفيدون من الأسس العلمية والدقائق النفسية لمكافحة القلق من جانب ومن جانب آخر كانوا يستندون إلى قوة الإيمان في بعث الطمأنينة في القلوب. «أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (2).

لا ريب في ان تأثير الإيمان في صفاء النفس وبعث الطمأنينة في القلب أعظم من تأثير العلم وقوته. ففي الظروف الحرجة حيث يصل القلق إلى القمة ، وتهب الأعاصير في نفس الفرد ، يعجز العلم عن تهدئة ذلك ... بينما يتدخل الإيمان بقوته الجبارة فيهدئ الأوضاع ويبعث الإستقرار والتطامن وفي نفس الإنسان. وهذه هي سمة فريدة يمتاز بها الإسلام على المذاهب التربوية الأخرى في العالم.

ولكي تتضح أهمية الإيمان في علاج الأمراض الروحية والإضطرابات الباطنية وبذلك يتبين المستمعون الكرام عظمة التعاليم الإسلامية ، أذكر لكم مثلاً عن موارد القلق.

ص: 337

1- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 988.

2- سورة 13 ص 28.

هناك أشياء يشعر الأفراد في مختلف نقاط العالم بالتشاؤم نحوها ، كالتشاؤم من العدد (13) عند كثير من الشعوب ، ونعيق الغراب عند العرب وصوت البوم عند الإيرانيين. إن الأفراد الذين يعتقدون بالتشاؤم يضطربون كثيراً عندما يلاقون ما يتشاءمون منه ، وقد يبعث ذلك الألم والاستياء الشديدين فيهم الى درجة أنهم لا يستطيعون القيام بنشاط ما في سبيل إنقاذ موافقهم.

(13). فقد ولدت فيها طفلة في اليوم الثالث عشر من الشهر ، وعندما شبت الطفلة وترعرت وعلمت بأن ولادتها تصادف اليوم الثالث عشر بدأ الإضطراب يدبّ إلى نفسها. إنها كانت تتصور أن نحوسة يوم ولادتها تؤدي إلى تعاستها. لقد اضطر الوالدان لتهدئة الفتاة الى اخذها الى عيادة طبيب نفسي ، وبذل الطبيب كل جهده لإقتلاع جذور القلق من نفس الفتاة ، ولكنه باء بالفشل في كل محاولاته.

تزوجت هذه الفتاة بعد إنهاء دراستها الجامعية وولدت طفلاً ولكنها ما زالت تحترق في نار القلق والإضطراب. لقد كانت راكبة سيارتها بصحبة زوجها وطفلها حين صادفهم الطبيب النفسي في أثناء عبوره الشارع. فاستوقفهم واقترب من الشابة وقال لها : رأيت كيف صدقت أقوالي فيك وأن اضطرابك كان تافهاً لا مبرر له؟! انظري كيف أنك سعيدة بجوار زوجك وطفلك.

اجهشت الشابة بالبكاء وقالت : سيدي الطبيب ، إني متيقنة من أن نحوسة العدد (13) ستؤدي إلى تعاستي ودماري!!

الإيحاءات المؤلمة :

يعتقد علماء النفس أن التشاؤم وليد جهل الإنسان وليس خطراً حقيقياً أو آفة واقعية ، إنهم يقولون : إنه عبارة عن إيحاء مؤلم يؤدي إلى إضعاف الروح وسيطر على قلب المعتقد به وفكره.

كذلك الأئمة عليهم السلام فإنهم لم يعتبروا التشاؤم حقيقة ، ولكن اعتقد به شخص واهتم به فإنه يصاب بالقلق والاضطراب ومن البديهي أن القلق والاضطراب عبارة عن حقيقة نفسية قد تؤدي الى أمراض ومشاكل كثيرة.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « الطيرة ليست بحق » (1).

إن الحوادث المؤلمة التي تقع في بعض الأحيان تستند الى نظام معين في الكون ، ولا علاقة لها بالتطير أبداً. كذلك فإن سلوك بعض الأفراد وفساد اخلاقهم هو السبب في ظهور العوارض والأمراض في حين أن الجهال ينسبونها الى التشاؤم والتطير.

وكمثال على ذلك أذكر لكم قصة شاب كان قد خرج للنزهة في اليوم الثالث عشر من عيد نوروز (الذي يعتقد البعض بنحوسته ولذلك فإنهم يخرجون من البلدة فيه إنقاء لشره)! ، وقد أفرط في شرب الخمر الى درجة أنه فقد وعيه ولم يعد قادراً على المشي. وعند الغروب كان يعبر من بعض الشوارع فعثره بصخرة وسقط في حفرة للمجاري فتكسر فكه الأسفل وتهشمت أسنانه ، فاجتمع الناس وأخرجوه من الحفرة وهم يقولون : إن نحوسة اليوم لصقت بهذا الشاب وأوقعته في هذه الحفرة!

الحق أن العدد (13) لم يؤثر في وقوعه في هذه المشكلة ، بل إن المشكلة التي عرضت له ناشئة من إفراطه في تناول الخمر ...

لقد صرح القرآن الكريم بهذه النقطة النفسية المهمة عند التعرض لقصة موجزة ، فقد قام بعض الأفراد الإلهيين بالدعوة إلى الإصلاح في قرية من القرى. فعارضهم اهل القرية وكذبوهم ، ثم ذكروا أنهم يتشاءمون من وجودهم بين ظهراينهم : «قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ» (2). فأجابهم هؤلاء : «قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ» (3). أي لا تتشاءموا منا ، بل يجب عليكم أن تتشاءموا من وجودكم وسلوككم وعقائدكم الباطلة.

علاج التشاؤم :

بعد أن عرفنا موجزاً عن التشاؤم وآثاره الوخيمة ، نتعرض لطرق معالجة ذلك

ص: 339

1- نهج البلاغة ، شرح الفيض الاصفهاني ص 1264.

2- سورة يس الآية: 18.

3- سورة يس الآية: 19.

في نظر علماء النفس ، وفي تعاليم الإسلام القيمة. وأظن أن المقارنة بين هذين المنهجين تبعث على إزدياد الإيمان بعظمة الإسلام وتعاليمه.

تتلخص كلمات عالم نفسي في علاج الشخص المصاب بالتشاؤم ، في أن العالم يسير حسب نظام ثابت ومتقن ، ولكل ظاهرة في الكون علة خاصة منظمة ، ولا يوجد موجود بدون استكمال علته الأساسية ، وليس التشاؤم من العلل الكونية مطلقاً.

عندما كان الإنسان يعيش في جهل مطبق ولم يكن يقدر على الإحاطة بحدوث العالم فإنه كان يلجأ إلى الأوهام والخرافات. ومن تلك الخرافات التشاؤم. إن التشاؤم يستند الى جهل الإنسان في الماضي ، وقد تناقلته الأجيال على أثر الإيحاءات المتكررة ، واليوم لا يزال يعتقد البعض به.

إنه يقول للمريض : إن التشاؤم ليس حقيقة ، ولكن التأثير الروحي الحاصل فيك تجاه الاعتقادية أو عدم الإذعان له أمر واقعي. فأنت الذي تستطيع أن تعيش منعماً بالاستقلال والطمأنينة إن رفضت الاعتقاد به ، وأنت الذي تستطيع أن تعتبره أمراً واقعياً فتتجرع الويلات والمآسي من جراء ذلك.

لقد استند الأئمة عليهم السلام قبل أربعة عشر قرناً لعلاج القلق عند الناس الى هذا المنطق العلمي ، ولقد قاموا بتحليل الحالة الروحية للمصاب بالتشاؤم.

قال الإمام الصادق عليه السلام : « الطيرة على ما تجعلها ، إن هونتها تهونت ، وإن شددتها تشددت ، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً » (1).

نلاحظ من خلال هذا الحديث أن الإمام الصادق عليه السلام يتحدث عن الأساس العلمي فقط ، ويستند الى منطق التحليل النفسي. ففي هذا المورد نجد الدين والعلم يسيران جنباً الى جنب ويسلكان طريقاً واحداً. فإن الطريق الذي سلكه الإمام عليه السلام قبل قرون عديدة يستعمله علماء النفس المعاصرون في علاج القلق عند الأفراد.

ص: 340

وجدنا المنهج العلمي والمنهج الإسلامي يتطابقان في علاج القلق الى هذه المرحلة. لكن المرحلة التالية تعتبر مفترق طريقين بين الإسلام وعلم النفس. لأن الأخير يعتمد على الأصول العلمية فقط ولذلك نجده يقصر عن علاج بعض الحالات التي لا تنفع نصائح الطبيب النفسي مع المريض. في حين أن المنهج الإسلامي لا يستند في علاج القلق الى المنطق العلمي فقط بل يستغل قوة الإيمان أيضاً. إن أثر الإيمان في علاج الأمراض الروحية أقوى بكثير من أثر العلم.

فعندما يقع الفرد المؤمن في وبطة التشاؤم يسلك الأئمة عليهم السلام لعلاج طريقين: أحدهما علمي وهو الذي سبق شرحه. والآخر إيماني وهو الذي يعتبر الاعتقاد بالتشاؤم مناقضاً للإيمان بالله

1 - قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الطيرة شرك » (1).

2 - قال صلى الله عليه وآله : « من رجعت الطيرة عن حاجته فقد أشرك » (2).

3 - روي عن أبي الحسن عليه السلام لمن أوجس في نفسه شيئاً : « إعتصمت بك يا ربّ من شرّ ما أجد في نفسي ، فاعصمني من ذلك » (3).

بهذا الأسلوب يوجه الإمام عليه السلام الفرد المسلم نحو الاستمداد من الله تعالى في دفع الشر عنه ، وذلك كفيل بعلاج ما هو عليه من القلق والاضطراب. فإن الإيمان بالله أفضل الطرق لبعث الاستقرار والطمأنينة في القلب .. « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (4).

المؤمنون الأحرار :

إن الأحرار الحقيقيين هم الذين يؤمنون بخالق الكون ويستندون الى قدرته

ص: 341

1- حياة الحيوان للدمي ج2 ص66.

2- نفس المصدر.

3- سفينة البحار للشيخ عباس القمي - مادة (طير) ص 103.

4- سورة الرعد، الآية: 28.

وعظمته. إنهم يتمتعون بأرواح قوية ونفوس مطمئنة ... لا طريق للقلق والحقارة الى شخصياتهم ... ومهما قست الظروف فإنها لا تستطيع دحرهم وإخضاعهم لها.

« عن أبي بصير ، قال : سمعت أبا عبدا لله عليه السلام يقول : إنّ الحر حر على جميع أحواله. إن نابتة نائبة صبر لها. وإن تداكت عليه المصائب لم تكسره ، وإن اسر وقهر أو استبدل باليسر عسراً ، كما كان يوسف الصديق الأمين صلوات الله عليه لم يضرر حرّيته أن استعبد وقهر وأسر ، ولم يضرره ظلمة الجب ووحشته وما ناله أن من الله عليه فجعل الجبار العاتي له عبداً بعد أذ كان له مالكاً » (1).

اسلوب العلاج :

لقد تبين لنا من المحاضرات السابقة أن منشأ ظهور عقدة الحقارة يختلف عند الأشخاص. فهناك بعض العقد النفسية والإضطرابات الروحية تنبع من فترة الطفولة ، وهناك طائفة من هذه العقد والإضطرابات تحدث عند الكبر.

إن أول علاج للقلق والعقد الروحية هو محاسبة النفس وتحليل الحالات الروحية للمريض لمعرفة العلل الواقعية للشعور بالحقارة فما لم نحصل على المنشأ الحقيقي للمرض لا يتيسر العلاج الأساسي له.

يقول علماء النفس : إن الشخص المصاب بالإضطرابات الروحية والذي يشكو من عقدة الحقارة يجب أن يصنع لنفسه إضبارة ويحكم نفسه أمام محكمة العقل. يجب عليه أن يستجلي الخواطر المرة التي تقصح عن نفسها بصورة مجهولة ، وأن يزيل الغموض والإبهام عن الأفكار المؤلمة التي تهدده ... يجب أن يصنع لكل جانب من هذه الجوانب سؤالاً ثم يحاول أن يجيب على السؤال بمعونة العقل ، ثم يتخذ عزماً صحيحاً حول مصيره.

لقد أولى الأئمة عليهم السلام عناية بالغة إلى مسألة محاسبة النفس ، وإحصاء النقائص ، والسعي في إكمالها ، والتخلي عن العيوب التي تحطم شخصية الفرد.

1 - وبهذا الصدد يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « وعلى العاقل أن

ص: 342

يُحصى على نفسه مساوئها في الدين والرأي والأخلاق والأدب ، فيجمع ذلك في صدره أو في كتاب ويعمل في إزالتها « (1).

2 - وعنه عليه السلام : « من حاسب نفسه وقف على عيوبه وأحاط بذنوبه فاستقال الذنوب وأصلح العيوب » (2).

3 - وعنه عليه السلام : « من حاسب نفسه ربع ، ومن غفل عنها خسر » (3).

إن الفائدة من وراء محاسبة النفس هي التوصل الى جذور المرض الروحي ومعرفة علل الشعور بالحقارة. وهذا نفسه يحل كثيراً من العقد الروحية وينقذ الفرد من القلق المستمر ، ولكن ليس هذا كل ما في المنهج الإسلامي ، بل لا بد من محاسبة أخرى وهي التصميم لتدارك النقائص وإزالة العيوب.

هاتان المحاسبتان ضروريتان لعلاج جميع العقد الروحية والإضطرابات فعلى الإنسان أن يعرف نفسه ويدرك جذور المرض الذي يشكو من عوارضه أولاً ، ويبحث عن طريق اقتلاع الجذور على هدى العقل والمنطق ثانياً.

الإحياءات المشجعة :

هناك بعض الأفراد مصابون بعاهات عضوية غير قابلة للعلاج ولذلك فإنهم يشكون من الحقارة. هذا النقص لا يمكن علاجه بالمحاسبة النفسية والمعالجة الطبية بل لا بد لذلك من القيام بالإحياءات التي تبعث القوة والشجاعة في النفس .. هؤلاء يجب عليهم أن يتكيفوا للعاهة ويعملوا على إحياء الاستعدادات الباطنية والمواهب الكامنة حتى يداركوا النقص الذي هم عليه.

وفي هذا يقول القرآن الكريم : «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ».

لو يعمل الناس جميعاً على تطبيق هذا المنهج القيم في حياتهم ، ويدفعوا كل

ص: 343

1- بحار الأنوار للعلامة المجلسي ج17 ص116.

2- غرر الحكم ودرر الكلم للآمدي ص 696.

3- نهج البلاغة ، شرح الفيض الأصفهاني ص 1170.

سيئة بالحسنة ، فيدفعوا الظلم بالعدل ، والغضب بالحلم ، والنقص بالكمال والزلة بالعمو .. فإن المجتمع يبلغ الحد الأقصى للكمال والرفي.

نموذج تطبيقي :

لنفرض تاجراً محترماً تدهورت أحواله فاضطر الى غلق محله بسبب من خلّوه من البضائع التي يستطيع الإستمرار في التجارة بواسطتها. هذا الشخص يشعر بالحقارة في نفسه ، ويفقد الراحة والإستقرار ، ويصاب أخيراً بالاختلالات الروحية والأمراض النفسية.

إن أساس العلاج في مثل هذه الحالة يستند إلى إجراء محاسبتين ، ويتطلب الإجابة على سؤالين :

الأول - من أين حصل القلق ونشأ الشعور بالحقارة؟

الثاني - ما الذي يجب إتباعه لعلاج القلق وحل عقدة الحقارة؟

لو لم تكن في ضمير التاجر علل خفية أخرى للقلق والشعور بالحقارة لكانت الإجابة على السؤال الأول واضحة جداً. إنه فقد ثروته وبما أنه كان تاجراً محترماً في يوم ما ، واليوم أصبح معدماً فإنه يتألم كثيراً.

أما الإجابة على السؤال الثاني فهي عبارة عن أن اليأس يجب تبديله إلى رجاء ، ويجب تقوية روحه المندحرة ... يجب دفعه للنشاط والعمل من جديد للحصول على الثروة ، حتى يسترجع عزه ومنزلته في أنظار الناس.

يبقى الموضوع الدقيق وهو كيفية السيطرة على روح المريض ، وتبديل اليأس في نفسه إلى رجاء.

إن علماء النفس يعتمدون في هذه الموارد الى الأساليب العلمية البحث ويوحون الى التاجر المتدهور أن اليأس عامل كبير في جلب التعاسة لصاحبه. كن رجلاً ، شدد عزمك ، أبدأ العمل والنشاط من جديد ، حاول استرداد ثقة الناس بك .. ثم يذكرون له بعض القصص عن أشخاص تدهورت أوضاعهم ثم تداركوا ذلك وبدأوا العمل

ونجحوا نجاحاً منقطع النظير. ثم يقولون له : إنك تستطيع أن تقتدي بهؤلاء وتسير على ما ساروا عليه وتحصل على النجاح الباهر :

أما الأئمة عليهم السلام فإن لهم بالإضافة فإن لهم بالإضافة إلى المنطق العلمي في معالجة هذه المشاكل ، أسلوباً آخر يعتمد على الإتكال على الله واستمداد العون منه.

لقد كان أبو طيار من تجار الكوفة. وتدهور وضعه المالي مرة. فذهب إلى المدينة وتشرف بقاء الإمام الصادق عليه السلام ، وذكر حالته وطلب من الإمام علاجاً لذلك. إن أول سؤال بدأ به الإمام عليه السلام هو أنه هل عندك حانوت في السوق؟

قال : نعم ولكنني هجرته منذ مدة لأنني لا أملك ما أبيع فيه.

فقال عليه السلام : إذا رجعت إلى الكوفة فاقعد في حانوتك واكنسه.

لا يوجد طريق لتدارك التدهور الإقتصادي الذي أصاب تاجراً بغير استعادة العمل والنشاط. وهذا لا يحصل مع اليأس والتردد ، بل لا بد من العزم والاستقرار. ولذلك فإن الإمام عليه السلام قال له : « إذا أردت أن تخرج إلى سوقك فصل ركعتين ثم قل في دُبر صلاتك : توجهت بلا حول مني ولا قوة ، ولكن بحولك يا رب وقوتك ، فأنت حولي ومنك قوتي » (1).

لقد عمل أبو طيار بوصية الإمام عليه السلام . ففتح حانوته ولم تمض ساعة حتى جاء إليه بزاز وطلب منه أن يؤجره نصف حانوته فوافق على ذلك شريطة أن يدفع أجرة الحانوت كله. فجاء البزاز وبسط أمتعته في نصف الحانوت ، وهذا أدى إلى أن يصبح للحانوت وجه جديد.

كان البزاز يملك عدة عدول من القماش لم تفتح بعد ، فطلب أبو طيار منه أن يسمح له ببيع عدل منها على أن يأخذ الأجرة لنفسه ويعيد لجاره قيمة العدل. فوافق

ص: 345

على ذلك ، وسلّمه عدلا. فأخذ أبو طيار العدل وعرضه في النصف الآخر من الحانوت. وصادف أن الجو أصبح بارداً جداً في ذلك اليوم بحيث أقبل الناس على السوق يشترون الأقمشة لوقاية أجسامهم من البرد ، وما أن غربت الشمس حتى كانت الأقمشة كلها قد بيعت.

وفي هذا يقول أبو طيار : « فما زلت آخذ عدلا وأبيعه ، وأخذ فضله وأردّ عليه رأس المال ، حتى ركبت الدواب واشترت الرقيق وبنيت الدور »(1).

وهكذا نجد أن الأئمة عليهم السلام استندوا في جميع الموارد الحلّ العقد النفسية الى قوتي العلم والإيمان ، وبذلك أكدوا على دور الإيمان في الأخذ بيد الإنسان نحو طريق السعادة والكمال.

ص: 346

فهرس المحتويات

الصورة

□

ص: 347

الصورة

□

ص: 348

الصورة

□

ص: 349

الصورة

□

ص: 350

الصورة

□

ص: 351

الصورة

□

ص: 352

الصورة

□

ص: 353

الصورة

□

ص: 354

الصورة

□

ص: 355

الصورة

□

ص: 356

الصورة

□

ص: 357

الصورة

□

ص: 358

الصورة

□

ص: 359

الصورة

□

ص: 360

بسم الله الرحمن الرحيم
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(التوبة : 41)

منذ عدة سنوات حتى الآن ، يقوم مركز القائمة لأبحاث الكمبيوتر بإنتاج برامج الهاتف المحمول والمكتبات الرقمية وتقديمها مجاناً. يحظى هذا المركز بشعبية كبيرة ويدعمه الهدايا والنذور والأوقاف وتخصيص النصيب المبارك للإمام عليه السلام. لمزيد من الخدمة ، يمكنك أيضاً الانضمام إلى الأشخاص الخيريين في المركز أينما كنت.

هل تعلم أن ليس كل مال يستحق أن ينفق على طريق أهل البيت عليهم السلام؟
ولن ينال كل شخص هذا النجاح؟
تهانينا لكم.

رقم البطاقة :

6104-3388-0008-7732

رقم حساب بنك ميلات:

9586839652

رقم حساب شيبا:

IR390120020000009586839652

المسمى: (معهد الغيمية لبحوث الحاسوب).

قم بإيداع مبالغ الهدية الخاصة بك.

عنوان المكتب المركزي :

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آباده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلی، الرقم 129، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي 03134490125

هاتف المكتب في طهران 021 - 88318722

قسم البيع 09132000109 شؤون المستخدمين 09132000109.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
اصحان
الغمامي



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايضاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

